
بسم الله الرحمن الرحيم

القــــوة والوفــــرة

التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية

الجزء الأول

تأليف

رونالد فيندلاي

كيفين أورورك

ترجمة

د. مصطفى محمد قاسم

مكتب معالي مدير الجامعة

جامعة الملك سعود



دار جامعة الملك سعود للنشر

ص ب ٦٨٩٥٣ - الرياض ١١٥٣٧ - المملكة العربية السعودية

هذه ترجمة عربية مصرح بها من مركز الترجمة بالجامعة لكتاب :

Power and Plenty: Trade, war, and the World Economy in the Second Millennium
By: Ronald Findlay and Kevin H. O' Rourke

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيندلاي ، رونالد

القوة والوفرة : التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية. / رونالد فيندلاي ؛ كيفن أورورك ؛ مصطفى محمد قاسم– الرياض ، ١٤٣٥هـ –٢ مج

٤٥٦ص ؛١٧×٢٤سم

ردمك :٦- ٣١٩- ٥٠٧- ٦٠٣- ٩٧٨ (المجموعة)

٣- ٣٢٣- ٥٠٧- ٦٠٣- ٩٧٨ (ج١)

١- الحروب –اقتصاديات أ.أورورك ، كيفن (مؤلف مشارك) ب. قاسم ، مصطفى محمد (مترجم) ج. العنوان

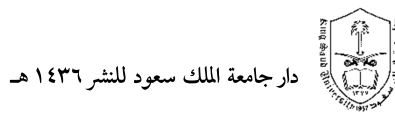
ديوي ٣٥٥.٢٣ ١٤٣٥/٨٣٣٠

رقم الإيداع: ٨٣٣٠/ ١٤٣٥

ردمك : ٦- ٣١٩- ٥٠٧- ٦٠٣- ٩٧٨ (المجموعة)

٣-٣٢٣-٥٠٧-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

حكمت هذا الكتاب لجنة متخصصة، وقد وافق المجلس العلمي على نشره في اجتماعه الخامس عشر للعام الدراسي ١٤٣٤هـ/ ١٤٣٥هـ المعقود بتاريخ ٢٤/ ٤/ ١٤٣٥هـ الموافق ٢٤/ ٢/ ٢٠١٤م.



دار جامعة الملك سعود للنشر ١٤٣٦ هـ

مقدمة المترجم

من أين ومتى جاءت قسمة العالم إلى أمم متقدمة وأخرى نامية، أو دول عالم أول ودول عالم ثان وثالث، أو إلى شمال أو غرب صناعي متقدم وغني وجنوب أو شرق زراعي نامٍ وفقير؟(١) ومن أين ومتى نشأ تقسيم العمل الدولي الذي جعل دولاً تتخصص في تصدير الصناعات ورأس المال، وجعل غيرها يتخصص في تصدير المواد الأولية؟ وإجمالاً، لماذا تعيش بعض الدول والشعوب اليوم في حالة من الغنى والوفرة، ويعيش غيرها في حالة من الفقر والعوز؟ وهل كانت الدول الغنية اليوم وفي الماضي القريب تتمتع بهذه الوفرة في الماضي البعيد، وهل كانت الدول الفقيرة اليوم

على طول صفحات الكتاب، يشير الرقم المذكور بين قوسين معقوفين [ ] إلى مراجع الكتاب التي جمعها المترجم في هوامش الكتاب بغرض تنقية النص من الكلمات الأجنبية قدر المستطاع، فيما يشير الرقم المذكور بين قوسين هلاليين مرتفعين ( ) إلى الهوامش التوضيحية التي ذيّل المؤلف والمترجم بها صفحات الكتاب، وقد ميّز المترجم حواشيه عن حواشي المؤلف بأن ختم حواشيه جميعاً بكلمة [المترجم].

(١) قبل قسمة العالم حديثاً إلى شمال وجنوب، كانت القسمة على مر التاريخ بين غرب وشرق. تجسد الغرب بداية في حضارتي شمال البحر الأبيض المتوسط –اليونان ثم روما– وتوسع لاحقاً إلى أوروبا الغربية بعد الصعود العربي في القرن السابع الميلادي، ثم إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية بعد اكتشاف العالم الجديد. وفي المقابل تجسد الشرق في الأعداء المتعاقبين للغرب السابق، بداية من فارس ومروراً بالخلافة العربية الإسلامية ثم الدولة العثمانية، ويشير توسعاً إلى العالم أجمع باستثناء أوروبا الغربية، مع استثناء أفريقيا جنوب الصحراء التي كانت دوماً "خارج التاريخ". وحالياً توسع مفهوم الشمال الذي حل محل مفهوم الغرب القديم ليشير إلى كل الدول الصناعية الغنية في العالم أينما كان موقعها، ويشير الجنوب الذي حل محل مفهوم الشرق القديم إلى الدول غير الصناعية والفقيرة في العالم أياً كان موقعها [المترجم].

وفي الماضي القريب تعاني الفقر والعوز في الماضي البعيد؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، فمتى حدث الافتراق في حظوظ الأمم، وما الأسباب التي دفعت تلك التحولات؟ وكيف كانت حالة الاقتصاد في مناطق العالم المختلفة على مدى الألفية الثانية التي أفرزت التحولات الاقتصادية والسياسية التي دفعت التفاوت في الحظوظ الاقتصادية للأمم والمناطق؟ وما العلاقة بين القوة والوفرة؟ وما دور الحروب في مسيرة الاقتصادي العالمي؟ وأين موقع المنطقة العربية والعالم الإسلامي في الاقتصاد العالمي على مدى الألفية الثانية التي شهدت العصر الذهبي للإسلام في أولها وتراجع الدول الإسلامية بداية من منتصفها؟ ولماذا حدثت الثورة الصناعية وتوابعها الاقتصادية والسياسية في الغرب وليس الشرق؟ ولماذا ظهرت الإمبرالية في الغرب وليس الشرق؟ وما الدروس التي يمكن أن نخرج بها من دراسة التجارة والاقتصاد العالميين على مدى الألفية الثانية؟

يقدم الكتاب الحالي بتناوله للتجارة العالمية عبر مناطق المعمورة كافة على امتداد الألفية الثانية، إجابات شافية عن هذه الأسئلة. ففي الاقتصاد وتاريخه توجد الإجابات عن كل التساؤلات الكبرى لعصرنا من النوع الوارد في الفقرة السابقة.

فمن يتطلع إلى أن يعرف السبب الرئيس وراء قوة الدول ومكانتها، عليه أن يوجه ناظريه مباشرة إلى الاقتصاد، ومن يريد أن يعرف البنية الحالية للنظام الدولي بقسمته إلى شمال صناعي غني وجنوب زراعي فقير، أو شمال وغرب مصدِّر للصناعات والتقنية وجنوب وشرق مصدِّر للمواد الأولية، أو شمال وغرب مهيمن وجنوب وشرق خاضع للهيمنة، أو شمال وغرب قوي عسكرياً وجنوب وشرق ضعيف عسكرياً، أو شمال وغرب إمبريالي استعماري حتى وقت قريب وجنوب وشرق خاضع ومستعمَر حتى وقت قريب، من يبتغي أن يعرف الأسباب وراء تلك القسمة، فعليه أن يفتش في التاريخ الاقتصادي.

تكمن قوة الدول سياسياً وعسكرياً في اقتصادها. ويشهد التاريخ العالمي، بداية من روما ومروراً ببيزنطة ثم الخلافة الإسلامية، ثم البرتغال وإسبانيا، ثم هولندا، ثم بريطانيا وفرنسا، وأخيراً الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، ومؤخراً الصين، على أن صعود القوى العظمى وأفولها دالة لاقتصاد الدولة. فالرخاء وقوة الاقتصاد شرط

ضروري، وإن لم يكن كافياً، لقوة الدولة سياسياً وعسكرياً. وأيضاً مع تراجع الاقتصاد، تتراجع قوة الدولة، بل وتكون عرضة للسقوط والفناء، كما تثبت تجربة الاتحاد السوفيتي القريبة.

ولذلك قَرَن عنوان الكتاب بين "القوة" و"الوفرة". فالوفرة شرط لازم لقوة الدولة، والقوة - بمعناها العسكري - شرط ضروري لثراء الدولة، وإن لم يكن بالصورة الفجة التي كانت عليها الحال إبان عصر النهب الاستعماري الصريح. ويدلل الكتاب على أن الوفرة كانت تؤدي حتماً إلى القوة، والقوة كانت تستخدم غالباً لتحقيق الوفرة. فقد كانت الوفرة والقوة على امتداد التاريخ الإنساني وجهين لعملة واحدة.

وإلى جانب اقتران قوة الدولة بثرائها والعكس، يثبت الكتاب أن الحروب كانت القوة الدافعة الأساسية للاقتصاد العالمي. "فلم تحدث أكبر التوسعات في التجارة العالمية بفعل التجريب السلمي للسوق من جانب بعض الدلالين الولراسيين(٢) المتخيلين، وإنما بفعل بندقية ماكسيم، أو حد السيف، أو ضراوة فرسان القبائل البدوية. وحين احتاجت التجارة مزيداً من العمال، كانت خيارات المواطنين القادرين على الإنجاب في ضوء مبادلات الكم/النوع تُنحَّى جانباً في أغلب الأحيان، ذلك لأن استرقاق العمال كان وارداً دائماً. وحين احتاجت التجارة إلى مزيد من الأرباح، كان ذلك يتحقق عن طريق النهب أو الاحتكارات المفروضة بالقوة". فعلى مدار معظم الألفية التي يغطيها الكتاب، كان نمط التجارة بالدرجة الأولى نتيجة لشكل من التوازن العسكري أو السياسي بين قوى متنافسة. وإذا كانت السياسة قد قررت مصير التجارة على النحو السابق، فإن التجارة هي الأخرى أسهمت في تقرير مصير السياسة، بتأثيرها على قدرات الدول والحوافز التي تحركها. وذلك هو الاعتماد المتبادل بين "القوة" و"الوفرة".

---

(٢) نسبة إلى عالم الاقتصاد الفرنسي ليون والراس Leon Walras الذي اشتهر بنظرية المبادلة والقيمة ونظرية التوازن العام، إذ يذهب إلى أن المبادلة تنشأ عن التداخل بين ظاهرتي الندرة والمنفعة اللتين تحددان قيمة المادة، وأن المحيط الاقتصادي عبارة عن سوق كبير يتوسطه أو ييسره المنظمون أو الدلالون الذين يشترون خدمات الإنتاج (الفلاحون والرأسماليون والعمال)، ومن خلال هذا التعامل التلقائي يحدث التوازن العام، وكذلك من خلال آليات السوق ممثلة في العرض والطلب [المترجم].

فقد كانت الحرب قوة دافعة من داخل النظام الاقتصادي العالمي. فالفترات المتعاقبة في تطور الاقتصاد العالمي يميّزها ويفصل بينها في الغالب اندلاع حروب كبرى أو توسعات إمبريالية، أدى كل منها إلى إضافة لبنات متتالية في صرح التجارة العالمية، فضلاً عن زيادة ثروة الدول المنتصرة، ثم قوتها بالضرورة. يدفع المؤلفان بأنه يمكن النظر إلى كل فترة من فترات تطور الاقتصاد العالمي على أن "التجارة فيها جرت ضمن إطار جيوسياسي حددته الحرب أو النزاع الرئيس السابق، وتعدل هذا الإطار بدوره باندلاع الحرب التالية، وبما مهد الطريق للحقبة التجارية التالية، وهكذا". فقد كانت التوترات الاقتصادية والجيوسياسية المتراكمة التي انطلقت في أثناء كل فترة من السلام والازدهار والتجارة، تبلغ ذروتها في دورات متعاقبة من النزاع، ما يكشف أن الحروب لم تكن صدمات من خارج النظام العالمي، وإنما جزء أصيل من طبيعة هذا النظام، كما تطور على مدار الألفية الماضية. ويتمثل الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة في الحرب العالمية الأولى لأسباب يعرضها المؤلفان في موضعها.

يقسم الكتاب العالم أو المعمور الأوراسي- الأفريقي[٣] في مطلع الألفية الثانية وفقاً للجغرافيا والثقافة والتاريخ السياسي إلى سبع "مناطق عالمية": (١) أوروبا الغربية، (٢) أوروبا الشرقية، (٣) العالم الإسلامي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، (٤) آسيا الوسطى، (٥) جنوب آسيا، (٦) جنوب شرق آسيا، (٧) شرق آسيا. ومع أن المؤلفين يقدمان خريطة لكل منطقة، فإن الشكل التالي للمناطق العالمية السبع على خريطة العالم يعطي تصوراً عاماً للمناطق السبع وامتدادها وجوارها الجغرافيين.

---

(٣) أوراسيا Eurasia كلمة منحوتة من كلمتي أوروبا وآسيا، وتشير بذلك إلى كتلة اليابسة الممتدة للقارتين في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والشرقي، إذ تمتد من المحيط الأطلسي في الغرب إلى المحيط الهادي في الشرق، يحدها شمالاً القطب الشمالي، وجنوباً أفريقيا والبحر المتوسط والمحيط الهندي. على أن المصطلح يتضمن أيضاً شمال أفريقيا نظراً لارتباطه الوثيق بأوراسيا على مدار التاريخ [المترجم].



خريطة للعالم توضح أمتداد المناطق العالمية السبع وجوارها الجغرافي.

يعرض الفصل الأول أسباب هذا التقسيم الذي يستخدم الكاثوليكية الرومانية الغربية والأرثوذكسية الشرقية محكاً لفصل أوروبا الغربية عن الشرقية، ويضيف القسطنطينية بعد سقوطها بيد الأتراك العثمانيين إلى العالم الإسلامي، ويبقي على إندونيسيا وعالم الملايو في جنوب شرق آسيا مع جيرانهم البوذيين، بدلاً من نقلهم إلى العالم الإسلامي بعد اعتناقهم الإسلام.

تبدأ قصة التجارة الدولية في الفصل الثاني من الكتاب مع منعطف الألفية الأولى. حينها كان العالم الإسلامي – ما يدعو للفخر والأسى في الوقت عينه – يعيش "عصره الذهبي" تحت حكم العباسيين والفاطميين والأمويين في بغداد والقاهرة وقرطبة على التوالي، بينما كانت أوروبا الغربية المنطقة أقل المناطق اتصالاً بالمناطق الأخرى وأقلها تقدماً في النواحي كافة. وعلى خلاف القسمة الاقتصادية العالمية الحالية، كان العالم الإسلامي يصدر إلى أوروبا الغربية السلع المصنعة وسلع الترف في مقابل العبيد الأوروبيين والمواد الأولية الأوروبية. وكان العالم الإسلامي، بالقيادة العربية عصرذاك، يشكل صرة الاقتصاد العالمي، فكان متصلاً بالمناطق الست الأخرى جميعها، وكانت شروط التجارة في صالحه.

شهد النصف الأول من الألفية الثانية التي يغطيها الفصل الثالث حدثين كانت لهما آثار كبرى على الحظوظ الاقتصادية للمناطق العالمية السبع، هما الهجمة المغولية

وتفشي موجات الطاعون. وقد كان للحدثين تأثيرات مختلفة على المناطق السبع. فما تسميه الأدبيات الغربية السلام المغولي[٤]، رفع أقواماً ونزّل أقواماً، وكانت محصلته النهائية إخراج أوروبا الغربية من عزلتها وتخلفها، وتكريس حالة التدهور التي كان العالم الإسلامي قد دخل فيها من قبل. والطاعون أيضاً أطلق توسعاً في السكان والناتج الاقتصادي والأسعار في أوروبا الغربية وجنوب شرق آسيا، بينما لم يتعاف العالم الإسلامي منه مطلقاً إلى وضعيته الاقتصادية السابقة.

وفي نهاية هذه الفترة تلقى العالم الإسلامي الضربة القاسمة الأخيرة باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وانطلاق رحلات الاستكشاف الأيبيرية التي دارت حول أفريقيا للوصول إلى الهند في حالة البرتغاليين، وطافت العالم بحرياً بعد اكتشاف الأمريكتين للوصول إلى شرق آسيا عبر المحيط الهادي في حالة الإسبان. يغطي الفصل الرابع الفترة ١٥٠٠–١٦٥٠ التي شهدت النتائج بالغة الأهمية لهذين الحدثين على العالم الجديد والقديم. فبالنسبة للعالم الجديد، فقد ابتعلته القوتان الأيبيريتان – البرتغال وإسبانيا – وأبادتا الشعوب الأمريكية الأصلية وكونتا إمبراطوريتين واسعتين، أخذت الفضة تتدفق منهما إلى أوروبا، ومنها إلى بقية العالم عبر تجارة المسافات الطويلة البحرية والبرية مع جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا وبقية مناطق العالم. وكان من النتائج الكارثية لهذه التحولات على العالم الإسلامي فقدانه السيطرة على التجارة العالمية ودخوله في حالة من التدهور والضعف بسبب الأزمة الاقتصادية، انتهت بسيطرة الأتراك العثمانيين على المنطقة العربية في جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا. وهذه الحالة مثال واضح لاقتران القوة بالوفرة.

فبعد أن كان العالم الإسلامي في بداية الألفية يمثل "المركز" وأوروبا تمثل "المحيط" الاقتصادي، وبعد أن كانت أوروبا تتخصص في السلع غير المصنعة، باستثناء واحد أو

---

(٤) تشير عبارة "السلام المغولي" Pax Mongolica إلى تأثيرات الفتوحات المغولية الداعمة للاستقرار والسلام على الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لسكان أوراسيا التي غزاها المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، والعبارة وأمثالها سُكّت على منوال عبارة "السلام الروماني" التي تشير إلى التأثيرات نفسها للغزو الروماني لحوض البحر الأبيض المتوسط وغرب أوروبا في القرنين الأول والثاني الميلاديين [المترجم].

اثنين موثقين جيداً، مثل السيوف الفرنجية، في مقابل مواد مصنعة وسلع فاخرة عالية القيمة من العالم الإسلامي، انقلب المد وأخذت الصناعات والمواد الأولية تتدفق في الاتجاه العكسي. ومع التراجع الصناعي في المناطق المملوكية في منتصف الألفية، أدى هذا الانقلاب التدريجي للأنماط التجارية التي سادت سابقاً بين الشريكين إلى وضع أوروبا في صورتها التقليدية باعتبارها "المركز" الاقتصادي، فيما وجد العالم الإسلامي نفسه يلعب دور "المحيط" أكثر فأكثر.

يغطي الفصل الخامس عصر المركنتيلية الممتد من العام ١٦٥٠ إلى العام ١٧٨٠. وفيه حققت أوروبا الغربية الوفرة بفضل القوة، أي بفضل التمكن من تقنية الملاحة والمدافع والأسلحة النارية الحديثة. وأنتجت الوفرة بدورها المزيد والمزيد من القوة، أدت في النهاية إلى سيطرة أوروبا الغربية على معظم العالم في الحقبة الإمبريالية. شهد عصر المركنتيلية الصراع الطويل على الهيمنة على الاقتصاد العالمي المنبثق بين الجمهورية الهولندية وبريطانيا العظمى وفرنسا، وكذلك التوسعات البرية لإمبراطورية رومانوف القيصرية وإمبراطورية مانشو تشينغ الصينية من الطرفين المتقابلين لآسيا الوسطى.

يقطع الفصل السادس السرد التاريخي ليقف أمام القفزة التي حدثت في النمو الاقتصادي الحديث في شمال غرب أوروبا، وتحديداً في بريطانيا العظمى، مع منعطف القرن التاسع عشر، وهي الثورة الصناعية. يؤكد المؤلفان أن الثورة الصناعية، مع أنها أطلقت قوى اقتصادية حددت المسار المستقبلي للتجارة الدولية إلى يومنا هذا، كانت هي نفسها – من ناحية أخرى – نتاجاً للاتجاهات السياسية والاقتصادية التي سبقتها. فالثورة الصناعية – في رأي المؤلفين – لم تنطلق فجأة من فراغ أو نتيجة لرؤى إبداعية لمجموعة من المخترعين في شمال إنجلترا أو نتيجة لعبقرية الشعب الإنجليزي إبان أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، بل كانت وحسب نقطة الذروة في عملية تاريخية طويلة تضمنت تفاعل مناطق العالم كلها من خلال التجارة ونقل التقنية، فضلاً عن استخدام القوة المسلحة. وقد دفعت الثورة الصناعية بدورها تحولين كبيرين في الاقتصاد العالمي يغطيهما الفصل السابع، وهما "التباعد الأكبر" في مستويات

النمو والدخل بين المناطق العالمية مع الانتشار التدريجي للتقنيات الجديدة عبر الكرة الأرضية، "والتخصص الأكبر" بين المركز الصناعي والمحيط المنتِج للمواد الأولية، والضغوط الناتجة من أجل حماية الزراعة في المركز والصناعة في المحيط، وهما التحولان اللذان ظلا يسمان الاقتصاد العالمي حتى العقود الأخيرة من القرن العشرين التي بدا فيها الانحلال التدريجي لهذين الاتجاهين مع انتشار الثورة الصناعية لتغطي نسبة متزايدة من سكان الكوكب.

وبعد الوقوف أمام الثورة الصناعية باعتبارها نتيجة للتطور الاقتصادي العالمي السابق وقوة دافعة أساسية لتطوره اللاحق، يستأنف الفصل السابع سردية التجارة العالمية على مدى "القرن التاسع عشر" الذي عُرِف سياسياً بالسلام البريطاني والإمبريالية الأوروبية، وتميّز اقتصادياً بنتائج تقنية البخار الجديدة ممثلة في السكك الحديدية والباخرة. ويدفع المؤلفان بأن هذه الفترة من عمر التجارة كانت أكثر الفترات عولمة وانفتاحاً في تاريخها، أكثر حتى من أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين. تجلت هذه العولمة وذلك الانفتاح في الانكماش المتنامي في فجوات الأسعار عبر القارات للسلع كبيرة الحجم بين الدول المصدرة والمستوردة على نطاق واسعٍ حول العالم، وذلك بفضل التراجع الشديد في تكاليف النقل. وشهدت هذه الفترة أيضاً– كما ورد قبل قليل – انبثاق "التخصص الأكبر" الذي جعل أوروبا الغربية، ثم الولايات المتحدة واليابان لاحقاً، تتخصص في تصدير السلع المصنعة إلى آسيا وأفريقيا وأستراليا وأمريكا اللاتينية، وتستورد منها – في المقابل – المواد الأولية، وجعل أوروبا أيضاً تصدّر رأس المال إلى هذه المناطق جميعاً، وتصدّر البشر إلى الأمريكتين وأستراليا. ومع أن هذا القرن "الأوروبي" بامتياز نتاج للقرون والتطورات الاقتصادية والسياسية السابقة، فإليه تحديداً ترجع فجوة الدخل وتقسيم العمل الدولي المشار إليهما آنفاً. على أن الانفتاح التجاري الذي شهده هذا القرن كان مفروضاً على العالم غير الغربي من جانب الغرب الاستعماري الذي فتح الدول الأخرى سوقاً لمنتجاته وموّرداً للمواد الأولية، وأغلق أسواقه في حالات كثيرة – ربما باستثناء إنجلترا فقط – أمام المستعمرات، إلا كموّرد للمواد الأولية، وذلك أحد أسباب القسمة الحالية في الاقتصاد الدولي.

ووصل "العصر الذهبي للعولمة" نهايته المأساوية وغير المتوقعة مع اندلاع الحرب العالمية الأولى التي أحدثت "ردة" عن العولمة. فأخذت القوى الصناعية الصاعدة – مثل ألمانيا والولايات المتحدة – والدول المستوّردة للغذاء بأوروبا وجمهوريات أمريكا اللاتينية وممتلكات الإمبراطورية البريطانية، ترفع التعريفات الجمركية، وبدا العالم الجديد يُظهِر ممانعة للانفتاح أمام الهجرة الجماعية. وكما هي الحال دائماً، أوجبت الحرب استخدام التعريفات والحواجز الجمركية وغير الجمركية بغرض خدمة المجهود الحربي. وكما هي الحال دائماً أيضاً، أنتج ذلك رابحين وخاسرين على المستوى الدولي والوطني، وأينما كان الرابحون أقوياء سياسياً، كان النجاح حليفهم في الإبقاء على تدابير وإجراءات زمن الحرب في زمن السلم. حدث ذلك في أوروبا الغربية والشرقية والعالم الجديد، بينما ظل العالم القديم المستعمَر في أفريقيا وآسيا يخضع لسياسات الانفتاح التجاري المفروضة من جانب المستعمرين، وإن كانت بعض أجزائه قد شهدت بعض التصنيع والازدهار بسبب انكماش الصادرات الأوروبية الغربية في أثناء الحرب، كما حدث مثلاً في الهند ومصر.

نجح الرابحون من إجراءات زمن الحرب في الحفاظ على الانغلاق التجاري لاقتصاداتهم في سنوات ما بين الحربين العالميتين، التي يغطيها الفصل الثامن. ثم جاء الكساد الكبير في نهاية العقد الثالث من القرن العشرين ليكرس الردة عن العولمة. وقد تجلى ذلك في عودة فجوات أسعار السلع عبر القارات إلى سابق عهدها، وذلك بالدرجة الأولى بسبب الحواجز أمام التجارة وعدم إسهام انخفاض تكاليف النقل بدرجة كافية في دفع التبادل التجاري.

يغطي الفصل التاسع الحرب العالمية الثانية وآثارها على التجارة والاقتصاد الدوليين. أنتجت هذه الحرب القوتين العظميين اللتين قدر لهما الهيمنة على السياسة العالمية على امتداد العقود الأربعة التالية، حتى انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة. تميزت هذه الفترة بتأسيس السلام الأمريكي والمؤسسات الدولية متعددة الأطراف التي تأسست برعاية الولايات المتحدة، والتحولات السياسية التي نتجت

أولاً عن انتشار الشيوعية ثم عن انهيارها، وتصفية الاستعمار الشاملة في مناطق العالم الثالث. لكن على خلاف ما حدث إبان القرن التاسع عشر وما كان يحدث عادة بعد هيمنة قوة واحدة على المعمور الأوراسي- الأفريقي، شهدت فترة ما بعد الحرب تكريساً لتفكك الاقتصاد العالمي. وعلى خلاف الفترة السابقة أيضاً، كانت الاقتصادات الغربية هي الأسبق في فتح أسواقها وإزالة الحواجز أمام التجارة الدولية، بينما بدأت الدول حديثة الاستقلال في آسيا وأفريقيا في استخدام حريتها السياسية التي نالتها حديثاً في غلق أسواقها وتبني سياسة إحلال الواردات. وشهدت هذه الفترة أيضاً توسعاً غير مسبوق للناتج والتجارة العالميين نتيجة لتحرير التجارة والنمو في الدول الصناعية وانتشار التقنية إلى "الدول حديثة التصنيع". ومع النمو السريع في الصادرات المصنعة من هذه الدول، وبخاصة الصين والهند، بدأت فجوات الدخل الضخمة التي كانت تفصل هذه المناطق حديثة الازدهار عن أوروبا الغربية منذ الثورة الصناعية في التراجع. وفي العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وتحديداً في العقد الأخير منه، بدأت الدول النامية في أنحاء العالم كافة تندمج ثانية في الاقتصاد العالمي، فتخلت عن سياسة إحلال الواردات، وفتحت أسواقها للواردات الأجنبية، بل وأصبحت تتنافس على الاستثمار الأجنبي.

وفي ضوء ما سبق، يستخلص الفصل العاشر والأخير الدروس المتعلمة من تاريخ التجارة العالمية، ويبرز التحديات التي تواجه العولمة، التي يصنفها إلى تحديات سياسية وأخرى اقتصادية. وعلى خلاف الدور الرئيس الذي لعبته الحرب في دفع التجارة العالمية على مدار الألفية الثانية، يؤكد الفصل الختامي أن السلام والدمج السلمي للاقتصاد العالمي هو السبيل الوحيد لاستمرار اندماج الاقتصاد العالمي وانتشار الرخاء والازدهار عبر أرجاء الكوكب كافة. يقيِّم الفصل النقطة التي وصلت إليها المناطق العالمية السبع في نهاية الألفية. وفيما يتعلق بمنطقتنا العربية، يَخْلُص المؤلفان إلى أنها أكثر المناطق تراجعاً في النمو الاقتصادي والقوة والوفرة بالنظر إلى مكانتها في بداية الألفية. فبعد أن كانت محور الاقتصاد العالمي في مطلع الألفية التي شهدت عصرها الذهبي، أصبحت الأقل نمواً والأقتم مستقبلاً بين مناطق العالم السبع، لا يليها في

ذلك إلا أفريقيا جنوب الصحراء، وإن كانت احتياطات النفط قد احتفظت لها بأهميتها الأولى.

وبعد أن استعرضنا موضوعات الفصول، بقي أن نقول بضع كلمات حول الأفكار الكبرى للكتاب وما تثيره حول تاريخ مجتمعاتنا وحاضرها ومستقبلها.

إن للعولمة خصوماً وأعداء، في شقيها الاقتصادي والسياسي، بيننا هنا وفي الغرب أيضاً، وإن كان لأسباب مختلفة. تضم الفئة الأولى من أعداء العولمة الاقتصادية الخاسرين من جرائها، مثل العمال غير المهرة ومنخفضي التعليم أو منتجي المواد الغذائية والأولية المحميين في الشمال والغرب أو المستفيدين من الحماية الصناعية في الجنوب والشرق. وتضم الفئة الثانية الأشخاص الذين ينظرون إلى العولمة في بعدها السياسي فقط ممثلاً في الهيمنة الأمريكية. على أن الهيمنة السياسية سمة لصيقة بالسياسة والاقتصاد الدوليين منذ زمن الامبراطوريات القديمة. فالحرية التجارية والانفتاح الاقتصادي عززتهما دائماً ووقفت وراءهما القوة السياسية المهيمنة عالمياً، وإن كان لأسباب أنانية تتعلق بمصالحها هي بالدرجة الأولى. لكنه السعي الأناني وراء المصلحة الخاصة من النوع الذي تنتج عنه مصالح عامة تعم غالبية الأمم والشعوب. وقد مارست الدولة الإسلامية هذا الدور الداعم للعولمة والراعي لها حين كانت القوة المهيمنة عالمياً، وحين امتد سلطانها الفعلي من ساحل غانة على المحيط الأطلسي إلى وادي فرغانة في آسيا الوسطى. بل ويمكن القول إن العولمة الاقتصادية الحديثة نشأت في أثناء فترة الهيمنة الإسلامية، التي جاب فيها التجار المسلمون أرجاء الأرض وبحارها المعروفة كافة ينقلون التجارة، وكانت بلادهم مركز الاقتصاد العالمي، فيما كانت المناطق الأخرى، وبخاصة أوروبا الغربية، أطرافاً أو محيطاً متخلفاً وراكداً.

يبرهن تاريخ الاقتصاد العالمي، بما لا يدع مجالاً للشك، أن الحرية التجارية والانفتاح الاقتصادي مفيدان للجميع على المدى البعيد - المنتجين والمستهلكين - في الشمال الغني وفي الجنوب الفقير على حد سواء. ومع التقدم في تقنيات النقل وانخفاض تكلفته وتبني المؤسسات الدولية والقوى الكبرى للتجارة الحرة - وإن كانت الولايات المتحدة لا تزال مترددة في لعب دور حامي التجارة الحرة بسبب ممارستها هي نفسها

للحماية في قطاعات كثيرة – سيقوى عود العولمة الاقتصادية ويشتد أكثر وأكثر. وحينها سيكون العالم كله سوقاً واحداً يشتري منه الجميع – فقراء وأغنياء – بقدر طاقتهم، والأهم من ذلك بأسعار لا تختلف كثيراً بين الدول المصدرة والدول المستوردة. وفي هذه البيئة التنافسية، تتقدم الصناعات الوطنية حتماً، وتتمتع عن السلع المستوردة بميزة القرب الجغرافي وانعدام تكاليف النقل.

تُرى هل هذا الواقع والمستقبل المنظور – العولمة الحالية وتكثيفها اندماج الاقتصاد الدولي– أفضل للأفراد والشعوب في مناطق العالم الغنية والفقيرة كافة، أم ماض كانت الجماعات والشعوب المتجاورة فيه منعزلة لدرجة أن شعباً كان يمكن أن يواجه مجاعة مدمرة، بينما يتمتع شعب آخر يعيش على حدوده بالوفرة؟ في الاقتصاد العالمي المفكك يكون الاكتفاء الذاتي هو القاعدة، ومن يحقق وفرة في منتجاته، إن حققها أصلاً بدون الأسواق العالمية المنفتحة، لا يجد سوقاً لفائضه، ومن يكابدْ نقصاً يواجه المجاعة والفناء، وتتبادل الشعوب والأمم هذه الأحوال. بينما يسمح الاقتصاد العالمي المندمج بنقل المنتجات من مناطق الوفرة إلى مناطق الندرة، وبأسعار تقترب شيئاً فشيئاً إلى التساوي بين بلد المنشا والدولة المستوردة.

وقد استفادت انجلترا – الدولة الرائدة للنمو الاقتصادي الحديث والثورة الصناعية – من هذه الآلية التي جعلت العالم كله مصدراً للمواد الأولية لصناعاتها – القطن على الأخص– وسوقاً لمنتجاتها، لولاه لما تقدمت هذه الصناعة وما استمرت، ولاصطدمت بقيود النمو الداخلي في النظرية المالتوسية. فلو كان سوق المواد الأولية والمنتجات الصناعية البريطانية قاصراً على بريطانيا، لواجهت نقصاً في المواد الأولية ولتشبع السوق المحلي، ما كان من شأنه أن يكبح النمو الاقتصادي. كما شكّلت أراضي أيرلندا، ثم أراضي العالم الجديد، إضافة إلى أراضي بريطانيا، في ظاهرة أسماها المؤرخون الاقتصاديون "الهكتارات الشبحية"، حيث مكّنتها من إطعام سكانها الآخذين في التزايد وتخصيص مساحات أكبر من أراضيها للمحاصيل النقدية.

ربما يغيب عن الرافضين للعولمة الاقتصادية في مجتمعاتنا أن معظم شعوبنا تحتاج إلى هذه العولمة ليس لتحصيل السلع المصنعة ومنها الأسلحة وحسب، بل أيضاً

لتحصيل طعامنا الذي أصبحنا نستورد جزءاً كبيراً منه من الخارج. في حين أن الغرب الذي لا يزال يتخصص في الصادرات الصناعية، يتفوق أيضاً في إنتاج المواد الغذائية، بفضل التربة الخصبة الواسعة والمياة الوفيرة والمناخ الأقرب إلى الاعتدال. ومن الغريب لذلك أن تجد من يعتمدون في طعامهم على العولمة الاقتصادية يحاربون هذه العولمة.

ربما يخفف من حالة العداء للعولمة الاقتصادية الراهنة وما صحبها من نمو اقتصادي أن نؤكد على أنها نتاج لكدح البشرية كلها، كما يبرهن الكتاب الحالي. فالكتاب يبرهن على أن منطقة واحدة من مناطق العالم السبع، أياً كانت، لم تنتج وحدها أياً من الأحداث التحويلية الثلاثة الكبرى في التاريخ العالمي إبان الألفية الثانية، وهي الطاعون الذي تفشى إبان القرن الرابع عشر والاستجابات المختلفة له، واكتشاف العالم الجديد ودمجه في العالم القديم مع منعطف القرن السادس عشر، والثورة الصناعية مع منعطف القرن التاسع عشر، ناهيك عن أن تكون منطقة واحدة مسؤولة عن ثلاثتها مجتمعة. فقد نتج الحدث الأول عن السلام المغولي الذي أرْسَته القبائل البدوية من آسيا الوسطى، لكن دعمته وشاركت فيه بقوة المناطق الست الأخرى جميعها. وكان الأوروبيون الغربيون أول مَنْ أبحر من الأوراسيين إلى العالم الجديد، بينما كان الأفارقة - رغماً عنهم بالتأكيد - هم الذين أنتجوا كثيراً من السلع التي صدّرها العالم الجديد إلى العالم القديم. وحدثت الثورة الصناعية في أوروبا الغربية، وتحديداً في بريطانيا، بينما كان الأفارقة في الأمريكتين هم الذين أنتجوا المواد الخام الأساسية اللازمة لقطاعها القيادي - القطن - وكانت منتجاتها النهائية تباع في الأسواق في مختلف أرجاء العالم.

على أن هذه الرؤية لا تزال متمركزة حول أوروبا ومنحازة لها، رغم سعي المؤلفين الواعي والمقصود لتبني رؤية كونية غير منحازة. فـ"السلام المغولي" الذي يدفع المؤرخون الغربيون بأنه كان القوة الدافعة الأولى للتجارة العالمية وإخراج أوروبا الغربية من عزلتها وتخلفها وركودها، كان كارثة على العالم الإسلامي الذي وقع في معظمه تحت السيطرة المغولية، واشتد بذلك تدهوره الاقتصادي والسياسي أمام أوروبا الغربية، حتى وإن نجح في استيعاب المغول في حظيرته الدينية. فقد كان السلام المغولي

سلاماً واستقراراً وازدهاراً لأوروبا، بينما كان خراباً ودماراً للعالم الإسلامي. ربما لذلك أيضاً أطلق الفكر الغربي مصطلح "السلام" على كل فترات الهيمنة السياسية التي أنتجت تأثيرات داعمة للاستقرار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، بداية من السلام الروماني، ومروراً بالسلام المغولي والبريطاني، وحتى السلام الأمريكي. بينما لم يمنح فترة الهيمنة الإسلامية "سلاماً" مماثلاً، وذلك بالدرجة الأولى نتيجة للجوار الجغرافي بين العالم الإسلامي وأوروبا الغربية الذي جعل الهيمنة العربية خصماً من مصلحة أوروبا الغربية، ونتيجة لحالة العداء والحروب الدينية التي استمرت قروناً بين العالمين، ممثلة في الفتوحات الإسلامية على حساب القوى الغربية مثل بيزنطة في المشرق والقوط الغربيين في أيبيريا والحروب الصليبية على الأراضي الإسلامية لاحقاً.

غير أن هذا العداء لم يمنع التجارة بين العالم الإسلامي من جانب والعالمين الغربي الكاثوليكي والشرقي الأرثوذكسي من جانب آخر، حتى في أشد لحظات الصراع. فرغم تحريم الإمبراطور البيزنطي لبيع الأسلحة للعالم الإسلامي، كانت السيوف الفرنجية تشق طريقها إلى الشرق، والأهم منها العبيد السلافيون أو الصقالبة الذين تولوا العمل العسكري في العالم الإسلامي في مرحلة مبكرة. وظل المسلمون يتاجرون مع "الكفار" من كل الملل، من البوذيين في آسيا إلى الوثنيين في أفريقيا جنوب الصحراء إلى المسيحيين في غرب أوروبا وشرقها وحتى شمالها. وهناك فرضيات أيضاً تذهب إلى أن الدول الإسلامية لم تفرض حصاراً على أوروبا الغربية، على خلاف ما يقول البعض، ومنهم بيرين في أطروحته "لولا النبي محمد لما كان شارلمان" التي يعرضها الفصل الثاني. والأهم من ذلك كله بالنسبة للغرب أنه لولا هذا العداء لما انطلقت أوروبا الغربية إلى الاستكشاف البحري الذي مكنّها من الدوران حول أفريقيا للالتفاف على سيطرة العالم الإسلامي على التجارة مع جنوب آسيا وشرق آسيا وجنوب شرق آسيا. وفي أثناء هذا الالتفاف، "تعثر" الأيبيريون في الأمريكتين، وتلتهم القوى الغربية الأخرى في استعمارهما. وقد كان ذلك بلا شك العامل الأول في تأكيد قوة الغرب على العالم الإسلامي.

بل إن بحث كريستوفر كولومبس عن طريق جديد إلى جزر الهند الشرقية كان يُقصَد به جزئياً توجيه هجوم مزدوج على الإسلام من الشرق والغرب. ولذلك اصطحب كولومبس معه مترجماً يهودياً يتحدث اللغة العربية، وبدا هذا المترجم في التحدث باللغة العربية مع السكان الأصليين المشدوهين في كوبا التي "تعثروا" بها وهم في طريقهم إلى رأس الرجاء الصالح، اعتقاداً منه ومن كولومبس بأنهما نزلا على أرض إسلامية. ولذلك أيضاً وعد كولومبس في رسالته إلى الملكين الكاثوليكيين فيردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية التي كتبها في العام ١٤٩٣، بأنه "في خلال سبعة أعوام من اليوم سيمكنني أن أزود جلالتكم بخمسة آلاف فارس وخمسين ألف جندي مشاة للحرب وغزو أورشليم الذي من أجله بدأنا هذا العمل"(٥). فقد كان العالم الإسلامي حيئنذ هو القوة المهيمنة، وجاءت رحلات الاستكشاف للالتفاف عليه وعلى سيطرته على التجارة العالمية. فالعولمة الحديثة التي يرجعها الغرب إلى الهيمنة البريطانية أو "السلام البريطاني" ترجع قبل ذلك إلى الهيمنة العربية أو "السلام العربي".

وإلى جانب تأكيد أهمية العولمة الاقتصادية والاندماج الاقتصادي العالمي، يبرز الكتاب دروساً أخرى، يؤكدها التاريخ الاقتصادي، منها ثبات فشل سياسة إحلال الواردات من خلال غلق الأسواق الوطنية في وجه المنتجات الأجنبية. ففي العقدين الأخيرين من القرن العشرين تخلت الدول النامية جميعها عن هذه السياسة وفتحت أبوابها واندمجت في الاقتصاد العالمي، لأن المنافسة وحدها هي القادرة على تقوية الصناعات الوطنية، وقبل ذلك توفير المُنتَج للمستهلك بأقل سعر وأعلى جودة، أياً كان مصدر هذا المنتج، وطنياً أم مستورداً. فقد ثبت أن الصناعات المحمية تظل عاجزة عن المنافسة وتترمم على الدولة وتبتز المستهلكين لصالح بضعة أفراد وليس لصالح الدولة أو شعبها.

ومما يرتبط بذلك أن النموذج الذي أثبت فعاليته لإدارة الاقتصاد هو نموذج الاقتصاد الحر والمشروع الخاص، وليس القطاع العام أو ملكية الدولة لأدوات الإنتاج

---

(٥) ماثيو كار، "الدين والدم – إبادة شعب الأندلس"، ترجمة مصطفى قاسم، أبو ظبي: مشروع كلمة- هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٣.

أو التخطيط المركزي للاقتصاد. لكن للدولة - مع ذلك - دوراً لا غنى عنه في تنظيم الاقتصاد ودفعه للأمام، من خلال توفير الأمن على الحياة والمِلكية، وتوفير البيئة التشريعية المواتية، وفرض القانون والنظام. وإضافة إلى دور الدولة - الحارس هذا، أثبتت تجربة الدول حديثة التصنيع في شرق آسيا وجنوب شرق آسيا أن الدولة يمكن أن تلعب دوراً كبيراً من خلال توفير الريادة في مجالات معينة ترى ضرورة توجيه الاقتصاد الوطني إليها. على أن ذلك لا يعني أن تتخلى الدولة عن دورها الاجتماعي. فالدولة من خلال الضرائب ودخولها الأخرى تستطيع أن تمارس إعادة التوزيع وتحقق العدالة الاجتماعية دون أن تكبح النمو الاقتصادي باقتطاع جزء كبير من الناتج المحلي لأغراض إعادة التوزيع.

ثمة درس آخر - وليس أخير - من قراءة التاريخ الاقتصادي العالمي يتعلق بالعلاقة بين الاقتصاد والسياسة بمعنى إدارة الدولة. وهو الفرق الذي أوجزه أودوفيتش - كما يرد في الفصل الثاني من هذا الكتاب - بالقول إن "التاجر في الدول المدينية(٦) الإيطالية كان بوسعه أن يقول L'etat c'est moi [الدولة أنا]"، بينما لم "يكن بوسع التاجر في مصر الفاطمية إلا أن يقول L'etat n'est pas contre moi [الدولة ليست ضدي]". هذا في عصر قوة الدولة المصرية والعربية وازدهارها، وليس في عصر تراجعها وأزمتها الاقتصادية الذي امتصت الدولة فيه هذا التاجر واستنزفته حتى فرّ وهاجر، كما حدث مع تجار الكارم.

فقراءة التاريخ الاقتصادي توضح أن الاقتصاد كان محور تاريخ الغرب، بينما كانت السياسة محور تاريخ الشرق. فالاقتصاد ونفع أصحاب المصالح الخاصة- وليس الشعب بالضرورة - كان القوة الدافعة للسياسة وإدارة الدولة في الغرب على مدى قرون تفوقه، حتى أن أحداثاً كبرى مثل الاستعمار والحروب قامت لأسباب اقتصادية

---

(٦) الدولة المدينية أو الدولة- المدينة city-state كيان سياسي مستقل أو قائم بذاته، يتكون إقليمه من مدينة واحدة، أو مدينة واحدة كبيرة وملحقاتها، من أمثلتها التاريخية المدن السومرية في بلاد ما بين النهرين مثل بابل وأور، ومدن كنعان الفينيقية مثل صور وصيدا، ومن أشهر أمثلتها التاريخية المدن اليونانية مثل أثينا وأسبرطة وثيفا وكورينث، ومن أمثلتها المعاصر إمارة موناكو وسنغافورة والفاتيكان [المترجم].

تتعلق في الأساس بمصالح المنتجين والتجار. ربما كانت إنجلترا المثال الأوضح لذلك بعد ثورتها المجيدة وهيمنة البرلمان المُمَثِّل لأصحاب المصالح الإنتاجية والتجارية. أليس غريباً على عقولنا الشرقية أن يبدأ استعمار البرتغال ثم هولندا ثم انجلترا ثم فرنسا لجنوب شرق آسيا وجنوب آسيا وشرق آسيا بشركات خاصة ربحية مدعومة من الدولة، كوّنت مع السنين جيوشاً مستقلة عن دولها؟ أليس غريباً على أذاننا الشرقية أن نسمع أن إخضاع هولندا لجنوب شرق آسيا جرى عبر شركة الهند الشرقية الهولندية؟ أليس غريباً على أفهامنا الشرقية أن تكون درة التاج الإنجليزي- الهند- قد فُتِحت وأن الإمبراطورية المغولية الهندية قد هُزِمت على يد شركة الهند الشرقية البريطانية؟ لا ترجع هذه "الغرابة" بالتأكيد إلى نقص في عقولنا، وإنما إلى غياب هذه الظاهرة عن مخزوننا التاريخي والثقافي.

وفي المقابل كانت السياسة هي التي تتحكم في الاقتصاد على مدار تاريخ الشرق. فكان الصراع على السلطة في الداخل، وليس الربح من الخارج، هو القاعدة. وكان الحكام يتعاملون مع التجار وملكياتهم وأرباحهم باعتبارها ممتلكات عامة في حال الضرورة. فبدل أن تسترشد السياسة بمنافع الاقتصاد وأصحاب المصالح، فتفتح لهم آفاقاً في الخارج وتضع السياسات الاقتصادية التي تحقق مصالحهم، كما كانت الحال في الغرب، كان الحاكم الشرقي ينظر إلى التاجر والمنتج باعتبارهما مصدر للدخل وأحياناً الرشى والإتاوات في حالة اليسر، والمصادرة في حالة العسر[٧].

نعم إنها فكرة "الزواج بين الدولة ورجال الأعمال" التي دُفِع بها كثيراً كأحد الأسباب وراء الثورات العربية! وهي فكرة وإن كانت تبدو مقيتة وضارة في حال غياب العدالة الاجتماعية ورفع الدولة يدها عن حماية الفقراء واصطفافها في صف رجال الأعمال على حساب الشعوب، إلا أنها – أي الفكرة – أحد الدروس الواضحة من

---

(٧) أخشى أن تكون هذه الفكرة إعادة إنتاج لنظرية الاستبداد الشرقي التي تقول إن الشرق- المدن الكبيرة بالشرق الأوسط وآسيا- تتابع عليه طواغيت لا هم لهم إلا جمع الجزية، وذلك بسبب الموقع الجغرافي لهذه المدن ونظام علاقات الإنتاج وملكية وسائل الإنتاج فيها، الذي أطلق عليه كارل ماركس "نمط الإنتاج الآسيوي". لكن هذه الفكرة أحد الدروس الأساسية التي تفرض نفسها على قارئ التاريخ الاقتصادي العالمي [المترجم].

قراءة التاريخ الاقتصادي، وهو تحديداً أن الدولة يجب أن تهيئ لرجال الأعمال الظروف المواتية لعملهم، لكنها في المقابل يجب أن تأخذ منهم لتحقيق العدالة الاجتماعية وحماية الفقراء والضعفاء. ويمكن تلطيف هذه النتيجة الصادمة للبعض بالقول إن هذا الزواج لا يكون شرعياً حين يتخذ شكل الحماية الاحتكارية لأصحاب المصالح على حساب المستهلكين بغرض تقاسم المكاسب مع رجال الدولة، أو حين تتساهل الدولة في جمع الضرائب المستحقة من رجال الأعمال لإنفاقها على الفقراء والضعفاء.

وإجمالاً، فمع الاعتراف باستمرار وجود الفقر في أماكن كثيرة من عالمنا المعاصر، فلا مناص من الاعتراف بأن ثمة تحولاً نحو الوفرة قد حدث على مستوى العالم كله. فبعد أن كان الفقر والجهل والمرض والأوبئة والمجاعات المتكررة والعزلة حتى بين أقرب الجماعات لبعضها جغرافياً وثقافياً، هي القاعدة الحاكمة على مر التاريخ الإنساني، بدأت الوفرة والرخاء يعمان البشرية، منطلقين من أوروبا الغربية إلى بقية أرجاء الكوكب، ويوماً بعد يوم يغطيان أعداداً أكبر من سكان الكوكب، من منظور الزمن الطويل بالتأكيد، وليس من منظور جيل واحد أو حتى قرن واحد. وقد كان النمو الاقتصادي الحديث المدفوع بالتقنية والتصنيع واندماج الأسواق الدولية القوة الدافعة وراء تلك الوفرة. ومن المأمول أن تسهم الدروس المتعلمة من الأمم التي سبقتنا على مضمار النمو الاقتصادي في ترشيد السياسات الاقتصادية وتنوير الجمهور حول قضايا كبرى مثل العولمة والانفتاح الاقتصادي والحرية التجارية ودور الدولة في الاقتصاد وغيرها مما يكشف عنه التاريخ الاقتصادي المقدم في هذا الكتاب.

وأخيراً، يأمل المترجم أن يكون هذا الكتاب إضافة للاقتصاديين - ممارسين أو دارسين - وللمؤرخين الاقتصاديين وعلماء السياسة والاجتماع والأنثروبولوجيا، وقبل هؤلاء للقارئ العام المهتم بالعولمة والمعني بفهم جذور الاقتصاد الدولي في أوائل القرن الحادي والعشرين. فمن الدروس الأخرى المهمة للتاريخ الاقتصادي أن السياسيين وصناع السياسات يجب أن يؤمِّنوا القبول الجماهيري للسياسات الاقتصادية، بالتنوير والتوعية ونشر الأفكار، وقبل ذلك بمراعاة البعد الاجتماعي للسياسات.

ولا يفوتني في النهاية أن أتقدم بوافر الشكر إلى مركز الترجمة بجامعة الملك سعود على دوره الرائد في رفد الجامعة أساتذة وطلاباً بالجديد من الإنتاج العلمي الأجنبي، وإسهامه في حركة الترجمة إلى اللغة العربية إجمالاً، بما ينفع المتخصصين والقارئ العام على حد سواء.

المترجم



غلاف كتاب "بولي ألبيون" أو "بريطانيا المتنوعة" الذي كان من أول الأعمال الشعرية التي وصفت العلاقة بين القوة والوفرة

عبر قوس النصر، تلوح ألبيون في الأفق
في موقعها البهيج، وذراعا نبتون لها طوق،
تعلو القوة والوفرة تاجها السامق،
تحيطها الطبيعة الغناء والزهور،
جزيرة وحيدة في المحيط

Michael Drayton, Poly-Olbion.
London: M. Lownes, I. Brown, I. Busbie, 1612

تصدير
PREFACE

لقد كتبنا هذا الكتاب انطلاقاً من إيماننا بأن أحداً لا يستطيع أن يفهم الاقتصاد العالمي القائم بيننا اليوم، أو حتى العالم بوجه عام، دون أن يفهم التاريخ الذي أنتجهما. فالعولمة المعاصرة ونتائجها الاقتصادية والسياسية لم تنشا من فراغ، بل نتجت عن عملية نمو اقتصادي عالمية متفاوتة، تطورت على مدى قرون، إن لم يكن آلاف السنين. وقد تشكّلت هذه العملية بدورها عبر الطرق المتباينة التي تفاعلت من خلالها مناطق العالم المختلفة بعضها مع بعض من خلال التجارة والهجرة والاستثمار، كما تشكّلت أيضاً من خلال التفاعلات السياسية والثقافية على مر الزمن. ولذلك تحدد الهدف الأساسي لهذا الكتاب في فهم هذا التفاعل ثنائي الاتجاه بين نمط التجارة بين مناطق العالم المختلفة وتطورها من جانب، والتطورات العالمية الاقتصادية والسياسية بعيدة المدى من جانب آخر.

لقد كتب المؤلفان هـذا الكتاب - كما هي الحال مع كثير من الكتب - •بغرض تلبية احتياجاتهما الأولية. ثمة تواريخ اقتصادية لا تُحصى للدول أو المناطق، وتوجد الآن أدبيات متنامية حول التاريخ العالمي، وحول التاريخ الاقتصادي العالمي تحديداً. كما تتوفر أدبيات أكثر تخصصاً، وإن كانت مهولة في حجمها هي الأخرى، حول تاريخ التجارة

الدولية، وركز بعض المؤلفين على مناطق معينة أو فترات تاريخية محددة. ومع ذلك، فقد تَكَشّف لمؤلفي الكتاب حين كانا يعدان المحاضرات حول التاريخ طويل المدى للتجارة العالمية أو يكتبان بحوثاً في الموضوع، أنه لا يوجد مرجع يُلجأْ إليه طلباً للإجابات عن الأسئلة التي يمكن أن يثيرها الاقتصاديون حول الموضوع. واضطر المؤلفان، نتيجة لذلك، إلى أن يكونا ملمّين، وإن بشكل غير كاف بالتأكيد، بأدبيات علمية واسعة ومتخصصة جداً، ووجدا نفسيهما في مناسبات كثيرة يتقدمان بمشقة خلال المصادر نفسها بحثاً عن معلومات قيّمة ذات صلة لأغراضهما، كانت نادرة بالطبع. ولذلك، تكوّنت لدى كليهما تدريجياً، كل على حدة، قناعة بأن المجال في حاجة إلى كتاب واحد يقدم مراجعة شاملة ومتكاملة لتاريخ التجارة العالمية على مدار الألفية الثانية.

وحتى إذا نظرنا إلى موضوع محدد ومألوف تماماً مثل تجارة التوابل، على سبيل المثال لا الحصر، نجد أنه لا توجد له رواية مرجعية واحدة في الأدبيات الحالية. والأسباب الكامنة وراء ذلك واضحة تمام الوضوح، ذلك أن التوابل كانت تُنتَج في جزر الأرخبيل الإندونيسي، ثم ينقلها الفرس والعرب والغوجارات[1] والبرتغاليون والهولنديون وغيرهم عبر المحيط الهندي إلى البحر الأحمر أو الخليج العربي[2]، أو حول طريق رأس الرجاء الصالح، بعد دفع الضرائب للعباسيين والفاطميين والمماليك والصفويين وغيرها من دول الشرق الأوسط، ثم يوزعها البنادقة أو الجنويون في الغرب والشمال، قبل أن يشتريها المستهلكون في أقصى الغرب في إنجلترا وفرنسا، عادة في مقابل فضة كانت حينئذ تقطع طريق العودة ثانية إلى جزر الملوك قبل أن تكتمل الدائرة. هذا فيما يتعلق بتدفق التوابل إلى

(١) الغوجارات Gugaratis جماعة عرقية هندية تتحدث اللغة الغوجاراتية، موطنها شبه القارة الهندية، يدين معظمهم بالإسلام، كانت لهم دولة منفصلة من العام ١٤٠١ إلى أن احتلها المغول في العام ١٥٧٢ [المترجم].

(٢) مصطلح الخليج العربي على طول الكتاب ترجمة للمصطلح الإنجليزي Persian Gulf [الخليج الفارسي] [المترجم].

أوروبا وحسب، في حين كان تدفقها إلى الصين والأسواق الآسيوية الأخرى أهم كثيراً على مدار معظم مراحل التاريخ. ولا يمكن لمؤرخ واحد، حتى فيرناند بروديل Fernand Braudel نفسه، أن يدعي التمكن من كل المعارف والمهارات المتخصصة اللازمة لتغطية كامل الامتداد الزماني والمكاني الذي تتضمنه هذه التجارة، وهذا أحد الموضوعات الكثيرة التي نخطط لأن يغطيها تاريخنا للتجارة العالمية. ولذلك استلزمت كتابة هذا الكتاب التحرر من قيود الاستبدادين التوأمين: ضيق الأفق الزماني والمكاني، وهو أمر ينطوي – بلا شك – على مغامرة محفوفة بالمخاطر.

ثمة تواريخ أخرى للاقتصاد العالمي كُتِبت في الماضي القريب، ومع أننا تعلمنا منها الكثير، فإن أحداً منها لا يقدم ما نصبو إليه. فكتاب روندو كاميرون Rondo Cameron المُعَنوّن "التاريخ الاقتصادي الموجز للعالم: من العصر الحجري إلى الحاضر"[١] يغطي مدى زمنياً أطول من الألفية التي يغطيها كتابنا. لكن لا هذا الكتاب، ولا كتاب غريغ كلارك Greg Clark[٢]، يسلطان ضوءاً مركزاً على التجارة والاتصالات الأخرى بين مناطق العالم المختلفة، على نحو ما يفعل الكتاب الحالي. وفي المقابل، يركز كتاب جانيت أبو لغد Janet Abu-Lughod المهم "ما قبل الهيمنة الأوروبية: النظام العالمي ١٢٥٠–١٣٥٠" على هذا النوع نفسه من العلاقات التفاعلية بين الأجزاء المختلفة للاقتصاد العالمي التي نتناولها هنا[٣]، لكنها تحصر نفسها زمنياً في قرن واحد، وإن كان قرناً حاسماً، وهو حقبة السلام المغولي. ويخبرنا ديفيد لاندز David Landes في تصدير كتابه أن هدفه يتمثل في "تتبع التيار الرئيس للتقدم الاقتصادي والتحديث وفهمه"، ويرجع ذلك مكانياً إلى أوروبا تحديداً[٤]. ومع أن كتابنا يهتم بالضرورة أيضاً بعملية النمو الاقتصادي، إلا أن تركيزنا ينصب بدرجة أكبر على نمط التجارة وبنيتها، وعلى التطور الجيوسياسي على مر الزمن، وعلى التوازنات المتغيرة للأسبقية العالمية خلال الألفية الماضية.

أما كتاب إيريك جونز Eric Jones "المعجزة الأوروبية"، فإنه كما يتضح من عنوانه نفسه، متمركز أيضاً حول أوروبا في توجهه[٥]. يبدأ جونز من زمن الاكتشافات تقريباً، متخذاً من الدول القومية المتنافسة ضمن النظام الأوروبي والإمبراطوريات غير الأوروبية، مثل الإمبراطوريتين العثمانية والمغولية الهندية الإسلاميتين وإمبراطورية تشينغ الصينية(٣)، وحدات للمقارنة. وبالطبع، يشكّل صعود أوروبا أحد الموضوعات الرئيسة في كتابنا، كما هي الحال في كتاب جونز، لكننا نغطي مدى زمنيا أطول، وتتمثل وحدات المقارنة لدينا في المناطق العالمية السبع التي يحددها الفصل الأول، في مقابل الدول الأوروبية والإمبراطوريات الآسيوية الثلاث التي يتناولها جونز. لقد وقع جونز ضحية لما يسميه "مدرسة كاليفورنيا" من المؤرخين المتمركزين حول الصين، خاصة كينيث بوميرانز Kenneth Pomeranz[٦] وبين ونغ R. Bin Wong[٧]، فضلاً عن أندريه غوندر فرانك Andre Gunder Frank[٨]. ونحن في المقابل، نتمنى أن نقنع قراءنا بأننا نستطيع، كما فعل يوليسيس المُكَبّل إلى السارية(٤)، أن نتفادى دعوات السيرانات إلى التحيز إلى أوروبا

---

(٣) سلالة تشينغ Qing Dynasty آخر سلالة إمبراطورية حكمت الصين، من العام ١٦٤٤ إلى العام ١٩١٢، سبقتها إمبراطورية مينغ، وتبعتها جمهورية الصين [المترجم].

(٤) في الميثولوجيا اليونانية، كانت السيرانات- تلك الكائنات الأسطورية التي لها رؤوس نِسوة وأجساد طيور- تسحر الملاحين بغنائها، فتوردهم موارد الهلاك. تقول الأسطورة إن السيرانة سيرس Circe أحبت البحار يوليسيس Ulysses، ولكي تنقذه من فتنة بنات جنسها، وجهته إلى أن يسد آذان بحارته بالشمع حتى لا يسمعوا أغاني السيرانات وأن يكبّل نفسه في الشراع وأن يأمر بحارته بألا يفكوا قيوده مهما قال لهم أو فعل حتى يجتازوا جزيرة السيرانات. نفذ يوليسيس هذه التعليمات، وعندما اقتربوا من الجزيرة، كان البحر هادئاً، وأخذت تتهادى على صفحة المياه نغمات موسيقية ساحرة، فطلب يوليسيس من رجاله أن يفكوه، لكنهم رفضوا وأحكموا قيوده تنفيذاً لأوامره السابقة، وواصلوا التجديف حتى ابتعدوا عن الجزيرة وتلاشى صوت الغناء. مؤدى ذلك أن المؤلفين يؤكدان على رفض الإغواء والتحيز، سواء إلى أوروبا أو الصين، أو إلى الغرب أو الشرق، في تناولهما لتاريخ التجارة العالمية [المترجم].

أو التحيز إلى الصين في رؤيتنا لإسهام المناطق السبع وبقية العالم في الانبثاق التفاعلي للاقتصاد العالمي الحديث، وإن لم يكن هذا الإسهام متساوياً بالضرورة.

لذلك، كان لزاماً علينا أن نجتهد لكي نجمع رؤية أولية وغير مكتملة للتجارة على مدى الألفية الأخيرة. هناك بالطبع متخصصون كثيرون في كل جانب من جوانب هذا الموضوع الذي تتجاوز المعرفة به حدود تخصصنا وتخصصهم جميعاً، ولذا ننوي أن نلقي الضوء على أعمال المؤلفين الكثيرين الذين قدموا رؤية عامة لهذا الموضوع كله. على أن تاريخ التجارة العالمية لا يشكّل إلا جانباً واحداً من المهمة التي ننتوي القيام بها في هذا الكتاب. فمن مزايا الكتاب التي قد تفاجئ بعض الاقتصاديين، مع أنها مألوفة تماماً للمؤرخين، تأكيده الثابت على النزاع والعنف والجغرافيا السياسية، وهو ما يختلف يقيناً عما يتعلمه طلاب الاقتصاد. فحين يتعرض طلاب الاقتصاد لدراسة التجارة الدولية لأول مرة، يُطلَب منهم تأمل دولتين– الدولة "أ" والدولة "ب" – تتمتعان بعوامل الإنتاج المختلفة– الأرض والعمل ورأس المال – بدرجات متفاوتة، فضلاً عن تقنية معينة من النوع الذي يترجم تلك الهبات إلى سلع استهلاكية، وكذلك مجموعة من التفضيلات نحو هذه السلع. ثم تتاجر الدولتان إحداهما مع الأخرى، أو لا تتاجران بحسب الحالات التاريخية المحددة، ثم تُستنتَج نتائج التجارة على المستهلكين والمنتجين على حد سواء. وإذا أخذت النظرية عامل الزمن في اعتبارها، وهو ما لا يحدث عادة، فإن ذلك يحدث دائماً في شكل القول بأن الدول تعمل تدريجياً على تراكم رأس المال أو توليد عمال جدد أو تحسين تعليمهم نتيجة لقرارات إرادية من جانب أفراد أحرار عقلانيين. وتأتي ذروة التعاسة في هذه النماذج مع استخدام التعريفات الجمركية والحصص وغيرها من أدوات السياسة التجارية التي تعود بالنفع على بعض الأفراد أو الجماعات (وربما الأمم)، لكنها تقلل النفع الذي يعود من التجارة على غيرهم من السكان المحليين أو الأجانب.

لكن، ليت الأمور سارت على هذا النحو. فكما سيرد لاحقاً، فإن أكبر التوسعات في التجارة العالمية لم تحدث بفعل التجريب السلمي للسوق من جانب بعض الدلالين الولراسيين[٥] المتخيلين، وإنما بفعل بندقية ماكسيم، أو حد السيف، أو ضراوة فرسان القبائل البدوية. وحين احتاجت التجارة إلى مزيد من العمال، كانت خيارات المواطنين القادرين على الإنجاب في ضوء مبادلات الكم/النوع تُنحَى جانباً في أغلب الأحيان، ذلك لأن استرقاق العمال كان وارداً دائماً. وحين احتاجت التجارة إلى مزيد من الأرباح، كان ذلك يتحقق عن طريق النهب أو الاحتكارات المفروضة بالقوة. فعلى مدار معظم الألفية التي يغطيها الكتاب، لا يمكن فهم نمط التجارة إلا باعتباره نتيجة لشكل من التوازن العسكري أو السياسي بين قوى متنافسة. وقد كان اعتماد التجارة على الحرب والسلام واضحاً لنا تماماً لدرجة أنه انعكس في عنوان الكتاب.

مؤدى ذلك أن السياسة قررت مصير التجارة، لكن التجارة أسهمت هي الأخرى في تقرير مصير السياسة، بتأثيرها على قدرات الدول والحوافز التي تحركها. ولذلك يمثل الاعتماد المتبادل بين "القوة" و"الوفرة" الذي صوّره جاكوب فينر Jacob Viner جانباً أساسياً من هذا الكتاب[٩]. والعبارة نفسها ترد في الأبيات الأولى من قصيدة مايكل درايتون المُعَنوّنة "بولي أولبيون"[٦] التي نُشرت لأول مرة في العام ١٦١٢، والتي صَدّرنا كتابنا بالأبيات الأولى منها. وقد لاحظ كوربت ولايتباون Corbett and Lightbown أن ألبيون تبدو هنا "مزدهرة ومظفرة، إذ بدت للمرة الوحيدة عبر تاريخها الطويل شابة وجميلة"[١٠]. فألبيون

---

(٥) راجع حاشية سابقة حول عالم الاقتصاد الفرنسي ليون والراس وأفكاره [المترجم].

(٦) بولي أولبيون Poly Olbion أو "بريطانيا المتنوعة"، حيث ألبيون Albion هو الاسم اليوناني القديم لجزيرة بريطانيا، قصيدة طويلة تصف مدن ومقاطعات إنجلترا وويلز، كتبها مايكل درايتون Michael Drayton (١٥٦٣- ١٦٣١) ونُشرت في العام ١٦١٢، وكان درايتون قد بدأ العمل فيها في العام ١٥٩٨ على الأقل. تتكون القصيدة من خمسة عشر ألف بيت تؤلف ثلاثين أغنية، تصف كل منها كونتية واحدة أو ثلاث كونتيات، بطوبوغرافيتها وتقاليدها وتاريخها [المترجم].

المزينة باللآلئ والآمنة على جزيرتها المحصنة، والممسِكة بكل من قرن الوفرة والصولجان[٧]، يبدو أنها تتأمل في صفاء تمتعها بالوفرة فضلاً عن ممارستها للقوة[٨].

وكما سنرى، فإن هذا المخلوق الشبيه بالحوريات[٩] سرعان ما أصبح الحاكم الذي عركته الحروب الذي سيطر على القنال الإنجليزي، ومعه محيطات العالم أجمع، ولا يمكن لأي تاريخ للتجارة العالمية أن يتجاهل أسباب أو نتائج مآثر عسكرية من هذا النوع. ومع أن الاقتصاديين يشدّدون عادة على فوائد التبادل الإرادي السلمي، فلا ينبغي بحال من الأحوال أن ننسى أن استخدام القوة يؤدي إلى تخصيص الموارد النادرة، ويفرض تكاليف وفوائد على من يستخدمونها ومن تُستخدَم ضدهم، وأيضاً على الأطراف الثالثة. والقوة بذلك تخضع لتطبيق التحليل الاقتصادي، بمعنى "دراسة العلاقة بين الغايات والوسائل النادرة ذات الاستخدامات البديلة" وفقاً للتعريف الشهير الذي قدمه ليونيل روبنز Lionel Robbins، وهي بذلك لا تختلف عن أي مجال آخر من مجالات النشاط الإنساني.

وإذا بدا أن ذلك كله لا ينطبق كثيراً على القرنين الماضيين، فإن هذا الاستنتاج يرجع - بلا شك - إلى التأثير الساحق للثورة الصناعية على التاريخ الاقتصادي اللاحق لها كاملاً. فالعولمة التي شهدها القرن التاسع عشر بعد قفزة الثورة الصناعية كانت غير مسبوقة من نواح عدة، ربما تتمثل أكثر سماتها تفرداً - كما سنرى - في دعائمها التقنية بالدرجة الأولى (على الرغم من أن تأثير الإمبريالية[١٠] ظل باقياً إبان تلك الفترة، بل إن

---

(٧) قرن الوفرة وعاء على شكل قرن كان يرمز قديماً إلى الوفرة والازدهار. والصولجان رمز القوة [المترجم].

(٨) في الأبيات التي صُدّر بها الكتاب، نبتون Neptune هو إله البحر عند الإغريق، في إشارة إلى حماية البحر للجزيرة البريطانية [المترجم].

(٩) هذا المخلوق هو الجزر البريطانية بوقوعها في البحر كالسيرانات والحوريات [المترجم].

(١٠) الإمبريالية Imperialism، بمعنى بناء الإمبراطوريات، تعني إقامة علاقة اقتصادية وثقافية وإقليمية غير متكافئة بين الدول، وفي الغالب من خلال التوسع العسكري والهيمنة والإخضاع، وتقوم على استغلال الشعوب التابعة لإثراء المراكز الاستعمارية، بدأت في شكلها الحديث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مع تكوين الإمبراطوريات الأوروبية فيما وراء البحار، وانتهت في شكلها السافر مع

الإمبريالية نفسها قد تيّسرت من نواح عدة وأصبحت ممكنة بفضل التقنيات الجديدة). فقد قَرّبت التقنيات الجديدة بين الأسواق أكثر من ذي قبل، وأوجدت فجوات هائلة في الدخل بين المناطق، لا تزال باقية بيننا إلى اليوم، وأنتجت تقسيماً صارماً للعمل بين مركز صناعي ومحيط[11] منتج للمواد الأولية. وتمثلت التساؤلات الكبرى التي أثيرت منذ ذلك الحين في: كيف يمكن للدول النامية أن تلحق بالمركز الصناعي؟ وهل يجب أن تفعل ذلك باستغلال مزاياها في الموارد الطبيعية، كما حدث بنجاح إبان القرن التاسع عشر، أم أن ذلك يتركها عرضة للأسواق الدولية المتقلبة، كما تكشف خبرة ما بين الحربين العالميتين؟ وهل يجب أن تفصل الدول النامية نفسها عن الأسواق الدولية كما فعلت دول كثيرة بعد العام ١٩٤٥، أم يجب أن تعيد الاندماج فيها، كما فعلت الدول النامية خلال العقدين الأخيرين؟ لقد نشأت هذه التساؤلات وما شابهها من نوع "كيف يجب أن يتعامل الغرب مع صعود الهند والصين"، بفعل التفاوتات والتباينات التي أوجدتها الثورة الصناعية، وهي بالتالي أسئلة تاريخية في طبيعتها.

على أننا لا يمكن أن نفهم الثورة الصناعية – بدورها – إلا باعتبارها نتيجة لعملية تاريخية ذات أسباب متعددة تضرب بجذورها في العصور الوسطى، لعبت فيها التحركات الدولية للسلع والمحاربين والجراثيم والتقنيات جميعها أدواراً أساسية. فالروايات المحلية المحضة "لصعود الغرب" التي تؤكد على دور المؤسسات الغربية أو السمات الثقافية أو الهبات الطبيعية، روايات ناقصة لدرجة ميؤوس منها، لأنها تتجاهل الشبكة الواسعة للعلاقات المتبادلة بين أوروبا الغربية وبقية العالم، التي نُسِجت على مدار قرون كثيرة،

تصفية الاستعمار في الربع الثالث من القرن العشرين، وإن كانت العلاقات الإمبريالية الاستغلالية لا تزال قائمة بين المراكز الاستعمارية السابقة وتوابعها [المترجم].

(١١) يشير مصطلح "المحيط" في أمثال هذه السياقات إلى الدول غير الغربية، وفقاً لتقسيم الدارسين للعالم إلى مركز core صناعي متقدم غني، يتجسد في أوروبا وأمريكا الشمالية (واليابان)، ومحيط periphery غير صناعي ونامٍ وفقير، يتجسد في الدول النامية [المترجم].

وكانت مهمة جداً للقفزة التي حققها النمو الاقتصادي الحديث. ونحن بالطبع لسنا أول القائلين بذلك، لكن في حين كان المؤرخون الذين روّجوا لهذا المنظور الدولي ماركسيين في أغلبهم، فإننا لسنا كذلك. فنحن كغالبية الاقتصاديين في التيار الفكري الرئيس، نرى أن الابتكار والحوافز – وليس التراكم الصرف سواء أكان "بدائياً"[(١٢)] أو غير ذلك – يقعان في القلب من عملية النمو، لكن ذلك لا يتضمن غض الطرف عن التوسع الأوروبي فيما وراء البحار. ربما لم يسهم النهب في إلهاب الثورة الصناعية بطريقة مباشرة، لكن المركنتيلية[(١٣)] والإمبريالية كانتا جزءاً مهماً من السياق العالمي الذي نشأت فيه الثورة الصناعية، إذ أسهمتا في توسيع الأسواق وتأمين وفرة المواد الأولية. ولذلك، كان العنف – بلا جدال – مهماً في تشكيل البيئة التي عملت فيها القوى الاقتصادية التقليدية للعرض والطلب.

وعلى ذلك، فإن كثيراً من التوترات الأساسية القائمة اليوم بين المناطق يمكن تعقب جذورها إلى التفاعلات المبكرة بين المناطق العالمية الأساسية. وحين يحاول الاقتصاديون فهم هذا التاريخ، ينبغي عليهم أن يتناولوا بجدية موضوعاً آخركثيراً ما يلقى التجاهل، وهو الجغرافيا. على أننا لا نقصد "بالجغرافيا" النماذج التقليدية التي تؤخذ اليوم على أنها

---

(١٢) يشير كارل ماركس بمفهوم "التراكم البدائي" primitive accumulation إلى عملية جمع السلع، وفيما بعد الذهب والفضة، وأخيراً المال، التي اتبعتها الرأسمالية الناشئة وراكمت من خلالها القاعدة المادية التي يسرت لها الهيمنة في المجالات السياسية والاقتصادية، وهو تراكم بدائي لأنه حدث من خلال العنف والاستغلال المنظم للعمال ومصادرة الموارد والنهب الاستعماري المنظم [المترجم].

(١٣) المركنتيلية mercantilism مذهب اقتصادي ساد أوروبا إبان عصر النهضة والعصر الحديث المبكر، وسُميت به هذه الفترة، كان يقوم على أن رخاء الدولة يعتمد على ما تملكه من رأس المال، كما كان يقاس بمخزونها من سبائك الذهب والفضة ونصيبها من التجارة، وأن حجم التجارة العالمية ثابت لا يتغير، وعليه فإن الزيادة في جانب أي طرف تكون بالضرورة خصماً من طرف آخر، ولذلك لعبت الحكومات في ظلها دوراً حمائياً في الاقتصاد بتشجيع الصادرات وتقليل الواردات عن طريق تقديم الإعانات للأولى وفرض التعريفات الجمركية على الثانية [المترجم].

تعني "الجغرافيا الاقتصادية" التي تتفاعل فيها معا مناطق يتعذر تمييزها مسبقاً، تقع متماثلة على سطح أو خط مستقيم أو كرة أو شكل سداسي غير متمايز، ثم تختلف هذه المناطق بعد ذلك نتيجة لهذا التفاعل، مع وجود تأثيرات لأحداث عشوائية صغيرة تُضخَم أو تُؤبَد من خلال عمل العائدات المتزايدة واسعة النطاق. فنحن - على خلاف ذلك - نقصد الجغرافيا بمعنى الجبال والأنهار وكل شيء من هذا القبيل. فلو وُلِد جنكيز خان في نيوزيلندا — مثلاً - لما ترك أثراً على التاريخ العالمي. وربما كان من الممكن أن يسيطر الأيرلنديون على بقية أوروبا من خلال السيطرة على الوصول إلى توابل جنوب شرق آسيا، لكنهم لم تتوفر لهم الفرص التي منحتها الجغرافيا لحكام مصر. وبالمثل، كان بمقدور الأوروبي الباحث عن طريق مباشر إلى الهند أن يتجه غرباً فيتعثر في الأمريكتين، في حين كان من الحماقة بالتأكيد أن يبحث بحار صيني عن ممر شرقي إلى بلاد العرب. مؤدى ذلك أن كثيراً من النتائج المحتملة في التاريخ العالمي كانت مستبعدة مسبقاً، وليس فعلياً وحسب.

في روايتنا، تتمثل الأحداث الثلاثة الكبرى بالتاريخ العالمي إبان الألفية الثانية في: (١) الطاعون الذي تفشى إبان القرن الرابع عشر والاستجابات المختلفة له، (٢) "اكتشاف" العالم الجديد ودمجه في العالم القديم مع منعطف القرن السادس عشر، (٣) الثورة الصناعية مع منعطف القرن التاسع عشر. وما نود أن نثبته بحسم هو أن أياً من مناطق العالم السبع لم تكن مسؤولة وحدها عن أي من تلك الأحداث التحويلية الثلاثة، ناهيك عن تكون إحداها مسؤولة عن ثلاثتها مجتمعة. نتج الحدث الأول عن السلام المغولي الذي أرْسَته القبائل البدوية من آسيا الوسطى، لكن دعمته وشاركت فيه بقوة المناطق الست الأخرى جميعها. وكان الأوروبيون الغربيون أول مَنْ أبحر من الأوراسيين[١٤] إلى العالم الجديد، بينما كان الأفارقة - رغماً عنهم بالتأكيد - هم الذين أنتجوا كثيراً من السلع

(١٤) راجع حاشية سابقة حول مصطلح أوراسيا [المترجم].

التي صدّرها العالم الجديد إلى العالم القديم. وحدثت الثورة الصناعية في أوروبا الغربية، وتحديداً في بريطانيا، بينما كان الأفارقة في الأمريكتين هم الذين أنتجوا المواد الخام الأساسية اللازمة لقطاعها القيادي - القطن - وكانت منتجاتها النهائية تباع في الأسواق في مختلف أرجاء العالم. ولا يزال الاقتصاد العالمي يتطور، مع تآكل واضح في صدارة أوروبا الغربية وامتداداتها المختلفة فيما وراء البحار، إذ ينمو شرق آسيا وجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا أسرع كثيراً من الغرب بعد قرون من الركود النسبي.

لكن، قبل أن نطلب من القارئ أن يخوض معنا تاريخاً بطول ألف عام، يتعين علينا أن نقدم دليلاً موجزاً للمنطقة التي نجتازها معاً. نبدا في الفصل الأول باستعراض القضايا المنهجية الأساسية وتحديد "المناطق العالمية" السبع التي قسمنا إليها اليابسة الأوراسية والساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط في مطلع الألفية الثانية، وهي (١) أوروبا الغربية، (٢) أوروبا الشرقية، (٣) العالم الإسلامي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، (٤) آسيا الوسطى، (٥) جنوب آسيا، (٦) جنوب شرق آسيا، (٧) شرق آسيا. ونظراً لأن المناطق السبع لم تُحدَد بالجغرافيا وحدها، بل أيضاً بالثقافة والتاريخ السياسي، فإن الفصل الأول يقدم رواية موجزة لما نعتبره الخصائص المحدِدة لكل منها. ولذلك آثرنا التمييز بين الكاثوليكية الرومانية الغربية والأرثوذكسية الشرقية لفصل أوروبا الغربية عن الشرقية، بدلاً من الركون إلى خصائص الجغرافيا وحدها، علماً بأن سقوط القسطنطينية بيد الأتراك العثمانيين في روايتنا، نقل بقايا الإمبراطورية البيزنطية السابقة إلى العالم الإسلامي. لكننا في حالة إندونيسيا وعالم الملايو نحتفظ بالتحديد الجغرافي لهذه المجتمعات في جنوب شرق آسيا مع جيرانهم البوذيين، بدلاً من نقلهم إلى العالم الإسلامي بعد اعتناقهم الإسلام، لأننا نرى أن ما يجمعهم مع جيرانهم لا يزال أكثر وأقوى مما يجمعهم على سبيل المثال مع المصريين أو السوريين.

يحلل الفصل الثاني التجارة والعلاقات الأخرى بين هذه المناطق السبع ومنطقة ثامنة، هي أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، مع منعطف الألفية الأولى. قد يكون مفاجئاً للقارئ أن يعلم أن المنطقة الوحيدة التي كانت على اتصال مباشر وثابت مع كل المناطق الأخرى في ذلك الحين هي العالم الإسلامي الذي كان يشهد حينذاك "عصره الذهبي" تحت حكم العباسيين والفاطميين والأمويين في بغداد والقاهرة وقرطبة على التوالي، في حين كانت أوروبا الغربية المنطقة الأقل اتصالاً بالمناطق الأخرى. ويقدم الفصل الثالث مسحاً تحليلياً واسعاً لتطور الاقتصاد العالمي من العام ١٠٠٠ إلى العام ١٥٠٠، وتتمثل الأحداث الرئيسة التي يركز عليها الفصل في تبلوُر السلام المغولي الذي جمع معظم الكتلة الأوراسية معاً برعاية الإمبراطورية المغولية وحفّز تجارة المسافات الطويلة من الأطلسي إلى بحر اليابان، والنتائج المدمرة للطاعون الذي أطلقه هو نفسه تشَكُّل ما يُعرَف باسم "السوق الميكروبي المشترك" الذي نتج بدوره عن الفتوحات المغولية، والتوسع اللاحق للسكان والناتج الاقتصادي والأسعار في أنحاء العالم كافة، خاصة في أوروبا الغربية وجنوب شرق آسيا.

يهيئ ما سبق المشهد لانطلاق رحلات الاستكشاف الأيبيرية ونتائجها بالغة الأهمية على العالم الجديد وأوروبا وأفريقيا وآسيا، التي يتعامل معها الفصل الرابع الذي يغطي الفترة من العام ١٥٠٠ إلى العام ١٦٥٠. وتتمثل النتيجة الاقتصادية الرئيسة لاكتشافات كولومبس التي نبحثها بالتفصيل في التجارة العالمية في الفضة التي انبثقت إبان القرن السادس عشر. ويركز الفصل الخامس - أولاً - على الصراع الطويل على الهيمنة على الاقتصاد العالمي المنبثق بين الجمهورية الهولندية وبريطانيا العظمى وفرنسا إبان عصر المركنتيلية، ويتناول بعد ذلك التوسعات البرية لإمبراطورية رومانوف القيصرية(١٥)

(١٥) آل رومانوف Romanovs هم السلالة القيصرية التي حكمت روسيا من العام ١٦١٣ إلى أن أطاحت بها الثورة البلشفية في العام ١٩١٧ [المترجم].

وإمبراطورية مانشو تشينغ الصينية من الطرفين المتقابلين لآسيا الوسطى، وهي توسعات لا تقل أهمية عن التوسعات في العالم الجديد. ومن الموضوعات الرئيسة في ذلك الفصل إبراز أن الآسيويين لم يكونوا فاعلين سلبيين خلال تلك الفترة، بل تبنوا تقنيات عسكرية جديدة، كانت لها تأثيرات سياسية مماثلة للتقنيات التي عرفتها أوروبا، وثمة موضوع آخر مهم، هو السياسات الاقتصادية المركنتيلية التي اتبعتها الدول القيادية في ذلك الوقت.

يقطع الفصل السادس السرد التاريخي لكي يلقي نظرة فاحصة على القفزة التي حدثت في النمو الاقتصادي الحديث في شمال غرب أوروبا، وتحديداً في بريطانيا العظمى، مع منعطف القرن التاسع عشر. فالثورة الصناعية تستحق فصلاً قائماً بذاته لأنها تمثل محور الارتكاز الذي تدور حوله بقية الكتاب. فهي – من ناحية– أطلقت قوى اقتصادية حددت المسار المستقبلي للتجارة الدولية إلى يومنا هذا، وكانت هي نفسها – من ناحية أخرى– نتاجاً للاتجاهات السياسية والاقتصادية التي سبقتها. وعلى ذلك، فإننا لا نرى أن الثورة الصناعية انطلقت فجأة، مثل "أثينا التي ولدت كاملة التسليح من جبين زيوس[١٦]"، نتيجة لرؤى إبداعية لمجموعة من المخترعين في شمال إنجلترا إبان أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. لكننا بدلاً من ذلك، نود أن نقنع القارئ بأن الثورة الصناعية كانت نقطة الذروة في عملية تاريخية طويلة تضمنت تفاعل مناطق العالم كلها من خلال التجارة ونقل التقنية، فضلاً عن استخدام القوة المسلحة. لا يعني ذلك إنكار الإسهام المهم لبريطانيا العظمى، وتوسعاً أوروبا الغربية، وإنما نبتغي من وراء ذلك أن نقدم تفسيراً مترابطاً ومتماسكاً للأسباب التي جعلت ذلك الحدث تحويلياً جداً في طبيعته، وليس مجرد

---

(١٦) أثينا Athena إلهة الحكمة والشجاعة والوحي والحضارة والقانون والعدل والحرب العادلة والرياضيات والإستراتيجية والفنون والحرف والمهارة، تقول الأسطورة إنها وُلِدت كاملة التسليح من جبين زيوس، وتأتي قوتها، كما تذهب الأسطورة، من أنها ابنة زيوس كبير الآلهة وميتيس Metis إلهة الحيلة والحكمة، وتقول الأسطورة إن زيوس خشي على نفسه من نتاج هذه العلاقة، لأنها قد تنتج طفلاً أقوى منه، لكن بعد فوت الأوان [المترجم].

حدث عابر سريع الزوال، مثلما كانت كل "حالات الازدهار" السابقة[١١] في تاريخ الاقتصاد العالمي الذي نقدمه في هذا الكتاب.

فمن ناحية، يمكن النظر إلى التاريخ الاقتصادي للقرنين الماضيين - كما أشرنا - باعتباره من ثمار الثورة الصناعية، وتتمثل هذه الثمار تحديداً في "التباعد الأكبر" Great Divergence في مستويات الدخل بين المناطق مع الانتشار التدريجي للتقنيات الجديدة عبر الكرة الأرضية، "والتخصص الأكبر" Great Specialization بين المركز الصناعي والمحيط المنتِج للمواد الأولية، والضغوط الناتجة من أجل حماية الزراعة في المركز والصناعة في المحيط، وأخيراً الانحلال التدريجي لهذه الاتجاهات مع انتشار الثورة الصناعية لتغطي نسبة متزايدة من سكان الكوكب. حتى أننا لا نزال نعايش هذه النتائج المتوقعة للأحداث التي وقعت في شمال إنجلترا قبل قرنين. على أن تطور هذه الاتجاهات لم يحدث على نحو سلس، وإنما تأثر بشدة بالنتائج السياسية لثلاث حروب عالمية كبرى: الحروب الفرنسية والنابليونية التي كتبت كلمة النهاية لعصر المركنتيلية، والحربين العالميتين الأولى والثانية. وعلى ذلك، فقد ظلت الحرب تمارس تأثيراً بالغ الأهمية وبعيد المدى على تطور الاقتصاد العالمي، وهو ما انعكس في بنية الكتاب، إذ تبدا الفصول من السابع إلى التاسع بسرد واحد من هذه النزاعات الثلاثة على التوالي، ثم يتقدم كل فصل إلى تقصي النتائج قصيرة وطويلة المدى لهذا النزاع.

يستأنف الفصل السابع سرديتنا، إذ يركز على "القرن التاسع عشر" من العام ١٨١٥ إلى العام ١٩١٤. تميّزت هذه الفترة سياسياً بالسلام البريطاني(١٧) والإمبريالية الأوروبية، وتميّزت اقتصادياً بنتائج تقنية البخار الجديدة إبان الثورة الصناعية، وهي النتائج

---

(١٧) على غرار مصطلحي السلام الروماني والسلام المغولي، يشير مصطلح السلام البريطاني Pax Britannica إلى التأثيرات الداعمة للاستقرار العالمي الناتجة عن التوسع البريطاني فيما وراء البحار وتكوين الإمبراطورية البريطانية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر [المترجم].

التي تجسدت في السكك الحديدية والباخرة. وقد شهدت هذه الفترة في بدايتها نوعاً جديداً من العولمة، تجلى في الانكماش المتنامي لفجوات الأسعار العابرة للقارات للسلع كبيرة الحجم بين دول المنشا ومقصدها النهائي على نطاق واسع حول العالم، نتيجة للتراجع الشديد في تكاليف النقل. وشهدت هذه الفترة أيضاً انبثاق "التخصص الأكبر" الذي جعل الدول الصناعية في أوروبا الغربية، التي انضمت إليها الولايات المتحدة واليابان لاحقاً، تصدّر السلع المصنعة إلى آسيا وأفريقيا وأستراليا وأمريكا اللاتينية، في مقابل استيرادها للمواد الغذائية والمواد الخام الأولية من هذه القارات، وجعل أوروبا أيضاً تصدّر رأس المال إلى هذه المناطق جميعاً، وتصدّر البشر إلى الأمريكتين وأستراليا. وانطبعت نهاية هذه الفترة ببدايات "الردة" عن العولمة، إذ أخذت القوى الصناعية الصاعدة- ممثلة في ألمانيا والولايات المتحدة - والدول المستوّردة للغذاء في أوروبا القارية[١٨] وجمهوريات أمريكا اللاتينية وممتلكات الإمبراطورية البريطانية، ترفع التعريفات الجمركية، وبدا العالم الجديد يُظهِر ممانعة للانفتاح أمام الهجرة الجماعية. ووصل هذا "العصر الذهبي للعولمة" إلى نهايته المأساوية وغير المتوقعة بالطبع مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

انطبعت سنوات ما بين الحربين العالميتين من العام ١٩١٨ إلى العام ١٩٣٩، التي يغطيها الفصل الثامن، بالنتائج السياسية والاقتصادية لهذه الكارثة. وبينما شهد العقد الثالث من القرن العشرين[١٩] محاولة لإعادة بناء الاقتصاد الدولي السابق على الحرب،

---

(١٨) يشير مصطلح أوروبا القارية إلى قارة أوروبا كاملة ما عدا الجزر البريطانية [المترجم].

(١٩) العقد، كما هو معروف، فترة زمنية تتكون، في المطلق، من عشرة أعوام، كأن يقول أحدهم "أمضيت عقداً أو اثنين في عمل كذا". وفي التحقيب التاريخي يُقسَم القرن إلى عشرة عقود، يمتد العقد الأول في أي قرن من العام الأول فيه، وليكن مثلاً العام ١٨٠٠، عشرة أعوام، إلى العام ١٨٠٩، ويمتد العقد الثاني من العام ١٨١٠ إلى العام ١٨١٩، وهكذا. وعلى ذلك فإن العقد الذي يكتب باللغة الإنجليزية في الصيغة 1680s يكون العقد التاسع من القرن السابع عشر، أي الذي يبدا من العام ١٦٨٠ وينتهي بالعام ١٦٨٩، وهكذا. لكن الدارج في اللغة العربية- على خلاف ذلك- أننا نقول "الثمانينات" للإشارة إلى العقد التاسع (من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٩) ونقول "التسعينات" للإشارة إلى العقد

حققت نجاحاً جزئياً وحسب، تميّز العقد التالي بالنتائج المدمرة للكساد الكبير وما نتج عنه من ردة عن العولمة. وتمثل الحرب العالمية الثانية وآثارها موضوع الفصل التاسع، وتتضمن الأحداث السياسية الرئيسة التي يناقشها الفصل: تأسيس السلام الأمريكي(٢٠) والإطار المصاحب للمؤسسات الدولية متعددة الأطراف التي تأسست برعاية الولايات المتحدة، والتحولات السياسية التي نتجت أولاً عن انتشار الشيوعية ثم عن انهيارها، وتصفية الاستعمار الشاملة في مناطق العالم الثالث التي سبق أن تحولت إلى ممتلكات إمبراطورية للقوى الأوروبية. ويشدّد الفصل على أن التأثير المجمع لهذه الاتجاهات تمثل في تعميق تفسخ الاقتصاد العالمي، بينما شكّل التحرير التجاري الذي مارسته منظمة التعاون والتنمية الاقتصاديين OCED استثناءً إقليمياً لهذه القاعدة العامة، وذلك حتى العقدين الثامن والتاسع من القرن العشرين. فبحلول هذين العقدين فقط، بدأت أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا التي تضم معظم سكان المعمورة في الانفتاح على التجارة والاستثمار مع بقية العالم. واقتصادياً، انطبعت فترة أواخر القرن العشرين بشدة بمحاولة الدول حديثة الاستقلال دخول عالم التصنيع من خلال سياسات "إحلال الواردات". كما شهدت هذه الفترة أيضاً التوسع غير المسبوق للناتج والتجارة العالميين نتيجة لتحرير التجارة والنمو في الدول الصناعية وانتشار التقنية إلى "الدول حديثة التصنيع". وقد أدى ذلك في نهاية المطاف إلى النمو السريع في الصادرات المصنعة من هذه الدول، خاصة الصين والهند، وإلى

العاشر والأخير من القرن (من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٩). وبالمثل يسمى القرن الذي يبدا من العام ١ وينتهي بالعام ٩٩ بالقرن الأول، والقرن الذي يبدا من العام ١٠٠ وينتهي بالعام ١٩٩ بالقرن الثاني، والقرن الذي يبدا من العام ١٦٠٠ وينتهي بالعام ١٦٩٩ بالقرن السابع عشر، وهكذا. وعلى ذلك فإن القرن الذي يكتب باللغة الإنجليزية في الصيغة 19th يكون القرن التاسع عشر الذي يبدا من العام ١٨٠٠ وينتهي بالعام ١٨٩٩ [المترجم].

(٢٠) حول مصطلح السلام الأمريكي Pax Americana، راجع حواشي سابقة للمترجم حول مصطلحات السلام الروماني والمغولي والبريطاني [المترجم].

الشروع في تضييق فجوات الدخل الفردي الضخمة التي ظلت تفصل هذه المناطق حديثة الازدهار عن أوروبا الغربية منذ الثورة الصناعية، وربما من قبلها. ويستخلص الفصل العاشر والأخير الدروس التي تعلمناها من مسحنا المطوّل، والتي نرى أنها لا تزال ذات صلة في بداية القرن الحادي والعشرين.

سيلاحظ القارئ أن الفترات المتعاقبة في تطور الاقتصاد العالمي، وليس الفترات التي تغطيها الفصول من السابع إلى التاسع وحسب، يميّزها ويفصل بينها في الغالب اندلاع حروب كبرى أو توسعات إمبريالية. بل يمكن النظر إلى كل فترة على أن التجارة جرت فيها ضمن إطار جيوسياسي حددته الحرب أو النزاع الرئيس السابق، وتعدل هذا الإطار بدوره باندلاع الحرب التالية، وبما مهد الطريق للحقبة التجارية التالية، وهكذا. وسنرى أن التوترات الاقتصادية والجيوسياسية المتراكمة التي انطلقت في أثناء كل فترة من السلام والازدهار والتجارة، كانت تبلغ ذروتها في دورات متعاقبة من النزاع، ما يكشف أن الحروب لم تكن صدمات من خارج النظام العالمي، بل جزءاً أصيلاً من طبيعة هذا النظام، كما تطور على مدار الألفية الماضية. ونأمل أن تتضح هذه العملية في سرديتنا، رغم إدراكنا أن الحرب العالمية الأولى تشكل نوعاً من "الإعاقة الغيبية"[٢١] في روايتنا. وهناك بالطبع مرجعيات علمية تدفع بأن الطريقة التي عمل بها الاقتصاد العالمي إبان أواخر القرن التاسع عشر تساعد في تفسير اندلاع الحرب العالمية الأولى، لكن أسباب هذه الكارثة تظل جدلية.

---

(٢١) المصطلح المستخدم هنا هو diabollus ex machina وهو مصطلح لاتيني [بمعنى "الشيطان وراء المكيدة"]، يشير في الأدب إلى "الإعاقة الغيبية" التي تحوّل أحداث الرواية من السراء إلى الضراء بفعل قوى خارقة، وهو المقابل للمصطلح اللاتيني أيضاً deus ex machina [بمعنى "الرب في التدبير"] الذي يشير إلى "المدد الغيبي" الذي يحوّل أحداث الرواية من الضراء إلى السراء بفعل قوى خارقة أيضاً. والمؤلفان يقصدان بذلك أن الحرب العالمية الأولى، بما شكّلته من إعاقة للتجارة العالمية، تمثل نوعاً من "الإعاقة الغيبية" التي تفسد سرديتهما، لأنها على خلاف الحروب الكبرى السابقة أضرت بالتجارة، ولم تفدها [المترجم].

و"لو كان لدينا المكان والزمان"، لربما عالجنا هذه القضية على نحو أفضل، لكن المؤلف يواجه عادة الكثير من القضايا الإشكالية الجدلية التي يمكن أن يفتحها في أثناء تأليف الكتاب، لكننا قررنا أن نترك هذه القضية لغيرنا.

كثيراً ما يُتهَم علم الاقتصاد بأنه علم إمبريالي، وبالفعل كان النهب سمة أساسية لكثير من الإمبراطوريات التي نتناولها في هذا الكتاب. وقد حذونا حذو الفاتحين[٢٢] في هذا الصدد، فنهبنا - بلا رحمة- المعرفة التي أنتجتها بكد أجيال المؤرخين والاقتصاديين السابقين. لكننا على خلاف الفاتحين، فعلنا ذلك على أمل أن نأخذ الحضارة عن السكان المحليين، وليس العكس الذي فعله الفاتحون[٢٣]. وعلى ذلك، فإن هذا الكتاب يضم بين دفتيه كثيراً مما قد يبدو عادياً تماماً بالنسبة لأي مؤرخ جيد الإعداد، لكننا نأمل أن يكون مفيداً في شكله الحالي، ليس للاقتصاديين والمؤرخين الاقتصاديين وعلماء السياسة والاجتماع والأنثروبولوجيا وحسب، بل أيضاً لكل المهتمين بالعولمة الذين يريدون — مثلنا - أن يعرفوا جذور الاقتصاد الدولي إبان أوائل القرن الحادي والعشرين ويفهموها على نحو أفضل. ونأمل قبل ذلك أن تضيف الطريقة التي قاربنا بها الأدلة كاقتصاديين بعض القيمة إلى الجدل التاريخي.

ومع أن تخصصنا العلمي يوجهنا بصرامة ويشكّل حجتنا في كل نقطة، فقد رأينا أنه من غير الضروري أن نشوّه النص بالتحليلات الرياضية أو الكمية المعتمدة، لكننا نحيل

(٢٢) الفاتح conquistadore هو الفاتح الإسباني تحديداً، في إشارة إلى القسوة والنهب اللذين ميّزا الاستعمار الإسباني، كما تجسدت في أفعال فاتحين من أمثال إيرنان كورتيز الذي أخضع شعب وإمبراطورية الأزتك، وفرانثيسكو بيزارو الذي أخضع قبائل الإنكا [المترجم].

(٢٣) على أساس أن الاستعمار في كل أشكاله، من الأمريكتين بشعوبها التي كانت مقطوعة الصلة بالعالم القديم، إلى المنطقة العربية والصين والهند وأمثالها بشعوبها التي كانت حاضنة الحضارة على مدى القرون، كان يتذرع- أي هذا الاستعمار- بأنه إنما جاء ليمدّن هذه الشعوب وينقل إليها الحضارة أو يدخلها في الحضارة [المترجم].

القارئ كثيراً إلى أعمال، بعضها أعمالنا، تستخدم هذه الطرق للتوصل إلى استنتاجات قد تهم القارئ العام. ويستطيع كلانا أن يقول – عن حق – إن معرفته بالتطور التاريخي للاقتصاد العالمي قد زادت كثيراً بعد كتابة هذا الكتاب عما كانت عليه حين بدأنا العمل فيه، على الرغم من أننا كرّسنا معظم حياتنا المهنية السابقة لدراسته. وكل ما نتمناه هو أن ينتقل إلى القارئ بعض الإثارة والفهم اللذين بثهما فينا هذا المشروع الطموح.

ملحوظة حول التواريخ

تشير التواريخ التي تلي أسماء الملوك وغيرهم من الحكام إلى بداية عهودهم ونهاياتها. فيما تشير التواريخ التي تلي أسماء غيرهم من الأشخاص إلى تواريخ ميلادهم ووفاتهم.

المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني

الفصل الأول

مقدمة

خلفية جغرافية وتاريخية

INTROUCTION

GEOGRAPHICAL AND HISTORICAL BACKGROUND

يتناول هذا الكتاب تطور نمط التجارة العالمية وبنيتها على مدار الألفية الماضية. على أننا حين نستخدم مصطلح "التجارة العالمية" world trade للعام الحالي أو أية فترة في الماضي القريب، تكون دلالتها واضحة لا لبس فيها. فالوحدات المكوِّنة للنظام، في هذه الحالة، تكون الدول القومية الفردية ذات السيادة، وتكون "التجارة العالمية" هي السلع والخدمات التي تتدفق بينها عبر الحدود الوطنية. ويمكن تصنيف الدول القومية الفردية بعدة طرق مختلفة، كأن يكون التصنيف جغرافياً على أساس القارة أو المنطقة المناخية، أو بحسب "مرحلة النمو" من حيث مستوى الدخل الفردي، أو الهبات النسبية للدول من حيث عوامل الإنتاج. ويمكننا بعد ذلك أن نربط أي تصنيف للسلع التي تدخل التجارة العالمية، مثل "المنتجات الأولية" أو "السلع المصنعة" أو السلع "كثيفة رأس المال" أو "كثيفة العمالة"، بالخصائص الجغرافية أو غيرها من خصائص الدول، وهذا هو ما نعنيه بـ"نمط التجارة العالمية وبنيتها".

لكننا حين نتحول إلى التطور طويل المدى "للتجارة العالمية ونمطها وبنيتها"، تظهر مجموعة كبيرة من المشكلات. فما نقاط البداية والنهاية التي يجب أن يُفحَص بينها هذا التطور؟ وماذا لو تغيرت الحدود السياسية، كما يحدث كثيراً، ما يجعل "الدول" الموجودة عند نقطة النهاية غير موجودة عند نقطة البداية، أو الموجودة في البداية غير موجودة عند نقطة النهاية؟ وكلما طال المدى الزمني المختار، زادت حدة هذه المشكلة، والألفية فترة طويلة جداً. قدم مورو Mauro حلاً جريئاً لهذه الصعوبة في مقالة مهمة اقترح فيها "نموذجاً عابراً للقارات" لدراسة التجارة العالمية إبان العصر الحديث المبكر(١) في شكل جدول أو مصفوفة مدخلات-مخرجات عابرة للمناطق، تسجل تدفقات السلع والمعادن النفيسة بين القارات على مر الزمن[١]. وذلك من شأنه أن يتغلب على مشكلة الحدود السياسية المتغيرة باستبدال الدولة القومية سريعة الزوال بالكيان الجغرافي الثابت، وهو القارة. وفي نهاية مقالته، ذكر مورو صراحة الأعمال القيّمة "للجنة العلمية الدولية فيما بين الحربين حول تاريخ الأسعار"[٢] التي جمعت بيانات دولية مقارنة للأسعار لعدة دول، وعبّر مورو عن أمله في أن يملأ هذا الجهد التعاوني مصفوفته التجارية للعصر الحديث المبكر والفترات الأخرى. ومع أن هذا الأمل لم يتحقق حتى الآن، فإننا نتبنى الإطار التنظيمي الأساسي لمورو على امتداد هذا الكتاب. صحيح أننا لن نتجاهل تدفقات السلع والخدمات داخل المناطق، لكن تركيزنا ينصب بالدرجة الأولى على التدفقات بين المناطق والقارات.

يلفت لويس وويغن Lewis and Wigen في عنوان عملهما المثير الانتباه إلى أن الفكرة التي تذهب إلى أن كون القارات تقسيمات ثابتة وواضحة لسطح الأرض، فكرة لا تخلو من الأسطورة[٣]. ويسكّ المؤلفان المصطلح المفيد "ما وراء الجغرافيا" metageography للإشارة إلى "مجموعة الأبنية المكانية التي ينظم الناس معرفتهم بالعالم

(١) يغطي العصر الحديث القرون من السادس عشر إلى العشرين، ويغطي العصر الحديث المبكر منها القرون من السادس عشر إلى الثامن عشر [المترجم].

من خلالها"[٤]. ومن أمثلة ما وراء الجغرافيا، إضافة إلى مثال القارات المألوف، تقسيم العالم إلى "شمال وجنوب" بين الدول المتقدمة والنامية، أو تصنيف العالم إلى العالم الأول والثاني والثالث(٢)، الذي كان شائعاً في أثناء الحرب الباردة. وفي حين تشكل أستراليا وأفريقيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية والقارة القطبية الجنوبية كيانات مادية متمايزة ذات حدود طبيعية واضحة المعالم، فإن فصل أوروبا عن بقية الكتلة الأوراسية المتاخمة يعد أمراً تعسفياً وإشكالياً. فجبال الأورال التي تُذكَر كثيراً باعتبارها الفاصل بين القارتين، لم تكن أبداً حاجزاً مؤثراً، وثمة جدل منذ فترة طويلة حول انتماء روسيا إلى أوروبا أم آسيا أم كليهما. وفي أثناء كتابة هذا الكتاب كانت مسألة حدود أوروبا الشرقية أحد مصادر الصداع السياسي الرئيسة التي تواجه قادة أوروبا.

لكن ثمة تصنيفات لسطح الكرة الأرضية أساسية جداً لأغراضنا. فيقترح لويس وويغن مفهوم "المناطق العالمية"، وهي على وجه التحديد "تكتلات متعددة الدول، تُحدَد ليس بانفصالها المادي عن إحداها الأخرى (كما هي الحال مع القارات)، بل (نظريا) على أساس الروابط التاريخية والثقافية المهمة التي تجمعها"[٥]. فيما يلي نميّز بين سبع "مناطق عالمية" تغطي الكتلة الأوراسية وأفريقيا شمال الصحراء الكبرى، وهي:

١- أوروبا الغربية.

٢- أوروبا الشرقية.

٣-جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا.

٤-آسيا الوسطى أو الداخلية.

٥- جنوب آسيا.

---

(٢) ربما لا يعلم كثيرون أن ثمة عالماً ثانياً كان يوجد بين العالم الأول والعالم الثالث في أثناء الحرب الباردة. فبين العالم الأول المتمثل في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، والعالم الثالث المتمثل في الدول غير المنحازة لأي من الكتلتين الغربية والشرقية، ثمة عالم ثان ضم الدول الصناعية الاشتراكية بالكتلة الشرقية السابقة. وبعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، أخذ مصطلح "العالم الأول" يشير إلى الدول المتقدمة عموماً، في مقابل العالم الثالث الذي يشير إلى الدول النامية عموماً [المترجم].

٦- جنوب شرق آسيا.

٧- شرق آسيا.

تتحدد هذه المناطق وتنفصل عن بعضها بخطوط جغرافية، لكن الأهم من ذلك أنها تتحدد أيضاً بخطوط ثقافية وسياسية واجتماعية تعطي لكل منها قدراً من التماسك والوحدة وتميّزها عن المناطق الأخرى. وقد كان الاندماج الاقتصادي أكثر تقدماً داخل كل منطقة منه بين المناطق، وذلك بالدرجة الأولى نتيجة لهذه الانقسامات السياسية والثقافية. ويذهب ديفيد نورثروب David Northrup[٦] إلى أن نهاية الألفية الأولى كانت نقطة تحول بدأت فيها قوى التباعد الثقافي والسياسي بين مناطق العالم، مع تكيف السكان مع بيئاتهم المحلية، تتراجع أمام قوى تقارب مقابلة لا تقل قوة"[٣].

وقد قصرنا أنفسنا في البداية على هذا "المعمور الأفريقي-الأوراسي"، لأن تركيزنا ينصب على التجارة بين القارات والمناطق، قبل أن تنجح رحلات الاستكشاف الأوروبية إبان العقد الأخير من القرن الخامس عشر في دمج الأمريكتين وأستراليا في التجارة مع مناطق العالم الأخرى. كما أننا سندرس التدفقات التجارية بين مناطقنا السبع ومنطقة ثامنة، هي أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، في حال الضرورة، دون اعتبار أفريقيا جنوب الصحراء منطقة منفصلة. ولذلك نعترف بأن الفصول الأولى من كتابنا "متمركزة حول أوراسيا" وأن تلك نقيصة، وإن كانت نقيصة حتمية بسبب حدود معرفتنا.

لكن في المقابل، كانت مناطقنا السبع تضم الغالبية الساحقة من سكان العالم في العام ١٠٠٠، على الأقل إذا قبلنا الأرقام التقديرية، وإن كانت لا غنى عنها، الواردة في "أطلس تاريخ سكان العالم" لماكيفيدي وجونز McEvedy and Jones[٧]. وأعداد السكان

---

(٣) يرى فيرنانديز أرمستو (Fernandez Armesto, 2006) أن قوى التباعد والتقارب تداخلت "ربما على مدى الأعوام العشرة آلاف الأخيرة أو نحوها" (ص ٢). ويقترح بنتلي (Bentley, 1996, p. 750) أيضاً تحقيباً للتاريخ العالمي "بفحص مشاركة شعوب العالم في عمليات تجاوز المجتمعات الفردية والمناطق الثقافية"، ويؤكد أن "التفاعلات الثقافية تقدمت وفقاً لدينامية مختلفة" إبان القرون التالية للعام ١٠٠٠ التي يصفها بأنها "عصر الإمبراطوريات البدوية العابرة للمناطق" (p. 766) الذي كان فاتحة للعصر الحديث.

التي يزوّدنا بها هذا العمل هي خمسة وعشرون مليوناً لأوروبا الغربية، وخمسة عشر مليوناً لأوروبا الشرقية، وثمانية وعشرون مليوناً للعالم الإسلامي، وتسعة ملايين لآسيا الوسطى، وتسعة وسبعون مليوناً لجنوب آسيا، وتسعة ملايين لجنوب شرق آسيا، وسبعة وستون مليوناً لشرق آسيا (تضم الصين وحدها ستين مليونا)، وبذلك يكون إجمالي عدد سكان العالم الأوراسي الذي نبدأ به دراستنا هو مائتان واثنان وثلاثون مليوناً، وفي المقابل كان إجمالي سكان العالم في العام ١٠٠٠ هو مائتان وخمسة وستون مليوناً، ما يجعل مناطقنا السبع تشكل ٩٠٪ تقريباً من سكان العالم في بداية الفترة. على أن قائمة "المناطق العالمية" التي نعمل عليها اتسعت وعدلت لاحقاً في ضوء تطور الاقتصاد العالمي بعد العقد الأخير من القرن الخامس عشر.

أوروبا الغربية(٤)

إننا نستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى أقصى الطرف الغربي لليابسة الأوراسية الذي يبدأ تقريباً عند الحدود الشرقية للدول القومية المعاصرة بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا السابقة، ويتضمن أيضاً كل الجزر البعيدة عن الشاطئ في المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط (انظر الشكل رقم ١,١). وقد اخترنا الحد الشرقي بحيث يعكس مدى التأثير الثقافي المرتبط بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية والأبجدية اللاتينية. وعلى ذلك، فإن الأمتين السلافيتين الغربيتين البولندية والتشيكية تندرجان في أوروبا الغربية، في حين لا يندرج فيها الروس السلافيون الشرقيون والصرب السلافيون الجنوبيون. ويندرج فيها أيضاً المجريون على أساس انتمائهم الديني إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، على الرغم من اختلافاتهم العرقية واللغوية عن بقية العالم المسيحي اللاتيني. فتقسيمنا لأوروبا الغربية والشرقية يقوم على الاختلاف بين

---

(٤) تتضمن مصادر هذا القسم Barraclough (1976), Bartlett (1993), Becher (2003), Boussard (1976), Collins (1991), McCormick (2001), McEvedy (1961), McKitterick (1995, parts I and II), Murphey (1970), O'Brien (2002), Renter (1999, parts I and II), and Riche (1993).

ميراث القرعين الغربي والشرقي للمسيحية ودوره في تشكيل المؤسسات السياسية والاجتماعية بالمنطقتين. ولغوياً، يتضمن تعريفنا لأوروبا الغربية كل اللغات الرومانسية[٥]، ما عدا اللغة الرومانية، وكل اللغات الجرمانية والسلتية والبولندية والتشيكية والسلوفاكية واللاتفية والليتوانية والباسكية والفنلندية والمجرية.



الشكل رقم (١,١) أوروبا الغربية.

(٥) اللغات الرومانسية Romance languages تعرف أيضاً باسم اللغات اللاتينية أو اللاتينية المُحْدثة، هي مجموعة اللغات المرتبطة المتولدة عن اللاتينية الدارجة وتشكل أحد فروع عائلة اللغات الهندوأوروبية، ومنها الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والرومانية وغيرها [المترجم].

جغرافياً، تتميّز هذه المنطقة بكثير من المزايا الطبيعية المعروفة، ربما كان أهمها ارتفاع نسبة الشريط الساحلي إلى مساحة اليابسة، وهي نسبة تفوق أية قارة أخرى، وفقاً لرودز مورفي Rhoads Murphey[٨]. وتتميّز أوروبا الغربية أيضاً بأدنى متوسط ارتفاع عن سطح البحر وأكبر نسبة سهول[٩]. وتتمتع بدرجة حرارة معتدلة نسبياً بالنسبة إلى خطوط العرض بسبب تأثير تيار الخليج. والسهل الأوروبي العظيم الذي يمتد بلا انقطاع من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال خصب ومثمر جداً منذ القدم. كما ساعدت الأنهار الكثيرة التي تصرف في بحر البلطيق وبحر الشمال والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط في خفض تكاليف النقل والربط بين مناطق الأسواق. وتوفر السلاسل الجبلية التي تشكل العمود الفقري المركزي لشبه الجزيرة، غابة ومرعى ثميناً للماشية في الوديان العالية، وتتخللها طرق وشعاب تربط شواطئ البحر الأبيض المتوسط في الجنوب بشواطئ البلطيق والأطلسي في الشمال. كما لاحظ إيريك جونز وجود عدد كاف من الحواجز الطبيعية في المنطقة- مثل جبال الألب وجبال البرانس والقنال الإنجليزي على سبيل المثال لا الحصر- تجعل توحيدها سياسياً غير ممكن من الناحية العسكرية[١٠]. وأخيراً، يلاحظ مورفي أن أوروبا الغربية تمثل "رأس المثلث الكبير الذي تشكله أوراسيا كلها" و"نقطة القُمْع البرية"[١١] التي يمكن أن تتدفق عبرها التأثيرات بكل أنواعها من الشرق إلى الغرب(٦).

تاريخياً، تشكلت المنطقة بفعل ميراث المؤسسات الثقافية والقانونية والإدارية للإمبراطورية الرومانية وعقيدة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وممارساتها، ليس في المناطق الجنوبية للحكم الروماني المباشر وحسب، بل أيضاً في منطقة القبائل الجرمانية الشمالية التي اجتاحت الإمبراطورية إبان القرنين الرابع والخامس وتشربت هذا

---

(٦) حول هذه النقطة الأخيرة، انظر Diamond (1997).

الميراث، وكذلك المناطق التي لم تكن يوماً جزءاً من الإمبراطورية، وبخاصة أيرلندا واسكتلندا واسكندينافيا. هذا الانصهار للميراث "الجنوبي" القادم من العصر القديم المتأخر مع الطاقة والمهارة الحربية للغزاة الشماليين أنتج في النهاية الإمبراطورية الكارولينجية[٧] التي امتدت من المحيط الأطلسي وجبال البرانس إلى جبال الألب ونهر الدانوب، أي معظم أوروبا الغربية القارية كما عرفّناها، فيما عدا شبه الجزيرة الأيبيرية والاسكندينافية. لكن هذه الوحدة السياسية التي بدأت بتتويج البابا للحاكم الفرنجي شارلمان إمبراطوراً رومانياً مقدساً في العام ٨٠٠ لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما تفككت الإمبراطورية إلى ممالك وإمارات متنافسة.

كان جد شارلمان هو شارل مارتل "رئيس القصر"[٨] الميروفنجي[٩] الذي هزم قوة غازية عربية قادمة من إسبانيا في معركة بواتييه[١٠] في العام ٧٣٢، وهي المعركة التي وضعت حداً لاختراق العرب المسلمين لأوروبا. وكان أبوه بيبين القصير Pepin the Short الذي خلع آخر الملوك الميروفنجيين في العام ٧٥١ وأخذ التاج الفرنجي لنفسه. وخلف شارلمان أباه ملكاً للفرنجة في العام ٧٦٨. ونفذ الحاكم الجديد سلسلة

(٧) تشير الإمبراطورية الكارولينجية إلى مملكة الفرنجة في أثناء حكم السلالة الكارولينجية في العصور الوسطى المبكرة، تأسست بتتويج البابا ليو الثالث لشارلمان أو شارل الأكبر إمبراطوراً رومانياً مقدساً في العام ٨٠٠، وانتهت بوفاة شارل البدين Charles the Fat في العام ٨٨٨، وتعتبر هذه الإمبراطورية سلف فرنسا وألمانيا الحديثتين [المترجم].

(٨) رئيس القصر mayor of the palace لقب أو منصب في القرون الوسطى المبكرة، مأخوذ من اللقب اللاتيني maior domus (كبير المنزل) كان يستخدم خصيصاً في الممالك الفرنجية في القرنين السابع والثامن الميلاديين لوصف كبار النبلاء والإقطاعيين [المترجم].

(٩) الميروفنجيون Merovingians هم السلالة التي حكمت إمبراطورية الفرنجة Francia لثلاثة قرون بداية من منتصف القرن الخامس، وتلتهم السلالة الكارولينجية [المترجم].

(١٠) وقعت المعركة الرئيسة المعروفة باسم بواتييه Poitiers، أو بلاط الشهداء كما تعرف في التاريخ الإسلامي، في العاشر من أكتوبر ٧٣٢، وانتصر فيها الفرنجة بقيادة شارل مارتل على المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي، وكانت أكبر هزيمة للمسلمين في فتح غرب أوروبا، وبسببها توقف هذا الفتح عند حدود الأندلس التاريخية [المترجم].

من الحملات العسكرية العدوانية ضد السكسونيين[١١] وأدخلهم بالقوة في المسيحية، وضد الأفار[١٢]، أولئك الغزاة البدو من آسيا الوسطى الذين أسسوا قاعدة لهم في أوروبا الوسطى. دمر شارلمان الأفار تماماً، ووزع كنوزهم الهائلة التي نهبوها سابقا على الكنيسة وعلى أتباعه. وبناءً على استغاثة من البابا لمساعدته ضد الملك اللومباردي[١٣] لشمال إيطاليا، عبر شارلمان جبال الألب وخلع الحاكم اللومباردي، وبعدها توّجه الحبر الممتن ملكاً للفرنجة واللومبارديين وإمبراطوراً رومانياً مقدساً. وبعد موت شارلمان في العام ٨١٤، حكم ابنه لويس الورع Louis the Pious الإمبراطورية فترة خلت من الاستقرار حتى وفاته في العام ٨٤٠ الذي انتقلت فيه الإمبراطورية إلى ابنه الأكبر لوثار Lothar، لكن أخوي الأخير: شارل الأصلع Charles the Bald في الغرب ولويس الجرماني Louis the German في الشرق، تحديا مطالبته بدولة موحدة. واتحد الأخوان الصغيران وألحقا بلوثار هزيمة حاسمة في معركة فونتنوي Fontenoy في العام ٨٤١ وأرغموه على تقسيم الإمبراطورية بين ثلاثتهم، مع احتفاظه باللقب الإمبراطوري.

وهذا التقسيم لإمبراطورية شارلمان إلى ثلاثة أجزاء عمودية من الشمال إلى الجنوب متاخمة لإحداها الأخرى بموجب معاهدة فيردان Treaty of Verdun في العام ٨٤٣، غالباً ما يعد بداية الدولتين القوميتين اللاحقتين في فرنسا إلى الغرب وفي ألمانيا

(١١) السكسونيون Saxons اتحاد من القبائل الجرمانية قطنت السهول الألمانية الشمالية، بعضها هاجر إلى بريطانيا في العصور الوسطى، وبعضها أغار على أوروبا الغربية وأسقط الإمبراطورية الرومانية [المترجم].

(١٢) الأفار Avars قبائل بدوية فروسية سيطرت على آسيا الوسطى في القرنين الرابع والخامس، وحين أجْلَتهم قبائل أقوى منهم، اندفعوا غرباً وأقاموا إمبراطورية شملت أجزاء كبيرة من أوروبا الوسطى والشرقية من أواخر القرن السادس حتى القرن التاسع [المترجم].

(١٣) اللومبارديون Lombards قبيلة جرمانية حكمت مملكة إيطاليا من العام ٥٥٨ إلى العام ٦٦٤ [المترجم].

إلى الشرق، وكان بمثابة "شهادة الميلاد لأوروبا الحديثة" كما يقول ريتش Riche بصياغته البليغة[١٢]. كان الشريط الأوسط الممتد من بحر الشمال إلى إيطاليا هو الإقليم الذي احتفظ للوثار باللقب الإمبراطوري. ثم انقرضت السلالة الكارولينجية في النهاية وحلت محلها في فرنسا السلالة الكابيتية(١٤) في العام ٩٨٧، وفي ألمانيا حل محلهم الأوتونيون(١٥) السكسونيون.

كانت إمبراطورية شارلمان في أوج اتساعها مهولة حقاً. فيقول بيتشر Becher إنها غطت مليون كيلو متر مربع(١٦)، وضمت مائة وثمانين أبرشية وسبعمائة دير وسبعمائة وخمسين ضيعة مَلكية ومائة وخمسين قصراً وزهاء سبعمائة منطقة إدارية[١٣]. وبالنظر إلى التقنية والموارد المتوفرة، كان من المستحيل فرض إدارة مركزية موحدة على هذه المملكة الشاسعة. ولم يكن بمقدور البلاط أن يبقى دائماً في العاصمة آخن(١٧)، فكان يتنقل من مكان لآخر على مدار العام. وكانت المناطق الإدارية يديرها كونتات، وأحياناً يشرف أدواق على مجموعات من هذه الكونتيات. ومورست السيطرة المركزية من خلال إرسال مبعوثين ملكيين، وجرت المراسلات الدبلوماسية والسجلات

---

(١٤) الكابيتيون Capetians أو آل فرنسا هم أكبر وأقدم سلالة حاكمة في أوروبا، تنتسب إلى الملك أوغو كابيه الفرنسي Hugh Capet of France، حكمت فروعها بلاداً أوروبية مختلفة، ومنها سلالة البوربون التي ينتمي إليها حالياً ملك إسبانيا ودوق لوكسمبورج الأكبر [المترجم].

(١٥) الأوتونيون Ottonians سلالة حاكمة جرمانية (٩١٩- ١٠٢٤) سميت على اسم الإمبراطور الأول فيها، وتسمى أيضاً آل سكسونيا، خلفت السلالة الكارولينجية في حكم ألمانيا والإمبراطورية الرومانية [المترجم].

(١٦) مع أن مساحة المليون كيلومتر مربع ليست ضخمة بالنسبة لمساحات الدول في عصرنا الحالي وحتى الدول الإسلامية والآسيوية في ذلك العصر، إلا أنها كانت شاسعة ومترامية الأطراف في عصر الكارولينجيين بالنظر إلى أن أوروبا الغربية كانت ممزقة بين مئات الإمارات والكونتيات والدوقيات الصغيرة المستقلة [المترجم].

(١٧) آخن Aachen منتجع قديم في شمال ولاية شمال الراين- ويستفاليا بألمانيا، كانت مقر الإقامة المفضل لشارلمان، ولاحقاً قصر تتويج ملوك ألمانيا [المترجم].

الإدارية تحت إشراف رجال الدين في المصلى الملكي. وبعد تقسيم الإمبراطورية بالقرب من نهاية القرن التاسع، بدا الأدواق والكونتات المختلفون، وحتى قادة محليون أدنى مستوى، في الاستقلال شيئاً فشيئاً في حكم مقاطعاتهم، ولم يعد يربط بينهم إلا الروابط الإقطاعية الأوسع. وقد كان هذا الميل ملحوظاً بدرجة أكبر في الأقسام الغربية للإمبراطورية التي تعرف الآن باسم فرنسا.

أما في القسم الشرقي أو الجرماني من الإمبراطورية، فقد تم الحفاظ على وحدة الدولة لمدى أطول كثيراً، إذ مات آخر ملوك الكارولينجيين في العام ٩١١ وحل محله في العام ٩١٨ هنري Henry دوق سكسونيا الذي أسس الدولة الأوتونية التي دامت حتى العام ١٠٢٤. وكانت المملكة الجرمانية في هذا العصر اتحاداً من بضعة دوقيات كبرى مثل سكسونيا وبافاريا وفرانكونيا Franconia وتورنغن Thuringia وشوابيا Swabia. وانحدرت الأسر الحاكمة الدوقية، كما يشير بيركلوف Barraclough، في معظمها من قادة الجيوش الحدودية الإمبراطورية الذين كانت تربطهم علاقات ولاء تقليدية بالسلطة المركزية[١٤]. وكانوا مستعدين لانتخاب أو ترشيح واحد منهم لكي يكون أعلى قليلاً من "الأول بين أنداد"(١٨) من أجل مصلحتهم الجماعية ضد الأعداء البرابرة وغيرهم. وفي أثناء العهد الطويل لأوتو الأكبر Otto the Great (٩٣٦-٩٧٣)، كانت المملكة الجرمانية بوضوح هي الدولة الأقوى في أوروبا كلها، وحققت انتصارات عسكرية على القبائل السلافية الشرقية، وبشكل خاص على المجريين (في معركة ليتشفيلد Lechfeld في العام ٩٥٥)، وهم قبائل ظلوا ينهبون كل الأراضي المستقرة حولهم على مدى عقود.

ومثلما فعل شارلمان، غزا أوتو إيطاليا لحماية البابا وتوّجه البابا إمبراطوراً رومانياً مقدساً في روما في العام ٩٦٢، وهو اللقب الذي استمر حتى ألغاه نابليون في

(١٨) في أوروبا العصور الوسطى، كان أمراء الإقطاع يتمتعون باستقلالية كبيرة عن السلطة المركزية، حتى لم يكن الملك يمثل بينهم إلا "الأول بين أنداد" كما في العبارة التقليدية المعبرة [المترجم].

العام ١٨٠٦. وعلى الرغم من المكانة التي كان هذا اللقب يعطيها لحامله، فإنه على أرض الواقع لم يتضمن شيئاً أكثر من إضافة شمال إيطاليا إلى الأراضي التي حكمها أوتو وخلفاؤه في ممتلكاتهم المحلية، فضلاً عن نفوذ كبير على الدول والمدن الأخرى في كل من ألمانيا وإيطاليا. كما أدخلهم في صراع طويل ومنهك مع البابوية على تقليد الأساقفة والقضايا الأخرى التي تتضمن "الفصل بين الكنيسة والدولة".

وعلى الرغم من سحر هذه الغزوات الإيطالية، فقد تمثلت الاندفاعة الأساسية للأوتونيين في ضغطهم المستمر وتوسعهم في السهول المفتوحة في الشرق على حساب القبائل السلافية الوثنية. وكما فعل الفرنجة مع السكسونيين الذين ينتمي إليهم الأوتونيون أنفسهم قبل قرنين، اتبع السكسونيون سياسة الغزو والتحويل الإجباري إلى المسيحية مع القبائل السلافية التي وجدوها في طريقهم. واتسعت حدود دولتهم شرقاً بتأسيس قلاع وحاميات على طول "الحدود"، وأيضاً من خلال المؤسسات الكنسية التي كان من أهمها مؤسسة ماغديبرغ[١٩]. وتسببت ثورة كبرى من جانب السلاف في العام ٩٨٣ في إيقاف التوسع مؤقتاً، لكنه استؤنف بعد جيل. وكان تأييد الكنيسة آلية سياسية رئيسة للأوتونيين، ما عزز سلطتهم، ليس على الحدود فقط، بل أيضاً داخل دوقياتهم ذاتها. وتوفي أوتو الثالث حفيد أوتو الأكبر في العام ١٠٠٢ في عمر الحادية والعشرين، قبل أن تتحقق خططه الطموحة لإعادة توحيد الإمبراطوريتين والكنيستين الشرقية والغربية بالزواج من أميرة بيزنطية. لكن بقيت قوة الأوتونيين وهيبتهم بفضل السلالة الصالية[٢٠] التالية التي بدأ حكمها في العام ١٠٢٥.

---

(١٩) ماغديبرغ Magdeburg عاصمة بوندزلند بألمانيا، تقع على نهر إلبه، كانت في العصور الوسطى من أهم المدن في أوروبا [المترجم].

(٢٠) الصاليون Salians جماعة فرعية من الفرنجة كانوا يعيشون في شمال الليمز Limes في منطقة شمال الراين، وكان منهم السلالة الميروفنجية التي فتحت بلاد الغال (فرنسا الحديثة تقريبا)، وكانوا أول القبائل الجرمانية التي استوطنت بشكل دائم في الأراضي الرومانية [المترجم].

حدث تطور مهم إبان القرن العاشر، نتج عن نجاح الأوتونيين، وهو انتشار المسيحية الكاثوليكية الرومانية بين الشعوب السلافية الغربية في بوهيميا وبولندا، وبين الغزاة المجريين البدو السابقين بعد هزيمتهم في ليتشفيلد مباشرة. وانتشرت المسيحية كذلك بين التشيكيين في بوهيميا الذين كانوا يقطنون وادي فلتافا Vltava، أحد روافد نهر إلبة، بفعل الضغط الجرماني إبان أوائل القرن العاشر، وفيما بعد أُنشِئت أسقفية في عاصمتهم براغ. ومنذ ذلك الحين أصبحت بوهيميا دوقية تابعة للإمبراطورية الجرمانية، وكوّنت روابط وثيقة مع بافاريا. ودخل الحاكم البولندي ميسكو الأول Mieszko the First من السلالة البياستية[٢١] في المسيحية، وفي نحو العام ٩٦٦ وضع أملاكه بدهاء تحت حماية الكرسي البابوي للحيلولة دون الهيمنة الجرمانية الكاملة على مملكته. ووسع خليفته بلوسلو شروبري Boleslaw Chrobry "الشجاع" المملكة في كل الاتجاهات على حساب الشعوب السلافية الأخرى، فيما حافظ على علاقات طيبة عموماً مع الإمبراطورية. وساعده أوتو الثالث في تأسيس عاصمته غنيزنو Gniezno أسقفية في العام ١٠٠٠. وشهد هذا العام نفسه أيضاً تتويج القديس المستقبلي ستيفن Stephen ملكاً للمجر بعد دخوله وأبيه غيزا Geza في المسيحية في العام ٩٩٥، وتلا ذلك تأسيس أسقفية في استرغوم Esztergom. وهكذا، فبحلول العام ١٠٠٠، كانت المسيحية الكاثوليكية الرومانية قد بلغت حدودها الشرقية، ولم يكن يتبقى غير البروسيين والبلطيين[٢٢] والفنلنديين الذين دخلوا المسيحية لاحقاً[٢٣].

---

(٢١) السلالة البياستية Piasts أول سلالة حاكمة لبولندا، أسسها الأمير ميسكو Mieszko بالقرن العاشر، وانتهى حكمها في بولندا في العام ١٣٧٠ بوفاة كازيمير الأكبر Casimir the Great، لكنها استمرت في دوقية سلسيا Silesia وماسوفيا Masovia حتى العام ١٦٧٥ [المترجم].

(٢٢) البلطيون Balts شعوب تتحدث اللغة البلطية، من العائلة اللغوية الهندوأوروبية، عاشت في المنطقة الواقعة شرق شبه جزيرة غوتلند في غرب موسكو وفي حوض نهري أوكا Oka والفولغا في الشرق [المترجم].

نتحول الآن إلى الشمال الغربي حيث الجزر البريطانية التي يفصلها بحر الشمال والقنال الإنجليزي عن اليابسة الأوروبية، ما جعلها تجتاز تطوراً مختلفاً تماماً، لكنه اتبع العمليات التاريخية الواسعة عينها. كانت إنجلترا قد أدمجت في الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الأول قبل الميلاد، وكان سور هادريان يفصلها عن شعب البكتيين[٢٤] في اسكتلندا. وشهد هذا البلد تأثيراً رومانياً مكثفاً تجلى في شبكة الطرق والمراكز الحضرية المزدهرة مثل لندن ويورك. لكن إبان أوائل القرن الخامس، سحبت روما فيالقها، فغزا الجزيرة الأنجلو والسكسونيون من الأراضي الجرمانية، واليوتيون[٢٥] من الأراضي الدنمركية. فاندفع البريطانيون المحليون إلى ويلز والمناطق الغربية الأخرى أو عبر القنال إلى بريتاني. ومع نهاية القرن السادس، كانت إنجلترا مقسمة فعلياً إلى نحو ست ممالك أنجلوسكسونية متنافسة.

ومع أن الغزاة كانوا وثنيين، فقد بقي الحضور المسيحي على الحافات الغربية للجزر البريطانية، وبخاصة في أيرلندا التي أدخلها في المسيحية مبشرون من بريطانيا الرومانية من أمثال القديس باتريك Patrick. وانقلبت الأدوار في العام ٥٦٣، حين وصل القديس الأيرلندي كولومبا Columba إلى جزيرة أيونا في اسكتلندا. ومن هذه القاعدة الكلتية[٢٦]، نجح المبشرون في إدخال اسكتلندا وشمال إنجلترا في المسيحية،

---

(٢٣) معنى ذلك أن انتشار المسيحية بين كثير من شعوب أوروبا، بما في ذلك أوروبا الغربية نفسها، حدث بعد نحو ألف عام من ميلاد المسيح، وبعد انتشار الإسلام بنحو ثلاثة قرون. وبالمثل لم تعتنق شعوب الملايو الإسلام إلا في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الملاديين، أي بعد أكثر من ستة قرون من بعثة النبي محمد [المترجم].

(٢٤) البكتيون Picts جماعة من السلتيين عاشت في اسكتلندا الشرقية والشمالية [المترجم].

(٢٥) اليوتيون Jutes أحد أقوى الشعوب الجرمانية في الليمز Limes، إلى جانب السكسونيين والأنجلو، يعتقد أن نشأتهم كانت في شبه جزيرة يوتلند Jutland أو غوتلند Gotland بشمال الدنمرك [المترجم].

(٢٦) الكلتيون أو السلتيون Celts جماعة عرقية لغوية من المجتمعات القَبَلية بالعصر الحديدي والعصور الوسطى، عاشت في الحافة الكلتية على ساحل الأطلسي في غرب أوروبا [المترجم].

وأسسوا مراكز مثل ليندسفارن Lindisfarne في نورثمبريا في العام ٦٣٥. وهذا الدور البارز نسبياً لأيرلندا التي دخلت بعد ذلك في حالة من الركود، انعكس في كونها المنتج الأوروبي الأول للكتب بالنسبة إلى عدد سكانها إبان القرنين الثامن والتاسع[١٥]. وكان من الأحداث المهمة في إعادة تأسيس الصلات الإنجليزية مع أوروبا القارية قرار البابا جريجوري الأكبر في العام ٥٩٧ إرسال إرسالية تبشيرية برئاسة راهب يدعى أوغسطين لإعادة إنجلترا إلى العقيدة المسيحية. وكان من النجاحات المبكرة لهذه الإرسالية إدخال ملك كِنت الوثني في المسيحية، ربما بسبب زواجه من أميرة مسيحية فرنجية. وأصبح أوغسطين أول رئيس أساقفة لكانتربيري، وبحلول العام ٦٨٦ كانت كل الممالك الأنجلوسكسونية قد تحولت إلى المسيحية.

شهد القرن الثامن ازدهار هذه الممالك بفضل التوسع التجاري في مناطق بحر الشمال وبحر البلطيق. وتتضح الثروة التي كوّنها الملوك الأنجلوسكسونيون من التجارة والإتاوات ونهب في الكنوز الضخمة التي اِكتُشِفت في العام ١٩٣٩ في مقبرة السفن الشهيرة لأحد هؤلاء الملوك في ساتن هو[٢٧]. على أن المسيحية التي أعلنها هؤلاء الحكام جميعاً لم تردعهم عن شن حروب مستمرة ضد أحدهم الآخر، انتهت بإقرار "السيادة الميرسية"، بمعنى هيمنة مملكة ميرسيا Mercia الوسطى على كل الممالك الأخرى لمعظم القرن الثامن وأوائل القرن التاسع. واشتهر الملك أوفا Offa الذي حكم من العام ٧٥٧ إلى العام ٧٩٦ بحجم عملته ونوعيتها ونطاق الأشغال العامة التي نفذها، ومنها سياج أوفا Offa's Dyke الشهير الذي شيّده كحاجز ضد الويلزيين، والمعاهدة التجارية التي تفاوض عليها مع معاصره العظيم شارلمان الذي عامله كنِد.

(٢٧) ساتن هو Sutton Hoo موقع أثري بالقرب من وودبريدج Woodbridge بالريف الإنجليزي في سفوك Suffolk يضم مقابر من القرنين السادس والسابع، تضم إحداها مقبرة سفن تحوي ثروة من المشغولات الأنجلوسكسونية [المترجم].

ويتجلى مستوى الثقافة الذي بلغته إنجلترا الأنجلوسكسونية في هذه الفترة في "التاريخ الكنسي للشعب الإنجليزي" الذي كتبه الكاهن بيدي Venerable Bede نحو العام ٧٣٠، وفي الحياة المهنية لألكوين اليوركي Alcuin of York، وهو عالم دين عظيم آخر.

شهد القرن التاسع نهب إنجلترا وتخريبها على أيدي الفايكنغ الدنمركيين الذين بدأوا بمهاجمة الأديرة والبلدات الساحلية قبل أن يحتلوا أراضي واسعة في الجزء الشمالي الشرقي من البلاد الذي أصبح يعرف باسم "دينلو"(٢٨) وعاصمته يورك. واجه الفايكنغ مقاومة مستميتة من الإنجليز بقيادة الملك ألفريد عاهل ويسيكس Wessex (٨٧١-٨٩٩) الذي تمكن في النهاية من هزيمة الغزاة وحصرهم في دينلو بمعاهدة، وفي النهاية استرد خلفاؤه كل المناطق المفقودة، وبحلول العام ١٠٠٠ حكموا إنجلترا كاملة كدولة موحدة. وفي هذه الأثناء، كان الملك الدنمركي هارولد بلوتوث Harold Bluetooth قد دخل المسيحية في العام ٩٦٥، تلاه مباشرة أولاف تريغفاسون Olaf Tryggvason ملك النرويج، وأولوف سكوتكوننغ Olof Skotkonung ملك السويد. وعاد الدنمركيون إلى إنجلترا بقوة بعد ذلك، وحكم حفيد هارولد المدعو كانوت Canute إنجلترا من العام ١٠١٦ إلى العام ١٠٣٥.

إن ما حاولنا أن نبيّنه بهذه الخلاصة الموجزة هو انبثاق الكيان الذي نسميه أوروبا الغربية من انصهار ميراث الإمبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية مع ميراث القبائل الكلتية والجرمانية والسلافية. يتضح هذا الانصهار جلياً في حياة ألكوين المذكور آنفاً الذي تعلم في المدرسة الكاتدرائية في يورك وقابل شارلمان في بارما(٢٩) في العام ٧٨١، حيث كان الأخير في طريقه إلى روما. وغدا ألكوين المستشار

---

(٢٨) Danelaw بمعنى أرض القانون الدنمركي في إشارة إلى غلبة الفايكنغ الدنمركيين عليها [المترجم].

(٢٩) بارما Parma مدينة إيطالية في منطقة إميليا- رومانا كانت موطن إحدى أقدم الجامعات في العالم [المترجم].

الأقوى نفوذاً بين مستشاري شارلمان، بينما عمل رئيس دير القديس مارتن بمدينة تور(٣٠) على نشر نسخة موحدة من اللغة اللاتينية المكتوبة، هي الأبجدية الكارولينجية الصغيرة. وقد وفر ذلك وسيلة لنقل المعلومات وتخزينها عبر الإمبراطورية الكارولينجية، ما مكّن من نشر كل من المعرفة الدينية والعلمانية على نطاق واسع عبر أوروبا الغربية[١٦]. ووصلت العملية التي بدأت بدخول ملك الفرنجة كلوفيس Clovis في المسيحية نحو العام ٥٠٠ إلى نهايتها بدخول ملوك التشيك والبولنديين والمجريين والاسكندينافيين في المسيحية إبان القرن الأخير من الألفية الأولى.

أوروبا الشرقية(٣١)

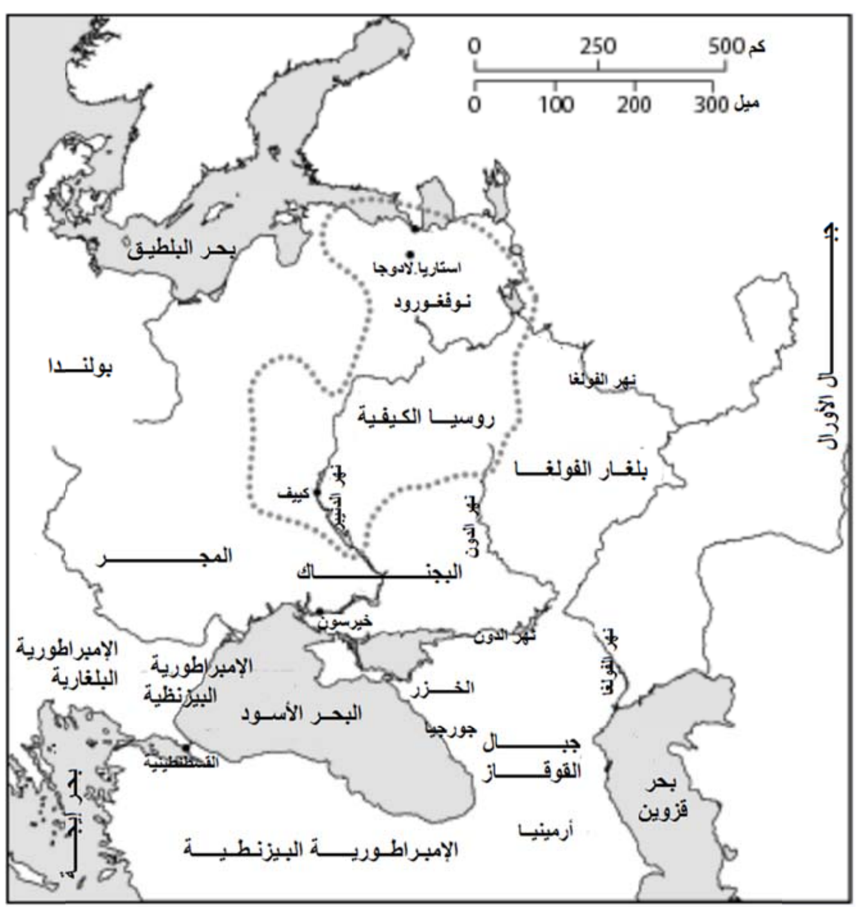
تتطابق الحدود الغربية لهذه المنطقة، من أجل أغراضنا الحالية، تقريباً مع حدود الدول المعاصرة: الاتحاد الروسي وبيلاروسيا وأوكرانيا وشبه جزيرة البلقان (انظر الشكل رقم ١,٢). تمثلت المؤثرات الثقافية التكوينية الكبرى في هذه المنطقة في الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، ولذلك فإننا نعتبر كامل منطقة الدولة التركية الحالية التي شكّلت البؤرة المركزية للإمبراطورية وعاصمتها القسطنطينية (اسطنبول حاليا) جزءاً من هذه المنطقة. أما الحدود الشرقية لهذه المنطقة، مع منطقة آسيا الوسطى أو الداخلية المجاورة، وهي إحدى مناطقنا العالمية السبع، فقد طالها التغير لاحقاً مع تغير التخوم بين الزراعة المستقرة للروس من جانب ومنطقة الغابات لجماعات الصيد والجمع الشمالية وسهل البدو الرعويين على الجانب الآخر، التي

---

(٣٠) تور Tours مدينة في وسط فرنسا على الامتدادات الدنيا لنهر اللوار بين أورليانز والساحل الأطلسي [المترجم].

(٣١) تتضمن مصادر هذا القسم Christian (1998, chapters 13 and 14), Franklin and Shepard (1996), Hoetzsch (1966, chapter 1), McEvedy (1961), Obolensky (1957), O'Brien (2002), Ruiter (1999, part III), and Vernadsky (1948).

تغيرت مراراً وتكراراً مع تغير توازن القوة العسكرية. وأوروبا الشرقية منطقة قارية ضخمة جداً تضم درجات حرارة متباينة، وتتميّز بأنهار كبرى صالحة للملاحة جزئياً مثل الدون Don والدنيبر Dnieper والفولغا التي تُصرّف في البحر الأسود وبحر قزوين. وتتمثل السلاسل الجبلية الرئيسة غير جبال البلقان في جبال الأورال والقوقاز التي تعبر البرزخ بين هذه البحرين المغلقين.



الشكل رقم (١,٢) أوروبا الشرقية.

كانت الدولة الروسية الأولى تسمى روسيا الكييفية Kievan Rus، وكانت عبارة عن اتحاد فضفاض عاصمته كييف. ينتمي الروس إلى الفايكنغ الاسكندينافيين الذين اندفعوا إلى الشرق وراء الغنائم والعمل مرتزقة في الجيوش والتجارة في الفراء والكهرمان والعبيد، في مقابل منتجات الترف والفضة من بيزنطة والعالم الإسلامي. وشكّلوا أرستقراطية محاربة صغيرة حكمت جماعات من الفلاحين السلافيين. وانفرد الروس، فيما بين كييف وإمارة نوفغورود Novgorod الشمالية، باحتكار مربح لطرق التجارة التي ربطت بحر البلطيق بالبحر الأسود وبحر قزوين على طول الأنهار والطرق الممتدة بينها. وكان على الروس دائماً أن ينازعوا شعوباً بدوية سهلية قوية مثل البلغار والبجناك(٣٢) والخزر(٣٣) على السيطرة على هذه الطرق التجارية، وكان عليهم أيضاً أن يحموا سكانهم الزراعيين المستقرين من هؤلاء النهّابين.

كان الروس والشعوب السلافية الأخرى في البداية برابرة على الحافات الشمالية للإمبراطورية البيزنطية. ووفقاً لمنطق التثاقف المألوف، تعرضت هذه الشعوب للتأثير الثقافي للحضارة الأكثر تقدماً. فدخل الصرب والبلغار والبلقانيون في المسيحية إبان القرنين الثامن والتاسع، وعُمِّد فلاديمير أمير روسيا الكييفية وتزوج شقيقة الإمبراطور البيزنطي في العام ٩٨٨، وهو تاريخ أهم كثيراً في التاريخ الروسي من العام ١٩١٧

---

(٣٢) البجناك Pechenegs شعب تركي شبه بدوي ظهر في سهول آسيا الوسطى بين نهر الفولغا الأدنى ونهر الدون وجبال الأورال يتحدث اللغة البجناكية التي تنتمي إلى عائلة اللغات التركية، حكموا في القرنين التاسع والعاشر معظم السهول الواقعة إلى جنوب غرب أوراسيا وشبه جزيرة القرم، دخل بعضهم في الإسلام [المترجم].

(٣٣) الخزر Khazars شعب تركي شبه بدوي، أنشأ واحدة من أكبر الدول في أوراسيا في العصور الوسطى تسمى "خزاريا"، عاصمتها أتل Atil، كانت من أهم شرايين التجارة في أوروبا الشمالية وجنوب غرب آسيا، وبسبب الوقوع بين الإمبراطوريتين العربية والبيزنطية، دخل بعضهم الإسلام والمسيحية، فيما اختار حكامهم اليهودية كي لا يقعوا تحت سيطرة إحدى القوتين المجاورتين [المترجم].

نفسه[٣٤]. ينتمي فلاديمير إلى السلالة الروريكية[٣٥]، من نسل الفايكنغ الأسطوريين المتخيلين بنوفغورود، مركز التجارة الأول للاسكندينافيين في شمال روسيا. كان الحاكم الأول لكييف يدعى أوليغ Oleg (٨٨٢-٩١٢)، وهو الذي حاصر بيزنطة في العام ٩٠٧ والعام ٩١١. وعلى الرغم من أنه لم يستول على المدينة، إلا أنه حصل على تنازلات تجارية كبيرة من الإمبراطورية. وكان خليفة أوليغ في حكم كييف هو الأمير إيغور Igor (٩١٢-٩٤٥)، أحد أفراد حاشيته. وعلى الرغم من اشتهاره بالأوبرا، فإن عهده لم ينتج أية إنجازات باقية. وكان ابنه سفياتوسلاف Svyatoslav رضيعاً، حين قُتِل إيغور في العام ٩٤٥ على أيدي رجال قبائل متمردين، وحكمت الدولة الأرملة الملكية أولغا Olga حتى بلغ الأمير الصغير الرشد في العام ٩٦٢. أثبتت أولغا أنها حاكمة حصيفة وقوية، فقمعت القبيلة المسؤولة عن قتل إيغور، وأصلحت نظام جمع الإتاوات مركزياً. واعتنقت المسيحية شخصياً في زيارة إلى القسطنطينية، لكنها أصرت على استقلال كنيسة كييف قبل أن تتبنى المسيحية ديناً وطنياً. لكن البيزنطيين رفضوا الاستجابة لمطلبها، ما دفعها للدخول في مفاوضات غير ناجحة مع أوتو الأكبر على اعتناق الكاثوليكية الرومانية بدلاً من عقيدة بيزنطة. كان سفياتوسلاف (٩٦٢-٩٧٢) وثنياً مخلصاً، وكان عهده عاصفة من النشاط العسكري في كل الاتجاهات. فحطم الإمبراطورية المزدهرة والمؤثرة لبدو السهل الخزريين، وتدخل بقوة في بلغاريا والبلقان في تحالفات مع البيزنطيين وضدهم. وفي النهاية أعد له البجناك كميناً وقتلوه، وهو في طريق عودته إلى كييف محملاً بالغنائم من فتوحاته البلقانية.

---

(٣٤) العام ١٩١٧ هو العام الذي وقعت فيه الثورة البلشفية الشيوعية التي أسست الاتحاد السوفيتي [المترجم].

(٣٥) تنسب السلالة الروريكية Rurikovichi إلى شيخ قبيلة فارانجية أو إفرنجية يدعى روريك Riurik استولى على لادوجا Ladoga في العام ٨٦٢ وأقام مستوطنة هولمغارد Holmgard بالقرب من نوفغورود، وأسس بذلك أسرة حكمت روسيا حتى القرن السابع عشر [المترجم]

وحين مات سفياتوسلاف، كان أبناؤه الثلاثة يعملون نواباً له في المدن والمناطق الكبرى. فتغلب فلاديمير حاكم نوفغورود على أخويه بمساعدة المرتزقة الفايكنغ والأتراك في الصراع التالي على السلطة. وواصل دعم أبيه للوثنية، على الرغم من أن المسيحية كانت تنتشر بين شعبه. وأدرك في النهاية أن الوثنية لا مستقبل لها، وفكر في الإسلام والكاثوليكية الرومانية إلى جانب المسيحية الأرثوذكسية كخيارات محتملة للدين الرسمي المستقبلي. وحُسِمت المسألة أخيراً حين طلب الإمبراطور البيزنطي الجديد باسيل الثاني Basil II (٩٧٦-١٠٢٥) المساعدة العسكرية من فلاديمير لقمع ثورة داخلية، في مقابل زواج الأمير من أنا Anna أخت الإمبراطور، ولذلك وافق فلاديمير على تعميده. وفي سوق الزواج الملكي إبان القرن العاشر، كانت أخت الإمبراطور البيزنطي صيداً ثميناً. حتى إن الإمبراطور رفض طلب أوتو الأكبر لأنا عروساً لابنه الذي عُرِف لاحقاً باسم أوتو الثاني الذي اضطر إلى قبول أميرة أخرى أبعد من أنا في سلسلة النسب إلى الإمبراطور. أرسل فلاديمير كتيبة من الفايكنغ إلى القسطنطينية، نجحت في قمع التمرد فوراً. وبعدها حاول باسيل أن ينكث بعهده، ولم يرده عن ذلك إلا حصار فلاديمير لميناء خيرسون Kherson الإستراتيجي في القرم، فأرسل الإمبراطور العروس الملكي في مقابل دخول فلاديمير في المسيحية وإعادة الميناء، وبعدها أعاد فلاديمير خيرسون "هدية من العريس". كان اعتناق فلاديمير للمسيحية يعني انتشارها بين أمة الروس برمتها، وكان فاتحة لسلسلة من الأحداث المشابهة في اسكندينافيا وبوهيميا وبولندا والمجر، كانت من أبرز الملامح في التاريخ الأوروبي إبان أواخر القرن العاشر. وبدأ فلاديمير برنامجاً واسعاً لبناء الكنائس والأعمال الخيرية والارتقاء بالتعليم، ومات في العام ١٠١٥ وطُوّب قديساً إبان القرن الثالث عشر.

كان من الدول المبكرة القوية الأخرى في أوروبا الشرقية الإمبراطورية البلغارية التي شكّلت تحدياً جدياً لبيزنطة نفسها، على الرغم من أن تنظيم كنيستها وثقافتها الأدبية كانا مأخوذين بالكامل من بيزنطة. كان البلغار شعباً تركياً، استقر فرع منه في حوض الدانوب الأدنى وسيطر على الفلاحين السلافيين المحليين. وبقيادة الخان الوثني كروم Krum، هزموا جيشاً بيزنطياً في العام ٨١١، وقتلوا الإمبراطور وصنعوا من جمجمته كأساً للشراب. وغزا كروم وخلفاؤه معظم البلقان، ولم يوقفهم غرباً غير الجرمان والصرب. ومع ذلك أثبتت الجاذبية الثقافية والنفوذ السياسي والعسكري لبيزنطة أنهما قويان جداً، إذ اعتنق البلغار المسيحية في عهد بوريس الأول Boris I (٨٥٢–٨٩٨، توفي العام ٩٠٧) في العام ٨٦٩. وكان من النتائج التالية الرئيسة لهذا القرار، تبني بلغاريا للأبجدية السيريلية والقداس السلافي الذي ابتكره الراهبان سيريل Cyril وميثوديوس Methodius في الأصل لدولة مورافيا التشيكية، لكنها رفضته لصالح القداس اللاتيني. كانت خسارة مورافيا مكسباً لبلغاريا وكل الكنائس الأرثوذكسية اليونانية السلافية، إذ أعطتهم الاستقلال اللغوي عن اليونانية البيزنطية، وتلك ميّزة سياسية لا يستهان بها. وشكّلت تلك الأبجدية السيريلية التي تستخدمها كل الشعوب السلافية الأرثوذكسية، في مقابل اللغة اللاتينية لأبناء عمومتهم الغربيين، الاختلاف الثقافي بينهم الذي استمر إلى يومنا هذا. وعلى الرغم من اعتناق الجميع المسيحية، فقد كان النزاع في البلقان وجنوب روسيا حاداً، ليس بين المسيحيين الأرثوذكس أنفسهم وحسب، بل أيضاً مع الجرمان والبولنديين في الشمال والغرب، ومع الشعوب البدوية الوثنية والمسلمة في الشرق.

فتح بوريس الأول مقدونيا وحصل على طريق إلى بحر إيجة في غرب شبه جزيرة البلقان. وحكم ابنه سيميون الأول Simeon I من العام ٨٩٣ إلى العام ٩٢٧ ويعتبر

عهده أوج تاريخ البلاد. وأعلن نفسه قيصر البلغار والرومان، أي نِداً للإمبراطور البيزنطي. وحاصر القسطنطينية مرات عدة، لكنه لم ينجح أبدا في فتح المدينة العظيمة. وتمكن البيزنطيون من كبح سيميون وخلفائه بتحريض غارات من المجريين والبجناك والروس على الأراضي البلغارية. وألحق باسيل الثاني الإمبراطور الذي أدخل فلاديمير في المسيحية هزيمة ساحقة بالبلغار في العام ١٠١٨ وأعطى نفسه لقب "قاتل البلغار".

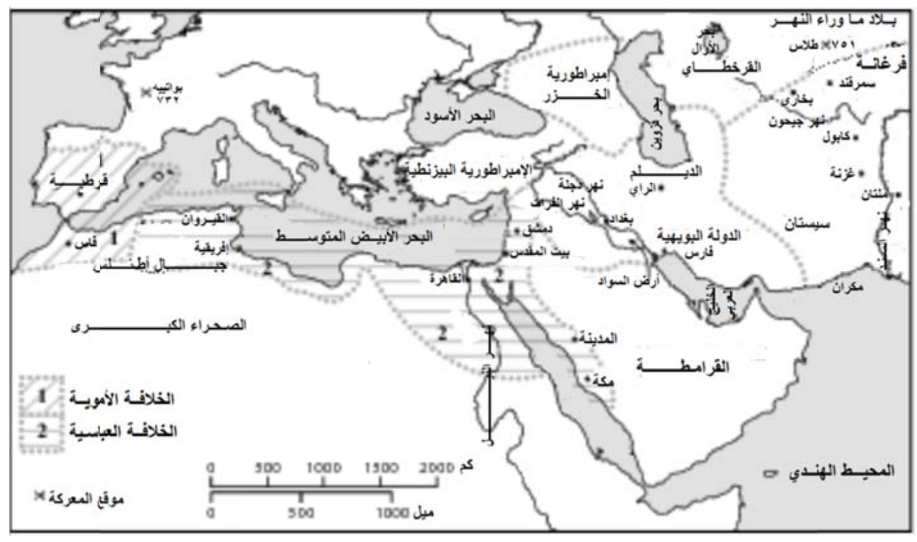
وهكذا، فبحلول العام ١٠٠٠، كانت الإمبراطورية البيزنطية قد أسست الدول التي خلفتها في أوروبا الشرقية في روسيا وبلغاريا. وكانت صربيا قد دخلت الحظيرة إبان القرن التاسع، بينما دخلت كرواتيا المجاورة في فلك روما، وهو خط التقسيم الذي استمر إلى يومنا هذا. نتحول الآن إلى ظهور ما يمكن أن نعتبرها أيضاً دولة وريثة أخرى للإمبراطورية البيزنطية، وإن كانت من نوع مختلف تماماً، وهي الخلافة العربية.

شمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا: العالم الإسلامي[٣٦]

هذه هي المنطقة المعروفة اليوم عموماً باسم الشرق الأوسط (انظر الشكل رقم ١،٣). وهي القلب أو المركز الكلاسيكي للعالم الإسلامي، وهو الاسم الذي سنستخدمه أيضاً حين لا يكون هناك مجال للبس. وتضم الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط وما يسمى بالهلال الخصيب لوادي النيل والمشرق وبلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية والهضبة الإيرانية وأفغانستان. ونسبة كبيرة من مساحة أرض هذه المنطقة قاحلة أو شبه قاحلة، وأمطارها نادرة وغير منتظمة. وكانت وديان النيل ودجلة والفرات، في المقابل، أراضي زراعية خصبة ومنتجة لآلاف السنين. وكانت الصحارى القاحلة غير مأهولة، بينما كانت المنطقة شبه الصحراوية

(٣٦) تتضمن مصادر هذا القسم Fletcher (1992), Hourani (1991, part 1), Kennedy (1986), Lewis (1993), McEvedy (1961), O'Brien (2002), de Planhol (1959), Robinson (1996), and Shaban (1976, 1978).

تعيل نمط الحياة البدوية الرعوية لآلاف السنين أيضاً. وكانت أهم ثروة طبيعية الأهم في هذه المنطقة تتمثل في موقعها بالنسبة لمناطق العالم الأخرى، وبخاصة فيما قبل رحلات الاستكشاف الأوروبية. فكانت أوروبا تقع وراء البحر الأبيض المتوسط على مسافة قصيرة جداً من مضيق جبل طارق، وكانت إيران وأفغانستان على اتصال مباشر مع آسيا الوسطى، وبالتالي طرق التجارة البرية إلى الصين، وكان الوصول إلى الهند ممكناً بحراً، وكذلك براً على طول سواحل مكران وبلوشستان إلى فم نهر السند وعبر ممر خيبر، وكانت التوابل القادمة من الأرخبيل الإندونيسي والمنتجات الصينية تأتي إلى الخليج العربي والبحر الأحمر، وإما تستهلك هناك أو تنقل إلى أوروبا بغرض الربح، وكان يجري تبادل الذهب القادم من غرب أفريقيا بالملح في تجارة القوافل بأفريقيا جنوب الصحراء، ليوزع الذهب بعد ذلك في العالم الإسلامي أو يصدَّر إلى أوروبا أو آسيا الوسطى.



الشكل رقم (١,٣) العالم الإسلامي.

كان ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية والفتح العربي السريع اللاحق لكامل المنطقة إبان القرن السابع بالتأكيد أحد أهم الأحداث وأكثرها تأثيراً في التاريخ العالمي. فقد عمل الدين الإسلامي واللغة العربية التي ارتبطت به كقوة ثقافية توحيدية فعالة من ساحل المحيط الأطلسي إلى جبال الهيمالايا. وتبنت الدول الإسلامية الجديدة تراث العصر القديم الكلاسيكي(٣٧) والأساليب البيزنطية والساسانية في الإدارة وأصول الحكم. كما أدى انصهار الثقافة العربية والفارسية إلى تشكيل توليفة جديدة إبداعية أثرت على مناحي الحياة كافة. وأُدخِلت محاصيل وأفكار جديدة من الهند وجنوب شرق آسيا. وكما مَدَّنت المسيحية القبائل الجرمانية والسلافية أو أدخلتها في المدنية، مدَّن الإسلام القبائل التركية بآسيا الوسطى التي تولت العمل العسكري في الدول الإسلامية.

ترسخت الفتوحات المبكرة وتوسعت في عهد الخلافة الأموية التي حكمت من دمشق، عاصمة العالم الإسلامي من العام ٦٦١ إلى العام ٧٥٠. ودمشق واحدة من أقدم مدن العالم، وكانت عاصمة إقليمية لأغلب الإمبراطوريات القديمة حتى زمن البيزنطيين، وهي تقع إلى الشرق من جبل قاسيون الذي تنزل منه الجداول التي روّت واحة الغوطة العشبية التي كانت بستان الخضروات للمدينة، وضمت تشكيلة ثرية من الأشجار المثمرة، وبالقرب منها وجد سهل، وفر المحاصيل الغذائية اللازمة لإطعام دمشق. وجذبت المدينة انتباه الأمويين لأسباب إستراتيجية واقتصادية أيضاً، إذ إنها كانت تقع على تقاطع طرق تجارة القوافل. حصّن العرب القلعة القديمة وشيّدوا الجامع

---

(٣٧) يشير مصطلح العصور القديمة الكلاسيكية classical antiquity إلى اليونان وروما القديمتين والتاريخ الثقافي الذي تمركز حول البحر الأبيض المتوسط وتكون من هاتين الحضارتين المتشابكتين اللتين تسميان معاً العالم الإغريقي- الروماني the Greco-Roman world، وتحديداً يشير المصطلح في تحقيب التاريخ اليوناني إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاديين، وتحديداً من سقوط الاستبداد الأثيني في العام ٥١٠ قبل الميلاد حتى وفاة الإسكندر الأكبر في العام ٣٢٣ قبل الميلاد [المترجم].

الكبير، ذلك العمل المعماري الرائع في موقع الكاتدرائية المسيحية. ويقدّر أشتور Ashtor عدد السكان العرب في سوريا في العام ٧٢٠ بنحو مائتي ألف شخص، من إجمالي نحو أربعة ملايين، أي زهاء ٥٪[١٧]. ويقال إن عدد سكان دمشق كان مئة ألف شخص في العام ١٣٥٠، حين "كانت أيام عزها قد ولت"[١٨]. وشهدت المدينة أيام عزها في عهد عبدالملك وخليفتيه الوليد (٧٠٥-٧١١) وهشام (٧٢٤-٧٤٣)، وفي عهودهم أصبحت الإدارة أكثر مركزية، وكذلك عملية سكّ العملة، وأصبحت اللغة العربية لغة الإدارة المدنية.

وعلى الرغم من النزاعات الداخلية الحادة، ازدهر العالم الإسلامي اقتصادياً، مع إدخال محاصيل جديدة متنوعة من الشرق، ما أدى إلى نمو مدن جديدة كبيرة، من قرطبة في إسبانيا، إلى القيروان في تونس، والقاهرة في مصر، بينما واصلت دمشق توسعها. وتقدمت الجيوش العربية عبر نهر جيحون إلى آسيا الوسطى، وفتحت بخارى وسمرقند في العام ٧١٠، وهزمت قوة صينية تابعة لإمبراطورية تانغ في معركة نهر طلاس في العام ٧٥١، ودخلت وادي فرغانة، وهي أبعد نقطة لتقدمهم شرقاً. وفتح العرب أيضاً إقليم السند الهندي في أوائل القرن الثامن، واستولوا على ملتان Multan في البنجاب في العام ٧١١. وأضاف العرب هذه المناطق جميعها إلى فتوحهم الأولى لنحو ثلثي الإمبراطورية البيزنطية وكامل أراضي الإمبراطورية الساسانية الفارسية. كما سيطر العرب أيضاً على النصف الجنوبي للبرزخ الواصل بين البحر الأسود وبحر قزوين، بما في ذلك مدينتي تبليسي Tiflis ودربند Derbent. وبذلك امتدت الإمبراطورية العربية في العام ٧٥٠ من أغادير على ساحل المحيط الأطلسي إلى نهر جيحون في آسيا الوسطى ونهر السند في الهند.

كان من المستحيل عملياً تحقيق أي نوع من الإدارة الموحدة لهذه الدولة الشاسعة. لكن كيف مورست السيطرة على الأراضي المفتوحة؟ ربما حدث ذلك من

خلال انتشار الحكام العرب بين السكان المحليين، ما مكّن كل منهم من انتزاع الضرائب لصيانة مقاطعته وتطويرها. ولو أتبع هذا المسار، لكانت النخبة العربية قد امتصت في النهاية اجتماعياً وثقافياً في الجماعات المتنوعة التي حكموها، تماماً كما حدث مع طبقة الفايكنغ الحاكمة في نورمندي أو روسيا. لكن الخليفة الثاني عمر (٦٣٤-٦٤٤) اتخذ القرار البديل بعيد المدى بتركيز العرب في مدن الحاميات، حيث كانوا ينفقون على أنفسهم من الرواتب النقدية أو العطاء الذي كان يُدفَع لهم من بيت المال الذي كانت كل الضرائب المحصلة من الشعوب الخاضعة تودع فيه. ونظراً لأن المسلمين كانوا يُعْفَوْن من معظم الضرائب، فقد أوجد ذلك لدى الفاتحين العرب موقفاً متناقضاً من اعتناق الشعوب المغلوبة لدينهم الإسلام[٣٨]. ولذلك كانت الجماعات المحلية حرة نسبياً في إدارة شؤونها الخاصة بلا تدخل بيروقراطي، طبعاً شريطة أن يدفعوا الجزية (ضريبة الرأس) المفروضة على غير المسلمين فقط والخراج (ضريبة الأرض). وقد نجح هذا النظام، لأن الأراضي البيزنطية والساسانية السابقة كانت قد قدّرت نقدياً في عهد حكامها السابقين. وثمة ميّزة أساسية أخرى هي أن العرب بتجمعهم معاً في الحاميات، حافظوا على لغتهم وثقافتهم التي اكتسبتها الشعوب الخاضعة تدريجياً. فيما تمثل العيب في ذلك في تعرض النخبة العربية الحاكمة الجديدة لخطر التحول إلى الاعتماد على الريع، إلا في حالة استدعائهم لإخماد الثورات الداخلية أو قتال الغزاة الخارجيين. وفي النهاية تحولت هذه الوظيفة العسكرية الحاسمة على نحو متزايد إلى العبيد العسكريين المتخصصين من الأتراك أو الأصول الأجنبية الأخرى، ما خلّف نتائج سلبية على الخلافة العربية.

---

(٣٨) بمعنى أن الحكام العرب لم يكونوا يرحبون كثيراً باعتناق الشعوب المغلوبة للإسلام، أو على الأقل لم يدفعوهم إلى ذلك دفعاً، لأن ذلك كان يعني سقوط الجزية عنهم. وفي ذلك رد قاطع على دعاة فكرة أن الإسلام انتشر بحد السيف [المترجم].

وفي العام ٧٥٠، أطاح العباسيون بخلافة الأمويين وغيّروا الطابع القَبَلي العربي للنظام بالاقتراب من النموذج الفارسي الأكثر مركزية وبيروقراطية. وأفسح العباسيون أيضاً مجالاً أكبر للمسلمين من غير العرب المعروفين باسم الموالي الذين كانوا ممثلين بقوة في الطبقات التجارية والحرفية الحضرية. وحدث تسارع ملحوظ في النشاط الاقتصادي نتيجة لتراجع الاعتماد على الغزو والعمليات العسكرية. وأسس الخليفة العباسي الثاني المنصور (٧٥٤-٧٧٥) مدينة بغداد لتكون عاصمة للدولة الجديدة. وكان المنصور وابنه المهدي (٧٧٥-٧٨٥) وحفيده هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) جميعاً حكاماً بارعين، قام على مساعدتهم كُتَّاب أكفاء، من أبرزهم أسرة البرامكة الإيرانية. فصل هؤلاء الحكام بحزم بين المؤسسات المدنية والعسكرية. وكانت المنطقة الخصبة المحيطة ببغداد المعروفة باسم أرض السواد تدّر عائدات كبيرة على أساس الضرائب المباشرة على قيمة الناتج الزراعي بنسب تتراوح من الثلث إلى النصف، وكانت مصر هي الأخرى مورداً رئيساً. مكّنت هذه العائدات الدولة من الاحتفاظ بقوات عسكرية كافية للحفاظ على النظام الداخلي وقتال البيزنطيين. وأدى نجاح البرامكة في ملء خزائن الدولة، فضلاً عن البذخ في طريقة حياتهم، إلى إشعال سخط كثير من أصحاب المصالح التقليديين، ما أدى إلى التضحية بالأسرة وإعدام رأسها بقسوة بأمر هارون الرشيد لاسترضاء المعارضة.

أظلم الأفق بأزمة الخلافة بعد موت هارون في العام ٨٠٩. فقد خلفه ابنه الأمين، على أن يخلف الأخير أخوه الأصغر قليلاً المأمون الذي عُيِّن حاكماً للمنطقة الشرقية لخراسان ومقاطعات إيرانية أخرى. وسرعان ما اختلف الأخوان وأشياعهما، واندلعت حرب أهلية دامية حوصرت خلالها بغداد نفسها لأكثر من عام من جانب قوات العصبة الشرقية للمأمون، وبعدها قُتِل الأمين على يد أحد أتباع أخيه في العام

٨١٣. وكان المأمون مضطراً لمكافئة القائد طاهر الذي كان على رأس الفرق التي أوصلته إلى السلطة، فأعطاه حكماً مستقلاً ووراثياً لخراسان مع الاعتراف بالسيادة العباسية.

تخلى الخليفة التالي المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) عن بغداد، وشيّد عاصمة جديدة ضخمة في سامراء أعلى دجلة، ظلت هي العاصمة حتى العودة إلى بغداد في العام ٨٨٩. دفعت المعتصم إلى تغيير العاصمة جزئياً رغبته في بناء "جيش نموذجي جديد" من الأتراك وغيرهم من الغلمان في موقع يسمح لهم بامتلاك الأراضي والممتلكات الأخرى مثل الامتيازات التجارية في مكان خال من تداعيات الماضي في بغداد. وأراد المعتصم بهذا الجيش الدائم المحترف أن يحل محل القوة الأصلية من الجنود العرب والإيرانيين غير الدائمين أو ما يعرف بـ"الخراسانية" التي اعتمد عليها النظام في السابق واتخذها ذراعاً عسكرياً رئيساً. وألغيت الرواتب التي كانت تتقاضاها هذه المجموعة في مقابل الخدمة السابقة كجزء من إصلاح عسكري ومالي بعيد المدى. كما فرض تقليداً جديداً في الدين يقول إن القرآن "مخلوق" وبالتالي خاضع للتفسير المتغير، بدلاً من أن يكون كلام الله الثابت والأزلي.

وبعد موت المعتصم في العام ٨٤٢، شهد النظام العباسي فترات قصيرة من الإنجاز والنجاح، لكن الاتجاه طويل المدى كان التراجع والأفول. ربما كان السبب الرئيس هو صعوبة جمع الدخل الضروري للحفاظ على سلامة الدولة. ويقول هيو كيندي Hugh Kennedy إن أرض السواد كانت تدّر مئة مليون درهم في العام في زمن العباسيين الأوائل حتى عهد المأمون، وهو المبلغ الذي انخفض إلى ثلاثين مليون في العام فقط في عهد المقتدر في العام ٩١٨[١٩]. وكانت هناك بالطبع مناطق مزدهرة أخرى مثل مصر وفارس، لكن المركز لم تصله هذه الموارد التي خضعت بالدرجة الأولى

لسيطرة القوى المحلية. وجاءت الضربة النهائية لازدهار العراق بقطع قناة نهروان الكبيرة، المصدر الرئيس للماء إلى أرض السواد، حين ردمها أحد أمراء الحرب المتقاتلين عن قصد في العام ٩٣٧ لعرقلة تقدم القوات المنافسة، ما خرب جهد قرون[٢٠].

شهد القرن العاشر أيضاً وقوع الخلافة تحت "وصاية" عشيرة إيرانية محاربة تعرف باسم البويهيين (٩٤١-١٠٥٥)، تنحدر من صياد سمك بسيط من منطقة بحر قزوين اسمه بويه Buyeh. وصل الإخوة الثلاثة الذين أسسوا ثروات العشيرة إلى السلطة كل على حدة في فارس والري وبغداد نفسها، لكنهم جَمَّعوا أصولهم في شكل اتحاد أسري، وأخذوا يقدمون الدعم بعضهم إلى بعض. وكانت قوتهم تقوم على الجيوش التي حشدوها من المشاة من موطنهم الديلم جنوب بحر قزوين والفرسان من الغلمان الأتراك. وقد مكّنهم ذلك من السيطرة على الخلفاء العباسيين، بالتعاون مع حلفائهم من طبقة الكتبة، مع بقاء العباسيين قادة روحيين. وعلى الرغم من كونهم "حماة" الخلافة العربية السنية، فقد كانت لدى البويهيين مشاعر دينية موالية للشيعة وأظهروا انجذاباً إلى الممارسات المَلكية الفارسية والساسانية المحلية، ما عزز الطابع الفارسي الذي أضفاه العباسيون أنفسهم على نظامهم. فمُنِح الضباط البويهيون إقطاعات، أي أراضي يستفيدون من عائداتها في مقابل الخدمة العسكرية، ما أوجد نوعاً من الإقطاع، وجعل دورهم أقرب إلى رؤساء القصور الميروفنجيين أو الشوغونات المتأخرين في اليابان(٣٩). وإجمالاً، فقد كان نظامهم فعالاً وقوياً، وتمتعت ولايتهم فارس بازدهار خاص. وعلى ذلك، فإن تراجع بغداد وضواحيها لم يكن يعني أن العالم الإسلامي كله أو حتى الأقاليم العباسية كلها كانت تمر بالضرورة بخبرة مماثلة.

(٣٩) الشوغون هو الحاكم العسكري الإقطاعي الإمبراطوري لليابان فيما قبل عصر الإصلاح، ونظام الحكم فيه يسمى شوغونية، بدا في العام ١٥٩٨ بتأسيس شوغونية توكوغاوا [المترجم].

واستمر الخلل المالي بين مطالب الجيش وقدرة الاقتصاد على توليد الدخل اللازم، وترك النظام عرضة للصدمات والتهديدات الخارجية. وفي النهاية وقع كل من الخلفاء و"حماتهم" ضحية للقوة الجديدة الصاعدة إبان القرن الحادي عشر، وهم الأتراك السلاجقة.

كان النزاع متواصلاً في مركز الإمبراطورية العربية، وسرعان ما بدأت الوحدة الأولية للإمبراطورية تتفكك نتيجة للنزاعات الأسرية الداخلية والانشقاق الديني والميل الطبيعي لانفصال المقاطعات البعيدة عن مركز الدولة. وهكذا، جاء القرن التاسع وهناك سلالات حاكمة مستقلة في شمال أفريقيا مثل الأدارسة (٧٩٨-٩٠٦) في المغرب والأغالبة (٨٠٠-٩٠٩) في تونس. كان مؤسس دولة الأدارسة من الأشراف (أحفاد النبي) الذين فروا إلى شمال أفريقيا من المدينة بعد ثورة فاشلة ضد العباسيين. جذب نسبه إليه أتباعاً من القبائل البربرية التي ساعدته في تأسيس مدينة فاس عاصمة لمملكة جديدة، جذبت بدورها مهاجرين عرباً من الشرق ومن إسبانيا. ونشأت دولة الأغالبة كإقطاعية وراثية منحها الخليفة هارون الرشيد للحاكم العسكري لإفريقية (تونس وشرق الجزائر) في مقابل دفع مبلغ سنوي قدره أربعون ألف دينار. كانت عاصمة هذه الدولة في القيروان التي تطورت كمركز ديني وثقافي. كما غزا الأغالبة صقلية واحتلوها أخيراً وهاجموا المناطق المجاورة لروما.

وفي شرق إيران وبلاد ما وراء النهر[٤٠] كانت الدول الحدودية للطاهريين (٨٢١-٨٧٣) والصفّاريين (٨٧٣-٩٠٠) والسامانيين (٨١٩-٩٩٩) مستقلة تماماً، ما عدا التبعية الاسمية للخليفة العباسي في بغداد. كانت هذه الأسر الحاكمة جميعاً من

---

(٤٠) بلاد ما وراء النهر Transoxiana هو الاسم القديم للجزء من آسيا الوسطى الذي يتطابق تقريباً مع أوزبكستان وطاجيكستان وجنوب قيرغزستان وجنوب غرب كازاخستان الحالية، والنهر هو آموداريا بالفارسية أو آمو سند بالبشتونية أو جيحون بالعربية [المترجم].

أصل إيراني أنشأها في البداية موظفون عباسيون سابقون، باستثناء الصفّاريين الذين كانوا أصحاب ثورة اجتماعية من مقاطعة سيستان، وأسس دولتهم نحَّاس (صفَّار) أطاح بالطاهريين حين قاد ضدهم فرقة من المنشقين الدينيين وقطاع الطرق. وحكم السامانيون من بخارى دولة غنية وذات إدارة جيدة. ومدّت الدولة الغزنوية التركية (٩٦١-١١٨٦)، ومقرها غزنة وكابول بأفغانستان، نفوذها غرباً إلى حدود العراق على حساب العباسيين والبويهيين الذين كانوا الحكام الفعليين لدولة العباسيين. وثمة سلالة تركية أخرى هم الخاقانيون الذين أزاحوا السامانيين في بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر في العام ٩٩٩، وحكموا حتى العام ١٢١١. وهكذا، كان النمط في الشرق هو خسارة العباسيين العرب لمعظم سلطتهم الفعلية أولاً لصالح رعاياهم الإيرانيين وفي النهاية لصالح الأتراك، سواء كقبائل غازية أو كجيش للعباسيين أنفسهم.

تتجلى هذه العملية بوضوح في مصر التي استقل بحكمها فعلياً القائد العسكري التركي أحمد بن طولون في العام ٨٦٨. شيّد ابن طولون الجامع الرائع الذي لا يزال يحمل اسمه في الفسطاط أو القاهرة القديمة التي وسعها بزيادة المعسكرات والامتيازات التجارية لجيشه. ويبدو أن أحمد كان أحد أكثر الحكام استنارة في تاريخ مصر الطويل، فقد حسَّن الري، وأصلح النظام الضريبي لمصلحة الفلاحين، وعزز النمو الاقتصادي عموماً في دولته. ويقال إن ابن طولون كان يحصل على دخل سنوي قدره أربعة ملايين دينار، وحين ورَّث مصر لأبنائه ترك عشرة ملايين دينار في الخزانة. لكن ابنه المبذر قاد الدولة إلى الإفلاس الفعلي قبل أن تسقط دولة الطولونيين في العام ٩٠٥ وتعود السلطة إلى العباسيين. لكن هذه العودة لم تطل، إذ استولت على السلطة في العام ٩٣٥ سلالة أخرى من الحكام العسكريين الأتراك التابعين للعباسيين، هم الإخشيديون الذين واصلوا سياسات

الطولونيين تحت إشراف وزير بارع يدعى كافور، كان عبداً أسوداً خصياً من أصل سوداني على ما يبدو.

كانت أهم سلالة بين هذه الأسر المتنافسة جميعاً هي الفاطميون الذين أطاحوا بالأغالبة في تونس بواسطة قبائل بربرية منشقة في العام ٩٠٩. وكانت إفريقية التي تتطابق تقريباً مع تونس الحالية هي قاعدة الفاطميين، ووسع الفاطميون مدينة القيروان الأغالبية[٤١] كثيراً بعد استيلائهم عليها، وأسسوا ميناءً كبيراً وقاعدة بحرية في الموقع الجديد لعاصمتهم الأولى المهدية التي بنوا فيها أسطولاً ضخماً لاستخدامه ضد أعدائهم المسلمين والمسيحيين. وبعد تقوية قاعدة حكمهم، شن الفاطميون غزو مصر في العام ٩٦٩ واستولوا عليها من الإخشيديين. وبنى القائد الفاطمي المنتصر جوهر الصقلي، وهو أيضاً عبد لكن من أصل سلافي[٤٢]، العاصمة العظيمة- القاهرة- شمال الفسطاط لتكون نداً قوياً لبغداد.

كان الفاطميون من أتباع طائفة شيعية منشقة تدعى الإسماعيلية، تزعم أنهم الأئمة الحقيقيون المنحدرون من نسل علي وفاطمة. ولذلك كانوا ينظرون إلى العباسيين على أنهم غاصبون غير شرعيين للسلطة، وأعلنوا خلافتهم بعد فتح مصر. ولذلك أيضاً واصلوا الحرب والنزاع الطائفي مع العباسيين، ونجحوا في تحويل تجارة المحيط الهندي المربحة من الخليج العربي إلى البحر الأحمر. ومن خلال عائدات مصر الوفيرة ونمو التجارة الخارجية عبر البحر الأحمر، توفرت لهم الموارد لتأسيس القاهرة كعاصمة جديدة مهيبة، فضلاً عن الاحتفاظ بجيش قوي من المحاربين البربر القبَليين وكتائب من الجنود العبيد السودانيين والأتراك لتحدي العباسيين والبيزنطيين في سوريا وفلسطين. وكان الفاطميون على الرغم من عقيدتهم الشيعية الإسماعيلية المتقدة

(٤١) أي التي شيّدها الأغالبة [المترجم].

(٤٢) تذكر أن العرب أطلقوا اسم الصقالبة على العبيد السلاف [المترجم].

متسامحين ومنفتحين جداً في الحرية التي منحوها للطوائف والأديان الأخرى. واعتمدوا أيضاً بدرجة كبيرة على مستشارين يهود ومسيحيين من أمثال الوزير يعقوب بن كلس اليهودي[٤٣] العراقي الأصل الذي دخل الإسلام وخدم مع الإخشيديين في عهد كافور ومارس تأثيراً بنّاءً هائلاً على الإدارة الفاطمية لمصر. وعلى الرغم من أن الإمبراطورية الفاطمية كانت من حيث المبدأ دولة ثيوقراطية، فقد وقعت تحت هيمنة قادتها العسكريين والجماعات العرقية والإقليمية المختلفة التي انقسمت إليها.

وفي العام ١٠٠٠، شملت الممتلكات الفاطمية معظم شمال أفريقيا وغرب شبه الجزيرة العربية، بما في ذلك مكة والمدينة، وجنوب سوريا وفلسطين، بما في ذلك دمشق والقدس. لكن ذلك لم يدم طويلاً. فحين شرع الفاطميون في غزو مصر، كانوا قد تركوا إفريقية في عهدة أسرة من حلفائهم البربر تعرف باسم الزيريين، كانت الأولى بين كثير من الأسر البربرية اللاحقة في شمال أفريقيا. في البداية خدمت هذه الأسرة الفاطميين بإخلاص، وكانت ترسل العائدات إليهم على النحو المطلوب، لكنها في منتصف القرن الحادي عشر انفصلت عن سادتها وبدأت في تبني سياسة مستقلة، وكانت الأسرة الأولى بين كثير من الأسر البربرية الحاكمة اللاحقة في شمال أفريقيا. فردّ الفاطميون على ذلك بإطلاق قبيلة بدوية، هي بنو هلال، على المناطق الغربية، التي قال عنها ابن خلدون إنها دمرت الريف "كموجة من الجراد"، فكانت بلاءً لم تتعاف منه هذه البلاد مطلقاً. ولم يتمكن البدو العرب من تأسيس أبنية دولة دائمة، ما فتح الطريق لظهور الدولة البربرية القوية المعروفة باسم المرابطين. كانت نتائج ذلك قاسية

(٤٣) يعقوب بن يوسف بن كلس، وُلِد لعائلة يهودية في بغداد في العام ٩٣٠، ونشأ بها، وسافر مع أبية إلى الشام، ثم إلى مصر واتصل بكافور الأخشيدي وأصبح من أقرب خاصته، وأعلن إسلامه، ثم سافر إلى المغرب بعد أن سجنه الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات حسداً عليه، وفي المغرب خدم المعز لدين الله الفاطمي، ثم عاد معه إلى مصر، وتولى الوزارة في عهد العزيز بالله الفاطمي، له عدت مؤلفات في الفقه مثل كتاب "مصنف الوزير" و"الرسالة الوزيرية" [المترجم].

على الفاطميين، إذ غدت إمبراطوريتهم مقصورة على مصر وأجزاء من سوريا التي كان عليهم فيها أن يصارعوا بيزنطة الناهضة وعدة منافسين إسلاميين مختلفين. وعلاوة على ذلك، ربما تسبب الخليفة غير المستقر عقلياً الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢١) دون قصد في دفع الحملة الصليبية الأولى بعد قرن تقريباً نتيجة لتدميره الطائش لكنيسة القيامة في القدس، ما أثار سخط العالم المسيحي كله. وثمة مصاعب شاقة وشيكة كانت بانتظار الفاطميين وأعدائهم العباسيين والبيزنطيين جميعاً على أيدي فاعلين جدد على الساحة السياسية الأوراسية الغربية، وهم الأتراك السلاجقة والصليبيون الفرنجة.

وعلى الطرف الغربي للعالم الإسلامي، شهد منعطف الألفية إسبانيا الإسلامية في أوج قوتها. بدأ الفتح العربي الأولي في العام ٧١١ بقوة تتكون من سبعة آلاف محارب غالبيتهم من البربر بقيادة حاكم طنجة البربري طارق بن زياد الذي اعتنق الإسلام مؤخراً. هزمت هذه القوة جيش ملك القوط الغربيين لُذريق الذي قُتل في المعركة. ووصل للغزاة مدد في شكل قوة عربية أكبر بقيادة الحاكم الأموي لإفريقية، ما أدى إلى فتح معظم إسبانيا بحلول العام ٧١٤، وهو العام نفسه الذي اِستُدعي فيه القائدان إلى دمشق ولم يرجعا بعد ذلك. ويبدو أن فتح مستوطنة الأندلس، وهو الاسم الذي أطلقه العرب على المناطق من شبه الجزيرة الأيبيرية الخاضعة للحكم الإسلامي، جاء نتيجة لمبادرة محلية وليس اتجاهاً مركزياً من عاصمة الأمويين. سمح العرب للسكان المسيحيين بمزاولة عقائدهم تحت مؤسستهم الدينية، وأعطوهم الاستقلالية بشرط دفع الضرائب. ووزع العرب أراضي البلدات التي قاومتهم بين العرب والبربر، وكان العرب يعيشون عموماً في البلدات على ريع ضياعهم، وانخرط كثير من البربر في تربية الأغنام التي كانت حرفتهم في أوطانهم. وكان السكان اليهود

القليلون يتركزون في المناطق الحضرية، ويبدو أنهم ازدهروا كثيراً عما كانت عليه حالهم في عهد الحكام المسيحيين السابقين. وبدأ المسلمون أنفسهم يعانون من النزاعات الداخلية بين العرب والبربر وبين الجماعات القبَلية العربية ذاتها. وجاءت قوة عربية جديدة من سوريا لقمع ثورة بربرية في شمال أفريقيا والأندلس، أدت إلى تغليب العنصر العربي على حساب العنصر البربري في الأندلس.

كانت إطاحة العباسيين العنيفة بالأمويين في العام ٧٥٠ قد أدت إلى فرار أمير شاب من السلالة المنهارة يدعى عبدالرحمن إلى شمال أفريقيا. وقد أكسبه نسبه المميّز أتباعاً من كل من العرب والبربر، ما مكّنه من الاستيلاء سريعاً على إسبانيا كسلطة موِّحدة فوق الدويلات القائمة. أسس عبدالرحمن الأول دولة غنية وقوية، عاصمتها قرطبة، على نحو ما يتجلى فيما شيّد في عهده (٧٥٥-٧٨٨) من قصور وكذلك الجامع الكبير. وأصبح بلاطه مأوى للعرب والفرس المنشقين الفارين من أعدائه العباسيين. واستقرت الحدود مع المسيحيين على طول محور شمالي-شرقي جنوبي-غربي، مع أنهما تبادلا الهجمات وجس دفاعات أحدهما الآخر (أدت هزيمة العرب في بواتييه على يد شارل مارتل في العام ٧٣٢ إلى إيقاف محاولاتهم لغزو الأراضي الفرنسية). واحتفظ الحكام اللاحقون بمنصب الإمارة عموماً، مع وجود اختلافات معتادة وفقاً لقدرات الأمراء أنفسهم. وجاءت ذروة القوة في عهد عبدالرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١) الذي بلغ من القوة حد أن أعلن نفسه خليفة في العام ٩٢٩. اعتمد نظامه على جيش محترف من الجنود العبيد السلافيين، مستقلين بدرجة كبيرة عن الفرق ويدينون بالولاء له شخصياً. كما احتفظ عبدالرحمن الثالث ببيروقراطية مركزية قوية.

وانتهى العهد الطويل والرائع لعبدالرحمن الثالث أخيراً بعد نحو خمسين عاماً في العام ٩٦١. وكان ابنه الحكم الثاني (٩٦١-٩٧٦) وحفيده هشام الثاني (٩٧٦-١٠٠٩) حاكمين ضعيفين وواهنين، وكانت السلطة الحقيقية للدولة حتى وفاة الأخير

في العام ١٠٠٢ في يدي الوزير الأول ورجل الدولة العظيم المعروف تاريخياً بالاسم التشريفي المنصور. فقد حقق هذا الوزير سلسلة من الانتصارات المذهلة على الدول المسيحية المجاورة، ونهَب برشلونة وليون وبرغش Burgos، وأحرق ضريح سانتياغو دي كومبوستيلا[٤٤]، وأتى بأجراسه البرونزية الكبيرة إلى جامع قرطبة. وانتصر أيضاً على الفاطميين في شمال أفريقيا. لكن هذا النجاح كله، وكذلك إسرافه وقسوته، أنتجت رد فعل عكسي على ابنه الذي بلغ به التهور أن أعلن نفسه الوريث الشرعي للخليفة الدُمية هشام الثاني. فثار عليه وجهاء البلاط العرب الساخطون الذين ساءهم كثيراً اعتماد الأمويين على قواتهم البربرية والمرتزقة السلافيين والموظفين اليهود والمسيحيين، وقتلوه في العام ١٠٠٩. لكنهم لم يتمكنوا من الحفاظ على سلامة الدولة التي تفككت سريعاً إلى مجموعة من الشظايا يحكمها حكام الأقاليم وأمراء الحرب المعروفين باسم "ملوك الطوائف" الذين أعطوا هذا الاسم للفترة من العام ١٠٣١ الذي ألغيت فيه خلافة قرطبة رسمياً إلى العام ١٠٩١. ولا حاجة بنا للقول بأن تحلل النظام الأموي القوي إلى حفنة من الدول التافهة المتخاصمة كان هدية غير متوقعة لأعدائهم المسيحيين الذين لم يضيعوا وقتاً لاستغلال الموقف. وتضعضعت السيطرة الأندلسية على شمال أفريقيا كثيراً، وتمكن المرابطون البربر سريعاً من قلب اتجاه الهيمنة عبر مضيق جبل طارق.

ولذلك يمكن النظر إلى القرن الحادي عشر باعتباره نقطة تحول حرجة في أقدار الدول الثلاث الكبرى للعباسيين في الشرق والأمويين في قرطبة في الغرب والفاطميين في

---

(٤٤) سانتياغو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela، أو شنت ياقوب كما أسماها العرب، مدينة في منطقة جليقية بشمال غرب إسبانيا ترجع جذورها إلى ضريح القديس جيمس الكبير، أو يعقوب بن زبدي كما يسمى في المصادر العربية، الذي يشكل الآن كاتدرائية المدينة، ويعد مقصداً للحجيج النصارى، وشكّل وجوده طريق الحج الكاثوليكي في القرن التاسع الذي لعب دوراً في حشد الدعم النصراني لاسترداد الأندلس وطرد المسلمين منها [المترجم].

المركز. فقد انسلت السلطة من العباسيين إلى الفرس، وفي النهاية إلى الأتراك السلاجقة، وحصر البربر الأندلسيين في المغرب، كما حصرهم المسيحيون في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية، وحوصر الفاطميون في مصر بفشلهم في سوريا شرقاً وشمال أفريقيا غرباً، ولم تتحقق أحلامهم الألفية ببناء دولة عالمية للشيعة الإسماعيلية.

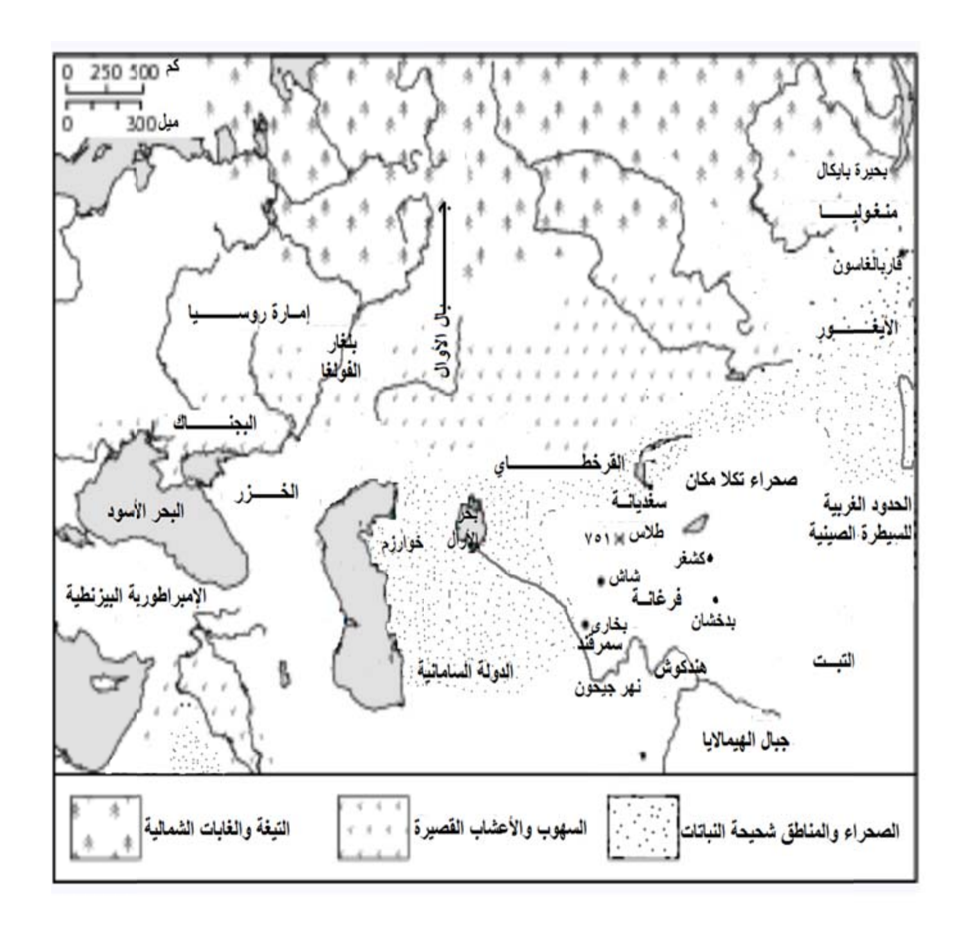
آسيا الوسطى (أو الداخلية)(٤٥)

آسيا الوسطى هي المنطقة الواسعة في داخل اليابسة الأوراسية المحاطة من الجنوب بسلاسل جبلية شاهقة ومن الشمال بالتندرا القطبية (انظر الشكل رقم١,٤). ويمكن تقسيم أرضها إلى أشرطة أفقية من الغابات (تسمى التيغة Taiga) والسهول والصحراء. وتتمثل المنطقة البيئية الأساسية في السهل، وهو موطن البدو الرعاة منذ أزمان سحيقة. والحدود الشرقية والغربية لآسيا الوسطى متغيرة مع حدود الحضارات المستقرة في الصين وكوريا في الشرق، وروسيا وإيران في الغرب. والمنطقة كلها تبلغ نحو ستة آلاف ميل من الشرق إلى الغرب وأقل قليلاً من نصف هذه المسافة من الشمال إلى الجنوب[٢١]. وتغطي تقريباً المناطق التالية: دول ما بعد الاتحاد السوفيتي الحديثة قيرغيزستان وطاجيكستان وتركمنستان وكازاخستان وأوزبكستان، فضلاً عن منغوليا والأجزاء من الصين المعروفة بمنغوليا الداخلية ومناطق الحكم الذاتي في التبت وشينجيانغ[٢٢](٤٦).

---

(٤٥) تتضمن مصادر هذا القسم Sources for this section include Barthold (1968), Christian (1998, chapters 10 and 11), Golden (1998), Hambly (1969), Lattimore (1973), McEvedy (1961), O'Brien (2002), and Sinor (1990).

(٤٦) شينجيانغ Xinjiang مقاطعة في أقصى شمال غرب الصين، ضمتها القوات الصينية الشيوعية في العام ١٩٤٩، وأطلقوا عليها هذا الاسم الذي يعني المستعمرة الجديدة، لكن أهلها المسلمين لا يزالون يستخدمون اسمها القديم: تركستان الشرقية [المترجم].



الشكل رقم (١,٤) آسيا الوسطى.

يشكل الاعتماد المتبادل بين الشعوب البدوية والشعوب المستقرة واحداً من أكثر الموضوعات تواتراً في التاريخ. فهذان النظامان الاقتصاديان متتامان، وهناك إمكانية للنفع المتبادل بينهما من تبادل الحبوب والصناعات مع حيوانات مثل الخيول والجمال والمنتجات الحيوانية. وحركية البدو الخيّالة أعطتهم دائماً خيار مهاجمة مزارع الجماعات المستقرة ومدنها ونهبها. وكان الغزو التام– في المقابل– يؤدي عادة إلى

التثاقف واستيعاب الحكام البدو الأقل عدداً من جانب الرعايا المستقرين. فكان على اليونانيين والرومان أن يصدوا السكوثيين[٤٧] والفرثيين[٤٨]، بينما دمر الهون[٤٩] والأفار والمجريون أوروبا إبان القرون الوسطى. ودخلت إمبراطورية هان Han الصينية في صراع طويل مع شيونغنو[٥٠]، وحكمت سلالات تركية مختلفة أجزاءً من الصين بعد سقوط إمبراطورية هان إبان القرن الثالث بعد الميلاد.

وآسيا الوسطى هي المنطقة التي وصفها السير هالفورد ماكيندر Halford Mackinder في عنوان مقالته الشهيرة بأنها "المحور الجغرافي للتاريخ"، إذ أكد في هذه المقالة أن هذا "القلب" الأوراسي سيطر من خلال غزواته المتتالية على الهلال الخارجي "للحواف" المحيطية في الشرق والغرب والجنوب[٢٣]. ويضيف ماكيندر أن هيمنة القلب على الحواف لم تنته بقصة رحلات الاستكشاف الأوروبية. فاختراع السكك الحديدية أتاح إمكانية دمج القلب للحواف بين الصين وروسيا، ما يعني أن القلب فرض سطوته مرة أخرى على الحواف المحيطية، وأنهى أيضاً عصر بريطانيا الحاكمة للعالم من خلال حكمها للبحار[٥١]. لكن في العام ١٠٠٠ كانت أعظم الفتوحات البدوية جميعها لا تزال في طي المستقبل، وهي فتوحات المغول.

---

(٤٧) السكوثيون Scythians شعب بدوي إيراني عاش في سكيثيا Scythia في المنطقة المطابقة للسهل البونطي- القزويني بأوروبا الشرقية وأجزاء من آسيا الوسطى طيلة العصور القديمة الكلاسيكية [المترجم].

(٤٨) الفرثيون Parthians شعب بدوي إيراني عاش في منطقة فرثيا بشمال شرق إيران التي كانت قاعدة للسلالة الأشكانية التي حكمت الإمبراطورية الفرثية [المترجم].

(٤٩) الهون Huns جماعة من القبائل البدوية ظهرت في أوروبا من شرق نهر الفولغا بمنطقة السكوثيين الأوائل بالقرب من بحر قزوين [المترجم].

(٥٠) شيونغنو Hsiung nu جماعة بدوية قديمة شكّلت دولة أو اتحاداً من القبائل في مكان منغوليا الحالية [المترجم].

(٥١) أوضح ليوبولد أميري Leopold Amery أكثر من مرة في مناقشته لهذه المقالة في الجمعية الجغرافية الملكية أن السيطرة على الجو، وليس على الأرض أو المياه، هي التي حددت القوة المهيمنة في القرن الجديد والأخير بالألفية الثانية.

على أن النظر إلى آسيا الوسطى لا يجب أن يقتصر بحال من الأحوال على كونها منطقة الانطلاق للموجات المتعاقبة من الغزاة البدو الذين اجتاحوا الحضارات المستقرة المسالمة على حدودهم. فقد كانت أيضاً على مدى آلاف السنين تقاطع طرق تدفقت خلالها السلع والاختراعات التقنية والأشكال الفنية والأديان بين المناطق المستقرة المتباعدة. فطريق الحرير الأسطوري، أو بالأحرى طرق الحرير، عملت لآلاف السنين على نقل الحرير والخزف والتقنيات الصينية إلى الغرب، ونقل المانوية والمسيحية النسطورية والإسلام من الغرب والبوذية من الهند إلى الصين وكوريا واليابان. وكانت جباية الضرائب على القوافل العابرة للمنطقة مربحة عادة أكثر من نهب هذه القوافل. وكان الشيء المربح أكثر من الاثنين هو الحصول على سلع أساسية، مثل الحرير من مصدره في الصين، ثم بيعها في الغرب، ولو بقوة السلاح، إن أمكن. وهذا بالضبط هو ما نجحت في تطبيقه إحدى إمبراطوريات السهل البدوية إبان منتصف القرن السادس.

تعرف هذه الإمبراطورية باسم الإمبراطورية التركية الأولى التي بلغت أوجها إبان النصف الثاني من القرن السادس. لغوياً، تشكل شعوب السهل جزءاً من المجموعة الألطية[٥٢] التي تنقسم إلى الفرعين التركي والمغولي. أما الشعب الذي أسس هذه الإمبراطورية فكان يعرف باسم الغوق[٥٣] أو الأتراك الزرق، والزرقة هنا من لون السماء، بمعنى "السماوي" أو "الإلهي". وكان هذا الشعب اتحاداً من القبائل، حظيت عشيرة أشينا Ashina من بينهم بالاعتراف بهيمنتها على كل القبائل الأخرى، ولذلك كانت تقدم الحاكم الأعلى المعروف باسم الكاغان kaghan والنائب المعروف باسم

(٥٢) الألطيون Altaic جماعة قبَلية كبيرة متفرقة تحدثت عائلة من اللغات بالاسم نفسه، انتشرت من شمال شرق آسيا إلى آسيا الوسطى والأناضول وأوربا الشرقية [المترجم].

(٥٣) الغوق Gok أو الأتراك الزرق Gokturks اتحاد من الشعوب البدوية التركية في آسيا الوسطى، كانت لهم عدة دول قوية في العصور الوسطى [المترجم].

يابغو yabghu. وهذه القبيلة لها تاريخ مع أشغال الحديد، ربما بسبب وجود مناجم الحديد في أراضي الأجداد في السلسلة الجبلية الألطية. وكانت القوة الأساسية المميّزة لها تتمثل في الفرسان المسلحين الذين استفادوا في تجهيزهم من هذه الصناعة بالتأكيد.

لم تكن الصين دولة موحدة في وقت ظهور هذه الإمبراطورية، وكانت أقوى دولة على الإطلاق، وهي دولة واي Wei الشمالية البدوية المُتَصَيِّنة[٥٤]، هي نفسها مقسمة بين فرع غربي عاصمته شانغان Chang'an وفرع شرقي عاصمته لويانغ Lo-yang. وكان الأتراك يحصلون على كميات هائلة من الحرير في مقابل الخيول بشروط تجارية مواتية، بفضل الضغط العسكري الذي مارسوه على الصينيين. وبعد ذلك، كانوا ينقلون الحرير غرباً عن طريق السُغديين[٥٥] والجماعات التجارية الأخرى على طريق الحرير بأرباح كبيرة للأتراك أنفسهم بسبب نجاحهم في مد سيطرتهم على طول الطريق إلى حدود الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في الغرب. لكنهم لم يحاولوا أن يفرضوا حكماً مباشراً على أية مناطق أو شعوب أخرى، وإنما مارسوا شكلاً فضفاضاً من الهيمنة على مدن الواحات والقبائل على طول طريق الحرير. ومع ذلك، ظلت المنطقة شاسعة جداً، ولذلك قُسِمت بين فرع شرقي كبير وفرع غربي أصغر. وسقطت هذه الإمبراطورية، حين توحدت الصين في عهد دولة سوي Sui القصير والقوي (٥٨١–٦١٧) التي امتلكت القوة العسكرية لإعادة تأكيد السيطرة الصينية على السهل. وأكمل الأباطرة الأقوياء من دولة تانغ الجديدة عمل دولة سوي في هذا المجال، وبذلك انتقلت السيادة التي ادعتها الإمبراطورية التركية الأولى على طول طريق الحرير كاملاً إلى الصين.

---

(٥٤) "التَصَيُّن" و"يَتَصَيَّن" و"مُتَصَيِّن" وغيرها بمعنى تبني الثقافة ونمط الحياة الصيني من جانب غير الصينيين، و"التصيين" بمعنى فرض أو إضفاء الطابع والثقافة الصينيين على غير الصينيين [المترجم].

(٥٥) السُغديون أو السُقديون Sogdians شعب إيراني قديم عاش في آسيا الوسطى، وشكل جزءاً من الإمبراطورية الأخيمية في مقاطعة سُغديانة أو سُقديانة [المترجم].

كان المنافس التالي على السيادة على طريق الحرير هو الخلافة العربية. سحقت القوات العربية الإمبراطورية الساسانية واحتلت العراق وغرب إيران بسرعة كبيرة، لكنها استغرقت وقتاً أطول لتهدئة مقاطعة خراسان الشرقية الكبيرة ووقتاً أطول بكثير لمد سلطتها عبر نهر جيحون إلى بخارى وسمرقند وشاش Shash (طشقند) والمراكز التجارية الغنية الأخرى بسُغديانة Sogdiana. ويبدو أن الطبقة التجارية كانت مستعدة للوصول إلى تسوية مع العرب، طالما أنها تستطيع أن تواصل العمل بالتجارة، لكنَّ ملاك الأراضي قاوموا بعناد وكذلك سادتهم الأتراك الغربيين السابقين. كما التمسوا المساعدة من إمبراطورية تانغ الصينية المتسلطة عليهم، لكن المسافات حالت دون حصولهم على مساعدة فعالة، وهو أمر غير مستغرب في ذلك الزمان. وأرسل العرب أنفسهم تطمينات دبلوماسية إلى الصينيين بأن التجارة لن تقطع. ومع ذلك، فقد دخل العرب والصينيون في أعمال عدائية مباشرة، حين هاجم حاكم طشقند التابعة للعرب فرغانة وهي دولة تابعة للصين. وأدى ذلك إلى معركة نهر طلاس الشهيرة في العام ٧٥١ التي هُزِم فيها الصينيون حين حوَّل حلفاؤهم من الأتراك القارلوق Karluk Turkic ولاءهم لصالح العرب. وكان من النتائج البارزة للمعركة أخذ الأسرى الصينيين إلى سمرقند لتعليم آسريهم فن صناعة الورق. ولم يدخل الجانبان أبدا في مواجهة مباشرة مرة ثانية.

ظلت بلاد ما وراء النهر والمقاطعات المرتبطة في خوارزم وخراسان تحت النفوذ الإسلامي وبلغت ذروة التقدم الاقتصادي والثقافي في عهد دولة السامانيين الإيرانية (٨١٩–٩٩٩) الذين اتخذوا من بخارى عاصمة لهم. وكما أشرنا آنفاً، فقد اعترفوا بالسلطة الروحية للخلافة العباسية، لكنهم كانوا حكاماً ذوي سيادة في كل الأمور الأخرى. وقد حافظوا على البنية التحتية المادية لأعمال الري الزراعي، وإمداد المياه

للمدن، وشيّدوا نزلاً أو خاناً للقوافل الكبيرة التي تغادر في كل الاتجاهات، نحو روسيا والصين والهند، ودعموا المؤسسات الدينية والتعليمية بدرجة غير مسبوقة. واستغلوا مناجم الفضة في مقاطعة بدخشان الواقعة في أفغانستان الحالية، التي كانت الأساس لعملة عالية النوعية. وكان النظام العسكري يقوم على تجنيد العبيد المحاربين من السهول المعروفين بالغلمان أو الطلاب العسكريين الذين كانوا يمرون بفترة طويلة من التدريب والترقية قبل أن يصبحوا قادة وإداريين في العقد الثالث من عمرهم. وكان الطلب على العبيد العسكريين وغيرهم من العبيد يشجع تجارة كبيرة في البشر أجازتها الدولة وفرضت ضرائب عليها، وكانت ضرائب التصدير للعبد الواحد تتراوح من ثلاثين إلى سبعين درهماً، مقارنة بمتوسط سعر قدره ثلاثمائة درهم للعبد الواحد. وغطى النظام الضريبي تكاليف الإدارة والبلاط المسرف، لكنه لم يكن عالياً جداً لدرجة تعيق التجارة والصناعة. ومن اللافت للنظر أن كل الموظفين العسكريين والمدنيين كانوا يحصلون على رواتبهم نقداً دون الاستعانة المُنهِكة بمنح الأراضي الإقطاعية التي كانت معظم الدول المبكرة تلجا إليها.

ودخل أتراك السهول في الإسلام، ورفعوا بذلك مستوى تنظيمهم الاجتماعي والسياسي، فيما احتفظوا بمهارتهم العسكرية العالية. وسلالة الخاقانيين الجديدة، تلك القبيلة التركية التي اعتنقت الإسلام على يد الدعاة الصوفيين، ظهرت بالقرب من كاشغر[٥٦]، وقد أطاحوا- كما رأينا- بالسامانيين قبل نهاية الألفية مباشرة، حين دمرت دولتهم النزاعات الداخلية. ومن اللافت للنظر أن العلماء ورجال الدين المسلمين ببخارى أمروا عامة الناس بعدم مقاومة الغزاة لأن الطرفين مسلمان. وبقيت مدن بلاد ما وراء النهر التي تقع حالياً في أوزبكستان ما بعد السوفيتية في الفلك التركي

---

(٥٦) كاشغر Kashgar أحد أشهر مدن تركستان الشرقية وأهمها، كانت عاصمة تركستان الشرقية التي سميت لاحقاً شينجيانغ أيغور، وكانت مركزاً تجارياً عظيماً مع روسيا [المترجم].

إلى يومنا هذا. وفيما استولى الخاقانيون على بخارى وأراضي السامانيين شمال نهر جيحون، آلت منطقة خراسان جنوب النهر إلى سلالة تركية أخرى، هم الغزنويون (٩٧٧-١١٨٦) الذين نفذ قائدهم محمود غارات مدمرة على الهند، وكان يرجع منها في كل مرة بكميات كبيرة من الغنائم.

وفي الشرق، كان هناك اتحاد قبَلي تركي قوي آخر، هم الأيغور[٥٧] الذين ظهروا في العام ٧٤٤ وحكموا حتى العام ٨٤٠. كانوا في البداية قوات تابعة لإمبراطورية تانغ الصينية التي أصبحت أكثر اعتماداً على مساعدتهم العسكرية، وبخاصة في أثناء تمرد آن لو شان An Lu Shan في العام ٧٥٥. وحصلوا في المقابل على ثمن عالٍ في شكل التبادل المألوف للخيول مع الحرير، وكذلك نهب المدن والمقاطعات الصينية في أثناء إخماد الثورات. وتحالفوا بقوة أيضاً مع جماعة التجار السُغدية، لدرجة أن حاكمهم اعتنق المانوية كدين رسمي تحت تأثير السُغديين. واستخدموا الأبجدية السُغدية التي تبناها المغول لاحقاً، وزادت مستويات معرفة القراءة والكتابة بينهم كثيراً. وكانت عاصمتهم قاربالغاسون Karabalghasun في منغوليا مركزاً تجارياً مزدهراً لعدد كبير من السلع، منها الفراء ومنتجات الغابات الأخرى القادمة من الشمال. وكانت تحيط العاصمة منطقة زراعية كبيرة لإطعام عدد السكان الكبير. وربما بسبب رقتهم نتيجة لنجاحهم التجاري ودينهم المسالم، وقع الأويغور في النهاية فريسة للغزو من جانب أتباعهم السابقين: القرغيزيين.

ثمة إمبراطوريتان تركيتان أخريان في السهول الغربية، هما الخزر في المنطقة الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين وبلغار الفولغا على الأجزاء الوسطى من ذلك النهر. شاركت هاتان الإمبراطوريتان بقوة في تدفق تجارة الشمال-الجنوب والشرق-

(٥٧) الأيغور Uighurs جماعة عرقية تركية مسلمة تقطن آسيا الوسطى والشرقية، وتتركز حالياً في منطقة الأيغور أو تركستان الشرقية التي تتمتع بالحكم الذاتي بمقاطعة شينجيانغ (تركستان الشرقية) الصينية [المترجم].

الغرب التي تضمنت العبيد السلافيين والفراء والعسل والشمع والكهرمان من الشمال، والحرير وسلع الترف الأخرى من الشرق، والفضة من خلافة بغداد وإمارة السامانيين ببخارى. اعتنق بلغار الفولغا الإسلام، في حين دخل الخزر في اليهودية، ربما لتجنب الخضوع لهيمنة جيرانهم المسلمين أو المسيحيين الأرثوذكس. وسقطت الدولتان أمام القوة المتصاعدة لروسيا الكييفية قبل نهاية القرن العاشر. وثمة قبيلة تركية أخرى، هي البجناك لم تشكل دولة، لكن شراستها ومهارتها العسكرية العالية جعلتها مرهوبة الجانب من كل الشعوب التي اتصلت بها، من المستقرين أو البدو الرحل على حدٍ سواء.

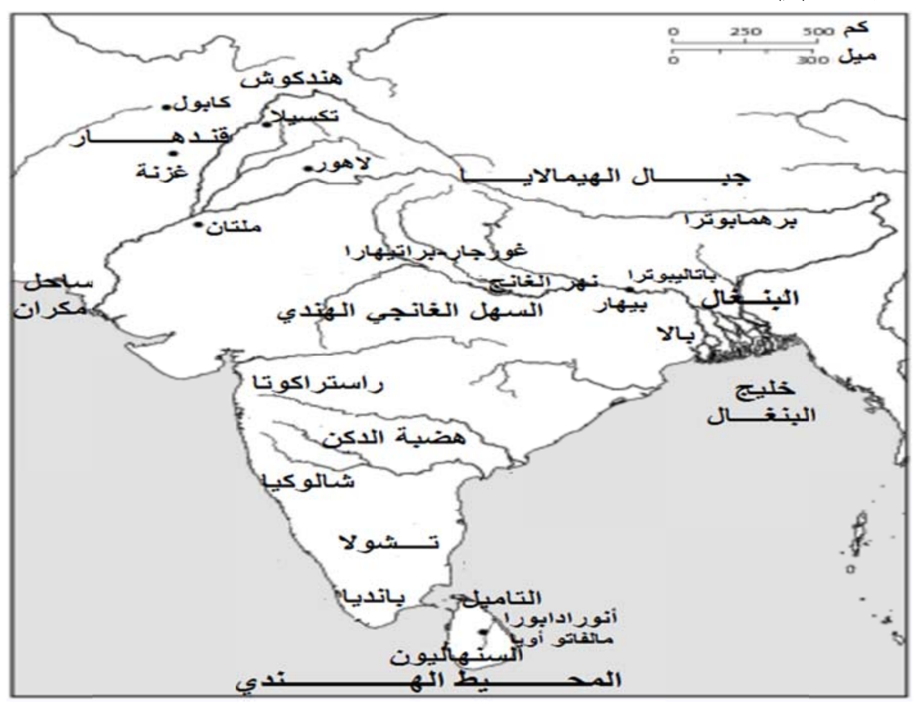
جنوب آسيا(٥٨)

تفصل جبال الهيمالايا وهندوكوش الهند عن آسيا الوسطى، وتشكل الهند شبه جزيرة وشبه قارة على اليابسة الأوراسية تشبه أوروبا الغربية في عدة نواحٍ (انظر الشكل رقم١,٥). فقد نشأت ثقافة متميّزة عن امتزاج السكان الدرفيديين(٥٩) الأصليين والبدو الرعاة الآريين الذين جاءوا من الشمال قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام. كانت الطائفة العليا من البرهمن Brahmins والمحاربين يعيشون على حصاد السهل الشمالي الخصب الذي يُزرَع بكد طائفة الشودرا shudra. ظهر عدد من الممالك في السهل، في حين كانت التلال في سفوح جبال الهيمالايا موطناً لبعض الممالك القبَلية. فمملكة ماغدا Magadha على نهر الغانج الأدنى سيطرت على كامل السهل إبان منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد بفضل موقعها الملائم للتجارة الداخلية وتجارة ما وراء البحار. وأعطتها رواسب خام الحديد المحلية ميّزة في الأسلحة، ووفرت لها الغابات الخشب

(٥٨) تتضمن مصادر هذا القسم Arasaratnam (1964), Kosambi (1969), O'Brien (2002), Schmidt (1999), Stein (1998, chapters 1-3), and Thapar (2002).

(٥٩) الدرفيديون Dravidians هم الشعب أو الشعوب الأصلية بشبه جزيرة الهند يتحدثون عائلة من اللغات تسمى الدرفيدية [المترجم].

وإمداداً وفيراً بفيلة الحرب. وتعرض شمال غرب الهند لتأثير إيراني كبير، وأصبحت مدينة تكسيلا[٦٠] مركزاً للتبادل المثمر للأفكار بين التقاليد الهندية والفارسية. ثم جاء غزو الإسكندر الأكبر في العام ٣٣٠ قبل الميلاد لينشر التأثيرات الثقافية اليونانية والفارسية في قندهار[٦١]، وهي التأثيرات التي تركت بصمتها المميّزة في فن النحت البوذي. كما وفرت هضبة جنوب الدكن التي يعبرها عدد من الأنهار إمكانات زراعية متنوعة. وتطورت هناك تخصصات حرفية عديدة وصناعة منسوجات قطنية متميّزة منذ الأزمان البعيدة.



الشكل رقم (١,٥) جنوب آسيا.

(٦٠) تكسيلا Taxila مدينة بمقاطعة البنجاب الباكستانية بالقرب من إسلام أباد [المترجم].

(٦١) قندهار Gandhara مملكة قديمة كانت تقع على أجزاء من شمال باكستان وشرق أفغانستان الحاليتين، في وادي بيشاور وهضبة بوثوهار ووادي نهر كابول [المترجم].

كانت سواحل مالابار وكورومandel في الغرب والشرق على التوالي ترتبط بصلات تجارية بالخليج العربي والبحر الأحمر وبكل من جنوب شرق آسيا القارية والجزيرية. وقد عُثِر فيها على عملات معدنية رومانية بوفرة كبيرة، وهو ما يشهد على هذه التجارة. وكان تجار البحر الأبيض المتوسط أيضاً يحصلون على سلع جنوب شرق آسيا في الموانئ الهندية، ما حفز العلاقات الهندية مع مصدر تلك السلع. وبذلك انتقلت التأثيرات الدينية والثقافية الهندوسية والبوذية، بما في ذلك الأفكار السياسية الأساسية حول المُلك وأصول الحكم إلى الدول الجديدة الناشئة في كمبوديا وتشامبا[٦٢] وجاوة وسومطرة. وأنصاب أنغكور واط[٦٣] وبوروبودور[٦٤] وبرامبانان[٦٥] من أوضح الأدلة على عمق هذا التأثير الهندي.

تحققت الوحدة السياسية للسهل الغانجي الهندي[٦٦] ومعظم جنوب الهند في الإمبراطورية الماورية (٣٢١-١٨٥ قبل الميلاد) التي أسسها شاندرا غوبتا ماوريا Chandra Gupta Maurya الذي ظهر في أعقاب غزو الإسكندر الأكبر. نجح شاندرا غوبتا في تحدي الحاكم السلوقي نيكتور Nicator الذي خلف الإسكندر في المناطق التي تقع الآن في شرق أفغانستان، وأقامت الدولتان علاقات دبلوماسية سلمية، ربما لذلك ترك السفير اليوناني ميغاسينيز Megasthenes رواية قيّمة حول الهند. وحقق الإمبراطور

(٦٢) تشامبا Champa مملكة هندوسية وبوذية حكمت المنطقة المطابقة لفيتنام الحالية من القرن السابع تقريباً حتى العام ١٨٣٢ [المترجم].

(٦٣) أنغكور وات Angkor Wat مُجمّع معابد هندوسي في منطقة أنغكور بكمبوديا شيّده الملك سرفاومان الثاني في بداية القرن الثاني عشر ليكون المعبد الرسمي للدولة وعاصمتها [المترجم].

(٦٤) بوروبودور Borobudur معبد بوذي مهاني بُني في القرن التاسع في ماغيلانغ بجاوة الوسطى بإندونيسيا [المترجم].

(٦٥) برامبانان Prambanan مُجمّع معابد هندوسي شُيّد إبان القرن التاسع في جاوة الوسطى بإندونيسيا [المترجم].

(٦٦) نسبة إلى نهر الغانج [المترجم].

الماوري التالي فتوحات واسعة في الجنوب والغرب. كان الحاكم الثالث بهذه السلالة هو أشوكا Ashoka الشهير، المعروف بتقواه ودعمه للبوذية التي تحوّل إليها ندماً على غزوه الدموي لكالينكا(٦٧) التي كانت المكون الأخير في إمبراطوريته الماورية. تفككت هذه الإمبراطورية بعد موته مباشرة في العام ٢٣٢ قبل الميلاد. وتبع الحكم السلوقي في شمال غرب الهند ظهور ما يسمى الملوك الهنود–اليونانيين Indo-Greek kings الذين كان من أبرزهم ميناندر Menander (١٥٥–١٣٠ قبل الميلاد). وخلفت الهنود–اليونانيين جماعتان من بدو آسيا الوسطى، هما الساكا Sakas والكوشان Kushans، شجعتا التجارة بين الهند وطريق الحرير إبان القرنين الأولين بعد الميلاد. وكان الطريق الملكي الماوري السريع من باتاليبوترا(٦٨) إلى تكسيلا الذي لا يزال موجوداً إلى اليوم باسم الطريق الرئيس، كان جزءاً من هذا الطريق التجاري الذي كان يصل بعد ذلك إلى كابول، ومن خلال باختر(٦٩) إلى البحر الأسود وبحر قزوين. وكانت تجارة ما وراء البحار تتجه جنوب نهر الغانج إلى خليج البنغال، ومن هناك إلى جنوب شرق آسيا وسيلان، أو سريلانكا كما تعرف اليوم.

ثمة إمبراطورية قوية أخرى، هي غوبتا Gupta، دامت من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلاديين. وتعد هذه الإمبراطورية عموماً "العصر الكلاسيكي" للحضارة الهندية، وبلغت أوجها في عهد هارشا Harsha (٦٠٦–٦٤٧) الذي تبددت فتوحاته الواسعة في شمال الهند بعد موته. تميّز هذا العصر بالازدهار المادي، على الأقل للنخبة الحاكمة، فضلاً عن الإنجازات الفكرية والثقافية البارزة. وشجعت الدولة كلاً من الهندوسية والبوذية، كما لقيت الأخيرتان أيضاً دعماً في شكل تبرعات خاصة من

---

(٦٧) كالينكا Kalinga حالياً مقاطعة داخلية بالفلبين [المترجم].

(٦٨) باتاليبوترا Pataliputra مدينة في الهند القديمة، يوجد مكانها اليوم مدينة باتنا Patna [المترجم].

(٦٩) باختر أو باختريا Bactria هو الاسم القديم للمنطقة التاريخية الواقعة بين جبل هندوكوش ونهر جيحون، وعاصمتها كانت تقع مكان بلخ الحالية [المترجم].

الأفراد والنقابات التجارية. فانتقلت البوذية إلى سيلان وجنوب شرق آسيا، وأيضاً إلى إيران وآسيا الوسطى، وفي النهاية إلى الصين على طول طريق الحرير. وزار كثير من الحجاج البوذيين الصينيين الهند، من أمثال فا هساين Fa Hsien وهسوان تسانغ Hsuan Tsang، وتركوا تسجيلات رائعة لخبراتهم وانطباعاتهم.

وبعد تراجع إمبراطورية غوبتا، ظهر عدد من الممالك الإقليمية في الشمال وفي هضبة الدكن. وكما هي الحال في أوروبا الغربية، لم تتمكن إحداها من السيطرة على الموارد اللازمة للهيمنة على كل الممالك الأخرى وفرض إمبراطورية موحدة. وكانت إمبراطورية بالا Pala في بيهار والبنغال معروفة بدعمها للبوذية إبان القرنين الثامن والتاسع، وحققت إمبراطورية غورجار- براتيهارا Gurjar-Pratihara في شمال الهند بعض النجاح في مقاومة هجمات الهونيين من آسيا الوسطى. وفي الدكن، حال انقسام المنطقة إلى عدد من الوديان النهرية تجري من الغرب إلى الشرق وعدد من الأشرطة الساحلية المتجاورة، دون تمكين أية قوة واحدة من السيطرة على المنطقة، على الرغم من الصراعات القاسية بين دولة شالوكيا Chalukya ودولة بالافا Pallava ودولة باندیا Pandya. وتمتعت دولة راستراكوتا Rastrakuta في غرب الدكن بحضور بارز، لكنها فقدت قوتها لصالح شالوكيا مع نهاية القرن العاشر. وشهد الجنوب تطورات ثقافية ودينية بارزة، منها امتزاج العناصر الآرية والدرفيدية وظهور الشخصية التاميلية المتميّزة. وأصبح الجنوب أيضاً أكثر انخراطاً في تجارة المحيط الهندي. واستقر كثير من التجار العرب على ساحل مالابار الغربية، ما أدى إلى نشأة الجماعة المسلمة المسماة موبلا[٧٠] التي لعبت لاحقاً دوراً مهماً في كل من التجارة وانتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا. ومع منعطف الألفية الأولى، برزت دولة تشولا Chola

(٧٠) الموبلا Mopla أو المابلا Mappila أكبر جماعة مسلمة في ولاية كيرالا الهندية تتركز في المنطقة الشمالية المسماة مالابار، تشكلت بفعل انتشار التجار المسلمين، حتى تصل الفتوحات الإسلامية هناك [المترجم].

القوية، وتابعت مصالحها بقوة على البر وفيما وراء البحار في سيلان وجنوب شرق آسيا.

استوطن مهاجرون من شمال الهند في جزيرة سيلان في وقت ما من القرن الخامس قبل الميلاد، ربما أبحروا على طول الساحل الغربي. وكان السكان الأصليون هم شعب أسترالويد Australoid الذين يبدو أنهم لم يُظهِروا أية مقاومة. جعل موقع الجزيرة منها محطة تجارية طبيعية لتجارة الشرق-الغرب عبر المحيط الهندي. وكانت معروفة للرومان باسم تابروبين Taprobane، وترددت عليها أيضاً السفن الفارسية والعربية والصينية. وجاءت هجرة أخرى من جنوب الهند، وتحديداً من مملكة باندیا وفقاً للروايات التقليدية. وكانت المستوطنات الأولى في الشمال الغربي على طول نهر مالفاتو أويا Malvattu Oya، وتأسست عاصمة في أنورادابورا Anuradhapura. وكانت زراعة الأرز الركيزة الأساسية للاقتصاد، ولقيت الدعم مما أصبح في النهاية نظام ري متطوراً جداً.

وعلى الرغم من أن المهاجرين كانوا بوذيين ورعين، فقد جلبوا معهم نظام الطوائف الهندي-الآري، رغم أنه عمل بطريقة أكثر ليناً ومرونة منه في الهند، وكان التمييز الرئيس بين المهن الزراعية وغير الزراعية. وكانت العلاقات بالمراكز البوذية في الهند وجنوب شرق آسيا قوية جداً، وكانت سيلان موطن مذهب هينايانا Hinayana الأكثر تزمتاً وصفاءً أو مدرسة البوذية الثهروادية[٧١] التي اعتنقها الناس في بورما وكمبوديا وتايلند. وتورطت سيلان بقوة في النزاعات السياسية للسلالات الحاكمة الهندية الجنوبية. وغزت سلالة تشولا سيلان في العام ٩٩٣ ونهبت العاصمة وضمت

(٧١) البوذية الثهروادية أو ثيرافادا Theravada، بمعنى طريق الأقدمين، أحد المذهبين الرئيسين في البوذية، ينتشر في دول جنوب شرق آسيا، يتميز بالبساطة وعدم الإيمان بأي إله والتأكيد على الحرية الشخصية [المترجم].

الجزيرة إلى مملكاتها حتى العام ١٠٧٠، حين استعادها السنهاليون. وتورطت سيلان أيضاً في نزاعات بسبب التجارة مع بورما والدولة التجارية السومطرية المعروفة باسم سيريفيجايا Srivijaya.

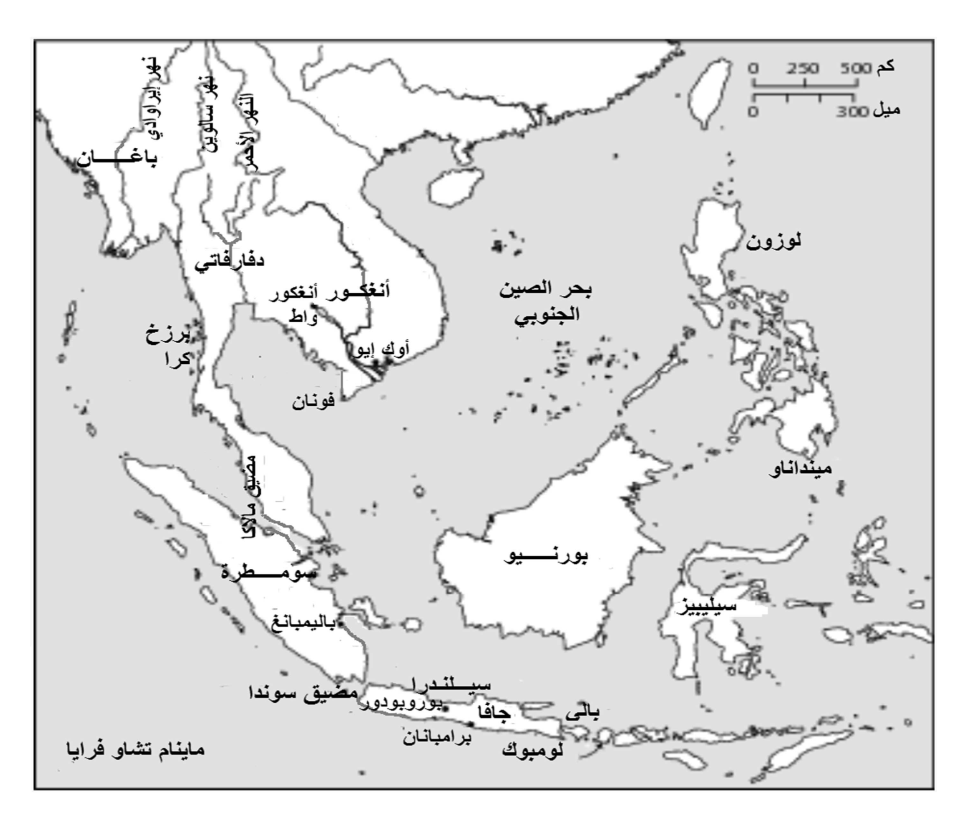
جنوب شرق آسيا[٧٢]

يمكن تعريف جنوب شرق آسيا بأنه كل اليابسة الأوراسية شرق الهند وجنوب الصين، فضلاً عن سلسلة الجزر الطويلة "الملقاة مثل طوق من الأحجار الكريمة حول خط الاستواء" (انظر الشكل رقم ١،٦). وتنقسم المنطقة طبيعياً بين كتلة من اليابسة وجزر الأرخبيل. تضم اليابسة الدول القومية المعاصرة بورما وتايلند ولاوس وكمبوديا وفيتنام وماليزيا، وتشمل الجزر سنغافورة وإندونيسيا والفلبين وبروناي وتيمور الشرقية. تشغل ماليزيا اللسان الضيق الطويل لشبه الجزيرة الذي كان القدماء يعرفونه باسم "خيرسونيز الذهبية" Golden Khersonese وتعد جغرافياً وثقافياً جزءاً من الجزيرة وليس من اليابسة[٢٤]. والخاصية الجغرافية البارزة لليابسة هي سلسلة الوديان النهرية الطويلة التي تجري عموماً من الشمال إلى الجنوب، وهي إيراوادي Irrawaddy وسالوين Salween ومايناm تشاو فرايا Maenam Chao Phraya وميكونغ Mekong، فضلاً عن النهر الأحمر الأقصر الذي يجري من الغرب إلى الشرق. والسهول على طول هذه الوديان النهرية وتلك الأنهار الصغرى المتوازية، وبخاصة الدلتات الغنية بالغرين، مناطق خصبة لزراعة الأرز، ذلك المحصول الذي ظل السلعة الأساسية لشعوب هذه المنطقة على مدى آلاف السنين. وقد كان للري في المناطق قليلة المطر، مثل المنطقة الجافة وسط بورما، الفضل في أعلى مستويات الإنتاج الزراعي، وشكّل الركيزة الاقتصادية للممالك والإمبراطوريات المبكرة[٢٥]. وكانت الوديان

---

(٧٢) تتضمن مصادر هذا القسم Coedes (1968), Hall (1968, part I), O'Brien (2002), Reid (1988), Tarling (1992, part I), Wang (1998), and Wolters (1999).

النهرية في الغالب محاطة بنجود تكسوها الغابات، كانت أصعب في زراعتها، إلا بعد قطع الأشجار وحرقها. وتضم الجزر الرئيسة بالأرخبيل الإندونيسي سومطرة وجاوة وبالي ولومبوك Lombok وبورنيو Borneo وسيليبيز Celebes (سالاويزي) ومنداناو Mindanao ولوزون Luzon، فضلاً عن عدد كبير من الجزر الأخرى الصغرى ذات الأهمية الاقتصادية والتاريخية الكبيرة. وتتعرض المنطقة برمتها للعب الرياح الموسمية التي تهب من الجنوب الغربي من مايو حتى سبتمبر، ومن الشمال الشرقي من نوفمبر حتى مارس. ومتوسط المطر مرتفع، ويتركز على كتلة اليابسة في فترة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية.



الشكل رقم (١,٦) جنوب شرق آسيا.

ينتمي سكان الجزر وشبه الجزيرة إلى الملايو-البولينيزيين، وهم أحفاد سلالة من جنوب الصين، هاجرت أولاً إلى تايوان، ثم إلى جنوب شرق آسيا وبولينيزيا(٧٣) وإلى أقصى الشرق حتى جزيرة إيستر، وربما أيضاً إلى أقصى الغرب حتى مدغشقر. وسكان بورما وتايلند وكمبوديا وفيتنام مزيج من الملايو-البولينيزيين وقبائل جاءت أصلاً من منطقة غرب الصين والتبت. ويمتلك الخمير في كمبوديا والمونيون(٧٤) في الأجزاء الجنوبية من بورما وتايلند لغة أوسترونيزية(٧٥)، في مقابل اللغات الصينية-التبتية السائدة بين البورميين والتايلنديين عموماً. لقد خبا التأكيد على تهنيد(٧٦) جنوب شرق آسيا من جانب المؤلفين الهنود والأوروبيين، من أمثال جورج كويدس George Coedes[٢٦] في البحوث الحالية، مفسحاً المجال للتأكيد على استقلالية المنطقة، كما في أعمال ولترز Wolters الموثوقة[٢٧]. فقد طورت الشعوب الأصلية بالمنطقة زراعة الأرز وأشغال البرونز والحديد وسمات ثقافية واجتماعية وسياسية متميّزة من قبل العصور التاريخية، وباستقلالية عن الهند والصين. وكانت هذه الشعوب بسبب موقعها المتوسط عرضة في العصور التاريخية لتأثيرات قوية من الحضارات الكبرى لجيرانهم الهنود والصينيين، لكنهم استوعبوها في أنماطهم الثقافية المميّزة. بل إن التأثيرات الهندوسية والبوذية لم تنتج ببساطة عن الهجرة أو الغزو الهنديين، وإنما سعت إليها الشعوب والحكام المحليون طوعاً.

---

(٧٣) بولينيزيا Polynesia منطقة فرعية من أوقيانوسيا Oceania تتشكل من أكثر من ألف جزيرة مبعثرة حول وسط المحيط الهادي وجنوبه، يشترك سكانها البولينيزيون في اللغة والثقافة والمعتقدات، من أهم جزرها ساموا Samoa وإيستر Easter وهاواي [المترجم].

(٧٤) المونيون أو المون Mon جماعة عرقية من بورما (ميانمار)، تعيش حالياً في ولاية مون البورمية بدلتا إيراوادي، كانت لهم دول في المنطقة على مر التاريخ [المترجم].

(٧٥) تنتشر عائلة اللغات الأوسترونيزية Austronesian بين جماعات متنوعة في جنوب شرق آسيا وأوقيانوسيا، في إندونيسيا وماليزيا والفلبين وبروناي ومدغشقر وبولونيزيا وغيرها [المترجم].

(٧٦) تهنيد idianization بمعنى إضفاء الطابع الهندي على الشيء أو اعتباره هندياً من حيث الثقافة والمنشأ [المترجم].

يعرف الكيان السياسي الأقدم في الظهور في السجل التاريخي للمنطقة باسم فونان Funan التي كانت تقع على الطرف الجنوبي لخليج سيام في منطقة تمتد الآن على جانبي الحدود بين كمبوديا وفيتنام. بعد أن سقطت إمبراطورية هان الصينية في العام ٢٢٠ بعد الميلاد، دخلت الصين الفترة المعروفة باسم "الممالك الثلاث" التي شملت دولة واي Wei في الشمال ودولة شو Shu في الجنوب الغربي ودولة وو Wu في الجنوب الشرقي[٢٨]. وكان الوصول إلى آسيا الوسطى والغرب من خلال ممر قانسو(٧٧) متاحاً لدولة واي فقط، فيما كان الطريق البري الآخر الممكن عبر الحدود بين بورما ويونان(٧٨) متاحاً لدولة شو فقط. وكما يوضح وانغ غونغوا Wang Gungwu ، فقد كان الخيار الوحيد المتاح لحكام دولة وو إذا أرادوا التجارة مع الغرب هو عبر البحر من خلال موانئ جنوب شرق آسيا[٢٩].

كان الطريق التقليدي للتجارة البحرية بين الشرق والغرب في تلك الأزمان يقوم على نقل السلع والمسافرين بين السفن عبر برزخ كرا Kra الذي يمتد لخمسة وثلاثين ميلاً ويعد أضيق معبر في شبه جزيرة الملايو. أما البديل البحري الكامل عبر مضيق مالاكا Malacca أو مضيق سوندا Sunda ، فلم يتطور إلا بعد قرن أو يزيد. وكان أقرب ميناء مناسب لدولة وو الصينية هو الموقع الذي يعرفه علماء الآثار باسم أوك إيو Oc Eo في مملكة فونان، لأن دلتا ميكونغ الخصبة التي يقع فيها الميناء كانت توفر إمدادات الأرز الضرورية للتجار وأطقم السفن في أثناء انتظارهم لنقل السلع بين السفن، وأيضاً لأنه يقع على الخليج المقابل للنقاط التي تُفرّغ فيها السفن الغربية والهندية المسافرين

---

(٧٧) ممر قانسو Kansu أو ممر خشى Hexi طريق تاريخي في مقاطعة قانسو الصينية، كان جزءاً من طريق الحرير الشمالي، يسير إلى الشمال الغربي من ضفة النهر الأصفر، وكان أهم طريق تجاري من شمال الصين إلى حوض تاريم وآسيا الوسطى [المترجم].

(٧٨) يونان Yunan إقليم بمقاطعة غوانغدونغ Guangdong الصينية الواقعة على بحر الصين الجنوبي [المترجم].

والسلع على البرزخ. وقد أرسل حاكم دولة وو سفارات لفتح التجارة والعلاقات الدبلوماسية مع دولة فونان الهمجية قبل منتصف القرن الثالث، ومعرفتنا بفونان برمتها يرجع الفضل فيها إلى سجلات مبعوثي دولة وو. ومن المؤكد أن "المكاسب العائدة من التجارة على الاقتصاد الصغير المنفتح" لدولة فونان كانت كبيرة ووفرت لها الموارد للتوسع الإقليمي حول حافة خليج سيام لتعزيز هيمنتها، وكذلك لأعمال الري الانتشاري التي رفعت إنتاجيتها الزراعية كثيراً. وبعد تطوير طريق المضايق، أصبح بمقدور السفن تجاوز فونان، ما تسبب في تراجع عائداتها، وسقوطها في النهاية أمام دولة الخمير المعروفة باسم تشينلا Chenla إبان القرن السادس.

وبعد التحول من المرور عبر برزخ كرا إلى مضيق مالاكا ومضيق سوندا المرتبطين بين جاوة وسومطرة، أصبح من الحتمي أن تنتقل السيطرة على الطريق الجديد إلى دولة تقع على إحدى هذه الجزر. وبداية من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر، كانت هذه الدولة تقع في بالميبانغ Palembang على الساحل الجنوبي الشرقي لسومطرة وتُعرَف تاريخياً باسم سريفيجايا. ولكي تقوم سريفيجايا بدورها كإمبراطورية تجارية، كان لا بد لها من أن تؤّمن السيطرة على إمدادات الموارد الطبيعية بالمنطقة، لكي تفي باحتياجات التجار الصينيين والفرس والعرب، فضلاً عن إطعام التجار والأطقم في أثناء التوقف الطويل بين نوبات التحول في اتجاه الرياح. وقد نجحت في تحقيق الهدف الأول بإقامة شبكة علاقات عبر نظام تحالفات قائم على التبعية تدعمه القوة العسكرية، وذلك باستخدام قوات مرتزقة وقوات محلية، فضلاً عن أسطول غير حكومي، وإن كان فعالاً، من بدو الملايو البحريين. وكانت إمدادات الأرز تأتي عبر المضايق من المملكة الجاوية المتحالفة التي كانت تحكمها سلالة سيلندرا Sailendra. وبذلك تمكّنت دولة سريفيجايا من ممارسة درجة من السيطرة الاحتكارية على التجارة المنقولة بحراً بين

الغرب والصين، وهي تجارة كانت مربحة جداً إبان تلك القرون بسبب ازدهار إمبراطوريتي تانغ وسونغ من جهة، ودول الخلافة العربية في دمشق وبغداد والقاهرة من جهة أخرى. ومن خلال هذه العائدات، تمكّن حكام سريفيجايا من الاحتفاظ ببلاط على الطريقة الهندية ودعم مؤسسة دينية بوذية كبيرة.

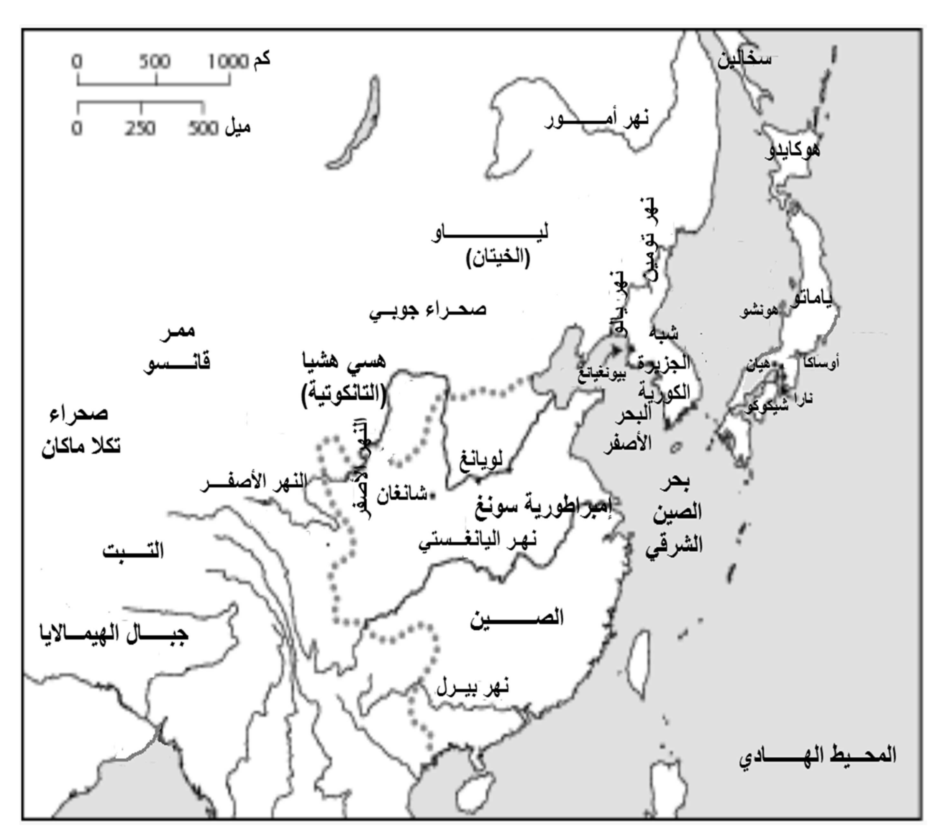
وعلى كتلة اليابسة، بدأت تظهر دول جديدة مع منعطف الألفية أو بعدها بقليل، منها باغان Pagan في بورما، ودفارافاتي Dvaravati في تايلند، وأنغكور Angkor في كمبوديا، التي تأثرت جميعها بشدة بالبوذية والتأثيرات الثقافية الهندية الأخرى.

شرق آسيا (الصين وكوريا واليابان)[٧٩]

يمكن اعتبار الصين، كالهند تماماً، شبه قارة ضمن أوراسيا (انظر الشكل رقم ١,٧). فيحدها من الشرق المحيط الهادي، ومن الغرب السهول والصحاري وسلاسل جبال آسيا الوسطى، ومن الجنوب الغابات الاستوائية بجنوب شرق آسيا، ومن الشمال منطقة غير ملائمة للزراعة المستقرة كانت دائماً مجالاً للحضارة الصينية. وفرت الوديان الخصبة للنهر الأصفر ونهر اليانغستي القاعدة الزراعية لكل التطور اللاحق. فقد تميّز سهل شمال الصين بمنطقة النهر الأصفر برواسب طّفلية نقلتها الرياح، كونت "التربة الصفراء" التي وفرت موطن الأسلاف للحضارة الصينية المميّزة. وكانت أقدم دولةٍ هي سلالة شانغ Shang إبان النصف الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد، التي تميّزت بأسلحتها البرونزية ومراكبها الطقوسية وأقدم أبجدية صينية بالرموز المعروفة باسم

(٧٩) تتضمن مصادر هذا القسم Blunden and Elvin (1983, parts 1 and 2), Ebrey (1996, chapters 1-6), FitzGerald (1966), Gernet (1982, parts 1-5), Hall (1970, chapters 1-6), Huang (1990), Hucker (1975), O'Brien (2002), Pulleyblank (1955), Reischauer and Fairbank (1962, chapters 1-6, 10-11), Ropp (1990), and Twitchett (1973).

"عظام الوحي"[٨٠]. وأشغال المعادن البرونزية والعجلات الحربية لدولة شانغ تشبه نظيراتها الهندية-الأوروبية الواقعة إلى الغرب، لكن السؤال حول ما إذا كان ذلك إحدى حالات الانتشار الثقافي عبر سهول آسيا الوسطى أم تطوراً مستقلاً داخل الصين نفسها لا يزال سؤالاً مفتوحاً.



الشكل رقم (١,٧) شرق آسيا.

(٨٠) عظام الوحي oracle bones عبارة عن أجزاء من الأصداف والعظام، عادة من أكتاف الثيران وصُدْرات السلاحف، استخدمت في الصين القديمة فيما يسمى الكهانة الكتفية والكهانة الصدرية، إذ كان العرافون ينحتون على هذه الأصداف والعظام أسئلة للآلهة حول الطقس أو الحصاد أو حظوظ الأعمال العسكرية في المستقبل. تحمل هذه العظام والأصداف أقدم أبجدية صينية معروفة [المترجم].

وبعد انهيار دولة شانغ، ظهرت دولة تشو Zhou الشرقية البدوية التي أدخلت نظاماً أقل مركزية بكثير يوصف أحياناً بأنه نظام "إقطاعي". وأدت فترة طويلة من الانقسام إلى ظهور سبع ممالك إقليمية كبيرة تصارعت بقوة على السلطة في فترة "الدول المتحاربة" (٤٠٣-٢٢١ قبل الميلاد). وحدثت زيادة في الإنتاجية الزراعية، ارتبطت بإدخال الأدوات الحديدية، وولّدت عائدات أكبر للدول ودعمت جيوشاً أكبر، كانت تساندها قوات من الفرسان في محاكاة لطرق الحرب البدوية. ونشأت طبقة جديدة من الإداريين المحترفين والمتخصصين حلت محل طبقة النبلاء القائمة على القرابة، وغدت المعايير تستند إلى الجدارة والإنجاز. وشهدت تلك الفترة أيضاً تَبَلور خميرة ثقافية، نشأت خلالها الأنساق الفلسفية الصينية الرئيسة الثلاثة: الكونفوشية والطاوية والقانونية.

انتهت الصراعات الطويلة على السلطة في حقبة الدول المتحاربة بانتصار دولة تشين Ch'in الواقعة على الحدود الغربية في العام ٢٢١ قبل الميلاد الذي يسميه بود Bodde "أهم تاريخ على الإطلاق في التاريخ الصيني قبل إلغاء الملكية في العام ١٩١٢"[٣٠]. اتخذ حاكم هذه الدولة لقب شي هوانغ دي Shi Huang Di بمعنى الإمبراطور الأول وكان أول حاكم أوحد للبلاد كاملة. فرض الإمبراطور نظاماً مركزياً استبدادياً ولغة موحدة، وطُبقت بيروقراطية مدنية مدعومة بجيش قوي وقوانين وأوزان ومقاييس موحدة، تُعرَض نسخ طينية طبق الأصل منها في مقبرة الإمبراطور التي أعيد اكتشافها مؤخراً في شيان Xian. وشيّدت هذه الدولة أيضاً سور الصين العظيم ومتنته، فضلاً عن عدد من الأشغال العامة الهائلة الأخرى. وكانت الصرامة الممارسة على المجتمع مهولة لدرجة أن الإمبراطورية انهارت بعد فترة قصيرة من وفاة شي هوانغ دي في العام ٢١٠ قبل الميلاد.

استعيدت الوحدة الإمبراطورية سريعاً في العام ٢٠٦ قبل الميلاد في عهد سلالة هان التي أخذت الصين إلى مستوى من الإنجاز فاق نظيره في الإمبراطورية الرومانية المعاصرة في الغرب والإمبراطورية الماورية في الهند. وامتدت حدود الإمبراطورية إلى كوريا في الشمال وفيتنام في الجنوب، كما حققت اختراقاً عميقاً في آسيا الوسطى في الغرب. وأرست نظاماً بيروقراطياً كونفوشياً أكثر اعتدالاً بدلاً من النظام القانوني القاسي لإمبراطورية تشين قصيرة العمر، ثم عُدِل النظام كثيراً بالإقطاعات التي مُنِحت للحلفاء والأقارب. واتباعاً للدورة السلالية المألوفة التي ميّزت نمط التاريخ الصيني، فقدت إمبراطورية هان "تفويض السماء" في النهاية بعد ثورات الفلاحين والحرب الأهلية في العام ٢٢٠ بعد الميلاد.

أدى انهيار إمبراطورية هان إلى عدة قرون من الانقسام، فتصارع الجنرالات وأمراء الحرب على السلطة، وكان كثيرون منهم من أصول ترجع إلى بدو السهل. ثم أسست عشيرة تركية تدعى توبا Toba دولة واي Wei الشمالية (٣٨٦-٥٣٤) الواقعة في عاصمة هان القديمة لويانغ Lo-yang. حاولت هذه السلالة بناء دولة موحدة بالجمع بين الأرستقراطية التركية القبَلية المُتَصَيِّنة والمؤسسات والأسر الصينية مالكة الأراضي، لكنها لم تصب نجاحاً طويلاً. فتحول الثقل السكاني من شمال وادي اليانغستي إلى جنوبه، حيث حاول الصينيون الهرب من ويلات الحرب الأهلية والاستفادة من وفرة أراضي الأرز الواسعة في الجنوب. ودخل الناس أيضاً في البوذية بأعداد كبيرة كملاذ روحي من الأخطار الدنيوية. وفي النهاية اكتملت الدورة السلالية، حين أسست سلالة من الجنرالات دولة سوي Sui المهمة، وإن ظل عمرها قصيراً (٥٨١-٦١٨)، وقد تمثل إنجازها الرئيس في بناء نظام القنوات الذي يربط وادي اليانغستي بالشمال. وكما أدى العهد القصير لدولة تشين إلى عهد دولة هان الطويل والمجيد، تلت دولة سوي مباشرة

إمبراطورية تانغ (٦١٨-٩٠٧) التي أخذت الصين إلى آفاق أرحب حتى مما شهدته الصين في عهد دولة هان.

تميّزت القرون الثلاثة لإمبراطورية تانغ بانتشار الثقافة والتأثير الصينيين إلى آسيا الوسطى وكوريا واليابان. ومع أن البيروقراطية كانت تقوم على نظام الجدارة بدرجة أكبر من ذي قبل، فقد جرى تفويض السلطة أيضاً إلى الأسر الأرستقراطية المحلية. وكان التوسع الاقتصادي كبيراً، مع انتشار اقتصاد نقدي قائم على الفضة ونمو نقابات التجار. وواصل مركز النمو الاقتصادي في التحول نحو الاقتصاد القائم على الأرز بالجنوب، مع زيادة الاعتماد على الأسواق والتجارة. وأصبحت الأساليب الفنية أكثر انفتاحاً على تأثيرات آسيا الوسطى، وازدهرت البوذية دينياً، مع انتقال مقادير كبيرة من الثروة في شكل أراض وغيرها إلى أيدي المؤسسات الرهبانية.

وإبان العقد الأوسط من القرن الثامن، ظهرت العلامات المألوفة للتراجع السلالي والصعوبات. وكما ذكرنا في موضع سابق، فقد هزم العرب جيشاً تابعاً لدولة تانغ في معركة نهر طلاس في العام ٧٥١، ما أدى إلى كبح سيطرة هذه الدولة الصينية على آسيا الوسطى، وتلا ذلك ثورة مدمرة بقيادة الجنرال آن لو شان An Lu Shan الذي ترجع أصوله إلى آسيا الوسطى، قُمِعت بشدة، وبتكلفة باهظة في الوقت عينه، ما أفقد السلالة الحاكمة هيبتها. وأدت الأزمات المالية إلى مصادرة أراضي المعابد وثرواتها. وبقيت هذه الدولة حتى العام ٩٠٧، وتبعتها فترة من النظم المتنافسة المعروفة باسم "الدول الخمس"، انتهت بتأسيس إمبراطورية سونغ Sung في العام ٩٦٠ وعاصمتها كايفنغ K'ai-feng.

كانت شبه الجزيرة الكورية إلى الجنوب الشرقي من نهري يالو Yalu وتومن Tumen اللذين يفصلانها عن منشوريا، تتمتع دائماً بهوية عرقية ولغوية متميّزة عن

الصين، على الرغم من آلاف السنين من التأثير الثقافي والسياسي من جارتها العملاقة. هاجر الشعب الكوري- على ما يبدو- إلى شبه الجزيرة الكورية من منشوريا إبان عصور ما قبل التاريخ، وكانوا يتحدثون لغة أورالية-ألطية[٨١] تربطها بعض الصلات باللغات التانكوتية[٨٢] التي تتحدثها بعض القبائل البدوية في شمال منشوريا. وطوروا اقتصاداً زراعياً مستقراً خلال العصرين الحجري القديم والبرونزي، وحكموا من خلال أرستقراطية قَبلية وراثية، كانت تعولها طبقة من الفلاحين وطبقة كبيرة من العبيد. وغزت دولة هان كوريا في العام ١٠٨ قبل الميلاد، وأدارتها عبر أربع قيادات أو مناطق عسكرية، كان أكبرها يقع في موقع قريب من بيونغ يانغ عاصمة دولة كوريا الشمالية الحالية. وتهاوت السيطرة السياسية الصينية بعد سقوط دولة هان، وظهرت ثلاث ممالك كورية مستقلة، هي كوغوريو Koguryo التي حكمت ما يعرف الآن بكوريا الشمالية وجنوب منشوريا، وباكشي Paekche في الجنوب الغربي، وسيلا Silla في الجنوب الشرقي، وكانت الأخيرتان تفصل بينهما السلسلة الجبلية التي تشكل العمود الفقري لشبه الجزيرة.

ازدهرت الممالك الثلاث بفضل التجارة النشطة مع كل من الصين والجزر اليابانية. ودخلت البوذية من الصين، وأصبحت الدين الشعبي بدلاً من الشامانية[٨٣] السابقة، التي بقيت في شكل أثري. وكانت الحكومة والإدارة تقومان على نماذج

---

(٨١) اللغات الأورالية- الألطية Ural-Altaic عائلة لغوية يفترض علماء اللغة أنها تضم اللغات الأورالية والألطية معاً [المترجم].

(٨٢) اللغات التانكوتية Tungusic عائلة لغوية تتحدثها الشعوب التانكوتية في سيبيريا الشرقية ومنشوريا [المترجم].

(٨٣) الشامانية Shamanism دين بدائي من أديان شمال آسيا وأوروبا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وبأن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان، وهم كهنة يستخدمون السحر لمعالجة المرضى وكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث [المترجم].

كونفوشية. وتبنى الكوريون رموز الكتابة الصينية ببعض الصعوبة لكتابة اللغة الكورية المختلفة كلياً. وتطورت الفنون الخزفية وغيرها بسبب التأثير الصيني، لكن بأسلوب محلي مميّز. وإبان أوائل القرن السابع، شنّ الحاكم الثاني بدولة سوي غزواً موسعاً لكوغوريو في محاولة لاستعادة السيطرة التي فقدت بعد سقوط دولة هان. جُوبه الغزو بمقاومة كورية شرسة عجلت بانهيار دولة سوي قصيرة العمر. ونفذت إمبراطورية تانغ محاولة غزو فاشلة أخرى، لكنها في النهاية نالت الاعتراف بالسيادة الصينية بعد غزو آخر بالتحالف مع دولة سيلا. وأخذت مملكة موحدة تحكم كامل البلاد في فلك التبعية لإمبراطورية تانغ من العام ٦٦٨ إلى العام ٩٣٥، حين أسقطتها دولة شمالية جديدة خلفت كوغوريو تعرف باسم كوريو Koryo التي اشتق منها الاسم الحالي للبلاد. واعترفت كوريو وكل النظم الكورية اللاحقة بالسيادة الصينية حتى العام ١٨٩٥، وهو العام الذي هُزمت فيه دولة مانشو تشينغ في الحروب الصينية–اليابانية.

تتكون اليابان من الجزر الرئيسة الأربع هوكايدو وهونشو وشيكوكو وكيوشو من الشمال إلى الجنوب، وتمتد من الساحل الشمالي الشرقي لليابسة الأوراسية، وتشكل نظيراً للجزر البريطانية على الساحل الشمالي الغربي لليابسة نفسها. لكن على خلاف الأخيرة، كانت اليابان أقل عرضة للغزو والهجرة إبان العصور التاريخية، وتتفرد في درجة عزلتها النسبية الطويلة عن النفوذ الأجنبي، مقارنة بالأمم الحديثة الكبرى الأخرى، ما أعطى تاريخها وتطورها مسحة خاصة، كما يقال كثيراً.

ونظراً لأن الطرف الشمالي لهوكايدو يقع على نفس خط العرض الذي تقع عليه مونتريال وأن الطرف الجنوبي لكيوشو أعلى قليلاً من الخط الذي تقع عليه جاكسونفايل Jacksonville بفلوريدا[٨٤] ويغمرها تيار اليابان الدافئ، فإن مناخها يتميّز

(٨٤) انظر الخريطة المثيرة في كتاب ريشوار وفيربانك (Reischauer and Fairbank, 1962, p. 453).

باعتدال نسبي بلا تطرف في برودة الشتاء أو حرارة الصيف. وأرض اليابان جبلية، وأقل من خمسها فقط صالح للزراعة. وقد عوضهم عن ذلك الخشب من الغابات الوفيرة والتنوع الثري في الأسماك من البحار المحيطة. وأدت التضاريس الجبلية أيضاً إلى تقسيم الأرض إلى وحدات صغيرة نسبياً قابلة للزراعة، ما جعل المركزية السياسية أمراً صعباً في إنجازه.

لا يزال التركيب العرقي للسكان الأوائل محل خلاف. لكن اللغة تنتمي إلى العائلة الأورالية-الألطية نفسها التي تنتمي إليها اللغة الكورية، ما يشير إلى أن أصول الشعب الياباني ترجع إلى شمال شرق آسيا. وقد تعرف علماء الآثار على ثقافة الجومون Jomon الممثّلة في أعمال الفخار "المصنوعة من الحبال" التي ترجع إلى السكان من جماعات الصيد والجمع قبل نحو عشرة آلاف عام من الميلاد. وبعد ذلك بفترة طويلة، وتحديداً في العام ٣٠٠ قبل الميلاد تقريباً، ظهر ما يعرف بثقافة يايوي Yayoi التي تميّزت بزراعة الأرز بالري وأشغال المعادن البرونزية والحديدية. وبدأت العلامات الأولى للتنظيم السياسي الطبقي مع ظهور تلال الدفن الكبيرة للنخبة الحاكمة والمحاربين الخيّالة. والتشابهات مع كوريا واضحة، لكن ليس من المعلوم يقيناً ما إذا كان الخيّالة غزاة من اليابسة الآسيوية، أم أن هذا النمط الحربي قد أدخله السكان المحليون أنفسهم من باب التكيف مع التأثيرات الخارجية. وكان المجتمع يتكون من طبقات وراثية تعرف باسم يوجي uji، لكل منها قائد يرتبط بروح سلالية معينة تعرف باسم كامي kami. وزعمت الطبقة الحاكمة في منطقة ياماتو Yamato في سهل نارا Nara بالقرب من أوساكا Osaka أنها سليلة إلهة الشمس أماتيراسو أوميكامي Amaterasu Omikami. وتنحدر السلالة الإمبراطورية الحالية باليابان مباشرة من هذه العشيرة التي ترجع بداياتها الأسطورية- بلا شك- إلى العام ٦٦٠ قبل الميلاد.

كان حكام ياماتو على اتصال وثيق مع الحضارة الصينية، في الغالب من خلال وساطة كوريا. بل يبدو حتى أن هناك جيباً يابانياً على الساحل الكوري الجنوبي. وثمة أدلة أيضاً على هجرة كورية كبيرة إلى اليابان في ذلك الوقت تقريباً. كان الوصول إلى أكثر التقنيات تقدماً يمنح ميّزة في الصراع التنافسي على السلطة في اليابان بين الطبقات الوراثية [اليوجي] المختلفة. وتعززت جاذبية الثقافة الصينية كثيراً بعد أن استعادت سلالتا سوي وتانغ الوحدة الإمبراطورية إبان أوائل القرن السابع. وشهدت القرون الثلاثة التالية استيعاباً هائلاً ومطولاً للتأثيرات الصينية في الدولة اليابانية الناشئة.

كان مؤسس برنامج التصيين ومهندسه هو ولي العهد الأمير شوتوكو Shotoku القريب من جهة أمه بالسوغا Soga، وهي عشيرة كبيرة من أصل كوري. فقد أعلن في العام ٦٠٤ دستوراً مكوناً من سبع عشرة مادة، تبنى التريبيتاكا[٨٥] البوذية والمبادئ الكونفوشية المختلفة المتعلقة بالولاء للدولة والإمبراطور وخدمتهما، فضلاً عن تجديد آخر رئيس وباق تمثل في تبني نظام التقويم الصيني. وأرسل شوتوكو أيضاً سلسلة من السفارات إلى عاصمة دولة سوي، ولاحقاً دولة تانغ، في تشانغان Chang'an، شملت كل منها عدة سفن ومئات الرجال، وعادت بنصوص كونفوشية بوذية ومنتجات أخرى من حضارة اليابسة الآسيوية. واستمرت السفارات لفترة طويلة بعد موته في العام ٦٢٢. ودرس كثير من اليابانيين الدين وأصول الحكم والفنون الأخرى في الصين قبل أن يعودوا بالمعرفة التي اكتسبوها إلى بلادهم. يذكّرنا ذلك بالانخراط الياباني مع الغرب بعد إعادة ميجي[٨٦] في العام ١٨٦٨. وشهد العام ٦٤٦ إصلاحات تايكا Taika

---

(٨٥) التريبيتاكا Tripitaka كلمة سانسكريتية تعني السِلال الثلاث، وهو المصطلح التقليدي الذي تستخدمه التقاليد البوذية لوصف شرائعها وأسفارها المقدسة [المترجم].

(٨٦) فترة ميجي أو إعادة ميجي Meiji Restoration فترة من تاريخ اليابان، تُعرَف أيضاً باسم الثورة أو التجديد، تمتد من العام ١٨٦٨ إلى العام ١٩١٢، شهدت اليابان خلالها سلسلة من الأحداث أعادت

التي تضمنت إصلاحاً شاملاً للحكومة اليابانية والنظام القانوني والإدارة على الطريقة الصينية.

أنشئت عاصمتان جديدتان، على غرار تشانغان، في نارا Nara من العام ٧١٠ إلى العام ٧٥٤، ولاحقاً في هييان Heian (كيوتو) من العام ٧٩٤، كانتا مركزين أشع منهما النظام الإمبراطوري الجديد. وفي المقابل، لم يكن من السهل تطعيم المبادئ الكونفوشية الموضوعية القائمة على الجدارة والأداء ضمن الواقع الياباني القائم على الولاءات الشخصية والإقليمية. وعلى نحو متزايد، أخذت الأشكال الخارجية للمنطق والكفاءة البيروقراطيين والإمبراطوريين الصينيين تتكامل مع الجوهر الياباني القائم على العلاقات المحلية والقَبَلية. وأخيراً، أفسحت ثقافة هييان الحضرية المتقدمة الطريق للطابع الفظ لأمراء الحرب الإقليميين وشكلٍ ياباني من النظام الإقطاعي.

الحكم الإمبراطوري، ونُفذِت فيها تغييرات ضخمة في البنية السياسية والاجتماعية للبلاد، وكلمة "ميجي" تعني الحكومة المستنيرة [المترجم].

الفصل الثاني

الاقتصاد العالمي مع نهاية الألفية الأولى

THE WORLD ECONOMY AT THE TURN OF THE FIRST MILLENNIUM

قسّم الفصل الأول اليابسة الأفريقية-الأوراسية إلى سبع مناطق عالمية بناءً على مزيج من السمات الجغرافية والسياسية والثقافية، وقدم ملخصاً للتطور التاريخي والمؤسسي لكل منها حتى نحو العام ١٠٠٠. يتناول الفصل الحالي طبيعة الصلات الاقتصادية وغيرها من التبادلات بين هذه المناطق، أو على الأقل بعض أقسامها الفرعية التي دخلت في علاقات متبادلة. على أن هذه الصلات لم تقتصر على التجارة أو تبادل السلع، بل شملت أيضاً حركة الناس، مثل العبيد والتجار والحجاج والمرتزقة وغيرهم ممن دخلوا في تفاعل وتبادل ثقافي بالمعنى الأوسع للكلمة، ما أدى إلى انتشار الأفكار والتجديدات التقنية، فضلاً عن المعتقدات والممارسات الدينية[1].

لا بد أن القارئ قد لاحظ في الفصل الأول أن المنطقة الوحيدة، من بين المناطق السبع، التي شهدت اتصالات منتظمة ومباشرة مع المناطق الأخرى كافة، إضافة إلى أفريقيا جنوب الصحراء، كانت العالم الإسلامي في شمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا. لقد تقاتل المسلمون والمسيحيون الكاثوليك الرومان الأوروبيون الغربيون وتاجروا معاً في إسبانيا وإيطاليا، وكذلك صقلية وغيرها من جزر البحر الأبيض المتوسط. وانتزع المسلمون جزءاً من إمبراطوريتهم من البيزنطيين الأرثوذكس اليونانيين الأوروبيين

(١) يعتمد هذا الفصل في عدة مواضع على Findlay, 1998.

الشرقيين، وقضوا كل الأعوام التالية تقريباً في نزاع عسكري في هذه النقطة أو تلك على امتداد حدودهم الطويلة، بينما كانوا ينخرطون في الوقت نفسه في التجارة والعلاقات الدبلوماسية من أجل مصالحهم المتبادلة، إذ تبادل المسلمون الملح والمنسوجات مع الذهب القادم من غرب أفريقيا. وغزت الجيوش الإسلامية آسيا الوسطى وكان عليها أيضاً أن تصد هجمات غزاة السهل البدو، فيما كانوا في الوقت عينه ينفذون تجارة واسعة ونشاطاً دعوياً من جانب الصوفيين وغيرهم. وغزت الجيوش الإسلامية الهند، فيما استمرت تجارتهم الواسعة عبر كل من البر والبحر مع الهند، وعبر البحر مع جنوب شرق آسيا. وأخيراً، اشتبكت الجيوش الإسلامية وجيوش إمبراطورية تانغ الصينية في آسيا الوسطى في معركة نهر طلاس في العام ٧٥١، وأرسلت الخلافة عدة سفارات إلى عواصم تانغ، وكان للتجار المسلمين مستعمرات كبيرة في جنوب الصين، وفي مناطق أبعد إلى الشمال والشرق مثل كوريا. ليس مفاجئاً- إذن- أن الجغرافيين العرب والفرس كانوا أوسع الناس معرفة بظروف اليابسة الأفريقية-الأوراسية بأنحائها كافة في ذلك الزمان[1](٢).

كانت منطقة جنوب آسيا هي الأخرى على اتصال جيد بغيرها، أيضاً بفضل موقعها الجغرافي المتوسط نسبياً، وتصدير المنسوجات الهندية مباشرة إلى شرق وجنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى وأفريقيا جنوب الصحراء والعالم الإسلامي. وكانت آسيا الوسطى تقع في مكان متوسط، ولذلك كانت على اتصال وثيق مع كل المناطق الأخرى، ما عدا أوروبا الغربية وأفريقيا جنوب الصحراء وجنوب شرق آسيا. واجه بدو السهل بيزنطة وروسيا الكييفية عسكرياً، وكذلك تاجروا معهما على نطاق واسع، وانتقلت السلع الهندية وكذلك البوذية على طول طريق الحرير، وكانت الصين مصدراً دائماً للتأثير الثقافي والاقتصادي على قبائل آسيا الوسطى. وكان شرق آسيا وجنوب شرق آسيا على عِلم ببيزنطة، لكن لم يجريا معها تجارة ثنائية مباشرة ثابتة، أو تبادلاً ثقافياً مع أفريقيا جنوب الصحراء أو أوروبا الشرقية، أو مع أوروبا

---

(٢) انظر تحديداً خريطته (الشكل ١٢، ص ٧٩) "التي توضح الامتداد الجغرافي للحكم الإسلامي وتأثيره التجاري في القرن العاشر الميلادي"، بما في ذلك الانتشار الواسع للعملات الإسلامية.

الجدول رقم (٢,١) التدفقات التجارية الدولية في نحو العام ١٠٠٠.

إلى / من	أوروبا الغربية	أوروبا الشرقية	العالم الإسلامي	آسيا الوسطى	أفريقيا جنوب الصحراء	جنوب آسيا	جنوب شرق آسيا	شرق آسيا
أوروبا الغربية	●	السيوف	العبيد السيوف	ــــ	ــــ	ــــ	ــــ	ــــ
أوروبا الشرقية	العبيد، الفراء، الفضة	●	العبيد، الفراء، الفضة	الفراء، السيوف	ــــ	ــــ	ــــ	ــــ
العالم الإسلامي	الفلفل، التوابل، المنسوجات، الحرير، الفضة	المنسوجات، الفضة	●	المنسوجات	الملح، المنسوجات، المصنوعات، السيوف، الخيول	خيول الحرب	الذهب	التوابل
آسيا الوسطى	ــــ	الفضة	الفلفل، الفضة، العبيد	●	ــــ	الفضة، السلع المعاد تصديرها من الصين والعالم الإسلامي	ــــ	الخيول
أفريقيا جنوب الصحراء	ــــ	ــــ	الذهب، العبيد، العاج، الأرز	ــــ	●	الخشب، الحديد	ــــ	ــــ
جنوب آسيا	ــــ	ــــ	الفلفل، التوابل، الحرير، خشب الساج، المنسوجات	الفلفل، المنسوجات	المنسوجات	●	المنسوجات، الفلفل	المنسوجات
جنوب شرق آسيا	ــــ	ــــ	التوابل، العطور	ــــ	ــــ	الحرير، التوابل، خشب الساج، الأرز، الياقوت	●	العطور، التوابل خشب الصندل
شرق آسيا	ــــ	ــــ	الحرير، الخزف الصيني	الحرير، الشاي	ــــ	الحرير، الخزف الصيني	الحرير، النحاس، العملات	●

الغربية بالتأكيد. فقد كانت أوروبا الغربية أكثر مناطق العالم انعزالاً في ذلك الوقت، تماماً كما كانت حال أفريقيا جنوب الصحراء، فكانت أوروبا الغربية على اتصال مباشر مع العالم الإسلامي وأوروبا الشرقية فقط، فيما كانت أفريقيا جنوب الصحراء تتصل بالعالم الإسلامي وجنوب آسيا فقط. بإيجاز، كان العالم الإسلامي على اتصال مع المناطق السبع الأخرى جميعها، وكان جنوب آسيا على اتصال مع خمس منها، وآسيا الوسطى وشرق آسيا على اتصال مع أربع، وجنوب شرق آسيا وأوروبا الشرقية على اتصال مع ثلاث، وأفريقيا جنوب الصحراء وأوروبا الغربية على اتصال مع اثنتين فقط.

يوجز الجدول رقم(٢,١) هذه العلاقات المتبادلة، إذ يقدم مصفوفة مبتكرة توضح التدفقات المباشرة الأساسية بين المناطق في نحو العام ١٠٠٠ ميلادية. ويعرض بقية الفصل ملخصاً لطبيعة هذه التدفقات. لكن قبل أن نبدأ، يجب أن نبرز الأهمية الكبيرة للجغرافيا في السردية التي يحكيها الفصل. فكما يوضح الشكل رقم (٢,١)، فإن أوراسيا تشكّل كتلة يابسة طويلة جداً تمتد عبر محور من الشرق إلى الغرب[٣]. تمتع جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا بهِبات مناخية وموارد مختلفة تماماً عن الصين وأوروبا، فيما تفردت الصين بحضارة قديمة ومتقدمة جداً أنتجت الشاي، وطورت صناعات متطورة جداً أنتجت سلع ترف من نوع الخزف والحرير. وكانت سهول آسيا الوسطى ذات الأراضي الوفيرة مصدراً للخيول، فيما كانت المناطق المتخلفة نسبياً في أوروبا وأفريقيا توفر العبيد والمعادن النفيسة.

لذلك يوجد أساس طبيعي للتجارة بين المناطق، بما في ذلك التجارة بين الشرق والغرب. بداية، وكما توضح الخريطة، كان هناك طريقان يربطان طرفي أوراسيا، الأول بري والثاني بحري. وكانت هناك مشكلات محددة ترتبط بكل طريق من الاثنين. ففي حال اختيار الطريق البري، كانت المشكلة الرئيسة التي يجب التغلب عليها تتمثل في توفير الأمن للتجار في أثناء عبورهم للامتدادات الشاسعة لآسيا الوسطى.

---

(٣) تعتمد هذه الخريطة على عدة مصادر، منها Abu-Lughod (1989) and Chaudhuri (1985).



الشكل رقم (٢,١) الطرق البرية والبحرية.

ومن الطبيعي أن يكون ذلك أسهل في إنجازه في حال وجود سيطرة سياسية مركزية على المنطقة، أو على الأقل في حال توسع الإمبراطوريات الصينية أو الشرق أوسطية أو الأوروبية في داخل آسيا الوسطى. وقد أقر المؤرخ الكبير إدوارد غيبون Edward Gibbon اعتماد التجارة على الأمن قبل أكثر من قرنين، حين كتب في معرض وصفه للتجارة الإيطالية في آسيا في فترة السلام المغولي أن "مياه نهر جيحون وبحر قزوين ونهري الفولغا والدون فتحت ممراً عزيزاً وعسيراً لمجوهرات الهند وتوابلها، فبعد مسيرة ثلاثة أشهر كانت قوافل خوارزم تقابل السفن الإيطالية في موانئ القرم....

لكن هذا النقل المائي أو البري كان ممكناً فقط حين كانت بلاد التتر موحدة تحت ملك حكيم وقوي"[٢].

ويقول فيليب كيرتن Philip Curtin إنه "في نقلة مفاجئة نسبياً، ظهرت بين نحو العام ٢٠٠ قبل الميلاد وبداية الحقبة المسيحية تجارة برية منتظمة عبر آسيا الوسطى من الصين إلى شرق البحر الأبيض المتوسط"، وكذلك انتشرت التجارة بين الهند والصين[٣]. أما تفسير التوقيت فيكمن في ظهور الصين القوية الموحدة في عهد دولة هان على أحد طرفي الطريق والإمبراطوريات الرومانية والفارسية على الطرف الآخر. ويذكر كيرتن أن المفتاح إلى الطريق البري كان يمر عبر صحراء تكلا مكان Takla Makan في مقاطعة شينجيانغ، التي أثنى قحطها قبائل السهل عن سكناها، لكنها وُهِبت سلسلة من الواحات وفرت الطعام والماء للتجار[٤]. ومن هناك كانت القوافل تستطيع أن تسافر غرباً إلى بلاد ما وراء النهر، ومنها تواصل السير غرباً إلى الإمبراطورية الرومانية، أو جنوباً إلى الهند.

كانت هناك مشكلتان رئيستان تعترضان الطريق البحري، الأولى مشكلة تقنية في طبيعتها تتعلق بالرياح الموسمية التي تهب من الجنوب الغربي في الصيف (تيّسر الرحلات من بلاد العرب أو شرق أفريقيا إلى الهند) ومن الشمال الشرقي في الشتاء عبر بحر العرب (تيّسر رحلة العودة). شجعت هذه الرياح أيضاً نمطاً موسمياً للإبحار إلى الشرق. وكانت المرحلة الثانية للرحلة البحرية من الهند إلى الملايو، والثالثة من الملايو أو إندونيسيا إلى الصين أو اليابان[٥]. شجعت هذه الطبيعة الموسمية التخصص في كل مرحلة من مراحل الرحلة، على الرغم من أن بعض التجار كانوا يقومون بالرحلة كاملة من بلاد العرب إلى الصين، كما أشرنا.

أما المشكلة الثانية في الطريق البحري فكانت سياسية في طبيعتها. فكما يتضح في الخريطة، يوجد عنقا زجاجة كان يتحتم التغلب عليهما إذا أريد نقل السلع بين الصين وأوروبا، الأولى هي شبه جزيرة الملايو والأرخبيل الإندونيسي، والثانية هي شبه الجزيرة العربية. وكانت السيطرة على أحد هذين العنقين تدّر أرباحاً احتكارية كبيرة، ولذلك ظهرت سلسلة من النظم في المنطقتين استخدمت القوة العسكرية لفرض

ضرائب كبيرة على التجارة. وحين كان الطريق البري يعمل، كانت عائداتهم تتراجع كثيراً، وحين كان يُقطَع بسبب عدم الاستقرار السياسي كانت عوائدهم ترتفع. وكان الوضع الجغرافي المحيطي[٤] لأوروبا الغربية، وتحديداً تطويق العالم الإسلامي لها، يعني خضوعها أكثر من غيرها لهذه الممارسات الاحتكارية. وكان امتداد أفريقيا من الشمال إلى الجنوب، ووقوعها في المكان الخاطئ من نقطة الاستشراف الأوروبية، يعني أن التقنيات الملاحية الأوروبية يجب أن تُطوّر كثيراً لكي يجدوا طريقاً حول عنق الزجاجة العربي.

سنبدأ بمناقشة حالة كل من الطرق البرية والبحرية مع منعطف الألفية، ونظراً لأن العالم الإسلامي كان يقع في مركز الاقتصاد العالمي، فمن المفيد أن نوجز أولاً علاقات العالم الإسلامي بكل المناطق الأخرى. ثم نتقدم بعد ذلك إلى وصف بعض أشكال العلاقات التجارية التي قامت على الطرف الشرقي لأوراسيا من خلال موشور تفاعلات إمبراطورية سونغ الصينية مع المناطق الأخرى. ويستكشف الفصل التالي التجارة عبر الطرق البحرية التي تربط الصين بجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا، وينتهي الفصل برواية مطولة للتفاعلات بين العالم الإسلامي وأوروبا الغربية، إذ يعطينا الفرصة لتقديم عدة موضوعات ستظهر لاحقاً في هذا الكتاب.

العصر الذهبي للإسلام

وحَّدت الفتوحات العربية إبان القرن السابع وأوائل القرن الثامن- لأول مرة في التاريخ- عالم البحر الأبيض المتوسط لروما والإمبراطوريات القديمة من ناحية، وبلاد ما بين النهرين وإيران من ناحية أخرى. فإمبراطورية الإسكندر تفككت عند موته إلى مناطق متنافسة يقودها جنرالاته، ولم تصل الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية إلى نهر الفرات. فيما وحّد العرب الممتلكات البيزنطية في مصر وسوريا وفلسطين وشمال أفريقيا مع الأقاليم الساسانية في بلاد ما بين النهرين وإيران. ومدّ العرب حدودهم الشرقية إلى بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند. وبذلك فُتِح الطريق أمام حركة الناس

(٤) بمعنى كوْن أوروبا الغربية جزءاً من محيط الاقتصاد العالمي، وليس قلبه أو مركزه [المترجم].

والسلع والتقنيات والأفكار كي تتدفق شرقاً وغرباً في فضاء شاسع وحّده الإسلام واللغة العربية. صحيح أن اعتناق الإسلام حدث ببطء وأن الفرس والآراميين والأقباط والبربر لم يختفوا بين عشية وضحاها، لكن سرعان ما أصبحت اللغة العربية لغة الإدارة والقانون والتجارة فضلاً عن العقيدة الإسلامية في معظم المنطقة.

تجلى انفصال العالمين البيزنطي والساساني تماماً في الاختلاف في نظاميهما النقديين. فقد كانت العملة البيزنطية قاعدة أحادية المعدن من الذهب، هي الصلدس solidus أو النقد nomisma، كانت تزن ٤.٥٥ غراماً من الذهب تقريباً، بينما استخدم الساسانيون أيضاً معدناً واحداً، هو الفضة، وكانت الدراخما تزن نحو ٤.١٥ غراماً من الفضة. وعلى مدى العقود القليلة التالية للفتوحات العربية ظلت هذه العملات المعدنية تُتداول وتُسكّ كما في السابق، كل في منطقتها التابعة للخلافة. وفي أوائل العقد الأخير من القرن السابع أجرى الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥) إصلاحاً نقدياً جذرياً باستبدال النظامين السابقين بقاعدة ثنائية المعدن، هما الدينار زنة ٤.٢٥ غراماً من الذهب تقريباً والدرهم زنة ٢.٩٧ غراماً من الفضة تقريباً، بنسبة تبادل رسمية قدرها عشرون درهماً للدينار الواحد، وهو ما يتضمن نسبة ذهب إلى فضة قدرها أربع عشرة إلى واحد للوزن نفسه من المعدن. وكانت العملات المعدنية الجديدة متفردة أيضاً في احتوائها على نقش، فلم تحتو تمثيلاً للملك أو المعبود كما كان معتاداً في السابق، وإنما تضرعاً إلى الله واسم الملك الحاكم وتاريخ ومكان سكّ العملة.

تجلى انصهار الإمبراطوريتين حينذاك في القاعدة ثنائية المعدن الجديدة التي حلت محل نظامي المعدن الواحد السابقين القائمين على الذهب والفضة. وكما سنرى لاحقاً، فقد استطاعت الخلافة أن تدعم الإصلاح النقدي باحتياطيات ضخمة من المعدنين الثمينين من خلال الإتاحة المتواصلة لإمدادات جديدة منهما. فقد استولى العرب، وفقاً لأحد التقديرات، على الخزانة الملكية الساسانية كاملة وقد احتوت تسعة بلايين دراخما، واستولوا على كميات ضخمة من قوالب الذهب والفضة من ولايتي مصر وسوريا البيزنطيتين السابقتين. ووصلوا أيضاً إلى مناجم الذهب في النوبة وغرب أفريقيا من خلال التجارة، وكانت مناجم الفضة في إيران وبلاد ما وراء النهر تحتوي وفرة من

رواسب هذا المعدن. واستطاع العالم الإسلامي من خلال السيطرة على هذه الموارد أن يحقق الاستقرار النقدي دون اللجوء إلى تقليل المعدن النفيس في العملة لأكثر من ثلاثة قرون، وعلى ذلك، فإن وصف هذا العصر بأنه "العصر الذهبي للإسلام" صحيح مجازياً وحرفياً أيضاً. ولذلك كانت العملات العربية، كما سنرى لاحقاً، محل تقدير كبير في العالم المسيحي.

كانت هذه العبارة التي استخدمناها عنواناً لهذا القسم، عنواناً لكتاب كلاسيكي لموريس لومبارد Maurice Lombard يقول فيه إنه "يمكن النظر إلى العالم الإسلامي على أنه سلسلة من الجزر الحضرية تربط بينها طرق تجارية"[٦]، وكانت إمدادات المعادن النفيسة بمثابة التزييت لحركة السلع وعوامل الإنتاج على طول هذه الدوائر. وكانت كل واحدة من هذه الجزر الحضرية "مركزاً له قوة شرائية" أو استهلاكية تعتمد على كل من الإنتاج المحلي وواردات السلع الاستهلاكية والمواد الأولية، أحياناً من مسافات طويلة. ظهر الدين الإسلامي في مكة المكرمة والمدينة المنورة الواقعتين في شبه الجزيرة العربية اللتين لا تزالان إلى اليوم أقدس مكانين للمسلمين. لكن كما رأينا، انتقلت العاصمة السياسة للدولة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق السورية في عهد الأمويين، ولاحقاً إلى بغداد في عهد العباسيين، ولم تعد بعد ذلك إلى شبه الجزيرة العربية. ومع سيطرة المسلمين على كل من البحر الأحمر والخليج العربي، فقدت تجارة القوافل عبر شبه الجزيرة مبررها الاقتصادي. وبقيت المدينتان المقدستان ملتقى ومقصد الحج السنوي الضخم من أنحاء العالم الإسلامي كافة، ولذلك كانت لهما أيضاً أهمية اقتصادية كبيرة. وكانت شبه الجزيرة العربية أيضاً سوقاً للتجارة في العبيد الأفارقة، وأصبحت المدينة مركزاً لتدريب العبيد على الأشكال الكلاسيكية من الموسيقى والرقص التي كانت منتشرة حينذاك في أنحاء العالم الإسلامي كافة. وثمة نشاط اقتصادي أساسي آخر هو تربية الخيول، حيث نتجت الخيول العربية الشهيرة عن تهجين السلالات البربرية والإيرانية في الظروف المناخية المثالية لهضبة نجد المرتفعة في شمال غرب شبه الجزيرة.

وفي بلاد ما بين النهرين، أسس العرب مدينتي الكوفة والبصرة كحاميتين عسكريتين محصنتين، ولاحقاً أُنشئت مدينة واسط بينهما. وسرعان ما ازدهرت البصرة نتيجة لاستصلاح الأراضي في الأهوار وبفضل التجارة عبر الخليج العربي، وقُدّر عدد سكانها إبان القرن التاسع بمئتي ألف نسمة، والكوفة بنحو ثلاثة أرباع هذا العدد[٧]. ربما أدت الثروة المتولدة في البصرة والكوفة إلى زيادة التوترات الاجتماعية، حيث ظهرت فيهما عدة فرق منشقة، وشهدتا ثورات عنيفة متكررة. وطّن الأمويون عدة قبائل عربية في مواقع إستراتيجية مختلفة في سوريا وبلاد ما بين النهرين لتقوية قبضتهم في هذه المناطق. وأدخلوا في الوقت نفسه زراعة محاصيل جديدة مهمة من الهند في بلاد ما بين النهرين وسوريا، وبخاصة الأرز وقصب السكر والقطن. وخُصّصت منطقة ما بين دجلة والفرات في بلاد ما بين النهرين العليا لزراعة القطن الذي كان يُنسَج ويُغزَل في المركز الصناعي بالموصل التي اشتق من اسمها اسم النسيج القطني المعروف بالموصلين muslin. وخُصّصت المنطقة المحيطة بتكريت الشهيرة بكونها مسقط رأس كل من صلاح الدين الأيوبي وصدام حسين للقمح والشعير ونخيل البلح. وكان الجزء الجنوبي الشرقي من بلاد ما بين النهرين الدنيا، وهو المنطقة المعروفة باسم خوزستان، مغطى بزارعات قصب سكر واسعة قام على رعايتها عبيد سود من شرق أفريقيا كانوا يعرفون باسم الزنج، وهو اقتران سبق نظيره المعروف في العالم الجديد[٥]. وقد قام هؤلاء العبيد بثورة هائلة إبان القرن التاسع، ونهبوا البصرة، وهددوا وجود الخلافة العباسية ذاتها لأربعة عشر عاماً، قبل أن يُهزَموا أخيراً في العام ٨٨٣.

تتجلى أهمية التجارة في العالم الإسلامي في اختيار موقع العاصمة العباسية بغداد التي شُيّدت على نهر دجلة ورُبِطت أيضاً بنهر الفرات بقناة لنقل البضائع من البحر الأبيض المتوسط وسوريا بسهولة مع اتجاه التيار، ونقل الواردات من الهند وجنوب شرق آسيا في عكس اتجاه التيار من الخليج العربي عبر البصرة. وقد شُيّدت المدينة وفقاً لمخطط دائري وزودت بطرق رئيسة متقاطعة تؤدي إلى أربعة أبواب. كان الباب الشمالي الشرقي يؤدي إلى إيران وبلاد ما وراء النهر، والباب الشمالي الغربي

---

(٥) أي الاقتران بين العبيد الأفارقة ومزارع قصب السكر الذي سينتقل لاحقاً إلى العالم الجديد [المترجم].

إلى سوريا، والباب الجنوبي الشرقي إلى بلاد ما بين النهرين الدنيا، والباب الجنوبي الغربي إلى بلاد العرب ومصر. جاء سكان بغداد من مختلف أنحاء الإمبراطورية وتكاثروا سريعاً مع زيادة الثروة والعائدات المتدفقة من كل الأنحاء. ويقال إن عدد سكان بغداد بلغ زهاء مليوني نسمة في أوج المدينة، وهي مبالغة بالتأكيد، لكنه ربما وصل إلى نصف مليون نسمة، وهو أيضاً عدد ضخم بالنسبة إلى مناطق العالم الأخرى في ذلك الوقت. أما بالنسبة إلى حُماة العباسيين والأوصياء عليهم، وهم البويهيون، فإن ازدهار فارس لم ينتج عن الزراعة المزدهرة وحسب، بل أيضاً عن التجارة مع الشرق الأقصى عبر ميناء سيراف(٦) على الخليج العربي الذي ازدهر بعد أفول نجم البصرة.

كانت مدن إيران وبلاد ما وراء النهر دائماً محطات على طرق القوافل الرئيسة عبر خراسان نحو الصين والهند إلى الشرق (انظر الشكل رقم٢,٢). ويشير لومبارد إلى أن الطريق الشرقي الرئيس كان يمتد من بغداد إلى همدان، ثم الرَّي، ثم نيسابور، قبل أن ينعطف إلى الشمال الشرقي إلى مرو، ثم بخارى، ثم سمرقند، ثم طشقند، ثم طلاس، قبل أن يدخل الصين[٨]. وثمة فرع لهذا الطريق بين سمرقند وطشقند يسير إلى فرغانة، ثم كاشغر(٧) ثم ياركند(٨). ومن نيسابور يمتد طريق آخر باتجاه الشرق إلى بلخ، ومنها إلى كابول ثم إلى الهند، أو ينعطف غرباً إلى قندهار وهرات. وكانت هناك أيضاً طرق تسير إلى الجنوب الشرقي من نيسابور وهرات إلى سيراف وهرمز على الخليج العربي. وكان حيوان الحَمل الرئيس بهذه القوافل التي قارب حجمها دائماً حجم مدن صغيرة متحركة هو الجمل ذو السنامين، ذلك الحيوان القوي والمطيع الذي يُربى أيضاً في هذه المنطقة. وكانت صيانة هذه الطرق والإشراف عليها مسؤولية صاحب البريد أو المدير العام للبريد،

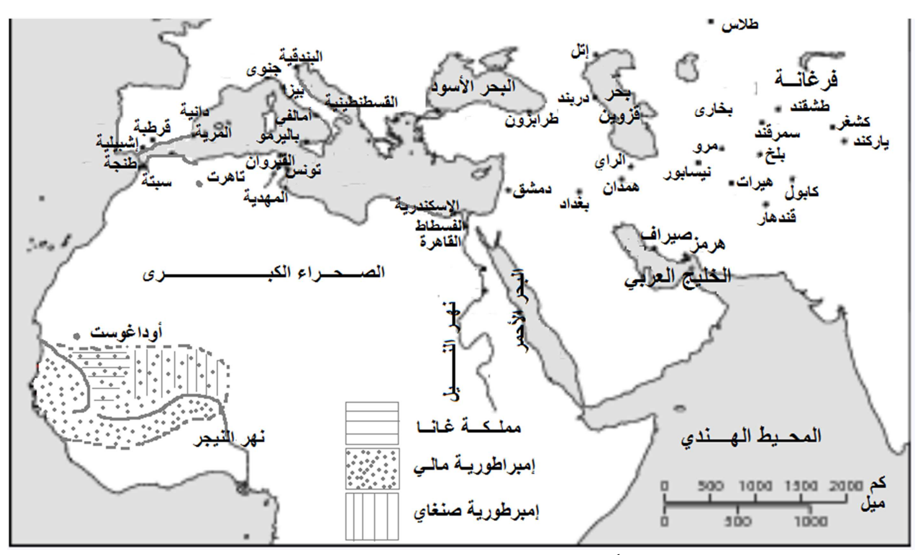
---

(٦) سيراف Seraf أو صيراف أو بندر السيراف (بندر تعني ميناء في اللغة الفارسية) ميناء قديم في محافظة بوشهر بجنوب إيران [المترجم].

(٧) راجع حاشية سابقة حول مدينة كاشغر [المترجم].

(٨) ياركند Yarkand مقاطعة في تركستان الشرقية أو ولاية شينجيانغ أويغور الصينية [المترجم].

وهي وظيفة شغلها إبان أواخر القرن التاسع الجغرافي العظيم ابن خرداذبة[٩]. وكانت التجارة في معظمها تنقلها الشعوب الإيرانية المحلية: السغديون مع الصين، والخوارزميون مع آسيا الوسطى.



الشكل رقم (٢,٢) العصر الذهبي للإسلام.

كانت هذه المدن ذات بنية ثنائية مثيرة، إذ تعايش فيها معسكر الجيش العربي المعروف باسم الرباط، ملحقاً به مسجداً وأسواقاً، وبجانبه الشهرستان الفارسي الأصلي ذو أربعة أبواب أو المدينة المسوّرة، في إشارة إلى انصهار الثقافتين الذي شهده ذلك العالم. وإضافة إلى العرب والإيرانيين، لا يفوتنا التنويه إلى الحضور العسكري للأتراك الذين آلت إليهم السيادة لاحقاً. كانت هذه المدن في أغلبها تقع في واحات ذات نظم ري متطورة تدعم زراعة أراضي الخضر للسوق والمحاصيل لإطعام السكان. ونتيجة لغارات البدو المتكررة، كانت هذه المستوطنات جميعها تحاط كاملة بأسوار وتحصينات. وكان السكان الحضريون يتألفون من البلاط والجيش والموظفين، إلى

(٩) أبو القاسم عبيدالله بن خرداذبة (٨٢٠- ٩١٢) مؤرخ وجغرافي اشتهر بكتابه الجغرافي "كتاب المسالك والممالك" الذي وصف فيه المسافات بين البلدان، عمل في خدمة الخليفة العباسي المأمون [المترجم].

جانب علماء الدين وملاك الأراضي الغائبين(١٠)، فضلاً بالطبع عما تحتاجه المدن من حرفيين وعمال خدمات. وعلى الرغم من ندرة تقديرات السكان وعدم موثوقيتها، يذهب بارتهولد Barthold إلى أن سمرقند ربما كانت تضم نصف مليون نسمة، ويذكر واطسون Watson تقديرات لسكان نيسابور تتراوح بين مئة ألف وخمسمائة ألف نسمة[٩].

وفيما يتعلق بالصناعة، كانت المدن جميعها تزاول العديد من الحرف، وربما كانت صناعة الورق في سمرقند أهم هذه الصناعات، يليها المنسوجات الحريرية والقطنية، ثم السجاد بالطبع الذي يقال إن أرمينيا كانت الرائدة في إنتاجه. ويذكر بارتهولد قائمة رائعة بكل من الصادرات الأولية والمصنعة والمواد المعاد تصديرها من النوعين للمدن المختلفة بالدولة السامانية، ومنها الورق من سمرقند الذي حل كلياً محل البرشمان في العالم الإسلامي مع نهاية القرن العاشر. وكانت التجارة مع بدو السهل نشطة جداً، حيث كانت المدن تبيعهم صناعات المنسوجات المحلية في مقابل الحصول منهم على الحيوانات والمنتجات الحيوانية. وقد فُرِضت رسوم جمركية محددة قدرها درهمان على كل حمل بعير، وهو مبلغ زهيد إذا علمنا أن الأجر الشهري للعامل غير الماهر كان خمسة عشر درهماً.

وحين نولي وجهنا شطر أفريقيا، نجد أن مصر "هبة النيل" كانت سلة الغلال للخلافة الإسلامية، تماماً كما كانت بالنسبة لخلفاء الإسكندر والرومان والبيزنطيين من بعدهم. كان المحصول الأهم بعد القمح هو الكتان الذي كان الأساس لصناعة الكتان المزدهرة. ووفر نبات البردي الذي كان ينمو في النيل المادة الخام لصناعة قديمة أساسية أخرى هي ورق البردي، فضلاً عن زراعة قصب السكر الواسعة. ويذكر لومبارد مورداً رئيساً آخر قدمته مصر لنفع حكامها هو الوصول إلى مصادر الذهب، ليس من المناجم النوبية فقط، وإنما للغرابة من قبور الفراعنة أيضاً. كما أن معظم الذهب القادم من غرب أفريقيا كان يشق طريقه إلى مصر عبر طرق القوافل القديمة.

(١٠) مالك الأرض الغائب هو الشخص الذي يملك أرضاً في الريف، لكنه يعيش بعيداً عنها في الحضر، وتقتصر علاقته بها على تحصيل الإيجار أو الحصول على حصته من المحصول [المترجم].

كان ميناء تونس في عهد الفاطميين محور تجارة البحر الأبيض المتوسط لكل من الشرق والغرب بفضل موقعه المتوسط. وإلى الغرب من تونس استولى الفاطميون على تاهرت Tahart تلك العاصمة الغنية للرستميين[١١] الإيرانيين التي كانت تقع على تقاطع طرق التجارة الممتدة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب. وكان الهدف الرئيس للفاطميين هنا هو السيطرة على النهايات الشمالية لطرق التجارة العابرة للصحراء التي تبادلوا عبرها الملح والمنسوجات والسلع المصنعة الأخرى مع الذهب والعبيد من بلاد السودان، أي "أرض السود"، في مملكة غانا بغرب أفريقيا عند ثَنية النيجر[١٢]. وكان الطريق الرئيس يمتد بين مدن الواحات في سجلماسة بالمغرب وأوداغست فيما يعرف حالياً بموريتانيا. ويقدّر ديفيس Devisse الطلب من دور سكّ العملة الفاطمية على رواسب الذهب الخالص من بلاد السودان بنحو طن سنوياً، أو ثلاثة أطنان على الأكثر، وذلك الكم كان يحتاج من ثلاثين إلى أربعين حمل بعير، مع أخذ الطلب الإضافي في الاعتبار[١٠]. ونظراً لأن عدد البعران التي كانت تغادر سجلماسة سنوياً إلى أوداغست كانت عادة أكبر من ذلك التقدير بكثير، فإن السؤال الذي يطرح نفسه يتعلق بمصير البعران الزائدة في طريق العودة أو نوع الحمولة التي ربما كانت تحملها، وهي أسئلة لا تزال في حاجة إلى إجابات واضحة. ويقول ديفيس أيضاً إن الآلاف من المناجم الصغيرة كانت تُحفَر سنوياً بالتأكيد في مملكة غانا لإنتاج هذه الكمية من الذهب، التي كانت تتطلب قوة عمل كبيرة جداً، مؤكد أنها كانت من العبيد.

كانت هذه التجارة مربحة جداً ويبدو أنها جذبت تجاراً من جميع أنحاء العالم الإسلامي، حتى من مناطق بعيدة مثل بغداد وإيران وبلاد ما وراء النهر. وتتوفر

---

(١١) الرستميون سلالة من الأباضية حكمت بلاد المغرب (ليبيا وتونس والجزائر) بين العامين ٧٧٦ و٩٠٩ ميلادية، كانت عاصمتهم مدينة تاهرت أو تيهرت بالجزائر التي تسمى تيارت حالياً [المترجم].

(١٢) إننا نعتمد في سرديتنا الموجزة للصلات الاقتصادية بين العالم الإسلامي وأفريقيا جنوب الصحراء في هذه الفقرات وما يليها على Oliver and Page and Hrbek (1992). انظر أيضاً الخرائط والمناقشة المفيدة جداً الواردة في O'Brien (2002, pp. 80-81).

إشارات إلى المبالغ المستخدمة فيها في رواية الجغرافي من القرن العاشر ابن حوقل[(١٣)] الذي يذكر أنه رأى في أوداغست "صكاً" Sakk، وهي الكلمة التي ترجمها ليبر Lieber إلى "حوالة"[١١]، بمبلغ اثنين وأربعين ألف دينار، وهو أكبر مبلغ رآه ابن حوقل في كل الوثائق على امتداد العالم الإسلامي[(١٤)]. وكانت الأرباح الضخمة أمراً شائعاً، بالنظر إلى أن الذهب، كما يذكر الكُتاب العرب، كان رخيصاً جداً في بلاد المنبع، التي كان يُبادَل فيها مع الملح، بوزن الملح ذهباً. قد ينطوي ذلك على شيء من المبالغة، لكن شروط التبادل التجاري كانت بالتأكيد مواتية جداً لأولئك المستعدين لخوض غمار الرحلة إلى الجنوب.

على أن هذه الأرباح العالية لم تكن تأتي بلا ثمن. فحكام إمبراطوريات جنوب الصحراء في غانا ومالي وصنغاي[(١٥)] فرضوا ضرائب على التجارة، وكذلك القبائل الصحراوية مثل الطوارق الذين سيطروا على الطرق العابرة للصحراء. والفاطميون بدورهم فرضوا ضرائب على الذهب قبل تصديره إلى إسبانيا وصقلية والمدن المسيحية بشبه الجزيرة الإيطالية، فضلاً عن استخدامهم له في سكّ الدنانير. وإلى جانب هذه العائدات، كان الفاطميون يصدّرون موادّ مصنعة مثل المنسوجات والخزف والزجاج، إضافة إلى تصدير الخيول إلى بقية العالم الإسلامي، وكذلك إلى أفريقيا جنوب الصحراء.

كانت تجارة العبيد حلقة الوصل الاقتصادية الأساسية الأخرى بين العالم الإسلامي وأفريقيا جنوب الصحراء. ومن المعروف أن العبيد الأفارقة كانوا منتشرين في أراضي الشرق الأوسط قبل ظهور الإسلام. وبلال بن رباح المؤذن الأول للرسول،

---

(١٣) هو محمد أبوالقاسم بن حوقل (توفي نحو العام ٩٧٧ ميلادية) ولد في نصيبين ضمن حدود الدولة التركية الحالية، كاتب وجغرافي ورحالة وتاجر، من أشهر أعماله كتاب "صورة الأرض" [المترجم].

(١٤) من أجل تفاصيل أوفى حول التجارة العابرة للصحراء ووصف ابن حوقل لها، انظر مقالة لفيتزيون القيّمة (Levtzion, 1968).

(١٥) صنغاي أو سونغاي Songhai حضارة ومجموعة عرقية ولغوية تركزت حول نهر النيجر بغرب أفريقيا، كانت لها دولة، عاصمتها مدينة غاو، منذ القرن الحادي عشر، ولاحقاً صارت واحدة من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ الأفريقي [المترجم].

كان عبداً أسودَ أعتقه الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان هناك عبيد كثيرون، منهم قادة عسكريون بارزون في الفتوحات العربية الأولى، فضلاً عن الكثير من العبيد المعتقين الذين نبغوا في الشعر والموسيقى، كثير منهم من النساء. ومن المعروف أن محظيات الخلفاء الفاطميين مارسن نفوذاً كبيراً نيابة عن أبنائهن، مثل أم المستنصر (١٠٣٦-١٠٩٤)[١٦]. وكما فعل الخلفاء الفاطميون جميعاً، جنّد المستنصر جنداً سوداً في جيشه، بلغ عددهم في حالته خمسين ألفاً. وكان العبيد الأفارقة سلعة تجارية حتى في المناطق البعيدة جداً، فكان المرتزقة الأحباش المعروفون باسم الحبش يُستخدَمون على نطاق واسع في الهند، وكان الشباب الأفارقة من الجنسين عبيداً منزليين في جنوب شرق آسيا، وكان الحكام المحليون يقدمونهم أحياناً هدايا للأباطرة الصينيين. ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من التدفق الدائم للعبيد الأفارقة إلى الشرق الأوسط على مدى أكثر من ألف عام، لا توجد آثار لأحفادهم كجماعات منفصلة في أي مكان بالشرق الأوسط المعاصر، وهو ما يرجع بالتأكيد إلى التسامح الاجتماعي للعالم الإسلامي الذي تجسد في قدرته على استيعاب "الآخرين".

كان الذهب القادم من شرق أفريقيا، وكذلك العاج والبلور الصخري، تُصدّر من سلسلة من الموانئ التجارية على طول الساحل الشرقي مثل مقديشو وومومباسا وكيلوا[١٧]. وكان الامتداد الساحلي الذي تقع عليه هذه الموانئ وكثير من الموانئ الأخرى يمتد بطول ثلاثة آلاف كيلومتر ليصل جنوباً حتى موزنبيق، وأسماه مارك هورتن Mark Horton "الممر السواحلي"[١٢]. والسواحليون شعب أفريقي اعتنق الإسلام نتيجة للاتصال بالتجار العرب والفرس، واشتغل بالتجارة والملاحة الواسعتين على

---

(١٦) هو المستنصر بالله الفاطمي (حكم من ١٠٣٦ إلى ١٠٩٤م) الخليفة الفاطمي الثامن، شهد أول عصره ازدهاراً كبيراً، إلى أن توفى وزيره القوي أبو القاسم الجرجائي، فبدأت أم الخليفة تتدخل في شؤون الدولة، وصارت لها الكلمة الأولى في تعيين الوزراء، حتى أصبح يشار إليها باسم "الجهة الجليلة والستر الرفيع"، ما أدى إلى إزكاء نار الفتنة بين طوائف الجيش [المترجم].

(١٧) كيلوا Kilwa جزيرة في المحيط الهندي قبالة سواحل تنزانيا، كانت مركز سلطنة كيلوا أو الدولة الشيرازية التي أسسها في القرن العاشر علي بن الحسن الشيرازي، وضمّت في أوجها كل الساحل السواحلي، ثم آلت إلى دولة عربية حتى احتلال البرتغال لها في العام ١٥٠٥، وبعدها تمزقت إلى أجزاء، وقع كثير منها تحت وصاية سلطنة عُمان [المترجم].

طول الساحل الشرقي لأفريقيا. وأصبحت اللغة السواحلية لغة هجين تتكون من مفردات عربية رُكِبت على قاعدة من لغة البانتو[١٨]. والتحدر من المستعمرين الأوائل المعروفين باسم "الشيرازيين"، نسبة إلى بلدة شيراز الإيرانية التي كانت قاعدة سلطة البويهيين إبان القرنين العاشر والحادي عشر، منتشر في هذه المناطق. على أن هورتن وميدلتون Horton and Middleton يذهبان إلى أن الارتباط بمكان رفيع المستوى مثل شيراز كان ميلاً لدى الأفارقة الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام، أكثر منه إشارة إلى تحدر فعلي من سكان تلك المدينة[١٣]. ويذكر هورتن، تأسيساً على بحوث أثرية، أن المستوطنات الأولى التي تؤرخ للقرن الثامن كانت أفريقية بالكامل في طبيعتها، لكن بحلول القرن التاسع تتوفر أدلة واضحة على وجود نخبة إسلامية من السكان الأصليين. وكان التجار من سيراف على الخليج العربي يصدّرون العاج والعنبر القادم من هذه المنطقة إلى مناطق بعيدة كالصين، فيما كان العبيد والخشب يصدّران إلى الشرق الأوسط. وكان الحديد الخام المستخرج بالقرب من مومباسا يصدّر إلى الهند في شكل حديد مصبوب، وكشفت الاكتشافات الأثرية عن كميات كبيرة من الخزف الصيني والشرق الأوسطي على الساحل الشرقي لأفريقيا.

من الواضح أن هذه التجارة المتجهة إلى الخليج شهدت تراجعاً حاداً إبان أوائل القرن العاشر نتيجة لسقوط إمبراطورية تانغ وثورة الزنج في الخلافة العباسية. وبحلول النصف الثاني من القرن العاشر، ازدهرت تجارة شرق أفريقيا مجدداً، لكنها حينذاك أخذت تتجه نحو البحر الأحمر وغرباً إلى البحر الأبيض المتوسط بدلاً من الخليج العربي والصين. وقد وجد هورتن بنايات ومساجد حجرية بداية من العام ٩٥٠ فصاعداً، ظهرت بديلاً عن الأبنية الطينية السابقة، وهي إشارة إلى زيادة كبيرة في الازدهار. ولعل الأهم من ذلك هو اكتشافات العملات المعدنية، ومنها اكتشاف أكثر من ألفي عملة في موقع واحد يعود إلى القرن الحادي عشر. وكان

---

(١٨) لغات البانتو Bantu فرع من اللغات النيجيرية الكنغولية، تضم أكثر من خمسمئة لغة، تنتشر في وسط أفريقيا وشرقها وجنوبها، خاصة على الشريط السواحلي الشرقي [المترجم].

الذهب الذي يقدّر تدفقه السنوي بعشرين ألف أوقية(١٩) والعاج والبلور الصخري تأتي إلى السواحليين من خلال التجارة مع قبائل الداخل، في مقابل الملح والأصداف التي كانت تستخدم كعملة، والخرز الزجاجي وسلع تجارية أخرى. ويستشهد هورتن وميدلتون بجغرافي عربي يقول إن قبائل الداخل كانت تترك رؤساءها وكبراءها رهائن في مقابل السلع التجارية، وكان يُطلَق سراحهم بعد تسليم العاج الذي كانوا يأتون به من مناطق واقعة في أقصى الغرب مثل الحافات الشرقية لصحراء كلهاري[١٤]. ويرى هورتن أن العاج المستخدم في صنع الصندوق الرائع لابنة عبدالرحمن الثالث في قرطبة في نحو العام ٩٦٠، وكذلك الكنوز الفنية الإسلامية والبيزنطية والأوروبية الغربية القيّمة الأخرى، جاءت بالتأكيد من أنياب فيلة من شرق أفريقيا[١٥].

بعد غزو مصر، واصل الفاطميون اهتمامهم بالتجارة، ونجحوا- كما رأينا- في تحويل تجارة توابل المحيط الهندي من الخليج العربي إلى البحر الأحمر. وتمكنوا بذلك من الوصول إلى أكبر مصدر للريع الاحتكاري في عالم القرون الوسطى، حيث تقاسموه مع العديد من الدول المدينية(٢٠) التجارية الصاعدة حديثاً في إيطاليا مثل أمالفي(٢١) وجنوى وبيزا والبندقية. وكان ميناء عيذاب(٢٢) على الساحل الغربي للبحر الأحمر هو المكان الذي تُفرّغ فيه السلع القادمة من المحيط الهندي، ثم تُرسَل بقوافل الجمال إلى المركز التجاري بمدينة قوص(٢٣) على رأس النيل بالقرب من أسوان، قبل أن تحملها السفن مع اتجاه التيار إلى القاهرة والإسكندرية، حيث كان الإيطاليون

---

(١٩) الأوقية وحدة وزن تساوي نحو ٢٨ غراماً [المترجم].

(٢٠) راجع حاشية سابقة حول معنى الدولة المدينية أو الدولة- المدينة city-state [المترجم].

(٢١) أمالفي Amalfi مدينة في إقليم كامبانيا الإيطالي على خليج ساليرنو، كانت عاصمة جمهورية أمالفي البحرية التي كانت قوة تجارية مهمة في منطقة البحر الأبيض المتوسط بين العامين ٨٣٩ و ١٢٠٠ [المترجم].

(٢٢) عيذاب ميناء علي ساحل ولاية البحر الأحمر السودانية، علي بعد ثلاثة وثلاثين كيلومتراً من ميناء بورسودان، لعب دوراً رئيساً في دخول الإسلام إلى السودان منذ خلافة أبي بكر وعمر، ويرتبط بطرق مواصلات مباشرة بوسط السودان وشرقه، كان مخرجاً لمنتجات مناجم الذهب من أفريقيا [المترجم].

(٢٣) قوص مدينة ومركز بمحافظة قنا المصرية، تقع على الضفة الشرقية للنيل جنوب القاهرة بنحو ٦٤٥ كيلومتراً [المترجم].

والتجار المحليون يشترونها للتصدير. وكانت الإسكندرية مدينة مزدهرة تضم ميناءين، واحداً للسفن المسيحية وآخر للسفن الإسلامية.

تمتعت مصر الفاطمية بمزايا اقتصادية أخرى إلى جانب السيطرة على طرق تجارة المسافات الطويلة. كانت جزية الحبوب السنوية المعروفة باسم أنونا[٢٤] تذهب منذ قرون إلى روما أولاً، وبعد ذلك إلى القسطنطينية. وفي عهد الخلافة، ذهبت أولاً إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ولاحقاً إلى دمشق، ثم إلى بغداد في عهد العباسيين. لكنها في عهد الفاطميين بقيت في مصر، ما أعطى دفعة قوية للاقتصاد المحلي. ربما أدى وقف صادرات الحبوب إلى دفع الاقتصاد المصري بتشجيع إنتاج سلع أخرى مثل الكتان وقصب السكر التي كانت محاصيل نقدية رئيسة، فضلاً عن كوّنها موادَّ خاماً للقطاعين الصناعيين الرئيسين: الكتان وتكرير السكر. وكانت الحبوب تنتج أيضاً في صقلية التي كانت في أيدي الفاطميين في ذلك الوقت، وكانت الحبوب الصقلية تُصدّر لإطعام مدن إفريقية.

كان إنتاج الكتان عالي الجودة المطرز بالخيوط الذهبية والفضية للبلاطات الحاكمة وكهدايا للوجهاء المحليين والملوك الأجانب، يحدث في ورش حكومية تسمى طراز[٢٥]، وأيضاً في مصانع خاصة، وكان منتجاً تصديرياً رئيساً في جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط، وحتى مناطق بعيدة كالصين. وتذكر فرانتز مورفي Frantz-Murphy أن قطاع الكتان كان القطاع الرئيس في الاقتصاد المصري من عهد الدولة الطولونية إلى الدولة الفاطمية[١٦]. وتقول إن هذا القطاع كان مخزناً للقيمة وأصلاً للثروة في خزائن النخبة الذين كانوا ينتجون الكتان في ضياعهم. ولذلك وُجِد أن ابن كلس[٢٦] كان يمتلك عند وفاته في العام ٩٩١ ما قيمته خمسمائة ألف دينار من المنسوجات الفاخرة، فضلاً عن استثمار مئة وستين ألف دينار أخرى في الصناعة. ويذكر أشتور أن تكرير السكر في زمن الفاطميين كان صناعة كثيفة في رأس المال وتستخدم تقنية متقدمة جداً

---

(٢٤) أنونا Anona عند الرومان هي الإلهة جامعة حبوب العالم إلى روما [المترجم].

(٢٥) طراز Tiraz هو اسم المُنتَج أيضاً الذي سمي بذلك لأن منسوجات الكتان كانت تزخرف بكتابات مطرزة [المترجم].

(٢٦) راجع حاشية سابقة للمترجم حول ابن كلس [المترجم].

وتنتج للاستهلاك المحلي والتصدير، وكذلك صناعة الورق التي كانت قطاعاً مهماً آخر. وإضافة إلى الصادرات المصنعة ونقل التوابل الشرقية، صدّر الفاطميون أيضاً موادَّ أولية صناعية مثل القطن والشب إلى صناعات المنسوجات الناشئة في إيطاليا. واتخذ ثمن هذه الصادرات شكل بعض الواردات المصنعة مثل الأقمشة الصوفية، لكنه حدث في الغالب الأعم في مقابل الفضة التي كان يعاد تصديرها إلى الشرق لدفع ثمن الفلفل والتوابل الأخرى.

تمكّن الفاطميون من خلال سيطرتهم على وصول آمن إلى إمدادات الذهب بغرب أفريقيا والبحر الأحمر من الاحتفاظ بجيش قوي من الجنود البربر والأتراك والنوبيين، فضلاً عن بلاط رائع. كما استعملوا الأقباط واليهود كإداريين ومستشارين ماليين، واتبعوا سياسة اقتصادية ثابتة وعقلانية جداً. فعلى الرغم من أنهم أقاموا مصانع مَلكية ضخمة للمنسوجات الفاخرة وبعض السلع الأخرى وسيطروا على التجارة في مواد إستراتيجية مثل الحديد والخشب والقار، يؤكد أشتور على اتساع نطاق الاقتصاد الحر الذي سمحوا به في التجارة والصناعة[١٧]. وكانت الكفاءة الإدارية والسياسة الاقتصادية للفاطميين عالية جداً لدرجة أن غويتن Goitein يتحدث عن "معجزة الفاطميين" التي يعزوها إلى العوامل السابقة، إضافة إلى التجارة مع أوروبا الغربية المزدهرة[١٨].

على أن هذه السياسة الاقتصادية التي وصفها غويتن وآخرون بأنها اعتمدت على الحرية الاقتصادية وانخفاض الرسوم الجمركية وحرية انتقال البضائع والناس ورأس المال، تحتاج إلى تفسير متأن. وفي دراسة حالة قيّمة للعلاقات غير الرسمية المفيدة للطرفين بين أمير أو قائد عسكري مجهول من الإسكندرية وتاجر يهودي، يستنتج أودوفيتش Udovitch أنه في حين كان بوسع التاجر في الدول المدينية الإيطالية أن يقول L'etat c'est moi [الدولة أنا]، لم يكن بوسع التاجر في مصر الفاطمية إلا أن يقول L'etat n'est pas contre moi [الدولة ليست ضدي][١٩]. وكما يوضح مايكل بريت Michael Brett، فإن أعضاء البلاط والسلالة المالكة، بما في ذلك كبار القادة المدنيين والعسكريين، كانوا يُكافَئون بامتيازات عديدة، مثل حق الشراء الأول والإعفاء من

الضرائب، ما جعل الأسواق تعمل لصالحهم على حساب أقل التجار حظوة، ناهيك عن عامة الناس[٢٠]. ويدفع شعبان بأن هذه الحرية الاقتصادية ربما جعلت الفاطميين يهملون صيانة البنية التحتية الزراعية التي كانت تتطلب عادة من ثلث إلى ربع الدخل السنوي[٢١].

وتأسيساً على ذلك كله، يبدو أن ما حدث هو أن هذه السياسات المستنيرة عموماً جلبت ثروة ضخمة، انعكست في الترف الهائل الذي عزاه المراقبون جميعاً إلى الفسطاط- القاهرة في عهد الفاطميين، من الجغرافيين العرب ابن حوقل والمقدسي(٢٧) والإدريسي(٢٨)، إلى الرحالة الفارسي ناصر خسرو(٢٩) والمؤرخ الفرنسي للحملات الصليبية وليام الصوري(٣٠). ولم تقتصر روعة الأبنية العامة على القصور، وإنما انعكست أيضاً في الجامع والمعهد العظيم المسمى بالأزهر ومكتبة عامة سميت دار الحكمة ضمت آلاف الكتب حول الأديان والموضوعات غير الدينية، وكانت أبوابها مفتوحة للناس جميعاً، وكانت توفر الورق والأقلام والحبر لأي شخص يريد النسخ. وكانت البيوت تتكون من ستة أو سبعة طوابق، إلى أربعة عشر طابقاً(٣١)، ويسكن في البيت الواحد نحو مئتي شخص أو أكثر[٢٢].

---

(٢٧) محمد بن أحمد المقدسي البشاري (من نحو العام ٩٤٦ إلى نحو العام ١٠٠٠ ميلادية) جغرافي ورحالة ومؤلف عربي من أهم مؤلفاته "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الذي يعد من أشهر الموسوعات الجغرافية للأقاليم الإسلامية بأمصارها وأنهارها وبحارها وشعوبها وثقافاتها [المترجم].

(٢٨) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالرحمن الشريفي الإدريسي (من العام ١١٠٠ إلى العام ١١٦٦ ميلادية) من أعظم الجغرافيين في التاريخ وأحد مؤسسي علم الجغرافيا، من أهم مؤلفاته الكتاب الشهير "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي يعتبر من أشهر الآثار الجغرافية العربية [المترجم].

(٢٩) أبو معين ناصر بن خسرو بن حارث القباذياني البلخي (من نحو العام ١٠٠٣ إلى نحو العام ١٠٨٨ ميلادية) رحالة وشاعر فارسي، من مؤلفاته "كتاب الأسفار" أو "السفرنامة" الذي دوّن فيه أخبار أسفاره في أرجاء العالم الإسلامي [المترجم].

(٣٠) وليام الصوري (من العام ١١٣٠ إلى ٢٩ سبتمبر ١١٨٥ ميلادية) رئيس أساقفة صور ومؤرخ صليبي عاش في صور والقدس، عُيّن في العام ١١٧٤ مستشاراً للملك بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، له مؤلفات في التاريخ واللاهوت [المترجم].

(٣١) من المؤكد أن هذا العدد لطوابق المنازل كبير جداً على عصور لم تعرف مواد البناء الحديثة! [المترجم].

يقدّر عدد سكان الفسطاط-القاهرة بنحو خمسمئة أو ستمئة ألف نسمة في منتصف القرن الرابع عشر[٢٣]، ومن المعقول تماماً أنها كانت أكبر في عهد الفاطميين. ومن المعتقد أن الجيش الدائم لابن طولون كان يتكون من أربعة وعشرين ألفاً من الغلمان الأتراك واثنين وأربعين ألفاً من النوبيين السود والعبيد السودانيين[٢٤]، ومن المعقول أن نقدّر عدد سكان الفسطاط بعشرة أضعاف هذا العدد على الأقل إبان أوائل القرن العاشر. ويوصف النقل النهري في النيل بأنه كان أكبر من نظيره في بغداد والبصرة مُجتمعتين، وذلك دليل واضح على ازدهار العاصمة المصرية. ولا يمكن لمدينة كبيرة أن تفلت من شكاوى التلوث، والقاهرة لم تكن استثناءً لذلك، إذ يحدثنا غاستن ويت Gaston Wiet عن طبيب يدعى ابن رضوان كان يشكو من الضباب الأسود الذي كان يغطي سماء المدينة، وبخاصة في الصيف، والغبار الذي كان يتخلل لحيته دائماً، والعادة السيئة المتمثلة في إلقاء الحيوانات النافقة في موارد ماء الشرب[٢٥](٣٢).

كان اقتصاد المناطق الغربية من شمال أفريقيا مرتبطاً بقوة باقتصاد الأندلس. وكانت القاعدة الاقتصادية للأندلس هي الزراعة المزدهرة التي ربما كانت الأكثر تنوعاً وتطوراً في زمانها من الناحية التقنية. وكما أوضح واطسون في دراسته الرائدة، فقد أحدثت الفتوحات العربية "ثورة خضراء" في الأراضي التي احتلوها نتيجة لنقل المحاصيل والنباتات من الهند وجنوب شرق آسيا غرباً إلى إيران والعراق وسوريا، ثم إلى المناطق الخاضعة لهم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط[٢٦]. ونظراً لأن هذه المحاصيل والنباتات الشرقية كانت تزرع أصلاً في مناخ الرياح الموسمية وفير المطر، فإن زراعتها في المناخ الأكثر جفافاً بالعالم الإسلامي تطلبت تقنية ري معقدة. وهنا أثبت الميراث التقني لبلاد فارس وبلاد ما بين النهرين القديمة فائدته،

(٣٢) وكأن ظاهرة إلقاء الحيوانات النافقة في المجاري المائية التي لا تزال موجودة إلى اليوم في مصر من جنوبها إلى شمالها ليست جديدة، بل ربما ترجع إلى عصور أقدم من الدولة الفاطمية، وحتى سحب الدخان التي تغطي سماء القاهرة في مواسم حرق قش الأرز في الحقول في الوقت الحاضر ليست ظاهرة جديدة هي الأخرى [المترجم].

ممثلاً في قنوات الري المحفورة تحت الأرض(٣٣) ونواعير رفع المياه. وقد أثمرت هذه التطورات كلها في الأندلس نظاماً زراعياً تكون توليفة إبداعية، يرى توماس كليك Thomas Click أنه "مزج ... الزراعة الهندية والتقنيات الهيدروليكية الرومانية والفارسية، ونظاماً قانونياً لتوزيع المياه أدمج عناصر من القواعد القبَلية العربية والبربرية، والقانون الإسلامي والقانون العرفي الريفي الروماني"[٢٧]. ويذكر ريلي Reilly أن القطن والموز أُدْخِلا إلى الأندلس إبان القرن التاسع، تلاهما الأرز والقمح الصَلب وقصب السكر والباذنجان والبطيخ إبان القرن العاشر، والذرة البيضاء والسبانخ إبان القرن الحادي عشر"[٢٨]. وتضمنت الإضافات الجديدة المهمة الأخرى البرتقال والليمون وحمضيات أخرى، إضافة إلى أنواع جديدة من التين والبلح، أدخلتها في أغلب الأحيان الحدائق والبساتين المَلكية المملوكة للسلالة الحاكمة.

كانت علوم النبات والزراعة والبستنة متطورة جداً في الأندلس، إذ بُنيت على معارف العصر القديم الكلاسيكي إضافة إلى انتقال العلم الهندي في هذه الميادين. ويبدو أن العرب، ذلك الشعب الصحراوي في الأصل، كانوا شغوفين بالخضرة المرتبطة بالواحات والأشجار والنباتات والأزهار، كما يظهر كثيراً في أشعارهم. وقد أثرت هذه المحاصيل الجديدة أيضاً على توسيع الرقعة المزروعة من خلال التمكين من زراعة أكثر من محصول واحد في العام في حالات كثيرة. وارتفع أيضاً ناتج المحاصيل التقليدية مثل الزيتون والكرم، على الرغم من التحريم الإسلامي المعروف لتناول الكحول الذي يصنع من الكرم. ويبدو أن شرب النبيذ لم يكن غائباً تماماً في الأندلس، على الأقل بين النخبة الاجتماعية بالمدن.

ويبدو أيضاً أن التغيرات الاجتماعية التي رافقت الفتح العربي كانت مفيدة، حيث أفسحت مزارع العبيد التي ميّزت حقبتي الرومان والقوط الغربيين المجال للمزارعين المستأجرين أو المزارعين المحاصصين(٣٤)، وتلا ذلك إدخال ترتيبات أكثر

---

(٣٣) هذه القنوات التي عرفت بأسماء مختلفة منها "الفلج" في شبه الجزيرة العربية و"فجارة" في شمال أفريقيا و"قناة" في مصر وبلاد فارس، لم تكن تحفر تحت الأرض، بل كانت تحفر على سطح الأرض ثم تغطى بعد ذلك [المترجم].

(٣٤) المحاصص مزارع يستغل الأرض لمصلحة المالك مقابل حصة من المحصول [المترجم].

مرونة لاستخدام الأرض وحقوق ملكيتها. وكما يقول جايم فيسينز فايفز Jaime Vicens Vives، فإن "المزارعين الذين كانوا يفلحون الحقول كانوا أفضل حالاً تحت حكم العرب منهم تحت حكم القوط الغربيين"، على الرغم من أنهم كانوا ملزمين بالتخلي عن ثلث أو خمس محاصيلهم للطبقة الحاكمة الجديدة[٢٩]. وكان غالبية هؤلاء المزارعين من أبناء البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام وأطلق عليهم اسم المولدين. أما من لم يدخلوا في الإسلام، الذين كانوا يسمون المستعربين، فكانوا يتألفون في غالبيتهم من طبقة الحرفيين في المدن. وارتبطت تربية قطعان كبيرة من الأغنام كانت تتنقل موسمياً بحثاً عن المرعى، باستيطان الجماعات القبَلية البربرية في الأندلس التي شكّلوا فيها غالبية المهاجرين المسلمين. وشكل المسلمون الشرقيون وهم أقل عدداً بكثير (العرب والسوريون) النخبة الأموية الحاكمة والأرستقراطية مالكة الأراضي. ولعبت الجماعة اليهودية الصغيرة دوراً في التجارة والإدارة أكبر كثيراً من حجمها، وذلك بفضل تعليمها وثقافتها وأصولها الشرقية التي مكّنتها من القيام بدور الوسيط الثقافي بين المسلمين والمسيحيين.

كان التعدين والصناعة متطورين أيضاً بدرجة كبيرة في الأندلس. فغدت المصنوعات الرئيسة، كالمنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية والقطنية التي كانت تستورد قديماً من الشرق، تُنتَج هناك وتُصدّر إلى الغرب المسيحي والشرق وشمال أفريقيا الإسلاميين. وأصبحت صناعة الورق من الصناعات المهمة في شاطبة، واكتسب الجلد القرطبي والفولاذ الطليطلي شهرة لم يفقداها أبداً. وكان النحاس والحديد والزئبق موادَّ أولية صناعية مهمة لها أسواق محلية وخارجية. وكان للخشب قيمة خاصة في العالم الإسلامي القاحل نسبياً والمحروم من الغابات، وقد لبى البلوط والصنوبر الإسبانيان للأثاث والسفن هذه الحاجة الملحة.

كانت إمارة قرطبة تعيش عصرها الذهبي إبان القرن العاشر الذي تميّز- كما رأينا- بإعلان عبدالرحمن الثالث الخلافة الأموية منافسة للخلافة العباسية والفاطمية. استولى الأمويون على سبتة في العام ٩٣١ وطنجة بعد ذلك بعشرين عاماً، وكذلك أجزاء أخرى من شمال أفريقيا، ودخلوا في أعمال عدائية مطولة مع الفاطميين

للسيطرة على منافذ التجارة العابرة للصحراء الكبرى. واستخدم الجانبان قبائل بربرية مختلفة وكلاءً عنهما، فاستخدم الفاطميون اتحاد صنهاجة، واستخدم الأمويون قبائل زناتة الواقعة إلى الغرب. ومكّن الوصول إلى إمدادات الذهب الجنوبية عبدالرحمن الثالث من إصدار عملته الذهبية بعد أن أعلن نفسه خليفة في العام ٩٢٩. واستخدم الجانبان قوتيهما البحرية الكبيرة لمهاجمة سواحل أحدهما الآخر. وعلى الرغم من هذه النزاعات، أكد التكامل الطبيعي للنظام الاقتصادي "الإسباني-المغاربي" نفسه، حيث ازدهرت التجارة عبر غرب البحر الأبيض المتوسط، وتضمنت تبادل المنتجات الزراعية الجنوبية مع الصناعات والخشب والمعادن الشمالية. واهتم الجانبان أيضاً بالقضاء على عمليات القرصنة التي دمرت تجارة البحر الأبيض المتوسط في الأزمان السابقة، لكنها تراجعت كثيراً بداية من القرن العاشر فصاعداً.

يقدّر بيدرو شالميتا Pedro Chalmeta، في عمله الكمي القيّم، عدد السكان الكلي للأندلس في هذه الفترة بأكثر قليلاً من عشرة ملايين نسمة (١٠.٣)، كان منهم مليون شخص يعيشون في الحضر الذي شكّلت قرطبة وحدها نصفه. ويقدّر شالميتا أيضاً ما يسميه "إجمالي إيرادات" البلاد ما بين ستة وثلاثين وأربعة وخمسين مليون دينار، كان ما بين ثلثها ونصفها يأتي من الضرائب التي يبدو أنها كانت عالية جداً بالتأكيد[٣٠]. ويقدّر فيسنز فايفز الدخل السنوي لعبدالرحمن الثالث بعشرين مليون دينار، وهو رقم يتفق مع تقديرات شالميتا[٣١]. وعلى ذلك، فإن إجمالي الدخل الفردي كان بين أربعة وخمسة دنانير. وعلى الرغم من صعوبة مقارنة ذلك التقدير بالمستويات الحالية، فإن شالميتا يؤكد أن "الأندلس كانت بالنسبة للممالك المسيحية في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية نوعاً من الموطن الأسطوري للثروة أو الأرض الموعودة"، وأن ثرواتها قدمت دوافع إضافية قوية للحماسة الدينية لعملية الاسترداد[٣٢](٣٥). ويذكر ريلي أن

(٣٥) يثير الحدث التاريخي الواحد مشاعر متناقضة لدى الشعوب والجماعات المختلفة، ولذلك تجد للحدث الواحد أسماء أو ترجمات مختلفة، ومن أمثلة ذلك مصطلح Reconquista الذي يشير في اللغات الأوروبية إلى "استرداد" أيبيريا من المسلمين أو "إعادة فتحها"، على أساس أنها كانت أوروبية مسيحية قبل الفتح الإسلامي، في حين يترجمه العرب والمسلمون إلى "سقوط الأندلس"، مع ما يتضمنه ذلك من تأكيد على "عروبة" أو "إسلامية" الأندلس بعد القرون الثمانية التي كانت فيها جزءاً من العالم

الملوك المسيحيين الإسبان كانوا يُكفَنون في أنسجة أندلسية فاخرة، بينما كانت آثار القديسين توضع عادة في صناديق من العاج، وتُغطَى مذابح الكنائس بأنسجة كتانية، وجميعها كانت من منتجات الأندلس. وكانت العملات الإسلامية أو تقليدها منتشراً في البلاد المسيحية[٣٣].

كانت هذه المدن والمناطق بالعالم الإسلامي جميعها، من إسبانيا وشمال أفريقيا في الغرب إلى أفغانستان والهند في الشرق، على اتصال دائم ببعضها البعض، ولم تكن هناك أية قيود على التدفق الحر للناس والأفكار والتقنيات والأزياء والسلع ورأس المال، كما تثبت حياة وأعمال جغرافيين من أمثال ابن حوقل، على الرغم من النزاعات السياسية والحروب المتكررة بين الدول الإسلامية. وكان الحج بالطبع عاملاً توحيدياً رئيساً في هذا الخصوص، لكنه لم يكن العامل الوحيد على أية حال. فازدهار الفاطميين والأمويين في الغرب وتسامحهما أسهما في جذب أصحاب الطموح من الجنود والمفكرين والبيروقراطيين والشعراء والراقصين والمغنين وكثيرين غيرهم "لأن يتوجهوا غرباً ويزدهروا مع البلاد" على نحو يذكّرنا بهوريس جريلي(٣٦) وموقف متأخر جداً على التخوم الغربية(٣٧). ومن الأمثلة المثيرة في هذا الخصوص الموسيقي الشهير زرياب (٧٨٩-٨٥٢)، وهو مُعتَق أسود بدا حياته المهنية المثيرة موسيقياً ومغنياً وشاعراً في البلاط العباسي ببغداد، قبل أن ينتقل إلى القيروان، ثم قرطبة التي مارس فيها تأثيراً ثقافياً كبيراً في الموسيقى، وكان كذلك مثالاً يحتذى للذوق والموضة. وتنسب إليه

الإسلامي وإحدى أبرز حواضره. ومن ذلك أيضاً مصطلح conquest الذي يترجمه المؤيدون للحدث إلى "فتح"، فيما يترجمه الكارهون له إلى "غزو" أو حتى "احتلال" [المترجم].

(٣٦) هوريس جريلي Horace Greeley (٣ فبراير ١٨١١ إلى ٢٩ نوفمبر ١٨٧٢) محرر صحفي أمريكي، من مؤسسي الحزب الجمهوري الليبرالي ومصلح وسياسي ومن أبرز خصوم العبودية، كان من أنصار السياسة الليبرالية في الاستيطان، وتنسب إليه النصيحة التي قدمها إلى قرائه: "توجهوا إلى الغرب وازدهروا مع البلاد" [المترجم].

(٣٧) يشير مصطلح التخوم الغربية Western frontier أو الغرب الأمريكي American frontier أو الغرب القديم أو الغرب البري إلى عملية التوسع الأمريكي غرباً، بما صحبها من بناء مجتمعات واستخدام الأراضي وتطوير الأسواق، في جو من الحرية السياسية والاقتصادية والتسامح الفكري والديني [المترجم].

إبداعات مذهلة بالنسبة إلى عصره مثل استخدام معجون الأسنان ومزيلات روائح الإبط، إضافة إلى ممارسة تغيير الملابس مع الفصول وتقسيم وجبات الطعام إلى ألوان وأصناف منفصلة. وكانت منتجات الشرق المادية والثقافية تُقَلد في الغرب، ودفعت فيه قوى التغيير والتطوير، ما أدى إلى إثراء الحضارة كاملة، إذ شكّل ميراثاً ثميناً لأوروبا الغربية وبقية العالم.

الصين: المعجزة الاقتصادية إبان عهد إمبراطورية سونغ

مع منعطف الألفية الأولى، كانت الصين في عهد إمبراطورية سونغ، وكما هي الحال الآن مع منعطف الألفية الثانية، تشهد توسعاً اقتصادياً غير مسبوق. وكما رأينا، فقد وصلت سلالة سونغ إلى السلطة في العام ٩٦٠، بعد فترة قصيرة من خلو العرش بعد سقوط إمبراطورية تانغ في العام ٩٠٧. وفي عهد إمبراطورية تانغ، انتقل مركز الثقل الاقتصادي أو "المنطقة الاقتصادية الرئيسة"، كما عَرّفها شاو تنغ شي Chao-Ting Chi، من حوض النهر الأصفر في الشمال إلى منطقة وادي اليانغستي وجنوبه[٣٤]. وواصلت القوة السياسية والعسكرية تمركزها في الشمال. وكان شمال الصين وجنوبه مرتبطين معاً بشبكة واسعة من القنوات والممرات المائية الأخرى، من أبرزها القنال الكبير الشهير. وكان الدَخْن والقمح الحبوب الأساسية التي تزرع في الشمال، وكان الأرز المحصول الرئيس في الجنوب. وتحسنت إنتاجية الأرز لكل هكتار مع إدخال سلالة جديدة تسمى "الأرز مبكر النضج" من تشامبا بفيتنام الحالية[٣٥]. أدى ذلك إلى رفع الإنتاجية إلى ثلاثة أضعاف، ولذلك ارتفع الإنتاج بشدة مع انتشار البذور الجديدة والأنواع اللاحقة عبر كامل منطقة جنوب الصين من مقاطعة فوجيان التي كانت أول من أدخل البذور الجديدة. أحدثت هذه الثورة الزراعية زيادة هائلة في عدد سكان الصين، من خمسين مليون نسمة تقريباً، كما كانوا في أوج عهد أسرة تانغ في العام ٧٥٠ (الذي كان أقل من تقدير الثلاثة والستين مليوناً في العام ٢٠٠)، إلى أكثر من مئة مليون إبان القرن الثاني عشر[٣٦]. ويذهب مارك إلفين Mark Elvin إلى أنه يمكن اعتبار هذه الزيادة السكانية إعمالاً للنموذج المالتوسي الكلاسيكي الذي يؤدي فيه نمو السكان

إلى القضاء على أية زيادات في الإنتاجية[٣٧]. لكن إبان القرنين الحادي عشر والثاني عشر في عهد إمبراطورية سونغ، كان الفاصل الزمني بين زيادة الإنتاجية ونمو السكان طويلاً بما يكفي لإحداث انفجار رائع في الرخاء. فقد شهدت هذه الفترة اتساعاً كبيراً في الأسواق والتجارة والتخصص، ورافق ذلك تغير تقني في الصناعة والنقل والزراعة وزيادة ملحوظة في نسبة الحضر. وشيّدت سلالة سونغ المدن الضخمة التي أذهلت ماركو بولو، وهي السلالة عينها التي أطاح بها راعيه المغولي(٣٨).

تمتعت الصين في عهد إمبراطورية سونغ باقتصاد مزدهر ونشط يضم مناطق ومدناً متنوعة جداً[٣٨]. وكان كل مركز من هذه المراكز متخصصاً فيما كان متميّزاً في إنتاجه، وكانت المراكز جميعاً مرتبطة معاً بشبكة متطورة جداً من التجار والسماسرة وغيرهم من الوكلاء التجاريين. وفي القلب من هذه الشبكة، كان هناك بالتأكيد أوسع وأفضل نظام للنقل المائي في العالم على الإطلاق. وكانت الأسر الحاكمة الصينية كلها تعتمد عادة على الزراعة باعتبارها المصدر الرئيس للدخل. وكان اتساع النشاطات التجارية والصناعية في عهد إمبراطورية سونغ يعني أن الضرائب على التجارة أخذت تلعب دوراً أكبر في القاعدة المالية للدولة. وتميزت إمبراطورية سونغ الجنوبية بأنها كانت تحصل على معظم عائداتها من الضرائب التجارية وعوائد الاحتكارات الحكومية، بدلاً من ضرائب الأرض. وكان من أكثر هذه الاحتكارات الحكومية دراً للمال الملح والشاي باعتباره الشراب الوطني.

كان الأداء الاقتصادي للصين في عهد إمبراطورية سونغ رائعاً جداً بالنظر إلى أن تاريخ هذه السلالة على امتداده تميّز بنزاع مستمر على حدودها الشمالية مع دول بدوية قوية. وكان جيش إمبراطورية سونغ الذي استخدم في المقام الأول لصد غارات البدو يتكون من مليون وربع مليون جندي. وقد شكّل ذلك عبئاً ساحقاً على الاقتصاد، على الرغم من ازدهار هذا الاقتصاد. واضطرت دولة سونغ في العام ١١٢٦ إلى

(٣٨) ماركو بولو Marco Polo (من نحو العام ١٢٥٤ إلى ٨ أو ٩ يناير ١٣٢٤) رحالة وتاجر بندقي سُجِلت أسفاره في "كتاب عجائب العالم" Book of the Marvels of the World الذي عَرّف الأوروبيين بآسيا الوسطى والصين، خدم قوبلاي خان، حفيد جنكيز خان وأحد أكبر ملوك الإمبراطورية المغولية [المترجم].

التخلي عن الصين شمال نهر اليانغستي لبدو الجورجين(٣٩) الذين أسسوا ما يسمى دولة تشين Chin، وسنرى في الفصل التالي أن دولة الجورجين وإمبراطورية سونغ الجنوبية انهارتا في النهاية أمام المغول. وقد أدت التهديدات التي واجهها الصينيون على حدودهم البرية في عهد دولة سونغ إلى دفعهم في اتجاهات مبتكرة. ففي العصور العظيمة السابقة لدولتي هان وتانغ، كانت الصين تتفاعل مع الغرب عبر قوافل الجمال خلال آسيا الوسطى. ومن خلال طريق الحرير، تلقت الصين الموجات الكبرى من البوذية والإسلام والمسيحية النسطورية، فضلاً عن عدد من التجديدات الفنية والتقنية. لكن، حين انقطع الوصول إلى الغرب بسبب وجود دول شبه بدوية قوية مثل دولة هسي هشيا(٤٠) والخيتان(٤١)، لم يعد أمام الصينيين غير الطريق البديل، وهو البحر. وفي حين ينظر الغرب إلى الصين عادة باعتبارها قوة "قارية" منغلقة على نفسها، يقول لورنس ما Laurence J. C. Ma إن "المحيط في زمن إمبراطورية سونغ كان الباب الأمامي للصين، وكان مفتوحاً على اتساعه لكل من أراد التبادل التجاري مع الصين"[٣٩].

ومع ذلك فقد شجعت إمبراطورية تانغ التجارة، وكانت غوانزو Guangzhou (كانتون) الميناء الوحيد المزود بمركز جمارك رسمي في عهد تلك الإمبراطورية. أما في عهد إمبراطورية سونغ، فقد كان هناك ما لا يقل عن تسعة موانئ بها مراكز جمارك إمبراطورية، ترأس كلاً منها موظف كبير حمل لقب مراقب الشحن البحري. وظلت كانتون لفترة طويلة الميناء الرئيس، لكن في النهاية تراجعت أهميتها من حيث حجم التجارة أمام كوانزهو Quanzhou (زايتون) الواقعة قبالة مضيق تايوان. ومن اللافت

(٣٩) الجورجين Jurchen شعب تانكوتي قطن منطقة منشوريا (شمال الصين حاليا) حتى القرن السابع عشر، حين أخذوا الاسم مانشو Manchu، أسسوا دولة تشين Jin أو chin بين العامين ١١١٥ و١١٢٢ التي دامت حتى وصول المغول [المترجم].

(٤٠) هسي هشيا Hsi Hsia بمعنى هشيا الغربية western Xia إمبراطورية تانكوتية في شمال الصين بدأت في العام ١٠٣٨ حتى العام ١٢٢٧، حين دمرها المغول وأسسوا إمبراطورية يوان Yuan [المترجم].

(٤١) الخيتان Khitans أو الخيتاي شعب بدوي مغولي، ترجع أصوله إلى منغوليا ومنشوريا إبان القرن الرابع، كانت لهم دولة لياو Liao على منطقة واسعة من شمال الصين، وبعد سقوط دولتهم في العام ١١٢٥، انتقل كثيرون منهم إلى الغرب وأسسوا دولة القرخطاي Kara Khitai التي دمرتها الإمبراطورية المغولية في العام ١٢١٨ [المترجم].

للانتباه أن ميناء هواتنغ Huating، الذي عرف لاحقاً باسم شنغهاي، كان واحداً من هذه الموانئ التسعة[٤٠]. جذبت هذه الموانئ جماعات كبيرة من التجار الأجانب، من العرب والفرس بالدرجة الأولى، الذين تمتعوا بحماية قانونية كبيرة اتخذت شكل الإعفاء من القوانين الوطنية على نشاطاتهم. وانضم كثيرون منهم إلى المواقع العليا في بيروقراطية إمبراطورية سونغ، وكان من أوسعهم شهرة ونجاحاً التاجر العربي صاحب الاسم الصيني بو شو كينغ Pu Shou-keng الذي عمل مراقباً للشحن البحري في كوانزهو، والذي سلم المدينة للمغول المنتصرين إبان القرن الثالث عشر[٤١].

زادت التجارة مع كوريا واليابان في عهد إمبراطورية سونغ، لكن قناة الاتصال الرئيسة كانت في الجنوب مع جاوة وسومطرة وغيرها من الجزر الإندونيسية، وأنام[٤٢] وتشامبا في فيتنام، وأخيراً الأقاليم المحيطة بالبحر الأحمر والخليج العربي. ففي عهد إمبراطورية تانغ كان العرب والفرس هم الذين قطعوا الطريق إلى الصين في سفنهم، بينما في عهد إمبراطورية سونغ شيّد الصينيون سفنهم العابرة للمحيطات، والينكات[٤٣] الكبيرة المزودة بعدة سواري، والسفن المحكمة ضد الماء، ودفات القائم الخلفي، والأشرعة المتحركة، وغيرها من التجديدات الملاحية التي سبقوا بها بقية العالم. وكان فن الملاحة المعتمد على البوصلة الملاحية وخرائط النجوم والمعرفة التفصيلية بالرياح والتيارات المائية متقدماً جداً هو الآخر في زمن إمبراطورية سونغ.

صدّرت إمبراطورية سونغ الخزف والحرير والصناعات الصينية الأخرى إلى جنوب شرق آسيا، في مقابل التوابل والأعشاب الطبية ومنتجات الموارد الطبيعية الأخرى. وكانت تجارة جنوب شرق آسيا في التوابل مع الشرق الأوسط وأوروبا بكل أرباحها لا تُذكَر بجوار حجم تجارته مع الصين. فعدد السكان الأكبر كثيراً، والدخول الأعلى للطبقات العليا- على الأقل- في الصين، فضلاً عن القرب من أماكن المنشأ، جعلت من الصين أكبر سوق لهذه المنتجات الغريبة في التجارة العالمية، كما ذكر ماركو بولو لاحقاً.

---

(٤٢) أنام Annam مملكة قديمة في فيتنام، وكان اسما لهذه الدولة قبل العام ١٩٤٥ [المترجم].

(٤٣) الينك junk سفينة شراعية صينية ضخمة [المترجم].

ارتبطت بهذه التجارة طبقة من التجار وملاك السفن الأثرياء، كان كثيرون منهم، مثل بو شو كينغ، مسلمين من أصول عربية أو فارسية أو تركية استقروا في الموانئ الصينية. ويبدو أن الدولة نفسها شجعت التجارة البحرية المربحة في ذلك العصر، وأعاقتها أيضاً. فقد أرادت الدولة أن تشجع مصدراً مهماً جداً للدخل، من الرسوم الجمركية ومن إعادة بيع البضائع داخل الصين، أو إعادة تصدير واردات منتقاة اِتُخِذت كاحتكارات حكومية براً إلى آسيا الوسطى (مثل أصداف السلاحف والعاج وقرون الكركدن والمرجان والعقيق واللُبان(٤٤) والفولاذ عالي النوعية أو "الملائم للأسلحة") التي كانت تشتريها بأسعار مثبتة من التجار. لكن، على الجانب الآخر- جانب الإعاقة- اضطرت الدولة مرات كثيرة بفعل ضرورات الحرب إلى أن تطلب من السفن التجارية أن تعمل كسفن حربية أو للنقل العسكري. وفي النهاية تم التوصل إلى تسوية واقعية تم تدوير السفن بمقتضاها بين الاستخدام المدني والعسكري.

يقف التفضيل الكونفوشي القوي للاكتفاء الذاتي وللاقتصاد الزراعي بدلاً من الاقتصاد التجاري على طرف النقيض من المنافع المالية الواضحة للانفتاح أمام التجارة. وقد دفع ذلك التفضيل الإمبراطور كاو تسونغ Kao tsung إلى حظر استيراد سلع الترف في العام ١١٢٧، لكن في العام ١١٣٧ اضطرته الضرورة الاقتصادية إلى التراجع وإصدار مرسوم شهير أعلن فيه أن "الربح من التجارة البحرية كبير جداً، وأنه إذا أدير جيداً يمكن أن يبلغ الملايين. أليس من الأفضل أن نتعهد هذه التجارة أكثر من فرض الضرائب على الناس؟"[٤٢]. وكان جدول التعريفات الجمركية لإمبراطورية سونغ معتدلاً، وهو عُشر القيمة للسلع "عالية" النوعية، وواحد من خمسة عشر للسلع "رديئة" النوعية[٤٣].

ساعدت الحكومة القطاع الخاص بإنشاء بنية تحتية واسعة من الموانئ والمخازن والتسهيلات الأخرى، فضلاً عن المنارات على طول السواحل. تُذكّرنا هذه النشاطات بالتعاون الوثيق بين الحكومة وقطاع الأعمال الذي يرى الكثيرون أنه يميّز المعجزة الاقتصادية لشرق آسيا في أيامنا. على أن هذه النشاطات أبعد ما تكون عن الصورة

---

(٤٤) اللُبان اسم آخر للبخور [المترجم].

التقليدية "للاستبداد الشرقي" التي يربطها كثير من الكتاب الغربيين بالصين. بل إن أباطرة دولة سونغ كانوا مشغولين أكثر من أية دولة أخرى برفاه عامة الشعب. وقد حاولوا قدر استطاعتهم أن يحافظوا على استقلال البيروقراطية، حتى يبدو أنهم كانوا يفكرون في أنفسهم بصفتهم "مديرين كباراً" أكثر منهم ملوكاً مستبدين.

أوضح يونغ بانغ لو Jung-Pang Lo أن ظهور الصين كقوة بحرية في هذه الفترة تميّز بوجود علاقة دعم متبادل بين التجارة البحرية والحرب البحرية. فبعد أن طرد الجورجين إمبراطورية سونغ الجنوبية (١١٢٧-١٢٧٩) من شمال الصين، اعتمدت الأخيرة في الدفاع عن نفسها على الاستخدام الإستراتيجي والتكتيكي الذكي للشبكة المعقدة من الأنهار والقنوات[٤٤]. واشتد اعتمادهم على المياه لنقل القوات بسبب فقدهم الوصول إلى إمدادات الخيول لفرسانهم من آسيا الوسطى. وكما قال مسؤول كبير في العام ١١١٣، فإن "البحار ونهر اليانغستي هي سور الصين العظيم الجديد، والسفن الحربية هي أبراج المراقبة، والأسلحة النارية هي أسلحة الدفاع الجديدة".

هذه الأسلحة النارية التي طورتها إمبراطورية سونغ بدافع الضرورة لمقاومة هجمات الفرسان المعتادة من جانب خصومهم البدو كانت المقدمة والمدخل إلى المدفعية وفن استخدام الأسلحة اللذين أسهما في تغيير فن الحرب في الغرب بعد بضعة قرون. كانت المدفعية تعتمد على استخدام البارود لتوفير شحنة متفجرة واستخدام مقذوفات موجهة تقذف من نوع من الأنابيب. واعتمدت السفن الحربية الصينية في قوتها النارية على الرماة والنشابين[٤٥]، إلى جانب استخدام القنابل المتفجرة والأسهم النارية وقاذفات اللهب. ووفقاً للديناميات المألوفة للنزاعات المسلحة، كانت هذه الأسلحة والتكتيكات هي نفسها التي يستخدمها الجورجين والمغول ضد إمبراطورية سونغ، والمغول أنفسهم ركبوا البحر لاحقاً في غزواتهم الفاشلة على اليابان وجاوة.

أدت الحرب المتواصلة إلى إنشاء صناعة كبرى أخرى مرتبطة بالدفاع، هي الحديد والصلب. وقد أشار روبرت هارتويل Robert Hartwell إلى التوسع الكبير في

(٤٥) النشاب هو مستخدم النشابية crossbow أو القوس المستعرض، وهي آلة حربية قديمة كانت تقذف سهاما [المترجم].

إنتاج الحديد والصلب في عهد إمبراطورية سونغ الشمالية (٩٦٠-١١٢٦)[٤٥]. فقد كان حجم الإنتاج الإجمالي ومستويات الناتج والعمالة في المصانع الفردية أكبر كثيراً مما بلغته أية دولة قبل إنجلترا القرن الثامن عشر في زمن الثورة الصناعية. فقد قدّر هارتويل أن إنتاج الحديد في الصين في العام ١٠٧٨ بلغ زهاء مئة وخمسين ألف طن سنوياً. في حين أن كامل إنتاج الحديد والصلب في أوروبا في العام ١٧٠٠ لم يزد عن ذلك كثيراً، إن بلغ هذا المستوى أصلاً. ولم يكن معدل نمو إنتاج الحديد والصلب الصيني أقل روعة، إذ ازداد اثني عشر ضعفاً إبان القرنين المنقضيين بين العام ٨٥٠ والعام ١٠٥٠.

كانت العملات الحديدية التي استخدمت إلى جانب العملات النحاسية المعتادة في بعض مناطق غرب الصين تمتص نحو عشرة آلاف طن من هذا الناتج. وثمة مصدر رئيس آخر للطلب على الحديد تمثل في المحاريث والمناجل وغيرها من أدوات الزراعة. وقد رفعت هذه الأدوات الإنتاج لكل عامل في القطاع الزراعي. فيما جاء الطلب الأكبر على الحديد من الجيش بغرض صناعة الأسلحة والدروع. وكان من نتائج التخلي عن الشمال للجورجين بعد العام ١١٢٦ فقدان الاحتياطيات المعدنية المتمركزة بالقرب من عاصمة إمبراطورية سونغ الشمالية كايفينغ K'ai-feng التي كانت تقع في وسط رواسب كبيرة من الحديد الخام والفحم. وأدى ارتباط الموارد الطبيعية بالسوق الضخم للعاصمة إلى إتاحة الاستفادة من اقتصادات الحجم الكبير وتقليل تكلفة نقل المواد الأولية الثقيلة.

يبدو أن سكان كايفينغ كانوا نحو ثلاثة أرباع مليون نسمة في العام ١٠٧٨، ما جعلها- بلا شك- واحدة من أكبر مدن العالم، وربما أكبرها على الإطلاق. وما كان لهذا العدد الكبير من السكان أن يعيش بلا إمداد وفير ومنتظم بالحبوب من الجنوب عبر القنال الكبير. وهكذا كان النقل المائي الرخيص أهم كثيراً لصناعة الحديد والصلب حول كايفينغ، حيث أسهم في خفض تكلفة نقل المدخلات إلى المدينة ونقل المنتجات منها، وشجع طلباً كثيفاً من القطاعين العام والخاص. وعملت بالصناعة قوة عاملة دائمة، وثمة علامات على وقوع صراع طبقي بين أصحاب مصانع الحديد الأغنياء والعمال الأجراء الذين كانوا يعملون عندهم. جاء أصحاب المصانع هؤلاء من طبقة

النبلاء ملاك الأراضي التي كان كثير من أعضائها من الداخلين الجدد في هذه الجماعة المتميّزة.

يتفق متخصصو الحضارة الصينية عموماً على أن حقبة إمبراطورية سونغ مثلت ذروة إنجازات الحضارة الصينية في الفنون والآداب والفلسفة، وكذلك في الاقتصاد والتقنية والإدارة العامة. ولذلك كان سقوطها أمام المغول نكسة مأساوية لما كان يمكن أن يشكل اختراقاً للمجتمع والحضارة الصناعيين الحديثين قبل الغرب بقرون، على الرغم من أن المغول أنفسهم تَصيّنوا كثيراً في أثناء حكمهم، وفي البداية أيد أباطرتهم المعروفون باسم مينغ Ming التوجه البحري "المنفتح" على الخارج الذي ميّز إمبراطوريتي سونغ ويوان Yuan، لكنهم تحولوا أخيراً إلى الانغلاق على الذات كما سنرى، وفي المجال الثقافي حدث إحياء للأرثوذكسية الكونفوشية، لكن غابت الروح الواقعية التجريبية التي ميّزت عصر سونغ. وهكذا وضع الهجوم المغولي نهاية محزنة "لازدهار" مبكر رائع في النمو الاقتصادي[٤٦] كان في مستوى العصر الذهبي للإسلام الذي كان معاصراً له تقريباً، إن لم يتفوق عليه.

المحيط الهندي وتجارة جنوب شرق آسيا

كان وقوع جنوب شرق آسيا عبر الممرات البحرية التي تربط الصين بالشرق الأوسط يعني أن الازدهار المتزامن على الطرف الأول في إمبراطوريتي تانغ وسونغ، وعلى الطرف الآخر في خلافتي العباسيين والفاطميين، من شأنه بالتأكيد أن يؤدي إلى تجارة عبور وتجارة صادرات مزدهرة في الاتجاهين كليهما في هذه المنطقة[٤٧]. وكما أشرنا بإيجاز في الفصل الأول، فقد كان ذلك القوة الدافعة الأولى لظهور مملكة فونان الهندية-الصينية وتشجيع التجارة عبر برزخ كرا، التي حلت محلها لاحقاً إمبراطورية سريفيجايا السومطرية التجارية التي سيطرت على المرور خلال مضيق مالاكا ومضيق سوندا. وقد كانت التجارة مربحة جداً لدرجة أنها حثت المنافسة من دول أخرى، ليس من جاوة القريبة وحسب، بل أيضاً من الحكام الكمبوديين والتايلنديين والبورميين على اليابسة الآسيوية، وكذلك من سيلان. وجاء التهديد الرئيس من سلالة تشولا

(٨٥٠-١٢٧٩) القوية والعدوانية في جنوب الهند. كانت تجارة إمبراطورية تشولا تخضع لسيطرة نقابات تجارية تاميلية كبيرة جيدة التنظيم، استأجرت قوات مرتزقة تابعة لها وتمتعت باستقلالية كبيرة، بالتنسيق مع السلطة الملكية.

كانت العلاقات بين إمبراطورية سريفيجايا وإمبراطورية تشولا ودية في بادئ الأمر، وحينها منح حاكم مملكة سريفيجايا إمبراطورية تشولا ديراً بوذياً في الميناء الرئيس لإمبراطورية تشولا المسمى ناغاباتينام Nagapattinam، ربما كي يستخدمه التجار من جنوب شرق آسيا. لكن في العام ١٠٢٥، شن حاكم تشولا راجندرا الأول Rajendra I (١٠١٢-١٠٤٤) هجوماً بحرياً مدمراً على سريفيجايا لم تتعاف منه وتستعد مكانتها وقوتها السابقة مطلقاً[٤٨]. ويذهب هول ووايتمور Hall and Whitmore إلى أن الهجوم بدد هيمنة سريفيجايا، ما أدى إلى هجرة التجارة بعيداً عن طريق المضايق نحو الشواطئ الشمالية والغربية لسومطرة وشرق جاوة وإنعاش الطريق العابر لشبه الجزيرة عبر برزخ كرا[٤٩]. وأنشا ملك الخمير سوريافارمان الأول Suryavarman I (١٠٠٢-١٠٥٠) ميناء تامبرالينغا Tambralinga على الساحل الشرقي لشبه جزيرة الملايو ليكون قاعدة للتجارة عبر البرزخ، وأقام علاقات دبلوماسية وتجارية مع سيلان وجنوب الهند. لكن الخمير اضطروا في النهاية للانسحاب من هذه النشاطات المتمركزة نحو الغرب للتعامل مع الاضطرابات والتهديدات الداخلية على حدودهم الشرقية. كما تحركت إمبراطورية باغان الناشئة في وسط بورما جنوباً لاستغلال الفراغ الذي حدث في أثناء ما يسميه هول ووايتمور "صراع البرزخ" الناتج عن أفول مملكة سريفيجايا. وانخرط البورميون بقوة في التجارة عبر خليج البنغال مع سيلان وموانئ جنوب الهند، وشاركوا أيضاً في عدد من المبادلات الدينية للآثار المقدسة والرهبان مع المراكز البوذية في سيلان والهند. لكن ذلك لم يمنع هجوماً سيلانياً لاحقاً على بورما الدنيا إبان العقد السابع من القرن الثاني عشر بسبب النزاعات التجارية.

كانت تجارة جنوب الهند بداية من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر، والدور الذي لعبته فيها نقابات التجار التاميلية، موضوعاً لمقالة كلاسيكية لبيرتن شتاين Burton Stein[٥٠] ودراسة رائدة مفصلة لميرا أبراهام Meera Abraham[٥١]. يشير

أبراهام إلى أن سيلان وممالك جنوب الهند بوقوعها في منتصف الطريق بين جنوب شرق آسيا والعالم الإسلامي استطاعت أن تعمل وسطاء وكذلك موردين لمنتجاتهم في سلسلة تمتد من بحر الصين الجنوبي إلى البحر الأحمر والخليج العربي. ويشير شتاين إلى أن ميناء كونجيفرام Conjeeveram على ساحل كورومانذل الشرقي بشبه الجزيرة الهندية دخل في علاقات تجارية ترجع إلى القرن الأول بعد الميلاد مع كل من الصين والإمبراطورية الرومانية[٥٢]. وقد أسس التجار اليهود والمسيحيون من الشرق الأوسط جماعات صغيرة، وإن كانت باقية في الهند، مثل الجماعة المسيحية "السورية" التي لا تزال مزدهرة إلى اليوم في ولاية كيرالا Kerala الهندية. ويقال إن المؤسس الأسطوري لهذه الكنيسة، وهو الحواري توماس Thomas، شق طريقه إلى الهند بصحبة تاجر، ويورد أبراهام أدلة وثائقية لتجار ورجال دين مسيحيين من سوريا وفلسطين، منهم الأسقف توماس الكاني(٤٦)، استوطنوا في ميناء كويلون Quilon في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع[٥٣].

يذكر شتاين نقوش معابد من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر تتعلق بنشاطات اثنتين من النقابات الرئيسة، وهما أيافول Ayyavole ومانيغرامام Manigramam، "تعطي انطباعاً بوجود تجار نشطين وواثقين، منظمين في مجموعات كبيرة متجولة، تتاجر في تشكيلة كبيرة من السلع، تتروح من الخيول إلى الأحجار الكريمة"[٥٤]. فيقول أحد النقوش إن "السلع التي تاجروا فيها كانت الفيلة والخيول والياقوت وحجر القمر واللآلئ والماس والعقيق والزبرجد والزمرد والمرجان والهيل والقرنفل وخشب الصندل والكافور والمسك". وذُكِر أيضاً في النقوش أن هذه السلع من خلال الرسوم الجمركية المحصلة منها كانت "تملأ خزانة الحاكم بالذهب والجواهر وتوفر له الأسلحة". وأوفد راجاراجا Rajaraja بعثة تجارية إلى بلاط إمبراطورية سونغ في العام ١٠١٥، أخذت معها "إحدى وعشرين ألف أوقية من اللآلئ وستين ناب فيل

---

(٤٦) نسبة إلى مدينة كانا Cana في الجليل بشمال فلسطين التي ورد ذكرها عدة مرات في إنجيل يوحنا بالعهد الجديد [المترجم].

وستين كاتياً من اللُبان"(٤٧)، وكذلك ثلاثة آلاف وثلاثمائة كاتي من النباتات العطرية[٥٥]. كان اللُبان يأتي من الشرق الأوسط، وكانت النباتات العطرية تأتي من جنوب شرق آسيا، ما يشير إلى قدرة إمبراطورية تشولا على الحصول على هذه المواد الثمينة، وهو ما أثار تقدير الإمبراطور الصيني لهم كشركاء تجاريين "من الدرجة الأولى" لإمبراطورية سونغ. وكانت اللآلئ تأتي من مصايد اللؤلؤ بخليج منار Mannar على الساحل الشمالي الغربي لسيلان، وهي منطقة مدّت إمبراطورية تشولا سيطرتها إليها، واكتشف علماء الآثار فيها خزفاً صينياً وإسلامياً يعود تاريخه إلى القرنين العاشر والحادي عشر، وهي فترة احتلال تشولا للمنطقة. وابن راجاراجا المدعو راجندرا الذي نفذ الهجوم على سريفيجايا في العام ١٠٢٥، أوفد أيضاً بعثة تجارية إلى إمبراطورية سونغ في العام ١٠٣٣. ومن الواضح أن نقابات التجار التاميليين كانت منتشرة عبر جنوب شرق آسيا وحتى في أماكن بعيدة مثل ميناء كوانزهو الصيني الرئيس الذي لا يزال ينتصب فيه المعبد الذي شيّدوه، كما عُثِر على نقوش تذكرهم في سومطرة وشبه جزيرة الملايو وباغان.

ونتيجة للتعرض لهذه التيارات التجارية، أصبح حكام جنوب الهند وسيلان متلهفين للحصول على العائدات التي يمكن أن تتحقق من تشجيع التجارة وفرض ضرائب معتدلة عليها. وكما أشرنا في موضع سابق، فإن التجار أنفسهم استأجروا قوات مرتزقة عاونت الجيوش والأساطيل المَلكية، وهكذا كانت التجارة والتوسع العسكري يسيران يداً بيد في أغلب الأحيان. من ذلك مثلاً أن إمبراطورية تشولا أرسلت حملات عسكرية إلى جنوب شرق آسيا وجزر المالديف، ومنه أيضاً غزواتهم على سيلان التي كانت مدفوعة باعتبارات تجارية. فعلى النقيض من سبنسر Spencer الذي يدفع بأن الغرض من هذه الهجمات كان "نهب مراكز سياسية ودينية كبرى وتدميرها"[٥٦]، يرى أبراهام أن "التجارة كانت عاملاً مهماً في تأطير سياسة تشولا، وأن حكام تشولا كانت لهم صلات بالجماعة التجارية، وأن درجة من المنفعة المتبادلة

(٤٧) الكاتي وحدة وزن في جنوب الصين وجنوب شرقي آسيا تساوي نحواً من رطل إنجليزي وثلث [المترجم].

تحققت لكل من الحاكم والتاجر من سياسة خارجية دعمت التاجر"[٥٧]. وفي حالة الهجوم على سريفيجايا، لا يمكن أن يكون الغزو هو الدافع لأنه لم تحدث محاولات واضحة لاحتلال إقليم جنوب شرق آسيا أو إقامة حاميات هناك. ويذكر أبراهام أن "الهجوم نُفِّذ جزئياً على الأقل لفرض حقوق للتجار الناطقين بالتاميلية في تلك المناطق، وهي تجارة توقع الحاكم والتاجر وبيروقراطية تشولا منها أرباحاً كبيرة"[٥٨]. ومن المرجح أن الدافع التجاري الذي ربما حثته نقابات التجار هو التفسير الأكثر احتمالاً، وهو أيضاً تفسير لا يتناقض مع النهب كحافز إضافي للجيش الملكي ومرتزقة نقابات التجار الذين شاركوا بالتأكيد في العملية، على الأقل كذراع بحري لهذا الجيش. وبعد انهيار إمبراطورية تشولا، تراجع دور نقابات التجار في اقتصاد جنوب الهند ومجتمعها بشدة، وإن بقي هذا الدور حتى القرن السابع عشر، وهو وقت متأخر حقاً[٥٩].

بإيجاز، تشير الأدلة إلى حقبة اقترن فيها التوسع التجاري بالاتصال الثقافي والتفاعل السياسي النشطين عبر شرق المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي. ربما تمثلت أبرز سمةٍ للقرن الحادي عشر في هذه المنطقة في التفاعل بين التجارة الدولية وظهور دول جديدة رئيسة وترسيخ البوذية الثهروادية باعتبارها المكون الثقافي المهيمن على يابسة جنوب شرق آسيا وسيلان الذي ظل دون تغيير حتى اليوم.

إننا نستمد معظم معرفتنا بالأماكن والمنتجات المرتبطة بالقوس الواسع للتجارة من بحر الصين الجنوبي إلى الخليج العربي والبحر الأحمر من عمل كتبه في العام ١٢٢٥ مسؤول بإمبراطورية سونغ يدعى شاو جو كوا Chau Ju kua شغل منصب مراقب التجارة البحرية في كوانزهو. يحمل هذا العمل الرائع والمهم عنوان Chu-fan-chi الذي يترجم إلى "وصف الشعوب البربرية"، أو بلغة أكثر لطفاً "سجلات الأمم الأجنبية"، ويعتمد على عدد من النصوص الصينية القديمة وكذلك على الملاحظة والتقصي المباشرين اللذين نفذهما الدارس- الموظف في أثناء أداء مهامه الوظيفية(٤٨). يتضح من

(٤٨) توجد ترجمة إنجليزية لكتاب هيرث وروكهيل Hirth and Rockhill (١٩٦٤) مزودة بهوامش علمية ثمينة، ويشكل الكتاب أيضاً الأساس للدراسة القيّمة التي أجراها با ويتلي Pa Wheatley (١٩٥٩).

هذا العمل أن الصينيين وإمبراطورية سونغ كانوا عارفين بجنوب شرق آسيا الجزيرية والقارية، فضلاً عن سيلان والهند والشرق الأوسط وشرق أفريقيا، وحتى بعض أجزاء البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية.

وفيما يتعلق بتركيب السلع في التجارة، يذكر شاو جو كوا تشكيلة واسعة من المنتجات الغريبة، يبلغ عددها ثلاثمائة وتسعاً وثلاثين سلعة، كانت الصين تستوردها من كل هذه المناطق. وكما يشير ويتلي Wheatley، فإن شاو جو كوا يبدو مشوشا جداً حول المصدر الأصلي لكثير من هذه الواردات، فكثيراً ما ينسب الرجل مصدر مواد معينة إلى أماكن أعيد تصديرها منها، وليست مكان إنتاجها بأي حال من الأحوال. وكانت أهم السلع التي تستوردها الصين هي النباتات العطرية والعقاقير مثل اللُبان والمُر من حضرموت، وخشب الصندل من جنوب شرق آسيا، والعنبر من ساحل شرق أفريقيا. وكان الصينيون يستخدمون التوابل القادمة من جزر الملوك مثل القرنفل وجوز الطيب للأغراض الطبية، وكانوا أيضاً يثمّنون أنياب الفيلة وقرون الكركدن القادمة من أفريقيا. وكانوا كذلك يستوردون العبيد السود الصغار الذكور والإناث من أفريقيا. وفي حين كان الحرير أحد الصادرات الصينية الرئيسة إلى جنوب شرق آسيا، كانت الصين تستورد الأقمشة المطرزة الرفيعة والدِمَقْس من الشرق الأوسط، والمنسوجات القطنية من مالابار الهندية وسواحل كوروماندل. وكانت الصين تستورد الفولاذ والسيوف من الهند، وتستورد معادن كثيرة، على رأسها القصدير، من جنوب شرق آسيا. وكذلك كان الخزف، إلى جانب الحرير، السلعة التصديرية الصينية الرئيسة، وقد وُجِد بكميات كبيرة على طول الطريق من جنوب شرق آسيا وسيلان إلى شبه الجزيرة العربية والساحل السواحلي بشرق أفريقيا وزنجبار.

يذكر ويتلي أنه قد يكون من المفاجئ لنا أن نجد أن معرفة الصينيين في عهد إمبراطورية سونغ بالشرق الأوسط وحتى شرق أفريقيا كانت أكبر من معرفتهم بالهند[٦٠]. ربما يرجع تفسير ذلك إلى أن تمثيل التجار الهنود- باستثناء نقابة التجار التاميلية في كوانزهو- كان أقل في الموانئ الصينية من التجار العرب والفرس والأتراك الذين كان حضورهم ملحوظاً جداً في تلك الأماكن. ويذكر ما Ma أن هذه الموانئ

ضمت ما لا يقل عن عشرين بعثة تجارية من أقاليم العالم الإسلامي في عهد إمبراطورية سونغ، في مقابل قلة لا تُذكَر من إمبراطورية تشولا والممالك الهندية الأخرى[٦١]، وهو دليل آخر على المركزية الاقتصادية للعالم الإسلامي في هذه الفترة. نتحول فيما يلي إلى المحيط الغربي لأوراسيا وإلى تأثير الفتوحات العربية هناك.

أطروحة بيرين

"لولا النبي محمد لما كان شارلمان"(٤٩)، تلك هي المقولة الشهيرة للمؤرخ البلجيكي العظيم هنري بيرين Henri Pirenne[٦٢] التي أطلقت واحداً من أكثر السجالات الأكاديمية سحراً وبقاءً، وهو سجال لم يُحسَم كاملاً إلى اليوم. كان بيرين يهاجم الحكمة السائدة في عصره القائلة بأن غزوات القبائل الجرمانية أطاحت بالمحيط المتحضر للإمبراطورية الرومانية في مقاطعة الغال(٥٠)، ما أطلق "العصور المظلمة" التي ارتد المجتمع خلالها إلى الاقتصاد الريفي المكتفي ذاتياً القائم على فلاحين أرقاء خاضعين لسادة إقطاعيين. حل هذا المجتمع محل الإمبراطورية البيروقراطية المتمدنة للنخبة الرومانية الحضرية التي تحصل على تمويلها من الضرائب المباشرة على الأرض والمكوس على تجارة ما وراء البحار المزدهرة مع المقاطعات البيزنطية الشرقية. دفع بيرين بأن السادة الجدد للمجتمع الغالي-الروماني، وهم ملوك الفرنجة الميروفنجيون، حافظوا فعلاً على السمات الأساسية للإدارة الرومانية، وحتى على عملتها الذهبية، بعد تحولهم إلى الكاثوليكية الرومانية، وحافظوا بذلك على استمرارية النظام الاجتماعي الاقتصادي مع نظام العصر القديم الكلاسيكي، فيما حدث التغير الوحيد في تركيب القيادة العليا. ويرى بدلاً من ذلك أن الانقطاع الحقيقي لم يحدث مع سيطرة البرابرة إبان أواخر القرن الخامس والقرن السادس، وإنما بعد أن انتزعت الخلافة العربية السيطرة على البحر الأبيض المتوسط من البيزنطيين، ما أدى إلى فصل النصفين الشرقي والغربي للإمبراطورية الرومانية السابقة أحدهما عن الآخر إبان النصف الثاني

(٤٩) الإشارة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم في أمثال هذه المواضع تعني ضمناً ظهور الإسلام كحدث سياسي وانتشاره كحدث جيوسياسي [المترجم].

(٥٠) الغال Gaul هو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي قطنها الغاليون وهم شعوب كلتية، انتشرت في شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا [المترجم].

من القرن السابع. ثم جاء الانقطاع التالي للصلات الخارجية التجارية وغيرها- بحسب بيرين- ليعيد أوروبا الغربية إلى قاعدة اقتصادية بدائية مكتفية ذاتياً في عهد السلالة الكارولينجية. وعلى ذلك يمكن القول إنه لولا النبي محمد لما كان شارلمان.

يقوم الدعم التجريبي لأطروحة بيرين على ما أسماه روبرت لوبيز Robert Lopez "اختفاء الأشياء الأربعة" من أوروبا الغربية: ورق البردي والأنسجة الفاخرة والتوابل الشرقية والعملات الذهبية، التي كانت تعتمد جميعها على بيزنطة. وقد كان على بيرين بالطبع أن يثبت أن هذه المواد اختفت فعلاً وأن توقيت اختفائها تزامن مع الفتوحات العربية[٦٣]. كان ورق البردي يستخدم في الإمبراطورية الغربية لمعظم أغراض إمساك السجلات في كل من الدولة والكنيسة وكذلك الصفقات التجارية الكبرى. ويذكر بيرين أن "كل الحمولات من هذه السلعة كانت تُفرّغ بالتأكيد على أرصفة الموانئ البحرية"[٦٤]، ودفع بأن الميروفنجيين توقفوا عن استخدام ورق البردي للوثائق المَلكية بعد العام ٦٧٧ وأن الرهبان والتجار في بلاد الغال توقفوا عن استخدامه أيضاً بعد ذلك التاريخ، مع أنهم استمروا في استخدامه لبعض الوقت في إيطاليا[٦٥]. وكذلك كان البلاط الميروفنجي والكنيسة يستخدمان الحرير والأقمشة المطرزة على نطاق واسع، بينما استعاض عنها الكارولينجيون بالأقمشة الصوفية الفلمنكية البسيطة. وفي الوقت نفسه تقريباً توقف استخدام العملات المعدنية الذهبية والتوابل الشرقية.

فنّد لوبيز الاختفاءات الأربعة جميعها، لبعض الوقت على الأقل. فقد استمر استخدام ورق البردي في إيطاليا، كما دفع لوبيز بأن تراجعه في بلاد الغال ارتبط بتأثير القانون الروماني، وأن تلاشي استخدامه نتج عن الهبوط في الطلب، وليس القيود على العرض. أما بالنسبة للأنسجة الفاخرة والتوابل الشرقية، فيدفع لوبيز مجدداً بأن التغير في الطلب بسبب تغير الأذواق، وليس القيود على العرض من جانب العرب، كان المسؤول عن اختفائها، لكنه لم يقدم حججاً مقنعة عن سبب حدوث هذا التحول. فبالنسبة للأنسجة الفاخرة، مثل "الأرجواني الملكي"، رأى أن البيزنطيين أنفسهم ربما قيّدوا صادراتها ليحرموا الحكام الغربيين الصاعدين من رموز العظمة الإمبراطورية. وبالنسبة للذهب، دفع بأن العرب في إسبانيا كانوا يستخدمون القاعدة

الفضية، ما أجبر الحكام الفرنجة على اتباعهم، لكنه هنا أيضاً لم يقدم حججاً قوية للأسباب وراء ذلك.

جاء النقد الأشد لأطروحة بيرين من دانيال دينيت Daniel Dennett الذي تساءل عن الأسباب التي دفعت العرب إلى تقييد التجارة مع الغرب في المقام الأول، وعما إذا كانوا يمتلكون القدرة على تقييدها إن أرادوا ذلك[٦٦]. فعلى كل، وكما رأينا في مواضع سابقة، فإن العرب تاجروا مع الكفار من كل الملل، من البدو الوثنيين في آسيا الوسطى والهنودس والبوذيين في الهند وجنوب شرق آسيا، وحتى مع أكبر منافسيهم المسيحيين، وهم البيزنطيون. وما الذي يمنعهم عن التجارة مع الفرنجة في أوروبا الغربية، بينما كانوا يتاجرون مع إخوانهم ومنافسيهم السياسيين المسلمين الأمويين في إسبانيا وكذلك مع المسيحيين في إيطاليا؟ وإذا كانت التجارة مع بلاد الغال قد تراجعت فعلاً، أليس من الممكن أن يكون ذلك قد نتج عن التمزق والعراقيل التي أحدثتها غزوات البرابرة والردة الاقتصادية المصاحبة، كما تذهب وجهة النظر التقليدية، وليس نتيجة لأي حظر متعمد من جانب الخلافة الإسلامية؟ وعلى أية حال، فقد دفع دينيت بأن العرب لم يكن بمقدورهم أن يفرضوا حظراً على بلاد الغال دون الاستيلاء على صقلية الذي لم يحدث إلا بعد العام ٨٢٧ حين غزا الأغالبة حكام تونس الجزيرة واستولوا على باليرمو في العام ٨٣١، ولم يستولوا على سيراكوز(٥١) إلا في العام ٨٧٨ وتاورمينا Taormina في العام ٩٠٢، ولم يسيطروا على الجزيرة كاملة إلا إبان القرن العاشر. وثمة دفاع ممكن عن بيرين قدمه إلياهو أشتور Eliyahu Ashtor وهو أن الحرب الدائمة تقريباً في البحر الأبيض المتوسط بعد الفتوحات العربية أعاقت التجارة وقلصّتها كثيراً، على الرغم من أنه لم تحدث أية محاولة متعمدة لفعل ذلك من الجانب الإسلامي[٦٧].

وعلى ذلك، تذهب أطروحة بيرين إلى أن ظهور الإسلام كان قوة دافعة لنقض العولمة، أي قوة مبدّدة للعولمة، على الأقل فيما يتعلق بأوروبا الغربية،

---

(٥١) Syracuse أو سرقوسة في المصادر العربية المبكرة [المترجم].

وتلك مفارقة فعلاً، بالنظر إلى التأثير الدمجي الشديد الذي مارسه الإسلام على نطاق واسع[٥٢]. ربما يمكن لبيانات الأسعار النسبية أن تساعد في حل هذه القضية. فإذا كان بيرين أو أشتور محقين في مذهبهما، فإن الأسعار النسبية للواردات الفاخرة إلى أوروبا الغربية لا بد أن تكون قد ارتفعت، ما يعكس القيود على العرض، أما إذا كان لوبيز محقاً في مذهبه، فإن الأسعار النسبية للورق والتوابل الشرقية لا بد أنها انخفضت نتيجة لانخفاض الطلب. لكننا للأسف لا نمتلك بيانات أسعار لتلك الفترة المبكرة، ولذلك يتحتم علينا أن نتثبت من ذلك بأدلة كيفية ونوعية حول التدفقات التجارية وطرق التجارة. وعلى وجه التحديد، أكدت الدراسات الحديثة أن البحر الأبيض المتوسط لم يكن الطريق الوحيد للتجارة بين أوروبا الغربية والعالم الإسلامي. فثمة إمكانية أخرى، وهي أن السلع الغربية كان يمكن تبادلها مع منتجات الغابات من أقصى الشمال كالفراء والعسل والشمع والكهرمان، ثم يعاد تصديرها إلى العالم الإسلامي، في مقابل ما كان الأخير يمكن أن يقدمه. معنى ذلك أن العالمين الإسلامي والكارولينجي كانا يرتبطان عبر وساطة القراصنة - التجار الاسكندينافيين الأقوياء المعروفين باسم الفارانجيين[٥٣].

أوروبا الشرقية: حلقة الفايكنغ

ترجع هي الفرضية الجريئة إلى المؤرخ ودارس العملات السويدي ستور

---

(٥٢) ربما لذلك لم يُسكّ مفهوم للسلام الإسلامي Pax Islamica أو السلام العربي Pax Arabica على منوال السلام الروماني أو المغولي أو البريطاني أو الأمريكي التي وردت إشارات إليها في حواشٍ سابقة للمترجم، في المقام الأول بسبب الجوار الجغرافي والصراع السياسي المباشر بين الدول الإسلامية الكبرى والدول الغربية، ما جعل التأثيرات المفيدة اقتصادياً وسياسياً وثقافياً للفتوحات العربية تعم الشرق دون الغرب [المترجم].

(٥٣) الفارانجيون [أو الإفرنج] Varangians هو الاسم الذي أطلقه اليونانيون والسلاف الشرقيون على الفايكنغ الذين حكموا دولة روسيا Rus بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر وشكّلوا الحرس الفارنجي البيزنطي، وهو الحرس الشخصي للأباطرة البيزنطيين [المترجم].

بولين Sture Bolin الذي أطلق على بحثه الرائع حول هذا الموضوع العنوان "محمد وشارلمان وروريك"(٥٤). وتتضح الحجة الأساسية التي قدمها بولين بجلاء في الاقتباس التالي[٦٨]:

أولاً، من المؤكد، بغض النظر عن توقف التجارة بين أوروبا الغربية والعالم العربي إبان الفترة الكارولينجية من عدمه، أنه في داخل الخلافة الإسلامية ازدهرت التجارة والصناعة والاقتصاد الحضري لدرجة غير مسبوقة. ثانياً، بغض النظر عن زيادة تجارة أوروبا الغربية أو تناقصها في هذه الفترة، فقد أصبحت الارتباطات القديمة بين أوروبا الغربية والدول الشمالية والبلطيقية أكثر أهمية، وبخاصة في الجزء الأول من العصر الكارولينجي. وفي حال وضع هاتين الحقيقتين المقبولتين جنباً إلى جنب، فإن المشكلة الأساسية تدفع بنفسها مجدداً، حيث تقود المرء إلى التساؤل عما إذا كانت الاتصالات بين إمبراطورية الفرنجة والشمال قد أصبحت أكثر حيوية نتيجة لتقلص الاتصالات بين الغرب والمشرق، أو ما إذا كانت العوامل عينها مسؤولة عن ازدهار التجارة داخل الخلافة الإسلامية وحول بحر الشمال.

تقدم بولين مباشرة من البديل الثاني مستنتجاً أن ازدهار العالم العربي أدى مباشرة إلى تحفيز النمو التجاري والاقتصادي في الغرب من خلال تأثيره الأولي على الفارانجيين والروس. وبذلك كان النبي محمد، بمعنى ما، هو منشئ الدولة الكارولينجية، كما دفع بيرين، لكن من خلال تشجيع النمو الاقتصادي والتجارة في أوروبا الغربية، وليس إعاقتهما. بداية، دفع بولين بأن التجارة بين أوروبا الغربية والشرق لم تتوقف إبان القرنين السابع والثامن بعد ظهور الإسلام، بل استمرت بتصدير العبيد والفراء والسيوف في مقابل الفضة والمنتجات الفاخرة كالحرير والتوابل. وكان العبيد يأتون في الغالب من السلاف الشرقيين، والفراء أيضاً من أقصى الشمال

(٥٤) الأسماء الواردة في عنوان هذا البحث هي للنبي محمد عليه الصلاة والسلام وملك الفرنجة شارلمان الواردين في عنوان كتاب بيرين السابق "شارلمان ومحمد"، اللذين أضاف إليهما بولين الاسم روريك Riurik وهو مؤسس السلالة الروريكية التي حكمت روسيا حتى القرن السابع عشر [المترجم].

والشرق، ولذلك كانت هذه السلع سلعاً يعاد تصديرها وليست صادرات، فيما كانت السيوف فقط صناعة فرنجية. فقد كان الفرنجة يحصلون على العبيد والفراء من مناطق البلطيق وبحر الشمال في مقابل المواد الأولية والمنتجات المصنعة من بلاد الفرنجة. وكان العبيد يساقون مشياً على الأقدام على طول الطرق من كراكوف إلى براغ، ويُجمعون في فيردان[٥٥]، ثم يصدّرون عبر آرل[٥٦] إلى إسبانيا والأجزاء الأخرى من العالم الإسلامي بوساطة تجار من يهود الرذنية Rhadanite متعددي اللغات الذين امتدت اتصالاتهم من إسبانيا وشمال أفريقيا إلى الصين.

ويذهب بولين إلى أن فترة أوائل القرن التاسع شهدت تحولاً أساسياً، حين فتح الاسكندينافيون قناة مباشرة إلى الأسواق الشرقية المربحة من خلال السيطرة على النظم النهرية الروسية وانتزاع الفراء والعبيد كجزية من السكان الفنلنديين والسلافيين المحليين بالقوة الوحشية، ومبادلتها بالفضة الإسلامية والحرير البيزنطي. وقد أدى اكتشاف مناجم فضة غنية جداً في مناطق طشقند ووادي بانجشير Panjshir في أفغانستان الحالية إلى تدفق هائل للفضة في شكل عملات عباسية وسامانية، كانت تنتقل إلى أيدي الاسكندينافيين، ومنهم إلى الغرب (انظر الشكل ٢,٣)[٥٧]. ويشبّه بولين تدفق الفضة إبان القرنين التاسع والعاشر بذلك التدفق الذي أحدثه فاتحو العالم الجديد إبان القرن السادس عشر[٥٨]، كما أحدث تأثيرات تضخمية وتوسعية مماثلة.

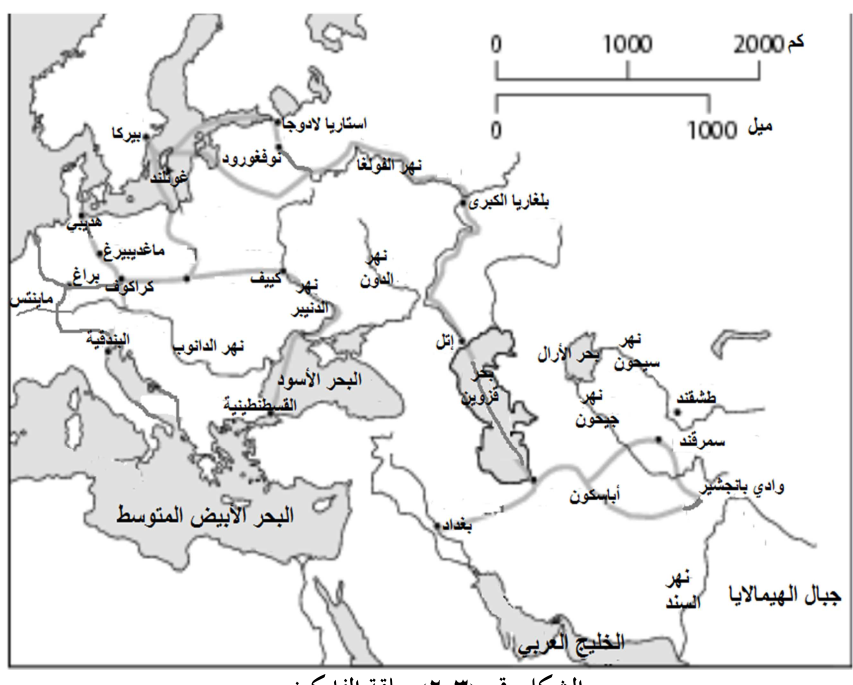
---

(٥٥) فيردان Verdun مدينة بشمال شرق فرنسا [المترجم].

(٥٦) آرل Arles مدينة بجنوب فرنسا [المترجم].

(٥٧) راجع الخرائط المفيدة جداً في O'Brien (2002, pp. 71, 78).

(٥٨) سيرد في فصول لاحقة أن الفاتحين الأيبيريين، وبخاصة الإسبان، اكتشفوا جبالاً من الفضة في الأمريكتين، أخذت تتدفق على بلدانهم وعلى العالم القديم كله، على مدى عقود متتالية [المترجم].



الشكل رقم (٢,٣) حلقة الفايكنغ.

ينطوي إثبات نسخة بولين من أطروحة بيرين، أو بالأحرى هذا القلب لأطروحة بيرين، على ثلاث خطوات. أولاً، يجب إثبات التوسع الاقتصادي للعالم الإسلامي من القرن السابع إلى القرن العاشر، وهو ما حدث في الأقسام السابقة من هذا الفصل. ثانياً، يجب التحقق من الطبيعة والأبعاد الدقيقة للتجارة بين السويديين والروس من جانب والاقتصادات الإسلامية من جانب آخر. وأخيراً، يجب إثبات حلقة الوصل بين التجارة الشرقية والغرب عبر منطقة البلطيق وبحر الشمال. فيما بقي من هذا القسم، نحاول أن نثبت الحلقة المتوسطة المهمة في سلسلة العلاقات السابقة، وهي حلقة الربط التي نشير إليها باسم "حلقة الفايكنغ". ومن حسن الحظ أن هذا الموضوع تطور كثيراً منذ أن كتب بولين أطروحته، وبخاصة من خلال الكتاب الثاقب للمؤرخ ودارس العملات الأمريكي توماس نونان Thomas S. Noonan الذي نعتمد عليه فيما يلي[٦٩]. وستكون الصلات بين الاقتصاد الكارولينجي والعالم الشمالي ومنطقة البلطيق وبحر الشمال موضوع القسم التالي.

يبدأ نونان بالسؤال: "لماذا جاء الفايكنغ إلى روسيا في المقام الأول؟"[٧٠] من المؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك طلباً للغنائم أو للنهب، كما كانت الحال في الغرب الذي كانوا يغيرون فيه على الأديرة والبلدات الغنية على سواحل إنجلترا وأيرلندا وفرنسا. فروسيا في ذلك الوقت كانت أرضاً كثيفة الغابات ومتناثرة السكان ولا تحوي كنوزاً عظيمة تغري بنهبها. لكنها كانت تمتلك مصدراً وفيراً للثروة في أقصى الجنوب على طول النظم النهرية الروسية الواسعة والممرات القصيرة على طول الفولغا إلى بحر قزوين وبغداد، أو على طول نهر الدنيبر إلى البحر الأسود والقسطنطينية. وقد كان العالم الإسلامي على وجه التحديد مصدراً وفيراً للدراهم الفضية التي يمكن مبادلتها بمنتجات الغابات الشمالية مثل الفراء، فضلاً عن العبيد السلافيين(٥٩) من الجنسين الذين كانوا يحصلون عليهم من البلدات الزراعية المستقرة(٦٠). وكانوا يحصلون على الفراء والعبيد جزئياً في مقابل السلع البلطيقية مثل السيوف الفرنجية أو الخرز الزجاجي، لكن بالدرجة الأولى كجزية كانوا يفرضونها بالقوة على قبائل الصيد والجمع الفنلندية أو التجمعات الزراعية السلافية. ولم يكن الفايكنغ مضطرين إلى نقل هذه السلع على طول الطريق إلى بغداد أو القسطنطينية، ذلك لأن الخزر وبلغار الفولغا عملوا كوسطاء مفيدين، وفي معسكراتهم كان يجري تبادل السلع والعبيد الشماليين في مقابل العملات الفضية والمنتجات الفاخرة مثل الحرير، بما كان يعود بالنفع والربح على الأطراف الثلاثة جميعها، إن لم يكن على الأسرى تعيسي الحظ أيضاً(٦١).

نشأت المستوطنات والبلدات الروسية الأولى مثل استارايا لادوجا Staraia Ladoga ونوفغورود وكييف نفسها في الأصل كنقاط جمع ومحطات تجارية ومحطات

---

(٥٩) كما ورد في حاشية سابقة، فإن العبيد السلاف يُعرَفون في التاريخ العربي الإسلامي باسم "الصقالبة" [المترجم].

(٦٠) مصطلح "المستقرة" يعني "المُقيمة"، في مقابل جماعات البدو الرحل [المترجم].

(٦١) كثير من هؤلاء العبيد أصبحوا أمراء للجند وقادة عسكريين وأصحاب إقطاعات، بل شكّلوا في الأندلس مثلاً طبقة اجتماعية تشبه طبقة المماليك الأتراك في المشرق الإسلامي، وحتى الجواري كان بعضهن يصل إلى مراتب اجتماعية سامية بتبعيتهن للملوك والأمراء وعلية القوم الذين كانوا يشترونهن [المترجم].

خدمات لهذه التجارة طويلة المسافات. وكان سبي العبيد نفسه يولّد مزيداً من السبي، وكانت شعوب السهل البدوية الأخرى، مثل البجناك تعيش في رخاء على قنص الأساطيل الصغيرة عند النقاط الضيقة على الأنهار التي كان يسهل عليهم فيها الهجوم من الشاطئ، أو عند الشلالات التي تجبر القوافل على النزول من السفن ونقل السلع إلى سفن أخرى. فلم تكن التجارة والحرب إلا وجهين لعملة واحدة، كما رأينا في حالة إمبراطورية تشولا، وكما سنرى كثيراً في هذا الكتاب، بل إن دولة روسيا الكييفية نشأت أصلاً لتلبية ضرورة تنظيم هذين النشاطين المتكاملين.

يذكر نونان عدداً من مخابئ الدراهم الفضية الإسلامية، اكتشفت في أجزاء مختلفة من أراضي روسيا على طول نهري الفولغا والدنيبر، ترجع بالدرجة الأولى إلى ما بين العامين ٨٠٠ و٨٤٠، واكتشافات مماثلة في منطقة شرق البلطيق ترجع إلى الفترة نفسها[٧١]. وتزداد الاكتشافات الإجمالية بشدة من أقل من ثلاثمئة درهم إبان العقد الأول من القرن التاسع إلى أكثر من ألف وسبعمائة وخمسين درهما إبان العقد الرابع من القرن نفسه، بإجمالي أكثر من أربعة آلاف وسبعمائة وعشرين درهماً، تشكل اكتشافات البلطيق زهاء ٣٦٪ منها. وعلى ذلك، فإن واحدة على الأقل من كل ثلاث عملات إسلامية دخلت الأراضي الروسية انتهى بها المطاف في منطقة البلطيق، إذ لم يكن هناك إمكانية لانتقال العملات إلى البلطيق دون عبور روسيا. وكانت استاريا لادوجا المركز الذي جرت فيه مبادلة الدراهم بالسلع الغربية، وكان التجار البولنديون وغيرهم من السلاف الغربيين هم الذين تولوا هذا العمل، وكان السويديون هم الوحيدون الذين خاطروا بالدخول أبعد من هذه النقطة في داخل روسيا للحصول على الدراهم بطريقة مباشرة.

ثم يتقصى نونان السؤال: لماذا بدأت التجارة في الفضة الإسلامية مع منعطف القرن التاسع تقريباً فقط، وليس بعد تأسيس الخلافة مباشرة؟[٧٢] ويدفع بأن السبب وراء ذلك كان "حرب المئة عام" بين العرب الأمويين والخزر على السيادة على القوقاز، تلك المنطقة الجبلية بين البحرين الأسود وقزوين. وفي هذا الصراع، امتلك العرب قوة كافية لهزيمة الجيوش الخزرية في الميدان، بينما افتقروا إلى الموارد اللازمة

للحفاظ على احتلال أراضي الخزر بعد قهرهم في المعارك. وقد أدرك العباسيون ذلك، فعقدوا معهم سلاماً أوقف الأعمال العدائية أخيراً مع نهاية القرن الثامن. وقد مهّد ذلك الطريق لتجارة مفيدة للطرفين، وغدت عاصمة الخزر في اتل Itil على مصب نهر الفولغا على بحر قزوين محطة تجارية كبرى للتجار من كل الأديان.

أدرك الخزر الحاجة إلى التخلي عن الشامانية واعتناق "دين كتابي"، لكنهم ترددوا في اعتناق الإسلام أو المسيحية الأرثوذكسية خوفاً من الوقوع تحت هيمنة أي من القوتين العظميين المجاورتين- الخلافة الإسلامية وبيزنطة- ما اضطرهم إلى الاختيار المفاجئ لليهودية دونهما، كما رأينا في الفصل السابق. لكن ممارسة اليهودية اقتصرت على ما يبدو على الخاقان[٦٢] والنخبة الحاكمة، واعتنق الشعب معتقدات أخرى متنوعة. كان الروس في بادئ الأمر خاضعين للخزر، حتى أنهم كانوا يخدمونهم كمرتزقة. وتدريجياً بدأوا ينتزعون منهم السيطرة على القبائل السلافية ويحصلون على أرباح كبيرة من تجارة الشمال-الجنوب، ما عزز تدفق الفضة إلى البلطيق والغرب. ثمة دولة تركية أخرى من بدو السهل السابقين انخرطت في جمع الجزية في شكل الفراء والعبيد ومبادلتها بالفضة، وهي دولة بلغار الفولغا، وعاصمتها في بلغاريا الكبرى Great Bulgar في الفولغا الأوسط، التي اعتنقت الإسلام وكانت منافساً آخر للروس والخزر. وبفضل موقع هذه الدولة في وسط امتدادات الفولغا، تمكّنت من جمع ثروة كبيرة من المكوس، وكذلك الجزية التي كانت تجمعها.

وفي العام ٩٢٢، أوفد الخليفة في بغداد سفارة إلى عاصمة البلغار استجابة لطلب لما يمكن أن يسمى اليوم "مساعدة فنية" في إقامة دولة إسلامية. وكان من أعضاء الوفد الدبلوماسي العباسي ابن فضلان الذي أصبحت رواية رحلته إلى الأراضي البعيدة عملاً كلاسيكياً في مجال ملاحظة ثقافة لثقافة أخرى أو اللقاء بين الثقافات[٦٣].

---

(٦٢) الخاقان Khagan هو لقب الإمبراطور في اللغات المغولية والتركية، والدولة التي يحكمها تسمى "خاقانية" [المترجم].

(٦٣) أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، وكتابه يسمى "رسالة ابن فضلان"، يصف فيه الشعوب التي قطنت بلاد جورجيا وروسيا والبلاد الاسكندينافية (رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٩) [المترجم].

قابل ابن فضلان ما يبدو أنهم جماعة من الفايكنغ في عاصمة البلغار، من الواضح أنه أعجب بهم واشمئز منهم في الوقت ذاته. فقد أعجب بقوامهم العملاق الذي قال فيه أنهم "في طول النخيل"، ولاحظ أن كل رجل منهم كان مسلحاً بأسلحة لا تفارقه أبداً. وقال فيهم إنهم مغرمون بالتجارة المربحة ويتضرعون إلى أوثان خشبية لآلهتهم من أجل نجاح تجارتهم. وكانت ثروتهم كبيرة، وكانوا يزينون زوجاتهم بقلادة لكل عشرة آلاف درهم يربحونها، وكان الكثير من نسائهم يرتدين حول أعناقهن الكثير من هذه الرموز الدالة على النجاح التجاري. فيما صدمت ابن فضلان قلة نظافتهم، وكذلك شربهم لكميات كبيرة من الكحول وممارستهم الفسوق علناً مع جواريهم اللاتي كانوا يمتلكونهن بأعداد كبيرة. وذكر ابن فضلان أيضاً رواية مروعة- لكن مع الاستبعاد العلمي للتفاصيل التي يرفضها عالم الأنثروبولوجيا الحديث- لجنازة زعيم أُحرِق على سفينته مع محظيته المفضلة التي ضحوا بها بطريقة مرعبة كي ترافقه في الآخرة[٦٤].

ثمة كُتاب عرب آخرون، منهم الجغرافيان ابن خرداذبة وابن رسته[٦٥]، خلّفوا تسجيلات لخصائص الروس وطرق تجارتهم وممارساتهم الاجتماعية. ويقدم كرامرز

---

(٦٤) في رسالته، قال ابن فضلان في الروس "وهم أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب. ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجواري الروقة (الجميلات) للتجار، فينكح الواحد جاريته ورفيقه ينظر إليه ... ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه (أنجسه). وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتدفعه إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه وشعر رأسه، فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي جانبه ففعل مثل فعل صاحبه .."، وقال في الدنمركيين: "كانوا يغتسلون في النهر، ويتخلصون من نفاياتهم خارج الأبواب .. ومع ذلك، لم يكونوا حقاً نظيفين، إلا بالمقارنة" يقصد مقارنة بقذارة الروس، وقال فيهم أيضاً "ويتألف مجتمع تريلبرغ غالباً من الرجال، وجميع النساء من الجواري، ولا توجد زوجات بين النساء. وينال الرجال من يشاؤون من النساء بحرية وكيفما يشاؤون" [المترجم].

(٦٥) أحمد بن عمر أبو علي بن رسته الأصفهاني (توفى نحو العام ٣٠٠ هجرية/٩١٢ ميلادية) جمع وصنف في العام ٢٩٠ هجرية كتاب "الأعلاق النفيسة"، وصف فيه الكثير من المدن والبلدان، يقع الكتاب في سبعة أجزاء، لم يبق منها إلا الجزء الأخير [المترجم].

Kramers قائمة بالسلع التي كان الروس يتاجرون فيها (تأسيساً على أعمال جغرافي عربي آخر هو المقدسي) وهي "فراء السمور والفراء الأبيض وفراء القاقم وفراء الثعالب والقنادس والأرانب البرية المرقطة والعنزات، وكذلك الشمع والسهام ولحاء شجر البتولا والقبعات ذات الفراء وصمغ السمك وأسنان السمك (وربما أنياب حيوان الفظ[٦٦]) والقندس والكهرمان وجلد الخيول المُصنّع والعسل والبندق والصقور والسيوف والدروع وخشب القيقب والماشية صغيرة وكبيرة الحجم"[٧٣]. ولاحظ ابن رسته تحديداً أنهم لم يكونوا يزاولون الزراعة، بل تعيشوا فقط على التجارة في العبيد والمنتجات التي كانوا ينتزعونها من السلاف والسكان المحليين الآخرين في مقابل الفضة من الأقاليم الإسلامية عبر وسطاء بلغار وخزر، وكذلك بطريقة مباشرة دون وسطاء. ولاحظ أيضاً أنهم كانوا يتظاهرون بأنهم مسيحيون إذا كان ذلك من شأنه أن يقلل الرسوم والمكوس التي كانوا يدفعونها على البضائع العابرة.

كان السويديون في روسيا على اتصال وثيق بوطنهم. وموقع بيركا Birka القريب من استوكهولم الحديثة غني جداً بالمصنوعات اليدوية، وبخاصة العملات، من العالم الإسلامي، وصلت هناك في هذه الفترة، كما هي الحال في جزيرة غوتلند وموقع هديبي الدنمركي[٦٧]. ويذكر سبوفورد Spufford أنه قد عُثِر على أكثر من مئتي ألف عملة معدنية إسلامية في أوروبا الشمالية والوسطى والشرقية، منها ستون ألفاً في غوتلند وخمسة وأربعين ألفاً في بقية اسكنديناڤيا وعشرون ألفاً على الساحل البوميراني[٦٨] للبلطيق فيما يعرف الآن ببولندا، وغالبية العملات الباقية عثر عليها في روسيا نفسها[٧٤]. ويذكر سبوفورد أيضاً أن خمسة وثلاين درهماً سُكّت في سمرقند بين العامين ٨٩٥ و٩١١ عُثِر عليها في مواقع تؤرخ إلى الفترة من العام ٩٢٥ إلى العام ٩٣٠ في مكان بعيد مثل يوركشاير[٧٥]. وكانت بيركا وهديبي النقطتين اللتين جرى فيهما تبادل الدراهم التي تحصلوا عليها من التجارة على طول الأنهار الروسية في مقابل

---

(٦٦) الفظ حيوان ثديي بحري شبيه بالفقمة [المترجم].

(٦٧) كانت هديبي Hedeby مستوطنة تجارية مهمة على الحدود الألمانية الدنمركية الشمالية في عصر الفايكنغ، ازدهرت من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر [المترجم].

(٦٨) بوميرانيا Bomerania منطقة تاريخية على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق [المترجم].

الحبوب والنبيذ والفخاريات والصناعات الحديدية مثل السيوف الفرنجية التي كانت أسلحة شائعة بين كل من الفايكنغ وشركائهم التجاريين الشرقيين. ويذهب سوير Sawyer إلى أن غوتلند كانت قاعدة للقرصانة، وليست مركزاً أو سوقاً تجارياً، لكن هذا الرأي يؤثر على توزيع العملات المعدنية بين المواقع وحسب، لكنه لا يؤثر على المكان الذي جاءت منه، وهو الشرق، سواء حدث ذلك من خلال التجارة أم الجزية أم النهب الصريح من جانب الروس[٧٦]. ويقدم عالما الآثار كلارك وأمبروسياني Clarke and Ambrosiani في مسحهما المدقق للأدلة في بلدات عصر الفايكنغ دعماً كافياً لربط التوسع المعاصر لمواقع مثل بيركا وهديبي وغوتلند وسلع القبور الأنيقة فيها بتدفق الفضة الإسلامية، مع أنهما لا يستشهدان ببولين مطلقاً[٧٧]. ويقدم المؤلفان وصفاً لما كان بالتأكيد صناعة مزدهرة استخدمت الإمدادات المحلية الوفيرة من قرون الإلكة والرنة والأيل وقرون حيوانات أخرى وعظامها، لصنع تشكيلة من الأدوات الشخصية كالأمشاط والدبابيس، التي توجد في مواقع تمتد من روسيا إلى أيرلندا. وكان الخرز والفخاريات والزجاج تنتج أيضاً في هديبي ومراكز أخرى.

لم تكن الدول الاسكندينافية وبولندا تمتلك عملات منفصلة إبان القرنين التاسع والعاشر، وربما كانت الدراهم منتشرة باعتبارها العملة المتداولة للعمليات اليومية، وأيضاً كمخزن للقيمة. وكثيراً ما تؤخذ العملات المعدنية التي قُطِّعت إلى أجزاء فيما يعرف باسم "الفضة المجزأة" دليلاً على ذلك. أما الكارولينجيون والأوتونيون الذين كانوا يُصْدِرون عملات فضية، فكانوا يعيدون سكّ الدراهم لذلك الغرض. وترتفع الدراهم المكتشفة في الاكتشافات الروسية والغربية كثيراً طوال أغلب القرن العاشر، قبل أن تجف تماماً بعد العام ٩٧٥ تقريباً. على أن أسباب هذا التوقف المفاجئ غير واضحة، وقد قُدِمت فرضيات مختلفة، منها استنزاف المناجم السامانية في آسيا الوسطى وأفغانستان. ربما يكمن التفسير الأكثر ترجيحاً في التحولات الجيوسياسية في عالم آسيا الوسطى من نوع تدمير الروس لكل من بلغار الفولغا والخزر في هذا الوقت تقريباً، وانهيار السلالة السامانية نفسها في نهاية القرن العاشر.

يتبنى هودجز ووايتهاوس Hodges and Whitehouse فرضية بولين بقوة، ويدفعان بأن الإصلاح النقدي الذي نفذه شارلمان في العام ٧٩٤ وإدخاله الدنير أو البنس الفضي "الثقيل" تطلبا كمية من الفضة لم تكن توفرها الموارد الغربية وحدها، وأن الدراهم الإسلامية التي كانوا يحصلون عليها من خلال التجارة في مراكز مثل هديبي ثم يعيدون سكّها هي التي لبت هذا الطلب[٧٨]. وهما بذلك يريان أن العرض النقدي الحقيقي المطلوب لدعم التوسع الاقتصادي لأوروبا الكارولينجية حدث كنتيجة غير مباشرة للتجارة الشرقية للفايكنغ مع العالم الإسلامي. لكن لا بد أن ننبّه إلى أن كارل موريسون Karl Morrison شكّك في احتمال أن تكون الفضة الإسلامية القادمة من اسكندينافيا قد لعبت هذا الدور الكبير دون أن تترك أدلة مباشرة من أي نوع. فلم يُعثَر على مخابئ لهذه العملات المعدنية غرب الراين ولا توجد أية إشارات إلى صهرها وإعادة سكها في دور سكّ العملة الكارولينجية[٧٩]. في حين يشير بولين إلى حقيقة مثيرة، وهي أن "يهودياً من الأندلس" وجد في ماينتس(٦٩) في العام ٩٦٥ دراهم سامانية سُكّت في سمرقند في العام ٩١٣[٨٠]. ويحدد سبوفورد هذا اليهودي بأنه إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي(٧٠) الذي أوفده أمير قرطبة في مهمة دبلوماسية، وينبّه إلى أن معظم هذه العملات المعدنية ربما كان أوتو الأكبر دوق سكسونيا يعيد سكّها في دار السكّ بماغديبرغ في راينلند، إن لم يكن في مكان أبعد إلى الشرق[٨١].

وسجل الرحالة الأندلسي أيضاً دهشته من وفرة وتنوع السلع الهندية المتوفرة في ماينتس. وهناك بالتأكيد أدلة قوية تؤكد أن اتصالات أوروبا الشمالية بالدول الإسلامية عن طريق أنهار الدنيبر والدون والفولغا كانت ذات تأثير إيجابي على النمو الاقتصادي الغربي إبان القرنين التاسع والعاشر، حيث كانت صادرات العبيد وغيرها تموّل تدفقات الفضة، ما ساعد في التحول النقدي monetization للاقتصاد الأوروبي الذي

---

(٦٩) ماينتس Mainz عاصمة ولاية راينلند بالاتينات في جنوب غرب ألمانيا وأكبر مدنها [المترجم].

(٧٠) نسبة إلى طرطوشة Tortosa المدينة الإسبانية الواقعة بمقاطعة ترغونة بكاتالونيا التي كانت جزءاً من الأندلس الإسلامية، وإبراهيم بن يعقوب طبيب وجغرافي ورجل دولة أندلسي، كلّفه الخليفة الأندلسي الحكم الثاني المستنصر بالله برحلة جغرافية إلى أوروبا الوسطى والشرقية لجمع معلومات عنها [المترجم].

كان وقتذاك آخذاً في الاتساع والتتجير[٧١]. وعلى ذلك، فقد كان بولين محقاً في القول بأن "روريك" كان حلقة الوصل بين المسلمين والفرنجة، وأسهم بذلك في بدء التحول الحاسم في مركز الجاذبية للاقتصاد الأوروبي بعيداً عن البحر الأبيض المتوسط في اتجاه الشواطئ الشمالية، وستكون تلك إحدى السمات البارزة للتاريخ الاقتصادي الأوروبي على مدار الألفية اللاحقة. نختتم هذا الفصل برواية موجزة للتجارة والتقدم الاقتصادي في أوروبا الغربية خلال هذه الفترة المهمة.

اقتصاد أوروبا الغربية

ثمة جدل قديم حول طبيعة اقتصاد أوروبا الغربية إبان القرون الوسطى المبكرة[٧٢]. لكن من المسلمات، مع ذلك، أن العالم الكارولينجي كان أقل تمدناً بكثير من العالم الروماني أو العالم الميروفنجي المبكر. فيمكن وصف الإمبراطورية الرومانية بإيجاز بأنها كانت "تقوم على شبكة من ألفي مدينة تنفق عليها الضرائب على الإنتاج الزراعي"[٨٢]. وعاشت النخبة الحاكمة والدينية في المدن التي كانت كل واحدة منها مزودة بالبنية التحتية المادية الضرورية ممثلة في السوق أو الساحة العامة والمدرج والحمامات العامة والكاتدرائية (بعد اعتماد المسيحية إبان القرن الرابع)، فضلاً عن كل القوة العاملة اللازمة لتزويدها بأسباب الحياة المتمدنة. وكان الدخل اللازم للإنفاق على هذه البنية الفوقية الواسعة والجيش الدائم المكون من أكثر من ستمئة ألف جندي في الأزمان الإمبراطورية يأتي من الضرائب على القطاع الزراعي الذي تألف في الأساس من ضِياع كبيرة تعتمد على عمل العبيد، وكذلك الضرائب على التجارة. ونتيجة لغارات البرابرة والحروب، وفي المقام الأول نتيجة لتفشي الطاعون الدبلي في العام ٥٤٢ في عهد جوستنيان، حدث نقص في السكان بنسبة ٢٠-٢٥٪، جعل الإبقاء

---

(٧١) التتجير commercialization هو عملية أو دورة إدخال منتج أو طريقة إنتاج جديدة في السوق. وللكلمة أيضاً معنى مجازي، حيث تستخدم بمعنى تشييء وتسليع الأشياء التي لا تُشيّئ ولا تُسلَع [المترجم].

(٧٢) تغطي العصور الوسطى القرون من الخامس حتى الخامس عشر، وتصنف إلى القرون الوسطى المبكرة من القرن الخامس إلى العاشر، والعصور الوسطى المتوسطة من القرن العاشر إلى الثالث عشر، والعصور الوسطى المتأخرة التي تغطي القرنين الرابع عشر والخامس عشر [المترجم].

على كثير من هذه المدن عند الحد الأدنى الضروري أمراً مستحيلاً ، ما أدى إلى نقض الطابع الحضري للمجتمع بالكامل تقريباً في الحقبة الكارولينجية.

فغدت الطبقة الحاكمة المدنية والعسكرية والدينية تقيم في الريف ، في الضياع والأديرة والأبرشيات ، ومعها حاشياتها المكوّنة من الأتباع والأنصار والخدم ، وتحيط بها أسر الفلاحين التي كانت تعيل أنفسها من الأرض وتقدم الإيجارات والعمل الإلزامي في الأرض المرتبطين بها. وفي هذه الظروف يسهل تخيل ، كما يذهب كثيرون ، منهم بيرين ، أن ذلك كان نظاماً قائماً على الاكتفاء الذاتي أو نظاماً "طبيعياً" ، في مقابل اقتصاد التبادل أو الاقتصاد "النقدي". لكن البحوث الأخيرة التي أوجزها فيرهولست Verhulst تبرهن بشكل قاطع على خطأ هذا الافتراض[٨٣]. فالضياع جميعها كانت تبيع موادَّ غذائية وموادَّ أولية ومنتجات مصنعة في أسواق ومراكز إقليمية مختلفة ، وتشتري في مقابل ذلك السلع التي لم تكن تنتجها ، أو التي لم تكن تنتجها بدرجة كافية في حقولها وورشها. معنى ذلك أنه يمكن النظر إلى هذه الضياع باعتبارها "دولاً" ، كما في النظرية القياسية للتجارة الدولية ، تمتلك قوة العمل والأرض ورأس المال وجملة من تفضيلات المستهلكين ، وتستخدم أسعار السوق لتعظيم قيمة إنتاجها واستهلاكها "بتصدير" السلع الفائضة و"استيراد" السلع الناقصة بأسعار السوق المحددة. كما أن المدن في ذاتها ، وفقا للمنطق الاقتصادي الصارم ، ليست لازمة ولا كافية لوجود اقتصاد السوق. فقد كان من الممكن إنتاج كميات كبيرة من الحبوب والنبيذ والأقمشة الصوفية والكتانية وكثير من المواد المصنعة وتوزيعها بهذه الطريقة.

كان الدور الكبير الذي لعبته الأديرة والأبرشيات الكبيرة في الاقتصاد إحدى السمات الأساسية للنظام الكارولينجي ، وهو ما نتج عن تركز الأرض ورأس المال والعمل في أيديها بسبب الحماسة الدينية في ذلك العصر ، التي أدت إلى تبرع الحكام وأقطاب المجتمع والمواطنين العاديين بهذه الأصول لها. وبفضل ما تمتعت به الأديرة من شبه احتكار للتعليم والكفاءة الإدارية ، فقد كانت أيضاً في وضع يؤهلها لاستغلال هذه الموارد وإدارتها بطريقة فعالة. وإضافة إلى الدور البارز الذي لعبته المؤسسات الدينية في الإنتاج الزراعي والصناعي للاستخدام المدني ، فقد أشرفت أيضاً على توفير

الجنود من صفوف السكان التابعين لها، وعلى صناعة الأسلحة على نطاق واسع لتجهيزهم. وبذلك لم تعد القوات المسلحة للنظام هي الجيش الدائم لدى الإمبراطورية الرومانية أو فرق الحرب لدى قبائل الفرنجة، وإنما التجنيد العفوي المفروض على كل ملاك الأراضي وعامة الناس ورجال الدين على حد سواء. وكان صهر الحديد وصنع الأسلحة والأدوات الزراعية يتم في ورش متخصصة، أو تؤديه قوة عاملة ملحقة بمناطق الإقطاعيين كجزء من التزاماتهم الإقطاعية. ليس غريباً- إذن- أن نعرف أن الدولة فرضت ضوابط صارمة على بيع الأسلحة، وأن هذه الضوابط كانت غير مؤثرة في أغلب الأحيان. ولذلك كانت أنصال السيوف الفرنجية عالية النوعية التي كان الأفضل من بينها يحمل علامة الصانع "أولفبيرت" Ulfberht، سلعة قيّمة في التجارة الدولية من إنجلترا إلى روسيا والعالم الإسلامي، على الرغم من هذا الحظر.

وكان صنع السلع المختلفة يعكس تخصصات إقليمية واضحة، مثل الأقمشة الفريزية[٧٣] التي كان هذا الشعب ينسجها ويبيعها، وكانت عالية النوعية لدرجة أن شارلمان أرسل شحنة منها هدية إلى هارون الرشيد. وثمة نوع خاص من الآنية الفخارية يعرف باسم آنية بادورف Badorf، من اسم قرية واقعة بين بون وكولونيا، كانت سلعة شهيرة أخرى متداولة في جميع أنحاء أوروبا، وقد عُثِر عليها في كثير من المواقع الأثرية، منها بيركا وهديبي. وكان الزجاج عالي النوعية هو الآخر ينتج ويباع على نطاق واسع.

ثمة ثلاثة تجديدات تقنية شهيرة أسهمت في رفع الإنتاج الزراعي، وهي المحراث الحديدي الثقيل الذي تجره مجموعات من الثيران أو الخيول، وطوق العنق للخيول، والدورة الزراعية ثلاثية المحاصيل. وأصبحت معالجة الحبوب تجري بطريقة أكفأ كثيراً في طواحين الهواء التي انتشر استخدامها إبان القرن الحادي عشر[٨٤]. وأدى النمو السكاني، بعد التعافي من دمار طاعون جوستنيان، وإزالة

(٧٣) الفريزيون Frisians جماعة عرقية جرمانية قطنت منطقة فريزيا Frisia بالأجزاء الساحلية من هولندا وألمانيا [المترجم].

مساحات شاسعة من الغابات، فضلاً عن هذه التجديدات الأساسية، إلى زيادات كبيرة في إنتاج الحبوب، مصحوبة بزيادة في زراعة الكرم والزيتون.

كانت التجارة بين المناطق في السلع الضخمة كالحبوب والملح والنبيذ يقوم بها تجار متخصصون ووكلاء للضِياع الكبرى. فكان الملح ينتج على ساحل المحيط الأطلسي غرباً ويوزع من نانت(٧٤) بالمراكب على طول نهر اللوار، وكان ينتج أيضاً في مدينة ميتز Metz في الشمال الشرقي، وفي مدينة رايشنهول Reichenhall في ألمانيا التي كان يُشحَن منها بالسفن إلى باساو(٧٥)، ثم يرسل شرقاً على طول الدانوب إلى حدود الإمبراطورية على أيدي التجار البافاريين الذين كانوا معفيين من المكوس على المنتجات الأجنبية التي كانوا يرجعون بها في رحلة العودة[٨٥]. وكانت مدينة ماينتس مركزاً مهماً لجمع الحبوب من الأقاليم الألمانية الشرقية، وكذلك النبيذ، وإرسالهما شمالاً عبر الراين إلى السوق الرئيس في دورستاد(٧٦)، حيث يعاد تصديرها إلى اسكندينافيا وإنجلترا. وكان الفريزيون متعهدي هذه التجارة، وكانوا أيضاً يصدّرون الآنية الفخارية والزجاج بكميات كبيرة جداً إلى اسكندينافيا. كما كانت الأحجار المقطعة سلعة مهمة أخرى تُنتَج في ألمانيا ويبيعها الفريزيون في منطقة بحر الشمال والبلطيق.

كان النبيذ ينتج في ضِياع دير سانت جيرمين دي بري Saint Germain des Pres بكميات تفوق متطلباته كثيراً، ولذلك كان الفائض يُشحَن على طول نهر السين إلى باريس للبيع في سوق سان دوني St Denis الذي كان سوق النبيذ الرئيس في أوروبا، حيث يشتريه التجار الفريزيون والأنجلوسكسونيون. وقد وصف جيليما Jellema دور الفريزيين في تجارة المسافات الطويلة بشمال أوروبا في ذلك الوقت بأنه يشبه دور الرابطة

(٧٤) نانت مدينة تقع في بريتاني بغرب فرنسا، تشتهر بمرسوم التسامح الديني الذي ارتبط باسمها الذي منح فيه ملك فرنسا هنري الرابع للبروتستانت الكالفينيين المعروفين بالهوغونوت حقوقهم الأساسية في فرنسا التي كانت لا تزال كاثوليكية وقتذاك [المترجم].

(٧٥) باساو Passau مدينة في بفاريا الدنيا بألمانيا [المترجم].

(٧٦) دورستاد Dorestad مدينة هولندية تقع عند مفترق نهري الراين والليك Lek، كانت في العصور الوسطى المبكرة أكبر مستوطنة في شمال غرب أوروبا [المترجم].

الهانزية[٧٧] بعد خمسة قرون تقريباً، وإن كان على نطاق أضيق. فقد كانوا متواجدين في المراكز التجارية من يورك ولندن في إنجلترا، إلى ماينتس وكولونيا على نهر الراين، وريغنسبرغ Regensburg على الدانوب، وبيركا وهديبي في اسكندينافيا[٨٦]. وكانوا البحارة البارزين في أوروبا قبل ظهور الفايكنغ، ذلك الشعب المؤثر الذي قطع البحار الشمالية ذهاباً وإياباً إبان القرون الوسطى وكأنها ممرات من اختراعهم (على أن ذروة استخدام هذه البحار حدثت لاحقاً إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر حين جعلتها الرابطة الهانزية الممرات الأساسية لتجارتها)[٨٧].

لم يكن الأنجلوسكسونيون يقلون عن الفريزيين في الطاقة والدافع التجاريين. وكانت إنجلترا في عهد الملك ألفريد وخلفائه دولة متماسكة وغنية تتاجر على نطاق واسع مع العالمين الكارولينجي والاسكندينافي. وضمت، إضافة إلى يورك ولندن، مركزاً تجارياً مهماً في هامويك Hamwic بالقرب من ساوثمبتون Southampton الحديثة، في مقابل ميناء كوينتوفيك Quentovic الكارولينجي على الجانب الآخر للقنال. وقد بدا إنتاج الأقمشة الصوفية وتصديرها في الظهور كسمة مميّزة للاقتصاد الإنجليزي من هذه الأزمان المبكرة. وكانت عملة الملوك الإنجليز، وبخاصة الملك أثلستان[٧٨]، مطلباً للكثيرين وتظهر في الاكتشافات الأثرية الباقية في جميع أنحاء الأقاليم الشمالية.

ليس مصادفة- إذن- أن تتمحور مناقشتنا للنشاط الاقتصادي في أوروبا الغربية حتى الآن بالدرجة الأولى حول منطقة البلطيق وبحر الشمال وجانبي الراين التي أصبحت الشرايين الرئيسة للتجارة، وهو الدور الذي لعبته مرسيليا ووادي الرون في الأزمان الرومانية والميروفنجية. لقد عرضنا حجتي بيرين وبولين حول انتقال مركز الجاذبية الاقتصادية من البحر الأبيض المتوسط إلى الشمال. ومع ذلك فقد ظل البحر الأبيض المتوسط مرتبطاً بأوروبا الوسطى والشمالية، عبر ممرات جبال الألب وعلى

---

(٧٧) الرابطة الهانزية Hanseatic League أو هانزا Hansa اتحاد تجاري ودفاعي من الطوائف التجارية وأسواق المدن التابعة لها، سيطر على التجارة على طول ساحل أوروبا الشمالية، وامتد من بحر البلطيق إلى بحر الشمال والمناطق الداخلية في العصور الوسطى المتأخرة والعصر الحديث المبكر [المترجم].

(٧٨) إثلستان Athelstan (من نحو العام ٨٩٣/٨٩٥ إلى ٢٧ أكتوبر ٩٣٩) ملك السكسون الغربيين من العام ٩٢٤ إلى العام ٩٢٧ وملك الإنجليز من العام ٩٢٧ إلى العام ٩٣٩ [المترجم].

طول نهر الراين إلى الشمال، وعلى طول نهر الدانوب إلى الشرق. ويبدو أن محطات المكوس على هذه الممرات كانت تجمع عائدات كبيرة، بنسبة معتدلة قدرها ١٠٪ من قيمة السلع. ولذلك كانت إيطاليا طريقاً مهماً للتجارة مع الشرق البيزنطي والإسلامي.

كانت باري Bari ميناءً مهماً سيطر عليه العرب من العام ٨٤٠ إلى العام ٨٧٠. ولاحقاً أصبحت أمالفي على الساحل الغربي، ثم جنوى وبيزا مراكز تجارية مهمة. وبداية من القرن الثامن بدأت البندقية الواقعة في البحيرات على رأس الأدرياتيكي بالاستفادة من صلاتها بالإمبراطورية البيزنطية في تأكيد قدرها التاريخي باعتبارها حلقة الوصل بين الشرق والغرب. ومن بين المدن الداخلية، كانت بافيا Pavia، عاصمة لومبارد السابقة، مركزاً رئيساً، وكانت تجارتها كبيرة مع البندقية على طول نهر البو Po. ويقال إن الهجوم المجري الكبير على إيطاليا في العام ٩٢٤ أحرق أربعاً وأربعين كنيسة في بافيا، وهذا دليل على القدرات التدميرية للمجريين، لكنه بيّنة أيضاً على حجم المدينة وثرائها. وأخذت رافينا Ravenna تتراجع تدريجياً، وانخفض عدد سكان روما من مليون شخص في أوج الإمبراطورية الرومانية إلى ما بين ثلاثين وأربعين ألفاً. ومع ذلك، ظلت روما مركزاً مالياً، فضلاً عن أهميتها الدينية لكوّنها مقر البابوية والمقصد الرئيس للحج الكثيف من جميع أنحاء العالم المسيحي. وفي الريف لعبت الضِياع الكبرى العامية والإكليروسية الدور نفسه الذي لعبته في فرنسا، حيث انتقلت الحرف والإنتاج الصناعي ضيق النطاق من المدن إلى ورش هذه الضِياع.

بإيجاز، تشير الأدلة بوضوح إلى أن التجارة والتتجير كانا سمتين أساسيتين لاقتصاد أوروبا الغربية الآخذ في التحول إلى الطابع النقدي في هذه الفترة. وثمة خاصية أخرى مهمة للاقتصاد الكارولينجي يجب ألا نتجاهلها، وهي الدور المستمر الذي لعبه فيه النهب المنظم ونزع ممتلكات الدول والقبائل المجاورة، وهو سلوك ارتبط عادة بالفايكنغ أو بدو السهل فقط. ويدفع رويتر Reuter بأن هذا السلوك كان عنصراً أساسياً في النظام العسكري الفرنجي، إذ كان ضرورياً لمكافأة حاشية المحاربين من الحكام وعِلية القوم[٨٨]. فكانوا ينتزعون مبالغ ضخمة من الأفار واللومبارديين والسكسونيين، ومبالغ أقل من الباسك والبريتون والفريزيين. وكانت الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية توفر

فرصاً للنهب على حساب القبائل السلافية أكثر من الغرب الأكثر استقراراً، وهو ما قد يفسر انحلال المنطقة الأخيرة إلى الفوضى الإقطاعية، فيما كانت المنطقة الأولى أكثر نجاحاً في الحفاظ على وحدة الأسر الحاكمة من خلال قدرتهم على أن يوفروا لأتباعهم فرصاً أكثر للنهب. وقد كان سبي الأفراد من القبائل السكسونية قبل اعتناقها المسيحية وبيعهم عبيداً، ومن السلاف بعد ذلك، جانباً مهماً من هذه العملية.

لا يزال التأثير الاقتصادي لغارات الفايكنغ على المناطق الساحلية للبلاد الواطئة[٧٩] وفرنسا وبريطانيا إبان القرنين الأخيرين من الألفية الأولى غامضاً، لكن الروايات التقليدية للمذابح الجماعية والإرهاب المفرط من جانب المفترسين الشماليين لم تعد تلقى تسليماً من المؤرخين المجددين. فنهب أديرة وموانئ مثل دورستاد أدى- بلا شك- إلى إيقاع الفوضى بالنشاط الاقتصادي، لكن ثمة أدلة كثيرة أيضاً على أنه لم يغير بدرجة ملحوظة الاتجاه العام الصاعد. وبعد أن تخلى الفريزيون عن دورستاد غير المنيعة على مصب الراين، نقلوا تجارتهم إلى أماكن مثل تيل Tiel وأوتريخت Utrecht كانت منيعة على المغيرين. ويبدو أن النمو السكاني لم تكبحه هذه الغارات كثيراً. ويشير لويس Lewis في واحد من أكثر البحوث اكتمالاً لهذه القضية إلى أن دور سكّ العملة في شمال فرنسا وغربها واصلت عملها، وأن تجارة المحيط الأطلسي لم تتراجع، بينما توسعت التجارة الألمانية شرق الراين[٨٩]. ورواية إبراهيم بن يعقوب، التي استشهدنا بها آنفاً، حول وفرة سلع الترف الشرقية فيماينتس في العام ٩٦٥ دليل جيد على ذلك. كما رأينا أيضاً في القسم السابق أن تدفق الفضة الإسلامية إلى أقاليم البلطيق ازداد على مدار القرن العاشر، ما حفز النمو الاقتصادي في الدولة البولندية التوسعية الجديدة نتيجة للتجارة مع كل من روسيا واسكندينافيا.

ربح الفايكنغ الكثير من غاراتهم المدمرة، إذ كان حكام دول أوروبا الغربية يرشونهم بكميات هائلة من المعدن النفيس في شكل عملات أو سبائك. لكن ماذا فعلوا بالثروة التي حصلوا عليها بهذه الطريقة؟ بالنسبة لدارس الاقتصاد يشكل هذا السؤال مثالاً "لمشكلة التحويل" المألوفة التي قد يكون من أشهر أمثلتها التعويضات الألمانية بعد

---

(٧٩) البلاد الواطئة هي هولندا، وقد سميت بذلك لأن أرضها الأكثر انخفاضاً في أوروبا [المترجم].

الحرب العالمية الأولى التي أدت إلى جدل كبير بين مايناردا كينز وبيرتل أولين[٨٠]. مؤكد أنهم اكتنزوا بعض الثورة، وأنفقوا بعضها- بلا شك- على السلع والخدمات داخل أقاليم الفايكنغ أو خارجها. وفي الحالتين يؤدي "التحويل المالي" الأصلي في النهاية إلى "تحويل حقيقي" بالقدر نفسه في شكل فائض صادرات في جانب البلاد الضحية وفائض واردات مماثل في جانب أقاليم الفايكنغ، مع عودة توزيع أصول المعدن النفيس في النهاية إلى حالته الأولية. ويمكن أن تحدث إعادة توزيع للدخل الحقيقي، لكن لا يشترط أن يحدث أي انخفاض للدخل الحقيقي إجمالاً. بل إذا حدث في البداية عدم استغلال للموارد الاقتصادية، فإن النتيجة الإجمالية يمكن أن تكون توسعاً في الدخل الحقيقي الإجمالي.

وهذا التحليل لظاهرة الجزية الفايكنغية يمكن أن يساعد في تفسير لماذا لم يؤد نهب الفايكنغ بالضرورة إلى إلحاق أضرار بالاقتصاد الكلي لأوروبا الغربية على النحو المتوقع. فالرعب والدمار كان بمقدورهما تأكيد مصداقية تهديد الفايكنغ، وبعد ذلك يمكن لتسوية مالية متفق عليها أن تخفض "خسارة حمل السكون"[٨١] الصافية للإصابات والدمار المادي التاليين. وقد حلل سيمون كوبلند Simon Coupland مسألة تأثير الثروات التي كانت تدفع للفايكنغ على الاقتصاد الفرنجي الغربي في عهد شارل الأصلع من العام ٨٤٠ إلى العام ٨٧٧، وخَلُص إلى أنها كانت ناجحة عادة في منع

---

(٨٠) ظهرت "مشكلة التحويل" transfer problem إبان العقد الثالث من القرن العشرين عند مناقشة دفع ألمانيا للتعويضات المفروضة عليها بعد الحرب العالمية الأولى. وكان السؤال العملي هو عما إذا كانت دفعات التعويضات أكبر من قدرة ألمانيا على السداد. في البداية، اِعتُقد أن المشكلة تتعلق بالموازنة فقط، بمعنى قدرة ألمانيا على خفض الامتصاص المحلي لتوفير دفعات التعويضات. فيما دفع مايناردا كينز Maynard Keynes بأن عبئاً ثانوياً سيظهر بسبب التغير في شروط التبادل التجاري نتيجة للتحول في أنماط الإنفاق عبر الدول. بينما رد عليه بيرتل أولين Bertil Ohlin بأنه تجاهل تأثير التحويل على الطلب في الدول المتلقية للتعويضات، وأنه ليس هناك احتمال لأن يكون للتحويل عبء ثانوي [المترجم].

(٨١) يشير مفهوم "خسارة حمل السكون"Deadweight Loss إلى التكاليف التي يتحملها المجتمع نتيجة لعدم كفاءة السوق، ويشير به الاقتصاديون إلى أي خلل في تخصيص الموارد. والحد الأقصى للأسعار (في شكل ضوابط الأسعار والإيجارات) والحد الأدنى للأسعار (في شكل قوانين الحد الأدنى للأجور) والضرائب تخلق جميعها خسائر من نوع حمل السكون. وإجمالاً تحدث خسارة حمل السكون حين لا يكون هناك توازن بين العرض والطلب [المترجم].

الأعمال العدائية والدمار، وأن فرض الضرائب لجمع المبالغ المطلوبة من الوجهاء والكنيسة والفلاحين لم يلحق أي ضرر أو اضطراب اقتصادي كبير، على خلاف الآراء الكثيرة في الأدبيات السابقة[٩٠].

ثمة عامل آخر ربما أدى في النهاية إلى خفض التكلفة وهو التحول من اللصوصية "التنافسية" إلى اللصوصية "الاحتكارية"، أو من اللصوصية "المتجولة" إلى اللصوصية "المستقرة" بتعبير مانكور أولسون Mancur Olson[٩١]. فغارات الفايكنغ التي كانت تنفذها مجموعات صغيرة مستقلة عن بعضها البعض لم توفر الحافز لتجنب قتل الإوزة الذي تفقس البيض الذهبي بإخراج المدينة الضعيفة أو المحطة التجارية من العمل تماماً. في حين أن تنفيذ مثل هذه الغارات بقيادة زعيم دولة كبيرة مثل الملك الدنمركي سفين فوركبيرد Svein Forkbeard أو ابنه نوت Knut، كما حدث في إنجلترا في أوائل القرن الحادي عشر، كان من شأنه أن يحل مشكلة العمل الجماعي من هذا النوع. ويشير لويس إلى أن هجمات الفايكنغ حدثت على موجتين، اتخذت الأولى شكل غارات منفصلة محدودة النطاق، فيما اتخذت الثانية شكل ابتزاز أكثر تنظيماً وحتى سيطرة إدارية، كما في حالة الغزو الدنمركي لإنجلترا في النصف الأول من القرن الحادي عشر[٩٢].

ثمة طريقة بديلة لرشوة الفايكنغ تشبه التكتيك الصيني القديم "باستخدام البرابرة لمحاربة البرابرة" وتتمثل في منحهم أراضي في المناطق الساحلية الإستراتيجية وتركهم يدافعون عنها ضد أبناء جلدتهم السابقين. ومن أبرز أمثلة هذه الطريقة المنطقة المجاورة لروان Rouen التي منحها شارل البسيط Charles the Simple إقطاعية لزعيم الفايكنغ رولو Rollo. وكانت هذه الإقطاعية أصل دوقية نورمندي التي قدر لها لاحقاً أن تلعب دوراً مهماً جداً في التاريخ الأوروبي والعالمي. ويبدو أن الاسكندينافيين اندمجوا سريعاً في اللغة والثقافة المحلية، لكن زعماءهم أظهروا قسوة أجدادهم وجرأتهم، إلى جانب قدرة حادة جداً على "بناء الدولة"، كما أثبتت الدوقية نفسها، وكما ثبت في إنجلترا وأيرلندا بعد الغزو النورمندي، وكذلك في جنوب إيطاليا وصقلية.

وبناءً على ما تقدم، فإن الإجابة عن السؤال: هل كان الفايكنغ قراصنة أم تجاراً أم مستوطنين؟ هي أنهم كانوا- بلا شك- يتحولون من دور إلى آخر بناءً على الفرص والظروف. والفايكنغ كمستعمرين ومستوطنين كانت إنجازاتهم عظيمة في شمال المحيط الأطلسي، فأقاموا مستوطنات على جزر أوركنيز Orkneys وفيروز Faeroes وآيسلندا وغرينلند، وكانت لهم محاولة رائعة، وإن كانت فاشلة، على يابسة أمريكا الشمالية. فقد أسهم الفايكنغ- بلا شك- أكثر من كل الشعوب الأخرى، ليس شعوب أوروبا الغربية وحدها، بل الشعوب على كامل اليابسة الأوراسية، في توسيع الآفاق الجغرافية لزمانهم.

الفصل الثالث

التجارة العالمية إبان الفترة ١٠٠٠–١٥٠٠

النتائج الاقتصادية لإمبراطورية جنكيز خان

WORLD TRADE 1000-1500:

THE ECONOMIC CONSEQUENCES OF GENGHIS KHAN

ينصب تركيزنا في "التجارة العالمية" من العام ١٠٠٠ إلى العام ١٥٠٠ بالدرجة الأولى على التجارة بين الوحدات الإقليمية التي حددناها في الفصل الأول، مع الانتباه في حال الضرورة إلى التطورات داخل هذه المناطق. لقد لاحظنا فيما سبق أن التجارة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود شملت العالم الإسلامي وكلاً من أوروبا الغربية والشرقية. وربط المحيط الهندي بين العالم الإسلامي وشرق أفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا، فيما ربط بحر الصين الجنوبي الصين بالأرخبيل الإندونيسي بطريقة مباشرة، وبالهند والعالم الإسلامي بطريقة غير مباشرة. وكان البحر الأحمر والخليج العربي البوابة البحرية المهمة بين الشرق والغرب خلال هذه الفترة، تماماً كما كانا منذ الأزمان الرومانية وما قبلها. وكان الطريق البري هو الممر البديل الذي ربط الصين بالعالم الإسلامي وكل من أوروبا الشرقية والغربية عبر آسيا الوسطى. وعلى ذلك، فمن الملائم أن ننظم مناقشتنا في هذا الفصل تحت العناوين الفرعية: (١) البحر

الأبيض المتوسط والبحر الأسود، (٢) المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي، (٣) التجارة البرية من الصين إلى أوروبا عبر آسيا الوسطى. ونظراً لأن الفترة الطويلة التي نفحصها في هذا الفصل شهدت تحولات حاسمة في السيطرة على هذه الطرق التجارية، كانت لها نتائج تاريخية بالغة الأهمية، فقد يكون من المفيد أن نقسم الفترة كاملة إلى حقبتين متمايزتين، الأولى تمتد من العام ١٠٠٠ إلى العام ١٣٥٠ والثانية تمتد من العام ١٣٥٠ إلى العام ١٥٠٠، ويفصل بينهما التفشي الأول للطاعون.

إن البيانات الكمية المتاحة حول الجزء المبكر من هذه الفترة شحيحة لدرجة العدم، لكن يوجد قدر مذهل من المعلومات حول السلع التي كانت تصدّرها وتستوردها كل المناطق والدور الذي لعبه ذلك في النظم الاقتصادية لكل منطقة. سنبرز التغيرات في طرق التجارة وبعض التقديرات النوعية لحجم التجارة على طول هذه الطرق. ومع نهاية القرون الوسطى تغدو البيانات أوفر، خاصة بيانات الأسعار، وهو ما سننهل منه في الأقسام التالية من هذا الفصل.

لقد تقرر مصير التاريخ الاقتصادي لأوراسيا في نصف الألفية التي يغطيها هذا الفصل بفعل صدمتين كبيرتين (ومترابطتين)، واحدة جيوسياسية والأخرى بيولوجية. تمثلت الصدمة الأولى في توحيد المغول بقيادة جنكيز خان لمعظم اليابسة الأوراسية. وتمثلت الصدمة الثانية في كارثة الطاعون الذي تفشى في الوقت نفسه الذي تفككت فيه الإمبراطورية المغولية. ولذلك يعالج هذا الفصل النتائج الفورية وبعيدة المدى للصدمتين بالتفصيل. وثمة موضوع ثالث يتخلل الفصل، وهو الانبثاق التدريجي لأوروبا الغربية من منطقة خلفية ريفية ومنعزلة نسبياً بأوراسيا في بداية الفترة وتحولها إلى قوة توسعية هائلة في أنحاء الكرة الأرضية كافة بعد خمسة قرون. وبالنظر إلى مقولة هالفورد ماكيندر "المحور الجغرافي للتاريخ"، نقول إن نصف الألفية التي يغطيها هذا الفصل

شهدت بداية تحول القوة من "قلب" اليابسة الأوراسية الذي سيطر عليها منذ فجر التاريخ، إلى "حافة" الطرف الغربي لتلك اليابسة، الأمر الذي بلغ أوجه مع رحلات كرستوفر كولومبس وفاسكو دا غاما وفرديناند ماجلان، فضلاً عن الثورة العسكرية- الملاحية المُجَمّعة في "المدافع والأشرعة"[١].

التجارة والحرب في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود إبان الفترة ١٠٠٠- ١٣٥٠

كان البحر الأبيض المتوسط، أو "بحرنا" كما أطلق عليه الرومان، الطريق السريع الحيوي الذي أنتج الوحدة الاقتصادية لإمبراطوريتهم أكثر بكثير من طرقهم الشهيرة[١]. وكما لاحظنا في الفصل السابق، فإن ادعاء هنري بيرين الشهير بأن الصعود العربي المفاجئ إبان القرن السابع جعل البحر المتوسط "بحيرة إسلامية"، ما أدى إلى قطع التجارة بين أوروبا الغربية وبيزنطة وإلى هيمنة سياسة الاكتفاء الذاتي في أوروبا الغربية، لم يعد مقبولاً بين المؤرخين. بل ويدفع موريس لومبارد بأن العصر الذهبي للإسلام حفّز التجارة مع أوروبا الغربية، حيث وفر لها شريكاً تجارياً مزدهراً جداً. والتجارة بين العالم الإسلامي وأوروبا يمكن تحليلها ضمن إطار "المركز- المحيط"[٢]، وفيه تخصصت أوروبا في السلع كثيفة الموارد وكثيفة العمالة، بينما تخصص العالم الإسلامي في الصناعات الأكثر تقدماً. كان العبيد السلعة الأعلى كثافة في العمالة، مثلما كانوا السلعة التصديرية الأوروبية الرئيسة إلى العالم الإسلامي على مدى قرون، إلى أن جفف اعتناق السلاف الوثنيين المسيحية منبع هذه السلعة. ولذلك يمكن إرجاع

---

(١) أطلق الرومان على البحر الأبيض المتوسط اسم "بحرنا" Mare Nostrum، لأنه بالفعل كان بحيرة رومانية. كما اشتهرت الإمبراطورية الرومانية ببنيتها التحتية المتطورة، وبخاصة الطرق، ومن هنا جاءت المقولة الشهيرة: "كل الطرق تؤدي إلى روما"، حيث ربطت الإمبراطورية كل المدن والبلاد المفتوحة بطرق مرصوفة تؤدي جميعها إلى روما [المترجم].

(٢) حول تقسيم العالم أو الاقتصاد إلى "مركز" و"محيط"، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

التراجع في الحرف الحضرية والنشاطات المرتبطة بها الذي لاحظه بيرين إلى حالة من نقض التصنيع deindustrialization شهدها نظام اقتصادي كان أكثر توازناً في السابق، نتجت عن فرص الصادرات المربحة للمنتجات الأولية إلى شريك أكثر تقدماً وتطوراً من الناحية التقنية، وهو مثال مبكر لما يُعرَف حالياً باسم "المرض الهولندي"(٣)، وهو أيضاً الصورة المقابلة للتصنيع المتصاعد وتراجع صادرات الحبوب في حالة مصر الفاطمية الذي أشرنا إليه في الفصل السابق. وأياً كانت الأسباب، فلا شك في أنه في نحو العام ١٠٠٠، كانت أوروبا الغربية والجزء السلافي من أوروبا الشرقية غير المنضوي تحت الإمبراطورية البيزنطية، منطقة خلفية متخلفة بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي الأكثر تقدماً من الناحية الاقتصادية.

من المفيد أن نبدأ فحصنا للتجارة من "السوق الواقع على الحافة الغربية"[٢] الذي تتلاقى عنده الحافة الغربية لعالم البحر الأبيض المتوسط الإسلامي والحافة الجنوبية لأوروبا المسيحية. وقد رأينا في الفصل الأول أن السلالة الأموية الأصلية في أيبيريا والدولة المركزية المرتبطة بها قد تمزقت إلى عدد من الممالك الصغيرة في أوائل القرن الحادي عشر، عُرِفت باسم دول الطوائف. وقد مكّن تفكك الدولة الإسلامية المسيحيين من دفع حدودهم جنوباً وفرض إتاوات كبيرة على دول الطوائف، وفي النهاية الاستيلاء على المدينة الرئيسة طليطلة في العام ١٠٨٥. حثّ ذلك تدخل حكام المغرب البربر الذين أسسوا دولة موحدة عبر مضيق جبل طارق، هي دولة المرابطين. وتكررت الدورة السياسية للتفكك يليه التدخل من شمال أفريقيا إبان القرن الثاني

---

(٣) في الاقتصاد، يشير مفهوم "المرض الهولندي" Dutch Disease إلى العلاقة الواضحة بين الزيادة في استغلال الموارد الطبيعية والتراجع في قطاع الصناعة، ذلك أن الزيادة في العائدات من الموارد الطبيعية (أو التدفقات من المساعدات الأجنبية) تؤدي إلى تقوية عملة الدولة مقارنة بالدول الأخرى (كما يتجلى في أسعار الصرف)، الأمر الذي يرفع أسعار السلع الأخرى (غير الموارد الطبيعية) لهذه الدولة ويجعلها أصعب في شرائها، ما يجعل قطاع الصناعة بهذه الدولة أقل تنافسية [المترجم].

عشر مع دولة بربرية جديدة، هي دولة الموحدين التي تأسست في العام ١١٤٧. كانت هاتان الإمبراطوريتان البربريتان الموحدتان على جانبي المضيق مهيمنتين اقتصادياً وقويتين عسكرياً بفضل سيطرتهما على الوصول إلى موارد الذهب جنوب الصحراء. لكن فترات مجد هاتين الإمبراطوريتين كبحها في النهاية توسع أوروبا المسيحية الناهضة. فسقطت قرطبة وإشبيلية أمام قشتالة في منتصف القرن الثالث عشر، فيما نجحت أراغون في استعادة بلنسية وجزيرة ميورقة. وفي العام ١٣٥٠ لم يكن يبقى في أيدي المسلمين غير مملكة غرناطة.

رأينا في الفصل السابق أن الرخاء الاقتصادي للأندلس اعتمد على نقل المحاصيل والتقنيات الزراعية ونشاطات التصنيع من الشرق إلى الغرب داخل العالم الإسلامي. وجاء اعتناق السلاف للمسيحية ونجاح الاسكندينافيين في تطوير التجارة بين أوروبا والعالم الإسلامي على حساب منافسين مثل يهود الرذنية ليحوُل دون عبور الفراء القطبي والعبيد الأوروبيين الشرقيين عبر أيبيريا بأعداد كبيرة. واقتصر مصدر العبيد على الأسرى من الممالك الأيبيرية المسيحية، وحلت جلود الأرانب المتواضعة محل فراء السمور الشمالي الغالي. لكن، ظل ذهب غرب أفريقيا يتدفق عبر الأندلس، وبخاصة بعد أن يسكّه المرابطون في شكل عملة رائجة جداً، استخدمها كثير من الممالك المسيحية وقلدوها.

كان الخشب، كما ورد في مواضع سابقة، أحد الصادرات الرئيسة لإسبانيا الإسلامية في هذه الفترة، سواء في شكل أخشاب أو سفن. وكان الخشب يأتي في الغالب من غابات الصنوبر الواسعة بالمناطق الساحلية وجزر البليار، حيث كانت جذوع الأشجار تندفع فوق الماء في اتجاه جريان الأنهار إلى مراكز بناء السفن في دانية Denia وبلنسية، وكانت السفن تباع للمشترين المسلمين والمسيحيين حول البحر

الأبيض المتوسط. وكانت الأندلس تصدّر أيضاً عدة معادن، خاصة النحاس والزئبق والرخام والقصدير. وثمة سلعتان تصديريتان غريبتان وثمينتان، هما العنبر من ساحل المحيط الأطلسي والصبغ القرمزي المسمى القرمز. وثمة تشكيلة واسعة من المنسوجات عالية النوعية، بالدرجة الأولى الحرير، كانت تصدّر حول البحر الأبيض المتوسط. ومن المؤكد أن صناعة الحرير كانت إحدى الصناعات ذات القيمة المضافة العالية لأن الحرير الخام كان ينتج في الريف، حيث كانت سلسلة جبال سيرا نيفادا توفر مناخاً مواتياً لنمو شجرة التوت. وقد ذكر الجغرافيون ثلاثة آلاف مزرعة لدودة القز حول جيان Jaen وثمانمئة ورشة في المرية Almeria. وكان الحرير يصدّر خاماً ومشغولاً في شكل أقمشة مطرزة غالية ومنسوجات أخرى. وكانت المنتجات الكتانية والقطنية والصوفية تصدّر هي الأخرى، فيما كان الحرير والصوف يصدّران في شكل سجاد. ويبدو أن الصادرات إلى الدول المسيحية نمت سريعاً بعد العام ١١٠٠[٣].

وتذكر كونستابل Constable الجلد والورق والخزف كأمثلة لصادرات مصنعة مهمة أخرى من الأندلس. ولم تكن الأندلس تصدّر الورق وحسب، بل كانت أيضاً تجمعه بجلد عالي النوعية في شكل كتب غالية[٤]. وتذكر كونستابل أدلة تجارية من هذه الفترة تنصح التجار بألا يستثمروا في "الكتب الفلسفية، إذ لا يشتريها إلا الحكماء والعلماء، وغالبيتهم فقراء وأعدادهم قليلة"[٥]. وكان للورق سوق رائج بين البيروقراطيين والتجار الذين كانوا يحتاجونه لسجلاتهم ومراسلاتهم.

تزامن استرداد(٤) قشتالة وأراغون لمعظم شبه الجزيرة الأيبيرية، الذي بدأ في النصف الأول من القرن الثالث عشر مع بعض التحولات المهمة في نمط تجارتها واتجاهها. وكما تشير كونستابل، فإن التغير الأهم تمثل في تراجع الحرير وصعود

---

(٤) راجع حاشية سابقة للمترجم حول مفهوم "استرداد" الأندلس، في مقابل مفهوم "سقوط" الأندلس [المترجم].

الصوف باعتباره السلعة التصديرية الرئيسة من المنطقة. وقد تراجعت صناعة الحرير الإسلامية جزئياً بسبب تفرق قوتها العاملة الماهرة، لكن في المقام الأول بسبب المنافسة من مركز لوكا Lucca الإيطالي الناشئ، والوصول الأسهل إلى إمدادات الشرق الأقصى بسبب أفول بيزنطة بعد الحملة الصليبية الرابعة في العام ١٢٠٤ وإرساء السلام المغولي. وأدخل الحكام الجدد صناعة الصوف باستيراد أغنام المارينو من شمال أفريقيا إلى سهول قشتالة، وهو تجديد بالغ الأهمية، ونمت هذه الصناعة سريعاً، وأخذت تزوّد المدن الفلمنكية بالمادة الخام التي كانت تحتاجها لصناعاتها المزدهرة. وأصبح الحديد أيضاً سلعة تصديرية جديدة مهمة، فيما استمرت بعض الصادرات التقليدية مثل زيت الزيتون، رغم التحول من الحكم الإسلامي إلى الحكم المسيحي(٥). واستمرت تجارة العبيد، باستثناء أنه نتيجة لتقدم الاسترداد، أصبح الأسرى المسلمون هم الذين يُصَدّرون إلى الأراضي المسيحية، بدلاً من تصدير السلاف الوثنيين والأسرى المسيحيين إلى العالم الإسلامي[٦].

وكما رأينا، فقد شهدت بداية هذه الفترة وقوع شمال أفريقيا ومصر وسوريا وفلسطين تحت حكم سلالة فاطمية قوية (٩٦٩-١١٧١)، أقامت خلافة شيعية بديلة في القاهرة نِدا للخلافة العباسية التي كانت لا تزال باقية في بغداد والعراق. وعلى الرغم من البدايات الرائعة للدولة الفاطمية، فإنها تفككت تدريجياً تحت ضغط ثورات البدو والحرب مع البيزنطيين والصليبيين والخصومات العرقية داخل الجيش. وأخيراً، سقطت الدولة الفاطمية في العام ١١٧١ على يد البطل الكردي صلاح الدين الأيوبي الذي جنّد موارد مصر لحرب الصليبيين، وهزمهم أخيراً في العام ١١٨٧ في معركة حطين الحاسمة التي أدت إلى استعادة بيت المقدس وأغلب الأراضي الإسلامية

(٥) ازدهرت صناعة زيت الزيتون في الأندلس الإسلامية لأن المسلمين كانوا يستخدمونه في طعامهم، في مقابل استخدام المسيحيين لدهن الخنزير [المترجم].

المقدسة. أسس صلاح الدين الدولة الأيوبية التي حكمت مصر وسوريا وفلسطين حتى منتصف القرن التالي. وتمثلت نقطة الضعف في هاتين الدولتين في الأعباء التي فرضتاها على الزراعة وبقية الاقتصاد بسبب الحاجة إلى الاحتفاظ بجيوش كبيرة. وكان الضباط يُمنحون إقطاعات عسكرية، كانت قصيرة الأمد في عهد الفاطميين، لكنها أصبحت وراثية في عهد الأيوبيين. ولم ترتفع العائدات من ضرائب الأرض مع ارتفاع الإنفاق، ولذلك فُرِضت ضرائب ثقيلة جداً على الصناعة والتجارة. وهكذا ضعفت دولتا الفاطميين والأيوبيين وانهارت بفعل الإنهاك الذي فُرِض على نظام الدخل فيهما بسبب متطلبات جيوشهما الكبيرة والمنفلتة تماماً.

وفي العام ١٢٥٠، نفذ الجنود العبيد الأيوبيون المعروفون باسم المماليك، انقلاباً على السلطة، أبقاهم- للعجب- في الحكم إلى أن أُدْمِجت مصر في الإمبراطورية العثمانية في العام ١٥١٧. عرقياً، كانت هذه الكتائب تركية قبشاكية ولاحقاً شركسية، إضافة إلى شرذمة من الألبان والمجريين وغيرهم من أبناء أوروبا الوسطى والشرقية. كان هؤلاء الجنود يُسْبَوْن ويُشْتَرَوْن في عقدهم الثاني من العمر، ثم يُعطَون تدريباً عسكرياً صارماً قبل أن يُعتَقوا و"يتخرجوا" وينضموا إلى قوات النخبة بالجيوش. ولم يكن بمقدور أبناء المماليك أن يصبحوا مماليك أصلاء، لأنهم لم يقضوا صباهم في السهول ولم يُشتَروا عبيداً. ولذلك يطلق على المماليك اسم "أرستقراطية عسكرية من جيل واحد". وشغل منصب السلطان نفسه ضباط كانوا يختارون عبر عملية تنافسية تضمنت المكائد والاغتيالات بين فصائل تجمعت حول أمراء أو قادة عسكريين متنافسين. ليس غريباً أن يكون الناجون من هذه العملية الداروينية حكاماً متمكنين جداً في أغلب الأحيان[٧]. وقد توطدت مؤسسات الدولة المملوكية بقوة في عهد القائد والمدير الموهوب والنشط جداً السلطان الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧) ومعاصره ورفيقه في السلاح

السلطان المنصور قلاوون (١٢٧٩-١٢٩٠). ونجح الرجلان في دمج النظام العسكري المملوكي القائم على "رجال السيف" مع البيروقراطية المدنية القائمة بالدرجة الأولى على "رجال القلم" الأقباط والنظام القضائي لعلماء الدين المسلمين أو "رجال العمامة" في دولة مركزية عالية الكفاءة امتدت من النيل إلى الفرات واستطاعت أن تقاوم كل الدخلاء لأكثر من قرنين ونصف القرن.

كانت مكافأة الضباط والجنود تجري عبر منحهم ريوع من "إقطاعات" غير وراثية لم تكن متجاورة ولم تتطور إلى نظام إقطاعي من النوع الغربي. وكما سنرى، فقد ترتب على ذلك نتائج مهمة بعد قرن. وظلت العائدات من تجارة التوابل مصدراً مهماً للدخل. ويتمثل الإنجاز التاريخي الرئيس للمماليك- بلا شك- في هزيمتهم للمغول في معركة عين جالوت في فلسطين في العام ١٢٦٠ التي وضعت حداً لتقدمهم في العالم الإسلامي. ويرجع إليهم الفضل أيضاً في طرد الصليبيين من معاقلهم الباقية في أنطاكية وطرابلس وعكا. وبعد كارثة سقوط بغداد أمام المغول في العام ١٢٥٨، تولت القاهرة قيادة العالم الإسلامي وصارت مركز فنه وعمارته وتعليمه، وكذلك مقر الخليفة العباسي الذي أعطى الشرعية لحكم سلاطين المماليك. وبذلك يستحق المماليك بلا نزاع لقب "منقذي الإسلام" الذي منحه لهم ابن خلدون نفسه. غير أن تجديد صفوف المماليك، وفقاً لمنطق نظامهم الاجتماعي الغريب، كان يتطلب استمرار تدفق دماء جديدة منهم بشراء العبيد الصبية من الخلفيات العرقية المفضلة. ولذلك كانت التجارة مع مصدر هؤلاء العبيد عبر الدردنيل ضرورية لنظامهم، ولو فقط لإعادة إنتاج النظام، بعد أن قطع نواب الخان المغولي[٦] طرق الإمداد البرية.

---

(٦) نائب الخان أو الخان الثاني، كما سيرد لاحقاً، هو اللقب الذي اتخذه الحكام المغول لإيران والعراق بعد تفكك الإمبراطورية المغولية [المترجم].

نتحول فيما يلي إلى القوى التي سيطرت أخيراً على تجارة البحر الأبيض المتوسط، وهي الدول المدينية البحرية بشبه الجزيرة الإيطالية. بالنظر إلى الموقع المتوسط لهذه المدن في البحر الأبيض المتوسط واتصالها بالاقتصاد الأوروبي المتنامي عبر ممرات الألب، لا يفاجئنا أن تلعب إيطاليا هذا الدور المهم في هذه الفترة. كان نمو السكان والإنتاج الزراعي والمراكز الحضرية في أوروبا يعني سوقاً مربحاً للسلع الفاخرة الشرقية التي كان التجار بشبه الجزيرة الإيطالية مؤهلين لتوفيرها في مقابل الصوف والفضة والمنتجات الأولية الأخرى. وأصبحت المدن الإيطالية الشمالية مثل ميلان وبافيا مراكز صناعية ومصرفية مهمة، تعززها التجارة العابرة لجبال الألب. فيما شكّلت المدن الساحلية أمالفي وباري وبيزا وجنوى، وعلى الأخص البندقية، قصص النجاح الأروع في هذه الفترة.

كانت وضعية الحكم الذاتي التي تمتعت بها الدول المدينية الإيطالية إحدى السمات المهمة التي مكّنتها من التركيز على التجارة والنشاط الاقتصادي، مع التخلص من أعباء الضرائب والتدخل الحكومي في النظم السياسية المكرسة لأهداف أخرى، كما كانت الحال بوضوح في العالم الإسلامي. فقد كانت السيادة الرسمية على المنطقة موزعة بين الإمبراطور البيزنطي والإمبراطور الروماني المقدس والبابا، ما مكّن البندقية والمدن الأخرى من ممارسة الاستقلال الفعلي عن طريق الدبلوماسية الماكرة واستخدام القوة من حين إلى آخر. وبذلك أثبت التفكك السياسي لأوروبا الغربية من القرن الخامس فصاعداً أنه كان على المدى البعيد مصدراً لميّزة تنافسية[٨].

ثمة عامل آخر أفادت منه الدول المدينية وهو الحملات الصليبية. فبعد توسع الفايكنغ في شمال المحيط الأطلسي والتوسع المسيحي في أيبيريا، تولدت حماسة عامة لصد التقدم الإسلامي على الإمبراطورية البيزنطية واسترداد الأراضي المقدسة نيابة عن

العالم المسيحي. دعا البابا أوربان الثاني في كليرمونت في العام ١٠٩٥ إلى الحملة الصليبية الأولى، وفي البداية حققت الحملة نجاحاً كبيراً بانتزاع بيت المقدس من الفاطميين في العام ١٠٩٩ وتأسيس عدة ممالك صليبية في فلسطين. وإلى جانب جند الصدام بالقوات الصليبية التي تشكلت في غالبيتها من أبناء النبلاء النورمنديين أو الألمان المتلهفين إلى اقتطاع إمارات إقليمية لأنفسهم في الشرق، شاركت الدول المدينية الإيطالية بقوة، وربحت كثيراً من المشروع، حيث وفرت النقل والخدمات المالية، وفي بعض الأحيان الدعم البحري المباشر. وفي المقابل، تم تعويضهم بامتيازات تجارية في سوريا وفلسطين.

بدأت البندقية وجودها المجيد ككيان سياسي مستقل على مدى اثني عشر قرناً، بداية متواضعة تماماً، حيث كانت تتعيش على النقل البحري والصيد في البحيرات. وكان النشاط الاقتصادي الرئيس فيها هو استخراج الملح وتصديره إلى المدن الداخلية. ثم أخذ البنادقة يولون وجوههم باطراد نحو البحر، مستخدمين الأخشاب المتوفرة بسهولة في صنع السفن والمراكب. وقد كوفئوا على ولائهم لبيزنطة بامتيازات تجارية جعلتهم نقطة عبور للحرير والتوابل القادمّين من الشرق إلى المدن الداخلية وإلى أوروبا ما وراء الممرات. وباستخدام أسطولها لكل من التجارة والحرب، وسّعت تلك الدولة المدينية نفوذها تدريجياً إلى الجنوب في الساحل الدالماشي[٧] والأدرياتيكي، وهناك كان العبيد المتوفرون للتصدير إلى الشرق مصدراً آخر للربح. كما كوفئ البنادقة على دعمهم للإمبراطور البيزنطي

---

(٧) دالماشيا أو دالماسيا Dalmatia منطقة تاريخية في دولة كرواتيا الحالية تقع على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي [المترجم].

ضد القوة النورمندية الصاعدة في جنوب إيطاليا بالمرسوم الذهبي(٨) في العام ١٠٨٢ الذي أعطى التجار البنادقة وصولاً معفياً من الجمارك إلى الإمبراطورية. وكانت الجمهورية في طريقها لأن تصبح "ملكة الأدرياتيكي".

يقدّر فريدريك لين Frederick C. Lane عدد السكان في العام ١٢٠٠ بنحو ثمانين ألف نسمة لمنطقة البحيرة كلها، ثم ارتفع إلى ضعف ذلك العدد بعد قرن[٩]. وبلغ عدد سكان المدينة نفسها في العام ١٣٠٠ زهاء مئة وعشرين ألفاً، ما جعلها أكبر من باريس في ذلك الوقت. (كانت أعداد السكان بميلان وفلورنسا ونابولي وباليرمو مماثلة للبندقية، ما جعل شبه الجزيرة الإيطالية أكثر المناطق في أوروبا الغربية من حيث نسبة الحضر.) وحتى في نحو العام ١٠٠٠، لوحظ أن البندقية كانت متفردة بكوّنها "المدينة الأولى في العصور الوسطى التي تعيش على التجارة وحدها"[١٠]. فكانت تستورد القمح والنبيذ وزيت الزيتون لتزويد المدينة والمناطق المحيطة باحتياجاتها. وإبان القرن الثاني عشر وسّعت البندقية قوتها ونفوذها في شرق البحر الأبيض المتوسط. فمن ناحية ساعدت في الإبقاء على الإمبراطورية البيزنطية في وجه تهديدات النورمنديين والمسلمين، ومن ناحية أخرى نهبت الإمبراطورية وانتزعت منها امتيازات تجارية. وبلغت هذه النشاطات أوجها في الحملة الصليبية الرابعة التي نهبت القسطنطينية في العام ١٢٠٤. وكانت المكافأة التي حصلت عليها البندقية ثلاثة أثمان الإمبراطورية اللاتينية الجديدة وغنائم هائلة. وأخذت البندقية نصيبها من الأراضي في شكل جزيرة كريت، ووضعت قواعد بحرية في أماكن إستراتيجية في بحر إيجة والبحر الأيوني. كما تمتع البنادقة بميّزة كبرى

---

(٨) المرسوم الذهبي Golden Bull ختم ذهبي كان يستخدم لختم الأوامر الصادرة من الأباطرة البيزنطيين، ولاحقاً ملوك أوروبا في العصور الوسطى وعصر النهضة، وتدريجياً أصبح المصطلح يشير إلى المرسوم أو الأمر الإمبراطوري نفسه، وليس الختم وحسب [المترجم].

أخرى هي حرية الوصول إلى البحر الأسود الذي كانت البندقية محرومة منه في السابق.

أصبحت البندقية مؤهلة لدور الوسيط بين أوروبا الغربية الآخذة في النمو والازدهار من ناحية، والعالم الإسلامي من ناحية أخرى، وكذلك الصين عبر الطريق البري نتيجة لوصولها إلى البحر الأسود ونتيجة للسلام المغولي الذي عمّ العالم بعد ذلك بقليل. وكان هناك طلب متنامي على الفلفل والتوابل الأخرى، وكذلك إمدادات القطن والحرير الخام للصناعات الأوروبية. وكان ثمن هذه الواردات يُدفع بالفضة الآتية من المناجم الجديدة المكتشفة في أوروبا الوسطى وأيضاً بالأقمشة الصوفية من فلندرة[٩] وفلورنسا، فضلاً عن تشكيلة متنوعة من المنتجات الأخرى المصنعة. وعلى الرغم من حربها المتقطعة مع الأيوبيين، حافظت البندقية على علاقات تجارية معهم، ولاحقاً مع المماليك. وإضافة إلى تجارة العبور من هذا النوع مع المشرق، حققت البندقية أيضاً أرباحاً كبيرة من السيطرة على تجارة الملح والقمح لأغلب شمال إيطاليا. وتمكنت من استخدام قوتها البحرية لفرض قوانين ملاحة صارمة، أوجبت على معظم الواردات إلى شمال الأدرياتيكي العبور من البندقية. وسيطرت البندقية أيضاً على معظم تجارة الشحن المحلية في بحر إيجة والبحر الأيوني. وكانت البندقية تحصل على القمح من صقلية وكريت، وكذلك من أماكن بعيدة مثل البحر الأسود، على نحو ما فعلت أثينا في العصر القديم.

---

(٩) منطقة تاريخية تقع على أجزاء من بلجيكا وفرنسا وهولندا الحالية، تأسست في العام ٨٦٢ ككونتية في غرب فرنسا، وتتابع عليها الغالبون الأجانب، حتى انتقلت تبعيتها في العام ١٣٨٤ إلى دوقية بيرغندي، ثم في العام ١٤٧٧ إلى آل هابسبرغ، وفي العام ١٥٥٦ إلى ملوك إسبانيا الهابسبرغيين، قام أهلها بثورات كثيرة ضد الحكم الإسباني، قمعها الإسبان بوحشية، وكان من أشهر قاهريهم الدوق ألبة "مطرقة ثوار فلندرة" [المترجم].

كان المنافس الأكبر للبندقية طوال هذه الفترة وما بعدها هو جنوى الواقعة على الحافة الشمالية للساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية. وجنوى الحبيسة في جبال الأبنين Apennines كانت بدايتها أكثر تواضعاً من البندقية، لأنها لم تكن تمتلك حتى ملح البحيرات كقاعدة للنجاح التجاري. وقد شدّد روبرت لوبيز في عدد من الأعمال على دور الحرب والغنيمة من العرب في غرب البحر الأبيض المتوسط، اللذين وفرا "التراكم البدائي"[١٠] المطلوب لإطلاق جنوى على طريقها المدهش إلى التوسع التجاري والمالي. وكانت بيزا منافساً مبكراً على السيطرة على ساردنيا وكورسيكا، لكَنَّ المدينتين تعاونتا في غارات مربحة على الموانئ الإسلامية بشمال أفريقيا. وفي مقابل تعاون جنوى المبكر مع الصليبيين، حصلت على مستعمرات وامتيازات تجارية في الشرق أيضاً. وشاركت كل المدن البحرية الإيطالية الرئيسة في تجارة البحر الأبيض المتوسط، ومنها التوابل والحرير وتجارة العبور، فضلاً عن تصدير المواد الأولية الصناعية، كالقطن والشب من سوريا وفلسطين والصوف من شمال أفريقيا لصناعة الأقمشة التوسكانية المزدهرة.

شهد النصف الأول من القرن الثالث عشر هيمنة البندقية في الشرق والبحر الأسود، فضلاً عن مكاسبها من الحملة الصليبية الرابعة في العام ١٢٠٤. لكن الجنويين دعموا الهجوم البيزنطي المضاد الذي استرد القسطنطينية لسلالة ميخائيل باليولوج في العام ١٢٦١. وحصلوا في مقابل ذلك على مكافآت استعمارية وتجارية مربحة على حساب البندقية. فحصلت جنوى على مراكز تجارية في البحر الأسود وبحر مرمرة وشواطئ بحر إيجة. ويذكر لوزاتو Luzzatto أن "التجارة الجنوية اتسع مداها كثيراً، وامتدت من القرم إلى مضيق جبل طارق، وفي أواخر القرن الثالث عشر إلى طرق المحيط فيما وراء المضيق"[١١]. وجاءت ذروة التجارة والدخل الجنويان إبان العقد الأخير

---

(١٠) راجع حاشية سابقة للمترجم حول مفهوم "التراكم البدائي" [المترجم].

من القرن الثالث عشر. ويذكر لوبيز أن العائدات من الضرائب على المبيعات التجارية ارتفعت أكثر من أربعة أضعاف من العام ١٢٧٤ إلى العام ١٢٩٣، وكانت سبعة أضعاف دخل التاج الفرنسي المعاصر في عهد فيليب أوغسطس[١٢]. وارتفعت العائدات من المحطات التجارية فيما وراء البحار في بيرا(١١) والإسكندرية والأماكن الأخرى ذات الموقع الإستراتيجي إلى "حجم يقترب من الوطن الأم نفسه". ونفذت جنوى رحلات بحرية رائدة عبر مضيق جبل طارق إلى إنجلترا وفلندرة، وتبادلت السلع الشرقية والبحر متوسطية مع الصوف الإنجليزي والأقمشة الفلمنكية، وأضافت بذلك طريقاً بحرياً وحّد شمال أوروبا وجنوبها. ومن حيث عدد السكان، لم تتجاوز جنوى أبداً سقف المئة ألف نسمة في المدينة نفسها، وربما أربعة أو خمسة أضعاف هذا العدد في المناطق المحيطة. ولذلك كانت دائماً أصغر من منافسها الكبير- البندقية- لكنها كانت قريبة من باريس وميلان ومدن أوروبية كبرى أخرى.

ثمة سؤال مثير يثيره النزاع الطويل والمرير بين المسيحيين والمسلمين في أثناء الحملات الصليبية وتأثيره على الاستعداد للتجارة مع العدو. والإجابة واضحة لا لبس فيها، فعلى الرغم من المراسيم البابوية التي حظرت تزويد المسلمين بمواد الحرب، قدمت لهم المدن البحرية الإيطالية الأسلحة ومواد بناء السفن وغيرها من السلع، وكان الجنويون على وجه الخصوص يقدمون المجندين الرقيق من البحر الأسود لقوات النخبة المملوكية التي شاركت في طرد بقايا الممالك الصليبية من المناطق الساحلية بسوريا وفلسطين[١٣]. واكتملت تلك المهمة في العام ١٢٨٩ حين استعادوا طرابلس، وفي العام ١٢٩١ حين استعادوا المعقل المسيحي الأخير في الأراضي المقدسة والميناء الرئيس في المنطقة في ذلك الوقت، وهو عكا. وكانت الكنيسة تبيع الإعفاء من هذا

---

(١١) بيرا Pera (يعني في اليونانية "عَبْر") هو الاسم البيزنطي للجزء من مدينة إسطنبول التركية الواقع في الجانب الأوروبي، يسمى حالياً بايوغلو Beyoglu [المترجم].

الحظر العام، ما قوّض مكانتها الأخلاقية بعض الشيء، وفرض تكلفة إضافية على التجار الأوروبيين، لكن المماليك كانوا مستعدين لتعويضهم عن ذلك. وبهذه الطريقة كان إخوة الصليب في المدن البحرية الإيطالية يكتسبون هيمنة تجارية كاملة تقريباً على البحر الأبيض المتوسط وداخل القسطنطينية نفسها، ما عجل بالانهيار الطويل "لروما الشرقية" وهدد السيادة الاقتصادية للعالم الإسلامي التي كانت لها الغلبة مع بداية الألفية الثانية.

أدت الحملات الصليبية أيضاً إلى نقل الأفكار والتقنية بين العالمين الإسلامي والمسيحي، وقد أفاد العالم المسيحي من ذلك على المدى البعيد. ومن الأمثلة الشهيرة لذلك ما يسمى بالنظام العددي العربي الذي نشأ أصلاً في الهند، كما يعرف كل من المسلمين والأوروبيين. أزاحت الأعداد الجديدة الأعداد الرومانية تدريجياً، وأخذ التجار الأوروبيون يستخدمونها لأغراض التجارة. وبوجه عام، كما يقول ألفريد ليبر، فإن "الإسهام الأكبر للعالم الإسلامي في الحياة الاقتصادية بالقرون الوسطى تمثل في تطوير أساليب تجارية تعتمد على الكتابة والتسجيل[١٤]. وقد نتج ذلك عن المستوى المرتفع لمعرفة القراءة والكتابة بين التجار الشرقيين في ذلك الوقت، الذي تعزز بدوره بوفرة مواد الكتابة ورخصها نسبياً على مدى فترة طويلة في هذا الجزء من العالم.... وهذه القدرة... لعبت دوراً أهم في تطوير أساليب وطرق متفوقة للدفع وتمويل التجارة الدولية". ثمة ميّزة أخرى أفادت الممارسات التجارية الحديثة، أكدها ليبر وجانيت أبو لغد، وهي أن الإسلام فيه ميل واضح نحو التجارة والتجار، وهو أمر غير مستغرب بالنظر إلى أن مكة كانت مركزاً تجارياً مهماً في زمن النبي محمد عليه الصلاة والسلام الذي اشتغل هو نفسه بالتجارة[١٥].

لقد ذكرنا مثال الحوالة التي رآها ابن حوقل في أوداغوست. كانت هذه الأدوات تستخدم على نطاق واسع في العالم الإسلامي، من جانب كل من التجار والبيروقراطيين الإمبراطوريين الراغبين في تحويل العائدات من المقاطعات إلى العاصمة، بداية من القرن الثامن على الأقل[١٦]. وبالمثل، ترجع جذور عقد المضاربة(١٢) الذي لعب دوراً مهماً في تمويل تجارة البحر الأبيض المتوسط إلى سوابق تاريخية واضحة في عقد القِراض(١٣) الإسلامي الأقدم(١٤). ويقر ليبر بصعوبة العثور على أدلة حول أدوات معينة انتقلت بين الثقافات[١٧]، لكن يظل من الممكن نظرياً في كل الأحوال، كما يشير جون بريور John Pryor، أن تكون العقود المتماثلة مثل عقد المضاربة قد ظهرت في بلاد مختلفة "كاستجابة مستقلة لاحتياجات اقتصادية متماثلة في أماكن مختلفة وفي أوقات مختلفة"[١٨]. واستخدام الحوالات في إمبراطورية تانغ الصينية يمكن أن يُتخذ دليلاً يؤيد وجهة النظر الأخيرة، مع أن ليبر يشير إلى أن التجار المسلمين الذين عملوا في الصين ربما تعلموا من خبرة الصينيين ونقلوا المعرفة التي اكتسبوها إلى أوطانهم[١٩].

يذهب أودوفيتش إلى أن عقد القِراض هو الأصل المؤكد الذي تطور منه عقد المضاربة، ويدفع بأن التجار الغربيين تعلموا هذه الأساليب وغيرها من زملائهم المسلمين من القرن الثامن فصاعداً[٢٠]. وفي المقابل، يرد بريور عقد المضاربة إلى آلية "التضامن" societas الرومانية و"عقد المضاربة" chreokoinonia البيزنطي، وكذلك

---

(١٢) عقد المضاربة commenda contract عقد شراكة بين اثنين أو أكثر، يقدم أحدهما مالاً والآخر عملاً، ويكون توزيع الربح بينهما بحسب الاتفاق أو العقد [المترجم].

(١٣) القِراض عقد بين اثنين يتاجر أحدهما بمال الآخر لقاء حصة أو نسبة متفق عليها [المترجم].

(١٤) من أجل رواية تحليلية حديثة لتمويل التجارة في البندقية، انظر (Gonzalez de I ma (2005. وتذكر جونزاليز في تعريفها أن "عقد المضاربة أو الكوليجانتيا collegantia كما أسماه البنادقة كان اتفاق شراكة يقدم المستثمر بمقتضاه أموالاً مع قبول خطر خسارتها وكذلك الحصول على عائد بناء على التجارة التي يشتغل بها التاجر" (ص ٥).

القِراض الإسلامي وعقد العسقى isqa' اليهودي، ويَخلُص إلى أن عقد المضاربة ظهر نتيجة للدمج الأوروبي الإبداعي لمصادر رومانية وبيزنطية وشرق أوسطية. وعلى كل، فمن المؤكد أن التجار الغربيين أتيحت لهم الفرصة للتعلم من نظرائهم المسلمين[٢١]. وقد لاحظ زائر مسلم إلى عكا في العام ١١٨٤ أن الكَتبة التجاريين المسيحيين هناك كانوا يستخدمون اللغة العربية لإمساك سجلات الجمارك، كما كان تجار بيزا يتلقون خطابات باللغة العربية من مراسلين تونسيين في العام ١٢٠٠[٢٢]. وأخيراً، يشير ليبر إلى وجود أدلة لغوية دامغة عل تأثير الممارسات التجارية الإسلامية على التجارة الأوروبية إبان القرون الوسطى، حيث ترجع أصول كلمات أوروبية مثل douane [ديوان](١٥) وtariff [تعريفة](١٦) وtraffic [مرور](١٧) وrisk [خطر](١٨) وfondaco [فندق](١٩) إلى لغات شرقية[٢٣].

والسكر أحد الأمثلة الشهيرة الأخرى لتأثير العالم الإسلامي على الغرب، الذي كانت له نتائج ضخمة على ثلاث قارات على الأقل بعد عدة قرون. وفي ذلك تقول باربرا سولو Barbara Solow إن المسيحيين ما أن تعرفوا على مذاق "الملح الحلو"، حتى زرعوه بأنفسهم، في البداية في مستعمراتهم الصليبية في الشرق، وفيما بعد في كريت وقبرص وصقلية[٢٤]. ولسوء الحظ، ارتبطت زراعة السكر بالعبودية في العالم الإسلامي، وكذلك استخدم المسيحيون العبيد لزراعته

---

(١٥) هيئة تحصيل الجمارك في اللغة الفرنسية والهولندية [المترجم].

(١٦)كلمة traffic مستخدمة بصور مختلفة في لغات أوروبية مختلفة [المترجم].

(١٧) يرجع البعض هذه الكلمة المستخدمة في الكثير من اللغات الأوروبية إلى الأصل العربي "ترويج"، ومنهم صلاح غريميش في "معجم الكلمات الفرنسية من أصل عربي" [المترجم].

(١٨) يرد البعض هذه الكلمة إلى الأصل العربي "رزق" [المترجم].

(١٩) كلمة إيطالية [المترجم].

وأنشأوا مزارع سكر كانت السلف المباشر لمزارع العبيد في العالم الجديد لاحقاً[٢٠]. وبحلول أوائل القرن الخامس عشر كانت زراعة السكر قد انتشرت غرباً إلى الممتلكات الأيبيرية في المحيط الأطلسي مثل ماديرا[٢١]، وكان العبيد في هذه الحالة يُستورَدون من أفريقيا. ومن ذلك الوقت فصاعداً "ارتبط الاستعمار الأوروبي بالسكر، وارتبط السكر بالعبودية، وارتبطت العبودية بالسود"[٢٥].

المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي إبان الفترة ١٠٠٠-١٣٥٠

كانت تجارة البحر الأبيض المتوسط ترتبط بتجارة المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي عبر البحر الأحمر والخليج العربي، هاتين القناتين التاريخيتين لتدفق التوابل إلى أوروبا. وكانت هذه التوابل الشرقية تأتي إلى الأسواق الغربية من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر على أيدي جماعة من التجار اليهود استقرت في الفسطاط (القاهرة القديمة)، تمتعت بارتباطات واسعة من إسبانيا إلى الهند. والأوراق التجارية وأوراق المراسلات الأخرى التي تركتها هذه الجماعة في الفسطاط التي تسمى "أوراق الجنيزا"[٢٢]، مكّنت غويتن من بناء وصف ثري مفصل لأنشطتهم الاقتصادية

---

(٢٠) راجع حاشية سابقة حول السبق العربي الإسلامي المشين- في هذه الحالة- إلى استخدام العبيد السود في مزارع السكر، وهو المثال الذي ستحاكيهم فيه الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية في الأمريكتين بعد قرون، الذي سيكون القوة الدافعة لتجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي بداية من القرن الخامس عشر [المترجم].

(٢١) ماديرا Madeira مجموعة من الجزر في المحيط الأطلسي في شمال غرب أفريقيا، تتبع البرتغال، عاصمتها فونشال، عرفها الرومان أولاً، ثم أعاد البرتغاليون اكتشافها في العام ١٤١٩، استغلوها أولا في توفير الخشب، ثم في إنتاج السكر [المترجم].

(٢٢) أوراق الجنيزا Geniza papers مجموعة من الأوراق والوثائق باللغات اليهودية تستخدم الأبجدية العبرية (العربية- اليهودية والفارسية- اليهودية والإسبانية- اليهودية واليديشية)، لا يجوز التخلص منها أو إتلافها وفقاً للديانة اليهودية لأنها تحتوي اسم الله، ولذلك كانت تخزن في غرفة منفصلة في الكنيس أو المعبد لأجيال، ثم تدفن في مقابر، ومن هنا جاء اسمها "جنيزا" الذي يشترك في الأصل مع كلمة "جنازة" العربية. وتعتبر الجنيزا التي عثر عليها في كنيس ابن عزرا في القاهرة من أهم مجموعات الجنيزا في العالم [المترجم].

والثقافية[٢٦]. فاتضح أنهم كانوا يأتون بالفلفل والتوابل الأخرى من الهند شرقاً، وأنهم تاجروا أيضاً على نطاق واسع في الحرير والكتان والسلع الأخرى، وبخاصة مع موانئ شمال أفريقيا. وقد ازدهروا وراجت تجارتهم في عهد الحكام العباسيين والفاطميين، ثم تراجعت بسبب المنافسة من التجار الإيطاليين والمناخ المحموم للحملات الصليبية والرد الإسلامي عليها.

ونرى في هذه الفترة إشارات إلى مسيحيين حاولوا تجاوز الوسطاء المسلمين والوصول مباشرة إلى التوابل الشرقية. وكان من أنشط هؤلاء الصليبي سيئ السمعة أرناط الشاتيوني(٢٣) الذي انتهك الهدنة مع المسلمين مرات كثيرة بالإغارة على قوافلهم التجارية. وقد استشاط البطل الكردي صلاح الدين غضباً من غارة نفذها أرناط على الحجاز ببلاد العرب في العام ١١٨٢، استولى فيها على ايلات وهاجم سفناً إسلامية في البحر الأحمر. اعتبر صلاح الدين ذلك تهديداً للحج والمدينتين المقدستين مكة والمدينة، وأيضاً لتجارة البحر الأحمر المربحة. وفي النهاية، دُمّر أسطول أرناط، وتشرف أرناط بأن قطع صلاح الدين شخصياً رأسه بعد أن أسره في معركة حطين في العام ١١٨٧[٢٧].

---

(٢٣) أرناط الشاتيوني Reynaud de Chatillon نسبة إلى بلدة شاتيون سير لوار Chatillon-sur-Loire بشمال وسط فرنسا (من نحو العام ١١٢٥ إلى ٤ يوليو ١١٨٧) فارس خدم في الحملة الصليبية الثانية وبقي في الأراضي المقدسة بعد هزيمته، تولى إمارة أنطاكية من العام ١١٥٣ إلى العام ١١٦٠، ومن خلال الزواج أصبح أمير منطقة شرق نهر الأردن، اشتهر بنقضه للعهود، ومن ذلك خرقه لهدنة مدتها أربعة أعوام مع صلاح الدين الأيوبي في العام ١١٨٥، وهجومه على قافلة ضخمة للمسلمين كانت في طريقها من القاهرة إلى دمشق، ولذلك أقسم صلاح الدين على أن يقتل أرناط حال وقوعه في يده، وفي العام ١١٨٧ غزا صلاح الدين مملكته وهزم الصليبيين في موقعة حطين، وكان أرناط وملك بيت المقدس من بين أسرى صلاح الدين، فأمر صلاح الدين بأن يؤتى بهما إلى خيمته، ثم قطع رأس أرناط بسيفه [المترجم].

يبدو أن صلاح الدين خصّ مجموعة من التجار المسلمين (باستثناء بعض اليهود والمسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام) عُرِفت باسم "الكارم" باستيراد التوابل والسلع الشرقية الأخرى. وقد منحهم حماية مَلكية وامتيازات مالية وحقوقاً حصرية لاستيراد السلع الشرقية عبر البحر الأحمر. ومع أن هؤلاء التجار وصلوا إلى الهند وما بعدها شرقاً، فقد ركزوا حقيقة على قطاع البحر الأحمر من التجارة فقط، حيث كانوا يشترون متطلباتهم من عدن على فم البحر الأحمر التي كان التجار الغوجاراتيون وغيرهم يأتون إليها بالفلفل والمنسوجات القطنية الهندية والتوابل والمنتجات الأخرى مما وراء الهند شرقاً. كانت عدن تابعة لسلاطين اليمن الذين كانوا يدينون بالولاء للدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين ثم لخلفائه المماليك. وقد ترسخ توازن طويل المدى، ومع أن اليمنيين حاولوا الإفلات من التبعية لمصر، فإنهم لم يجازفوا بالذهاب بعيداً إلى حد إثارة المصريين الأقوى منهم إلى شن حرب واسعة النطاق ضدهم.

كانت عدن سوقاً تجارية مزدهرة في ذلك الوقت، يعمل بها تجار من جميع أنحاء العالم الإسلامي وما وراءه. وطبيعتها العالمية والأرباح الكبيرة التي كان يمكن تحقيقها هناك تُصوِّرها حياة تاجر عربي قضى أربعين عاماً في الصين. فقد خسر هذا التاجر اثنتي عشرة سفينة في البحر في عاصفة واحدة، لكنه عوض خسارته كلها من أرباح السفينة الثالثة عشر التي كانت تحمل الخزف وخشب الصبار. وكوّن هذا التاجر أيضاً "شركة متعددة الجنسيات" ضمت سبعة أبناء من سبع زوجات في أجزاء مختلفة من العالم كانوا يرسلون إليه السلع في مقابل المنتجات المشرقية والمغربية والفرنجية[٢٨].

كان النقل في أعلى البحر الأحمر يحميه السلاطين المصريون الذين وفروا أيضاً وسائل لتفريغ السلع ونقلها بالقوافل براً إلى النيل ثم بحراً في اتجاه مياه النيل إلى القاهرة. وكان التجار الإيطاليون والأوروبيون الآخرون يُحْتجَزون في "فنادقهم" أو

محطاتهم التجارية في الإسكندرية ودمياط. وكانت مجموعات التجار الرئيسة تنتمي إلى البندقية وجنوى وبيزا ومرسيليا وبرشلونة. واحتجاز التجار الغربيين بهذه الطريقة جعل "شروط التبادل التجاري" لصالح الدولة المصرية ووكلائها من تجار الكارم. ومع ذلك فقد أُعطِي الأجانب ضمانات بالسلامة الشخصية وأمن الممتلكات والأرباح. وقدم المصريون حوافز خاصة وإعفاءات ضريبية للسلع الإستراتيجية، وبخاصة الرقيق القادمين للتجنيد في الجيوش المملوكية. ويبدو أن التجار المسلمين كانوا يدفعون رسوم استيراد نحو ٢٥٪، بينما كان المسيحيون يدفعون عادة ٢٠٪ أو حتى ١٠٪ على سلع معينة[٢٩].

كانت العلاقات التجارية مع الساحل الغربي للهند وسيلان وثيقة وموسعة. وكانت السلعة التصديرية الرئيسة من الهند هي الفلفل الأسود الشهير من مالابار، وظلت الهند المصدر الفريد لهذا المنتج في التجارة العالمية قبل إدخاله إلى سومطرة وجزر إندونيسية أخرى، ربما في أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر. وكانت المنسوجات القطنية السلعة التصديرية الهندية الرئيسة الثانية، وظلت كذلك لقرون تالية، وتركز الإنتاج في المناطق الرئيسة الثلاث: غوجارات والبنغال وساحل كوروماندل. وكانت الهند تصدّر أيضاً منتجات الحديد والصلب، وبالدرجة الأولى الأسلحة، وأنواعاً مختلفة من السلع الأخرى ذكرها ديغبي Digby بالتفصيل[٣٠]. يفند ديغبي الرأي السائد القائل بأن البحر الأحمر حل محل الخليج العربي في هذه الفترة، ويشير إلى التصدير الضخم لسلعة غير عادية، وإن كانت ثمينة، إلى الهند عبر الخليج العربي، وهي الخيول، وتحديداً خيول الفرسان، التي ازداد الطلب عليها بسبب الحرب المستمرة في شبه القارة الهندية وعدم القدرة على تحمل تربية الخيول محلياً. قابل الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة قبائل تركية معها آلاف من الخيول بيعت بدينار

واحد فقط لكل منها، في حين كان السعر في الهند يمكن أن يتجاوز مئتي دينار أو حتى خمسمائة دينار. ويقول ابن بطوطة إن الخيول كانت تصدّر إلى الهند في قطعان كبيرة يضم الواحد منها ستة آلاف حصان أو نحوها[٣١]. وتلك الحكاية كاشفة في جانبين، حيث توضح التجارة الدولية الواسعة في ذلك الوقت، وكذلك فجوات الأسعار الهائلة التي كانت سائدة بين الأسواق. وكانت خيول السباق تُستورد أيضاً من اليمن وعُمان وفارس بأسعار في حدود أربعة آلاف دينار للحصان الواحد. ويقدم الرحالة المغربي معلومات مثيرة عن التجارة في جميع أنحاء العالم الإسلامي والمحيط الهندي في ذلك الوقت وعن الشحن والنقل عبر المحيط، منها معلومات حول أسطول السفن الشراعية الذي أبحر فيه إلى الصين من الساحل الغربي للهند. يقدم وصف ابن بطوطة صورة مذهلة لمدى التجارة والتخصص في عالم ذلك الزمان، حيث كان السكان في القرن الأفريقي يعتمدون كلياً على واردات الأرز والأقمشة من الهند، وكان العبيد الأحباش يُستخدَمون جنوداً بحرية على السفن الشراعية الصينية ومرتزقة بحريين في خدمة حكام الهند المسلمين.

وكما هو معروف فإن كلاً من ماركو بولو وابن بطوطة أذهلتهم جداً ثروة الصين في عهد إمبراطورية يوان المغولية على الرغم من أنها كانت أقل من الأوج الذي بلغته في عهد إمبراطورية سونغ. وثمة تقدير لماركو بولو كثيراً ما يُسْتشهَد به للواردات اليومية للفلفل في ميناء زايتون (كوانزهو) الفوجياني[٢٤]، وهو أكثر من عشرة آلاف رطل، ما يعطي فكرة عن حجم "سوق الصين" في تلك الأزمان. بل ويذكر بولو أيضاً أنه في مقابل كل سفينة محملة بالتوابل تخرج من الإسكندرية إلى الموانئ المسيحية، كانت مئة سفينة تصل إلى كوانزهو. ويقول ابن بطوطة إنه رأى "مئة سفينة ينك شراعية

(٢٤) نسبة إلى مقاطعة فوجيان الصينية [المترجم].

من الطراز الأول معاً" و"سفناً أصغر لا تحصى" في كوانزهو، وثلاث عشرة سفينة معاً في كاليكوت(٢٥) على ساحل مالابار الهندي. وقدّر ابن بطوطة عدد طاقم إحدى السفن بألف شخص، ستمئة بحار وأربعمئة جندي متخصص، منهم الرماة و"القواسين الذين يقذفون النفط"[٣٢].

كانت السياسة المغولية في الصين فيما يتعلق بالاقتصاد والتجارة في مجملها استمراراً لسياسة إمبراطورية سونغ، فضلاً عن محاولات عرضية لفرض تدخل أكبر من جانب الدولة لتعظيم الدخل والربح. وتوسعت التجارة البرية مع آسيا الوسطى والغرب، كما سنرى في القسم التالي، بصورة ملحوظة نتيجة لفرض السلام المغولي على الممالك البدوية التي سيطرت على السهل في عهد إمبراطورية سونغ. وانتعشت التجارة البحرية مع جنوب شرق آسيا والمحيط الهندي حتى شرق أفريقيا وميناء كيلوا(٢٦)، وازدادت التجارة مع اليابان وكوريا. كانت اليابان تصدّر عديداً من المنتجات المعدنية، منها خام النحاس والفضة، فضلاً عن السيوف الفولاذية، بينما كانت كوريا تصدّر الآنية الفخارية ومواد الطلاء والسلع النحاسية والجنسة(٢٧) ومواد طبية أخرى. وفي المقابل كانت الصين تصدّر الخزف والمنسوجات الحريرية وغيرها من المنسوجات والكتب، وكانت تعيد تصدير التوابل والمنتجات الجنوبية الغريبة، وكذلك كميات كبيرة من النقد النحاسي الذي انتشر كنقد رسمي في اليابان ووفر العرض النقدي للاقتصاد الياباني المتنامي. وتدفق الكتب الصينية إلى اليابان وكوريا أمر لافت للنظر، إذ يشير إلى الانتقال الثقافي إلى هذه البلاد الكونفوشية من بلد المنشأ. وحطام

---

(٢٥) كاليكوت Calicut مدينة وميناء بولاية كيرالا الهندية على ساحل مالابار، اسمها الحالي كوزيكود Kozhikode، كانت من أهم الموانئ التجارية بعالم العصور الوسطى، كانت تسمى أيضاً "مدينة التوابل" [المترجم].

(٢٦) راجع حاشية سابقة حول كيلوا [المترجم].

(٢٧) الجنسة Ginseng عشبة صينية لها استخدامات طبية [المترجم].

السفينة المتجهة إلى اليابان أو الفلبين على ما يبدو الذي يحتوي أكثر من عشرة آلاف قطعة خزف، يعطي إشارات لحجم التجارة الكبير آنذاك[٣٣].

السلام المغولي والتجارة البرية إبان الفترة ١٠٠٠–١٣٥٠

وبعد أن استعرضنا التجارة البحرية لأوراسيا إبان الفترة ١٠٠٠–١٣٥٠ بدءاً من طرفها الغربي في إسبانيا الإسلامية، قد يكون من الملائم أن نقوم "برحلة العودة" براً من الطرف الشرقي بدءاً بإمبراطورية سونغ الصينية. واجهت إمبراطورية سونغ في بداية هذه الفترة دولتين بدويتين مُتَصَيّنتين قويتين على حدودها الشمالية والغربية، هما دولة الخيتان وسادتها سلالة لياو وإمبراطورية هسي هشيا التانكوتية. سيطر الخيتان "الموالون للمغول" (هذه الدولة هي السبب وراء استخدام مصطلح "كاثاي" Cathay بداية من العصور الوسطى فصاعداً للإشارة إلى الصين في الغرب) على منطقة منشوريا وشرق منغوليا، ولكوّنهم محاربين أشداء، فقد شكّلوا نخبة الدولة متعددة الأعراق التي تضمنت شعوباً بدوية وسكان غابات آخرين، إضافة إلى عدد كبير من السكان المستقرين من المزارعين والحرفيين الصينيين شكّلوا زهاء ٦٠٪ من السكان، فيما شكّل الخيتان أنفسهم وغير الصينيين الآخرين ٢٠٪ لكل منهما[٣٤]. كان الخيتان بوذيين يستخدمون أبجديتهم الخاصة إضافة إلى الأبجدية الصينية، ولم يكونوا "برابرة" بأي حال من الأحوال، على الرغم من أصولهم البدوية السهلية. وامتد سلطان دولة هسي هشيا إلى مناطق قانسو وشينسي(٢٨) وغرب منغوليا. وكان سكانها متنوعين عرقياً، وكان التانكوتيون يشكّلون الطبقة الحاكمة ونخبة الفرسان بالجيش، كما كانت الحال مع الخيتان. وقد أعطى الدولتين موقعهما عبر طرق التجارة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب عائدات كبيرة من الضرائب على المرور.

---

(٢٨) قانسو Kansu وشينسي Shensi مقاطعتان صينيتان تقعان في الشمال الغربي للبلاد [المترجم].

وعلى الرغم من التنافس الجيوسياسي والنزاعات المتكررة، كانت للدولتين الحدوديتين علاقات تجارية واسعة مع إمبراطورية سونغ الصينية. فكانت دولة لياو تصدّر إلى الصين الخيول والأغنام والفراء والعبيد والأقمشة والسجاد الصوفي، وأيضاً ما يدعو للدهشة الدروع والأسلحة الحديدية. وكانت الصين تصدّر إلى دولة لياو الحرير والأقمشة المطرزة والشاي والحلي الفضية والذهبية والمنتجات البحرية والأعشاب الطبية والتوابل والمنتجات الأخرى من جنوب شرق آسيا. وإضافة إلى التجارة في منتجاتهم، يذكر شيبا Shiba أن دولة لياو كانت تسيطر على التجارة وتحصل على إتاوات من كوريا وقبائل بدوية أخرى مثل الجورجين والأيغور، وأيضاً من واحتي خوتان وكوشا(٢٩) اللتين كانتا تقدمان اليشب والكهرمان والعقيق والسجاد والأقمشة القطنية والجنسة والسبائك الذهبية والفضية[٣٥]. وكانت السلعة الرئيسة التي احتاجها الصينيون من كل من دولة لياو وهسي هشيا هي الخيول لفرسانهم، وكان تصديرها توقفه الدولة الحدودية بطبيعة الحال في أوقات النزاع. وكانت دولة هسي هشيا في موقف قوي بسيطرتها على ممر قانسو الذي تحيط به الجبال من جهة وصحراء جوبي Gobi من الجهة الأخرى. وكان الملح السلعة التصديرة الرئيسة لدولة هسي هشيا التي سعّت الصين إلى تحجيمها لحماية احتكارها لتلك المادة الأساسية. ليس غريباً- إذن- أن يزدهر تهريب الخيول والملح. وحين كانت الحرب تقطع التجارة بين إحدى الدولتين الحدودتين والصين، لم تكن الدولة الحدودية الأخرى تفوّت الفرصة لاستغلال الموقف. ويذكر شيبا أن أسعار الحرير في دولة هسي هشيا كانت تبلغ أربعين ضعف نظيراتها في الصين في زمن الحرب، ما كان يؤدي إلى صادرات مربحة من دولة لياو[٣٦].

---

(٢٩) خوتان Khotan وكوشا أو كوجار Kucha واحتان صينيتان تقعان في حوض تاريم غالبية سكانهما من الأويغور المسلمين [المترجم].

لم تستطع إمبراطورية سونغ أن تُخْضِع أياً من الدولتين الحدوديتين، ولذلك حاولت أن "تشتري" السلام منهما بدفع ما يمكن اعتباره جزية فعلية لكليهما. فكانت دولة لياو تحصل منها سنوياً على ثلاثمئة ألف ثوب من الحرير ومئتي ألف أوقية من الفضة، وكانت هسي هشيا تحصل منها سنوياً على سبعين ألف أوقية من الفضة ومئة وخمسين ألف ثوب من الحرير وعشرة آلاف كاتي من الشاي. ويذكر شيبا أن معظم الفضة التي كانت إمبراطورية سونغ تدفعها كانت تعود إلى الصين لتسوية الفوائض التجارية التي كانت سائدة مع الدولتين الحدودويتين. ونحن نعلم أن شروط التبادل التجاري كانت عشرين ثوباً من الحرير أو مئة كاتي (أو مئة وخمسة وعشرين كاتياً) من الشاي في مقابل الحصان الواحد. ونظراً لأن مبادلة الشاي والحرير بالخيول حدثت على مدى أكثر من ألفي عام، فإن سجلات هذه الأسعار النسبية توفر مؤشراً مهماً للعلاقات بين الشعوب البدوية والمستقرة على الطرف الشرقي لأوراسيا، إذا أمكن استعادة المعلومات من السجلات الكثيرة للدولة من إمبراطورية هان إلى إمبراطورية تشينغ.

وإبان العقد الثالث من القرن الثاني عشر، أطاحت قبيلة الجورجين المنشورية بإمبراطورية لياو التي كانت خاضعة لها في السابق، لكن أحد أمراء إمبراطورية الخيتان تحرك غرباً بأتباعه وأسس إمبراطورية القرخطاي (أو "الخيتاي السود") التي تعرف كذلك باسم إمبراطورية لياو الغربية في السجلات الصينية[٣٠]. وتمكن الجورجين أيضاً من طرد إمبراطورية سونغ من شمال الصين ومن عاصمتهم كايفينغ وأجبروهم على

(٣٠) القرخطاي Qarakhitai شعب تانكوتي سيطر على شمال غرب الصين إبان القرن العاشر، أنشا إمبراطورية امتدت من جزر اليابان والمحيط الهادي شرقاً الى جبال الالتاي غرباً ومن بحيرة بيكال شمالاً إلى الحدود الشمالية لإمبراطورية سونغ جنوباً، عرفت باسم إمبراطورية الكيتان أو الخيتان نسبة إلى قبائلهم وعرفت في التاريخ الصيني باسم دولة لياو الغربية [المترجم].

التراجع إلى الجنوب. وأنشا الجورجين دولة جديدة، هي تشين التي أسقطها المغول في القرن الثالث عشر، ومعها إمبراطورية سونغ الجنوبية وهسي هشيا. وقد حافظوا على اقتصاد مزدهر لأكثر من مئة عام واستأنفوا التجارة الكثيفة مع إمبراطورية سونغ الجنوبية وفقاً لنمط العلاقات السابق بين الخيتان والصينيين.

لقد تَصَيّن الخيتان والتانكوتيون والجورجين في الشرق بفعل اتصالهم بالصين، بينما اعتنق الأتراك الغربيون الإسلام بفعل اتصالهم بالفرس والعرب، وواصلت القبائل المغولية بآسيا الداخلية حياتها البدوية الرعوية على السهل. وفي أوائل القرن الثالث عشر دخلوا في اتحاد مركزي قوي بفضل عبقرية تيموجين Temujin الذي أعلن نفسه جنكيزاً خاناً، بمعنى "الحاكم العالمي" في العام ١٢٠٦. غزا أحفاده كامل اليابسة الأوراسية من العراق وإيران وروسيا في الغرب إلى الصين في الشرق، وتأسس بذلك السلام المغولي. غزا المغول الصين في العام ١٢١١ واستولوا على بكين في العام ١٢١٥، لكنهم لم يُخضِعوا إمبراطورية تشين الشمالية إلا في العام ١٢٣٤، وفي ذلك الوقت تحوّل المغول المحبَطون، كما يقول ماكيفيدي وجونز، من "سياسة المذابح لعقاب المتمردين إلى سياسة الإبادة الجماعية بكل معنى الكلمة"[٣٧]. ويذكر المؤلفان أن الخسائر الصينية الإجمالية في الأرواح في أثناء الغزو المغولي كانت مروعة، حيث بلغت خمسة وثلاثين مليوناً من سكان كان إجمالي عددهم مئة وخمسة عشر مليوناً في العام ١٢٠٠. وفي العام ١٢١٨، دمر جنكيز خان إمبراطورية القرخطاي. ومع أن فيليبس Phillips يقول إن الخيتان "انقطع وجودهم كشعب"[٣٨]، ينبغي أن ننبّه إلى أن أفراد الخيتان ظلوا يلعبون أدواراً مهمة في تاريخ آسيا الوسطى، وحتى على المستوى العالمي. من ذلك على سبيل المثال، أن يليو شو تساي Yeliu Chu tsai المستشار الأول الشهير لكل من جنكيز وابنه أوقطاي Ogodei كان خيتانياً من العشيرة المَلكية. وبعد ذلك جاء

دور خوارزم إلى الغرب، وكذلك هسي هشيا، وفي أثناء هذه الحملة توفى جنكيز في العام ١٢٢٧. أسس أوقطاي العاصمة المغولية قاراقورم Karakorum، وهاجم إيران والعراق وروسيا واستولى على كييف في العام ١٢٤٠. وفي العام ١٢٤١، غزا المغول المجر ليصلوا بذلك إلى البحر الأدرياتيكي، وشقّت مجموعة صغيرة طريقها إلى فيينا. ومن حسن حظ أوروبا أن أوقطاي مات في هذه المرحلة، ولذلك أُرجئت خطة احتلال النصف الغربي للقارة. وبعد عهد قصير للخان كيوك Guyuk ابن أوقطاي، أصبح مونكو Mongke الخان الأعظم وامتد حكمه من العام ١٢٥١ إلى العام ١٢٥٩. ودمر المغول الحشاشين(٣١) في إيران في العامين ١٢٥٦-١٢٥٧، واستولوا على بغداد في العام التالي وسط مذابح مروعة، وتلتها دمشق بعد وقت قصير. وفي هذه الأثناء كان المغول يتقدمون في مواجهة إمبراطورية سونغ في جنوب الصين، واستولوا على عاصمتهم هانغتشو Hang-chou في العام ١٢٧٦[٣٩].

وبعد أن أعطى الغزو النهائي لإمبراطورية سونغ الجنوبية في العام ١٢٧٩ للمغول سيطرة كاملة على الصين، أراد قوبلاي خان أن يعزز سلطة دولة يوان Yuan الجديدة (أعلنت في العام ١٢٧١) على ما اعتبره دولاً صينية تابعة. فأخضع المغول كوريا بعد مقاومة طويلة ومريرة، وجنّدوا مواردها من القوة البشرية والسفن لاحتلال اليابان بعد أن رفضت الطبقة الحاكمة الإقطاعية الأبية هناك مطالب الاستسلام المغولية.

(٣١) الحشاشون طائفة إسماعيلية نزارية، انفصلت عن الفاطميين في القرن الحادي عشر الميلادي لتدعو إلى إمامة نزار المصطفى لدين الله، اشتهرت بين القرن الحادي عشر والثالث عشر، وكانت معاقلها الأساسية في بلاد فارس، وهاجر بعضهم إلى الشام. كانت على عداء مع كل الدول الكبرى في زمنها، واتخذت من الاغتيالات سبيلاً للحرب، ومن اسمها اشتقت كلمة "يغتال" ومشتقاتها في اللغات الأوروبية assassin، فاغتالت الوزير السلجوقي نظام الملك والخليفتين العباسيين المسترشد والراشد وملك بيت المقدس كونراد المونفيراتي. وكانت نهاية دولتهم في بلاد فارس على أيدي المغول بقيادة هولاكو في العام ١٢٥٦، وفي الشام على يدي الظاهر بيبرس في العام ١٢٧٣ [المترجم].

وقد فشل الاحتلال الأولي في العام ١٢٧٤ بفضل المقاومة القوية والطقس السيئ، فشنّ المغول في العام ١٢٨١ حملة غزو هائلة تضمنت آلاف السفن وزهاء مئة وأربعين ألف جندي، وكانت أغلب السفن والأطقم والجنود كوريين وصينيين. وقد انتهى هذا الغزو، كما هو معروف، بكارثة للمغول بفضل الدفاع المستميت من جانب طبقة المحاربين الإقطاعيين و"الريح الإلهية" أو الإعصار القاتل الذي أغرق معظم سفن الأسطول. وانتهى غزو بحري آخر بالفشل، وهو غزو جاوة في العام ١٢٩٢. وأدت الغزوات البرية على بورما إلى إسقاط سلالة باغان، دون أن تتحقق أية فوائد مدركة لدولة يوان، بينما فشلت الغزوات البحرية والبرية على أنام وتشامبا فيما يعرف حالياً باسم فيتنام. وجاء موت قوبلاي خان في العام ١٢٩٤ ليضع حداً للمرحلة التوسعية للإمبراطورية المغولية في شرق آسيا (انظر الشكل رقم ٣,١).



الشكل رقم (٣,١) الإمبراطورية المغولية.

كان من الأسباب المهمة للنجاح المذهل للمغول، كما يرى أدشيد Adshead قدرتهم على حشد ما يقرب من نصف خيول العالم، أي ما يقدّر بنحو عشرين مليون حصان في ذلك الوقت[٤٠]. وبالنظر إلى أن الجيوش المغولية لم تكن كبيرة العدد، إذ كانت تضم زهاء مئة ألف جندي فقط في الحملات الكبرى، فقد كان كل جندي يتاح له نحو عشرين حصاناً ليبدل بينها، وبذلك كانت تتوفر لهم دائماً خيول قوية في المواجهات الحاسمة. ولذلك كان نقص المراعي يشكل قيداً كبيراً على الحملات فيما وراء السهول، وهو ما قد يفسر السبب وراء عدم توغلهم بعيداً في أوروبا والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا على الرغم من محاولات غزو بورما وفيتنام.

كانت السيطرة المركزية من جانب "الخان الأعظم" على كامل الإمبراطورية ضعيفة ورمزية بالدرجة الأولى بعد موت مونكو (الذي خلفه قوبلاي). وقُسِمت الإمبراطورية الشاسعة بين أحفاد جنكيز، فكانت الصين والأجزاء المجاورة من منشوريا ومنغوليا من نصيب قوبلاي، وحصل هولاكو على العراق وإيران لتكون إمبراطورية الخان الثاني أو "نائب" الخان الأعظم. وانسلت سيطرتهم على روسيا وأوكرانيا لصالح ما يسمى "القبيلة الذهبية"(٣٢) التي أقامها الخان باتو Batu، وانتقلت السيطرة على آسيا الوسطى بين إيران والصين إلى الجغتاي(٣٣).

---

(٣٢) القبيلة الذهبية Golden Horde خانية مغولية ثم تركية تأسست إبان القرن الثالث عشر وشكّلت القطاع الشمالي الغربي من الإمبراطورية المغولية، و"الذهبية" أو "الصُفرة" في اسمها ربما تعني "مركز" أو "مركزي" في اللغات التركية والمغولية القديمة، أو تشير إلى الثراء، أو ربما لأن الخان باتو أو أوزبغ كانا ينصبان خياماً من الذهب [المترجم].

(٣٣) الجغتاي Chagatai خانية تركية مغولية ضمت أراضي جغتاي خان الابن الثاني لجنكيز خان وخلفائه، استقلت لاحقاً عن الإمبراطورية المغولية، امتدت من نهر جيحون جنوب بحر الأرال Aral حتى جبال الألتاي Altai على حدود منغوليا والصين الحالية [المترجم].

حكم قوبلاي وأحفاده الصين باسم دولة يوان، وتركوا الحضارة والإدارة الصينية دون مساس، وإن توسعوا في استخدام "الخبراء الخارجيين" على المستويات العليا للإدارة العسكرية والمدنية والمالية. وكان معظم هؤلاء الأجانب من مسلمي آسيا الوسطى والبوذيين التبتيين والمسيحيين النسطوريين بسبب عدم ثقتهم في طبقة الموظفين الصينيين. وبالمثل، أبقى الخان الثاني[٣٤] على التقاليد الفارسية والعربية في مناطقهم، وهنا أيضاً استخدموا المسيحيين واليهود ودخلاء آخرين في الإدارة. وأنشأت القبيلة الذهبية عاصمة رائعة في سراي Sarai على نهر الفولغا، لكنهم حافظوا على عدم اختلاطهم مادياً برعاياهم الروس والسلاف. وكانت الضرائب الثقيلة مختلفة الأنواع التي فرضها المغول يجمعها نيابة عنهم الأمراء الروس أنفسهم بالتعاون مع الكنيسة الأرثوذكسية وتحت إشراف مفتشين من المغول. فكانت "الصفقة" تنص على أن تبقى الكنيسة والأمراء الروس في مناصبهم في مقابل الخضوع الذليل للمغول والأداء الفعال لواجباتهم كجباة ضرائب لصالح سادتهم. وكان ذلك هو "النَيْر التتري" سيئ السمعة الذي عاني الروس تحت وطأته لقرون. وتمتعت سهول آسيا الوسطى وواحات دولة الجغتاي بسيطرة غير محكمة من جانب المركز، وحافظت على المزيج التقليدي للزراعة المستقرة حول الواحات والرعي في السهل. ومع أن كثيراً من المدن الكبرى قد أفرغت من سكانها في أثناء الحملات، فقد تعافت على ما يبدو بعد جيل أو اثنين.

وفي الصين وبلاد فارس حكم المغول بطريقة مباشرة شعوباً ضخمة مستقرة، شكّلت "القاعدة الضريبية" لإمبراطورياتهم. ولذلك كان من العقلاني أن يحافظ المغول على الطاقة الإنتاجية لهذه الأراضي ويحسّنوها. وقد أنشأ قوبلاي خان على وجه الخصوص أعمالاً كبرى في مجال النقل والري، وهو ما فعله أكثر نواب الخان استنارة.

---

(٣٤) الخان الثاني أو نائب الخان هو لقب حكام الإمبراطورية التي وقعت العراق وبلاد فارس من نصيبها عند تقسيم الإمبراطورية المغولية [المترجم].

أدخل النظامان العملات الورقية التي حققت بعض النجاح في البداية في الصين، فيما فشلت من البداية في التجربة الفارسية. وكانت تبريز عاصمة الخان الثاني مركزاً تجارياً مزدهراً في قلب طرق القوافل الرئيسة، فضلاً عن ارتباطها بحرياً بالصين وجنوب شرق آسيا، كما أثبتت رحلة العودة لماركو بولو في رفقة أميرة من سلالة يوان.

وعلى الرغم من المنافسة والنزاع بين مكونات الإمبراطورية كلها، وبخاصة القبيلة الذهبية ونواب الخان في بلاد فارس، تحقق السلام المغولي فعلاً على الأرض. وحرص المغول على تشجيع التجارة، وغدت الطرق عبر آسيا الوسطى أكثر أماناً وازدحاماً مما كانت عليه قبل المغول ومما صارت إليه بعدهم. ولذلك، فعلى الرغم من عبء النَيْر التتري، شهدت المدن الروسية ازدهاراً كبيراً بفضل المشاركة في تجارة المسافات الطويلة. فكانت نوفغورود ترسل الفراء ومنتجات الغابات الأخرى إلى الغرب في مقابل الفضة والأقمشة الصوفية، وكانت أيضاً تتاجر بشكل نشط مع الشرق. وواصلت تجارة الصين مع الشرق الأوسط ازدهارها. وتمكّنت بلدات صغيرة ومناطق ريفية من دفع الضرائب بالفضة، ما يشير إلى تعرضها للتجارة. ويذكر هالبرين Halperin أدلة على أن القطاعات غير النخبوية من السكان كانت تستهلك بعض السلع التجارية، وأن مدناً كثيرة نفذت مشروعات بناء ضخمة للكاتدرائيات وغيرها من الصروح العامة في أثناء الفترة المغولية[٤١].

وتقدم جانيت أبو لغد صورة حية "للنظام العالمي" المترابط أفقياً وغير الخاضع للهيمنة من العام ١٢٥٠ إلى العام ١٣٥٠، وهي فترة السلام المغولي التي تغطي مناطقنا السبع جميعها[٤٢]. فقد توسعت الروابط عبر خطوات متتالية على طول الطريق من الجزر البريطانية وإسبانيا في الغرب إلى الصين وكوريا واليابان في

الشرق، ومن بيرغن[٣٥] ونوفغورود في الشمال إلى الأرخبيل الإندونيسي في الجنوب. بل امتدت الروابط أبعد من ذلك غرباً، إلى آيسلندا التي كانت تستورد الحبوب في مقابل الأقمشة الصوفية، وامتدت بدرجة أضعف إلى غرينلند التي كانت رغم عزلتها واكتفائها الذاتي، ترسل أحياناً أنياب الفظ أو جلود الدببة القطبية إلى آيسلندا والنرويج[٤٣]. ويذكر لوبيز أن شركة مقرها مدينة لوكا الإيطالية أرسلت وكلاء لها إلى غرينلند لجمع الأعشار البابوية[٤٤]. وعلى الرغم من أن المواد خفيفة الوزن عالية القيمة، كالتوابل والحرير والفراء والعبيد، كانت المفضلة دون غيرها لتجارة المسافات الطويلة، فقد ظهرت أسواق إقليمية كثيرة للمواد الثقيلة كالحبوب وزيت الزيتون والخشب. كما تطورت أيضاً البنية التحتية المادية والمؤسسية اللازمة لدعم هذه التجارة، في شكل النقل ونظم الائتمان، وأثبت رحالة من أمثال ابن بطوطة وماركو بولو والمبعوثين البابويين المختلفين مدى السهولة والأمان النسبيين لقطع مسافات هائلة.

وإلى جانب شهادة ماركو بولو والمبعوثين البابويين، توجد أيضاً المعلومات الواردة في كتاب "دليل التجارة" الذي نشره الفلورنسي فرانسيسكو بلدوتشي بيغولوتي Francesco Balducci Pegolotti في أوائل العقد الخامس من القرن الرابع عشر. يذكر الكتاب أن الطريق البري من القرم إلى بكين كان "آمناً تماماً سواء في النهار أو في الليل"[٤٥]، وبالنظر إلى الحضور الإيطالي في البحر الأسود وحوله، فقد كان الإيطاليون أكثر مَنْ استفاد من الفرص التي أتاحتها الفتوحات المغولية. ومع أن الرحلة كانت آمنة نسبياً، كما قيل، إلا أنها كانت طويلة، حيث كانت تستغرق من ثمانية إلى أحد عشر شهراً للوصول إلى الصين من القرم[٤٦]. ومع ذلك، فقد كان من الممكن تحقيق أرباح ضخمة بتقليل الوسطاء. فوفقاً لبيغولوتي، كانت تكلفة السفر والرسوم الجمركية على

---

(٣٥) بيرغن Bergen مدينة وميناء على الساحل الغربي للنرويج، بدأت التجارة فيها في أوائل القرن الحادي عشر [المترجم].

القافلة الواحدة تبلغ زهاء ثلاثة آلاف وخمسمئة فلورين، بينما كانت البضاعة يمكن أن تباع بنحو خمسة وعشرين ألف فلورين[٤٧]. ولذلك توافد الإيطاليون بأعداد كبيرة على بلاد فارس وسهول القبجاك، بينما استقرت أعداد لا بأس بها من مواطنيهم في الصين لدرجة أن الفرانسيسكان شيّدوا فندقاً في كوانزهو لإيواء التجار الكاثوليك[٤٨]. وفي العام ١٣٢٣، أقيمت أسقفية في كوانزهو، على الرغم من أن المبشرين الفرانسيسكان من أمثال أودوريك البوردينوني Odoric of Pordenone (الذي رافقه في رحلاته شخص يدعى جيمس الإيبرنياني James of Hibernia الذي يبدو أن روايته لرحلاته قد سرقها مؤلف الرواية الإنجليزية رحلات ماندفيل Mandeville's Travels التي كُتِبت إبان القرن الرابع عشر) لم يحققوا نجاحاً في جهودهم لإدخال الصينيين في المسيحية[٤٩].

ويذهب ديفيد أبولافيا David Abulafia إلى أن الأوروبيين جاؤوا إلى الصين لشراء السلع التصديرية الصينية الفاخرة التقليدية مثل الحرير، وكذلك توابل جنوب شرق آسيا التي كانت تُشحَن شمالاً إلى اليابسة الآسيوية قبل أن يشتريها التجار المسيحيون (والمسلمون)[٥٠]. وإذا أخذنا في الحسبان مزايا التكلفة التي تميّز بها النقل البحري على النقل البري في ذلك الزمان، فإن ذلك دليل رائع على اندماج الاقتصاد الأوراسي في تلك الفترة، على الرغم من وجود خاسرين بالضرورة في هذه العملية، كانت مصر من أبرزهم. فلم يرسل البنادقة قافلة واحدة إلى مصر بين العامين ١٣٢٣ و١٣٤٥[٥١]، إذ فرض السلام المغولي تكلفة اقتصادية على العالم الإسلامي، بعد التكاليف البشعة التي فرضتها عليه الحروب المغولية. كان الإيطاليون يدفعون ثمن مشترياتهم "بالجواهر والخيول والساعات الميكانيكية والأقمشة الكتانية والصوفية الفاخرة"[٥٢]. جرب بعضهم طرقاً مباشرة بدرجة أكبر للوصول إلى التوابل الشرقية، ويقال إن كثيراً من الإيطاليين وصلوا إلى الهند في هذه الفترة[٥٣]. ويذكر فيليبس أن مجموعة من البحارة الجنويين وضعوا

في العام ١٢٩٠ خطة للإبحار أدنى نهر دجلة ووصلوا إلى المحيط الهندي من ذلك الطريق[٥٤].

وللمرة الأولى، أصبحت السلع تنتقل حرة عبر كل أجزاء العالم المعروف، وكذلك الناس والتقنيات والأفكار. ومن ذلك على سبيل المثال أن جون المونتيكورفيني John of Monte Corvino ترجم العهد الجديد وسفر المزامير المسيحي إلى اللغة التترية[٥٥]. على أن تدفق المعلومات ثبت أنه أكثر تأثيراً بكثير في الاتجاه المعاكس، أي من الشرق إلى الغرب، إذ أخذ التغير التقني في أوروبا الغربية دفعة قوية مع انتشار الاختراعات الصينية في تلك الفترة، كما أكد نيدهام Needham[٥٦]. على أن الدليل الأهم على الاندماج العالمي الذي حققه السلام المغولي يكشف عن نفسه في شكل بيانات الأسعار التي يذكرها لوبيز والتي تؤكد أن الحرير الصيني كان يباع في إيطاليا في تلك الفترة بما لا يزيد عن ثلاثة أضعاف السعر الذي اشْتُري به في الصين[٥٧].

متى بدأت"العولمة" إذن؟ مع أن الإجابة تعتمد على التعريف المستخدم، إلا أنه توجد أدلة قوية تؤكد أن العولمة بدأت مع توحيد اليابسة الأوراسية الوسطى بفعل الفتوحات المغولية وردود الفعل التي أثارتها في الحضارات المستقرة التي فتحوها. فكل الحضارات السابقة على الفتوحات المغولية كانت تدرك وجود بعضها البعض، لكن ككيانات منعزلة وحسب، وليس كمكونات تفاعلية في نظام موحد. وفي أوروبا، عملت أساطير "الكاهن يوحنا"(٣٦)، ذلك البطل المسيحي الأسطوري في الشرق الذي

(٣٦) الكاهن يوحنا Prester John ملك مسيحي أسطوري يقال إنه حكم دولة مسيحية في وسط البلاد الإسلامية والوثنية في الشرق من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع عشر، وقد حِيكت حول أعماله وأوصافه العديد من الحكايات، واشتغل الكثير من البحارة والمغامرين المعاصرين بالبحث عن مملكته، والكثير من الباحثين الحديثين بالبحث في أصول أسطورته. فقيل إن مملكته كانت تقع على حدود الجنة الأرضية وتضم عجائب منها بوابات الإسكندر وينبوع الشباب والمرآة التي كان يراقب منها كل مقاطعات مملكته. ربما ترجع أسطورته إلى العزلة التي وجدت الحملات الصليبية نفسها فيها في الأراضي المقدسة، ولذلك ارتقبوا دعماً من الشرق الأقصى الغامض، ففي العام ١١٤٥ نقل أسقف سرياني أخباراً إلى البلاط البابوي بوجود راهب وملك قوي بعد بلاد فارس وأنه أحرز نصراً على المسلمين، ربما كان يقصد معركة قطوان في فارس التي هُزِم فيها جيش من الأتراك في العام ١١٤١ أمام قائد

فهم الأوروبيون خطأ أنه جنكيز خان وغيره من الفاتحين البدو غير المسلمين، حتى هذه الأساطير عملت على تقديم إطار جيوسياسي موحد، ما شجع التفكير في فتح جبهة شرقية ضد الإسلام، وأثار الرغبة في التواصل بحراً أو براً مع هذه العوالم القابعة فيما وراء العالم الإسلامي لأغراض دينية وعسكرية وتجارية[٣٧]. ونتيجة لمنافسة البنادقة للجنويين على البر، فكر الأخيرون في حيلة للدوران حول أفريقيا في أواخر القرن الثالث عشر، وكان من نتائج ذلك رحلة الأخوين فيفالدي المفقودة في العام ١٢٩١[٣٨]. ثم نفذ جنوي آخر محاولة مماثلة بعد قرنين. وبتعبير أدشيد، فإن "أوروبا حين سيطرت على العالم، فإنها قد فعلت ذلك لأنها أدركت قبل غيرها أن هناك عالماً يمكن السيطرة عليه. فثمة خط مستقيم يمتد من ماركو بولو إلى كرستوفر كولومبس، ومن البنادقة الذين ركزوا نظرهم على الشرق إلى الجنويين الذين ركزوا نظرهم على الغرب"[٥٨].

أوراسيا في عشية الطاعون

تغير الموقع النسبي لوحداتنا الإقليمية السبع في العام ١٣٥٠ بدرجة كبيرة عما كانت عليه الحال في العام ١٠٠٠. فأوروبا الغربية التي كانت "منطقة خلفية" متخلفة بالنسبة لبيزنطة والعالم الإسلامي في بداية الألفية طورت قاعدة زراعية عالية الإنتاجية، أدت إلى زيادة كبيرة في عدد السكان، واجتازت أيضاً ما أسماه روبرت لوبيز "الثورة التجارية"[٥٩]، وكانت للمدن الإيطالية الريادة في توسيع مدى التجارة

مغولي يدعى كور خان مؤسس دولة القرخطاي التي حكمت في آسيا الوسطى وشمال الصين، وكان بعض أتباعه من النسطوريين وربما حرفوا اسمه إلى يوحنا [المترجم].

(٣٧) كان الغرض الأساسي من رحلة كولومبس التي تعثر فيها بكوبا- كما ورد في تقديم المترجم- هو الالتفاف حول العالم الإسلامي وفتح جبهة شرقية ضده وتوجيه ضربة مزدوجة له، بعد فشل الحملات الصليبية على المشرق [المترجم].

(٣٨) كان الأخوان فاندينو Vandino وأوغولينو Ugolino فيفالدي Vivaldi مستشكفين وبحارين جنويين، خرجا في مايو ١٢٩١ على رأس بعثة استكشافية للوصول من أوروبا إلى الهند عبر المحيط الأطلسي، أبحرا من جنوى وعبرا الساحل المغربي إلى مكان يعرف برأس نون أو شونار جنوب المغرب، ولم يعرف عن بعثتهم شيء بعد ذلك، وتعد بعثتهما من أوائل البعثات الاستكشافية [المترجم].

وتنوعها بحراً وبراً، فضلاً عن تقديم تجديدات تقنية مهمة في صناعات المنسوجات وبناء السفن والتقنيات الملاحية. وأفسحت النقابات التجارية من اليونانيين والسوريين واليهود التي لعبت دوراً بارزاً في تجارة المسافات الطويلة في العام ١٠٠٠، الطريق أمام المنافسين الأقوياء من البنادقة والجنويين الذين كانت تدعمهم القوة المسلحة في حال الضرورة. والشحن في البحر الأبيض المتوسط الذي كان في السابق يخضع لسيطرة بيزنطة والمسلمين، أصبح حينئذ في أيدي الإيطاليين بالدرجة الأولى. وامتد نطاق تجارتهم من القنال الإنجليزي إلى البحر الأسود بحلول العام ١٣٥٠، مع زيادة في تكرار الرحلات وسرعتها بفضل تبني البوصلة وتجديدات ملاحية أخرى.

رأينا فيما سبق أن تجارة المسافات الطويلة عَرَّفت التجار الغربيين بعديد من الممارسات المالية المتطورة، لكنها أعطتهم أيضاً الدافع لتبني هذه الممارسات. ولذلك فإن الثورة التجارية التي تضمنت التجارة مع آسيا وأيضاً الزيادة في التجارة الأوروبية البينية سريعة النمو التي قدمنا وصفاً لها في الفصل السابق، حفزت كثيراً من التجديدات المهمة في أوروبا، كان من بينها الحوالات التي قابلناها في موضع سابق، وكذلك أعمال الإيداع المصرفي والتأمين و"المحاسبة التجارية والمصرفية التي تطورت تدريجياً من أوراق فوضوية إلى عمودين منفصلين لجانب المدين وجانب الدائن، وفي النهاية إلى محاسبة القيد المزدوج الصارمة"[٦٠]. وشجعت التجارة الأوروبية الداخلية في هذه الفترة التخصص الصناعي والزراعي على حد سواء، وقد كانت لذلك تأثيرات مفيدة على مستويات المعيشة الأوروبية. وكان التحول الحضري Urbanization عنصراً مكملاً لهذه العملية، وتخصصت المدن في تصنيع مواد بعينها ومبادلتها بالمواد الغذائية المستوْردة[٦١]. وهكذا "انتقلت التجارة من حافة الحياة اليومية إلى قلبها" في أوروبا، و"أصبحت القوة الدافعة للتقدم الاقتصادي"[٦٢].

وعلى الجانب الآخر، كان العالم الإسلامي يجتاز وعكة اقتصادية امتدت من شبه الجزيرة الأيبيرية التي طردهم التقدم المسيحي منها، على طول الطريق إلى العراق وإيران في الشرق اللتين ترنحتا أمام الهجمة المغولية. صحيح أنه حدث تحسن تدريجي

بعد الدمار الأولي، لكن لا شك في أن بغداد وبخارى وسمرقند وغيرها من المدن المزدهرة كانت أزمان عزها قد ولّت قبل وقت طويل. وكانت دول شمال أفريقيا فقط، وتحديداً مصر وسوريا تحت الحكم المملوكي، هي التي لا تزال تمارس قوة سياسية وعسكرية هائلة. لكن ثروة الدولة المملوكية كانت قد أصبحت معتمدة تماماً على الريوع من تجارة العبور في التوابل والمنتجات الشرقية الأخرى، حينما حوّل السلام المغولي التجارة بعيداً عن البحر الأحمر إلى الطريق البري. وعانت بيزنطة كوارث كبرى إبان الفترة ١٠٠٠- ١٣٥٠، بدءاً من فقدان غرب الأناضول لصالح الأتراك، إلى احتلال القسطنطينية نفسها من جانب الصليبيين اللاتينيين من العام ١٢٠٤ إلى العام ١٢٦١. وحتى بعد إعادة الأباطرة البيزنطيين، آلت السيطرة على الحياة الاقتصادية للإمبراطورية على نحو متزايد إلى أيدي الجنويين والبنادقة. أما دولة روسيا الكييفية، فعلى الرغم من أنها تمتعت بانطلاقة واعدة في ظل الرعاية الثقافية للكنيسة الأرثوذكسية، فقد وقعت فريسة للمغول، وغدت الدول التي خَلَفتها مجرد دول تابعة لسادتهم من أبناء السهل من القبيلة الذهبية وجباة ضرائب لصالحهم.

كان التغيير الجذري في تلك الفترة هو سيطرة البدو من المغول الأتراك بآسيا الوسطى على اليابسة الأوراسية من جبال الأورال إلى المحيط الهادي. كانت هذه القبائل قد أسست في العام ١٠٠٠ إمبراطورية الخزر في الغرب على حدود بيزنطة وروسيا الكييفية والعالم الإسلامي، وكذلك إمبراطوريتي الخيتان والتانكوتيين في الشرق على حدود إمبراطورية سونغ الصينية. وبحلول العام ١٣٥٠، كان المغول قد غزوا الصين كلها في الشرق، والعراق وإيران في الغرب، وحوّلوا الإمارات الروسية إلى كيانات تابعة لهم. وكذلك خضعت دلهي والسهول الهندية الشمالية الخصبة لسلالات حاكمة تركية من الجنود الرقيق، وحتى المماليك الذين حكموا مصر وسوريا في ذلك العصر

كانوا في معظمهم من الأتراك والقبجاك. كما نفذوا غزوات غير ناجحة على اليابان وجاوة عن طريق البحر، وهاجموا بورما وفيتنام على يابسة جنوب شرق آسيا.

وعلى أية حال، فقد تمكن العالم الإسلامي من تحويل الهزيمة العسكرية إلى نصر ثقافي باعتناق نواب الخان والقبيلة الذهبية الإسلام، على الرغم من تمسكهم السابق بالشامانية وتجريبهم للبوذية والمسيحية النسطورية. وكما رأينا آنفاً، فقد طُرِد الصليبيون من مواطئ أقدامهم في فلسطين وسوريا. وبذلك تم الحفاظ على الامتداد الإقليمي لدار الإسلام، بل وتوسيعها إلى النصف الشمالي من الهند في حكم سلطنة دلهي، فيما تمثلت خسارتهم الوحيدة في شبه الجزيرة الأيبيرية(٣٩). فقد تمكّن الإسلام من خلال دمج بدو السهل الأتراك المحاربين الأقوياء في حظيرته الثقافية من امتصاص الهجمة المغولية التي ألحقت به أضراراً بالغة إبان القرن الثالث عشر وتجاوزها. وذاب المغول في بلاد فارس وعلى المناطق الحدودية الروسية تدريجياً في الجماعات التركية الكبرى التي اقترنوا بها وكانت تربطهم بها صلات ثقافية ولغوية.

الطاعون

تسبب الاندماج الذي حققه السلام المغولي في النتيجة المأساوية التي أسماها لو روي لادوري Le Roy Ladurie "توحيد الكرة الأرضية بالمرض" أو بناء "سوق ميكروبي مشترك"[٦٣]. فلم يحدث التوحيد التصوري للعالم إلى جانب التوحيد الاقتصادي وحسب، كما أشرنا سابقاً، وإنما أيضاً التوحيد البيولوجي. فأخذت البكتيريا والفيروسات التي كانت لمدة طويلة مقصورة على مناطق محلية معينة، تنتقل وتختلط مع حركة البشر والحيوانات عبر المسافات الطويلة، كما حدث مثلاً مع تحركات الفرسان المغول. وفي ذلك يرى ماكنيل McNeill أن جراثيم الطاعون انتقلت مع القوات

(٣٩) يقصد المؤلف فقدان الأندلس الذي اكتمل بسقوط آخر ممالك المسلمين فيها، وهي غرناطة، أمام جيوش الملكين الكاثوليكيين فيردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية في العام ١٤٩٢ [المترجم].

المغولية من الحدود بين بورما ويونان إلى آسيا الوسطى، وأخيراً إلى المحطة التجارية الجنوية بمدينة كافا Kaffa (فيودوسيا Feodosiya) على البحر الأسود في العام ١٣٤٧[٦٤](٤٠). ومن القصص المتواترة أن خان القبيلة الذهبية جانيبغ Janibeg أمر بقذف الجثث المصابة بالطاعون بالمنجنيق على مدينة كافا حين حاصرها في العام ١٣٤٧، ومنها انتقل الطاعون على سفينة جنوية إلى ميسينا Messina بصقلية. وانتشر سريعاً إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط، وأيضاً عبر أوروبا ومصر وسوريا. وقد قُدّر معدل الوفيات الأوروبي الإجمالي بين ربع السكان وثلثهم، وكان أعلى ما يكون في المناطق كثيفة السكان في الغرب، وأدنى ما يكون في الشرق المخلخل سكانياً[٦٥]. ويذكر كارلو سيبولا Carlo Cipolla أن الطاعون قتل إبان الفترة من العام ١٣٤٨ إلى العام ١٣٥١ زهاء خمسة وعشرين مليون شخص من إجمالي سكان أوروبا البالغ عددهم ثمانين مليوناً[٦٦]. وتكرر الطاعون في موجات أقل شدة حتى نهاية القرن السادس عشر. لقد كان الطاعون- بلا شك- الكارثة الكبرى التي ضربت العالم الغربي خلال الألفية الثانية، حتى مع أخذ الحربين العالميتين إبان القرن العشرين في الحسبان. ويذكر دولز Dols أن تأثير الطاعون على العالم الإسلامي لم يكن أقل حدة عما حدث في أوروبا، إن لم يزد عنه حدة[٦٧]. فيما بقي من هذا الفصل، نتناول نتائج تلك الكارثة والتعافي اللاحق منها في حجم التجارة العالمية ونمطها.

عند تحليل النتائج الاقتصادية للطاعون، يتضح أن تأثيره المباشر تمثل في هبوط حاد في الإنتاج الإجمالي، في مقابل ارتفاع في معدل الدخل الحقيقي والثروة لكل

---

(٤٠) يشكل السؤال عن نوعية هذه الجراثيم، وما إذا كانت جرثومة الطاعون الدبلي أم جرثومة باستوريلا pasteurella pestis أم غيرها قضية جدلية اليوم. للحصول على الآراء الأخيرة المختلفة حول الموضوع، انظر Cohn (2003) and Benedictow (2004). ولكي لا نتخذ موقفاً من هذه القضية الخلافية، سنستخدم فيما يلي مصطلحي "الطاعون الأسود" Black Death "والطاعون" plague بالتبادل.

فرد، لأن الطاعون لم يؤثر على الأرض ورأس المال المادي، وكذلك قطعان الماشية(٤١). ومع تناقص غلة العمل(٤٢)، نتوقع ارتفاعاً في الأجر الحقيقي، وبالتالي انخفاضاً في الإيجار لكل هكتار وعائدات رأس المال المادي. وعلاوة على ذلك، يقودنا المبدأ الشهير بنظرية ريبزينسكي Rybczynski للتجارة إلى توقع حدوث ارتفاع في الأسعار النسبية للسلع كثيفة العمالة وانخفاض في الأسعار النسبية للسلع كثيفة الاستخدام للأرض، لأن ناتج الأولى يتقلص وناتج الأخيرة يتوسع إذا ظلت الأسعار النسبية للمنتجات ثابتة. ومع زيادة معدل دخل الفرد، نتوقع أيضاً ازدهاراً في أسواق سلع الترف وتراجعاً نسبياً في أسواق السلع الأساسية مثل الغذاء والمواد الضرورية الأخرى.

نتحول الآن إلى الأدبيات التاريخية حول الموضوع لنتحقق من صحة هذه التنبؤات الكلاسيكية المُحْدَثة البسيطة، مع التركيز على الأدلة الأوروبية. وإذا ثبتت دقة هذه التنبؤات، يكون من اليسير حسم مسألة جدلية كبرى بين لوبيز وميسكمين Lopez and Miskimin[٦٨] من جانب وسيبولا[٦٩] من جانب آخر. كتب المؤلفان الأولان عن "كساد عصر النهضة"(٤٣)، لأن الازدهار الثقافي على مدى القرن ونصف القرن التاليين صحبه تراجع في السكان والإنتاج والتجارة في نحو العام ١٣٥٠، ثم حدث تحسن

(٤١) يعتمد التحليل التالي بالدرجة الأولى على أعمال فيندلاي ولونذال (Findlay and Lundahl, 2003, 2006). ومن المؤكد أن هذه التنبؤات تنطبق على المناطق التي كانت الأرض الزراعية نادرة فيها مثل أوروبا الغربية والصين، وبدرجة أقل على المجتمعات التخومية مثل آسيا الوسطى التي كان المعروض من الأرض فيها غير محدود وكان الناتج الحدي للعمل ثابتاً نسبياً.

(٤٢) ينص قانون تناقص الغلة على أنه "إذا زادت كمية أحد عناصر الإنتاج بوحدات متساوية، بينما ظلت كمية عناصر الإنتاج الأخرى ثابتة، فإنه بعد حد معين يأخذ الناتج الحدي والناتج المتوسط في التناقص" [المترجم].

(٤٣) يغطي عصر النهضة القرون من الرابع عشر إلى السابع عشر، بدأ كحركة ثقافية في إيطاليا إبان العصور الوسطى المتأخرة وامتد لاحقاً إلى بقية أوروبا [المترجم].

تدريجي بعد ذلك فقط. ويذكر سيبولا- في المقابل- أدلة على حدوث تحسن لكل فرد. وتتضح "أطروحة التحسن الفردي" بجلاء، حين يلاحظ بريدبيري Bridbury[٧٠] أن إنجلترا، وضمناً بقية أوروبا الغربية التي عانت من آثار الطاعون، قد "أُعطيت نوعاً من معونة مارشال على نطاق هائل"[٧١].

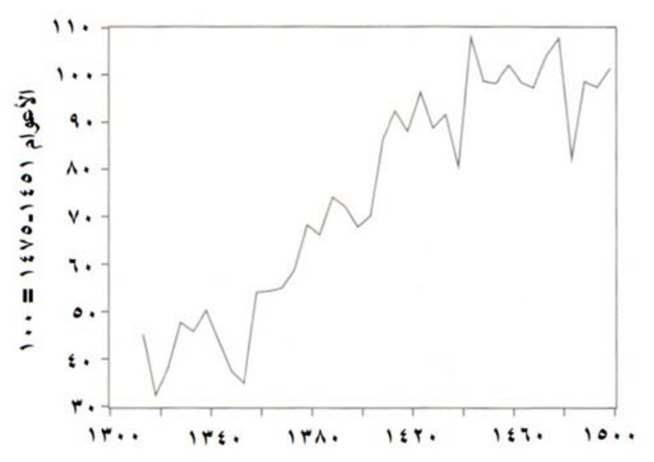
من الواضح أن الحقائق الأساسية تتفق مع توقعاتنا النظرية وأطروحة التحسن الفردي. يعرض الشكل رقم (٣،٢) بيانات جون منرو John Munro للأجور الحقيقية لعمال البناء الإنجليز إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر[٧٢]. وكما نرى، فإن البيانات تكشف ارتفاعاً حاداً في الأجور الحقيقية الإنجليزية بداية من منتصف القرن الرابع عشر. وواصلت الأجور الحقيقية الارتفاع على مدى قرن تقريباً، ولذلك ففي منتصف القرن الخامس عشر، كان العمال يحققون دخلاً حقيقياً أكثر من ضعف ما كانوا ينالونه في عشية الطاعون(٤٤). ولم تقتصر هذه الاتجاهات للأجور على إنجلترا وحدها. فبيانات إيرل هاملتون Earl Hamilton للأجور الحقيقية في نافارا(٤٥) توضح أن الأجور الحقيقية للعمال ارتفعت أكثر من الضعف بين أوائل العقد السادس من القرن الرابع عشر والنصف الأول من العقد الأول من القرن الخامس عشر، قبل أن تنخفض بنحو الخُمس[٧٣]. وفي العام ١٣٦٣، اشتكى مراقب فلورنسي معاصر يدعى ماتيو فيلاني Matteo Villani من "الخادمات المنزليات وصبية الاسطبلات ... الذين يريدون اثني عشر فلوريناً على الأقل في العام، والمميّز بينهم يريد ثمانية عشر أو حتى عشرين فلوريناً في العام، وكذلك المربيات والحرفيون الصغار الذين يعملون بأيديهم يريدون

---

(٤٤) توضح بيانات كلارك (Clark, 2005) الشيء نفسه تقريباً، إضافة إلى هبوط الأجور في أثناء التوسع السكاني إبان القرن الثالث عشر.

(٤٥) نافارا Navarre منطقة في شمال إسبانيا، على حدود إقليم الباسك ولارويخا وآراغون في إسبانيا وأكواتان في فرنسا، عاصمتها بامبلونا Pamplona [المترجم].

ثلاثة أضعاف الأجر العادي أو نحو ذلك"[٧٤]. واشتكى الرجل في الوقت نفسه من التضخم المتفشي، لكن قوله إن "عامة الناس بسبب الوفرة الزائدة التي يجدونها لم يعودوا يعملون في حرفهم المعتادة، وأخذوا يتطلعون إلى أشهى الأطعمة وأعلاها ثمناً... في حين يرتدي الأطفال والعاهرات الملابس الجميلة والغالية لعلية القوم الذين وافاهم الأجل"[٧٥] يكشف أيضاً- أي هذا القول- أن مستويات معيشة الفقراء تحسنت هناك إجمالاً(٤٦). وأخيراً، يتضح أن الأجور الحقيقية الحضرية زادت إلى الضعف تقريباً في مصر وبيزنطة ومنطقة البلقان، وكذلك في أوروبا الغربية[٧٦].



الشكل رقم (٣,٢). أجور البناء الحقيقية في إنجلترا إبان الفترة ١٣٠٠-١٥٠٠ (الفترة ١٤٥١-١٤٧٥ = ١٠٠).

المصدر: Munro (2004)

(٤٦) ثمة استثناء مهم لهذا الاتجاه في الأدبيات يقدمه منرو (Munor, 2004) يقول إن أجور البناء الحقيقية في بروج Bruges هبطت بنسبة ٣٠٪ تقريباً بين العامين ١٣٤٩- ١٣٥٠ والأعوام ١٣٥٦- ١٣٦٠، وبدأت في الارتفاع بعد ذلك، وبلغت ذروتها في الأعوام ١٤٠١- ١٤٠٥ (وعند هذه المرحلة كانت أعلى بنحو ١٥٪ من مستواها في العامين ١٣٤٩- ١٣٥٠).

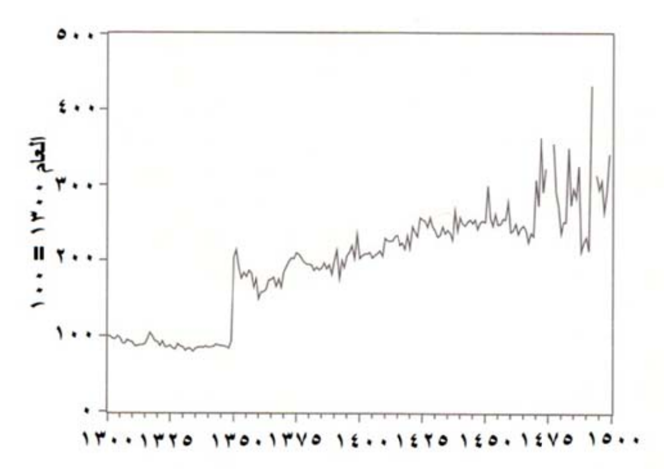
يوضح الشكل رقم (٣,٣) أن العمال راجت تجارتهم بكل من الأرقام المطلقة والنسبية. فكما يتضح من الشكل، تراجعت نسبة الأجور الإنجليزية إلى إيجار الأراضي بثبات من العام ١٣٠٠ إلى العام ١٣٥٠، لكن الطاعون أدى إلى مضاعفة فورية لنسبة الأجور إلى إيجار الأراضي، تلاها زيادة ثابتة على مدى القرن التالي. وقد اتسعت المدن والبلدات في أعقاب الطاعون، مقارنة بما حدث بعد طاعون جوستنيان، وهو ما يعكس التأثيرات الإيجابية لارتفاع مستويات المعيشة على التحول الحضري، التي عوضت التأثيرات السلبية لانخفاض السكان. ولذلك يذكر بوتير Bautier أن سكان باريس ازدادوا من نحو مئة ألف نسمة في بداية القرن الرابع عشر إلى نحو ثلاثمئة ألف بحلول القرن السادس عشر[٧٧]. وازداد عدد سكان لوبيك(٤٧) من خمسة عشر ألف نسمة في نحو العام ١٣٠٠ إلى خمسة وعشرين ألفاً إبان القرن الخامس عشر، وهامبرغ من خمسة آلاف نسمة في نحو العام ١٣٠٠ إلى ستة عشر ألفاً في نحو العام ١٤٥٠، وبريمين من اثنتي عشر ألف نسمة قبل الطاعون إلى سبعة عشر ألفاً في نحو العام ١٤٠٠، ودانزيغ(٤٨) من ألفي نسمة في العام ١٣٠٠ إلى عشرين ألفاً بحلول منتصف القرن الخامس عشر[٧٨].

وفي مجال الزراعة حدث توسع في النشاطات التي تعتمد على كثافة الأرض مثل تربية الأغنام والماشية، في مقابل زراعة الحبوب. وفي حال ثبات العوامل الأخرى (خاصة الطلب)، فإن ذلك أدى بالتأكيد إلى هبوط في الأسعار النسبية للمنتجات الحيوانية مثل الصوف.

---

(٤٧) لوبيك Lubeck ثاني أكبر مدينة بولاية شليسفيش هولشتاين بشمال ألمانيا تقع على بحر البلطيق، كانت عاصمة الرابطة الهانزية [المترجم].

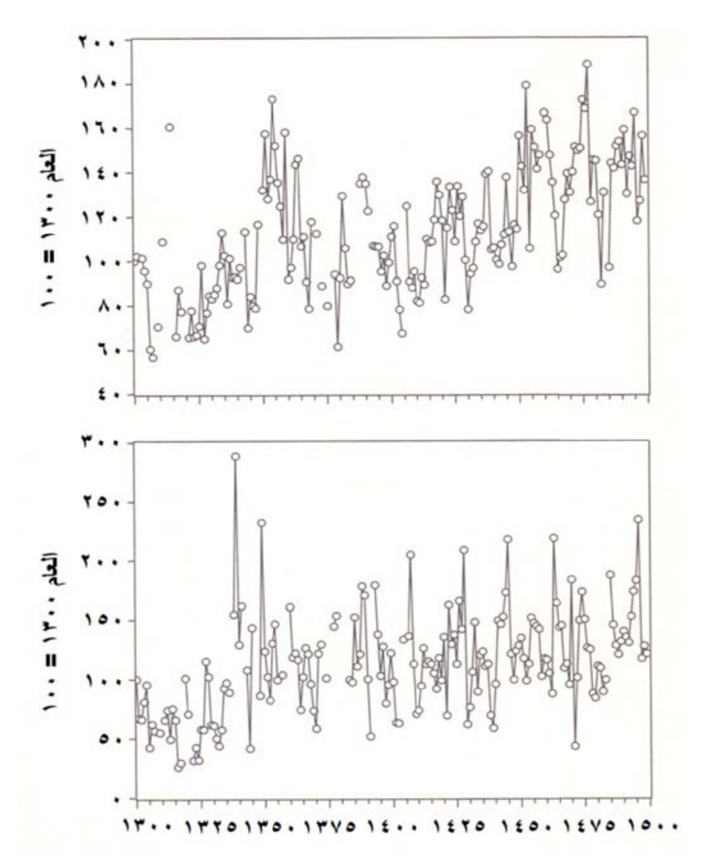
(٤٨) دانزيغ Danzig (باللغة الألمانية) مدنية بولندية على ساحل البلطيق اسمها بالبولندية هو غدانسك Gdansk [المترجم].



الشكل رقم (٣,٣). نسبة الأجور إلى إيجار الأرض في إنجلترا إبان الفترة ١٣٠٠–١٥٠٠ (العام ١٣٠٠ = ١٠٠).

المصدر: نشكر غريغ كلارك Greg Clark على تزويدنا بهذه البيانات

وقد أحدث هذا الهبوط، إلى جانب مرونة الطلب العالية على المنسوجات الصوفية عالية النوعية، ازدهاراً طويلاً في صناعة الأقمشة الصوفية، وهي القطاع الصناعي الرائد في العصور الوسطى. يوضح الجزء (أ) من الشكل رقم (٣,٤) أن أسعار الأقمشة الصوفية أخذت ترتفع بثبات مقارنة بأسعار الصوف بين العامين ١٣٥٠ و١٥٠٠، ومع أن ذلك نتج على الأرجح عن التكلفة الأعلى للعمال، فليس من المفاجئ أن تنمو هذه الصناعة بقوة مذهلة في تلك الفترة، وتركز النسج في بلدات فلندرة والتشطيب والصبغ في فلورنسا والمدن الإيطالية الشمالية الأخرى. وقد وفرت الضرائب على صادرات الصوف الخام التي فرضها إدوارد الثالث لتمويل حروبه في فرنسا "حماية فعالة" لصناعة المنسوجات الصوفية في إنجلترا، كما أشارت إيلين باور Eileen Power قبل فترة طويلة[٧٩]، ودفعت تحولاً في تركيب الصادرات من الصوف الخام إلى الأقمشة، على حساب منطقة فلندرة.

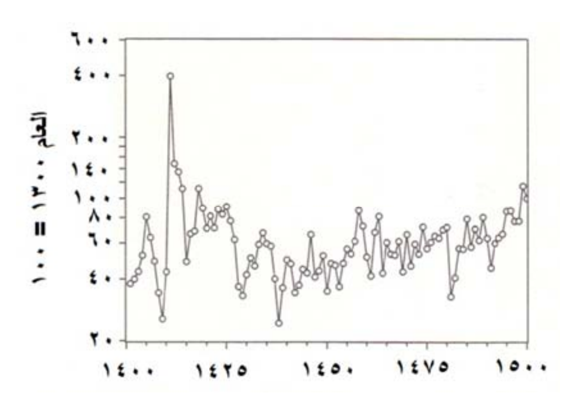


الشكل رقم (٣,٤) .اتجاهات الأسعار النسبية للسلع في إنجلترا إبان الفترة ١٣٠٠–١٥٠٠ (العام ١٣٠٠ = ١٠٠): (أ) نسبة أسعار الأقمشة الصوفية إلى أسعار الصوف، (ب) نسبة أسعار النبيذ وخمر البورت إلى أسعار القمح.

المصدر: نشكر غريغ كلارك Greg Clark على تزويدنا بهذه البيانات.

أدت مرونة الدخل العالية على طلب النبيذ والبيرة إلى ارتفاع أسعارهما النسبية (الجزء "ب" من الشكل رقم٣.٤)، ما دفع بدوره توسعاً في مزارع العنب والشعير على حساب القمح. ربما كان الأهم من ذلك كثيراً بالنسبة للتجارة بين القارات هو تأثير ارتفاع مستويات المعيشة على الأسعار النسبية للتوابل الآسيوية التي ارتفعت بشدة كما

هو متوقع. وتوضح بيانات هاملتون أن أسعار التوابل الآسيوية في نافارا تضاعفت نسبة إلى السلع الزراعية في ربع القرن الذي تلا الطاعون[٨٠]، وتكشف بيانات غريغ كلارك أن شيئاً مماثلاً حدث في إنجلترا، حيث كانت الأسعار النسبية للتوابل منخفضة في أثناء السلام المغولي، وتلتها أسعار نسبية أعلى كثيراً بداية من العقد الخامس من القرن الرابع عشر فصاعداً. ويوضح الشكل رقم (٣,٥) أن الأسعار النسبية للفلفل في إنجلترا ارتفعت خلال القرن الخامس عشر، على الرغم من أن هذا الاتجاه يحجبه نتوء رائع في أسعار الفلفل في العام ١٤١١ أو نحوه استمر طوال هذا العقد والعقد الذي تلاه. وفي حال تحييد هذا النتوء الذي سنعود إليه لاحقاً، يتضح الاتجاه الصاعد لأسعار الفلفل بدرجة لا تخطئها عين. والشيء نفسه ينطبق على الأسعار الحقيقية للفلفل في فيينا وهولندا، على الرغم من أن الاتجاه الصاعد في الحالة الأخيرة كان دالاً إحصائياً بدرجة ضعيفة[٨١].



الشكل رقم (٣,٥) .أسعار الفلفل السنوية في إنجلترا إبان الفترة ١٤٠١–١٥٠٠ نسبة إلى الحبوب (العام ١٥٠٠ = ١٠٠).

المصدر: O'Rourke and Williamson (forthcoming)

نزيف هائل للعرض النقدي المملوكي، ذهب في مقابل إعادة ملء صفوف المماليك خَلّف الطاعون أيضاً آثاراً نقدية على أوروبا، أوجزها ديفيد هيرلي David Herlihy في عبارة لا تنسى نصها "مات الرجال، فيما نجت العملات"(٤٩). فمن حيث معادلة فيشر الشهيرة (ق ع = ن س)(٥٠)، لم تتغير ق ع (العرض النقدي "ق" مضروباً في السرعة "ع") في البداية، لكن الناتج "ن" انخفض نتيجة للانخفاض في عدد السكان، ولذلك كان لا بد أن ترتفع الأسعار "س". وتمثلت نتيجة ذلك فيما أسماه منرو "الانفجار المفاجئ لتضخم مفزع جداً"، حيث ارتفعت أسعار السلع بشدة نسبة إلى الفضة"[٨٢]. وهذا الهبوط في الأسعار النسبية للفضة أدى بدوره إلى خفض إنتاج الفضة (والذهب) في أوروبا[٨٣] الذي تزامن - كما رأينا - مع زيادة في الطلب الأوروبي على السلع التجارية الشرقية. ونظراً لأن أثمان هذه السلع كانت تدفع بالفضة بالدرجة الأولى، فقد تمثل التأثير الصافي لذلك في تراجع المخزون الأوروبي من العملات الفضية، ما جعل جون داي John Day يتحدث عن "مجاعة السبائك الكبرى إبان القرن الخامس عشر"[٨٤](٥١). تتبع لوبيز وميسكيمين وأودوفيتش تدفق السبائك من إنجلترا إلى مصر عن طريق إيطاليا بين العامين ١٣٥٠ و١٥٠٠، ووجدوا أن كل ما كانت مصر تجمعه من السبائك من الغرب، كانت تفقده في النهاية لصالح الهند والشرق الأقصى"[٨٥]. فثمة نزيف هائل للعرض النقدي المملوكي، ذهب في مقابل إعادة ملء صفوف المماليك أنفسهم بواردات جديدة من الرقيق الصبية الذكور القادمين من السهول عبر البحر الأسود. وبالنظر إلى أن كل عبد كان يكلّف ما بين خمسين ومئة وأربعين ديناراً ذهبياً، فإن استيراد ألفي عبد سنوياً كان يكلّف مصر ما بين مئة ألف ومئتين وثمانين ألف دينار ذهبي إبان العقد الثالث من القرن الخامس عشر.

---

(٤٩) Herlihy 1997, p. 125 نقلاً عن Muro, 2004, p. 1037.

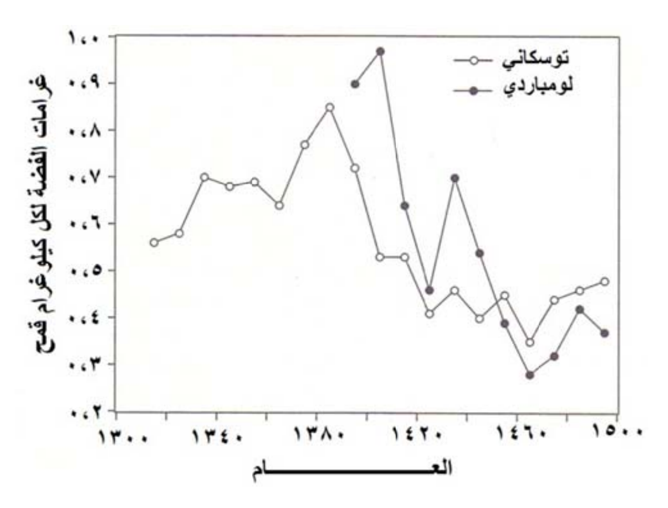
(٥٠) في هذه المعادلة، تشير الاختصارات إلى: "ق" إلى العرض النقدي أو المعروض من النقد، "ع" إلى السرعة، "ن" إلى الناتج، "س" إلى السعر [المترجم].

(٥١) انظر أيضاً Miskimin, 1975 و16-Spufford, 1988, chapters 14. وللحصول على وجهة النظر المضادة، انظر Sussman (1998).

وقد أدى الارتفاع في مستويات المعيشة الأوروبية مع الزمن إلى تعافي في عدد السكان للأسباب المالتوسية المألوفة، وبالتالي ارتفاع الناتج الأوروبي (يناقش الفصل السادس النموذج المالتوسي بمزيد من التفصيل). ومع ارتفاع الناتج وانخفاض المعروض من الفضة في الاقتصاد، كان لا بد أن تبدأ مستويات الأسعار في الانخفاض في النهاية، مع فترة طويلة من الانكماش بعد الانفجار الأولي للتضخم. استمر ذلك إلى أن أدى ارتفاع الأسعار النسبية للفضة إلى تحسن في التعدين بحثاً عن الفضة، مع حدوث ارتفاع تال في مستوى الأسعار. وعلى ذلك، فإن نموذج التوازن العام البسيط الذي يقدمه فيندلاي ولندال Findlay and Lundahl يتنبأ بأن مستوى الأسعار الأوروبية ارتفع بالتأكيد في البداية بعد الطاعون، ثم انخفض نتيجة لمجاعة السبائك، وأخيراً ارتفع مرة ثانية[٨٦].

وهذا بالضبط هو ما حدث على الأرجح. يعرض الشكل رقم (٣,٦) أسعار الحبوب في شمال إيطاليا معبراً عنها بالفضة. تلا ارتفاع الأسعار في أواخر القرن الرابع عشر هبوط حاد في الأسعار، دام حتى العقد السابع من القرن الخامس عشر، حين تلته زيادة ملحوظة، وإن كانت متواضعة في الأسعار. ويذهب نيف Nef إلى أن "ازدهاراً في التعدين وعلم المعادن" حدث بين العامين ١٤٦٠ و١٥٣٠، وأن ناتج الفضة السنوي لأوروبا الوسطى ارتفع ربما لأكثر من خمسة أضعاف[٨٧]. ويقدم منرو أدلة جديدة دامغة على حجم هذا الازدهار الذي "تجاوز كثيراً حجم واردات الفضة من أمريكا الإسبانية في النصف الأول من القرن السادس عشر"[٨٨]. ويضيف منرو أن هذا الازدهار لم يثر تضخماً كبيراً، ويفسر ذلك بأن الفضة كانت تستنزف باستمرار إلى الشرق بسبب التجارة، وأن الاقتصاد الأوروبي في ذلك الوقت كان يشهد توسعاً جنباً إلى جنب مع زيادة عدد السكان، ما يعني ضمناً أن أية زيادة في كمية النقود كانت مطلوبة لمنع هبوط الأسعار وحسب(٥٢).

(٥٢) علاوة على أن ناتج التعدين لم يتسارع بشدة إلا بعد العام ١٥١٠.



الشكل رقم (٣,٦). أسعار الحبوب في شمال إيطاليا إبان الفترة ١٣١٠–١٥٠٠ (بغرامات الفضة لكل كيلوغرام من الحبوب).

المصدر: Malanima (2002), available at http://gpih.ucdavis.edu/ Datafilelist.htm.

وبالطبع، مع تعافي عدد السكان تدريجياً، يتنبا النموذج المالتوسي بأن تنخفض مستويات المعيشة، وأن يستعيد الاقتصاد توازنه الأولي[٨٩]. لكن ذلك يتجاهل دور الاعتماد على المسار في العالم الواقعي، فكما يدفع ديفيد هيرلي على نحو مقنع في كتابه الرائع، فإن خبرة مستويات المعيشة الأعلى والزيادة في نسبة السكان المالكين، كانت تعني أن الزيادة في سكان أوروبا نظمتها بعد الأزمة كوابح وقائية، في مقابل الكوابح الإيجابية[٩٠](٥٣). وإذا ترجمنا ذلك إلى تأخر عمر الزواج للإناث، فإن عدد سكان أوروبا كان يمكن أن يواصل النمو دون أن تنهار مستويات المعيشة إلى مستواها

(٥٣) تدفع نظرية مالتوس بوجود نوعين من الكوابح: السلبية والوقائية، تحوُل دون النمو السكاني المفرط. تتمثل الكوابح السلبية في الشرور الكلاسيكية الثلاثة التي تزيد معدلات الوفيات: المجاعة والطاعون والحرب، وتتضمن الكوابح الوقائية العوامل التي تقلل معدلات المواليد مثل الإجهاض وتنظيم النسل والبغاء وتأخير الزواج والامتناع عن الزواج [المترجم].

الأولي. ويدفع هيرلي أيضاً بأن ندرة العمل دفعت التجديد التقني، من نوع مطبعة غتنبرغ التي استطاعت أن تشبع الطلب المتزايد على الكتب بطريقة أكفأ كثيراً من الطرق القديمة القائمة على النُسّاخ"[٩١]. ومن أمثلة التقدم التقني الذي يوفر العمالة- في رأي هيرلي- الأسلحة النارية التي أحلت رأس المال ضمناً محل الجنود المُكْلِفين نسبياً[٩٢].

يقدم ستيفان ابشتاين Stephan Epstein سبباً سياسياً آخر للفائدة التي عاد بها الطاعون على أوروبا الغربية على المدى البعيد، إذ يذهب إلى أن الحكم غير المركزي للاقتصاد الإقطاعي كان عقبة أمام النمو، لأن السلطات المحلية كانت تفرض ضرائب على التجارة، وأن "المؤثر الأساسي على معدل الابتكار هو تكلفة التجارة"[٩٣]، كما في قول سميث بأن تقسيم العمل يقيده مدى السوق. ويقدم ابشتاين أدلة على أن "الابتكار الزراعي ارتبط عكسياً بكثافة الحقوق الإقطاعية، وأن النمو الصناعي الريفي ارتبط عكسياً بالسلطات التشريعية للمدن واللوردات"[٩٤]. وفي هذا السياق "انبثق الطاعون كحدث خارجي أسهم في انتقال الاقتصاد الإقطاعي من 'فخ التوازن' منخفض المستوى إلى مسار عالي النمو بتكثيف الضغوط التي ظلت تحتشد على مدى قرون"، وهي تحديداً التحرك في اتجاه بناء دول أكثر مركزية، كانت في حالة حرب مع إحداها الأخرى، ما تطلب نظاماً ضريبياً وأبنية إدارية على مستوى الدولة. فـ"وباء القرن الرابع عشر من خلال تغيير القدرة على التفاوض بين الأرض والعمل بهذه السرعة ... أطلق عملية تطورية سلسة نسبياً في موجة شومبترية(٥٤) من 'الهدم الابتكاري'.... وقام الحكام الطموحون مدعومين بنخبة ريفية غنية ... بتقوية الاندماج التشريعي لأقاليمهم، ما

(٥٤) نسبة إلى عالم الاقتصاد النمساوي جوزيف شومبتر Joseph Schumpeter الذي قدم نظرية اقتصادية تفسر النمو الاقتصادي بالتجديد التقني والروح التجارية الريادية [المترجم].

جعل الأسواق أكثر تنافسية، وحفز التتجير، ومهد الطريق للازدهار الطويل إبان القرن السادس عشر"[٩٥].

يذكر ماكيفيدي وجونز أن عدد سكان أوروبا ازداد من ستين مليون نسمة في العام ١٤٠٠ إلى واحد وثمانين مليوناً في العام ١٥٠٠[٩٦]. وقد ظلت الأجور الحقيقية الإنجليزية عالية جداً طوال القرن الخامس عشر (الشكل ٣- ٢) على الرغم من زيادة السكان الإنجليز بنحو ٥٠٪[٩٧]. وكذلك تكشف بيانات هاملتون أن الأجور الحقيقية كانت عالية جداً في نافارا في النصف الأول من القرن الخامس عشر، مع أن السكان الأيبيريين ازدادوا من ٦.٥ إلى ٧.٧٥ مليون نسمة على مدار القرن[٩٨]. وإجمالاً، يستنتج باموك Pamuk أن الأجور الحقيقية ظلت أعلى من مستوياتها قبل الطاعون حتى القرن السادس عشر، ليس في أوروبا الغربية وحدها، بل عبر عالم البحر الأبيض المتوسط[٩٩]. ويوضح ألين Allen أن إنجلترا والبلاد الواطئة (هولندا) استطاعت أن تتجنب انخفاض الأجور الحقيقية على المدى الأطول أيضاً[١٠٠].

وهكذا، فقد شهدت أوروبا إبان القرن الخامس عشر زيادة في عدد السكان ومستويات المعيشة. فهذه البيانات على الرغم من محدوديتها ترسم صورة لأوروبا أقل سكاناً في البداية، لكنها أكثر ثراء، وتكشف انخفاضاً متناسباً مع ذلك في الناتج والتجارة في السلع الضرورية، وزيادة حادة في واردات المواد الفاخرة مثل الفراء الشمالي والتوابل الشرقية. يفحص القسم التالي نتائج هذا التطور على التجارة بين أوروبا الغربية والشرقية.

التجارة بين أوروبا الغربية والشرقية إبان الفترة ١٣٥٠–١٥٠٠

سيطرت الرابطة الهانزية، وهي اتحاد للمدن الألمانية الشمالية شُكِّل لحماية مصالحهم التجارية المشتركة في الأسواق الخارجية، على تجارة البلطيق وبحر الشمال

إبان الفترة ١٣٥٠-١٥٠٠. كانت الرابطة من بداية وجودها إلى نهايته تُعنَى بالدرجة الأولى بالتدفق ثنائي الاتجاه للتجارة بين أوروبا الشرقية وشمال غرب أوروبا على طول محور نوفغورود – ريفال – لوبيك – هامبرغ - بروج-لندن[١٠١](٥٥). وعلى طول هذا الطريق التجاري الرئيس، كان الفراء والشمع من شمال روسيا وفنلندا السلعتين الأساسيتين اللتين تنقلان في اتجاه الغرب، فيما كانت الأقمشة الفلمنكية والملح من شمال ألمانيا وخليج بسكاي السلعتين الأساسيتين اللتين تتجهان شرقاً. وإلى جانب ذلك، كان النحاس والحديد من السويد والسمك من النرويج وإسكانيا(٥٦)، والحبوب والخشب من بروسيا وبولندا، سلعا أخرى رئيسة أضيفت إلى التدفق من شمال وجنوب محور نوفغورود- لندن الممتد بين الشرق والغرب. ويمكن وصف هذه التجارة بأنها تميّزت بتبادل المواد والمنتجات الأولية من روسيا وفنلندا ومناطق شرق البلطيق واسكندينافيا، في مقابل المواد المصنعة الغربية، خاصة الأقمشة الصوفية الفلمنكية.

وعلى الرغم من ندرة السلاسل الإحصائية، تتوفر بعض المؤشرات المتفرقة على توسع التجارة بين العام ١٣٥٠ والعام ١٥٠٠. فيذكر دولينغر Dollinger أن تجارة لوبيك في البلطيق ارتفعت من مئة وخمسة وثلاثين ألف علامة في العام ١٣٦٨ إلى ستمئة وستين ألف علامة في العام ١٤٩٢[١٠٢]. ونظراً لأن الأسعار انخفضت بحدة، ربما بنحو ٥٠٪ على مدى تلك الفترة، فإن ذلك يعني أن الزيادة في حجم التجارة ارتفعت ثانية إلى نحو الضعف. وارتفعت الصادرات الهانزية من الأقمشة الإنجليزية من ستة آلاف في العام ١٤٠٠ إلى خمسة عشر ألفاً بحلول العام ١٤٨٠.

---

(٥٥) ريفال Reval (في اللغة الألمانية والسويدية والنماركية) أو تالين Tallinn (باللغة الاستونية) هي عاصمة استونيا وأكبر مدينة فيها. هامبرغ Hamburg ثاني أكبر مدينة بألمانيا وثاني أكبر ميناء في أوروبا تقع على نهر ألبة. بروج Bruges عاصمة مقاطعة فلندرة في شمال بلجيكا [المترجم].

(٥٦) إسكانيا Scania مقاطعة في أقصى جنوب السويد عبارة عن شبه جزيرة على اللسان الجنوبي لشبه الجزيرة الاسكندينافية [المترجم].

كان الصيادون الفنلنديون والروس يأتون بالفراء من الغابات الشمالية وسهل التندرا، ثم يُجمَع الفراء في موانئ شرق البلطيق. وكانت أعلى أنواع الفراء قيمة هو فراء السمور الذي كان يباع في البندقية باثنتين وثمانين دوكاتية(٥٧) لكل مئة فروة في بداية القرن الخامس عشر. وكان فراء الدلق والقندس يباع بثلاثين وأربع عشرة دوكاتية على التوالي، في حين لم تتجاوز أسعار فراء الوشق والسنجاب والقضاعة وابن عرس عشر دوكاتيات للمئة فروة. كان الفراء بالتأكيد من سلع "المنزلة الاجتماعية"، ولذلك يوضح حجم الطلب عليه مدى قدرة القطاعات الأكثر غنى في أوروبا إبان القرون الوسطى، وكذلك النخبة المملوكية في العالم الإسلامي التي كان يعاد تصدير كثير من هذه المواد إليها، على الانغماس في حياة الترف والأبهة. ويذكر دولينغر الذي نقلنا عنه بيانات الأسعار السابقة أيضاً أن أسرة تجارية هانزية استوردت وحدها إلى فلندرة أكثر من ثلاثمئة ألف فروة إبان الفترة من العام ١٤٠٣ إلى العام ١٤١٥ من دانزيغ وريغا(٥٨) وريفال. وقد أبحرت قافلة من ثلاث سفن من ريغا إلى بروج محملة بأربعمئة وخمسين ألف فروة، إضافة إلى شمع وكتان بقيمة الفراء[١٠٣].

كان الشمع يأتي من النحل في الغابات الشمالية ويُجمَع للبيع للتجار الهانزيين وغيرهم. ومن المفترض أن الطلب على الشموع للاستخدام في الطقوس الدينية قد حفزته خبرة الطاعون. وكان الكهرمان سلعة ثمينة أخرى من سلع الترف تستخدم كمجوهرات، وكانت تجارته مربحة لدرجة أنها خضعت للاحتكار من جانب فرسان الطائفة التيوتونية(٥٩)، وهي أقوى كيان عسكري سياسي في بروسيا ومنطقة شرق البلطيق في ذلك الوقت.

---

(٥٧) الدوكاتية عملة ذهبية أوروبية قديمة [المترجم].

(٥٨) ريغا Riga عاصمة لاتفيا وأكبر مدينة في دول البلطيق ومن أكبر مدن أوروبا الشمالية [المترجم].

(٥٩) الطائفة التيوتونية Teutonic Order جماعة صليبية من الفرسان بلغت من القوة إبان القرن الثالث عشر أنها شكلت دولة صليبية حول بحر البلطيق، كان مقرها بروسيا والمناطق المجاورة [المترجم].

وعلى مدار معظم هذه الفترة سيطرت الرابطة الهانزية على تجارة اسكندينافيا. وكانت النرويج تعتمد على واردات الحبوب من البلطيق التي كانت الرابطة توفرها عبر محطتها التجارية في بيرغن، في مقابل سمك القد المجفف. واستخدمت الرابطة تأثيرها على عرض الحبوب لانتزاع تنازلات تجارية من النرويج، مع أنها احترمت اتفاقية عدم التجارة شمال بيرغن. وكان للتجار الألمان دور بارز أيضاً في تجارة استوكهولم، وكانت الرابطة هي القناة التي دخلت من خلالها إمدادات النحاس والحديد عالي النوعية من السويد إلى السوق الأوروبية. وفرت الدنمرك الماشية والزبد في ذلك الوقت، على الرغم من أن ملوك الدنمرك الأقوياء كانوا من حين لآخر يهددون لوبيك والمدن الأخرى التابعة للرابطة بقواتهم البحرية. على أن النشاط الاقتصادي الرئيس الذي جمع الرابطة مع اسكنديناڤيا كان صناعة الرنغة المملحة في إسكانيا بشمال شرق الدنمرك. وكانت كميات الملح الهائلة المستوْردة من خليج بسكاي عن طريق قوافل كبيرة من السفن الهانزية، أحد المدخلات الأساسية في عملية تمليح وحفظ الرنغة التي كانت تصاد من شواطئ البلطيق[١٠٤].

كان الخشب من اسكنديناڤيا وروسيا وأقاليم شرق البلطيق سلعة تصديرية ثمينة أخرى، فضلاً عما يرتبط بها من توفير البوتاس(٦٠) والراتينج(٦١). وقد كان الخشب والقنب(٦٢) المستخدم في صنع الحبال من المدخلات الأساسية في صناعات بناء السفن في هولندا وإنجلترا ومدن الرابطة نفسها. وكذلك كان الخشب والحديد والنحاس سلعاً

(٦٠) البوتاس potash شكل غير نقي من كربونات البوتاسيوم، يستخدم منذ العصور القديمة في صنع الزجاج والصابون والسماد [المترجم].

(٦١) الراتينج resin مادة صمغية تسيل من معظم الأشجار عند قطعها أو جرحها، تستخدم لأغراض طبية وصناعية [المترجم].

(٦٢) القنب نبات من الفصيلة القنبية، تصنع منه الحبال وأكياس الخيش والورق والمنسوجات وغيرها، وتستخدم بذوره كطعام وفي إنتاج الزيت والشمع والراتينج وغيرها [المترجم].

إستراتيجية ضرورية للسفن الحربية وتسليحها. وحتى سهام القوس التي استخدمها الرماة الإنجليز في حرب المئة عام كانت - على ما يبدو - مستوردة من غابات أوروبا الشرقية.

أخذت أهمية الحبوب القادمة من بوميرانيا تتزايد لإطعام النرويج وفلندرة وهولندا، ما جعل الدول والمناطق الأخيرة تتخصص في صناعة الأقمشة الصوفية وتصديرها، اعتماداً على الصوف القادم من إنجلترا وإسبانيا. يتضح من ذلك أن شمال أوروبا إبان القرون الوسطى طور نمطاً شاملاً للتخصص والاعتماد المتبادل بين أقاليم بحر الشمال والمحيط الأطلسي في الغرب ومنطقة البلطيق في الشرق. وقد اكتسبت الرابطة الهانزية أهميتها من السيطرة التي حاولت أن تمارسها باعتبارها الوسيط الوحيد بين هذه المناطق الجغرافية المتنوعة. ولذلك كانت السيطرة على المضايق الدنمركية الضيقة والطريق البري عبر شبه جزيرة غوتلند الذي يربط بين لوبيك وهامبرغ ضرورية وحاسمة. تؤكد ذلك الحروب الكثيرة التي شنتها الرابطة في هذه الفترة. وكان هدف الرابطة هو منع الهولنديين والإنجليز من اقتحام منطقة البلطيق ومنع الاسكندينافيين من الخروج منها. وقد نجحوا في ذلك لقرن ونصف من الزمن، قبل أن يخضعوا في النهاية للهولنديين.

كان النبيذ سلعة مهمة أيضاً في التجارة الأوروبية إبان القرون الوسطى، وكذلك البيرة ولو بدرجة أقل. وقد تطور التخصص في زراعة الكرم مبكراً، وكانت بوردو وبيرغندي والألزاس وموزيل[٦٣] مناطق التصدير الرئيسة للكروم. وكان النبيذ

(٦٣) بوردو Bordeaux ميناء على نهر الجارون بجنوب غرب فرنسا. بيرغندي Burgundy منطقة تاريخية في غرب أوروبا تشكلت فيها كيانات سياسية مختلفة، مملكة أو دوقية أو كونتية، وبحدود مختلفة، وتتطابق اليوم مع المناطق الحدودية بين إيطاليا وفرنسا وسويسرا. الألزاس Alsace منطقة على الحدود الشرقية لفرنسا على الضفة الغربية لنهر الراين الأعلى بجوار ألمانيا وسويسرا. موزيل Moselle أحد روافد نهر الراين، يتدفق عبر فرنسا ولوكسمبرغ وألمانيا، يوصل الراين بمدينة كوبلنز Koblenz الألمانية [المترجم].

الراينلندي(٦٤) يصدّر إلى كل أنحاء ألمانيا ومنطقة البلطيق، وكان النبيذ الفرنسي رائجاً في إنجلترا والبلاد الواطئة. وكانت البيرة تنتج في معظم المدن الألمانية، وكانت هامبرغ وفيسمار(٦٥) من أكبر مصدّريها.

لكن ماذا عن النتائج الاقتصادية لهذه التجارة الشمالية بين أوروبا الشرقية والغربية؟ لقد أدى تعافي السكان والقوة العاملة بعد الطاعون، وفقاً لفكرة نسب العوامل البسيطة عند هيكشر- أولين(٦٦)، إلى زيادة الأسعار النسبية للسلع كثيفة الأرض مثل الحبوب والمنتجات الحيوانية، وكذلك الإيجار لكل هكتار من الأرض، وخفض الأسعار النسبية للسلع كثيفة العمالة مثل المواد المصنعة، وكذلك الأجور الحقيقية. أدى ذلك بدوره إلى تحسين شروط التبادل التجاري للدول الشرقية المصدّرة للحبوب، ما أدى إلى توسيع المساحة المزروعة ونمو الصادرات. تنطبق هذه التنبؤات على بولندا وبروسيا، وإلى حد ما على الدنمرك. وقد أحدث ذلك نتائج اجتماعية وسياسية بالغة الأهمية، كما يرى بوستان Postan ومالويست Malowist[١٠٥] وكثيرون غيرهما. فطبقة النبلاء في كل هذه الأقاليم التي كانت تستفيد دائماً من ارتفاع الإيجارات تمكّنت من استخدام سيطرتها على كل من القوة العسكرية والتأثير السياسي على الدول المركزية الضعيفة لتعزيز ربط الفلاحين بالأرض في حالة من "القِنانة من الدرجة الثانية"(٦٧)، وبذلك رفعوا ريوعهم أكثر. ولا بد أن الصناعات والحرف المحلية،

(٦٤) نسبة إلى منطقة راينلند Rhineland التي تقع على ضفتي نهر الراين في أوروبا الوسطى [المترجم].

(٦٥) فيسمار Wismar ميناء صغير بشرق ألمانيا على بحر البلطيق، كان من مدن الرابطة الهانزية [المترجم].

(٦٦) تفسر نظرية نسب عوامل الإنتاج factor proportions لهيكشر- أولين Heckscher-Ohlin اختلاف النفقات والأسعار النسبية في التجارة الدولية وفقاً للميزة النسبية أو الاختلاف في توزيع نسب عوامل الإنتاج بين الدول، وتأثير التجارة الدولية على عوائد عناصر الإنتاج في الدول الأطراف، والتمييز بين السلع التجارية بحسب العامل الإنتاجي الكثيف فيها [المترجم].

(٦٧) تصف حالة "القِنانة من الدرجة الثانية" second serfdom، في أوروبا الوسطى، حالة المزارع المستأجر المرتبط بقطعة أرض وراثية وبإرادة مالك الأرض. يختلف العبيد عن الأقنان في أن الأولين كان يمكن أن

وبالتالي ازدهار المدن وتأثيرها، قد تراجع في هذه البلاد، فضلاً عن السيطرة المتزايدة للتجار الأجانب على تجارة الجملة والقطاعي، وبخاصة إذا كان هؤلاء التجار أفضل تنظيماً وتمويلاً من نظرائهم المحليين. وهنا أيضاً تتوفر أدلة كافية على أن ذلك هو ما حدث فعلاً.

وعلى ذلك، فإن الفرق في نسب العوامل بين أوروبا الشرقية والغربية يمكن أن يذهب بعيداً إلى تفسير القضية المحيرة التي لاحظها كثير من المراقبين، وهي: كيف يمكن للسبب نفسه، وهو تعافي السكان بعد الطاعون، أن ينتج هذه النتائج الاجتماعية- السياسية المتباعدة تماماً مثل "القِنانة من الدرجة الثانية" في الحالة الأولى وتراجع الإقطاع وصعود المدن في الحالة الأخيرة. في كل المناطق، تمثل التأثير الحاسم للطاعون في رفع الأجور وخفض إيجارات الأراضي، ومن ثم زيادة طلب ملاك الأراضي على القِنانة. فيما ترجع الخبرات المختلفة لأوروبا الشرقية والغربية بالتأكيد إلى الاختلافات في "وفرة" القِنانة، حيث كان الحكام في المنطقة الأولى أكثر استعداداً لقبول مطالب ملاك الأراضي من نظرائهم في المنطقة الأخيرة. معنى ذلك أن تعافي التجارة والسكان جاء في صالح الحضر في الغرب والريف في الشرق. وعلى اعتبار أن هذه المكاسب الاقتصادية تترجم إلى مكاسب سياسية، فإن ذلك يمكن أن يساعد في تفسير الاستجابات المختلفة للتطور المؤسسي في المنطقتين[٦٨].

كان من السمات الأساسية لتجارة شمال غرب أوروبا مع الرابطة الهانزية عدم التوازن النقدي ضد المنطقة الأولى، الذي تضمن انتقال الفضة إلى المدن الألمانية

يباعوا ويُشتَروا بعيداً عن الأرض، في حين كان سادة الأقنان يتغيرون مع تغير الملاك، كأن المزارعين يباعون مع الأرض [المترجم].

(٦٨) يقدم ألين (Allen, 1998) ودومار (Domar, 1970)، من بين آخرين، حججاً مماثلة. فيما تظل إنجلترا لغزاً، لأن التحول الحضري لم يكن كثيفاً فيها.

الشمالية. لكن أين كانت هذه الفضة تذهب؟ كان بعضها يذهب بالتأكيد إلى نوفغورود وسمولنيسك[٦٩] لدفع الأثمان الغالية للفراء والكهرمان والشمع التي كان عليها طلب عالٍ في الغرب. وكانت الإمارات الروسية تستخدم الفضة جزئياً على الأقل لدفع الجزية للقبيلة الذهبية، مع تراجع الالتزام بدفع الجزية مع السنين، كما سنرى بعد قليل. وكان سكان المدن الألمانية يتميّزون أيضاً بميل قوي إلى شراء المنتجات الفاخرة من جنوب أوروبا، وبالدرجة الأولى من إيطاليا. ولذلك كان الطريق البري عبر نورمبرغ وفرانكفورت إلى ميلان يعيد توجيه الفضة المستنزفة من إنجلترا وفرنسا والبلاد الواطئة إلى المدن الإيطالية، وبخاصة ميلان وفلورنسا وجنوى ولوكا والبندقية. وكان الإيطاليون يوفرون احتياجات شمال غرب أوروبا أيضاً بطريقة مباشرة عبر البحر، وكانت السفن البندقية والجنوية تتردد بانتظام على لندن وبروج وغيرها من الموانئ الشمالية. وكانت المنتجات الفاخرة التي يبيعها الإيطاليون تتمثل أساساً في الأقمشة الصوفية عالية النوعية المنتجة في فلورنسا، والأقمشة الحريرية والمطرزة المنتجة في لوكا، والدروع والأسلحة عالية النوعية المصنوعة في ميلان. وإلى جانب ذلك، كانت هناك بالطبع التوابل والمنتجات الشرقية الأخرى التي كانت البندقية وجنوى تحصلان عليها من تجارتهما مع العالم الإسلامي التي زاد طلب الأوروبيين عليها مع زيادة دخولهم. ولكي نحلل هذه التجارة يجب أن نتحول إلى التطورات الجيوسياسية في آسيا الوسطى وشرق آسيا.

التجارة البرية إبان الفترة ١٣٥٠-١٥٠٠: نتائج السلام المغولي

تبدد السلام المغولي نتيجة لزوال نظام نواب الخان في بلاد فارس في العام ١٣٣٥ والنزاعات الداخلية في الدول المغولية في آسيا الوسطى وسقوط سلالة يوان أمام

(٦٩) سمولنيسك Smolensk مدينة في منطقة بالاسم نفسه تقع على نهر الدنيبر في روسيا، على بعد ٢٢٠ ميلاً جنوب غرب موسكو [المترجم].

سلالة مينغ الصينية المحلية في العام ١٣٦٨. وفي حين استمرت الأنماط التجارية التقليدية بين الشعوب البدوية والمستقرة، مثل تبادل الخيول والجمال في مقابل الشاي والحرير، كان لغياب الحكم الإمبراطوري، حتى وإن ظل موحداً بدرجة ضعيفة بين المكونات المختلفة للإمبراطورية المغولية، نتائج جيوسياسية بالغة الأهمية، كان لها بدورها عواقب كبرى على الأنماط المستقبلية للتجارة العالمية.

كانت نهاية فترة السلام المغولي في الوقت عينه نهاية للسهولة النسبية التي كان التجار الأوروبيون يستطيعون أن يتنقلوا بها عبر أنحاء أوراسيا كافة. فطُرِد الأجانب من الصين، وحدثت مذابح للأوروبيين في بلاد فارس وتركستان، من بين مناطق أخرى. ولذلك "انحسرت الحدود الشرقية للتجارة الأوروبية الجنوبية تدريجياً من بحر الصين إلى حافة البحر الأبيض المتوسط، وفقدت حتى الملاجئ الآمنة للمستعمرات التجارية الإيطالية"، وبذلك وجد التجار الأوروبيون أنفسهم مجدداً معتمدين على "عنق الزجاجة المصري"[١٠٦]. وقد بدا لفترة قصيرة أن الوضع السابق يمكن أن يعود بسيف الفاتح العظيم تيمور (تيمورلنك) من آسيا الوسطى. كان تيمور ينتمي عرقياً إلى الأتراك، لكنه كان ينتسب سياسياً إلى خانات مغول الجغتاي، وقد شنّ سلسلة من الهجمات على المناطق المجاورة، البدوية والمستقرة على حد سواء، وسبب دماراً كبيراً وجمع ثروة ضخمة من النهب. وكانت عاصمته سمرقند والمدن الأخرى بالمنطقة المستفيد من ثمار فتوحاته، إذ انعكست على العمارة الرائعة وتشييد المراصد والمكتبات العامة. ويذهب أدشيد إلى أن أفعاله المدمرة كان يكمن وراءها منطق أساسي، هو تأمين طريق الحرير الجنوبي وتحويل تجارة القوافل إلى هذا الطريق من الطريق الشمالي البديل الذي كانت تسيطر عليه القبيلة الذهبية[١٠٧]. ويُفَسّر تدمير تيمور لمدينة سراي، عاصمة سلالة القبيلة الذهبية الواقعة على نهر الفولغا ومحور تجارتها، باعتباره خطوة محسوبة

في اتجاه هذا الهدف. وكذلك يُفَسّر غزوه لحلب بسوريا وانتزاعها من المماليك باعتباره شكلاً من التأمين للطرف الغربي لهذا الطريق التجاري، وغزوه للصين الذي خطط له في عام وفاته في العام ١٤٠٥ باعتباره محاولة لوضع يده على مصدر السلع التي كانت تنقل في اتجاه الغرب على طول هذا الطريق.

"نظر الكثيرون" في أوروبا "إلى تيمورلنك باعتباره جنكيزاً خاناً جديداً سيعيد السلام من خلال الدمار، والتجارة من خلال السلام في الأقاليم الشاسعة التي أخضعها"، ورحبوا به كثيراً بسبب تقدم الأتراك العثمانيين الذين كانوا يتوسعون في البلقان ويهددون القسطنطينية في ذلك الوقت[١٠٨]. وبالفعل أدت الهزيمة الساحقة التي تكبدتها قوات السلطان العثماني بايزيد Bayezid (أو بيازيت Bejazet كما أسماه مارلو Marlowe) على يديه في أنقرة في العام ١٤٠٢ إلى تأجيل سقوط القسطنطينية لنحو خمسين عاماً. لكن بموت تيمورلنك في العام ١٤٠٥، تلاشى الحلم، وتواصل التقدم العثماني، وسقطت القسطنطينية نفسها في العام ١٤٥٣ أمام السلطان محمد الثاني "الفاتح"، فرجعت التجارة الأوروبية- الآسيوية مرة أخرى إلى الطرق البحرية التقليدية التي ناقشناها سابقاً.

على أن إبعاد أوروبا عن آسيا لم يكن يعني أن التجارة البرية تراجعت أو ركدت جلها. فالقرن الخامس عشر، كما سنرى، كان "عصر التجارة" في جنوب شرق آسيا، مدفوعاً بتوسع الصين في عهد إمبراطورية مينغ وتعافي أوروبا والبحر الأبيض المتوسط من الطاعون. ولذلك كان من المستغرب أن نجد أن الازدهار على طرفي طريق الحرير القديم لم يدعم استمراراً مقابلاً للتجارة البرية أو حتى توسيعها، بالتوازي مع نمو التجارة البحرية. لكن من المؤكد أن الأوروبيين لم يعودوا يشاركون بطريقة مباشرة في هذه التجارة، لكن مشاركتهم من عدمها لم تكن ذات بال في عصر كانت أوروبا

فيه لا تزال لاعباً صغيراً في الحياة الاقتصادية لآسيا. ولذلك أشار بحث ثمين جداً لموريس روسابي Morris Rossabi إلى أن تجارة القوافل بآسيا الوسطى لم تتراجع، بل ازدهرت طوال القرن الخامس عشر[١٠٩]. فعلى الرغم من سقوط إمبراطورية يوان والإمبراطورية المغولية كلها، ما عدا القبيلة الذهبية، حافظت الدول التي خلفتها في آسيا الوسطى وإيران وتركيا على السلام والأمن على طول طرق التجارة.

كان تيمور- كما رأينا - حريصاً جداً على الحفاظ على الطريق البري الرئيس من الصين إلى الغرب مفتوحاً، وكذلك كان أحفاده، وبخاصة شاه رخ(٧٠) وألوك بيك(٧١)، اللذين حكما من مدينتي القوافل المزدهرتين هيرات وسمرقند، حريصين على جذب التجارة إلى أراضيهما وعبرها، للإنفاق على برامج البناء الطموحة والمشروعات العلمية التي أطلقاها، مثل المرصد العظيم الذي شيّده ألوك بيك في سمرقند. وكان الحكام التتار- المغول المسلمون لمدن الواحات حامي(٧٢) وتورفان(٧٣) بالقرب من الطرف الشرقي لطريق الحرير حريصين على بيع خيولهم وجمالهم في مقابل الحرير والمعادن وغيرها من المواد المصنعة من الصين، وإرسال سفارات "تعبير عن الولاء" أو بعثات تجارية متخفية إلى الصين. وقد أرسلت تورفان وحدها ما لا يقل عن أربع وخمسين بعثة بين العامين ١٤٠٧ و١٥٠٢[١١٠]. وكانت بعض المدن الفارسية،

---

(٧٠) شاه رخ ميرزا أو شاه رخ التيموري Shahrukh (٣٠ أغسطس ١٣٧٧ إلى ١٢ مارس ١٤٤٧) الابن الرابع والأصغر لتيمور لنك مؤسس الإمبراطورية التيمورية في آسيا الوسطى، حكم الجزء الغربي من الإمبراطورية ممثلاً في معظم بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر بين العامين ١٤٠٥ و١٤٤٧ وكانت عاصمته هيرات [المترجم].

(٧١) ألوك بيك Ulugh Beg أو ميرزا محمد طارق بن شاه رخ (٢٢ مارس ١٣٩٤ في فارس إلى ٢٧ أكتوبر في سمرقند) حفيد تيمورلنك والابن الأكبر لشاه رخ، حكم بلاد ما وراء النهر، وكان عالم فلك ورياضيات [المترجم].

(٧٢) حامي Hami أو قومول بلغة الأيغور واحة في ولاية قومول بمقاطعة شينجيانغ الصينية [المترجم].

(٧٣) تورفان Turfan أو توربان واحة في ولاية توربان بمقاطعة شينجيانغ الصينية [المترجم].

مثل شيراز وأصفهان، ترسل هي الأخرى بعثات دبلوماسية وتجارية. وثمة سجلات لمسؤولين صينيين أُرسِلوا في بعثات دبلوماسية و"تقصي حقائق" إلى الأقاليم الإسلامية في جنوب غرب آسيا. وجاء تأسيس الإمبراطورية العثمانية في منتصف القرن الخامس عشر أيضاً ليعزز السلام والأمن على طول طرق التجارة، وكان التجار من مناطق بعيدة مثل تركيا وشبه الجزيرة العربية وحتى مصر يسافرون إلى الصين إبان القرن الخامس عشر[١١١].

ظهور روسيا

أشرنا آنفاً إلى أن القبيلة الذهبية لم تفرض حكماً مباشراً على الإمارات الروسية التي سيطروا عليها، وإنما اكتفوا بانتزاع الجزية وتوجيه الدول التابعة فرادى للحفاظ على تبعيتهم لها. وجاء التمزق الذي سببه الطاعون ليضعف قبضة القبيلة الذهبية على الدول الروسية التابعة لها، كما كان التخريب الذي تعرضت له على أيدي تيمورلنك ضربة أخرى شديدة لها. وفي حين كان المستفيد الأول هو دوقية ليتوانيا الكبرى الصاعدة، كان المستفيد الأكبر على المدى البعيد هي الإمارة الأقوى بين الإمارات الروسية، وهي موسكو.

وهنا يكتسب عهد إيفان الثالث "الأكبر" (١٤٦٢-١٥٠٥)- جد إيفان الرهيب- أهمية كبرى. فقد وحّد إيفان الثالث أو "جمع" الأراضي الروسية التي كانت في السابق مقسمة بين دول مدينية أو جمهوريات أو إمارات مستقلة تحت السيادة المسكوفية. وتصدى إيفان الثالث لاختراق الحدود الغربية لروسيا من جانب دوقية ليتوانيا الكاثوليكية الرومانية وفرسان الطائفة الليفونية[٧٤] الألمانية، ما أسهم في فتح طرق التجارة إلى أوروبا الشرقية والوسطى وإلى البلطيق. وأدى إخضاع جمهورية

---

(٧٤) كانت الطائفة الليفونية Livonian Order عضواً بالطائفة التيوتونية من العام ١٤٣٥ إلى العام ١٥٦١، راجع حاشية سابقة حول الطائفة الأخيرة [المترجم].

نوفغورود التجارية الكبرى في العام ١٤٧٨ إلى تعزيز ثروة موسكو وقوتها بدرجة كبيرة. كانت نوفغورود تسيطر على الامتدادات الشاسعة للإقليم الذي كانت تجمع منه الفراء والمنتجات الغابية التي كانت تبيعها إلى الرابطة الهانزية والتجار الغربيين الآخرين، وقد وُزِعت هذه الأراضي على أتباع موالين لإيفان. كما تمكّن إيفان من خلال مزيج ماكر من القوة والدبلوماسية من مد النفوذ المسكوفي إلى الخانيات التترية[٧٥] في القرم وقازان[٧٦] وما بقي من دولة القبيلة الذهبية التي باتت تعرف باسم "القبيلة العظمى" Great Horde، ما أعطاه وصولاً إلى المناطق المجاورة لبحر قزوين والبحر الأسود. وكان سقوط القسطنطينية أمام الأتراك العثمانيين في العام ١٤٥٣ يعني أن إيفان أصبح الملك الأرثوذكسي الشرقي الوحيد في زمنه، وأعطاه زواجه من صوفيا ابنة أخي الإمبراطور البيزنطي الأخير الحق في ادعاء التراث البيزنطي واعتبار موسكو روما الثالثة والأخيرة.

نتجت هذه الإنجازات الكبيرة بالدرجة الأولى عن إعادة التنظيم المالي والعسكري التي نفذها إيفان في الدولة المسكوفية، وهي العملية التي قامت على إيجاد "طبقة وسطى جديدة من موظفي الدولة" مُنِحت الضِياع والسيطرة على الأقنان، في مقابل العمل كقوة فرسان متجولة ومنضبطة قادرة على صد كل من الفرسان الليتوانيين والليفونيين والخيالة التتريين من السهل. و"مع نهاية عهد إيفان الثالث، كانت موسكو قد أصبحت مركزاً تجارياً، جمع تجاره أراضيهم الشمالية مع قازان ومراكز الأسواق الجنوبية على البحر الأسود لبناء شبكة تجارية واحدة"[١١٢]. خَلَف إيفان الثالث ابنه فاسيلي الثالث (١٥٠٥-١٥٣٣) الذي كان هو الآخر حاكماً مقتدراً،

---

(٧٥) الخانية khanate هي الدولة التي يحكمها خان لدى الشعوب التركية المغولية [المترجم].

(٧٦) قازان Kazan عاصمة جمهورية تترستان وأحد أكبر المدن الروسية، تقع على ملتقى نهري الفولغا وكازانكا في روسيا الأوروبية [المترجم].

وإن لم يكن في اقتدار أبيه الفذ. استطاع فاسيلي أن يحافظ على المكاسب التي حققها أبوه وأن يوسعها بإخضاع جمهورية تجارية روسية مزدهرة أخرى، هي بسكو Pskov وانتزاع سمولنيسك- تلك المدينة والحصن الرئيس- من الليتوانيين. قضى فاسيلي معظم عهده في نزاع مع حلفاء أبيه، وهم التتر القرميون، ومع قازان، فيما استمرت الحروب مع ليتوانيا في الغرب. في حين تطورت العلاقات مع الإمبراطورية العثمانية إيجابياً، تأسيساً على قدرة موسكو على توفير فراء السمور والقاقم الثمينين اللذين كان بلاط اسطنبول يثمّنهما كسلع تعزز الهيبة الرسمية. تمثل أحد مصادر النزاع مع التتر القرميين في أنهم فقدوا دور الوسيط الذي لعبوه بنجاح بين المسكوفيين والعثمانيين، نتيجة لأن القوتين الكبريين أقامتا علاقات ثنائية مباشرة ومتنامية. ويذكر كرومي Crummey أن المساحة التي كانت موسكو تحكمها زادت أكثر من ثلاثة أضعاف بين اعتلاء إيفان الثالث العرش في العام ١٤٦٢ ووفاة فاسيلي الثالث في العام ١٥٣٣، وفي أثناء ذلك تحولت موسكو من مجرد "إمارة طموحة" إلى "دولة قومية شاسعة المساحة"[١١٣]. وفي النهاية، عملت الإمبراطورية الروسية على توحيد معظم شمال أوراسيا، ما أعطى الأوروبيين مجدداً وصولاً مباشراً إلى تجارة القوافل الآسيوية، كما سنرى في الفصل الخامس.

الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط والتجارة الدولية إبان الفترة ١٣٥٠-١٥٠٠

ليس من المستغرب أن تؤدي قرون من النزاع حول الأراضي المقدسة ومغازلة أوروبا للمغول وهجرها لتجارة البحر الأحمر التقليدية في أثناء فترة السلام المغولي إلى تنفير السلاطين المصريين من البنادقة وغيرهم من التجار الكفار. علاوة على أن العالم الإسلامي الذي أظهر كل هذا الازدهار والروعة مع منعطف الألفية، دخل في حالة

ركود وتراجع اقتصاديين مطولين، أطلقها الطاعون وعواقبه السكانية المستمرة. استمر الحكم المملوكي في مصر وسوريا، لكن المماليك الجراكسة الذين آلت إليهم السلطة بعد المماليك الأتراك السابقين في العام ١٣٨٢ تبنوا سياسات قائمة على النهب تجاه كل أشكال النشاط الاقتصادي في البلاد(٧٧). فلم يواصلوا الاستغلال التقليدي لطبقة الفلاحين وحسب، بل فرضوا أيضاً الضرائب الباهظة والبيع الجبري على الإنتاج الصناعي والتجارة. وتبدد الاستقرار النقدي الذي حققته الدول السابقة بإدخال النقود النحاسية على نطاق أوسع. وتراجع الإنتاج الزراعي نتيجة لتناقص القوة العاملة والفشل في الحفاظ على البنية التحتية للري وغارات البدو وانكماش عدد من الصناعات، من المنسوجات إلى تكرير السكر والورق، بسبب الضرائب الباهظة والمنافسة من الواردات الأوروبية. وكانت العائدات التي كان المماليك يبتزونها من الاقتصاد، فضلاً عن ريوعهم من تجارة العبور في التوابل، تُنفَق بالدرجة الأولى على استهلاك سلع الترف من جانب النخبة والحروب المُكْلِفة ضد القبائل البدوية المتمردة والأتراك العثمانيين الأقوياء جداً، كما انطبعت فترة أواخر القرن الرابع عشر أيضاً بالدمار الذي ألحقه تيمورلنك بسوريا. ويقدم أشتور Ashtor وليفانوني Levanoni[١١٤] وكثير من المرجعيات الأخرى صورة سوداوية جداً للحالة الاقتصادية للعالم الإسلامي في ذلك الوقت.

(٧٧) ينقسم حكم المماليك في مصر إلى حقبتين: المماليك البحرية والمماليك البرجية. سميت دولة المماليك البحرية بذلك الاسم بسبب سكناهم في جزيرة الروضة في نيل القاهرة أو لقدومهم من البحر، وكانت غالبيتهم من الأتراك، بدأت دولتهم في العام ١٢٤٩ بعد وفاة الملك الصالح في أثناء الحملة الصليبية السابعة، حين نصّب المماليك زوجته شجر الدر سلطانة على مصر، ولما احتج أمراء الأيوبيين والخليفة العباسي المستعصم في بغداد على تولية امرأة عرش مصر، تزوجت شجر الدر من الأمير المملوكي عز الدين أيبك، واستمرت دولتهم حتى العام ١٣٨١، حين انتقل الحكم إلى المماليك البرجية أو مماليك البرج أو القلعة الذين كان غالبيتهم من الجراكسة، واستمر حكمهم حتى الغزو العثماني ومقتل الأشرف قنصوه الغوري في مرج دابق في العام ١٥١٦ [المترجم].

كان من علامات التراجع النسبي للعالم الإسلامي والصعود النسبي لأوروبا الغربية الانقلاب التدريجي للأنماط التجارية التي سادت سابقاً بين الشريكين[١١٥]. فكما رأينا في مواضع سابقة، كانت الصادرات الأوروبية في بداية الألفية تتكون في الأساس من السلع غير المصنعة، باستثناء واحد أو اثنين موثقين جيداً، مثل السيوف الفرنجية، في مقابل مواد مصنعة وسلع فاخرة عالية القيمة. وجاء التراجع الصناعي في المناطق المملوكية ليضع أوروبا في صورتها التقليدية باعتبارها "المركز" الاقتصادي، فيما وجد العالم الإسلامي نفسه يلعب دور "المحيط" أكثر فأكثر. ففي مجال صناعة المنسوجات، كانت أوروبا القرن الثالث عشر، وليس العالم الإسلامي، هي التي تبنت المغزل الآلي والنول ذا المِدْوَس ومشاغل التقصير المدارة بالماء. يقدم أبولافيا المثال الكاشف لنسيج الفستيان، ذلك الخليط من الكتان والصوف الذي كانت إيطاليا تنتجه وتصدّره والذي أخذ اسمه من صناعة الكتان بالفسطاط أو القاهرة القديمة التي كانت مورِّده الرئيس إلى عالم البحر الأبيض المتوسط[١١٦](٧٨). وحدث أيضاً في صناعات أوروبية أخرى، مثل الحرير، إحلال واردات مماثل، تلاه تصدير إلى المصدر الأصلي الذي كانت تأتي منه الواردات. وكان الإيطاليون يشترون الرماد القلوي من سوريا لصناعة الزجاج والصابون، وأزاح زجاج المورانو Murano البندقي الزجاج السوري واحتل صدارة الصناعة. كما تقدمت صناعة الورق كثيراً في أوروبا مقارنة بالعالم الإسلامي. فيما كانت زراعة القطن، وبدرجة أقل قصب السكر، للتصدير أحد السمات الإيجابية القليلة للاقتصاد المملوكي في تلك الفترة، لكن حتى هذا النجاح الوحيد كان الفاتحة لظهور العلاقة "الاستعمارية" مع أوروبا لاحقاً(٧٩).

---

(٧٨) معنى ذلك أن اسم نسيج الفستيان fustian مأخوذ من اسم القاهرة القديمة الفسطاط Fustat [المترجم].

(٧٩) كان القطن أحد المحاصيل النقدية أو التجارية التي استغلها الاستعمار الإنجليزي في مصر بداية من العام ١٨٨٢، حيث كان الناتج يسهم في تغذية مصانع المنسوجات في لانكشاير [المترجم].

تختلف هذه الصورة لنتائج الطاعون جذرياً بالطبع عن نتائجه الإيجابية على أوروبا الغربية التي ناقشناها قبل قليل، التي تمثلت في ارتفاع الأجور الحقيقية ومعدل الدخل الفردي وتحسن السكان والناتج مقارنة بمستوياتها السابقة. لكن لماذا تُحدِث الصدمة السكانية الخارجية نفسها هذه النتائج المتباعدة تماما؟ يذهب أشتور إلى أن ارتفاع الأجور الحقيقية في مصر وسوريا بعد الطاعون كان أحد أسباب التراجع الصناعي المملوكي، لكن هذا التفسير ليس مقنعاً، لأننا رأينا أن ارتفاع الأجور الحقيقية في أوروبا كانت له تأثيرات مفيدة بعيدة المدى.

ثمة منظور بديل تقدمه دراسة نُشرت مؤخراً حول التأثيرات الفارقة للطاعون في مصر وإنجلترا[١١٧]. تتشابه رواية بورش Borsch لتأثير الطاعون على إنجلترا في أساسياتها مع الرواية التي قدمناها في القسم السابق حول أوروبا الغربية كلها، وهي رواية تتطابق مع تنبؤات النموذج المالتوسي المُحْدَث البسيط للأسواق التنافسية للسلع والأرض والعمل. أما في مصر المملوكية، في المقابل، فإن نظام التخصيص غير الوراثي للأراضي للقادة العسكريين مدة بقائهم في المناصب فقط قد نزع من هؤلاء الملاك كأفراد الحافز لتنفيذ استثمارات مفيدة طويلة المدى، بينما كانت لهم مصلحة جماعية كأعضاء في الطبقة الحاكمة المسلحة نفسها في الحفاظ على ريوعهم. ولذلك تعاملوا مع ندرة العمل بإجراءات قاسية ضد الفلاحين للحفاظ على ريوعهم على حساب الفلاحين، وحين ثبت أن ذلك غير كاف، وسّعوا نهبهم إلى الحرفيين والتجار الحضريين. وثمة فرق مهم آخر، وهو أن الزراعة المصرية كانت تعتمد على ضبط فيضان النيل وتوزيع مياهه عبر نظام معقد من أعمال الري المركزية والمحلية. وعلى ذلك، فإن الحفاظ على الريوع في المدى القصير جاء على حساب طبقة الفلاحين، وأيضاً على حساب صيانة الأشغال العامة مثل نظام الري.

أدت المشكلات الناتجة عن الطاعون أيضاً إلى زيادة الهجمات البدوية على أراضي السكان المستقرين، على الرغم من الانتقام الوحشي من جانب النظام المملوكي. ونتيجة لكل هذه العوامل، يدفع بورش بأنه في حين انخفض سكان مصر بنسبة ٥٠٪، انخفض الناتج الزراعي بنسبة ٦٨٪ على الأقل[١١٨]. من الواضح أن الاختلاف عن إنجلترا وبقية أوروبا الغربية كان جذرياً بالفعل. فلو انخفض معدل الدخل الفردي نتيجة للطاعون، فإن النموذج المالتوسي يتنبأ بأن يولّد ذلك مزيداً من الانكماش السكاني، وليس التعافي التصحيحي الذي حدث في أوروبا الغربية. علاوة على أن تكرار ضربات الطاعون، ست عشرة مرة في مصر وخمس عشرة مرة في سوريا بين العقد السابع من القرن الرابع عشر والعقد الأول من القرن السادس عشر، يبدو أنها كانت أكثر تواتراً وحِدة بكثير منها في أوروبا الغربية[١١٩].

ولو انخفض معدل دخل الفرد في مصر، وبقي ريع الأراضي كما هو، وارتفعت الأجور الحضرية[١٢٠]، فلا بد أن مستويات معيشة الفلاحين تدهورت كثيراً. ومؤكد أن ذلك أعطاهم حافزاً للتخلي عن زراعة المحاصيل التجارية لصالح الزراعة المعيشية، أو الهرب إلى المدن أو الصحاري المحيطة، ولا بد أن هذا بدوره خَفّض ريع الأراضي والأجور الحضرية. ولو كان المماليك قد نجحوا في الحفاظ على الريوع، فلا بد أن ذلك نتج عن عدم حركية الفلاحين المصريين جميعهم، على الرغم من أدلة الفرار من الريف إلى الحضر التي ذكرها بورش[١٢١]، والتي أكدها غارسين Garcin الذي يذكر أن عدد سكان القاهرة ظل مستقراً على الرغم من الانخفاض في عدد السكان الإجمالي[١٢٢]. وترى جانيت أبو لغد أن الحركية القليلة للفلاحين المصريين مقارنة بنظرائهم الأوروبيين الغربيين كانت أحد الفروق الأساسية بين المنطقتين في تلك الفترة[١٢٣](٨٠).

---

(٨٠) يبدو أن التصاق المصري بأرضه ظاهرة عابرة للعصور، بداية من زمن الفراعنة، مروراً بالعصر الإسلامي، وحتى العصر الحديث. تجلى ذلك قديماً في رد الملك سنوسرت على سنوحي عندما كتب له

يتساءل إيفسي دومار Evsey Domar في تحليله الكلاسيكي لأسباب القِنانة والعبودية عن الأسباب التي حالت دون رجوع القِنانة في أوروبا الغربية بعد الطاعون، مع أن ملاك الأراضي كان من المرجح أن يستفيدوا من إجبار العمال الريفيين على قبول مستويات معيشية أدنى. وجاءت إجابته أنه "لم يكن من الممكن إرجاع القِنانة دون أن يتحد ملاك الأراضي بدرجة معقولة في ضغطهم على الحكومة ودون أن تكون الحكومة راغبة في أن تنفذ مطلبهم وقادرة على ذلك"[١٢٤]. ومن الواضح أن هذه الشروط لم تتوفر في إنجلترا. فقد حاول البرلمان عدة مرات أن يسيطر على حركية الفلاحين، لكن دون جدوى. لكن في المقابل، كان النظام المملوكي الذي كانت تهيمن عليه نخبة عسكرية مالكة للأرض قابلاً لدعم محاولات الملاك للحفاظ على ريوعهم أو رفعها، إما بإجراءات قانونية أو بالعنف[١٢٥].

كان من شأن الحركية المنخفضة بين القطاعات أن تعيق النمو الصناعي في مصر. وكانت الضرائب الثقيلة عبئاً آخر على القطاع. وهذان العاملان يمكن أن يساعدا في تفسير تراجع القطاع الصناعي بالعالم الإسلامي نسبة إلى أوروبا الغربية في تلك الفترة. علاوة على أن المناخ شبه القاحل جعل الزراعة المصرية معتمدة على الصيانة الدائمة لنظام الري، وهو ما لم تستطع البنية المؤسسية المملوكية اللصوصية أن توفره في ظل الأزمة السكانية التي كانت أشد وأطول كثيراً منها في أوروبا الغربية. وكما وثق ليفانوني وغارسين بغزارة[١٢٦]، فإن محاولة ملاك الأراضي الحفاظ على دخولهم على

طالباً السماح له بالعودة إلى مصر من بلاد الرعاة بفلسطين: "لن تموت في بلاد غريبة، ولن يواريك الآسيويون الثرى، ولن توضع في جلد كبش عندما يُصنَع لك تابوتك. لقد مر وقت طويل وأن تهيم في الأرض! فكر في جثتك وعُدّ". ولا يزال هذا الارتباط بالأرض باقياً إلى اليوم. فأخشى ما يخشاه المصري هو أن يموت أو يدفن في أرض غريبة. لكن بعيداً عن المسحة الرومانسية في هذه الظاهرة، فمن المؤكد أنها أثرت سلباً على تقدم المجتمع والاقتصاد. فالحركية والضرب في الأرض إحدى السمات الأساسية للشعوب التي تكون القوة والغلبة من نصيبها [المترجم].

الرغم من انخفاض السكان والناتج أدت إلى انقسامات شديدة ونزاعات بين السلطان وكبار الأمراء والمجندين الجدد المنفلتين، ما أضر بشدة بالفعالية والانضباط العسكريين لهذه الطبقة الحاكمة الأجنبية. ولذلك، لم تتعاف مصر المملوكية بالكامل من الطاعون، سواء من ناحية عدد السكان أو الازدهار أو التماسك السياسي أو القوة العسكرية.

كان ذلك كله يعني أن التجار الأوروبيين الراغبين في شراء التوابل في الإسكندرية وجدوا أنفسهم يتعاملون مع شريك في الدولة المملوكية متلهف لابتزاز أكبر قدر من الربح منهم ومن نظرائهم المحليين. من ذلك أن السلطان برسباي (١٤٢٢-١٤٣٨) لعدم قناعته بالدخل التقليدي من الضرائب على تجارة العبور في التوابل، حاول أن يفرض احتكاراً حكومياً لزيادة العائدات. وقد أدى هذا الإجراء إلى إبعاد تجار الكارم الذين كانوا يديرون التجارة وجمعوا ثروات ضخمة منها، فضلاً عن أنهم كانوا يسهمون بسخاء في خزينة الدولة. وقاوم تجار التوابل البنادقة والأوروبيون الآخرون محاولات السلطان لإجبارهم على دفع أثمان باهظة، وفي النهاية باءت جهوده بالفشل، كما يقول أشتور[١٢٧]. ودفع الضغط المالي مصر إلى مواصلة محاولة تعظيم أرباحها على مدى ما بقي من القرن. ولذلك طلب السلطان في العام ١٤٨٠ أن يحصل على مئة وعشر دوكاتيات ثمن لفة الفلفل الواحدة، في حين كان سعرها السوقي خمسين دوكاتية فقط. لكن البنادقة رفضوا، فمُنِعوا من مغادرة الميناء إلى أن دفعوا سبعين دوكاتية للفة الواحدة[١٢٨].

تميّزت التجارة في البحر الأبيض المتوسط في تلك الفترة بالتنافس المستمر بين البندقية وجنوى. وكانت السلع الرئيسة التي يحتاجها التجار الأوروبيون هي الفلفل والزنجبيل، بينما كان القرنفل وجوز الطيب الأغلى ثمناً يتكسبان أهمية متزايدة. وكما أكد أشتور، فقد ازداد الطلب على القطن الخام كمدخل في صناعة المنسوجات التي

أقيمت في جنوب ألمانيا وأوروبا الوسطى وإيطاليا[١٢٩]. وفي المقابل كانت السلعة التصديرية الرئيسة إلى العالم الإسلامي هي الأقمشة الصوفية، بداية من المنتجات عالية النوعية من فلورنسا وفلندرة، حتى الأنواع الأرخص من كاتالونيا وفرنسا. وكانت المعادن أيضاً من الصادرات المهمة، خاصة النحاس. وكان زيت الزيتون يُصدّر من إسبانيا وشمال أفريقيا إلى مصر وسوريا عن طريق المدن الإيطالية التي مكّنتها هيمنتها على الشحن البحري من التجارة حتى في السلع المنتجة داخل العالم الإسلامي نفسه.

وعلى مدار هذه الفترة كانت البندقية ترسل قوافل منتظمة من السفن إلى الإسكندرية وبيروت. وفيما ظل عدد القوافل ثابتاً في المتوسط على الرغم من التقلبات[١٣٠]، ازداد حجم التجارة بفضل ازدياد سعة السفن كثيراً في السنوات الأخيرة من هذه الفترة. كان صعود البندقية في تجارة التوابل، وفقاً لأشتور، يستند إلى وصولها إلى الفضة والنحاس المستخرجين من أوروبا الوسطى اللذين كان الطلب عليهما كبيراً من جانب المماليك، وأيضاً إلى أسواق التوابل التي أسستها من قبل في ألمانيا وشمال أوروبا من خلال صلاتها بنورمبرغ. وثمة عامل آخر تمثل في المقاومة الشرسة للسلطان برسباي من جانب الجنويين والكتالونيين، ما جعلهم الشركاء التجاريين الأقل تفضيلاً عند التخلي عن محاولة الاحتكار الحكومي بعد وفاته في العام ١٤٣٨. علاوة على أن الكتالونيين كانوا يمارسون القرصنة، ما تسبب في إعاقة تجارتهم بفعل انتقام القوى الإسلامية منهم.

كان نمط التجارة الجنوية في البحر الأبيض المتوسط مختلفاً عن نظيره البندقي. فقد كانت قوة جنوى تكمن في مستعمراتها في بيرا القريبة من القسطنطينية وفي خيوس(٨١) على بحر إيجة. احتكرت جنوى صادرات الشب من منطقة إنتاجه الرئيسة، وهي

(٨١) خيوس Chios خامس أكبر جزيرة يونانية في بحر إيجة، تبعد سبعة كيلومترات عن ساحل الأناضول [المترجم].

فوكيا[٨٢] بآسيا الصغرى، وكانت تصدّره مباشرة إلى فلندرة التي كان يستخدم فيها كمدخل أساسي في صبغ الأقمشة. وكانت تنقل التوابل التي تشتريها من الإسكندرية ودمشق مباشرة إلى سوثامبتون Southampton بإنجلترا وسليوز Sluys بفلندرة. وكانت خيوس المصدر الرئيس للمصطكاء المستخدمة في الدهانات والعطور، وكانت تُصدّر إلى كل من أوروبا والعالم الإسلامي. واستمر تصدير العبيد من منطقة البحر الأسود إلى المماليك في مصر. وكانت جنوى تحصل على القطن بالدرجة الأولى من تركيا وتصدّره إلى المراكز الرئيسة لصناعة المنسوجات في أوروبا. وعلى الرغم من أن البندقية وجنوى كانتا اللاعبين الرئيسين، فقد لعب كثير من المدن والدول الأوروبية الأخرى دوراً نشطاً في تجارة المشرق والبحر الأبيض المتوسط. وبرز التجار الكتالونيون من برشلونة وبلنسية في تصدير الأقمشة الصوفية المنتجة في بلادهم وزيت الزيتون من إسبانيا إلى مصر وسوريا. وشاركت في التجارة أيضاً أمالفي وبيزا ومدن إيطالية أخرى، وراغوزا[٨٣] على الشاطئ الشرقي للأدرياتيكي.

ويمكن النظر إلى نهاية القرن الخامس عشر في عالم البحر الأبيض المتوسط كله على أنها كانت نقطة تحول تاريخي، اجتازت فيه منطقة العصر القديم الكلاسيكي وامتدادها والحضارة الإسلامية أزمة وتحولاً، عكسا تحولات بالغة الأهمية في القوى الاقتصادية والاجتماعية التحتية لصالح شمال غرب أوروبا والمحيط الأطلسي، وهو تحول سيتضح بجلاء إبان القرن التالي. في أوروبا الغربية، يعتبر هذا التحول بعيداً عن إيطاليا والبحر الأبيض المتوسط ونحو البلاد الواطئة وشبه الجزيرة الأيبيرية معروفاً، لكننا لا نعرف الكثير حول التحول الذي صاحبه في العالم الإسلامي. كان المماليك الذين حكموا مصر و"سوريا الكبرى" (التي تضم لبنان وفلسطين وشرق نهر الأردن)

---

(٨٢) فوكيا Phocaea مدينة أيونية قديمة على الساحل الغربي للأناضول [المترجم].

(٨٣) راغوزا Ragusa مدينة على ساحل دالماشيا بكرواتيا الحالية، كانت جمهورية بحرية مهمة في البحر الأبيض المتوسط من العام ١٣٥٨ إلى العام ١٨٠٨ [المترجم].

وكذلك المدينتين المقدستين مكة والمدينة في الحجاز، أقوى دولة في العالم الإسلامي فيما بين سقوط الخلافة العباسية في العام ١٢٥٨ وسقوط القسطنطينية أمام العثمانيين في العام ١٤٥٣. وكان المماليك والعثمانيون كلاهما من أهل السنة، وكانت أصول نخبتيهما ترجع إلى سهول غرب آسيا الوسطى، لكن كان مقدراً لهما- مع ذلك- أن يتنافسا على قيادة العالم الإسلامي.

يرى كارل بتري Carl F. Petry أن الدولتين كانتا تختلفان جذرياً، من حيث إن الدولة المملوكية ذات الوجود الأقدم كانت ترغب في الحفاظ على الوضع الراهن، فيما كانت الدولة العثمانية الجديدة توسعية وديناميةٌ[١٣١]. وقد انعكست النزعة المحافظة المتأصلة في الدولة المملوكية، وفقاً للدراسة الكلاسيكية لديفيد أيالون David Ayalon بشكل واضح وقاتل في موقف طبقتها الحاكمة العسكرية من استخدام البارود والأسلحة النارية[١٣٢]. فكوْنهم فرساناً مهرة يمتلكون مهارات لا تُضاهى في استخدام القوس والرمح جعلهم معادين للتقنية العسكرية الجديدة المعتمدة على هذه الابتكارات وغير متقبلين لها، فلم يجهزوا غير الوحدات الاحتياطية بالأسلحة النارية، واستخدموا المدفعية للدفاع عن السواحل فقط، وليس لمعارك الميدان. في حين أن تعرض العثمانيين الأكبر للحرب مع القوى الأوروبية في البلقان وأوروبا الوسطى جعلهم يتبنون موقفاً أكثر تقدماً بكثير من المماليك في تسليح مشاة الانكشارية بالبنادق واستخدام المدافع على نطاق واسع، ليس في عمليات الحصار فقط، كما حدث في حصار القسطنطينية، بل في معارك الميدان أيضاً. وقد أثبتت مدفعيتهم أنها حاسمة في هزيمة الدولة الصفوية الصاعدة في عهد الشاه إسماعيل في معركة جالديران Chaldiran في العام ١٥١٥، وفي العام ١٥١٦ والعام ١٥١٧ ألحقوا هزيمة مماثلة بالجيوش المملوكية في سوريا ومصر. وبذلك ضُمَت المملكة المملوكية كاملة إلى إمبراطورية السلطان سليم ياوز (١٥١٢-

١٥٢٠) أو سليم الأول العابس كما كان يعرف في الغرب، مع أن المماليك أنفسهم ظلوا مجموعة مؤثرة داخل الإمبراطورية.

جنوب شرق آسيا والصين إبان الفترة ١٣٥٠-١٥٠٠

نتحول الآن إلى المنبع الأول للتوابل التي كان العالم الإسلامي يبيعها لأوروبا المسيحية، وهو تحديداً جنوب شرق آسيا، وإلى العلاقة بين تلك المنطقة والصين. شهد القرن الخامس عشر توسعاً كان مدفوعاً بالدرجة الأولى بالطلب على الفلفل والتوابل القادمين من الصين في الشرق، الذي تممته التجارة الغربية إلى البحر الأحمر والخليج العربي، ما عكس الطلب من العالم الإسلامي والرخاء المتنامي في أوروبا الغربية. ولذلك يطلق أنتوني ريد Anthony Reid على الفترة من العام ١٤٠٠ إلى العام ١٦٥٠ من تاريخ جنوب شرق آسيا اسم "عصر التجارة"[١٣٣]. وهذا رد مقبول على الرؤية المتمركزة حول أوروبا التي تربط التجارة في آسيا بـ"حقبة فاسكو دا غاما" التي تبدأ من نهاية القرن الخامس عشر فقط. فبعد أن لاحظ ريد الركود في تجارة التوابل في منتصف القرن الرابع عشر بسبب الخراب الناتج عن الطاعون وسقوط الإمبراطورية المغولية، نجده يربط بداية "عصر التجارة" بسلسلة من الرحلات الكبرى أرسلتها إمبراطورية مينغ الصينية بداية من ١٤٠٥ فصاعداً بقيادة أمير البحر المسلم زينغ هي Zheng He (أو تشينغ هو Cheng Ho).

تنظر روايات الكُتاب الغربيين في معظمها إلى رحلات إمبراطورية مينغ على أنها كانت مجرد إظهار لقوة الدولة الجديدة، وتتجاهل تأثيرها الاقتصادي. لكننا في المقابل، نجد باحثاً صينياً حديثاً، هو تين جو كانغ Tien Ju-kang، يؤكد أن رحلات زينغ جلبت كميات هائلة من الفلفل من جنوب شرق آسيا وساحل مالابار[١٣٤]. ويقول إن "التحول الذي حدث في الصين في قيمة الفلفل من كوّنه سلعة ثمينة إلى كونه سلعة شائعة

الاستخدام نتج عن رحلات تشينغ هو (زينغ هي)"[١٣٥]. ويقول ريد Reid إن "هذه البعثات حفزت- بلا شك- إنتاج المحاصيل في جنوب شرق آسيا من أجل السوق الصيني"[١٣٦]. وبالفعل في هذا الوقت تقريباً، انتقلت مزارع الفلفل من مالابار في جنوب الهند إلى شمال سومطرة، ومنها كان الفلفل يصدّر إلى الصين. وقد كان الفلفل احتكاراً إمبراطورياً في عهد إمبراطورية مينغ التي استخدمته إلى جانب خشب الصندل وغيرها من الواردات الثمينة بدلاً من العملة الفضية أو الورقية، لمكافأة مئات الآلاف من الجنود والموظفين الحكوميين. وبعد توقف الرحلات، استمرت واردات الفلفل تتدفق بوفرة بفضل التجارة الخاصة ودفع الجزية، وهو ما أدى إلى انخفاض في السعر بلغ عشرة أضعاف في أوائل القرن السابع عشر. وإلى جانب الفلفل، كان القرنفل والشجر الأحمر(٨٤) سلعتين مهمتين في هذه التجارة.

شهد القرن الخامس عشر عنفوان مالاكا باعتبارها "الدولة المينائية"(٨٥) الملايوية الكلاسيكية، كما عَرّفها كاثيريثامبي- ويلز وفيليرز Kathirithamby-Wells and Villiers[١٣٧]، في ظل حكم ملك محلي فتح ميناءه للتجار من أرجاء الأرض كافة. كانت أمثال هذه الكيانات السياسية تقع على مجاري أنهار، ما هيأ لها الوصول إلى مناطق داخلية زراعية على ساحل البحر أو بالقرب منه، وهو ما مكّنها بدوره من الوصول إلى شرايين التجارة الدولية. كانت التجارة المصدر الرئيس للدخل الذي كانت تعيش عليه النخبة الحاكمة. ربما كانت الدولة نفسها مصدراً لمنتجات تصديرية رئيسة، أو كانت فحسب محطة تجارية لنقل منتجات المناطق الأخرى بين السفن. وبهذا المعنى يمكن النظر إلى مالاكا باعتبارها خليفة سريفيجايا وسلف سنغافورة، باعتبارها الدولة

---

(٨٤) الخشب الأحمر sappanwood شجر ينمو بالهند له استخدامات تجميلية وطبية [المترجم].

(٨٥) على منوال مفهوم الدولة المدينية، يشير مفهوم الدولة المينائية port-state إلى الدولة التي يتكون إقليمها من ميناء فقط، أو ميناء ومنطقة خلفية صغيرة [المترجم].

الميناثية الرئيسة بمنطقة جنوب شرق آسيا. على أن الجذور التاريخية لهذه الدولة يلفّها الغموض. ومن المعتقد أنها أقيمت في مكان إحدى قرى صيد الأسماك في نحو العام ١٤٠٢ على يد شخص يدعى باراميسفارا Paramesvara يقال إنه أمير من سلالة سيلندرا المالكة الجاوية وُلِد في باليمبانغ في سومطرة. ومن الواضح أنه سيطر على جانبي المضيق واعترفت به إمبراطورية مينغ حاكماً لمالاكا وفتح معها علاقات دبلوماسية. ومما لا يخلو من دلالة أن زينغ هي زار مالاكا في العام ١٤٠٩ في الرحلة الثالثة من رحلات إمبراطورية مينغ الشهيرة.

كان الإسلام يبدأ في الانتشار في سومطرة في ذلك الوقت، وكانت المملكة الميناثية باساي Pasai هي أول دولة يحكمها حاكم مسلم، ويعتقد أن باراميسفارا الهندوسي اعتنق الإسلام قبل وفاته في العام ١٤٢٤، كي يؤّمن اتفاقية التجارة مع باساي. ومن الواضح أن الحكام اللاحقين رجعوا إلى الهندوسية قبل اعتناقهم النهائي للإسلام بحلول منتصف القرن الخامس عشر. وقد دعم توسع التجارة بين الشرق والغرب، وبخاصة في التوابل في مقابل الفضة والأقمشة والخزف، ظهور مالاكا ونموها باعتبارها المركز التجاري الأول في جنوب شرق آسيا، بفضل موقعها الذي يربط المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي بين الرياح الموسمية الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية المتناوبة. وانتشر الإسلام حتى جزر التوابل متبعاً نمو تجارة مالاكا. وفي الوقت الذي سقطت فيه مالاكا أمام الحملة البرتغالية في العام ١٥١١، كان عدد سكانها يقدّر بين مئة ألف ومئتي ألف، ما يعني أنها كانت المركز الحضري الأكبر في جنوب شرق آسيا[١٣٨].

كانت الضرائب التجارية توفر للدولة أغلب عائداتها، إذ لم يكن بها إنتاج زراعي باستثناء الخضراوات وبعض الفواكه الثمينة مثل الدوريان وجوز الجندم، وكانت تستورد كل الأرز المطلوب من بورما أو سيام أو جاوة معفياً من الرسوم والجمارك. وقد قدّرت القيمة الإجمالية للتجارة في نحو العام ١٥١١ بين واحد واثنين

مليون كروزادو برتغالي. كما أصدرت مالاكا عملة من القصدير، لكن كانت كل العملات تُتبادل بحرية في الأسواق. وكان للسلطان نفسه أسطول تجاري خاص ومارس التجارة لحسابه، وكذلك في شراكة مع تجار آخرين، على ما يبدو دون استغلال سلطته في منافسة القطاع الخاص الأجنبي أو المحلي. وكان لكل نقابة رئيسة، مثل الغوجارات والتاميليين والصينيين والجاويين، رئيس أو شاهبندر مسؤول عن عملياتها ومسؤول أمام الموظف الملكي المعين مركزياً المعروف باسم بنداهارا bendahara. وفي نحو العام ١٥١٦، يقال إن المدينة ضمت عشرة آلاف غوجاراتي، وأكثر من أربعة آلاف بنغالي وعربي وفارسي، وألف تاميلي، وعدة آلاف من الجاويين. وامتلكت الدولة جيشاً دائماً وأسطولاً من المرتزقة، كان يتممهما في زمن الحرب مجندون من الأقاليم المحيطة التي كانت تدين للسلطان بالولاء. وضمت مالاكا أيضاً جماعة مهمة، هي الأورانج لوت orang laut أو البدو البحريين، الذين تشكّل منهم صميم الفرق البحرية والنخبة الحاكمة للدولة. ويبدو أن ثقافة مالاكا كانت عالمية بكل معنى الكلمة. فالإسلام هناك لم يكن متشدداً، حتى إن مسلمي الشرق الأكثر ميلاً إلى المحافظة شجبوه على تساهله.

زعم العطار والدبلوماسي البرتغالي توم بيرز Tome Pires الذي زار مالاكا بعد وقت قصير من احتلالها في العام ١٥١١ أنه كان بوسع الشخص أن يسمع أربعاً وثمانين لغة تستخدم في اليوم الواحد. ويقدم بيرز في المجلد السادس من عمله وصفاً مفصلاً ساحراً لتجارة مالاكا. فيذكر أن مئة سفينة كبيرة على الأقل كانت تأتي إلى مالاكا كل عام بحمولات ثمينة جداً. ومن هذا المجموع، كانت خمس سفن تقريباً تأتي من غوجارات، ومثلها من ساحل كوروماندل، ومثلها من البنغال، ونحو خمس عشرة سفينة من ميناء بيغو Pegu ببورما الدنيا، وزهاء ثلاثين سفينة من سيام، وعشر سفن من الصين، وعشر من باليمبانغ، والباقي من الموانئ المختلفة الواقعة بالجزر والشرق الأقصى. وكان الميناء يضم مخازن لحفظ السلع في أمان إلى أن يتم التصرف فيها، وكذلك كل التسهيلات الضرورية لضمان حدوث التجارة بيسر وأمان. ويخبرنا بيرز أن

التجار من البحر الأحمر والخليج العربي كانوا يأتون بسلعهم إلى كامباي[٨٦] في غوجارات قبل أن يتقدموا إلى مالاكا، وأن "التجار القادمين من القاهرة كانوا يجلبون بضائع جلبتها سفن الغلياس[٨٧] من البندقية، منها الأسلحة والأقمشة الصوفية الملونة والمرجان والنحاس والزئبق والزنجفر[٨٨] والمسامير والفضة والخرز الزجاجي وغير الزجاجي والآنية الزجاجية المذهبة". وكانت كل سفينة من سفن كامباي تحمل حمولة قدّر بيرز قيمتها بين سبعمئة ألف وثمانمئة ألف كروزادو، وتضم ثلاثين نوعاً من الأقمشة "التي كانوا يثمّنونها كثيراً في هذه المناطق". وكانت حمولة العودة تضم القرنفل وجوز الطيب وخشب الصندل و"كميات هائلة من الحرير الأبيض" والقصدير وطيور كانت تستمد قيمتها من ريشها الجميل.

ويلاحظ بيرز الاعتماد المتبادل بين الميناءين الكبيرين، ويقول إن "تجار كامباي جعلوا مالاكا مركزهم التجاري الرئيس" وأن "مالاكا لا تستطيع أن تعيش دون كامباي، ولا كامباي دون مالاكا، إذا أرادتا الثراء والرخاء". وكان التجار التاميليون المعروفون باسم الكلينغ Kling يجلبون كميات كبيرة من الأقمشة، كانت تُبادَل مع خشب الصندل والكافور والشب والتوابل واللآلئ والذهب، وكان التجار التاميليون- كما يقول بيرز- "يمتلكون كل البضائع ويمتلكون من تجارة مالاكا أكثر من أية نقابة أخرى". وكان أكبر هؤلاء التجار التاميليين هو نينا شاتو Nina Chatu الشهير الذي صادق البرتغاليين حين جاؤوا لأول مرة إلى مالاكا في العام ١٥٠٩، وعينوه

---

(٨٦) كامباي Cambay مركز تجاري قديم بولاية غوجارات الهندية، تسمى حالياً خامبات Khambhat [المترجم].

(٨٧) الغلياس سفينة شراعية ضخمة ذات مجاديف كانت تستخدم إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر [المترجم].

(٨٨) الزنجفر مسحوق أحمر اللون، ناصع مائل إلى الصفرة، يستخدم كصبغة، خاصة في صباغة الأقمشة والمنسوجات [المترجم].

بنداهارا بعد استيلائهم على الدولة في العام ١٥١١ ، وانتحر بعد أن عينوا أميراً ملايوياً مكانه لاسترضاء الشعب. ويختتم بيرز وصفه لمالاكا بأنشودة حماسية جزلة للميناء وإمكاناته، ليس فقط باعتباره أفضل قاعدة تجارية في العالم بفضل موقعه الفريد، لكن أيضاً بالنظر إلى الانتصار في الصراع ضد الإسلام[٨٩] لأن "البضائع تدعم ديننا"، وبالنظر إلى المنافسة التجارية ضد الخصم الأوروبي الرئيس للبرتغال — البندقية – لأن "من يحكم مالاكا يمسك برقبة البندقية"[٩٠].

على أن مالاكا رغم سيطرتها على المضايق، لم يكن بمقدورها أن تتجنب الاعتراف بدرجة من الاعتماد على دولة أيوثايا Ayutthaya الواقعة في سيام الأكثر منها في الكثافة السكانية والتي استطاعت أن تسيطر عسكرياً على شبه جزيرة الملايو من طرفها الشمالي. كانت أيوثايا تقع بالقرب من مصب نهر تشاو فرايا Chao Phraya الذي يصب في خليج سيام. وبذلك كان طريقها مفتوحاً إلى سهول الأرز الخصبة وإلى منفذ بحري على تجارة ما وراء البحار، ما أعطاها توليفة هائلة من القوة البشرية والعائدات الزراعية والتجارية. تأسست الدولة في العام ١٣٥١ على يد حاكم من أصول مختلطة تايلندية ملكية وصينية تجارية، وهو ما انعكس في الأساس الثنائي الذي ميّز هذه الدولة

---

(٨٩) مع أن مسلمي مالاكا ربما لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الأندلس والمغرب العربي وميراث الحملات الصليبية، وأن هذا الأندلس وذلك المغرب ربما لم يعرفا بوجود مالاكا وجزر الأرخبيل الإندونيسي، فمن المؤكد أن البرتغاليين في جزر إندونيسيا وإسبانيا في جزر الفلبين كانوا مدفوعين إلى جانب المكاسب التجارية والإمبريالية، بعداء قديم وراسخ للإسلام والمسلمين، وهو أمر ربما جهله مسلمو إندونيسيا آنذاك، فضلاً عن تسامحهم الذي أكد عليه المؤلفان، في حين اعتبر هذا المؤلف البرتغالي احتلال مالاكا انتصاراً في صراع أوروبا المسيحية ضد الإسلام. وبعد احتلال مالاكا بنحو سبعة عقود، حاول ملك البرتغال سباستيان احتلال المغرب في العام ١٥٧٨ ، لكنه هُزم في معركة وادي المخازن أو القصر الكبير وقتل فيها وهلك جيشه كله [المترجم].

(٩٠) كان تطويق البندقية والقضاء على هيمنتها على تجارة البحر الأبيض المتوسط أحد الأسباب الرئيسة لرحلات الاستكشاف البرتغالية [المترجم].

المهمة في جنوب شرق آسيا. ويوضح الجدول رقم (٣,١) المأخوذ من ريد[١٣٩] أن أيوثايا استجابت بحماس لفرصة التجارة مع الصين في بداية إمبراطورية مينغ في العام ١٣٦٩ ، فأرسلت ستين بعثة "جزية" منقولة بحراً في السنوات الستين من العام ١٣٦٩ إلى العام ١٤٢٩ ، وهو عدد أكبر مما أرسلته أية دولة أخرى في جنوب شرق آسيا، مع أن تشامبا وجاوة أرسلتا أكثر من أربعين بعثة لكل منهما إبان الفترة نفسها.

الجدول رقم (٣,١).عدد بعثات الجزية المنقولة بحراً إلى الصين إبان الفترة ١٣٦٩–١٥٠٩.

الفترة	سيام	كمبوديا	تشامبا	جاوة	مالاكا	باسايا
١٣٦٩- ١٣٩٩	٣٣	١٣	٢٥	١١		١
١٤٠٠- ١٤٠٩	١١	٤	٥	٨	٣	٣
١٤١٠- ١٤١٩	٦	٣	٩	٦	٨	٧
١٤٢٠- ١٤٢٩	١٠		٩	١٦	٥	٥
١٤٣٠- ١٤٣٩	٤		١٠	٥	٣	٣
١٤٤٠- ١٤٤٩	٣		٩	٧	٢	
١٤٥٠- ١٤٥٩	٢		٣	٣	٣	
١٤٦٠- ١٤٦٩	١		٤	٣	٢	١
١٤٧٠- ١٤٧٩	٤		٣		١	
١٤٨٠- ١٤٨٩	٣		٣			٣
١٤٩٠- ١٤٩٩	٣		٣	٢		
١٥٠٠- ١٥٠٩	١				٢	

المصدر: Reid (1999, table 1, p. 87)

وتأسيساً على التأثيرات الثقافية من حضارة أنغكور[٩١] المبكرة الواقعة إلى الشرق، تطورت أيوثايا إلى دولة بيروقراطية مركزية جداً، تضم تراتبيات منفصلة من الموظفين المدنيين والعسكريين وتوزيعاً للقوة البشرية والموارد الأخرى على وظائف محددة. واستطاعت إبان القرن الخامس عشر أن تمد نفوذها إلى حدود بورما ولاوس وإلى الميناءين المهمين ميرغوي Mergui وتيناسيريم Tenasserim، ما أعطاها منافذ على خليج البنغال. وكانت سلعتها التصديرية الرئيسة، إضافة إلى الأرز والقصدير من شبه جزيرة الملايو، هي جلود الأيل التي كان الطلب عليها كبيراً في الصين اليابان وجزر ريوكيو[٩٢]. وعلى الرغم من السيطرة المَلكية المطلقة على إدارة تجارة مار وراء البحار، فقد عهد بها إلى موظفين من أصول أجنبية، منهم المسلمون الفرس والهنود إضافة إلى الصينيين والسياميين – الصينيين، يتمتعون بخلفية وخبرة تجارية. واحتفظت المملكة باتصالات نشطة مع الصين التي اعترفت بها كدولة ذات سيادة، وكذلك مع الهند والشرق الأوسط وكل الدول الملايوية والإندونيسية.

كان المنافسون الطبيعيون لأيوثايا إبان القرن الخامس عشر هم الشان[٩٣] الذين كانوا أقرباء لهم عرقياً ولغوياً والذين كانوا مقسمين إلى كثير من الدول الصغيرة، ومملكة المون Mon في ميناء بيغو ببورما الدنيا التي تأسست في العام ١٣٥٦، والمملكة البورمية في آفا Ava، تلك الدولة الضئيلة التي تأسست في العام ١٣٦٤ خلفا

---

(٩١) أنغكور Angkor (بمعنى "المدينة المقدسة") منطقة في كمبوديا كانت موطن الخمير الحمر، ازدهرت بين القرنين التاسع والخامس عشر، بدا وجودها في العام ٨٠٢ حين أعلن ملكها الهندوسي الخميري جايفارامان الثاني نفسه "الملك العالمي" أو "الملك الإله"، وانتهى في العام ١٣٥١ حين أصبحت تابعة لأيوثايا [المترجم].

(٩٢) ريوكيو Ryukyu مجموعة من الجزر البركانية اليابانية تمتد إلى الجنوب الغربي من جزر كيوشو إلى تايوان [المترجم].

(٩٣) الشان Shans جماعة عرقية طايية Tai بجنوب شرق آسيا، يعيش معظمهم في الهند حالياً، ويتحدثون اللغة الآسامية [المترجم].

لإمبراطورية باغان التي سقطت إبان القرن الثالث عشر. شاركت بيغو بقوة في تجارة مالاكا وخليج البنغال، وجعلها خشب الساج مركزاً رئيساً لبناء السفن لعالم جنوب شرق آسيا كله. فالسفن الكبيرة التي كانت تحمل الشحنات إلى مالاكا والموانئ الأخرى في جنوب شرق آسيا، كانت في الغالب تباع هي عينها في الموانئ التي تقصدها. وكانت بيغو تصدّر أيضاً "جِرار المرطبان" التي كانت شائعة في عالم جنوب شرق آسيا كآنية للماء والزيت والحبوب. وساعد دخل بيغو من التجارة الخارجية حكامها إبان القرن الخامس عشر على انتزاع شروط مميّزة في مقابل مملكة آفا البورمية الزراعية الداخلية التي كانت تفتقر إلى منفذ على البحر. وفي المقابل، كانت آفا تمتلك عائدات كبيرة من المناطق المروية المنتجة بالمنطقة الجافة في وسط بورما، ما مكّنها من إعالة سكان أكبر من مستنقعات الامتدادات الدنيا لأنهار إيراوادي وسيتانغ Sittang وسالوين Salween التابعة لبيغو.

كانت سلسلة أراكان يوما Arakan Yoma الجبلية تفصل آفا وبيغو عن مملكة أراكان، تلك المملكة التي كانت تمتد إلى الجنوب الشرقي على طول الساحل من البنغال، التي كانت تربطها بها اتصالات اقتصادية وثقافية قوية على الرغم من الاختلافات الدينية بين البوذية والإسلام. كانت مروكيو Mrauk-U عاصمة هذه المملكة، التي تأسست في العام ١٤٣٣ على نهر في سهل أرز خصب يمتد إلى البحر، تسيطر أيضاً على الميناء المهم ومركز المنسوجات القطنية شيتاغونغ Chittagong في البنغال من العام ١٤٥٩، إلى أن انتزعها منهم المغول في العام ١٦٦٦، وقد وهبها ذلك تنوعاً في الاقتصاد والدخل خلال تلك الفترة التي تمتعت فيها بأوج قوتها ورخائها. كانت المنسوجات القطنية البنغالية، كما رأينا قبل قليل، تحظى بطلب كبير في أنحاء جنوب شرق آسيا كافة، وكان يمكن بيعها في المناطق الداخلية وحول الخليج، في مقابل

سلع أخرى منها الياقوت من بورما العليا وواردات السلع الصينية القادمة عبر نهر إيراوادي من يونان. واحتفظ الأراكانيون بأسطول حربي قوي تخصص في العمليات البحرية في المياه الضحلة للجداول والأنهار، كانوا يستخدمونه في الغارات من أجل الغنائم والعبيد في البنغال، وكان ذلك مصدر دخل آخر مربح.

كانت فيتنام مقاطعة صينية طوال الألفية الأولى كلها تقريباً. ولذلك سعت إمبراطورية مينغ المبكرة مدفوعة بالحرص على الاتصال بما وراء البحار، إلى استعادة الهيمنة الصينية على هذه المنطقة العنيدة، باحتلالها في العام ١٤٠٧، بذريعة الإطاحة بمغتصب الحكم، لكنها في الحقيقة كانت تريد أن تفرض حكماً مباشراً عليها. قاوم الفيتناميون- كعادتهم- وأقام قائد الثورة الوطنية دولة جديدة لسلالة لي Le في العام ١٤٢٨، عاصمتها هانوي. واعترفت إمبراطورية مينغ بسلالة لي ملوكاً لأنام Annam (التي تعني "الجنوب الهادئ") بعد دفع الجزية، وبذلك عمّ السلام الربوع كلها وعادت العلاقات إلى القاعدة التقليدية للخضوع الاسمي مع الاستقلال الفعلي. وكان أبرز حكام الدولة الجديدة هو لي ثان تون Le Thanh Ton (١٤٦٠-١٤٩٧) الذي فتح مملكة تشامبا إلى الجنوب في العام ١٤٧١، وبذلك امتد ملكه ليشمل دلتا ميكونغ وموقع سايغون Saigon الحديثة إضافة إلى القاعدة التقليدية لدلتا النهر الأحمر اللتين يجمعهما الشريط الساحلي الطويل شرق سلسلة جبال أنام.

وعلى ذلك، فإلى جانب مالاكا، ضمت منطقة جنوب شرق آسيا كثيراً من المراكز الإقليمية الأخرى مثل أراكان وبيغو وأيوثايا، وكثيراً من الدول الساحلية الجاوية الشمالية، ازدهرت جميعها في تلك الفترة. كانت المنافسة السياسية والحرب موجودتين بالطبع، لكن من الملاحظ أنه لم تظهر دولة ذات ادعاءات إمبراطورية في

جنوب شرق آسيا في هذا القرن. كانت قوة ممالك باغان وأنغكور وماجاباهيت[(٩٤)] ومجدها قد أصبحا في طي النسيان، ولم يظهر منافسون جدد حتى ذلك الحين. ومع أن مالاكا وعدة موانئ إندونيسية وملايوية أخرى شاركت في تجارة المسافات الطويلة، إلا أن حاجتها للسلع المحلية حفزت إنتاج الأرز ونشاطات بناء السفن في بورما وتايلند. ولذلك كانت تجارة المسافات الطويلة في التوابل والمنسوجات القطنية الهندية والحرير والخزف الصينيين تكملها في دول جنوب شرق آسيا تجارة المنطقة الداخلية في الأرز والخشب والسلع الضرورية الأخرى، وقد حقق ذلك تخصصاً دولياً فعَّالاً. ومع أنه لا توجد تقديرات كمية للصادرات الإجمالية لجنوب شرق آسيا إبان القرن الخامس عشر، فمن الواضح أن صادرات التوابل الإجمالية ارتفعت كثيراً[١٤٠].

أدارت إمبراطورية مينغ ظهرها للاتصال بما وراء البحار بعد العام ١٤٣٠ وفرضت حظراً وقيوداً شاملة على تجارة ما وراء البحار. فاختفت السفن والأحواض التي تصنع فيها، وبدأت تقنية الملاحة البحرية للمسافات الطويلة تتلاشى نتيجة لعدم الاستخدام. والتفسير الذي يُقدَم عادة لهذه الأفعال غير العقلانية هو الصراع على السلطة بين الموظفين الكونفوشيين التقليديين أنصار نسق القيم القائم على الزراعة والتركيز على التهديد البدوي الكامن في آسيا الوسطى من جانب، وعصبة خصيان القصر التي كان زينغ هي Zheng He نفسه ينتمي إليها وهم أنصار إظهار نفوذ الدولة في الخارج من جانب آخر، وفي هذا الصراع كان النصر من نصيب المجموعة الأولى. وكانت الغارات على المناطق الساحلية من جانب قراصنة الواكو wako اليابانيين الذين كانوا في حقيقتهم صينيين ساخطين سبباً آخر لنفور بيروقراطية إمبراطورية مينغ من

(٩٤) إمبراطورية ماجاباهيت Majapahit كانت آخر الإمبراطوريات الهندوسية العظيمة في الأرخبيل الملايوي، تبعت مملكة سريفيجايا، كان مقرّها في باليمبانغ على جزيرة سومطرة بشرق جاوة من العام ١٢٩٣ حتى العام ١٥٠٠ أو نحوه [المترجم].

تجارة ما وراء البحار. فسعى الصينيون إلى تجنب غاراتهم بفرض ضبط صارم على تجارة ما وراء البحار التي اقتصرت على نحو متزايد على نظام الجزية التقليدي. وفي هذا النظام، كانت التجارة تجرى فقط في سياق بعثات الجزية من دول تابعة معترف بها، وكان حجم السلع وأنواعها منظمّين بصرامة.

كان من النتائج المهمة لتلك السياسة الأهمية المتزايدة لجزر ريوكيو في عهد الملك شو هاشي Sho Hashi الذي شجع التجار الصينيين الجنوبيين على الاستيطان قرب أوكيناوا والقيام بالتجارة مع اليابان والصين وجنوب شرق آسيا، ووفر بذلك حلقة وصل مهمة بين هذه الأسواق الرئيسة[١٤١]. يوضح الجدول رقم (٣,١) أن بعثات الجزية من جاوة وسيام وتشامبا وأماكن أخرى ظلت تتدفق على الصين إبان القرن الخامس عشر بعد انكفاء إمبراطورية مينغ على الذات، وإن كان تكرارها قد تناقص. ولذلك وصلت إحدى عشرة بعثة جزية من سيام إبان العقد الأول من القرن، وعشر إبان العقد الثالث، في مقابل ما لا يزيد عن أربع في أي عقد لاحق، وهذا النمط تكرر مع مناطق أخرى. فالصين لم تتحول إلى دولة مكتفية ذاتياً في تلك الفترة، لكنها أصبحت أكثر انغلاقاً بكثير منها في أي وقت سابق.

حجم تجارة التوابل إبان القرون الوسطى المتأخرة(٩٥)

نختتم هذا الفصل ببعض المعلومات الكمية حول مدى تجارة التوابل إبان القرن الخامس عشر، لأنها من أقدم البيانات المتاحة حول التجارة العابرة للقارات، ولأن تجارة التوابل كانت مهمة من الناحية الجيوسياسية. يذكر ويك Wake أن واردات الفلفل الأوروبية كانت نحو ألف طن سنوياً في العام ١٤٠٠، وأن البندقية كانت توفر زهاء ٦٠٪ منها[١٤٢]. وكانت واردات التوابل الأخرى غير الفلفل بين أربعمئة وسبعين طناً

(٩٥) تذكر أن العصور الوسطى المتأخرة تغطي القرنين الرابع عشر والخامس عشر [المترجم].

وخمسمئة وخمسين طناً، كانت البندقية تستورد أقل من نصفها. وبحلول العام ١٥٠٠، ارتفعت واردات الفلفل إلى أوروبا قليلاً إلى نحو ألف ومئتي طن، فيما انخفض نصيب البندقية إلى أقل من ٦٠٪. وبالنسبة للتوابل الأخرى غير الفلفل، بما في ذلك مواد أثمن كثيراً مثل القرنفل وجوز الطيب، فقد ارتفعت واردات أوروبا منها بسرعة أكبر كثيراً إلى ما بين ألف ومئتي طن وألف وثلاثمئة وخمسين طناً سنوياً، وارتفع نصيب البندقية منها إلى أكثر من ٦٠٪. وهكذا عوضت البندقية خسارة نصيبها في سوق الفلفل بزيادة كبيرة في التجارة التي هي الأكثر ربحاً في التوابل الثمينة.

يتضح من المناقشة السابقة أن الزيادة في الواردات الأوروبية إبان القرن الخامس عشر ربما عكست زيادة في الطلب الأوروبي أكثر منها تحسناً في شروط التجارة. والأدلة حول أسعار الفلفل تكشف أن ذلك هو ما حدث فعلاً. فقد قدم فريدريك لين Frederick Lane وإلياهو أشتور Eliyahu Ashtor أدلة على أن الأسعار الاسمية للتوابل، وبخاصة أسعار الفلفل، انخفضت إبان القرن الخامس عشر في البندقية والشرق الأدنى[١٤٣]. لكن الأسعار النسبية هي الأهم في توضيح الندرة أو الوفرة الاقتصادية للسلع، ولم يقدم المؤلفان أدلة مباشرة حولها. ويقترح أشتور أن جزءاً من تفسير انخفاض أسعار التوابل يتمثل في الاتجاه الانكماشي العام للأسعار في الشرق الأدنى الذي يعكس الاتجاه الانكماشي في أوروبا الذي أشرنا إليه في موضع سابق[١٤٤]. لكن على أية حال، حتى إذا انخفضت الأسعار الحقيقية للتوابل في البندقية والشرق الأدنى في تلك الفترة، فإن الشكل رقم (٣,٥) يوضح أن تلك النتيجة لا يمكن تعميمها على بقية أوروبا، لأن أسعار الفلفل الحقيقية (أي المعدلة ضد التضخم بأسعار الحبوب) ارتفعت في إنجلترا وهولندا وفلندرة والنمسا على مدار القرن[١٤٥].

إن النتوء في أسعار التوابل إبان العقد الثاني من القرن الخامس عشر أمر كاشف، لأنه يتزامن بالضبط مع بعثات زينغ هي. لقد شهد العام ١٤١١ احتلال سيلان (سريلانكا) وأسر أحد الملوك المحليين[١٤٦]. وقد رأينا أن هذه البعثات كانت تشتري كميات كبيرة من التوابل والفلفل، ومن المعقول أن يترجم ذلك إلى تراجع كبير في النسبة الباقية للتصدير إلى أوروبا، بالنظر إلى الدور المهيمن للسوق النهائي الصيني في ذلك الوقت. بل إن واردات القرنفل الأوروبية انخفضت من اثنين وعشرين إلى أربعة عشر طناً بين العقد الأخير من القرن الرابع عشر والعقد الأول من القرن الخامس عشر[١٤٧]. وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن هذه الفرضية تؤكد الاعتماد المطلق لأوروبا على ظروف السوق الآسيوي في تلك الفترة والمكانة المحيطية لأوروبا في الاقتصاد الدولي. فآسيا، وليس أوروبا، هي التي كانت تحدد سرعة التجارة العابرة للقارات(٩٦).

على أن هذا الحال سرعان ما طالته يد التغيير بسبب القوى التي بحثناها في هذا الفصل. فقد رأينا كيف أدى الطاعون إلى رفع مستويات المعيشة الأوروبية، وبالتالي الطلب على السلع التجارية الآسيوية، في الوقت الذي أصبحت فيه التجارة البرية مع آسيا مستحيلة على الأوروبيين الغربيين مرة أخرى. وارتفاع أسعار الفلفل والسلع الكمالية الأخرى يكون متوقعاً في ظل هذه الظروف فقط، تماماً كما حدث نتيجة للاستغلال المتزايد للمستهلكين الأوروبيين من جانب الوسطاء المسلمين والبنادقة الذين رفعوا هامش السعر إلى التكلفة استجابة لمستويات الطلب المتزايدة. وبذلك يمكن فهم

---

(٩٦) إذا صدقنا إدوارد غيبون، وهو ما نريده فعلاً، فإنها ليست المرة الأولى التي تؤثر فيها الأحداث في شرق آسيا على الأسعار النسبية البريطانية بطريقة مباشرة. فغيبون يقول إن "أهالي غوثيا Gothia (السويد) وفريز Frise تملكهم الرعب من التتار في العام ١٢٣٨، فلم يرسلوا سفنهم- كالعادة- إلى مصايد الرنغة على ساحل إنجلترا، ونتيجة لتوقف التصدير، أصبح الأربعون أو الخمسون من هذه الرنغة تباع بشلن .... وإنه لأمر غريب جداً أن تؤثر أوامر خان المغول الذي ينتهي سلطانه عند حدود الصين بخفض أسعار الرنغة في السوق الإنجليزي" (Gibbon 1907, p. 148).

التعارض بين انخفاض أسعار التوابل في مصر والبندقية وارتفاعها في مراكز الاستيراد الرئيسة في شمال غرب أوروبا.

أدى ذلك كله، إلى جانب استنفاد التخوم الأوروبية إبان القرون الوسطى[١٤٨](٩٧)، إلى تعزيز الحافز لدى الأوروبيين من غير البنادقة للبحث عن طريق بعيد عن الوسيط الإسلامي الذي حال دون الوصول المباشر إلى كل من التوابل الآسيوية والذهب الأفريقي، وهو هدف تبناه الأوروبيون- كما رأينا- منذ القرن الثالث عشر على الأقل. وهذا الحافز الاقتصادي أكمله الحافز الثقافي والجيوسياسي للعودة إلى كاثاي(٩٨)، تلك الرغبة التي ظلت حية بفعل حكايات الرحالة التي أُنْتِجت في زمن السلام المغولي. وبتعبير فيليبس Phillips، فإننا "بقليل من المبالغة، نستطيع أن نقول إن الميراث النهائي لفتوحات جنكيز خان وأتباعه في آسيا وأوروبا الشرقية إبان القرن الثالث عشر تمثل في اكتشاف الأوروبيين والشعوب الأمريكية الأصلية بعضهم بعضاً في نهاية القرن الخامس عشر"[١٤٩].

---

(٩٧) على خلاف مفهوم "الحدود" الذي يشير إلى خط، يشير مفهوم "التخوم" إلى منطقة. وعلى غرار التخوم الأمريكية، كانت التخوم دوماً متنفساً للتوسع وضم أراض جديدة [المترجم].

(٩٨) "كاثاي" هو الاسم المتداول للإشارة إلى الصين في أوروبا إبان العصور الوسطى، وذلك بسبب ربطها بإمبراطورية الخيتان الموالين للمغول [المترجم].

الفصل الرابع

التجارة العالمية إبان الفترة ١٥٠٠–١٦٥٠

تجارة العالم القديم وفضة العالم الجديد

WORLD TRADE 1500-1650:
OLD WORLD TRADE AND NEW WOLRD SILVER

أعلن آدم سميث في كتابه العظيم "بالصراحة الاسكتلندية الفجة"، على حد وصف إليوت Elliott، أن "اكتشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى جزر الهند الشرقية هما أعظم وأهم حدثين سُجِلا في تاريخ البشرية"[١]. قد يكون من الموافق لروح عصرنا أن نشجب هذه الرؤية لكوْنها مثالاً مريعاً آخر للإثم الأكاديمي القاتل المسمى التمركز حول أوروبا Eurocentrism. لكن لا مجال لإنكار أن الرحلات التي يشير إليها سميث كانت إحدى نقاط التحول الكبرى في التاريخ العالمي، حيث وضعت – وللأبد – حداً لعزلة الأمريكتين عن العالم القديم في الكتلة الأفريقية–الأوراسية. واكتملت رحلات كولومبس ودا غاما إبان العقد الأخير من القرن الخامس عشر بطواف ماجلان البحري حول الكرة الأرضية في العام ١٥٢١. وبعد خمسين عاماً، أسس الإسبان مدينة مانيلا. وكان وصول أول غليون[١] إلى مانيلا محملاً بالفضة القادمة من أكابولكو[٢] بمثابة "البداية للتجارة

---

(١) الغليون galleon سفينة شراعية كبيرة، تجارية وحربية [المترجم].

العالمية" بالمعنى الحرفي للعبارة، كما أشار فلين وجيرالديز Flynn and Giraldez لأنه في ذلك الوقت فقط أصبحت السلع تعبر حول الكرة الأرضية كلها ويتم تبادلها عبر المسافات الشاسعة للمحيطين الأطلسي والهادي[٢].

تثير هذه الأحداث الفارقة التساؤلات المتواترة حول الأسباب التي جعلت دول شبه الجزيرة الأيبيرية - البرتغال وقشتالة وأراغون - وليس الدول المدينية الإيطالية الأكثر تقدماً من الناحية التجارية، أو الفلمنكيين، أو القوة الفرنسية الصاعدة، هي التي تصدّرت هذه المغامرات التي كانت فاتحة لعصر جديد. فما هي الدوافع التي حثت الدول الأيبيرية لتحمل الأخطار والنفقات التي انطوت عليها هذه الرحلات إلى المجهول؟ وماذا كانت نتائج اكتشاف العالم الجديد على كل منطقة من مناطق العالم القديم؟ وما تأثير اكتشاف الفضة الأمريكية على الاقتصاد الدولي؟ وما الأسباب التي جعلت القوى الأيبيرية تترك مكانها في العالم الجديد لبريطانيا والهولنديين بالدرجة الأولى؟ وهل كان لظهور تجارة العبيد بين أفريقيا والعالم الجديد ارتباط سببي بظهور الثورة الصناعية إبان القرن الثامن عشر؟ يتناول هذا الفصل والفصول واللاحقة هذه القضايا وما يترتبط بها.

تميّزت القرون الثلاثة التالية بسمة أساسية، هي الحرب المتواصلة، ليس بين القوى الأوروبية على القارة الأوروبية نفسها وحسب، بل أيضاً خارجها، وليس مع إحداها الأخرى فقط، بل أيضاً ضد الشعوب الأصلية والدول والإمبراطوريات التي وجدوها هناك، وهو موضوع سنتناوله بالضرورة. عكست هذه النزاعات عدداً من السمات الجديدة للحرب في العصر الحديث المبكر، وُصِفت بأنها "ثورة عسكرية"[٣](٣). وقد استخدم مفهوم الثورة لوصف مجموعة معقدة ومتشابكة من التطورات في الإستراتيجية والتكتيكات والتجهيزات والأسلحة والتحصينات والتجنيد والتدريب وتنظيم الجيوش والأساطيل. وقد أدى ذلك- بدوره- إلى زيادة كبيرة في حجم القوات

---

(٢) أكابولكو Acapulco مدينة وميناء بحري رئيس في ولاية غوريرو Guerrero على ساحل الهادي المكسيكي [المترجم].

(٣) يوجد عدد من أهم المقالات حول هذا الموضوع في كتاب روجرز (Rogers, 1995).

المسلحة، سواء من الناحية المطلقة أو نسبة إلى إجمالي الموارد البشرية والمادية المتاحة، وإلى مزيد من الانضباط والتنسيق بين الوحدات والأفرع المختلفة للقوات المسلحة، وإلى زيادة المهنية بين هيئة الضباط على كل المستويات. وتتحدد الفترة الحاسمة التي حدثت فيها الثورة إبان القرن الممتد من العام ١٥٦٠ إلى العام ١٦٦٠ الذي شهد الصياغة الأصلية للثورة، لكن هذين التاريخين دفعهما البعض زمنياً إلى الخلف إلى القرن الرابع عشر، وإلى الأمام إلى منعطف القرن التاسع عشر.

بيد أن الزيادة في حجم القوات المسلحة وكلفتها ما كان لهما أن يحدثا لولا نمو السكان والثروة في دول أوروبا إبان العصر الحديث المبكر، وتنامي قدرة هذه الدول على الوصول إلى تلك الثروة. وقد انعكست التكاليف العسكرية المتزايدة أيضاً في الانخفاض الكبير في عدد الوحدات السياسية المستقلة على الأراضي الأوروبية[٤] وانعكس خارجها في إخضاع أوروبا لنحو ٣٥٪ من سطح الكوكب بحلول العام ١٨٠٠[٥]. فكان الفاتحون الإسبان والبرتغاليون في العالم الجديد، والبرتغاليون والهولنديون في المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا، وجيوش السباهية(٤) لشركتي الهند الشرقية الإنجليزية والفرنسية جميعاً تجليات بطريقة أو بأخرى "للميّزة النسبية في العنف" التي منحتها الثورة العسكرية للقوى الأوروبية إبان العصر الحديث المبكر. على أننا سنؤكد أيضاً على حقيقة أن التقنيات العسكرية الجديدة صُدّرت إلى بقية العالم، ما أدى إلى عمليات متماثلة من المركزية السياسية، وكذلك مشكلات "عسكرية- مالية " مماثلة، إذ حاولت الدول أن تبحث عن دخول لتلبية نفقاتها الدفاعية المتزايدة[٦]. وكان من طرق تلبية هذه النفقات عوائد النهب وريوع الاحتكار، واستغلال طبقة الفلاحين، والتجديدات المالية. وقد تقرر المستقبل الاقتصادي والسياسي للدول بالدرجة الأولى، وفي بعض الحالات استمرار بقائها نفسه، بمدى نجاحها في إدارة هذه التحديات.

---

(٤) السباهية sepoy هم الجنود أو القوات الهندية المجندة في الجيش الإنجليزي، وتوسعاً في الجيوش الغربية عموماً [المترجم].

البرتغال والمحيطين الأطلسي والهندي

"كان البرتغاليون من أوائل الأوروبيين الذين فهموا أن المحيط ليس حداً أو قيداً، بل ممراً مائياً عالمياً يوّحد البشرية"، هكذا قال لورد أكتون Lord Acton في المحاضرة الثانية من "محاضراته حول التاريخ الحديث" حول "العالم الجديد"[٧]". وقد أرجع أكتون هذا السبق إلى تطويق إسبانيا للبرتغال، ما حرَم الأخيرة من أي متنفس لطاقات نبلائها المتململين وطموحاتهم غير المحيط الأطلسي. كانت المملكة البرتغالية ذاتها أحد نتاجات الروح الصليبية الجهادية لعملية الاسترداد(٥)، وكانت العاصمة لشبونة قد انتزعها من الأندلسيين في العام ١١٤٧ مجموعة من الصليبيين الإنجليز والفلمنكيين والألمان، وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة، نيابة عن الحاكم المؤسس ألفونسو هنريك Afonso Henriques. وقد بقيت هذه الروح متقدة في النزاعات اللاحقة في شبه الجزيرة الأيبيرية، ولاحقاً أيضاً في شمال أفريقيا. وجاءت أعلى نقطة في القوة البرتغالية في هذه الحروب مع انتزاعهم سبتة من الدولة المرينية(٦) البربرية في العام ١٤١٥، بقيادة جواو الأول Joao I مؤسس سلالة أفيس Avis الحاكمة. وبعد الاستيلاء على سبتة، صدّ البرتغاليون قوة مشتركة من المرينيين والنصريين(٧) حكام غرناطة في العام ١٤١٩. أعطى هذا النصر

---

(٥) حول مفهوم "استرداد إسبانيا" في مقابل مفهوم "سقوط الأندلس"، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

(٦) المرينيون، أو بنو مرين، سلالة بربرية تنحدر من قبيلة زناتة، حكمت المغرب الأندلس من العام ١٢٤٤ إلى العام ١٤٦٥، أسسها الأخوان أبو يحيٍ عبدالحق (١٢٤٤- ١٢٥٨) ثم أبو يوسف (١٢٥٨- ١٢٨٦) على حساب دولة الموحدين التي قُتِل آخر أمرائها في العام ١٢٦٩. خاضت عدة حروب على أرض الأندلس في عهد أبو يعقوب يوسف (١٢٨٦- ١٣٠٧)، وتوسعت في الجزائر وتونس. وتهاوت دولة المرينيين سريعاً، ووقعت تحت وصاية أقربائهم من الوطاسيين، إلى أن ثار عليهم سكان فاس، وانتقل حكم المغرب إلى الوطاسيين [المترجم].

(٧) النصريون، أو بنو نصر أو بنو الأحمر، آخر سلالة عربية حكمت غرناطة (١٢٣٢- ١٤٩٢) وآخر الحكام العرب والمسلمين في الأندلس كلها. أسس دولتهم محمد بن نصر بن الاحمر (١٢٣٢- ١٢٧٣) الذي أعلن نفسه في العام ١٢٣٢ سلطاناً على أراغون واستولى بعدها على العديد من المناطق والمدن جنوب الأندلس. وبعد سقوط كل ممالك المسلمين في الأندلس، عاشت مملكة غرناطة عمرها الطويل بالتبعية لمملكة قشتالة ودفع الجزية لها واللعب على الخلافات بين الممالك النصرانية، إلى أن قرر فيردناد الأراغوني وإيزابيلا القتشالية أن يكملا عملية الاسترداد ويستوليا على مملكة غرناطة. وبعد حرب دامت

مكانة كبيرة للدولة الجديدة في العالم المسيحي، ووفر لها أيضاً قاعدة ومنصة لمزيد من العمليات العسكرية والتجارية في المغرب وما ورائه.

أعطى ضم سبتة شهرة ومكانة كبيرة للابن الخامس لملك البرتغال جواو الأول من الملكة الإنجليزية فيليبا اللانكسترية Philippa of Lancaster، ابن الحادية والعشرين حينذاك، المعروف لأجيال تلاميذ المدارس في العالم الناطق بالإنجليزية باسم "الأمير هنري الملاح". وقد كوفئ على جهوده بتعيينه حاكماً للغرب(٨) وقائداً لأخوية فرسان المسيح، واستخدم الأمير موارد هذه المناصب وغيرها من الامتيازات التي مُنِحت له لتجهيز سلسلة من الرحلات إلى جزر المحيط الأطلسي والساحل الغربي لأفريقيا. وكان الإغراء الفوري الذي لا يقاوم بالنسبة لهنري يتمثل في "التجارة الذهبية للمغاربة"، أي محاولة الوصول البحري إلى مصدر الذهب في بلاد السودان[٨](٩). وكان ثمة دافع آخر تمثل في الإغارة على المستوطنات الساحلية لسبي العبيد أو المسلمين طلباً للفدية لإطلاق سراحهم"[٩]. ويضيف رسل Russell إلى هذه الدوافع رغبة هنري في إثبات إمكانية القيام بحملة صليبية ضد الإسلام "على السواحل الأطلسية لأفريقيا بالصحراء الكبرى وجنوبها بالفعالية والتأثير نفسيهما للحملات الصليبية على عالم البحر الأبيض المتوسط"[١٠].

ويبدو أن الدافع للتوسع البرتغالي إبان القرن الخامس عشر كان مزيجاً معقداً من الحماسة الدينية والإستراتيجية الجيوسياسية الكبرى والربح التجاري، إذ كان الإسلام الخصم الرئيس في هذه المجالات جميعها(١٠). ويذهب بوكسر Boxer إلى أن "الدوافع

عشر سنوات، وحصار غرناطة لأكثر من عام، وقّع آخر سلاطين بني الأحمر أبو عبدالله محمد الثاني عشر اتفاقية استسلام المملكة في العام ١٤٩٢ [المترجم].

(٨) الغرب Algarve منطقة في أقصى جنوب البرتغال فتحها العرب في أوائل القرن الثامن واستردتها مملكة البرتغال في منتصف القرن الثالث عشر، واسمها الأوروبي مشتق من كلمة "الغرب" العربية [المترجم].

(٩) بلاد السودان، أو "أرض السود"، كما عرفها المغاربة والأيبيريون في العصور الوسطى، تقابل منطقة غانا وجوارها بغرب أفريقيا [المترجم].

(١٠) يبدو أن رحلات الاستكشاف جميعها، بداية من هنري الملاح وفاسكو دا غاما، حتى كريستوفر كولولومبس كانت موجهة بالدرجة الأولى ضد المسلمين، إما للالتفاف حول حصارهم لأوروبا بالوصول إلى جزر الهند الشرقية بعيداً عن الأراضي الإسلامية، أو لتوجيه حملة صليبية على الأراضي

الأربعة الأساسية التي ألهمت القادة البرتغاليين... كانت بالترتيب الزمني وإن كانت متداخلة وبدرجات متفاوتة: (١) الحماسة الصليبية ضد المسلمين، (٢) الرغبة في ذهب غينيا، (٣) البحث عن الكاهن يوحنا[١١]، (٤) البحث عن التوابل الشرقية"[١١]. وكان التنافس السياسي مع قشتالة دافعاً آخَر مهماً لهذه الحملات[١٢]. في البداية، كانت التجارة والنهب في أفريقيا وحولها، بما في ذلك الذهب والعبيد والسلع الأخرى، الهدف الاقتصادي الأساسي، لكن مع نهاية القرن الخامس عشر لاحت فرصة أبعد مكانياً وأكثر إغراءً في الوقت عينه، وهي إمكانية تطويق البندقية وسلاطين المماليك بمصر وكسر احتكارهم المشترك لتجارة التوابل بالوصول مباشرة إلى مصادرها. ومن منظور الإستراتيجية الكبرى، يمكن النظر إلى المغامرات البحرية باعتبارها تطويق للعالم الإسلامي، أي تطويق للمماليك والعثمانيين، هرباً من مأزق المواجهة المتواصلة على البر في منطقة البلقان وفي البحر على صفحة البحر الأبيض المتوسط. وكما أشرنا قبل قليل، فقد انجدلت مع هذه الاعتبارات العقلانية بعيدة المدى أسطورة الكاهن يوحنا، ذلك الحاكم المسيحي الأسطوري لمملكة غير معلومة في الشرق، الذي كان من الممكن أن يكون حليفاً ثميناً للأوروبيين في المعركة ضد المسلمين، إذا ما تمكّنوا من الوصول إلى مملكته. وتذهب قصة متواترة إلى أن سفن فاسكو دا غاما حين وصلت كاليكوت وسألهم السكان الأهليون "ما الذي أتى بكم إلى هنا؟" كانت إجابتهم: "لقد جئنا بحثاً عن المسيحيين والتوابل"[13].

ومع أن هذه الأهداف السامية ربما ألهمت الجهود البرتغالية في أوقات مختلفة، فلا شك في أن كثيراً من العمليات التي نفذها الأمير البرتغالي كانت في حقيقتها

الإسلامية بعيداً عن قلب العالم الإسلامي. حتى أن بحث كولومبس عن طريق جديد إلى جزر الهند الشرقية قُصِد به جزئياً توجيه هجوم مزدوج على الإسلام من الشرق والغرب. ولذلك اصطحب كولومبس معه في رحلته التي "تعثر" فيها بأمريكا الجنوبية، مترجماً يهودياً يتحدث اللغة العربية، حتى أن هذا المترجم بدأ في التحدث باللغة العربية مع السكان الأصليين المشدوهين في كوبا، اعتقاداً منه ومن كولومبس بأنهما نزلا على أرض إسلامية. وفي رسالته إلى فيردناند وإيزابيلا التي كتبها في العام ١٤٩٣، وعد كولومبس بأنه "في خلال سبعة أعوام من اليوم سيمكنني أن أزود جلالتكم بخمسة آلاف فارس وخمسين ألف جندي مشاة للحرب وغزو أورشليم الذي من أجله بدأنا هذا العمل" [المترجم].

(١١) راجع حاشية سابقة للمترجم حول الكاهن يوحنا Prester John [المترجم].

دنيوية، بل قذرة أيضاً، حتى بمعايير ذلك الزمان. كان من أبرز هذه الأعمال بدء تجارة العبيد المتنامية، حيث كان الأفارقة يباعون في أوروبا كخدم منزليين، وكان أبناء جزر الكناري[١٢] يرسلون إلى جزر ماديرا للعمل في مزارع السكر التي أنشئت برأسمال جنوي بالدرجة الأولى. وقد منح البابا نيقولاس الخامس الأمير هنري حق احتكار العمل في هذه التجارة والتربح منها. وبعد موت هنري في العام ١٤٦٠، كانت جزر الرأس الأخضر[١٣] المكتشفة حديثاً مخصصة لمزارع السكر المعتمدة على العمال العبيد الأفارقة المستوردين، وكانت بذلك نموذجاً ومثالاً سرعان ما احتذي به في الكاريبي. وكان مكتشف ومطور هذه الجزر هو الجنوي أنطونيو دا نولي Antonio da Noli الذي حصل على الإذن برحلته من هنري الملاح، ما يجعل الأخير بمعنى من المعاني راعي ومؤسس العبودية عبر المحيط الأطلسي، في أبشع صورها.

وفي العام ١٤٦٨، مُنِح التاجر اللشبوني فيرناو غوميث Fernao Gomes احتكاراً للتجارة مع أفريقيا لمدة خمسة أعوام بشرط أن يوسع استكشاف الساحل بمئة فرسخ إلى الجنوب (أكثر قليلاً من ثلاثمئة ميل) سنوياً. وأوفى فيرناو بهذا الشرط وزاد عليه، حيث تجاوز الأراضي المعروفة باسم ساحل العاج (كوت ديفوار) وساحل الذهب (غانا) وساحل العبيد (توجو وداهومي). وفي العام ١٤٧٤، تولى أحد أبناء ملك البرتغال دوم جواو، ابن أخي هنري الملاح الذي اعتلي العرش في العام ١٤٨١ باسم جواو الثاني، المسؤولية عن استكشاف ما وراء البحار. ويذهب أوليفيرا ماركيث Oliveira Marques إلى أن هذا الدوم جواو، وليس عمه الملاح، هو الذي يجب اعتباره المهندس الحقيقي للإمبراطورية البرتغالية المستقبلية، إذ كان هدفه الواضح والصارم هو الوصول إلى الهند عن طريق الإبحار حول أقصى الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية[١٤]. قاد دوم جواو رحلتين بحريتين بارزتين إبان العقد التاسع من القرن الخامس عشر، تجاوزتا فم نهر الكونغو وما يعرف الآن بأنغولا. وفي العام ١٤٨٨، بلغ البرتغاليون

(١٢) جزر الكناري Canary أرخبيل من الجزر التابعة لإسبانيا يقع قبالة سواحل المغرب والصحراء الغربية على بعد مئة كيلومتر [المترجم].

(١٣) جزر الرأس الأخضر Cape Verde أرخبيل يضم عشرة جزر في الأطلسي الأوسط، يبعد عن ساحل أفريقيا الغربية بثلاثمئة وخمسين ميلاً، تسمى حالياً جمهورية الرأس الأخضر [المترجم].

مَعْلَماً أساسياً، حين اكتشف بارتلوميو دياز Bartolemeu Dias الرأس الجنوبي لأفريقيا ودار حول ما سُمي عن جدارة "رأس الرجاء الصالح"(١٤). وبعد ذلك، أصبح الوصول إلى جائزة الهند مسألة وقت. لكن ذلك تأخر بسبب موت جواو الثاني في العام ١٤٩٥ واندلاع نزاعات حزبية في البلاط، إلى أن غادرت رحلة فاسكو دا غاما التاريخية لشبونة أخيراً في العام ١٤٩٧ برعاية الملك الجديد دوم مانويل الأول Manuel I المعروف باسم "المحظوظ"، ابن عم سلفه الشهير — الملاح - ولم يكن مانويل يقل عن الملاح طاقة وحماساً للاستكشاف وبناء الإمبراطورية.

يتضح الإدراك الإستراتيجي لدى جواو الثاني جلياً في أنه في العام نفسه الذي غادر فيه دياز على رأس رحلته التي دارت حول رأس الرجاء الصالح- العام ١٤٨٧- أرسل براً إلى مصر وشبه الجزيرة العربية بعثة استخبارية "سرية". فقام جاسوسان متنكران في هيئة تجار بزيارة القاهرة والإسكندرية وعدن. ويبدو أن أحد الجاسوسين اختفى من التاريخ، لكن الجاسوس الآخر المدعو بيرو دي كوفيلا Pero da Covilha الذي كان يتحدث اللغة العربية، شقّ طريقه في سفينة عربية إلى ساحل مالابار الهندي، وهناك حصل على معلومات ثمينة حول الموانئ الكبرى، ومنها كاليكوت. ثم ذهب إلى مملكة إثيوبيا المسيحية، ولعل ذلك هو السبب وراء أسطورة الكاهن يوحنا. واستقر دا كوفيلا في إثيوبيا التي عينه إمبراطورها إكسندر Eskender حاكم منطقة ومنعه من مغادرة البلاد، لكن بعد أن سلم تقريراً مفصلاً حول الموقف السياسي والتجاري في المحيط الهندي الغربي إلى مبعوث يهودي أُرْسِل من لشبونة. ربما كانت هذه المعلومات متاحة لبعثة دا غاما، ولذلك تكوّنت لدى دا غاما فكرة جيدة عما ينتظره بعد أن دار حول رأس الرجاء الصالح وشقّ طريقه على طول الساحل الشرقي لأفريقيا.

قد يكون من المفيد عند هذه النقطة أن نتناول التقنية الملاحية التي كانت الأساس

---

(١٤) كما أن الحدث التاريخي الواحد يثير مشاعر متناقضة لدى الشعوب والثقافات المختلفة، مثل استيلاء ملوك أيبيريا النصارى على ممالك المسلمين في الأندلس الذي يسموه على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط "استرداد" ونسميه نحن على الضفة الجنوبية والشرقية للبحر نفسه "سقوط الأندلس"، كذلك أطلق المسلمون على هذا الطريق اسم "رأس العواصف" أو "رأس العواقب"، في المقام الأول بسبب الأضرار التي ألحقها باقتصاد الدول الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط [المترجم].

لهذه الرحلات البرتغالية. كانت الملاحة في البحر الأبيض المتوسط والمياه الساحلية لأوروبا الشمالية والغربية قد تقدمت بفضل قرص البوصلة وخطوط البوصلة على خرائط بورتولان[١٥] التي كانت تحدد المسارات بين نقاط محددة ومواقع معلومة. وكانت رحلات المسافات الطويلة عبر البحار المفتوحة إلى أماكن غير معلومة تتطلب المعرفة العلمية بالفلك والجغرافيا لإنجازها بنجاح، وهنا لعبت حركة إحياء العلم الكلاسيكي التي حدثت في عصر النهضة دوراً لا غنى عنه، وهي عملية توسَطها في الغالب علماء يهود ومسلمون. وقد شجع جواو الثاني البحث في الموضوعات ذات الصلة، مثل طرق حساب خطوط العرض بملاحظة ارتفاع الشمس عند الظهيرة. وكان صناع الخرائط يعتمدون على معرفة الرحالة الأوروبيين إلى الشرق، من ماركو بولو إلى بندقي آخر يدعى نيكولو دي كونتي Niccolo dei Conti قضى الأعوام من ١٤١٩ إلى ١٤٤٤ في التنقل في الشرق الأوسط والهند وجنوب شرق آسيا. تسلح دا غاما بآخر ما توصل إليه عصره في المعرفة الملاحية، فانحرف غرباً في المحيط الأطلسي لتفادي التيارات وسكون الرياح في خليج غينيا وللاستفادة من الرياح التجارية قبل أن ينعطف شرقاً، ليصل بدقة إلى اليابسة على الساحل الجنوبي الغربي لأفريقيا قبل أن يدور حول رأس الرجاء الصالح.

ما كان لهذه الرحلة البحرية أن تحدث بالتأكيد لولا التقدم الملحوظ الذي حدث في تقنيات بناء السفن الأوروبية في بداية القرن الخامس عشر. يذكر باري Parry الذي نعتمد على روايته فيما يلي[١٥]، أن تصميم سفن البحر الأبيض المتوسط في هذه الفترة تأثر بمجموعتين بعيدتي المدى من التأثيرات الخارجية. كان من التجديدات الأولى المهمة التي ظهرت قبل عدة قرون في أعقاب الفتوحات العربية تبني الشراع العربي المثلث الذي يمتد من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها، الذي كان أكثر مرونة بكثير فيما يتعلق باتجاه الرياح من الأشرعة الرومانية المربعة القديمة. فلم يكن الشراع الأخير يستطيع أن يتقدم ضد رياح مباشرة، ولم يكن قابلاً للتحريك بكفاءة. وفي المقابل، كانت السفن

(١٥) خرائط بورتولان أو الرّق portolan charts أداة جغرافية مبكرة ظهرت إبان القرن الثالث عشر في إسبانيا والبرتغال كانت توضح الموانئ وطرق التجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط [المترجم].

ذات الأشرعة المربعة يمكن أن تكون أكبر كثيراً من السفن ذات الأشرعة المثلثة التي كانت صغيرة جداً على رحلات المسافات الطويلة. وجاء التأثير الخارجي الثاني من شمال غرب أوروبا التي احتفظت سفنها بالأشرعة المربعة، فيما حسّنت تصميمها مقارنة بالأشرعة الرومانية الأصلية. وقد دخلت هذه السفن إلى البحر الأبيض المتوسط بعد الحملات الصليبية وأصبحت الشكل القياسي لنقل الحمولات الكبيرة. وشهد القرن الخامس عشر انفجاراً في التجديد، جمع أفضل العناصر من نوعي التقاليد كليهما، مثل إضافة صواري إضافية ذات أشرعة مثلثة إلى سفن ذات أشرعة مربعة. وظهر "العديد من الأنواع الهجين"[١٦]، كان من أهمهما اثنان: سفينة القرقور carrack الضخمة ذات الثلاثة صواري التي كانت تحمل حتى ستمئة طن أو أكثر، وصواريها مربعة، ومزودة أيضاً بأشرعة مثلثة، وسفينة الكارافيل caravel الشهيرة، وهي سفينة ذات أشرعة مثلثة كانت تُزوّد أيضاً بسارية مربعة أو اثنتين. وكان هناك أيضاً عديد من السفن المتوسطة، وكان المستكشفون يستخدمون عادة "أساطيل متوازنة- كما فعلت أساطيل فاسكو دا غاما وكابرال - كانت تضم واحدة أو اثنتين من سفن الكارافيل التي كانوا يستخدمونها لنقل الرسائل واستطلاع الساحل وغيرها من الأعمال الصغيرة المختلفة التي أخذ أمراء البحر لاحقاً يعطونها للفرقاطات"[١٧]. وهذه السفن التي ظهرت "من خلال عملية التجريب والتغيير النشطة" كان لها الفضل في ظهور ما يسميه باري "عصر الاستكشاف".

وفي رحلة دا غاما، كانت السفينتان الرئيستان، وهما البارجة ساو غابريل Sao Gabriel وساو رافائيل Sao Rafael، من الحجم المتوسط، فيما كانت السفينة الثالثة سفينة إسناد تُدعى بيريو Berrio من نوع الكارافيل سعة خمسين طناً. وفي الرحلة الخارجية، اصطحبوا بحاراً مسلماً محلياً من ماليندي على ساحل ما يُعرف حالياً بكينيا ليساعدهم في العبور النهائي إلى كاليكوت. يقال إن هذا البحار هو أحمد بن ماجد العُماني الشهير مؤلف أحد الكتب العربية الأساسية حول الملاحة، لكن سوبراهمانيام Subrahmanyam يدفع على نحو مقنع باستحالة أن يكون هذا البحار هو تلك الشخصية البارزة، وإنما مجرد بحار من الغوجاراتيين. لكن التحديد الدقيق غير ممكن ابتداء، لأنه

اعتمد على تزامن أوبرالي بين شخصيتين بطوليتين من عالمين مختلفين كلياً، تصادف أن التقيا في ميناء بشرق أفريقيا في اللحظة التاريخية الصحيحة.

كانت كاليكوت التي نزلوا عليها في مايو من العام ١٤٩٨ الميناء الرئيس على ساحل مالابار ومحطة تجارية كبيرة. وكان حاكمها هندوسياً يحمل لقب سامودري راجا Samudri Raja، بمعنى ملك البحر، وهو الاسم الذي حرفه البرتغاليون إلى زامورين Zamorin الذي عُرِف به هؤلاء الحكام في معظم الروايات الغربية. كانت غالبية التجارة في أيدي التجار المسلمين، سواء من الشرق الأوسط أو الغوجارات والموبلا الأهليين، الذين كانوا يتمتعون بحرية كاملة للعبادة، طالما أنهم كانوا يمتثلون إلى حظر ذبح الأبقار. كان الموبلا أحفاد المهاجرين العرب، وكانوا في غالبيتهم من البحارة والنساء الهنديات من الطبقة الدنيا. وكان الفلفل الذي يُزرَع على نطاق واسع في المنطقة الداخلية المنتج الأول للتصدير المباشر، فضلاً عن الزنجبيل، وكانت توجد أيضاً سلع من كل نوع يمكن تخيله لإعادة تصديرها في الاتجاهين. وكانت البنية التحتية اللازمة للتجارة، سواء المادية ممثلة في أحواض السفن والمستودعات، أو الأعمال المصرفية والخدمات المالية، متوفرة بغزارة، وكان هناك نظام قانوني مدقق ونزيه، ورسوم وجمارك خفيفة نسبياً لتشجيع التجارة.

كان الموقف السياسي العام في الهند في ذلك الوقت موقفاً نتقالياً. وكانت الدولة المهيمنة هي سلالات العبيد الأتراك القوية التي تتابعت على سلطنة دلهي، لكنها وهِنت، وحلت محلها سلالة اللودهيين Lodis الأفغانية الأضعف في منتصف القرن الخامس عشر، قبل أن تلحق بهم الهزيمة في العام ١٥٢٦ من بابُر مؤسس الدولة المغولية[١٦]. وكانت الهند الوسطى والجنوبية تتنافس عليها مملكة فيجاياناغارا Vijayanagara الهندوسية القوية ودولة إسلامية عُرِفت باسم سلطنة باهماني Bahmani، والاثنتان انفصلتا عن سلطنة دلهي بعد أن تدهورت إبان القرن الرابع عشر.

---

(١٦) ظهير الدين محمد بابُر (١٤ فبراير ١٤٨٢ إلى ٢٦ ديسمبر ١٥٣٠) من أحفاد تيمورلنك حكام فرغانة، مؤسس الدولة المغولية في الهند. غزا الهند من أفغانستان وسيطر على معظم مناطق الهند الشمالية (١٥٢٥- ١٥٢٦) [المترجم].

وإلى الشمال على الساحل الغربي، كانت توجد سلطنة إسلامية غنية أخرى هي غوجارات كان يقع فيها مركز المنسوجات القطنية الكبير وميناء كامباي. وفي الشرق كانت البنغال أيضاً يحكمها حاكم مسلم مستقل.

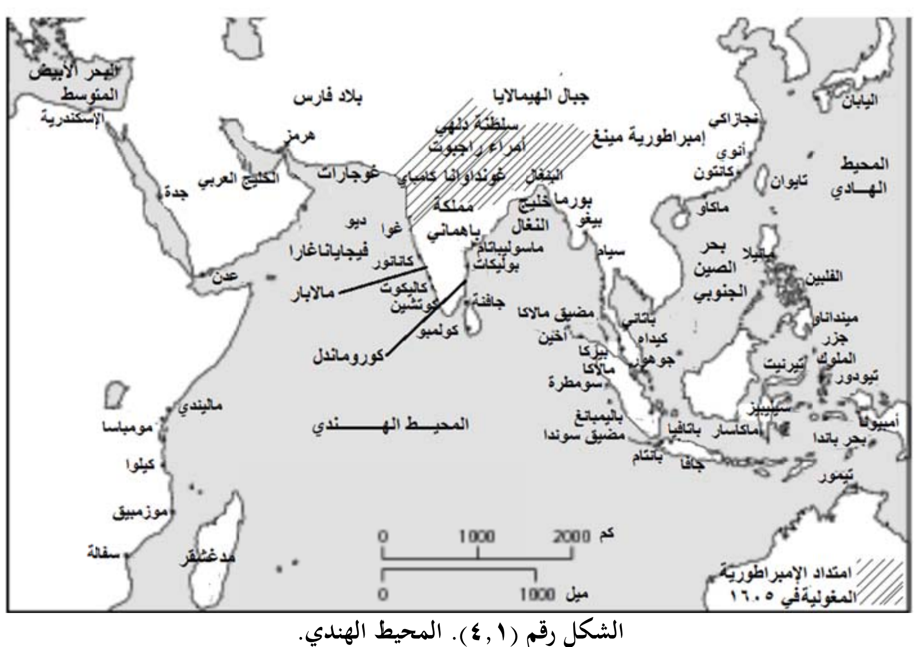
كانت المراكز التجارية الرئيسة على الساحل الغربي في ذلك الوقت هي كامباي وكاليكوت، يليها غوا Goa وكانانور Cananore وكوشين Cochin. وكانت هذه الموانئ جميعها تزدحم بالسفن القادمة من هرمز وعدن على مدخل الخليج العربي والبحر الأحمر على التوالي. وكانت أهم الواردات إلى الهند على الإطلاق سلعة سبق أن صادفناها وهي الخيول الفارسية والعربية للفرسان في الدول الهندية المتحاربة. وثمة "حيوان حرب إستراتيجي آخر"، هو الفيل المدرب على القتال الذي كان يصدّر من سريلانكا، وكذلك القرفة واللآلئ. وكان الحرير والسجاد والأصباغ تلي الخيول في الأهمية كصادرات من بلاد فارس. وكانت موانئ شرق أفريقيا مثل مومباسا وماليندي وكيلوا وسفالة[١٧] ترسل العاج والأبنوس والعبيد والذهب، وتأخذ في مقابلها المنسوجات القطنية بالدرجة الأولى من غوجارات. وكان القرنفل وجوز الطيب والصولجان القادم من جزر باندا وجزر الملوك[١٨] يُفرّغ في موانئ مالابار للنقل غرباً. وكانت البنغال وساحل كوروماندل على الجانب الشرقي لشبه الجزيرة يصدّران الأقمشة القطنية إلى مالاكا والموانئ الأخرى بجنوب شرق آسيا، في مقابل التوابل والخزف من الصين. وكان التجار التاميليون، من أمثال الشتيار Chettiars، مؤثرين جداً في هذا النصف الشرقي من تجارة المحيط الهندي (انظر الشكل رقم ٤,١). واعتمدت موانئ كثيرة على واردات الأرز التي كانت توفرها جاوة وبيغو. ولم يحاول أي من دول المحيط الهندي أن تفرض سيطرتها على التجارة أو أن تتدخل فيها لتحريك الأسعار النسبية لصالحها، وكانت معظم المكوس والرسوم لأغراض الدخل فقط. فقد كان "الانفصال بين السوق والدولة" واضحاً تماماً. وباستثناء القرصنة، كانت البحار

---

(١٧) سفالة Sofala ميناء في موزمبيق يُعرَف حالياً باسم نوفو سوفالا، كان الميناء الرئيس لمملكة موتابا Mutapa بشرق أفريقيا [المترجم].

(١٨) جزر باندا Bandas جزء من جزر الملوك Moluccaa بإندونيسيا التي عُرِفت قديماً بجزر التوابل [المترجم].

تتمتع بحرية كاملة، فحرية البحار Mare Liberum التي نادى بها هوغو غروتيوس[(١٩)] لاحقاً في المياه الأوروبية، كانت قد أنجزت في الشرق قبل أن يتدخل البرتغاليون لعرقلتها.



الشكل رقم (٤,١). المحيط الهندي.

وبعد عودة دا غاما من كاليكوت، لَقّب دوم مانويل نفسه باسم "سيد الغزو والملاحة والتجارة في إثيوبيا وبلاد العرب وبلاد فارس والهند"، ورأى البرتغاليون أن ذلك يعطيهم الحق في احتكار كل الشحن والتجارة في البحار الشرقية وتنظيمهما، وبخاصة تجارة التوابل. ونظر البرتغاليون إلى التجار المسلمين على أنهم أعداء، وأخضعوا سفنهم للحجز أو المصادرة أو التدمير، ما لم تُعفَ بإذن، كان يسمى قرطاس cartaz، بعد دفع الرسم الملائم. كانت الرسوم نفسها تافهة، لكن السفينة

(١٩) هوغو غورتيوس Hugo Grotius (١٠ أبريل ١٥٨٣ إلى ٢٨ أغسطس ١٦٤٥) قاضي وعالم قانون من الجمهورية الهولندية، وضع مع فرانسيسكو دي فيتوريا Francisco de Vitoria وألبريكو جنتيلي Alberico Gentili الأسس للقانون الدولي بناء على القانون الطبيعي [المترجم].

كانت تضطر لأن ترسو في ميناء خاضع للسيطرة البرتغالية وأن تدفع الرسوم على شحنتها وأن تترك رهنا للعودة إلى الميناء نفسه في رحلة العودة لدفع الرسوم مرة ثانية على الشحنة الجديدة[١٨]. ومن أجل دعم هذه السياسة المتطرفة، حاولت دولة الهند(٢٠)، كما أطلق على نظام ما وراء البحار البرتغالي، أن تقيم حلقة من النقاط الساحلية القوية المحصنة عبر المحيط الهندي من مالاكا في الشرق إلى هرمز وعدن في الغرب. ويعتبر أفونسو دي ألبوكرك Afonso de Albuquerque الذي عُيّن حاكماً لدولة الهند في السنوات التكوينية من العام ١٥١٠ إلى العام ١٥١٥ مهندس هذا المخطط، فاستولى على غوا في العام ١٥١٠ لتكون القاعدة المركزية، ثم مالاكا في العام ١٥١١، ثم هرمز في العام ١٥١٤. لكن فشلت محاولته للاستيلاء على عدن في العام ١٥١٣، ومعها فشلت المحاولة البرتغالية لاحتكار تصدير التوابل إلى أوروبا، إذ ظل البحر الأحمر مفتوحاً للشحن الإسلامي. وعلى الرغم من بعض الانتصارات البحرية الرئيسة، مثل الانتصار على الأسطول المملوكي قبالة ساحل ديو في العام ١٥٠٩(٢١)، لم يكن لدى البرتغاليين العدد الكافي من السفن أو الرجال الذي يمكّنهم من فرض مخطط الاحتكار، في حال عدم السيطرة على عدن.

يقول بوكسر إن عدد سكان البرتغال إبان القرن السادس عشر لم يزد عن مليون وربع المليون نسمة، ولم يزد عدد الذكور البرتغاليون القادرون على حمل السلاح في حروب الشرق عن عشرة آلاف في أي وقت[١٩]، مع أن سوبراهمانيام وتوماس Subrahmanyam and Thomaz يذكران تقديراً من أربعة عشر ألفاً إلى ستة عشر ألفاً في الربع الأخير من القرن السادس عشر[٢٠]. ولذلك لجأ البرتغاليون إلى السكان

---

(٢٠) دولة الهند Estado da India أو الهند البرتغالية هو الاسم الذي أطلق على الممتلكات البرتغالية في الهند، الذي تحوّل لاحقاً إلى شركة الهند الشرقية البرتغالية [المترجم].

(٢١) معركة ديو البحرية Diu، تُعرَف أيضاً باسم معركة جاول الثانية، معركة بحرية فاصلة في تاريخ البشرية، وقعت في الثالث من فبراير عام ١٥٠٩ بالقرب من ميناء ديو الهندي، بين الأسطول البرتغالي مدعوماً من البندقية وراغوزا وأسطول مشترك من سلطنة المماليك البرجية المصرية وسلطنة غوجارات وحاكم كاليكوت مدعوماً من الدولة العثمانية. انتصر فيها البرتغاليون، وكانت نقطة تحول، فقد المسلمون بعدها السيطرة على المحيط الهندي وخطوط التجارة البحرية مع آسيا وبدأت الهيمنة الأوروبية على هذا المحيط وتجارته [المترجم].

"الأوراسيين وفيري العدد والأطقم والجنود المحليين لتعويض النقص. ولم يتجاوز عدد السفن البرتغالية في أي عام عتبة الثلاثمئة سفينة، وفقاً لهذا المرجع نفسه. وكانت الخسائر في كل من السفن والرجال في دولة الهند ثقيلة جداً بسبب الطقس والمرض والحرب. وفي النهاية، حلت تسوية كان التجار والحكام المسلمون بمقتضاها يدفعون "إتاوات" متوسطة للبرتغاليين، متى تعذر تجنب ذلك، فيما انخرط التجار البرتغاليون الخاصون في تجارة الشحن المحلية المربحة في شراكة مع المسلمين والهنودس المحليين.

وعلى الرغم من هذه المشكلات التي أعاقت فرض مخططاتهم الطموحة، فإن النجاح الذي أنجزه البرتغاليون كان رائعاً بكل المقاييس. يأتي على رأس الأسباب التي تُذكَر دائماً لهذا النجاح الشقاق بين خصومهم. فكوشين وكانانور، على سبيل المثال، تعاونتا مع البرتغاليين ضد منافسهم زامورين حاكم كاليكوت، قبل أن يتحول إليهما البرتغاليون ويلتهموها. وكانت دولة فيجاياناغارا الهندوسية القوية راضية بالحصول على ما تحتاجه من خيول لفرسانها من البرتغاليين فقط، بعد أن استولى الأخيرون على كل من هرمز التي كانت الخيول الفارسية تُشحَن منها عبر بحر العرب، وعلى غوا التي كانت الخيول المنقولة بحراً تنزل فيها للنقل إلى داخل البلاد. وأخيراً، اتحدت السلطنات الإسلامية في الدكن، مثل بيجابور Bijapur التي انتزع البرتغاليون غوا منها، ودمرت الدولة الهندوسية الرئيسة المنافسة في العام ١٥٦٥، ما أدخل تجارة الخيول المربحة في حالة من الركود المؤقت. وفي الأرخبيل الإندونيسي، كان التنافس بين السلطنات الإسلامية أيضاً في صالح البرتغاليين. وكانت الدولة الآسيوية الوحيدة التي لم يحقق البرتغاليين مكاسب على حسابها هي الصين. وباءت المحاولات لاستخدام القوة في بحر الصين الجنوبي إبان العقد الثالث من القرن السادس عشر بالفشل على صخرة الأساطيل الساحلية لإمبراطورية مينغ، وكما سنرى لاحقاً فإن البرتغاليين لم يصلوا إلى ميناء مكاو إلا إبان العقد السادس من القرن السادس عشر، بعد إبرام صفقة مع المسؤولين الصينيين المحليين.

ثمة تفسير آخر رائج للنجاح البرتغالي في المياه الشرقية، هو استخدامهم للأسلحة النارية، وبخاصة الاستخدام الفعال للمدافع المحملة على ظهر السفن المبحرة

في المحيطات. فعلى الرغم من أن الممالك الهندية كانت تستخدم المدفعية على الأرض، فإنها عموماً لم تستطع أن تستخدمها في البحر. وقد كان المماليك معروفاً عنهم احتقار استخدام الأسلحة النارية، لكن العثمانيين الذين حلوا محلهم في العام ١٥١٧- كما رأينا- وورثوا عنهم الاهتمام بتجارة البحر الأحمر لم تكن تردعهم هذه المحظورات. وفي بعض الأوقات، كانت السفن التركية تلحق أضراراً كبيرة بالسفن والقواعد البرتغالية. لكن إجمالاً، كان الحكام الآسيويون "البريون"، مثل سلطان غوجارات، يرون أن "الحروب البحرية شأن التجار وعملهم ولا تؤثر على مكانة الملوك"[٢١]. ولا شك في أن جهداً مخططاً من جانب أي من الممالك الهندية القوية كان من شأنه أن يبعد البرتغاليين عن قواعدهم، لكن يبدو أن كل الممالك لم تَّرَ ذلك في مصلحتها. وكانت الدول التجارية والجماعات الصغرى على ساحل مالابار هي التي ترى تعارضاً كاملاً بين مصالحها ومصالح البرتغاليين، ما اضطرهم للدخول مع البرتغاليين في حرب واسعة حين كان بديلهم الوحيد هو الإذعان للمطالب البرتغالية. ولذلك فقدت كاليكوت استقلالها لصالح كوشين، وهُزِم الموبلا، لكن بعد صراع قاسٍ.

أدى استيلاء البرتغاليين على مالاكا في العام ١٥١١ إلى إعاقة النمط التقليدي لتجارة المحيط الهندي في البداية، بسبب الموقع المهيمن للميناء ونظامه التجاري الليبرالي. لكن التجار التاميليين استمروا في التجارة في مالاكا[٢٢]، لكن الغوجارات المسلمين فتحوا منفذاً بديلاً عبر آتشيه عند الطرف الشمالي الغربي لسومطرة على الساحل الغربي، وعبر مضيق سوندا إلى بانتام Bantam في شمال غرب جاوة. ومن آتشيه، كانوا يصدّرون الفلفل عبر جزر المالديف إلى البحر الأحمر، وأخيراً إلى البندقية. وكان من الممكن أيضاً أن يُنقَل الفلفل إلى الهند، ثم شمالاً على امتداد الساحل الغربي إلى غوجارات، حيث يصدّر منها إلى البحر الأحمر، على الرغم من الدوريات البرتغالية. فالفشل في الاستيلاء على عدن ظل يشكل نقطة ضعف لدولة الهند البرتغالية.

يستشهد بوكسر (١٩٦٩) بالكثير من المصادر البرتغالية والمصادر الأوروبية الأخرى لإثبات أن السفن التي كانت تعمل في تجارة آتشيه - البحر الأحمر كانت

"سفناً ضخمة" من نفس نوع سفينة القرقور البرتغالية الكبيرة، ومشابهة لها في الحجم والتسليح، إن لم تكن أكبر حجماً وأكثر تسليحاً، ومماثلة لها في الأشرعة والشكل. ويبدو أنها كانت تحمل أعداداً كبيرة من الأتراك والعرب والأحباش وغيرهم من المرتزقة لحمايتها وللمشاركة في المعارك العرضية مع السفن الحربية البرتغالية التي كانت تحاول اعتراضها، كما حدث مثلاً في العام ١٥٦٢ والعام ١٥٦٥[٢٣]. فمنذ أن أخذ البرتغاليون يشيدون سفنهم على الساحل الغربي للهند، نجد أنفسنا أمام مثال واضح لنقل التقنية الناجح من الغرب إلى الشرق. وكانت آتشيه شوكة كبرى في حلق البرتغاليين، وكانت هجماتها المتكررة على مالاكا تضاعف الضرر الناتج عن تحويل طريق تجارة التوابل. ولذلك ظهرت دعوات كثيرة لهجوم شامل على آتشيه لحل تلك المشكلة، لكن النظام في غوا لم يتمكن يوماً من جمع الموارد اللازمة للقيام بهذه العملية المُكْلِفة.

ثمة مشكلة مزمنة أخرى لم تتمكن دولة الهند أبداً من حلها، وهي النزاع بين مصالح مسؤوليها كخدم للتاج البرتغالي من ناحية، وقادة عسكريين أو تجار خاصين لحساب أنفسهم من ناحية أخرى. فلم تكن دولة الهند بالتأكيد بيروقراطية فيبرية(٢٢) حديثة تتبع مجموعة منظمة ومحكمة من القواعد والإجراءات تضمن سلاسة العمل لصالح الدولة وحدها. وكما أوضح نيويت Newitt، فإن البرتغال أنجزت بداية واعدة في تطوير شركة حكومية بيروقراطية هي شركة غينيا Casa da Guine التي أُنشِئت لإدارة العمليات العسكرية والعلاقات التجارية في غرب أفريقيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر[٢٤]. وقد أنشأوا نسخة أكبر من هذه المنظمة، هي شركة الهند، للقيام بالدور نفسه في المحيط الهندي. لكن بسبب النطاق الأوسع والمسافات الأطول كثيراً في الحالة الأخيرة، وما يرافق ذلك من مشكلات في الاتصال، كان من المستحيل أن تعمل

(٢٢) فيبري Weberian نسبة إلى الفيلسوف وعالم الاجتماع والسياسة الألماني ماكس فيبر Max Weber (٢١ أبريل ١٨٦٤ إلى ١٤ يونيو ١٩٢٠) صاحب مذهب العقلانية، الذي قال بأن السلطة في الدولة الحديثة تقوم على أبنية عقلانية- قانونية، في مقابل السلطة الكاريزمية والتقليدية في الدول ما قبل الحديثة، وهذه السلطة العقلانية تتضمن الإدارة العامة الحديثة، بمعنى "الخدمة المدنية" الهرمية، ودعا إلى أن تمتلك الدولة وحدها حق احتكار الاستخدام الشرعي للقوة المادية [المترجم].

هذه الشركة على النحو الذي جاء في تصورها الأصلي. فكان تبادل الرسائل يستغرق شهرين في غرب أفريقيا، في مقابل سنتين بين لشبونة وغوا. كما أن نطاق المشروع بالنسبة للموارد المالية للبرتغال كان يعني أيضاً استحالة الدفع الفوري والمنتظم للرواتب والصيانة ورأس المال العملي. وإضافة إلى ذلك، كانت هناك مشكلة أخرى تمثلت في نقص القوة البشرية المدربة اللازمة لمهمة إدارة الإمبراطورية. فعلى خلاف قشتالة التي ضمت أكثر من ثلاثين جامعة لتدريب كثير من الموظفين المتعلمين، ضمت البرتغال جامعة كويمبرا Coimbra فقط، ولاحقاً أضافت كلية إيفورا Evora اليسوعية. وفي ظل هذه الظروف، لم يكن غريباً أن يلجأ البرتغاليون إلى نموذج بديل، هو استعمار جزر المحيط الأطلسي، كما رأينا في مواضع سابقة.

يتفق هذا البديل مع الشكل الإقطاعي التقليدي الموروث من القرون الوسطى الذي كان الحاكم فيه يفوض سلطته إلى طبقة النبلاء أو أفراد مؤتمنين أقل مرتبة، مع الاعتراف بأنهم يستخدمون مناصبهم لإعالة أنفسهم وأقربائهم وأتباعهم بأساليب حياتهم المعتادة، إلى جانب الالتزام في الوقت نفسه بمسؤولياتهم أمام الملك والدولة. وكانت قيم هؤلاء النبلاء وتدريبهم وأخلاقياتهم تميل نحو الشرف والمجد من المآثر العسكرية وتوفير الرعاية للأهل والحشم، وهو أمر عقلاني تماماً بالتأكيد في سياق المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه. كان من التقاليد الشائعة في أوروبا إبان العصر الحديث المبكر شراء المناصب وبيعها بحرية بأسعار تعكس الريوع التي كان يمكن جمعها من هذه المناصب[٢٥]. ولذلك كان منصب قاضي الجمارك في غوا يباع في العام ١٦١٨ بأكثر من ضعف الثمن الذي يدفع في منصب رئاسة المدينة كاملة. وكانت رئاسة حصني هرمز وديو تباع بخمسة أضعاف وأربعة عشر ضعف رئاسة العاصمة غوا على التوالي، بسبب التجارة المربحة جداً للخليج العربي وغوجارات التي تمر خلالهما. وكانت مدد هذه المناصب عادة قصيرة جداً، ونادراً ما كانت تتجاوز ثلاثة أعوام، ولذلك هيمنت الرغبة في انتزاع أقصى قدر ممكن من الريوع على حساب متابعة أية أهداف طويلة المدى لصالح الدولة. وفي ظل هذه الظروف، لم يكن مفاجئاً أن تتعرض القواعد الصارمة لفرض احتكار تجارة التوابل للخرق مرات ومرات. وفي ذلك يستشهد نيويت

بحالة سفالة في العام ١٥٤٨ التي لم يكن يتوفر بها ناب واحد لتنفيذ الاحتكار الملكي لتصدير العاج، بينما كان قائد الميناء يشحن كميات ضخمة من العاج لحسابه الخاص[٢٦]. وكان المسؤولون البرتغاليون في مالابار يشترون الفلفل لحسابهم بأسعار أعلى من الأسعار المنخفضة التي كانوا يعرضونها هم أنفسهم للزراع بصفتهم مديري الاحتكار الملكي للتوابل. ويذهب بيرسون أبعد من ذلك إلى القول بأن الفشل في الاستيلاء على عدن ربما يمكن تفسيره بأن إغلاق البحر الأحمر كان من شأنه أن يقلل فرص السماح بمرور السفن الإسلامية المحظورة وتربح الفاسدين من وراء ذلك[٢٧].

كانت فرص السلب والنهب الدافع الأقوى والأكثر إغواءً ومكراً الذي اعتمد عليه التاج لحل مشكلة "الرئيس- الوكيل" في دولة الهند البرتغالية. فداخل حدود الإمبراطورية البرية، كان مسؤولو الدولة ملزمين بالحفاظ على أرواح الشعوب الخاضعة وممتلكاتهم، بشرط أن يذعنوا ويدفعوا الضرائب والإتاوات المفروضة للدولة، وكانت حصة من هذه الإيرادات تذهب إلى المسؤولين. أما الإمبراطورية البرتغالية "المنقولة بحراً"، فكانت من نوعٍ مختلف كلياً. فالقلاع والموانئ القليلة التي كانت تخضع لهم لم تكن تضم أعداداً كبيرة من الأهليين غير المسيحيين ممن يمكن فرض الضرائب عليهم. فيما كانت الدول والقبائل والأفراد المسلمون أو الوثنيون يخضعون لشكل أو آخر من أشكال النهب من جانب دولة الهند البرتغالية وموظفيها. فكانت النقاط القوية على الشواطئ تعيش على الإغارة على الأراضي المجاورة، وكانت الأساطيل البحرية البرتغالية تنفق على أنفسها من الغنائم والأسلاب التي كانت تأخذها، كما أوضح فاسكو دا غاما نفسه[٢٨]. وكانت الدول والمدن العنيدة توفر فرصاً مواتية للنهب المنظم. ولذلك فحين اقتحم فرانسيسكو دي ألميدا Francisco de Almeida مومباسا في العام ١٥٠٥، وعُيّن أول نائب للملك فيها، قسم المدينة إلى أرباع، وأعطى للضابط المسؤول الحق في الاستيلاء على كل السلع والأشخاص الذين يأسرهم بعد اقتطاع نصيب ملائم للدولة.

أنتج الاعتماد على النهب كأداة لبناء الإمبراطورية مشكلات، كان منها سرعة استنزاف الفرص في المنطقة التي ينزلون بها، ما فرض عليهم توسيع "تخوم النهب"

للحفاظ على الزخم. وفي ذلك يقول نيويت إن "حركة تخوم النهب هي التي كانت تجذب الرجال إلى مناطق جديدة وتوسّع الاكتشافات، بمعنى أن النهب كان القوة الدافعة الرئيسة للاكتشاف"[٢٩]. وبعد المكاسب الأولية من الاستيلاء على الثروة، كان لا بد من اللجوء إلى الفرص المعتادة، ممثلة في جمع المكوس والرسوم والأرباح التجارية. لكن هذه القنوات ما كانت لتفي بمطالب طبقة النبلاء، ولذلك دأبت الدولة على الاستيلاء على ما تستطيع من الأقاليم. وفيما كانت الهند المغولية وإمبراطورية مينغ الصينية أقوى من أن يتم اجتياحهما لنهبهما، كانت أنغولا وموزمبيق وسيلان أسهل في الالتهام. لكن هذه الإضافات ربما أضافت إلى كُلفة الإمبراطورية أكثر منها إلى عائداتها، مع أنها أشبعت احتياجات النبلاء إلى نمط الحياة الأرستقراطي.

يطرح بيرسون فرضية مثيرة باتباع منهجية الدراسة المناقضة للحقائق: ماذا لو اعتمدت دولة الهند على المنافسة الاقتصادية السلمية في تجارة التوابل واستغلت ميّزة التكلفة التي وفرها طريق رأس الرجاء الصالح، بدلاً من المحاولة المكلفة والفاشلة في النهاية لفرض الاحتكار بقوة السلاح؟ ويستشهد بأرقام من المؤرخ الاقتصادي البرتغالي الكبير فيتورينو ماجالاس غودينو Vitorino Magalhaes-Godinho لإثبات أن فرق السعر بين تكلفة الفلفل في لشبونة ومالابار كان يمكن أن يعطي ربحاً إجمالياً قدره ٢٦٠٪ وهامشاً صافياً قدره ١٥٢٪ بعد خصم تكلفة النقل والفقد[٣٠]. وتأسيساً على ذلك، يستنتج أن التجارة السلمية كان يمكن أن تكون أكثر ربحاً بكثير من سياسة الاحتكار العسكري بنفقاتها الثقيلة على القلاع وأساطيل الحرب. ويدفع أيضاً بأن شركتي الهند الشرقية الهولندية والبريطانية إبان القرن السابع عشر لم تسعيا إلى فرض الاحتكارات بالقوة في الهند، مع أن الهولنديين فعلوا ذلك على نطاق واسع في جزر الملوك وجاوة، كما سنرى لاحقاً. ويكمن السبب وراء عدم اتباع البرتغاليين لهذه السياسة السلمية البديلة بالتأكيد إلى تأثير تقاليد الحروب الصليبية والروح الإقطاعية لطبقة النبلاء.

بيد أن هذه الفرضية على الرغم من جاذبيتها تبدو غير محتملة بالنسبة لنا. فدولة الهند – كما رأينا – كانت تعتمد صراحة على النهب كأداة لعملياتها التجارية،

وكجزء أساسي من نظام المكافآت لموظفيها، وكمصدر لرأس المال العملي. والتجارة السلمية تماماً كانت تحتاج في إطلاقها إلى رسملة أولية أعلى كثيراً. فعلى خلاف المقاطعات المتحدة الهولندية(٢٣) وبريطانيا في العام ١٦٠٠، كانت البرتغال في العام ١٥٠٠ بلداً فقيراً يفتقر إلى الموارد التي كانت تدرّها أسواق رأس المال بأمستردام ولندن، حتى اضطرت في ذلك العام إلى الاقتراض من الجنويين والفلورنسيين بفوائد ثقيلة جداً. علاوة على أن تدفق الفضة من العالم الجديد الذي بدأ ينهمر على أوروبا في العام ١٦٠٠ والذي استخدمته شركات الهند الشرقية لشراء التوابل لإعادة بيعها في أوروبا، لم يكن قد بدأ بعد في العام ١٥٠٠. ولذلك يبدو أن اعتماد البرتغال على ميّزتها النسبية في العنف كان جزءاً لازماً من جهودها الأولية إبان القرن السادس عشر، حيث لم تكن ميّزة التكلفة بفضل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح تكفي وحدها.

ومع نهاية القرن السادس عشر، حل توازن متعدد المراكز في تجارة المحيط الهندي محل هيمنة مالاكا السابقة. فأصبح على مالاكا البرتغالية أن تتقاسم التجارة مع آتشيه وبانتام، بل ومراكز أخرى مثل ماكاسار Makassar كما سنرى. فالمصانع والقلاع التي أنشأها البرتغاليون في تيرنيت Ternate وتيدور Tidore وأمبون Amboyna وتيمور الشرقية والأماكن الأخرى لم تستطع أن تمنع التجار المحليين والصينيين والهنود من العمل في تجارتهم وتوسيعها. وكان الخيار الفعال الوحيد المتاح هو أن يعمل البرتغاليون معهم، ليس كوكلاء للتاج كما كانت الحال في مالاكا، لكن في تجارة خاصة لحساب البرتغاليين كأفراد وفي المشروعات المشتركة مع غير الغربيين. وتدريجياً، أصبحت كلمة "برتغالي" تعني أوراسي من أصل هندي أو إندونيسي، كما أوضح داس غوبتا Das Gupta[٣١]. ولذلك لم يكن التوازن الجديد في آسيا مختلفاً كثيراً عن التوازن القديم، على الرغم من حدوث تغييرات كبيرة على الطرف الأوروبي لطرق التجارة، كما سنرى لاحقاً.

---

(٢٣) المقاطعات المتحدة أو الجمهورية الهولندية أو جمهورية المقاطعات الهولندية السبع المتحدة كانت الكيان السياسي الذي حكم المقاطعات الهولندية من العام ١٥٨١ إلى العام ١٧٩٥، قبل تأسيس الجمهورية الباتافية Batavian Republic ومملكة هولندا المتحدة وأخيراً مملكة هولندا الحالية [المترجم].

ثمة اعتراف متنام بأن ما سُمي "حقبة فاسكو دا غاما"[٣٢] لم تختلف كثيراً عما كان يحدث قبلها في أسواق التوابل الآسيوية، وأن الفأر الأوروبي لم يتمكن بعد من تحريك الفيل الآسيوي، وذلك موضوع رئيس في الأدبيات الأخيرة حول التاريخ البحري الأسيوي إبان العصر الحديث المبكر[٣٣]. فقبل دا غاما كانت الواردات الأوروبية تشكل على الأكثر ربع إنتاج التوابل الآسيوي، وظل الآسيويون المستهلكين الأساسيين طوال القرن السادس عشر[٣٤]. ويذكر كينيوتز Kieniewicz أن نحو ٣٠٪ فقط من إنتاج مالابار من الفلفل كان يذهب إلى لشبونة في العام ١٥١٥، فيما استهلك الآسيويون الـ٧٠٪ الباقية، وبينما نُقِل ٥٥٪ فقط من إنتاج مالابار بين العامين ١٥٠٤ و١٥٤٩ إلى لشبونة، ذهب الباقي إلى المشرق[٣٥]. ومع أن إمدادات الفلفل من مالابار ارتفعت بنسبة ٧ أو ٨٪ سنوياً إبان القرن السادس عشر، فإن ذلك نتج عن "زيادة الطلب على الفلفل في الهند والصين وبلاد فارس والبلاد التابعة للإمبراطورية العثمانية"، وليس نتيجة لأي حدث في أوروبا[٣٦]. وعلى ذلك، فقد ظل الأوروبيون يستهلكون ربع ناتج الفلفل الآسيوي فقط حتى العام ١٦٠٠[٣٧]، وكانت الواردات الأوروبية تشكل ٧٪ فقط من إنتاج القرنفل إبان الفترة ١٥١٠- ١٥١٩، ثم ١٧٪ إبان الفترة ١٥٧٠- ١٥٧٩[٣٨]. وبالمصطلحات الاقتصادية، نقول إن القرن البرتغالي في آسيا ظل آسيوياً بالدرجة الأولى، ومع أن الأوروبيين دخلوا المنافسة على الأرباح من تجارة التوابل، فإن هذه المنافسة يجب النظر إليها على أنها معركة على رفع الأسعار التي يدفعها المستهلكون الأوروبيون فوق أسعار العرض الآسيوية التي كانت تحددها بالدرجة الأولى، كما كانت الحال دوماً، التفاعلات بين المنتجين والمستهلكين الآسيويين. فيما سارت الأمور على نحو مختلف تماماً في العالم الجديد.

إسبانيا والبرتغال والعالم الجديد

يعرف كل تلاميذ المدارس، أو على الأقل اعتادوا على سماع أن كرستوفر كولومبس كان جنوياً عرض مشروعه للإبحار غرباً للوصول إلى جزر الهند الغربية على عدة قوى أوروبية، منها البرتغال، قبل أن يتبناه أخيراً الملكان المشتركان لإسبانيا

فيردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية[٢٤] (انظر الشكل رقم ٤،٢). لكن لماذا أقدما على ذلك؟ كانت أراغون إحدى القوى التقليدية بالبحر الأبيض المتوسط وكانت تضم طبقة أصحاب مصالح تجارية حضرية قوية، وبخاصة في كتالونيا. فيما كانت قشتالة في المقابل مجتمعاً رعوياً يمتلك أراضيَ وفيرة واقتصاداً قائماً على تربية الأغنام وتصدير الصوف وطبقة حاكمة من النبلاء (الهدليج) المتشربين بالروح الجهادية للحروب الصليبية تشكلت بفعل عملية الاسترداد[٢٥]. فعلى خلاف البرتغال، لم يكن لدى أي من المملكتين المبرر للقيام بمغامرة أطلسية محفوفة بالمخاطر. لكن تجارة الصوف القشتالية مع شركائها الأوروبيين الشماليين أدخلتها - كما أشار إليوت Elliott - في شبكة تجارية متنامية مع تجار ومصرفيين جنويين بارزين في إشبيلية[٣٩]. كما أدت تجارة الصوف إلى إدخال قشتالة أيضاً في الملاحة في المحيط الأطلسي. وجاء احتلال إسبانيا لجزر الكناري وحملاتها على المغاربة في شمال أفريقيا لتهيئ الملكين لاتخاذ مزيد من الخطوات فيما وراء البحار. ولا بد أن نتذكر أيضاً أن الحدث العظيم الذي شهده العام ١٤٩٢ لم يكن ما نعتقده الآن[٢٦]، وإنما سقوط آخر المعاقل الإسلامية في غرناطة واكتمال عملية الاسترداد الذي أنتج يقيناً مزيداً من الثقة بالنفس[٢٧].

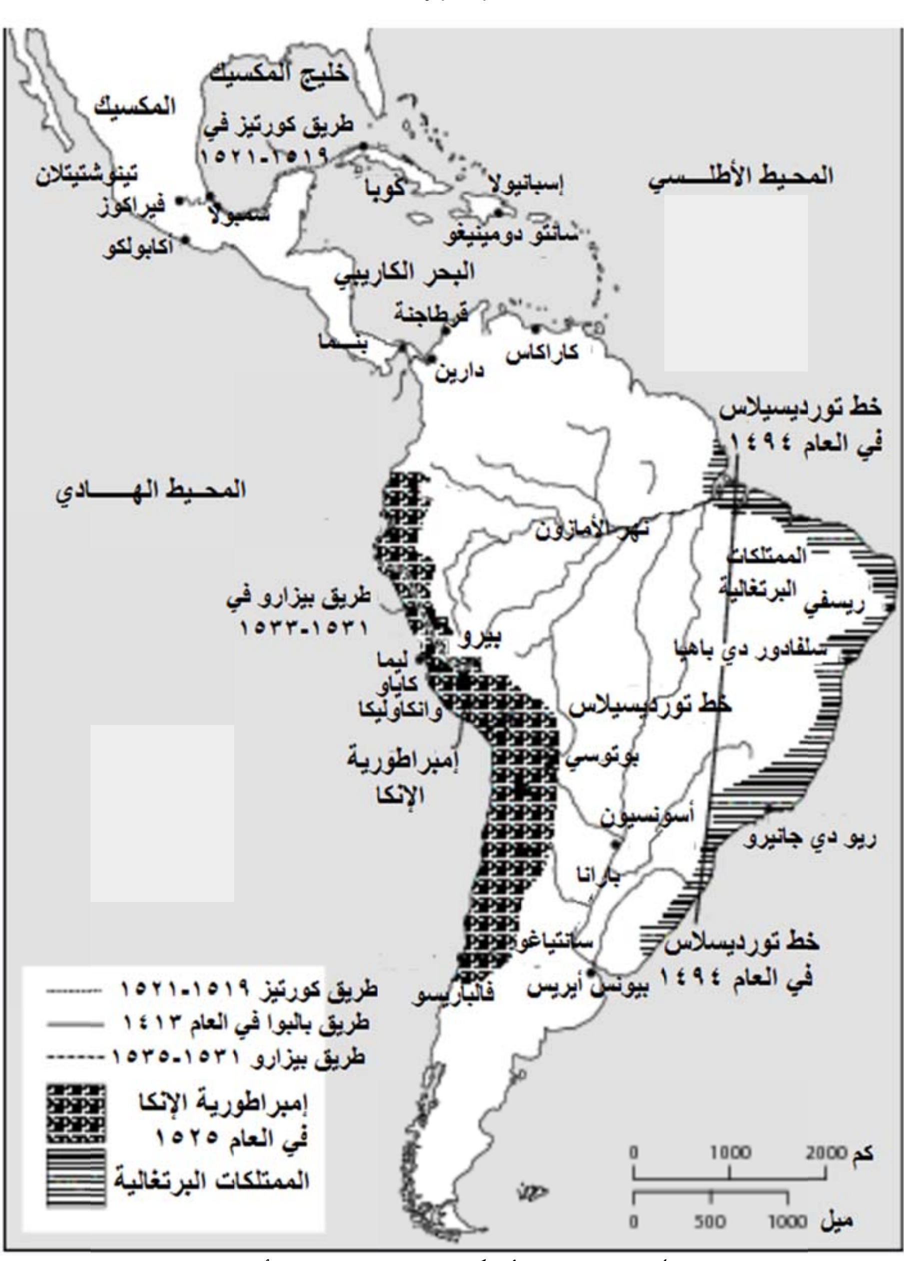
---

(٢٤) رغم زواج فيردناند ملك أراغون من إيزابيلا ملكة قشتالة، ظل كل منهما ملكاً على مملكته، حتى ورث نسلهما المملكتين معاً. وقد منحهما البابا معاً لقب "الملكين الكاثوليكيين" بعد فتحهما لغرناطة مكافأة لهما على تطهير إسبانيا من الممالك الإسلامية وطرد اليهود في العام ١٤٩٢ [المترجم].

(٢٥) حول مفهوم "استرداد إسبانيا" في مقابل مفهوم "سقوط الأندلس"، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

(٢٦) الحدث الأهم الذي وقع في العام ١٤٩٢ من منظور العالم المعاصر هو اكتشاف العالم الجديد، بينما كان الحدث الأهم في ذلك العام بالنسبة لإسبانيا هو إسقاط آخر ممالك المسلمين في الأندلس- غرناطة- إذ وقع الحدثان في العام عينه. فقد "تعثر" كولومبس في ذلك العام في جزر البهاما بالمحيط الأطلسي قبالة سواحل كوبا، وهو في رحلة البحث عن "اليابان" [المترجم].

(٢٧) كانت حروب الاسترداد وحروب إسبانيا على بقايا المسلمين في أيبيريا المعروفين باسم الموركسيين في حرب البشرات (١٥٦٨-١٥٧٠) وغيرها من ثورات المسلمين هناك- كما سيدفع المؤلفان في مواضع لاحقة من الكتاب- بمثابة التدريب الأولي على الاستعمار والامبريالية، وكانت الروح المعنوية والثقة بالنفس اللتان تولدتا لدى الأيبيريين في إسبانيا والبرتغال عن هذه الحروب الدافع إلى مزيد من الفتح والغزو والنهب، أولاً على سواحل شمال أفريقيا العربي، ولاحقاً فيما وراء البحار. وكذلك لعبت حروب إنجلترا على أيرلندا الشمالية الدور نفسه مع الإنجليز. ففي الحالتين، بدأ الغزو الخارجي بغزو داخلي [المترجم].



الشكل رقم (٤,٢) .أمريكا اللاتينية والفتوحات الأيبيرية.

وسرعان ما تلا رحلات كولومبس إلى الكاريبي تأسيس مستوطنات في الجزر الكبيرة في إسبانيولا وكوبا. وفي العام ١٥١٣، شاهد فاسكو نونيث دي بالبوا المحيط الهادي، كما هو معروف، وهو "مشدوه على إحدى القمم في دارين Darien"، بعد أن بدأ احتلال برزخ بنما[٢٨] الذي أكمله بيدرو أرياس دافيلا عديم الرحمة الذي أُعدِم بالبوا بأمر منه[٢٩]. وبحلول العام ١٥٢١، كان إيرنان كورتيز Hernan Cortes قد دمر إمبراطورية الأزتك واحتل عاصمتها تينوشتيتلان Tenochtitlan التي أصبحت مدينة المكسيك بستمئة رجل وستة عشر حصاناً وعدد كبير من القوات الهندية المتحالفة، وإبان العقد الرابع من القرن السادس عشر، كان فرانسيسكو بيزارو Francisco Pizarro قد أطاح بإمبراطورية الإنكا في بيرو بمئة رجل وسبعة وثلاثين حصاناً لا غير. وإبان العقد التالي، أُرْسِلت حملات إلى المناطق التي تُعرَف الآن بتشيلي والأرجنتين وبرغواي. وأنشئت موانئ في سانتو دومينغو وهافانا وقرطاجنة، وفي كاياو Callao على شاطئ المحيط الهادي لبيرو لخدمة العاصمة ليما. وكان الملك يمثله في المستعمرات نائبان، واحد للمكسيك أو إسبانيا الجديدة ومقره مدينة المكسيك، وآخر لبيرو أو قشتالة الجديدة ومقره ليما.

لم يتحقق أغلب هذه النتائج الرائعة على أيدي مسؤولي التاج، بل على أيدي من أسماهم باري "بضعة آلاف من الجنود المنهكين"، معظمهم من المنطقة المحيطة بإشتريمادورا، عُرِفوا للتاريخ باسم الفاتحين conquistadores[٤٠]. أما الأسباب التي قُدِمت لنجاحهم المدهش، فتراوحت من حيازة الأسلحة النارية والأسلحة الفولاذية والخيول، وهي جميعها أشياء كانت غير معروفة للسكان الأصليين، والشِقاق

---

(٢٨) انظر بتتش (Beach, 1934) وويكر (Wicker, 1956).

(٢٩) بيدرو أرياس دافيلا Pedro Arias Davilla مدير استعماري إسباني، قاد الحملة الإسبانية الكبرى الأولى في العالم الجديد، اشتهر كبقية الفاتحين الإسبان بالإسراف في قتل الأمريكيين الأصليين. وقعت منافسة بينه وبين الفاتح فاسكو نونيث دي بالبوا Vasco Nunez de Balboa، هدأت قليلاً بعد أن تزوج الأخير ابنته (التي لم يدخل بها لأنه تزوجها بالوكالة لوجودها في إسبانيا) لوضع حد للروح العدائية بينهما، لكن دافيلا استغل حملة قام بها بالبوا بموافقته على جنوب أمريكا اللاتينية لاتهامه بالخيانة والسعي للاستقلال عن التاج الإسباني، وحوكم وأعدم هو وأربعة من رجاله [المترجم].

وضعف الروح المعنوية على الجانب الآخر، والتصميم الشرس والروح القتالية لدى الرجال أنفسهم والرؤية والاقتدار لدى قادتهم، وبخاصة كورتيز. ولعل الأهم من ذلك أن تعرض الشعوب الأصلية لجراثيم العالم القديم جلب الخراب على أعدادهم التي تدهورت كثيراً نتيجة لموجات الجدري والتيفود والحصبة والأمراض الأخرى التي أضافت إلى اضطرابهم وإلى نجاح الغزو. وتتفاوت تقديرات مدى تراجع السكان كثيراً، لكن أيا كان الرقم الصحيح، فإنه كان مرتفعاً لدرجة مريعة. ومن الأمثلة المتطرفة والمختلف عليها، أن هنري دوبينز Henry Dobyns قدّر أن ما يناهز ٩٥٪ من الأمريكيين الأصليين أبادتهم الأمراض الأوروبية[٤١]. ويذهب ليفي باتشي Livi-Bacci إلى وجود ارتباط منطقي بين تقديرات تراجع السكان والآراء حول أسباب ذلك التراجع، فإذا كانت أعداد السكان قد انخفضت بعشرات الملايين، فقد يبدو أن الجراثيم تفسير أكثر معقولية من التدمير على أيدي عدد صغير نسبياً من الفاتحين. ويقدم ليفي باتشي أدلة معقولة على أن الجراثيم لم تكن العامل الوحيد، بل أيضاً العنف الإسباني، وكذلك كان "إضعاف التناسل والطرد والتهجير الإجباري للشعوب الأصلية إلى مناطق قاسية من العوامل القوية لتراجع أعدادهم. فخلف فناء الهنود، يوجد التصميم الأعمى للجراثيم، فضلاً عن قوى بشرية لا تقل فتكاً"[٤٢].

كانت أعداد الإسبان في العالم الجديد صغيرة، لكن استيراد الخيول والماشية والأغنام والخنازير أدت سريعاً إلى زيادات سريعة في أعداد هذه الحيوانات في بيئة كانت جديدة، لكن مواتية جداً لها. وما أسماه كروسبي Crosby "التبادل الكولومبي" تضمن أيضاً تدفقاً في الاتجاه المعاكس للذرة الصفراء والتبغ والبطاطس، وجميعها أثرت بشدة على العالم القديم بدرجة لا تقل عن تأثير الحيوانات على العالم الجديد[٤٣]. وكان القمح وقصب السكر والقطن من واردات العالم القديم إلى العالم الجديد التي أعاد العالم الجديد لاحقاً تصديرها بكميات ضخمة، وهو أمر كانت له نتائج اقتصادية كبرى. وفي حين كان التأثير السكاني للتبادل الكولومبي، أو التبادل الماجلاني كما أطلق ماكنيل على نقل الأنواع النباتية والحيوانية عبر المحيط الهادي[٤٤]، سلبياً تماماً على العالم الجديد، فإنه كان إيجابياً على أوراسيا على نحو لا لبس فيه[٤٥]. فالمحاصيل

الأمريكية الجديدة عالية الإنتاجية أحدثت في النهاية توسعاً سكانياً في مناطق بعيدة تماماً مثل الصين وأيرلندا. وكما عبر كروسبي في فقرة كثيراً ما يستشهد بها(٣٠)، فإنه "بينما كان الرجال الذين اقتحموا تينشوتيتلان مع كورتيز لا يزالون على قيد الحياة، كان الفول السوداني ينمو في التربة الرملية بالقرب من شنغهاي، وكانت الذرة الصفراء تُخَضّر الحقول في جنوب الصين، وكانت البطاطس الحلوة في طريقها لأن تصبح أكلة الفقراء في فوجيان"[٤٦].

تعتمد البيانات السكانية لهذه الفترة على التقدير بالدرجة الأولى، لكن من الواضح أن عدد سكان المعمور الأفريقي- الأوراسي نما سريعاً إبان القرون التي تلت كولومبس. فيتضح من الجدول رقم(٤,١) أن عدد سكان الصين نما بنحو ٥٠٪ إبان القرن السادس عشر، ثم تراجع على مدار القرن السابع عشر، ثم انفجر إبان القرن الثامن عشر، فتضاعف ثلاث مرات تقريباً بين العام ١٧٠٠ والعام ١٨٢٠. وفي الهند وأوروبا وأفريقيا، نما عدد السكان بثبات، وزاد بأكثر من الضعف على مدار القرون الثلاثة في المنطقتين الأوليين، ونما بأكثر من ٥٠٪ في المنطقة الثالثة. جاء النمو الصيني بعد "الثورة الزراعية الثانية" التي حدثت إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بفضل إدخال الذرة الصفراء والفول السوداني والبطاطس الحلوة. وفي أيرلندا، لم يوقف النمو السكاني المعتمد على البطاطس إبان القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلا وصول وارد آخر من العالم الجديد، هو آفة البطاطس في العام ١٨٤٥[٤٧](٣١).

(٣٠) من بين من استشهدوا بها، فلين وجيرالديز (Flynn and Giraldez, 2004) اللذان يشدّدان على هذه التجارة العابرة للقارات في الحمض النووي في روايتهما "عندما بدأت العولمة".

(٣١) شهدت أيرلندا بين العامين ١٨٤٥ و١٨٥٢ المجاعة الكبرى Great Hunger، أو مجاعة البطاطس الأيرلندية، التي مات فيها حوالي مليون إنسان، وهجر مليون آخر بلادهم، ما قلل عدد سكانها بنسبة ٢٠٪. كان السبب المرجح وراء المجاعة مرض يُعرف بآفة البطاطس، أتلف محصول البطاطس في كل أوروبا إبان العقد الخامس من القرن التاسع عشر، لكن تأثيره كان أكبر على أيرلندا التي كان ثلث سكانها يعتمدون بالكامل على البطاطس في غذائهم، فضلاً عن عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية أخرى [المترجم].

الجدول رقم (٤,١). عدد سكان العالم القديم إبان الفترة ١٥٠٠–١٨٢٠ (بالملايين).

	١٥٠٠	١٦٠٠	١٧٠٠	١٨٢٠
الصين	١٠٣,٠٠٠	١٦٠,٠٠٠	١٣٨,٠٠٠	٣٨١,٠٠٠
الهند	١١٠,٠٠٠	١٣٥,٠٠٠	١٦٥,٠٠٠	٢٠٩,٠٠٠
جنوب غرب آسيا	١٧,٨٠٠	٢١,٤٠٠	٢٠,٨٠٠	٢٥,١٤٧
أقاليم الاتحاد السوفيتي السابق	١٦,٩٥٠	٢٠,٧٠٠	٢٦,٥٥٠	٥٤,٧٦٥
أوروبا الشرقية	١٣,٥٠٠	١٦,٩٥٠	١٨,٨٠٠	٣٦,٤٥٧
أوروبا الغربية	٥٧,٢٦٨	٧٣,٧٧٨	٨١,٤٦٠	١٣٣,٠٤٠
أفريقيا	٤٦,٦١٠	٥٥,٣٢٠	٦١,٠٨٠	٧٤,٢٣٦

المصدر: Maddison (2003)

يمكن النظر إلى الاختراق الإسباني لأمريكا في هذه العقود الأولى باعتباره "تخوماً استيطانية" كانت تتحرك وراء "تخوم النهب"[٣٢] التي انتقلت من جزر الكاريبي إلى المكسيك الوسطى وبيرو قبل أن يلتقي الاثنان في منتصف القرن السادس عشر. فقد اقتصر العقدان الأولان في الجزر على نهب السكان المحليين البدائيين نسبياً وتدميرهم، إلى أن استنزفت الفرص بالاستيلاء على مخزون الذهب لدى الهنود والاختفاء شبه الكامل للشعب الهندي نفسه. أسهمت الموارد التي جمعت بهذه الطريقة في تمويل البعثات المبكرة إلى الجزيرة التي واجهت إمبراطوريتي الأزتك والإنكا الأكثر تقدماً وكانت تقبع على رأس الهرم الاجتماعي فيهما أرستقراطية من المحاربين والكهنة، كانت تنتزع ضرائب ثقيلة من السكان الفلاحين المستقرين. فاستعاض كورتيز وبيزارو عن النخبة المحلية الحاكمة بأخرى إسبانية عاشت في الحالتين على استغلال الفلاحين المُخْضَعين. وأدت الوحشية البشعة التي أنزلها الفاتحون بالسكان المزارعين إلى خفض فائض الدخل من الأرض الذي كان يذهب إلى الحكام الإسبان الجدد. وظهر مصدر دخل بديل للملاك الجدد في تربية الماشية في المراعي المفتوحة والأراضي التي كان يفلحها في السابق الفلاحون الذين أخذت أعدادهم تتناقص. وأدى اكتشاف مناجم

(٣٢) بمعنى أن التوسع في التخوم كان يحدث أولاً بدافع النهب، وبعد نهب هذه المنطقة أو تلك يحدث الاستيطان فيها [المترجم].

الفضة الضخمة في المكسيك وبيرو إبان العقد الخامس من القرن السادس عشر إلى زيادة كبيرة في الطلب على اللحم لإطعام عمال المناجم، وكان ذلك أيضاً مصدراً كبيراً للربح للمستوطنين ومصدراً للعائدات للتاج. وبدلاً من الاعتماد على تدفقات رأس المال من إسبانيا لتمويل الاستثمارات في العالم الجديد، اِسْتُخدِمت الثروات التي اكتشفت في العالم الجديد لتمويل الإنفاق الحكومي والمشروعات الخاصة في إسبانيا نفسها.

يذكر ماكلاود Macleod أنه على مدى العقود الأربعة الأولى التالية للعام ١٤٩٢ "كان البشر يشكلون الحمولات الأساسية الخارجة من أوروبا"[٤٨]. وتُقدّر أعدادهم بين مئتي ألف وثلاثمئة ألف إبان القرن السادس عشر، غالبيتهم من الإسبان، وأربعمئة وخمسين ألفاً إبان القرن السابع عشر. ولما كان المستوطنون الأوائل غير مهيئين للعيش على الذرة الصفراء والفول والمنيهوت(٣٣)، فقد أدخلوا القمح والنبيذ وزيت الزيتون من إسبانيا في البداية، لكنها أزيحت في النهاية بسبب إحلال الواردات والتحولات الغذائية مع تكيف المستوطنين مع بيئتهم الجديدة. وكانت حمولة العودة الأساسية في الإبحار الهندي Carrera de Indias، كما أُطلِق على الخط العابر للأطلسي، تتمثل في الذهب على مدى السنوات الخمسين الأولى. وكانت التجارة بين إسبانيا والعالم الجديد تخضع للاحتكار من جانب النقابة التجارية بإشبيلية المعروفة باسم كونسولادو consulado. فكان "بيت التجارة" بإشبيلية يصرح بكل الصادرات والواردات ويديرها، من خلال السيطرة على المستودعات وأحواض السفن وتنظيم السفن والأطقم وجباية الضرائب والرسوم، بما في ذلك الخُمس الملكي على قيمة كل التجارة في السلع مع أمريكا. وعلى الرغم من أن إشبيلية كانت تقع على بعد عدة أميال على نهر الوادي الكبير المتعرج، فقد كانت اختياراً معقولاً لتكون صرة التجارة الإسبانية العالمية. فمنطقتها الداخلية الزراعية الغنية كانت مؤهلة لتموين السفن لرحلاتها الطويلة، فضلاً عن أن جماعة المصرفيين الإيطاليين الكبيرة، الجنويين في غالبيتهم، كانت مصدراً جاهزاً للتمويل. وكانت الضرائب الثقيلة والقيود الصارمة تشير ضمناً إلى

---

(٣٣) المنيهوت cassava نبات يُستخرَج من جذوره نشاء مغذ [المترجم].

وجود فرص وفيرة للتهريب، وهو الدور الذي تولته بلهفة قوى أوروبية أخرى، خاصة الهولنديين والبريطانيين. لكن الأخطر على أساطيل الكنوز القادمة إلى إسبانيا عبر الأطلسي كانت القرصنة الصريحة من جانب الملاحين المغامرين من الدول الشمالية المنافسة، من أمثال بيت هاين(٣٤) وفرانسيز دريك(٣٥).

ثمة وصف وتقييم للتجارة بين إشبيلية وأمريكا الإسبانية بأكبر قدر يمكن تخيله من التفصيل في دراسة أوجيت وبيير شونو Huguette and Pierre Chaunu المهمة المكونة من ثمانية مجلدات (١٩٥٥-١٩٥٩) التي تعتمد على السجلات المفصلة للرحلات الفردية لنحو خمسةٍ وعشرين ألف سفينة بين العامين ١٥٠٤ و١٦٥٠[٤٩]. ومن خلال معرفة السفن التي أبحرت في كل عام وحمولة كل سفينة، يمكن بناء تقييم تقريبي لحجم الشحن لكل عام عبر المحيط الأطلسي في الاتجاهين وبناء سلسلة زمنية مفصلة للسنوات من العام ١٥٠٤ إلى العام ١٦٥٠. يصوّر الشكل رقم (٤,٣) هذه النتائج بيانياً، تأسيساً على البيانات الملخصة في كتاب فيليبس(٣٦). يبيّن الشكل نمواً ثابتاً تقريباً حتى نحو العام ١٦٢٠، باستثناء فترة هدوء إبان العقد السادس من القرن السادس عشر، وانخفاض حاد بعد كارثة الأسطول الإسباني في العام ١٥٨٨(٣٧). ومن العام

---

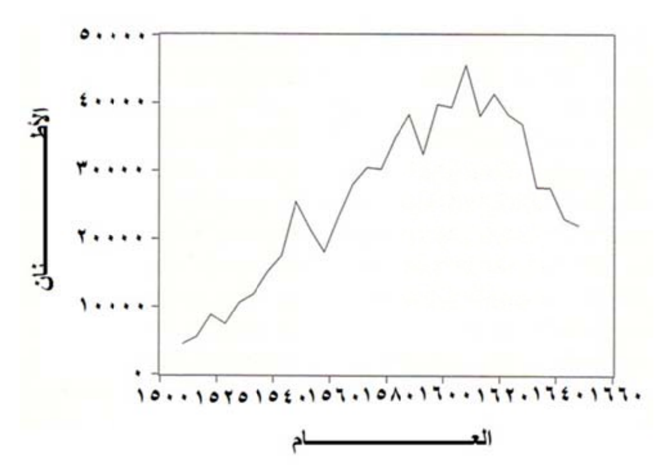
(٣٤) بيت هاين Piet Heyn (٢٥ نوفمبر ١٥٧٧ إلى ١٨ يونيو ١٦٢٩) ضابط بالبحرية الهولندية وبطل شعبي في أثناء حرب الأعوام الثمانية بين المقاطعات المتحدة (هولندا) وإسبانيا، اشتغل بالقرصنة ضد السفن الإسبانية، من أشهر عملياته الاستيلاء على أسطول المعادن الإسباني في العام ١٦٢٨ [المترجم].

(٣٥) فرنسيز دريك Francis Drake (١٥٤٠ إلى ٢٧ يناير ١٥٩٦) ملاح وقرصان وتاجر عبيد وسياسي إنجليزي إبان الحقبة الإليزابيثية، اشتهر كبطل قومي للإنجليز بسبب أعمال القرصنة والسلب والنهب التي نفذها ضد الإسبان، ومنها غاراته على سانتو دومنيغو وقرطاجنة بكولومبيا الحالية وسان أوغسطين بفلوريدا الإسبانية، والأهم من ذلك غاراته على قادس وكورونا على التراب الإسباني، وكان أيضاً نائب أمير البحر للأسطول الإنجليزي الذي دمر أسطول الأرمادا الإسباني. منحته ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى وسام الفروسية، بينما أعلن فيليب الثاني الإسباني مكافأة عشرين ألف دوكاتية لمن يأتي به حياً أو ميتاً [المترجم].

(٣٦) يوجد ملخص لهذه الدراسة باللغة الإنجليزية في Chaunu and Chaunu (1974).

(٣٧) في العام ١٥٨٨، أُرسِل الأسطول الإسباني أو الأرمادا أو "الأسطول الذي لا يقهر" بقيادة دوق مدينة شذونة لخلع إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا ووضع حد لتدخل إنجلترا في الأراضي الواطئة الخاضعة لإسبانيا وأعمال القرصنة الإنجليزية في المحيطين الأطلسي والهادي، وبمجرد أن رسا الأسطول بالقرب

١٦٢٠ إلى العام ١٦٥٠، حدث تراجع في الحمولات، وإن زادت قيمتها، إذ يذهب الأخوان شونو إلى أن تصدير القمح والنبيذ والزيت من إسبانيا أفسح المجال للمنسوجات والصناعات الأخرى الأغلى ثمناً الآتية من إيطاليا وهولندا وإنجلترا. نتج ذلك عن إحلال الواردات الغذائية في المستعمرات الذي أشرنا إليه قبل قليل. ويستشهد الأخوان شونو بمثال "الزراعة الناجحة للكرم بجانب المحيط الهادي في واحات الساحل البيروفي الجافة، على الرغم من الحظر غير الفعال الذي حصلت عليه الأرستقراطية الأندلوسية(٣٨) من الحكومة الإسبانية الطيعة"[٥٠].



الشكل رقم (٤,٣). حجم التجارة مع جزر الهند الغربية الإسبانية إبان الفترة ١٥٠٦–١٦٥٠.

المصدر: Phillips (1990, pp. 43-44)

يذهب الأخوان شونو إلى أن القرن السابع عشر في إسبانيا الجديدة كان فترة استقرار ونمو قائمين على السوق الداخلي، في مقابل القرن السادس عشر المنفتح على

من الشاطئ، فتحت عليه السفن الحربية الإنجليزية النار فشتتت سفنه في البحر وطاردتها، واكتملت مأساة الأسطول الإسباني بالعواصف التي أغرقت كثيراً من سفنه التي لم يعد منها إلى إسبانيا غير ثمانين سفينة من أصل المئة والثلاثين التي أبحرت إلى إنجلترا [المترجم].

(٣٨) أندلوسيا Andalusia منطقة في جنوب إسبانيا تضم مقاطعات المرية وقادس وقرطبة وأولبة وجيان ومالقة وإشبيلية، واسمها مشتق من كلمة "الأندلس" العربية [المترجم].

الخارج أو القائم على التصدير اعتماداً على استغلال مناجم الفضة بالمكسيك وبيرو. ولا يقبل الأخوان شونو الفكرة القائلة بأن القرن السابع عشر الأكثر انكفاءً على الداخل أو اكتفاءً ذاتياً كان على أية حال فترة تراجع أو تدهور، بل يقولان إنه كان "عكس ذلك تماماً". وهذا الرأي مفيد بالنظر إلى الأطروحة الشهيرة حول "أزمة القرن السابع عشر" الأوروبية أو حتى العالمية التي قدمها إيريك هوبزباوم Eric Hobsbawm[٥١]. ودون الرجوع إلى هوبزباوم، أكد متخصصون في أمريكا اللاتينية، مثل ودرو بوراه Woodrow Borah وميردو ماكلاود Murdo Macleod أنه كانت هناك علامات على الكساد في إسبانيا الجديدة إبان القرن السابع عشر، تأسيساً على الركود السكاني ونقص القوة العاملة ومشكلات الإنتاج في الصناعة والزراعة. فيما يجد تيباسك وكلاين TePaske and Klein أن العائدات من عدة مصادر في إسبانيا الجديدة ارتفعت على مدار القرن السابع عشر، ولم تنخفض، بما في ذلك إنتاج الفضة، على الرغم من حدوث بعض التقلبات[٥٢] وذلك يتناقض تماماً مع نظرية الأزمة في تطبيقها على إسبانيا الجديدة.

جمعت كارلا ران فيليبس Carla Rahn Phillips كثيراً من الأدلة المتاحة حول تجارة المحيط الأطلسي للإمبراطوريتين الأيبيريتين إبان الفترة ١٥٠٠-١٧٥٠، ونحن نعتمد بالدرجة الأولى على كتابها في التحليل التالي[٥٣]. قد يكون من الأنسب أن نبدأ ببعض الصادرات الأولية الأساسية غير المعادن النفيسة لأنها غالباً ما تُغفَل. كان من أوائل وأهم هذه الصادرات جلود الماشية. تعد هذه التجارة التصديرية بداية كاشفة لنمط التجارة عبر المحيط الأطلسي الذي تكشف كاملاً إبان القرون التالية. تتميّز تربية الماشية يقيناً بكثافة استخدام الأرض. وفي إسبانيا وبقية أوروبا كانت مراعي الماشية تتنافس مع الأغنام والفلاحة على الأرض، بينما لم تكن تحد الرعي أية قيود في الأراضي المفتوحة بجزر الكاريبي والمكسيك وأمريكا الوسطى مترامية الأطراف[٥٤]. وكانت جثث الحيوانات تُترك لتتعفن بعد سلخها بسبب عدم وجود طلب محلي كبير على اللحوم في ذلك الوقت، ولأن التصدير كان مستحيلاً بدون تبريد. وارتفعت صادرات الجلود من متوسط سنوي قدره نحو سبعة وعشرين ألفاً إبان الفترة ١٥٦١-

١٥٦٥ إلى الذروة بمتوسط نحو مئة وأربعة وثلاثين ألفاً إبان الفترة ١٥٨١–١٥٨٥، قبل أن تتراجع إلى اثنين وثلاثين ألفاً إبان العقد السادس من القرن السابع عشر، ثم إلى أقل من عشرة آلاف إبان العقد الأخير من ذلك القرن. ربما يرجع هذا التراجع إلى النمو في منافسة الفلاحة على الأرض التي أصبحت أكثر ندرة، وإلى الاستهلاك المحلي في هذا القرن الثاني من التطور الاستعماري الأكثر انكفاءً على الداخل. وبلغ متوسط القيمة السنوية لصادرات الجلود زهاء ثمانية وسبعين مليون مرابطي(٣٩) في أواخر القرن السادس عشر، وهو تقريباً ضعف قيمة صادرات السكر السنوية من أمريكا الإسبانية[٥٥].

كان من الصادرات الثمينة جداً في هذه الفترة القرمز أو الصبغة الحمراء التي كانت تُجمَع من الحشرات التي تتغذى على الصبار، إذ بلغت صادراتها مئة وخمسة وعشرين مليون مرابطي في العام، فيما كانت النيلة تجلب ثلاثين مليون مرابطي في العام. وبلغ إجمالي الصادرات لكل هذه السلع بعيداً عن المعادن النفيسة من المستعمرات الأمريكية إلى إسبانيا نحو ثلاثمئة وعشرين مليون مرابطي، كانت الصبغة الحمراء تشكل ٤٢٪ منها على الأقل[٥٦]، فيما كانت الصادرات من إشبيلية تساوي ثلاثة أضعاف هذا القدر تقريباً، أي نحو تسعمئة مليون[٥٧]. وكانت تجارة البضائع التي بلغت سنوياً إجمالي ١.٢ بليون مرابطي في الاتجاهين، ممكنة فقط بفضل المعادن النفيسة التي كانت تصدّر من المستعمرات إلى إشبيلية، وبخاصة الفضة بعد العقود الوسطى من القرن السادس عشر. فكما يقول الأخوان شونو، فإن "الجنون الاقتصادي المتمثل في نقل منتجات قليلة القيمة بتكلفة هائلة وغير مناسبة تماماً للنقل طويل المسافات بين إسبانيا وأمريكا كان ممكناً فقط بسبب الربحية العالية جداً لمناجم الفضة بالعالم الجديد"[٥٨]. فماذا نعرف حول حجم صادرات هذه المعادن النفيسة وقيمتها التي شكّلت القوة الدافعة لكثير من التطورات الاقتصادية والسياسية في ذلك العصر؟

---

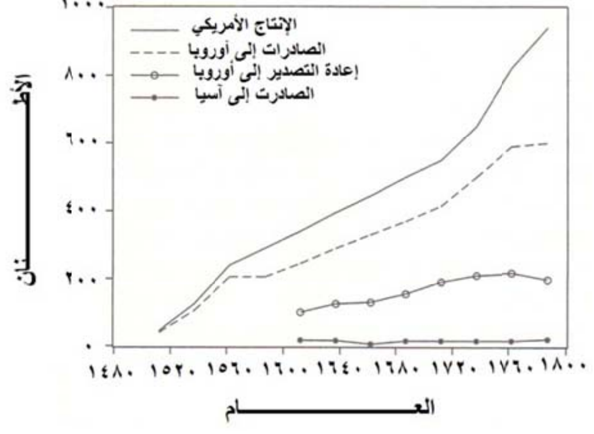
(٣٩) المرابطي Maravedi هو اسم العملة في عدد من دول أمريكا اللاتينية، أخذوه عن الإسبان الذين أخذوه بدورهم عن دولة المرابطين الإسلامية بالمغرب والأندلس، حيث قلّد ألفونسو الثامن ملك قشتالة وليون الدينار المرابطي بعد سقوط الدولة المرابطية وأطلق عليه اسم "مرابطي ألفونسو" Marabeti Alfonso [المترجم].

ابتداءً بالذهب، يذكر فيليبس تقديراً قريباً من تقدير الأخوين شونو يتراوح بين اثنين وعشرين وسبعة وعشرين طناً شُحِنت إلى إسبانيا من الأمريكتين قبل العام ١٥٢٥، نُهِب معظمها من سكان جزر الكاريبي وإمبراطورية الأزتك(٤٠)، وبعد ذلك التاريخ كان الذهب يستخرج في الغالب من الرواسب الغرينية[٥٩]. ومر إنتاج الذهب وتصديره بسلسلة من الدورات القصيرة تبعاً لاستغلال مناطق متتابعة وتركها، بداية من سانتو دومينغو التي بلغت ذروتها في العام ١٥١٠، تلتها بورتوريكو وكوبا وبنما التي بلغت ذروتها في العام ١٥٢٠، ثم المكسيك وأخيراً بيرو في نحو منتصف القرن. ربما كان الأهم كثيراً من ذلك هو اكتشاف "جبل الفضة" الضخم في بوتوسي Potosi في مرتفعات الأنديز فيما يعرف حالياً ببوليفيا في نحو العام ١٥٤٥. كان هذا المنجم يقع على ارتفاع عالٍ جداً، أكثر من ألف ومئتين قدم، ولذلك كان جمع القوة العاملة اللازمة مشكلة كبرى. ولذلك أدخل نائب الملك في بيرو نظاماً عُرِف باسم الميتا mita، بمقتضاه كان سُبع الذكور بين عمر الثامنة عشر والخمسين في كل مقاطعة يؤخذون سنوياً بالقرعة للخدمة في المنجم، وبذلك جُمِعت قوة عاملة عددها ثلاثة عشر ألفاً وخمسمئة رجل، كان ثلثهم يعملون في المنجم في أي وقت[٦٠]. أما العمال الباقون فكانوا عمالاً أحراراً يعملون بالأجر، وإن كان في ظروف عمل قاسية. وبلغ إجمالي سكان بوتوسي زهاء مئة وستين ألف نسمة، ما جعلها أكبر تجمع للسكان في أمريكا الإسبانية وأحد أكبر التجمعات السكانية في العالم خارج الصين.

---

(٤٠) كان الفاتحون الإسبان لصوصاً غادرين بكل معنى الكلمة، وكانت أعينهم على الذهب والفضة قبل أي شيء آخر. ومن الحكايات الكاشفة في هذا الصدد أن فرانسيسكو بيزارو في أثناء غزو مملكة الإنكا بجبال الإنديز، أسر إمبراطور الإنكا أتاهوالبا Atahualpa، وطلب فدية لإطلاق سراحه. وبالفعل قدم شعب الإنكا للفاتحين فدية من المشغولات الذهبية ملأت حجرة بعرض سبعة عشر قدماً وطول اثنين وعشرين قدماً وارتفاع تسعة أقدام، لكن الإسبان خانوا العهد وأعدموا الإمبراطور بالمخنق الحديدي. ومن جانبه، أظهر شعب الإنكا إدراكاً حاداً للعقلية الإسبانية اللصوصية في انتقامهم لإعدام زعيمهم، حيث قتلوا رهينة إسبانية بصب الذهب المصهور في حلقه وهم يتهكمون قائلين: "اشرب حتى تمتلئ، فمنه هنا ما يكفي لإشباع حتى أشره الناس" (وليام بيرنشتاين (٢٠١٢). مولد الوفرة - كيف تشكل رخاء العالم الحديث، ترجمة مصطفى قاسم، الرياض: مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، ص ٢٤١.) [المترجم].

يقدم الشكل رقم (٤,٤) تمثيلاً بيانياً لأرقام وارد باريت Ward Barrett لإجمالي الإنتاج والصادرات الأمريكية من المعادن النفيسة. أوضحت الأعمال المبكرة، مثل هاملتون[٦١]، أن الشحنات الأمريكية إلى أوروبا انخفضت إبان القرن السابع عشر، وكان ذلك أحد العوامل التي أوردها هوبزباوم في مقالته الشهيرة كدليل على الأزمة، لكن باريت يقبل حكم ميتشل مورينيو Michel Morineau[٦٢] بأن الصادرات واصلت الارتفاع، ومعظم الخبراء الآن يلقبون ذلك[٦٣]. توضح بيانات باريت ارتفاعاً في الناتج من نحو خمسة وأربعين طناً من مكافئ الفضة سنوياً في الربع الأول من القرن السادس عشر إلى مئة وخمسة وعشرين طناً في الربع الثاني، ثم مئتين وثلاثين طناً في الربع الثالث، ثم مئتين وتسعين طناً في الربع الأخير. وما كان لهذه الزيادة الكبيرة في الإنتاج، وبالتالي التصدير، أن تحدث لولا تجديد تقني كبير، تمثل في عملية ملغم الزئبق لفصل المعدن عن الخام. كان الزئبق يأتي من وانكاوليكا Huencavelica ببيرو، وكان يستورد أيضاً من المادن Almaden بإسبانيا. وكان ما بين ٢٠ و٣٠٪ من السبائك المسجلة رسمياً التي تعبر المحيط الأطلسي تخص التاج، وهي حصته في المناجم، كانت تساوي نحو أربعة وعشرين بليون مرابطي في مجموعها من العام ١٥٥٥ إلى العام ١٦٠٠[٦٤].



الشكل رقم (٤,٤) .الإنتاج والصادرات الأمريكية من المعادن النفيسة إبان الفترة ١٥٠١–١٨٠٠ (المتوسط السنوي بالأطنان).

المصدر: Barrett (1990, pp. 242-43)

وبالتحول إلى البرتغال، نجد أن دخولها إلى العالم الجديد حدث مصادفة. ففي أثناء الرحلة البحرية التي قصد بها القائد بيدرو ألفاريس كابرال Pedro Alvares Cabral الهند في العام ١٥٠٠، دار غرباً بدرجة كبيرة في المحيط الأطلسي ليجد نفسه فيما يسمى الآن البرازيل التي اعتقد أنها جزيرة أخرى. واشتقوا اسم المنطقة من أشجار برازيلوود brazilwood [أشجار البرازيل] التي تنمو هناك بوفرة وتستخرج منها صبغة ثمينة. في البداية، تعاقد التاج على استغلال أشجار البرازيل والموارد الطبيعية الأخرى مع ائتلاف من التجار، لكن كانت هناك سيطرة مباشرة من التاج من العام ١٥٠٦ إلى العام ١٥٣٤ بفضل إنشاء المصانع أو المراكز التجارية المَلكية والترخيص للتجارة الخاصة مع السكان المحليين. وحاولت السفن الفرنسية أن تدخل التجارة هي الأخرى، ما أدى إلى نزاعات مع البرتغاليين. وفي العام ١٥٣٤، حدث تغيير سياسي جذري في النموذج المعتاد لجزر المحيط الأطلسي. فأُنشِئت اثنتا عشرة قيادة، مُنِح كل منها مساحات واسعة من الساحل وكذلك الحق في التوغل في الداخل. وتمتع قائد المنطقة الواحدة بسلطة كبيرة على الأرض المخصصة له، في مقابل الالتزام بتسليم التاج أنصبة محددة من الضرائب والدخول الأخرى. وبداية من العام ١٥٤٩ فصاعداً، أخذ التاج يعيّن حاكماً لتنسيق نشاطات المستوطنين ومنع المتطفلين الفرنسيين وغيرهم من الحصول على موطئ قدم. واستخدم البرتغاليون أيضاً العنف ضد القبائل الهندية التي أبيدت كلها تقريباً في تلك الفترة.

وسرعان ما أصبحت زراعة قصب السكر الدعامة الاقتصادية الأساسية لهذه الأقاليم، حيث انتشرت المعامل على امتداد الريف تحيطها حقول القصب. ومع ازدياد الطلب في أوروبا، تسارع النمو كثيراً. فيذكر جونسن Johnson أنه في العام ١٥٧٠ كان يوجد عشرون ألف شخص أبيض في البرازيل وستون معمل سكر، بلغا في العام ١٥٨٥ ثلاثين ألفاً ومئة وعشرين على التوالي[٦٥]. ونما إنتاج السكر سريعاً ليصل إلى ما بين خمسة عشر وعشرين ألف طن من أكثر من مئتي معمل إبان العقد الثالث من القرن السادس عشر وفقاً لمورو Mauro الذي ذكر أيضاً وجود ما بين ثلاثة عشر وخمسة عشر ألف عبد أفريقي في البرازيل في العام ١٦٠٠، وأن العبيد كانوا

يستوردون بمتوسط أربعة آلاف عبد سنوياً في النصف الأول من القرن السابع عشر[٦٦]. كان العبيد يشكلون نحو ٧٠٪ من القوة العاملة بمعامل السكر. وارتباط العبيد بالسكر في العالم الجديد كان استكمالاً معتاداً للعبودية التي رأينا أنها كانت سمة لإنتاج السكر منذ فترة طويلة. في ذلك الوقت، كان أغلب العبيد يستوردون من أنغولا على الساحل الجنوبي الغربي لأفريقيا، وكان معدل الوفيات بين العبيد على السفن الصغيرة المزدحمة يتجاوز ٥٠٪ في العادة. وكانت بيرنامبوكو Pernambuco أسرع نمواً وأكثر ازدهاراً بين المناطق الانثني عشرة الأصلية، إذ ضمت ٤١٪ من السكان البيض و٥٥٪ من المعامل في العام ١٥٨٥. واشتهر المستعمرون في هذه المنطقة بإنفاق أرباحهم بإسراف على الواردات الفاخرة من الوطن الأم. وكانت باهيا Bahia منطقة مزدهرة أخرى، وفيها أنشا الفرنسيون ريو دي جانيرو، ثم استولى عليها البرتغاليون في العام ١٥٦٥، وبعدها تطورت بسرعة كبيرة.

المحيط الهادي وشرق آسيا

كان الامتداد المائي الذي رآه بالبوا من على إحدى القمم في دارين وضمّه لممتلكات تاج قشتالة يُعرَف في ذلك الوقت باسم البحر الجنوبي Mar del Sur. ومؤكد أن بالبوا لم تكن لديه فكرة عن مداه الشاسع أو ما يكمن فيه أو على شواطئه المقابلة، مع أنه كان يعرف بالطبع أنه يصل في النهاية إلى آسيا. كان ماجلان محارباً برتغالياً قوياً في غزوات بلاده في المحيط الهندي، لكنه كان في خدمة الإسبان حين قام برحلته البحرية التي استهدفت الوصول إلى جزر التوابل(٤١) من الاتجاه المعاكس لذلك الذي كان البرتغاليون يتخذونه عادة. ويبدو أن الدوران البحري حول الكرة الأرضية لم يكن هدفاً في ذاته، بل كان الهدف مجرد البحث النفعي عن طريق بديل للتجارة. غادر ماجلان في العام ١٥١٩ بأربع سفن ومائتين وسبعة وثلاثين رجلاً، واكتمل الدوران البحري في العام ١٥٢٢ بسفينة واحدة فقط، هي فيكتوريا، وثمانية عشر رجلاً بقيادة

(٤١) جزر التوابل Spice Islands اسم آخر لجزر الملوك بالأرخبيل الإندونيسي، سُميت به نظراً لاشتهارها بإنتاج التوابل [المترجم].

سيباستيان ديل كانو Sebastian del Cano، بعد أن قُتِل ماجلان في مناوشة على جزيرة سيبو Cebu قبل النزول على جزيرة تيدور وجمع حمولة ثمينة من التوابل. مُنِح ديل كانو شعار نبالة تظهر عليه القرفة وجوز الطيب والقرنفل وتتوجه الكرة الأرضية، في إعلان أنه أول من طاف العالم بحرياً.

وسرعان ما ثبت أن استغلال جزر التوابل لم يكن سهلاً، لأن البرتغاليين كانوا مستقرين فعلاً في جزيرة تيرنيت المنافسة(٤٢). واندلعت الأعمال العدائية بين المتنافسين المسيحيين، واستعان كل طرف بحليف محلي مسلم، هما سلطانا تيرنيت وتيدور. ولم تقتصر النزاعات على المستويات العسكرية والتجارية والسياسية، بل امتدت إلى الكوزموغرافيا أيضاً، إذ قسم البابا بمقتضى معاهدة تودريسيلاس Tordesillas للعام ١٤٩٤ الأراضي المكتشفة حديثاً بين القوتين الأيبيريتين بناءً على خط الطول ٢٧٠ الواقع على بعد عدة فراسخ غرب جزر الرأس الأخضر، فأعطيت إسبانيا كل شيء غرب هذا الخط وأعطيت البرتغال كل شيء شرقه. والسؤال هو على أي جانب من خط توردسيلاس الممتد عبر العالم كانت تقع جزر التوابل؟ أدرك شارل الخامس الإسباني أنه أياً كانت حقوقه القانونية، فإن البرتغاليين كانوا يتمتعون بميزة قرب مالاكا منهم، ولذلك كان حكيماً حين قَبِل التسوية في مقابل ثلاثمئة وخمسين ألف دوكاتية بموجب معاهدة سرقسطة Saragossa في العام ١٥٢٩، ما أدى إلى اشمئزاز كثير من رعاياه.

أطلق سبيت Spate على المجلد الأول من تاريخه العظيم للمحيط الهادي اسم "البحيرة الإسبانية"[٦٧]، وكانت تلك هي الحال فعلاً على مدى قرنين تقريباً بعد ماجلان، على الرغم من الكثير من التحديات. بيد أن الميزة الاقتصادية الفورية التي جنتها الإمبراطورية الإسبانية من كل الرحلات البطولية التي قام بها ملاحوها في

---

(٤٢) تذكر أن البرتغاليين وصلوا إلى ميناء كاليكوت الهندي على ساحل مالابار في مايو ١٤٩٨ بقيادة فاسكو دا غاما عن طريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي، واستقروا في الهند وأنشأوا دولة الهند، وتوسعوا في جزر الأرخبيل الإندونيسي وأنشأوا قلاعاً في تيرنيت وتيدور وأمبون وغيرها، في حين جاء القادمون الجدد- الإسبان- عن طريق المحيط الهادي بالدوران حول الأرض، بقيادة برتغالية أيضاً، هو ماجلان [المترجم].

الامتداد المائي الشاسع بحثاً عن الكنوز والتوابل والأرواح لهدايتها إلى الدين الحق[٤٣]، ليست واضحة بحال من الأحوال. ففرصة الربح الوحيدة التي استمرت لقرون تمثلت في مبادلة الفضة الأمريكية بالحرير الصيني، فضلاً عن الكثير من المواد الأخرى الأقل قيمة، وهو ما كان يحدث عبر مانيلا بالفلبين التي كانت المستعمرة الإسبانية الوحيدة في المحيط الهادي. وقد سُميت هذه الجزر بهذا الاسم في العام ١٥٤٢ تكريماً للإمبراطور فيليب الثاني المستقبلي، لكن الاحتلال والاستيطان الفعالَيْن لم يكونا إلا بحملة ميغيل لوبيز دي ليغاسبي Migel Lopez de Legazpi التي أُرسِلت من المكسيك في العام ١٥٦٤.

استولى ليغاسبي على موقع مانيلا بمينائها الطبيعي الرائع من حاكم مسلم محلي في العام ١٥٧١، ومدّ سيطرته على معظم الجزر الرئيسة قبل موته في العام ١٥٧٢. وكان الاستثناء الواضح هو جزيرة ميندناو بسبب الوجود الإسلامي القوي فيها الذي استمر إلى يومنا هذا. ودارت عجلة التنصير سريعاً تحت القيادة المستنيرة للراهب الأوغسطيني والمستكشف أندريس دي أوردانيتا Andres de Urdaneta. كان صينيون كُثر قد انجذبوا إلى جزر الفلبين قبل الوصول الإسباني، لكن ظهور الغليونات القادمة من أكابولكو في مانيلا من العام ١٥٧١ فصاعداً كان حدثاً فاصلاً في تاريخ التجارة العالمية، حيث أغرى سيلاً كبيراً من المهاجرين الصينيين من اليابسة الآسيوية، على الرغم من إلزامهم بشراء إذن من السلطات الإسبانية لكي يكون دخولهم قانونياً. كانت المدينة المسوّرة تضم الإداريين والجنود ورجال الدين الإسبان وكذلك الفلبينيين الذين

---

(٤٣) كان نشر الكاثوليكية أو الدين الحق في رأي أتباعها الإسبان والبرتغاليين أحد الأسباب المعلنة للاستكشاف والفتوحات. وقد نجحوا في ذلك نجاحاً مبهراً بإدخال من بقي من الأمريكيين الأصليين وكل سكان الفلبين ما عدا الأقلية المسلمة، وكثيراً من سكان شرق وجنوب شرق آسيا في المسيحية. وكان مما أخذه بعض المؤرخين الإسبان على بلدهم في ذلك أنها عبرت البحار والمحيطات لهداية الشعوب غير الكتابية إلى الكاثوليكية، بينما فشلت في هداية المسلمين على أراضيها المعروفين باسم الموركسيين الذين أدخلتهم قسراً في الكاثوليكية وأخضعتهم لمحاكم التفتيش، دون أن تقدم لهم تعليماً دينياً حقيقياً. ونجح أوروبيون آخرون في نشر المسيحية في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. وقد أوشك البرتغاليون على إدخال الشعب الياباني كله في المسيحية لولا ثورة الفلاحين (١٦٣٧)، كما سيرد لاحقاً في هذا الكتاب، وكذلك أوشكت القوى الأوروبية على إدخال الشعب الصيني في المسيحية لولا ثورة الملاكمين (١٨٩٩- ١٩٠١) [المترجم].

اعتنقوا المسيحية، تحيط بهم خارج أسوار المدينة جماعة صينية أكبر عدداً من الصناع والتجار، لم يعتنق المسيحية سوى قلة منهم. ومع سيطرة سلالة مينغ على كامل التراب الصيني والهجمات المتكررة من جانب القراصنة وأمراء الحرب الصينيين المرعبين، لم يكن مفاجئاً أن تتحول الإدارة الإسبانية إلى النظر بعين الخوف إلى المهاجرين الصينيين، خشية أن يشكلوا نوعاً من "الطابور الخامس"، على الرغم من ضرورتهم للحيوية الاقتصادية لمانيلا.

نتناول الآن موقف السلطات في إمبراطورية مينغ من التجارة الخارجية والاحتكاك مع الأجانب عموماً. كان الانفتاح على الاتصال مع الخارج في العقود الأولى من القرن الخامس عشر، حين نُفِذت رحلات زينغ هي الكبرى، قد أصبح شيئاً من الماضي. لكن الأرباح الممكنة من التجارة بين جنوب شرق آسيا والصين كانت كبيرة جداً لدرجة أن فرص انتزاع العوائد وجمع الرشاوى كانت أكبر من أن يقاومها المسؤولون في غواندونغ Guandong والمناطق الساحلية الأخرى. وضمن هذا الإطار للتجارة غير القانونية رسمياً، وإن كانت مقبولة ضمناً، بدأ البرتغاليون العمل بعد استيلائهم على مالاكا في العام ١٥١١.

فبعد محاولات خرقاء وعقيمة من جانب البرتغاليين لشق طريقهم بالقوة إلى تجارة الصين، توصلوا في النهاية إلى تسوية فعالة، عقدها رجلان حكيمان، تاجر برتغالي خاص يدعى ليونيل دي سوسا Leonel de Sousa ومسؤول صيني يدعى وانغ بو Wang Po. وكما جاء في رواية ويلز Wills لهذه التسوية، فإن الصين أعطت للبرتغاليين مكاناً على مصب نهر بيرل Pearl لبناء مخازن وكنيسة، فيما لم يكن مسموحاً لهم بالوصول المباشر إلى أي مصدر للغذاء إلا ما يعطيه لهم الصينيون[٦٨]. إضافة إلى دفع رسوم أو ضرائب سنوية على التجارة، أو على جزء منها على الأقل، كان يُقسَم بين المسؤولين المحليين والحكومة المركزية. ولم يكن مسموحاً للبرتغاليين بالسماح للغرباء، وبخاصة اليابانيين الخطرين، بالدخول إلى منطقتهم المحددة بدقة. وكانت تلك المنطقة هي الأصل في العام ١٥٥٧ للقاعدة البرتغالية الشهيرة في مكاو التي لم تُعَدْ إلى الصين رسمياً إلا بعد أكثر من أربعة قرون.

كان من حسن حظ البرتغاليين أن فُتِح لهم منجم حقيقي للثروة تمثل في "جنة الوسيط" التي تمكنوا فيها من استغلال التجارة الصينية اليابانية. فالصين كانت تمتلك ميّزة نسبية قوية جداً في الحرير، سواء في شكله الخام أو كأنسجة وملابس، كان عليها طلب كبير في اليابان، على الرغم من وجود قطاع حرير ياباني محلي ضخم، لكنه كان رديء النوعية. وكانت اليابان في ذلك الوقت تفتتح مناجم فضة وفيرة كان عليها طلب كبير في الصين، للاستخدامات النقدية وغيرها. وكانت المشكلة تكمن في تحقيق هذا التبادل المفيد للطرفين، لأن سلطات إمبراطورية مينغ كانت ترفض السماح لأي ياباني بالمجيء إلى الصين أو لأي صيني بالذهاب إلى اليابان، لما نسميه اليوم أسباب تتعلق "بالأمن القومي". وبذلك أتيحت لمانيلا ومكاو الفرصة لتزويد الصينيين بالفضة في مقابل الحرير الصيني: مانيلا من خلال الغليونات القادمة من أكابولكو، ومكاو بالفضة القادمة من اليابان.

ففي كل عام، كانت تبحر من غوا إلى مالاكا "سفينة ضخمة" واحدة على الأقل، من نوع القرقور، مصنوعة من خشب الساج المالاباري، محملة بألف وستمئة أو حتى ألفي طن من الأقمشة والمصنوعات الهندية الأخرى. كانت هذه البضائع تباع في مقابل التوابل وخشب الصندل ومنتجات جنوب شرق آسيا الأخرى التي كانت تُشحَن إلى مكاو، حيث كانت تُبادَل بالحرير. وبعد ذلك، كانت السفينة تتجه إلى الموانئ اليابانية، حيث كان الحرير يباع في مقابل الفضة التي كانت تعاد بعدها إلى مكاو. وأخيراً، كانت التوابل تُشترى ثانية في مالاكا للعودة بها إلى غوا، ومنها كانت تُرسَل بسفن أخرى إلى أوروبا حول رأس الرجاء الصالح. وتكمن الروعة في هذا الترتيب في أن الإسهام المادي البرتغالي كان صفراً، فلم يكونوا يقدمون غير تحمل الخطر العالي المتمثل في الرحلات وتوفير "الخدمات الإدارية الأساسية". فكانت السفن تُشيّد في الهند، وكانت الأطقم، بما تحتويه المرشدين ومديري الدفة، في غالبهم من الآسيويين أو الأفارقة، فيما كانت السلع المتبادلة كلها أو معظمها من أصول آسيوية.

كانت أرباح الرحلة الواحدة تكفي حامل الرخصة مدى الحياة. وفي كل عام حتى العام ١٦١٨، كانت "السفينة الكبيرة من أماكون" Amacon وهو الاسم الذي أطلقه

الإنجليز على سفينة القرقور المبحرة من مكاو، تحمل حمولات من الحرير الطبيعي والمنسوجات الصينية إلى ناجازاكي، لتعود بثمانية عشر أو عشرين طناً من الفضة وفقاً لبوكسر"[٦٩]. وبعد العام ١٦١٨، وُجِد أنه من الأفضل الاستعاضة عن سفينة واحدة كبيرة كل عام بست أو سبع سفن أصغر من السفن الأسرع المعروفة باسم الغليون لتفادي الاعتراض من جانب السفن الهولندية والبريطانية كثيفة التسليح التي كانت تسعى لأخذ مكان البرتغاليين في التجارة الصينية - اليابانية المربحة. يقول بوكسر إن "الأرباح من تجارة مكاو-اليابان ظلت كبيرة حتى النهاية"، بل وكانت كمية الفضة المصدّرة في العام ١٦٣٩ ثلاثة أضعافها إبان العقد الأول من القرن[٧٠]. ويذكر أتويل Atwell أن الأب اليسوعي جواو رودريغيز Joao Rodrigues المترجم المفضل لتوكوغاوا إيئه- ياسو(٤٤) قال إنه إبان العقد الخامس من القرن السادس عشر كانت طبقة النبلاء نفسها لا تلبس الحرير إلا نادراً، بينما في وقت هيديوشي (إبان العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر) "كانت الأمة كلها تلبس عباءات حريرية، بل أن الفلاحين وزوجاتهم كانت لديهم أوشحة حريرية، والأفضل حالاً بينهم كانت لديهم عباءات حريرية"[٧١].

كانت اليابان في النصف الثاني من القرن السادس عشر تخرج من فترة "الحرب الأهلية" الطويلة التي كان السادة الإقطاعيون فيها يكافحون لإزاحة شوغونية أشيكاغا Ashikaga الضعيفة الموجودة في السلطة منذ القرن الرابع عشر. وكان أنجح المطالبين بالسلطة هو أمير الحرب العظيم أودا نوبوناغا Oda Nobunaga الذي احتفظ بعلاقات طيبة مع المبشرين اليسوعيين والتجار البرتغاليين. كان اليابانيون قد تبنوا الأسلحة النارية بعد ظهورها لأول مرة في جزيرة تانغاشيما Tanegashima التي غرقت قبالتها سفينتان برتغاليتان مسلحتان ببنادق القربينة في العام ١٥٤٣. اشترى حاكم محلي هذه الأسلحة وقام صانع أسلحة بنسخها، وسرعان ما تبنت معظم القوات المتصارعة هذا

---

(٤٤) توكوغاوا إيئه- ياسو Tokugawa Ieyasu مؤسس شوغونية تاكوغاوا Tokugawa Shogunate، وهي النظام الإقطاعي الذي حكم اليابان من العام ١٦٠٣ إلى العام ١٨٦٧، وتوالى على الحكم فيه شوغونات أو حكام عسكريون من أسرة توكوغاوا، وتعرف هذه الفترة في تاريخ اليابان أيضاً باسم فترة إدو Edo نسبة إلى اسم العاصمة الذي تغير في العام ١٨٦٤ إلى طوكيو [المترجم].

السلاح واستخدمته في المعارك. وأدى الانتشار السريع للأسلحة النارية إلى السرعة في حسم المعارك، واستخدمها نوبوناغا بطريقة فعالة لهزيمة منافسيه الرئيسين قبل أن يغتاله جنرال غادر في العام ١٥٨٢. وفي ذلك يقول جون ويتني هول John Whitney Hall إن "استيراد البندقية ربما عجّل التوحيد النهائي للبلاد بعدة عقود"[٧٢].

أما الشيء الآخر الذي استورده اليابانيون من البرتغاليين فكان المسيحية والقديس فرانسيز شافير Francis Xavier ومجموعة صغيرة من اليسوعيين حققت نجاحاً باهراً في هداية اليابانيين إلى المسيحية، منهم كثيرٌ من القادة المؤثرين. أعجب القديس فرانسيز كثيراً باليابانيين، وقال إنهم "أفضل الشعوب التي اكتشفها حتى الآن، وأنه يعتقد أنه لا يوجد بين الكفار شعب أفضل منهم"[٧٣]. واليابانيون من جانبهم يبدو أنهم ادخروا احتراماً كبيراً لبعض المبشرين اليسوعيين والنبلاء البرتغاليين الذين قابلوهم، والذين كانت قيم الشرف الشخصي والمهارة العسكرية لديهم تتفق مع أخلاقيات الساموراي لدى اليابانيين. وقام سيد إقطاعي بارز يدعى أومورا سوميتادا Omura Sumitada من كيوشو، الذي كان من أوائل اليابانيين في منزلته الذين تحولوا إلى المسيحية، بمنح البرتغاليين موقع ميناء ناجازاكي في العام ١٥٧١، وهو العام نفسه الذي أسس فيه الإسبان مانيلا. وكان نوبوناغا نفسه كريماً مع اليسوعيين، ربما لأنه رأى فيهم ثقلاً موازناً لتأثير الطوائف البوذية التي كانت من أمقت الأعداء إلى قلبه.

خَلَف نوبوناغا شخصية أعظم، هو تويوتومي هيديوشي Toyotomi Hideyoshi الذي أكمل التوحيد السياسي للبلاد في الوقت الذي لقي فيه حتفه في العام ١٥٩٨. وحدث الاستتباب النهائي بعد أن هزم توكوعاوا إيئه – ياسو كل من تبقى من المناوئين في العام ١٦٠٠، وأسس شوغونية دامت حتى إعادة ميجي[٤٥] في العام ١٨٦٨. ويبدو أن الاقتصاد الياباني نما سريعاً بفضل عملية توحيد البلاد[٧٤]. وأعطى استقرار الممتلكات وترشيد حقوق المِلكية مزيداً من الاستقلالية والحافز للفلاحين لزيادة الإنتاجية الزراعية، واستفادت التجارة من إلغاء المكوس وتحسين النقل. وذلك يفسر

---

(٤٥) حول فترة إعادة ميجي أو الإصلاح في اليابان، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

الزيادة الواضحة في الطلب الياباني على الحرير الأعلى نوعية من الصين، ويفسر أيضاً ربحية رحلات مكاو- ناجازاكي.

تلقت هذه التجارة ضربة قاتلة، حين استن توكوغاوا سياسة العزلة إبان العقد الرابع من القرن السابع عشر وطرد كل البعثات المسيحية بقسوة، وحصر الاتصال بالغرب في عدد صغير من الهولنديين على جزيرة ديشيما Deshima الصغيرة المجاورة لناجازاكي. ثمة ثلاث مراحل مرّ بها التفاعل المعقد بين البرتغاليين واليابانيين في "القرن المسيحي"، كما سُمي ذلك القرن من تاريخ اليابان. فمن العقد الخامس من القرن السادس عشر إلى أواخر العقد التاسع من القرن السابع عشر كان اليابانيون متلهفين إلى التجارة، وكانوا أيضاً متقبلين للتأثير الديني والثقافي من ضيوفهم. وفي العام ١٥٨٧، يبدو أن هيديوشي أدرك فجأة أنه مهما كانت فوائد التجارة فإنها لا تعوض احتمال أن يؤدي الوعظ اليسوعي إلى تقويض دعائم المؤسسات الثقافية والاجتماعية للبلاد. ولذلك حاول في السنوات الباقية من حكمه أن يفصل التجارة عن النشاط التبشيري، فسمح بالأولى ومنع الأخير، وإن لم يُفرَض ذلك بشكل صارم دائماً، وهو المنهج التي اتبعه الشوغونان الأولان بشوغونية توكوغاوا حتى العام ١٦٢٣. ورأى الشوغون الثالث إيئه- ميتسو Iemitsu (١٦٢٣-١٦٥١) أن البرتغاليين كانوا يأتون بالكهنة إلى البلاد متنكرين في هيئة تجار أو غيرهم من غير رجال الدين، ما هدد الاستقرار السياسي للبلاد، ولذلك قرر طردهم جميعاً وقصر التجارة الخارجية على التجار الهولنديين والصينيين في ناجازاكي. ربما كانت ثورة الفلاحين في العام ١٦٣٧ المعروفة بثورة شيمابارا Shimabara التي كانت صرخة الحرب فيها بين المحاربين المسيحيين اليابانيين في جانب الفلاحين هي "سانتياغو" (القديس جيمس)[٤٦]، ربما كانت هذه

---

(٤٦) سانتياغو أو القديس جيمس، أو يعقوب بن زبدي كما يُعرَف في المصادر العربية، أحد الحواريين الاثني عشر للسيد المسيح، قُتِل في العام ٤٤ بأمر من الملك هيرودس أكريبا. تقول أسطورة إسبانية إنه ظهر في معركة كلافيخو Clavijo الأسطورية التي يفترض أنها وقعت في الثالث والعشرين من مايو عام ٨٤٤ بين النصارى بقيادة راميو الأول ملك أستورياس Ramio I of Asturias وأمير قرطبة، لكي يقدم العون والمدد للنصارى على المسلمين الذين كانوا يفوقونهم عدداً وعدة، وانتصر النصارى- كما في الأسطورة- ولذلك أصبح القديس يعقوب "حامي إسبانيا"، وظهرت له نقوش وهو يقتل الأندلسيين

الثورة أيضاً تأكيداً على الخطر المتأصل في الِدين المستوّرد. وبدلاً من ذلك، يقدم سانسوم Sansom وجهة نظر جديرة، مؤداها أن سياسة العزلة كانت في حقيقتها أداة لضمان احتكار التجارة الخارجية للشوغونية ومنع السادة الإقطاعيين المنافسين المحتملين من تحقيق الثراء عن طريق التجارة[٧٥]. وكانت العزلة بالطبع ضربة موجعة لمكاو، لكن تلك المدينة التجارية المرنة استطاعت أن تنجو منها، فتحوّلت إلى مانيلا كمصدّر بديل للفضة. وكما يقول باري، فإن مانيلا "الواقعة في منتصف العالم كانت ملتقى ورثة كولومبس وفاسكو دا غاما، وانتصاراً للاتصال البحري في وجه الانعزال"[٧٦].

كانت التجارة عبر المحيط الهادي تقتصر تقريباً على التجارة بين المستعمرات الأمريكية الإسبانية والصين عبر مانيلا، وهي التجارة التي ارتبطت لفترة طويلة في الأذهان بغليون مانيلا الأسطوري، وذلك أيضاً هو عنوان الرواية الكلاسيكية لشورز Schurz لهذه الأحداث الفريدة في تاريخ التجارة العالمية[٧٧]. كان التبادل الأساسي بين القارتين هو الحرير الصيني وكذلك الخزف وتوابل جنوب شرق آسيا، في مقابل الفضة التي كانت تتدفق من مناجم بوتوسي والمكسيك. فكان التجار الصينيون، في الغالب من مينائي أموي Amoy (هسيا مين) وكانتون الجنوبيين، يأخذون الحرير الطبيعي والأنسجة والملابس إلى مانيلا، حيث كانوا يبيعونها في مقابل الفضة، فيما كانت هذه البضائع تشق طريقها للبيع في العالم الجديد.

أو المغاربة المسلمين، وأطلق عليه اسم "جيمس قاطع رقاب الأندلسيين" Saint James the Moorslayer. وكان ضريحه في شنت ياقوب أو سانتياغو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela بمنطقة جليقية بشمال غرب إسبانيا مقصداً للحجيج النصارى، ولذلك لعب هذا الضريح والحج إليه إبان القرن التاسع دوراً كبيراً في حشد الدعم النصراني لحروب استرداد إسبانيا، التي كان "القديس جيمس قاطع رقاب الأندلسيين" أيقونتها ورمزها، فكانت نقوشه حاضره في كل المعارك، وكان الجنود النصارى يصرخون باسمه في أثناء القتال، في مقابل استصراخ محمد من جانب المسلمين. وظل القديس جيمس أيقونة الحرب الكاثوليكية ضد المسلمين حتى أيامنا، إذ وُزِّعت على الجنود الإسبان والأمريكيين اللاتينيين الذين شاركوا في غزو العراق في العام ٢٠٠٣ صلبان للقديس جيمس. ومع ذلك كله، فمن الغريب أن تدوي صيحات القديس جيمس في المعارك على ألسنة اليابانيين وفوق جزرهم البعيدة على الجانب الآخر من الكرة الأرضية [المترجم].

كانت المشكلة بالنسبة للسلطات الإسبانية في شبه الجزيرة الأيبيرية وفي المستعمرات الأمريكية تتمثل في تحديد حجم التجارة الذي كان في مصلحتهم. فصناعة الحرير كانت موجودة في إسبانيا والمكسيك، حيث أدخلها كورتيز نفسه بنجاح بعد الغزو مباشرة. ولذلك كان هناك الطلب المتوقع على الحماية من جانب فرعي هذه الصناعة في الوطن وفي المستعمرات. كما كانت هناك ممانعة في تحويل قدر أكبر من اللازم من الفضة عبر المحيط الهادي، لأن ذلك كان من شأنه أن يقلل الفضة المتاحة للاحتياجات الملحة للتجارة والحرب في أوروبا. على أن منع التجارة تماماً كان يعني هلاك الفلبين لعدم وجود خيار اقتصادي فعال آخر لبقاء هذه الجوهرة الغربية في التاج الإسباني. وتمثل الحل الوسط في السماح بالتجارة، لكن مع تقييدها في مستوى محدد، بما يسمح ببقاء صناعة الحرير المنافِسة للحرير المستوْرد في إسبانيا ومستعمراتها وتقييد انتقال الفضة عبر الهادي ضمن حدود معقولة، وفي الوقت نفسه تقديم الحافز اللازم لإقناع عدد كاف من المستعمرين الإسبان للاستيطان في بيئة خطرة وغير صحية للأوروبيين.

طُبق نظام التدخل من جانب الدولة في العام ١٥٩٣ بعد فترة أولية من الحرية النسبية بداية من العام ١٥٧١. فكان غير مسموح بأن تتجاوز قيمة الشحنة المحملة في مانيلا كمية عُرِفت باسم المسموح permiso، وهي مئتان وخمسون ألف بيزو[٤٧] بأسعار مانيلا وضعف ذلك المبلغ لقيمة البيع النهائي بأسعار أكابولكو. تشرح شورز ذلك باختصار مُحْكَم بالقول: "كان ذلك نوعاً من الحصة التصديرية للمستعمرة، وأدى خدمة مزدوجة، هي تقييد منافسة الحرير الصيني للصناعة الإسبانية في السوق المكسيكي، وتقييد انتقال الفضة المكسيكية إلى الصين"[٧٨]. وظل مستوى المسموح بلا تغيير حتى العام ١٧٠٢، حين رُفِع إلى ثلاثمئة ألف بيزو في مانيلا وضعفه في أكابولكو. وبذلك رُفع معدل العائد بالقيم الرسمية بنسبة ١٠٠٪ قبل خصم الضرائب والرسوم وتقدير الأخطار الكبيرة ممثلة في فقدان السفن بسبب العواصف أو القرصنة. وزيادة

(٤٧) البيزو peso قطعة نقد فضية قديمة في إسبانيا وأمريكا الإسبانية ووحدة النقد الحالية في عدد من الدول اللاتينية [المترجم].

قيمة السلع المنقولة فوق المستوى المسموح كان بالطبع يزيد الأرباح الإجمالية بالقدر نفسه، لكنه كان يترك معدل العائد دون تغيير، على فرض أن الأسعار في أكابولكو ظلت ضعفها في مانيلا كما كانت في السابق.

كان تخصيص هذه الريوع (أي مساحة الشحن على الغليون) مصدراً لمحسوبية شديدة تقاتل عليها الحكام وغيرهم من موظفي التاج الآخرين والمسؤولين البلديين وأعضاء الجماعة التجارية الإسبانية. وتسرد شورز بتفاصيل ممتعة كيف كانت الريوع تخصص للقطاعات المختلفة بمجتمع مانيلا، من التجار إلى الموظفين الحكوميين والضباط العسكريين والمتقاعدين والأرامل والأيتام، وأخيراً وليس آخراً ممثلي المنظمات الدينية والخيرية المختلفة. وكما يمكن أن نتخيل بسهولة، كان التحميل الزائد شائعاً إلى حد تعريض أمان السفن للخطر وزيادة خطر فقدان السفن أو تعريضها للأسر بسبب تقليل الفضاء اللازم للتجهيزات الملاحية الاحتياطية والذخيرة لأغراض الدفاع. وفي المقابل كانت رحلة العودة من أكابولكو إلى مانيلا "بلا حمولة تقريباً"، كما تقول شورز، لأن ثمن الحرير كان يدفع بالدرجة الأولى بالفضة، وهي مادة عالية القيمة منخفضة الوزن. فيما كان عدد المسافرين من أكابولكو إلى مانيلا أكبر من المسافرين في الاتجاه العكسي، حيث كان سكان الفلبين ينمون بثبات.

كان الطلب عالياً على الحرير والسلع الآسيوية الأخرى التي تجلبها الغليونات إلى ميناء أكابولكو العميق. رسمياً كان المشترون الوحيدون المسموح لهم بالشراء في أكابولكو هم رعايا نائب الملك من سكان إسبانيا الجديدة، لكن ثبت أنه يستحيل منع الأشخاص من رعايا نائب الملك في بيرو من الدخول، أو حتى إرسال طلبات إلى مانيلا ذاتها من خلال وكلائهم. وكان جزء كبير من الحرير الذي يصل إلى أكابولكو نحو العام ١٦٠٠ يؤخذ من فيرا كروز Vera Cruz إلى إسبانيا نفسها[٧٩]، وهي علامة رائعة على انخفاض تكلفة السلعة وارتفاع نوعيتها لدرجة لا تُفْقِدها تنافسيتها حتى بعد عبور المحيط الهادي ثم المحيط الأطلسي. وكان الزوار الأوروبيون إلى المكسيك وليما جميعهم يذهلهم مدى

انتشار الملابس الحريرية بين الناس، حتى بين المهجنين[٤٨] الهنود، فيما كان الإسبان الأفضل حالاً يُظهِرون مستوى من الترف أبعد كثيراً مما كان يُرى في عواصم أوروبا.

واستطاعت صناعة الحرير المكسيكية أن تنقذ نفسها من الانقراض باستخدام الحرير الطبيعي الصيني كمادة خام لها. ويستشهد أتويل بمصدر يذكر أن الحرير الخام الصيني المستوْرد من مانيلا دعّم بقاء أربعة عشر ألف نساج في العمل في مدينة المكسيك وبوبلا Puebla[٨٠]. لا عجب إذن أن تقول شورز إن معدل الربح من تجارة الغليونات كان بين ١٠٠ و٣٠٠٪، وليس المستوى المسموح به وهو نحو ٨٠٪[٨١]. وجمع الوجهاء مثل الحكام ونواب الملك ثروات ضخمة من امتيازاتهم في الحصول على فضاء الشحن النادر. وتستشهد شورز بمثال الملاح الشهير إبان القرن السادس عشر الذي بدأ بما قيمته مئتي دوكاتية من السلع الإسبانية والفلمنكية، استطاع أن يحوّلها في مانيلا إلى بضائع حريرية قيمتها ألف وأربعمئة دوكاتية، ربح منها ألفين وخمسمائة دوكاتية بعد بيعها في أكابولكو. وأدى طلب الدول الأوروبية الأخرى على الحرير الصيني إلى خفض ربحية تجارة الغليونات إبان القرون اللاحقة، لكنها واصلت الصعود حتى نحو العام ١٨١٥.

الصعود الهولندي إلى صدارة التجارة العالمية

شهد العقد الأخير من القرن السادس عشر ظهور الهولنديين كفاعل رئيس في الاقتصاد العالمي، أزاح البرتغاليين والإسبان خلال بضعة عقود واستولى على مكانتهم القيادية خلال القرن الثامن عشر، قبل أن يفقد مكانته في النهاية لصالح البريطانيين. في نهاية العقد السابع من القرن السادس عشر، ثارت المقاطعات الشمالية السبع، من بين المقاطعات السبع عشرة التي كوّنت الممتلكات الإسبانية في هولندا، ضد ما اعتبروه الحكم المستبد لفيليب الثاني. وشكلوا اتحاد أوترخت كنوع من التحالف الدفاعي في العام ١٥٧٩، وأعلنوا استقلالهم عن إسبانيا الهابسبرغية[٤٩] في العام ١٥٨١. وأعيدت

(٤٨) المُهَجَن أو الهجين mestizo هو الشخص الذي ولد لأبوين أحدهما أوروبي والآخر هندي أمريكي [المترجم].

(٤٩) آل هابسبرغ Habsburg أو آل النمسا واحدة من أعرق العائلات الحاكمة في أوروبا العصور الوسطى والعصر الحديث المبكر، كان منهم الأباطرة الرومان المقدسون من العام ١٥٣٨ إلى العام ١٧٤٠ وحكام

المقاطعات الجنوبية، ومنها فلندرة وبرابانت Brabant المتطورتين جداً، التي تتطابق تقريباً مع بلجيكا الحالية، إلى الحظيرة الإسبانية والكاثوليكية، لكن بعد هجرة واسعة من جانب المنشقين الأغنياء والماهرين إلى الشمال. كانت أنتويرب Antwerp الواقعة في برابانت المتجر الرئيس لذلك الجزء من أوروبا قبل القرن الخامس عشر، لكن خربتها الأعمال العدائية والحصار المطول الذي فرضه الهولنديون على نهر شيلديت Scheldt، فحلت أمستردام بهولندا محلها، لأنها كانت الأكثر سكاناً وثراء بين المقاطعات السبع المتحدة. فارتفع عدد سكان أمستردام من نحو خمسين ألف نسمة في العام ١٦٠٠ إلى ضعف ذلك العدد في العام ١٦٢٠، ثم إلى مائتي ألف في العام ١٦٥٠.

كانت الجمهورية الهولندية أوليغاركية(٥٠) تجارية تشبه البندقية نوعاً ما، وإن كانت أكبر كثيراً من مجرد دولة - مدينية، بعدد سكان بين واحد واثنين مليون نسمة، وهو قريب من عدد سكان البرتغال، وتضم منطقة داخلية متنوعة ومنتجة. وكانت القيادة التنفيذية للدولة الجديدة تأتي بالدرجة الأولى من آل أورانج House of Orange أحفاد وليام الصامت William the Silent (مات في العام ١٥٨٤) الذي يعتبر "أبو الأمة الهولندية". فكانت هذه السلالة تتولى منصب القائم مقام Stadholder في هولندا وزيلند

الإمبراطورية النمساوية والإمبراطورية الإسبانية وبلاد أخرى كثيرة، أخذت الأسرة اسمها من قلعة هابسبرغ التي بناها بين العامين ١٠٢٠ و١٠٣٠ في سويسرا الحالية الكونت رادبوت الكيتاغي Radbot of Kettgua وكان ابنه أوتو الثاني أول من أضاف اسم القلعة "الهابسبرغي" إلى لقبه، وحكمت العائلة مناطق واسعة من أوروبا والعالم الجديد في أوجها، وكانت أقوى ممالكها في إسبانيا والنمسا، وانتهت بموت آخر ذكورها في العام ١٧٠٠، الذي أطلقت وفاته حرب الخلافة الإسبانية [المترجم].

(٥٠) الأوليغاركية Oligarchy (حكم القلة) شكل لبنية السلطة في الدولة تتجمع فيه السلطة في أيدي عدد صغير من الناس، قد يكونون أسرة مالكة أو روابط أسرية أو طبقة غنية أو طبقة الشركات ورجال الأعمال أو رجال الجيش، وغالباً ما تنتقل السلطة فيه بين أجيال أسر قليلة نافذة. تاريخياً كان هذا الشكل لبنية السلطة ينحو إلى الاستبداد وتحويل الشعب إلى عبيد، ومنه أيضاً ما كان حميداً فيحفظ للشعب الكثير من الحقوق، فيما يحتفظ لنفسه بالسلطة. ومن علماء السياسة، مثل روبرت ميشلز، من يرون أن الديمقراطيات الحديثة تطورت إلى أوليغاركيات بسبب ضيق النخبة التي يتم تداول السلطة في إطارها وبسبب وجود حزب واحد أو اثنين تنتقل السلطة بينهما. ومن علماء السياسة أيضاً من يعتبرون الديمقراطية الحديثة أوليغاركية لأصحاب الشركات، واشتقوا لها اسما corporatocacy "حكم الشركات"، في مقابل حكم الأسر أو العسكر قديماً [المترجم].

وأوترخت، وكذلك قيادة القوات المسلحة الهولندية. وكانت المؤسسة الاتحادية الأساسية هي المجلس العام للدولة الذي كان يجتمع في لاهاي. كان مصدر الثروة الرئيس للجمهورية الوليدة يكمن في نظامها الاقتصادي الذي كان- بلا شك- الأكثر إنتاجية وكفاءة في أوروبا في ذلك الوقت، حيث كانت إيطاليا قد تجاوزت أيام عزها إبان القرن السابق. وكانت الزراعة في الجمهورية تتركز على النشاطات ذات القيمة المضافة العالية مثل الماشية ومنتجات الألبان بدلاً من الفلاحة العادية، ما وفر نسبة كبيرة من القوة العاملة للصناعة والخدمات. وكانت الميْزة النسبية الأولية الأقوى التي تمتع بها الاقتصاد الهولندي هي الشحن، وبخاصة في بحر البلطيق، وهذا القطاع يسمى "التجارة الأم"، إذ تنشأ منه كل أنواع التجارة الأخرى. فكانت غالبية الحبوب المصدّرة من منطقة البلطيق تحملها السفن الهولندية إلى أمستردام، ثم تعيد تصديرها من هناك إلى أجزاء أوروبا الأخرى، بما في ذلك البحر الأبيض المتوسط. وكان صيد الرنغة من بحر الشمال سلعة تصديرية أساسية هولندية أخرى، وقد استخدموا فيها السفينة الكبيرة المعروفة باسم حافلة الرنغة herring bus، وهي عبارة عن مصنع عائم كان الصيد يُنظَف ويُملّح ويُعلّب على ظهرها.

قطع الهولنديون أيضاً خطوات واسعة في مجال التصنيع، وذلك جزئياً على حساب المراكز الأقدم والأكثر ترسخاً في فلندرة والأجزاء الأخرى بهولندا الإسبانية. فبعد أن كانت هوندشوت Hondschoote المنتج الرئيس "للأجواخ الجديدة" والأقمشة الصوفية الخفيفة المصنوعة من الصوف الطويل، أدى النزاع مع إسبانيا إلى هجرة آلاف العمال ورجال الأعمال المهرة من هذه المدينة إلى ليدن Leyden بهولندا، التي ضاعفت عدد سكانها من العام ١٥٨٠ إلى العام ١٦٠٠ ورفعت ناتجها من هذه المنسوجات إبان الفترة نفسها إلى أكثر من الضعف. وبحلول العام ١٦٦٤، كانت ليدن تنتج مئة وأربعةٍ وأربعين ألف قطعة في العام، ويذكر فان هوته van Houtte أن "ليدن في ذلك الوقت كانت مركز التصنيع البارز للصوف في أوروبا، وربما في العالم أجمع"[٨٢]. وسرعان ما أصبحت هذه الأقمشة الهولندية تصدّر إلى أسواق البلطيق والبحر الأبيض المتوسط. وأسس اللاجئون الفلمنكيون مدينة هارليم Haarlem أيضاً كمُنتِج مهم للكتان. وكان

تشييد السفن لتعويض التلف في الأسطول الضخم وللتصدير أيضاً مكوناً رئيساً آخَر في القطاع الصناعي، وكانوا ينتجون ما بين مئتين وخمسين وثلاثمئة وخمسين سفينة سنوياً في نحو العام ١٦٥٠. وتمثل أحد التجديدات الملاحية الهولندية البارزة في سفينة الفلوت fluit وهي سفينة مصممة لتعظيم قدرة حمل البضائع وتقليل تكلفة العمالة على حساب السرعة. ويرجع الفضل إلى هذه السفن التي أُدخِلت إبان العقد الأخير من القرن السادس عشر وكانت تُشيَّد في ترسانات مدينة هورن Hoorn، في خفض أسعار الشحن الهولندية في نقل البضائع الضخمة إلى الحد الذي أخرج معظم المنافسين من السوق. وكان من أسباب تقليل العمالة على سفن الفلوت أنها كانت غير مسلحة أو ذات تسليح خفيف. لكن ذلك كان يتطلب أن ترافقها سفن حربية عند الإبحار في مياه خطرة ، وهو أحد الأمثلة الجيدة على اعتماد "الوفرة" على "القوة"(٥١) في تلك الفترة. لكن في مقابل تقسيم العمل الهولندي بين السفن المدنية والعسكرية، ظلت السفن التجارية الإنجليزية وغيرها تحمل تسليحاً ثقيلاً ومُكْلِفاً. وكما يقول جورج داونينغ George Downing الذي سنقابله في الفصل التالي، فإنه "إذا كان تجارهم يجب أن ترافقهم قوافل مسلحة وكان الإنجليز يجب أن يكونوا تجاراً ومحاربين في الوقت عينه، فإن الأخيرين لا يستطيعون الإبحار بسرعة وسهولة الهولنديين، وبالتالي ستتحوّل التجارة أكثر فأكثر لصالح الهولنديين"[٨٣].

سنرى لاحقاً أن روسيا كانت قطاعاً جديداً مهماً لتجارة ما وراء البحار، اخترقه الهولنديون بعد العام ١٥٩٠، ليس من خلال بحر البلطيق، وإنما من خلال شمال النرويج إلى أركانجل(٥٢). وتضمن هذا الطريق تبادل منتجات فاخرة مثل النبيذ والتوابل والحرير والأقمشة الصوفية الغالية، في مقابل الفراء والجلد والكافيار، التي كانت بدورها يعاد تصديرها إلى جميع أنحاء أوروبا. فقد حل الهولنديون محل الإنجليز في قيادة هذه التجارة عالية القيمة بحلول العام ١٦١٠، كما ذكر جوناثان إزرائيل

---

(٥١) تذكر أن "القوة" و"الوفرة" والعلاقة بينهما في تاريخ التجارة العالمية هو الموضوع الأساسي للكتاب [المترجم].

(٥٢) أركانجل Archangel مدينة روسية تقع على ضفتي نهر دفينا الشمالي بالقرب من مصبه على البحر الأبيض، تسمى حالياً أركانجيليسك Archanelsk [المترجم].

Jonathan Israel الذي يضفي أهمية كبيرة على هذا الاختراق باعتباره مؤشراً على أن الهولنديين قطعوا خطوة واسعة في طريق التحول من مجرد ناقل أو شاحن رخيص، لأن ذلك كان يتطلب رأس المال والروابط التجارية اللازمة لجمع مدى واسع من السلع الغالية لإعادة بيعها[٨٤]. وأخذ كثير من التجار من أجزاء أوروبا الأخرى، ومنهم مَنْ كانوا يسمون "المسيحيين الجدد"(٥٣) من أيبيريا، يتوافدون للعمل في الدولة الجديدة، حيث جذبتهم الفرص التجارية والتسامح الديني.

كان من الأساسيات لتجارة الشحن عالية القيمة التي ابتدعها الهولنديون وصولهم إلى سوق التوابل بلشبونة التي أصبحت خاضعة للسيطرة الإسبانية بعد اتحاد التاجين الأيبيريين في العام ١٥٨٠. وكان هذا الوصول يمكن أن يُقطَع في أي وقت بفرض الحظر، كما حدث في العامين ١٥٨٥ و١٥٩٥. وكان الحل طويل المدى الفعال الوحيد هو الوصول إلى المنبع، أي إلى جزر الهند الشرقية ذاتها، وأن يفعلوا بالبرتغاليين ما فعله الأخيرون بالبنادقة والمصريين قبل قرن. ولذلك أسس مجموعة من تجار أمستردام في العام ١٥٩٤ "شركة الأراضي البعيدة" Company of Far Lands وأرسلوا أسطولاً من أربع سفن إلى البحار الشرقية، عاد في العام ١٥٩٧ بفقد سفينة والكثير من الأرواح، لكنه أتى بكمية من الفلفل تكفي لاعتبار الرحلة ناجحة[٨٥]. وبفضل هذا التشجيع، غادر أسطولان مكونان من اثنتين وعشرين سفينة في العام ١٥٩٨، قاد أحدهما جاكوب فان نيك Jacob van Neck، وعادا بثماني سفن وتوابل كافية لتحقيق ربح قدره ٤٠٠٪، ما جعل أجراس أمستردام تدق فرحاً وابتهاجا. وبسبب التعطش للأرباح، غادرت خمس وستون سفينة في العام ١٦٠١. وسرعان ما

---

(٥٣) المسيحيون الجدد New Christians هم المسلمون واليهود الأيبيريون الذين تحولوا إلى الكاثوليكية الرومانية وأحفادهم، وقد حدث تنصير اليهود بالقوة إبان العقد التالي للعام ١٤٩٢، حيث خيّرهم الملكان الكاثوليكيان فيردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية بين التنصر والنفي من إسبانيا، وحتى من آثر النفي منهم، أجبر على التخلي عن ممتلكاته وأطفاله. وعلى مدى القرن السادس عشر، أصدر الملكان وخلفاؤهما عدة مراسيم وترتيبات لإجبار المسلمين الأندلسيين الذين عُرِفوا باسم المورسكيين على التنصر، وحين رفضوا وثاروا قمعتهم الجيوش الإسبانية بقسوة، وحتى بعد أن تنصروا- ولو ظاهرياً على الأقل- أخضعتهم محكمة التفتيش لمعاملة قاسية، إلى أن طردتهم إسبانيا أخيراً من أراضيها مع منعطف العقد الأول من القرن السابع عشر [المترجم].

اتضح أن الفقاعة(٥٤) تسببت في رفع أسعار الفلفل بشدة في المنبع لأكثر من ١٠٠٪ في ست سنوات، كما يذكر إزرائيل[٨٦] وخفضها في أوروبا.

تطلب الموقف تنظيم احتكار فعال، لكن كيف كان السبيل إلى ذلك؟ حُلت المشكلة على المستوى الاتحادي من جانب مجلس قيادة الدولة، ولعب الدور الرئيس في المفاوضات رجل الدولة البارز يوهان فان أولدينبارنفيلدت Johan van Oldenbarneveldt من جنوب هولندا. وتشكلت شركة امتياز(٥٥) في العام ١٦٦٢ باسم Vereenigde Oost-lndische Compagnie [شركة الهند الشرقية الهولندية VOC] يتكون مجلس إدارتها من سبعة عشر عضواً. كانت أمستردام المصدر الرئيس لرأس المال وشاركت بثمانية أعضاء، وزيلند بأربعة أعضاء، والمنطقة الشمالية (هورن Hoorn وإنخوزين Enkhuizen) بعضوين، وجنوب هولندا (ديلفت Delft وروتردام) بعضوين. وكان المقعد السابع عشر يدوَّر بين زيلند والمنطقة الشمالية وجنوب هولندا، بما يمنع أمستردام من امتلاك أغلبية مضمونة، مع الاعتراف بمكانتها البارزة التي تأكدت أيضاً بوضع مقر الشركة فيها.

مُنِحت شركة الهند الشرقية الهولندية حق احتكار تجارة شرق رأس الرجاء الصالح وغرب مضيق ماجلان لفترة أولية مدتها واحد وعشرون عاماً. وكان من سلطة مجلس السبعة عشر أن يشن حرباً دفاعية وأن يشيّد القلاع والمعاقل وأن يدخل في معاهدات وتحالفات في المنطقة الشاسعة التي يغطيها احتكاره. وبذلك يمكن القول- دون مبالغة - إن شركة الهند الشرقية الهولندية كانت "فعلياً دولة داخل الدولة"[٨٧]. فكانت الشركة مزيجاً فريداً وغير مسبوق من السلطة التجارية والسياسية. صحيح أن

---

(٥٤) يشير مفهوم الفقاعة bubble في الاقتصاد – كما في تعبيرات الفقاعة الاقتصادية أو فقاعة المضاربة أو فقاعة السوق أو فقاعة السعر أو الفقاعة المالية – إلى تلك الحالة التي تتسبب فيها المضاربة على سلعة ما إلى زيادة سعرها، ما يؤدي إلى زيادة المضاربة عليها، وعندها يبلغ سعر السلعة مستويات خيالية، ومن هنا يأتي تشبيه انتفاخ الفقاعة أو البالون، إلى أن تبلغ مرحلة انفجار الفقاعة أو البالون بحدوث هبوط حاد في السعر [المترجم].

(٥٥) شركة الامتياز chartered company شركة يكوّنها مستثمرون أو أصحاب أسهم لأغراض التجارة والاستكشاف والاستعمار [المترجم].

البندقية وجنوى والرابطة الهانزية كانت تستخدم قوة بحرية كبيرة، لكنها كانت مجرد دول مدينية لا تمتلك الموارد الكاملة لدولة قومية حقيقية مثل الجمهورية الهولندية، على الرغم من صغر حجم سكان الأخيرة. وما إن وضعت القاعدة المؤسسية الاستثنائية للشركة في العام ١٦٠٢، حتى انتشرت سريعاً بنجاح رائع في جزر الهند الشرقية. ومع منتصف القرن ونهاية "حرب الثمانين عاماً" أو "حرب التحرر" من الهابسبرغيين في العام ١٦٤٨، كان الهولنديون القوة الأوروبية المهيمنة على التجارة بين آسيا وأوروبا وعلى تجارة الشحن داخل آسيا، وتفوقوا كثيراً على منافسيهم الأيبيريين الذين هم أقدم وجوداً في المنطقة. يرجع قدر كبير من هذا النجاح إلى رئيس مجلس إدارة الشركة في جزر الهند جان بيترزون كوين Jan Pieterszoon Coen (١٥٨٧-١٦٢٩) الذي جاء في بيانه إلى مجلس الإدارة فور توليه مهامه مباشرة: "إننا لا يمكن أن ندخل حرباً بلا تجارة، ولا أن نمارس التجارة بلا حرب"، وهو تعبير دقيق تماماً عن العلاقة بين الحرب والتجارة في الحقبة المركنتيلية، وقد أثبت كوين أنه عديم الرحمة وكفء في الجانبين بالقدر نفسه.

كانت التجارة في المحيط الهندي والمحيط الهادي، كما رأينا في الأقسام السابقة، قد استقرت على نمط ثابت في أوائل القرن السابع عشر. فكان البرتغاليون يسيطرون على غوا وهرمز ومالاكا ومكاو والإسبان على مانيلا كقواعد وموانئ محصنة، لكن مع نقل مزيد من التوابل براً إلى أوروبا بعيداً عن رأس الرجاء الصالح في ذلك الوقت، وهو ما أبطل عملياً أي احتكار لهذه السلع من جانب دولة الهند البرتغالية. رأت العقلية الجيواستراتيجية الثاقبة لكوين الشاب في هذا الموقف حالة مواتية للسيطرة على التجارة العالمية. لقد قاتلت بلده القوتين العظميين الأيبيريتين إلى أن تجمدت الأوضاع على ترابها، وكانت تحشد أسطولاً كافياً لاقتحام حلقة المحطات التجارية المحصنة من هرمز إلى مانيلا بالاستيلاء عليها بطريقة مباشرة أو بإطلاق منافسين يخصمون من تجارة الأيبيريين. وبدلاً من انتظار أن تظهر لهم السلع من تلقاء أنفسها، كان يمكن لسياسة جَسُور أن تنتزع التوابل في المنبع من المزارعين المحليين بأسعار منخفضة، إذا أمكن إبعاد المشترين المحليين والأجانب المنافسين بالقوة، ثم تُصدّر إلى أوروبا بكميات صغيرة

نسبياً، لكن بهامش ربح عالٍ. ويمكن لمجموعة مختارة بعناية من المستوطنين الهولنديين أن يكونوا رأس حربة للعمل التجاري في أماكن مختلفة بآسيا، ويشتركوا في الحجم الضخم لتجارة الشحن داخل آسيا، ويمكن للأرباح الناتجة عنها أن توفر رأس المال العملي السنوي المطلوب للتجارة، دون الضرورة المُكْلِفة للحصول على السبائك أو النقود الفضية في أوروبا من الإسبان أو من دائنيهم الإيطاليين. ونظراً لأن كوين قدم تفاصيل هذه الرؤية كاملة في مذكراته إلى مجلس السبعة عشر، فلا غرابة أن يجعلوه حاكماً عاماً وهو في عمر الثلاثين.

كانت غالبية تجارة التوابل تقوم على الفلفل، ذلك النبات الذي ينمو بسهولة نسبياً في مساحات واسعة بالمنطقة الاستوائية من مالابار إلى سومطرة وجاوة. ولذلك كان من المستحيل احتكار إمداداته، وكذلك كان الاتحاد الاحتكاري يصعب تنظيمه والحفاظ عليه. ومع وجود القرنفل، وبدرجة أكبر جوز الطيب والميس[٥٦] في هذه المناطق، كانت إمكانات الربح أكبر بكثير. كانت شجرة جوز الطيب تحتاج لتوليفة محددة من التربة ودرجة الحرارة والمطر، ما جعلها تنمو فقط في جزر الباندا الخمس الصغيرة. ومنذ أوائل القرن السادس عشر على الأقل، كان الطلب كافياً لجعل الجزر تتخصص في إمداد هذه التوابل، وتستورد الساغو[٥٧] والأرز والأقمشة في المقابل. وكذلك كانت زراعة القرنفل تقتصر على المنطقة التي ينمو فيها في ذلك الوقت، بالدرجة الأولى في جزيرتي تيرنيت وتيدور الصغيرتين غرب جزيرة هالماهيرا Halmahera الكبيرة، فضلاً عن أمبون وسيرام Ceram التي تُعرَف جميعها باسم جزر الملوك. يذكر فيليرز أن الزيادات المتعاقبة لأسعار القرنفل كانت استثنائياً، فكان السعر في مالاكا ثلاثين ضعف السعر في المنبع في جزر الملوك، وفي الهند مئة ضعف، وفي لشبونة في أوقات الندرة كانت تصل الأسعار إلى مئتين وأربعين ضعفاً[٨٨]. وكانت المعدلات أعلى في حالة جوز الطيب. فيذكر ميلتون Milton أن كمية جوز الطيب التي كانت

(٥٦) الميس mace تابل من قشر جوز الطيب [المترجم].

(٥٧) الساغو sago دقيق نشوي يعد من لب نخيل الساغو [المترجم].

تشترى في جزر الباندا بأقل من بنس إنجليزي، كانت تباع بسبعين شلناً، أي ثمانمئة وأربعين بنسا![٨٩]

زار الهولنديون كل هذه الجزر في الرحلات المبكرة لشركة الهند الشرقية الهولندية وأبرموا عقوداً مع الرؤساء المحليين تلزمهم بألا يبيعوا لأي مشترين غير شركة الهند الشرقية الهولندية. ولذلك، فحين ظهر ممثلو شركة الهند الشرقية East India Company (EIC) البريطانية في جزر الملوك بعد ذلك بوقت قصير وبدأت تشتري التوابل بأسعار أفضل من الهولنديين، اعتبرهم الهولنديون متطفلين واعتبروا الرؤساء المحليين منتهكين لقدسية العقود، وبذلك برروا لأنفسهم استخدام القوة ضد الطرفين حين رفضا الرجوع. وفي العام ١٦١٦، احتل الهولنديون كل جزر الباندا بالقوة، ولم يبق غير جزيرة بولاو رون Pulau Run الصغيرة التي كانت توجد بها مجموعة صغيرة من رجال شركة الهند الشرقية بقيادة الوكيل التجاري نيقولاس كورثوب Nicholas Courthope الذي قُتِل في العام ١٦٢٠ بعد دفاع باسل، كما في الرواية الملونة التي قدمها غايلز ميلتون Giles Milton في كتابه "ناتنيال وجوز الطيب". ونفذ كوين حملة "تطهير عرقي" عديمة الرحمة وقذرة ضد سكان جزر الباندا، فقتل كل السكان تقريباً أو أبعدهم، واستعاض عنهم بعبيد مستوْردين ومستوطنين هولنديين لإنتاج جوز الطيب[٩٠].

كانت أمبون مشهداً لحادثة إنجليزية- هولندية أخرى مؤسفة جداً، وهي المذبحة، أو بالتعبير القانوني الصحيح قتل الهولنديين للجماعة البريطانية التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية وموظفيها اليابانيين بدعوى مؤامرة مزعومة للاستيلاء على قلعة الجزيرة، كما اعترفوا لهم تحت التعذيب. قصر الهولنديون إنتاج القرنفل على أمبون وحدها، وقطّعوا الأشجار من الجزر الأخرى للحفاظ على عرضه بالمستوى الذي رأوا أنه مثالي للاحتكار. وأبدى مجلس السبعة عشر أسفه وافتعل "الصدمة" من وحشية كوين في جزر الباندا، مع أن كل ما فعله كوين هو تنفيذ سياسة الاحتكار التي أقرها المجلس. وحتى بعيداً عن انعدام الأخلاق الواضح في أفعال كوين، فقد شكّك معاصروه والمؤرخون في رشادة سياسته وتكلفتها على المدى البعيد. فقد دفع الدارس

المدقق والمنصف ميلينك رولوفز Meilink-Roelofsz بأن العرض كان ناقصاً جداً في بعض السنوات اللاحقة، وشككّ فيما إذا كانت نفقة الحرب والقهر توازن الأرباح الناتجة عن الحجم المحدود جداً للتجارة في القرنفل وجوز الطيب والميس[٩١].

استغل سلطان بانتام الأعمال العدائية بين الإنجليز والهولنديين للسيطرة على دولة جاكارتا الساحلية على الساحل الشمالي لجاوة التي كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تحتفظ فيها بمستوطنة ومحطة تجارية. ولدى عودته بأسطوله في العام ١٦١٩ من أمبون التي هرب إليها من قوة بحرية بريطانية أقوى، فاجأ كوين المدينة وكان على رأس قواته التي أحرقتها تماماً. وأنشأ العاصمة الجديدة لشركة الهند الشرقية الهولندية في مكانها وأطلق عليها اسم باتافيا Batavia على اسم الأجداد التيوتونيين للهولنديين. أُنشِئت المدينة بشوارع وقنوات على النمط الهولندي، وسرعان ما جذبت كثيراً من السكان الأصليين والصينيين، على غرار ما حدث في مانيلا. وستظل هذه المدينة عاصمة الإمبراطورية الهولندية في جزر الهند الشرقية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. وفي العام ١٦٢٣، أنهى كوين فترته الأولى كحاكم عام، وعاد إلى هولندا، لكنه عاد ليحكم فترة ثانية في العام ١٦٢٧. جاء تأسيس باتافيا تحدياً لأغونغ Agung سلطان دولة ماتارام Mataram القوية في وسط جاوة، ولذلك حاصر السلطان المدينة الجديدة بقوة كبيرة وكاد أن يستولي عليها. ومات كوين فجأة في باتافيا في أثناء الحصار في العام ١٦٢٩، ربما بسبب الزحار، في عمر الثانية والأربعين. ورُفِع الحصار في النهاية، وانتهى النزاع بين باتافيا وماتارام في وقت لاحق من القرن، حين أصبحت ماتارام وبانتام تابعتين لنظام شركة الهند الشرقية الهولندية.

استمرت سياسات كوين التوسعية تحت قيادة تلميذه أنطوني فان ديمين Antonie van Diemen الذي استولى على مالاكا أخيراً من البرتغاليين في العام ١٦٤١ بمساعدة سلطان جوهور Johore وتلقت الشركة دفعة كبرى حين حل السلام أخيراً مع إسبانيا في العام ١٦٤٨. واقترن بنهاية هذا الصراع تحقق المزيد من الوفرة في "مُدخلين" أساسيين لتجارة شركة الهند الشرقية الهولندية: الجنود والفضة. فاستأجرت هولندا ما لا يقل عن عشرة آلاف وخمسمئة محارب محنك ممن حاربوا ضد إسبانيا وأرسلتهم لخدمة

الشركة إبان الفترة ١٦٤٨-١٦٥٢، فيما ارتفع تدفق الفضة إلى باتافيا من نحو ثمانية ملايين غلدر في العقود السابقة إلى نحو اثني عشر مليون غلدر إبان الفترة ١٦٥٠-١٦٦٠[٩٢].

وشرع الهولنديون في انتزاع سيلان من السيطرة البرتغالية في العام ١٦٣٨، بتشكيل تحالف مع راجاسينها الثاني Rajasinha II حاكم مملكة كاندي Kandy الداخلية. واستطاعت شركة الهند الشرقية الهولندية بمواردها الكبيرة أن تستولي على كولومبو Colombo من البرتغاليين في العام ١٦٥٦ بقوة مكونة من ألفي جندي هولندي وقوات مساعدة سيلانية، وسرعان ما سيطروا على الجزيرة كاملة. واستولوا على جافنة Jaffna في العام ١٦٥٧ وضموها إلى ممتلكات حليفهم السابق ملك كاندي، ما أعطى الشركة القدرة على احتكار تجارة القرفة الثمينة بنجاح والسيطرة على التصدير المربح للفيلة إلى الإمبراطورية المغولية والممالك الهندية الأخرى. واستولت قوات شركة الهند الشرقية الهولندية على سلسلة من الحصون والمحطات التجارية البرتغالية على ساحل مالابار في أوائل العقد السابع من القرن السابع عشر، منها كوشين في العام ١٦٦٣. ولم يبق للبرتغاليين غير غوا ومكاو اللتين أنقذوهما من هجوم هولندي في العام ١٦٢٢ وبقيتا معاقل للبرتغال في آسيا، إلى جانب تيمور Timor وسولور Solor في جزر سوندا الصغرى. وفي جزر الهند الشرقية، أبعدت شركة الهند الشرقية الهولندية الإنجليز تماماً من جزر الباندا، والإسبان من تيرنيت وتيدور، وعززوا موقعهم في جاوة وسومطرة. واستولوا على سلطنة ماكاسار القوية على جزيرة سولاويزي (سيليبيز) في أواخر العقد السابع من القرن السابع عشر، من خلال التحالف مع خصومها البوغيزيين[٥٨]، وبذلك منعوها من التجارة مع المنافسين الإنجليز أو غيرهم، ما ساعد في رفع أرباحهم من تجارة القرنفل والتوابل الأخرى وقضى على الإنتاج الفائض في بعض المناسبات بالإبعاد القسري لسكان المناطق التي كانت تزرع هذه التوابل.

---

(٥٨) البوغيزيون Bugis أكبر الجماعات العرقية واللغوية عدداً في سولاويزي الجنوبية بإندونيسيا، ترجع أصولهم إلى الأوسترونيزيين الذين استوطنوا الجزر قبل ألفين وخمسمئة عام من الميلاد [المترجم].

وتعد حملات شركة الهند الشرقية الهولندية على كاندي وماكاسار أمثلة جيدة للإمبريالية الأوروبية المبكرة في آسيا التي كانت مؤشراً للتباعد عن النمط البرتغالي الأصلي ومقدمة للنشاطات الإنجليزية والفرنسية بعد أكثر من قرن. فبينما ظل البرتغاليون قانعين بتأسيس قلاع ومحطات تجارية في مواقع إستراتيجية والاعتماد على القوة البحرية وحدها في محاولة السيطرة على التجارة، كانت شركة الهند الشرقية الهولندية مستعدة لقطع خطوة أبعد في تأسيس القوة الاحتكارية من خلال السيطرة الفعلية على المناطق التي كانت تُنتَج فيها سلع مثل جوز الطيب والقرنفل والقرفة. وكما يقول سيناباه أراساراتنام Sinnappah Arasaratnam، فإن "التوسع الإقليمي للهولنديين في آسيا كان نتيجة مباشرة لسياستهم التجارية"[٩٣]. لكن هذه المكاسب الكبيرة لم تعوض النكسات التي تعرضوا لها في الشرق الأقصى، حيث أدت سياسة العزلة من جانب شوغونية توكوغاوا إلى توقف إمدادات الفضة اليابانية، كما طُرِد الهولنديون من تايوان في العام ١٦٦١. والدرس الذي تعلمته النزعة القومية الآسيوية المستقبلية من هذه الأحداث كان واضحاً: حين تكون هناك دولة آسيوية موحدة قوية مثل دولة توكوغاوا اليابانية أو إمبراطورية تشينغ الصينية، يمكن حصر الأوروبيين في الهوامش، بما ينتج تجارة مفيدة للطرفين، لكن حين تكون الأراضي الآسيوية مقسمة بين خصوم داخليين، كما كانت الحال في الأرخبيل الإندونيسي أو سيلان، يقع الآسيويون فريسة سهلة للقوة الأوروبية الضارية.

كانت الأقمشة من ساحل كوروماندل الشرقي بالهند السلعة التي تمتعت بأعلى مستوى من الطلب في الأرخبيل، في مقابل التوابل. ولذلك أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية "مصنعين" أو محطتين تجاريتين في المنطقة، واحدة في ماسوليباتام(٥٩) والأخرى في بوليكات Pulicat، إبان العقد الأول من القرن السابع عشر. وكما أوضح رايشوظوري Raychaudhuri، فإن سلطان الدكن كان متلهفاً لاستقبال الشركة في ممالكه، كما يتأكد من إعفائه للشركة من رسم الطابع على الأقمشة (بقيمة ١٢٪)

---

(٥٩) ماسوليباتام Masulipatam مدينة ومنطقة على الساحل الشرقي للهند تسمى حالياً ماتشيليباتنام Machlilipatnam [المترجم].

الذي كان مفروضاً على المشترين الآخرين جميعاً، وكذلك التجار المحليين، وهي طريقة تشبه الممارسة الحالية من جانب كثير من الدول النامية لجذب الاستثمار الأجنبي[٩٤]. لكن ذلك لم يمنع موظفيه الجشعين وسلطاته المحلية الأخرى من مضايقة الشركة بشتى الطرق لابتزاز رشاوى منها. وكانت الحرب الدائمة تقريباً والمجاعات الدورية التي كانت تضرب المنطقة عوائق أخرى كبلت التجارة. لكن على الرغم من هذه الصعوبات، كان عرض الأقمشة نفسه مرناً جداً، فلم تكن المشتريات يقيّدها غير رأس المال الذي كانت الشركة تستطيع أن تحشده في كل عام في شكل المعادن النفيسة التي كانت وسيلة الدفع الوحيدة المقبولة(٦٠). وواصلت صادرات الأقمشة الارتفاع بثبات على مدار القرن، ولم تقتصر على مبادلة التوابل في الجزر، بل تعدتها إلى أوروبا وحتى اليابان وبلاد فارس، ما جعل منسوجات كوروماندل القطنية سلعة عالمية تتداولها شركة الهند الشرقية الهولندية. وارتفعت حصة أقمشة كوروماندل ومنسوجاتها الأخرى كحصة من إجمالي المبيعات في أمستردام من ١٧٪ في الأعوام ١٦٤٨–١٦٥٠ إلى ٤٣٪ في الأعوام ١٦٩٨–١٧٠٠، ما يعني أنها تجاوزت التوابل والفلفل التي انخفض نصيبها من ٥٨٪ إلى ٣٧٪ إبان الفترة نفسها[٩٥]. وبذلك أصبح "الذراع الأيسر" لشركة الهند الشرقية الهولندية، كما أُطلِق على تجارة كوروماندل، أقوى من "الذراع الأيمن" المتمثل في تجارة التوابل من الأرخبيل.

لم تكن الأقمشة بحال من الأحوال المادة الوحيدة التي كان الهولنديون يصدّرونها من كوروماندل. فكانت النيلة سلعة أخرى عليها طلب قوي في كل من أوروبا وآسيا، وحاولت الشركة تشجيع زراعتها في المنطقة. ربما كانت السلعة التصديرية المذهلة فعلاً هي البارود الذي كان يُصنَع من الملح الصخري المحلي، الذي ذكر رايشوظوري أنه كان يلبي متطلبات الشركة الكبيرة، فضلاً عن تصديره إلى أوروبا لتلبية الطلب الناتج عن حرب الثلاثين عاماً. وتطورت أيضاً التجارة في العبيد بفعل المجاعات المتكررة، لكنها لم تصل إلى مستويات كبيرة، على الرغم من جهود كوين

(٦٠) كلما زادت مرونة العرض والطلب، ازداد تجاوب المنتَجين والمستهلكين لتغييرات الأسعار. انظر مثالاً لتأثير المرونة على النتائج الاقتصادية في الشكل رقم (٦.٥) والمناقشة المصاحبة له.

لتشجيعها. وقد رفض أحد أمراء الحرب الهندوس المحليون عروضاً بأن يوفر العبيد قائلاً إنه يرى ذلك إثماً كبيراً في نظر الآلهة. وفي هذه الحالة- على الأقل- كانت الآلهة الهندوسية أكثر رحمة من الإله الكالفيني لكوين. وعملت محطات كوروماندل أيضاً كقاعدة ملائمة لتشجيع التجارة مع البنغال وبورما وسيام وشبه جزيرة الملايو.

وعلى ذلك، يمكن القول إن السنوات الخمسين الأولى لشركة الهند الشرقية الهولندية كانت ناجحة بشكل منقطع النظير. فارتفع عدد السفن التي ترجع من آسيا إلى موانئ الشركة بثبات من عقد إلى آخر، من خمسين سفينة إبان العقد الثاني من القرن، إلى مئة وثلاث سفن إبان العقد السادس، ثم إلى مئة وست وخمسين سفينة إبان العقد الأخير من القرن، فيما ارتفعت أسعار الأسهم في بورصة أمستردام أربعة أضعاف تقريباً بين العامين ١٦٢٥ و١٦٤٨[٩٦]. ويذكر دي فريز وفان دير ووده de Vries and van der Woude أن إجمالي الأرباح التي دفعتها شركة الهند الشرقية الهولندية لحملة الأسهم حتى العام ١٦٥٠ كان ثمانية أضعاف الاستثمار الأصلي، وكان معدل العائد السنوي لحامل الأسهم الذي احتفظ بالأسهم حتى العام ١٦٥٠ هو ٢٧٪[٩٧].

على أن التجارة الهولندية العابرة للقارات في هذا العصر لم تقتصر بحال من الأحوال على شركة الهند الشرقية الهولندية وآسيا. فبداية من العقد الأخير بالقرن السادس عشر فصاعداً، كان الهولنديون نشطين في المحيط الأطلسي أيضاً، سواء على الساحل الغربي لأفريقيا أو الساحل الشرقي للأمريكتين. فعلى ساحل غينيا، كانت السفن الهولندية في البداية تتاجر في الذهب والعاج، قبل أن تشارك بقوة لاحقاً في تجارة العبيد. وكانت الحرب مع إسبانيا قد قطعت عليهم الوصول إلى الملح اللازم لتجارة الرنغة في المياه البرتغالية والإسبانية، فأرسلوا أساطيل ضخمة لاستغلال رواسب واسعة على الساحل الفنزويلي وفي الكاريبي، قبل أن توقفهم إجراءات إسبانية مضادة عنيفة، كانت في معظم الأحيان تعدم البحارة الهولنديين باعتبارهم متطفلين إجراميين. وفي أمريكا الشمالية كان الهولنديون يقايضون الفؤوس والسكاكين مع السكان الأهليين في مقابل فراء القندس والقضاعة، وفي الكاريبي كانوا يفعلون الشيء نفسه في مقابل الجلود. وكما في حالة جزر الهند الشرقية، أدت المنافسة بين

التجار الهولنديين إلى خفض هوامش الربح كثيراً في كل هذه التجارة، وبالفعل جربوا العلاج المألوف المتمثل في تشكيل شركة محاصة متحدة، هي شركة الهند الغربية West-Indische Compagnie (WIG) التي تأسست بعد تسعة عشر عاماً من شركة الهند الشرقية الهولندية في العام ١٦٢١ وبرأس مال أولي أكبر منها ومجلس إدارة مكون من تسعة عشر عضواً، عُرِف كسابقه باسم مجلس التسعة عشر.

كانت حرب الثلاثين عاماً تدور رحاها في أوروبا في ذلك الوقت، وكان على شركة الهند الغربية في المحيط الأطلسي أن تواجه القوة الكاملة لإسبانيا الهابسبرغية والبرتغال. وقد حققت فعلاً بعض النجاحات الأولية البارزة. ففي غرب أفريقيا، انخفض سعر الذهب على ساحل غينيا بقيمة الأدوات النحاسية إلى النصف من خلال القضاء على المنافسة[٩٨]. وفي الكاريبي، استولى أمير البحر بيت هاين Piet Heyn على أسطول المعادن النفيسة الإسباني خارج ساحل كوبا في العام ١٦٢٨، الذي بلغت قيمته أحد عشر مليون غلدر[٩٩]. وعلى الجانب الآخر، كانت سفن القرصنة الفلمنكية المنطلقة من دنكيرك تسبب دماراً كبيراً للسفن الهولندية أو تحطم المئات من حافلات الرنغة أو تستولي عليها، وكانت أحياناً تتمكن من اصطياد كنوز ثمينة مثل السفن التجارية الثمانية المليئة بالبضائع التي كانت قادمة من أركانجل في العام ١٦٤٢[١٠٠]. ويذكر باركر Parker أن القراصنة استولوا على أكثر من ألف وثمانمئة سفينة، هولندية بالدرجة الأولى، أو دمروها، من العام ١٦٢٦ إلى العام ١٦٣٤[١٠١]. ويذكر إزرائيل أن السفن الهولندية المتوجهة من البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط كانت تسقط في أيدي القراصنة بنسبة أعلى من ٩٠٪ في الأعوام السبعة الأولى من العقد الثالث من القرن السادس عشر.

وفي العام ١٦٢٤، استولى الهولنديون على باهيا Bahia، وهي القاعدة البرتغالية الرئيسة في البرازيل، لكن البرتغاليون استردوها بعد عام بأسطول أيبيري مشترك ضخم. واستولى الهولنديون في العام ١٦٣٠ على موطئ قدم آخر لهم في ريسيفي Recife في بيرنامبوكو Pernambuco، وشرعوا في تطوير مزارع سكر باستخدام

عبيد من غرب أفريقيا(٦١). ويذكر إزرائيل أن الهولنديين باعوا أكثر من ثلاثة وعشرين ألف عبد في ممتلكاتهم البرازيلية من العام ١٦٣٦ إلى العام ١٦٤٥، ما رفع تصدير السكر من ثلاثة آلاف وستمائة صندوق في العام ١٦٣٨ إلى تسعة آلاف وخمسمئة في العام ١٦٤٣[١٠٢]. لكن بعد ذلك بوقت قصير، انهار موقف الهولنديين في البرازيل تماماً حين ثار عليهم السكان في ممتلكاتهم، الأفارقة والهنود والمهجنون بالدرجة الأولى، بمساعدة إخوانهم في المنطقة البرازيلية الجنوبية التي كانت لا تزال تحت سيطرة البرتغال، ونجحوا في طرد الهولنديين بحلول العام ١٦٥٤. وفي العام ١٦٤٧، قُدّرت أرباح شركة الهند الغربية بأربعمئة ألف فلورين في البرازيل، لكنها أنفقت مليون ومائة ألف فلورين على الدفاع[١٠٣]. وبعد هذه الكارثة، تخلت شركة الهند الغربية عن محاولة تشجيع تجارتها في العالم الجديد بالقوة العسكرية، وأخذت تعتمد منذ ذلك الحين على وسائل سلمية، وإن كانت غير أخلاقية، ووجدت تعويضاً في تصدير العبيد عبر المحيط الأطلسي من غرب أفريقيا.

يذهب بوكسر إلى أن نزاع القرن السابع عشر بين الجمهورية الهولندية والقوتين الأيبيريتين الهابسبرغيتين كان أحق باسم الحرب العالمية الأولى من حرب الأعوام ١٩١٤-١٩١٨، لأنه "جرى على أربع قارات وفي سبعة أبحر"[١٠٤]. وكانت تكاليف الحرب، أياً كان اسمها عالمية أم لا، مذهلة حقاً، كما كشف جيفري باركر[١٠٥]. وقد أدت الحرب وعمليات الحصار إلى تدمير جنوب هولندا، وبخاصة مقاطعتي فلندرة وبرابانت اللتين كانتا في صدارة النمو الاقتصادي الأوروبي منذ العصور الوسطى. ومع أن هولندا تمكنت من التعافي، إلا أنها لم تستعد مكانتها القيادية في أوروبا حتى الثورة الصناعية إبان القرن التاسع عشر. وأنهكت إسبانيا نفسها في هذا النزاع، وأنفقت كنوز جزر الهند الغربية وأضعافها على القوات العسكرية الضخمة التي كانت مضطرة للاحتفاظ بها في هولندا. فيذكر باركر أن الثروات الملكية القادمة من جزر الهند الغربية إبان الفترة ١٥٧١-١٥٧٥ بلغت نحو أربعة ملايين دوكاتية، فيما بلغ الإنفاق على

---

(٦١) باهيا Bahia وريسيفي Recife وبيرنامبوكو Pernambuco مدن ومناطق برازيلية على ساحل الأطلسي [المترجم].

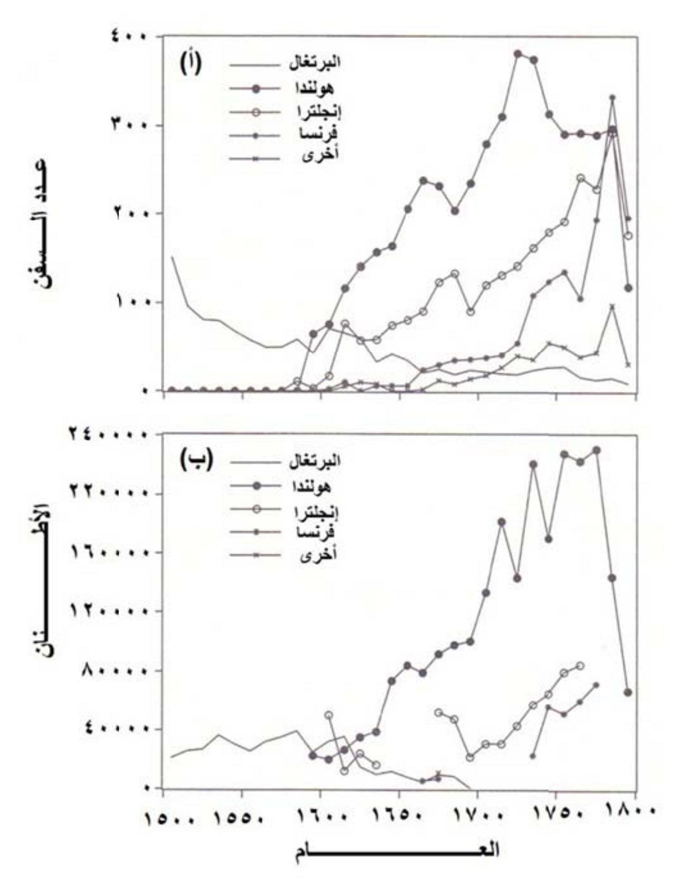
الجيش الإسباني في فلندرة إبان الفترة نفسها تسعة ملايين دوكاتية، وعلى أسطول البحر الأبيض المتوسط خمسة ملايين دوكاتية، وكان العجز البالغ عشرة ملايين يُوفر من خلال فرض ضرائب قاسية في قشتالة نفسها واللجوء إلى الاقتراض الهائل من المصرفيين الجنويين وغيرهم من الإيطاليين بالدرجة الأولى. وارتفع الدين الوطني من ستة وثلاثين مليون دوكاتية حين اعتلى فيليب الثاني العرش في العام ١٥٥٦ إلى خمس وثمانين مليوناً عند موته في العام ١٥٩٨، ثم إلى مئة وثمانين مليوناً في العام ١٦٦٧[١٠٦]. وكان عبء الحرب على البرتغاليين الذين تفاقمت عداوتهم للهولنديين باتحاد التاجين الأيبيريين في العام ١٥٨٠، مدمراً بكل معنى الكلمة، إذ كلفتهم الحرب- كما رأينا- أفضل المناطق في إمبراطوريتهم الآسيوية. وحين انفصلت البرتغال عن إسبانيا في العام ١٦٤٠، كان الأوان قد فات، لأن الهولنديين كانوا قد أجهزوا على إمبراطوريتهم تماماً.

يتضح النجاح الهولندي جلياً في الأرقام المتوفرة حول الشحن. يعتمد الشكل رقم (٤،٥) على مسح جان دي فريز القيّم لتوضيح عدد السفن المغادرة إلى آسيا في عقد من البرتغال وهولندا وإنجلترا وفرنسا ودول أوروبية أخرى. ونظراً لأن هذه السفن لم تعد جميعها إلى أوروبا، حيث استخدم بعضها لأغراض تجارية أو عسكرية في المياه الآسيوية، بينما فُقِد غيرها، ونظراً لأن السفن كانت تتفاوت في الحجم عبر الدول والزمن، يوضح الشكل أيضاً الحمولة الطنية(٦٢) التي عادت من آسيا إلى أوروبا على مدار الفترة نفسها. وكما يتضح من الشكل، فإن البرتغاليين تمتعوا باحتكار كامل لطريق رأس الرجاء الصالح طوال معظم القرن السادس عشر. وفي حين استمر عدد السفن التي أرسلوها إلى آسيا بالانخفاض على مدار القرن من مئة وإحدى وخمسين سفينة إبان العقد الأول إلى ثلاث وأربعين سفينة فقط إبان العقد الأخير من القرن السادس عشر، فقد عُوِّض هذا النقص في عدد السفن بالزيادة في الحجم المتوسط للسفن (من ٢٨٣.٣ طن إبان العقد الأول من القرن السادس عشر إلى ١١٤٤.٢ طن

---

(٦٢) الحمولة الطنية tonnage مقياس للسفن من حيث حمولتها بالأطنان، نظراً لاختلاف حجم السفن وسعتها [المترجم].

إبان العقد الأخير من القرن نفسه) والزيادة في نسبة السفن التي عادت إلى البرتغال من ٥٨٪ إلى ٩٣٪ على مدار الفترة نفسها. وتمثلت نتيجة ذلك، كما يوضح الشكل، في نمو بطيء، لكن ثابت، في الحمولة الطنية العائدة إلى لشبونة على مدار القرن، ولم تنخفض إلا إبان العقد الأخير من القرن، وهو العقد الذي ظهر فيه الهولنديون لأول مرة في المياه الآسيوية.



الشكل (٤- ٥) التجارة حول رأس الرجاء الصالح إبان الفترة ١٥٠٠- ١٨٠٠: (أ) أعداد السفن المبحرة إلى آسيا لكل عقد، (ب) الحمولة الطنية العائدة إلى أوروبا

المصدر: de Vries (2003)

وبداية من هذه النقطة فصاعداً، بدأ الهولنديون يرسلون سفناً إلى آسيا أكثر من البرتغاليين أو أية دولة أخرى، واستمرت هذه الميّزة لقرنين تقريباً حتى العقد التاسع من القرن الثامن عشر. ونظراً لأن السفن الهولندية (والبرتغالية) كانت دائماً أكبر من السفن الإنجليزية أو الفرنسية، فإن الميّزة الهولندية في أعداد السفن المبحرة تتحول إلى ميْزة أكبر من حيث الحمولة الطنية العائدة إلى أوروبا. أما بالنسبة للبرتغاليين، فقد أخذت الحمولة الطنية إلى لشبونة تتراجع بثبات طوال القرن السابع عشر. وبحلول منتصف القرن، لم تعد البرتغال منافساً جدياً على طريق رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفوه قبل قرن ونصف. وكانت الأسبقية في التجارة العابرة للقارات بين أوروبا وآسيا قد انتقلت بوضوح إلى شركة الهند الشرقية الهولندية والجمهورية الهولندية، على الرغم من اضطرارهم لمقاومة منافسيهم الإنجليز لكي يحتفظوا بصدارتهم.

على أن الهولنديين، كما يثبت باركر، لم يحققوا انتصارهم بسهولة. فقد تطلبت مقاومة الجيوش الإسبانية الضخمة مبالغ كبيرة سنوياً، ارتفعت من ثلاثة ملايين فلورين في العام ١٥٩١ إلى تسعة ملايين في العام ١٦٠٧، ثم ثلاثة عشر مليوناً في العام ١٦٢٢، ثم تسعة عشر مليوناً في العام ١٦٤٠[١٠٧]. ولذلك اضطروا إلى رفع الضرائب، وبلغ الدين الوطني لمقاطعة هولندا وحدها مئة وثلاثة وخمسين مليون فلورين في العام ١٦٥١. لكن الفرق الكبير عن إسبانيا هو أن معظم هذا الدين كان داخلياً من أمستردام وبأسعار فائدة انخفضت من ١٠٪ إبان العقد الأول من القرن السابع عشر إلى ٥٪ إبان العقد الخامس من القرن نفسه، إلى ٤٪ بعد العام ١٦٥١، وذلك بفضل النزوع الكبير لدى الهولنديين نحو الادخار، على الرغم من طريقة الحياة المسرفة لأمراء التجارة وطبقة الحكام.

كانت شركة الهند الشرقية الهولندية- كما رأينا- مربحة جداً، لكنها استغرقت عقوداً لحشد بنيتها التحتية العسكرية والتجارية، فيما كانت شركة الهند الغربية قضية خسارة على مدى سنوات وجودها كلها تقريباً. ويمكن الدفع بأن تجارة المسافات الطويلة العابرة للقارات على الرغم من كل بريقها ورونقها، كان إسهامها في الازدهار الحقيقي للعصر الذهبي الهولندي أقل من "التجارة الأم" الرتيبة في البلطيق وصيد

الرنغة. فمن بين أربعة الآلاف وثلاثمئة سفينة التي شَغّلها الهولنديون في العام ١٦٣٤، ضم أسطول الصيد ألفين ومئتين وخمساً وعشرين سفينة، وأسطول البلطيق والبحر الأبيض المتوسط ألفاً وسبعمئة وخمسين سفينة، فيما لم يكن أسطول جزر الهند الشرقية والغربية يزيد على ثلاثمئة سفينة[١٠٨]. ولذلك يجب ألا تفوتنا حقيقة أن التجارة الأوروبية الداخلية وكذلك التجارة الآسيوية الداخلية في العصر الحديث المبكر كانت أكبر كثيراً في الحجم والقيمة من تجارة التوابل والحرير والعبيد التي كانت تعبر محيطات العالم. على أن ذلك لا يعني بحال من الأحوال إنكار أهمية ما تحقق إبان الفترة ١٥٠٠- ١٦٥٠ على طريق خلق بدايات اقتصاد عالمي بمعنى الكلمة.

روسيا والسويد ومنطقة البلطيق ١٥٠٠–١٦٥٠

قبل أن نترك أوروبا، قد يكون من المفيد أن نتوقف قليلاً لالتقاط خيوط قصة صعود روسيا التدريجي إلى الصدارة كقوة أوراسية رئيسة، لأن ذلك يقدم مثالاً آخَر مدهشاً للنزعة التوسعية الأوروبية في تلك الفترة. رأينا فيما سبق أن دوقية موسكو الكبرى حققت في عهد إيفان الثالث وفاسيلي الثالث توسعاً هائلاً، حتى إن إيفان الرابع (١٥٣٣–١٥٨٤) حين ورث عرش أبيه وهو طفل في الثالثة من عمره كان حاكماً لدولة قومية قوية. وأطلقت تطلعاته في شبابه صراعاً ممتداً على السلطة بين أحزاب أرستقراطية مختلفة، انتهى بتتويجه قيصراً لكل روسيا في العام ١٥٤٧، وليس أميراً أكبر لموسكو وحسب. وزعم إيفان أنه وريث الأباطرة البيزنطيين ورأس "روما الثالثة"، لكنه على الرغم من هذه الادعاءات عُرِف أكثر للتاريخ باسم إيفان الرهيب. ففي فترة مبكرة من عهده، قوى الجيش بإنشاء كتائب المسكيتيين[٦٣]، المعروفة باسم استريليتس streltsy، لتكون متمماً لسلاح الفرسان التقليدي، كما عزز سلاح المدفعية وأرتال الحصار. وقد أثمرت هذه الإجراءات ضمان النصر الكبير على خانية قازان في منطقة الفولغا الوسطى في العام ١٥٥٢ الذي فتح الطريق شرقاً إلى سيبيريا، وعلى نهر

---

(٦٣) المسكيتي هو الجندي المسلح بالمسكيت musket وهي بندقية قديمة الطراز كانت خاصة بجنود المشاة [المترجم].

الفولغا إلى اصطراخان[٦٤] على بحر قزوين. وضُمّ الكثير من نبلاء التتر إلى الخدمة الروسية في هذه المرحلة، ما عزز سلاح الفرسان الذي تمكن إيفان من نشره ضد القبائل التترية المستقلة، وفي الحرب التي شنها بعد ذلك على ليفونيا[٦٥] في الغرب.

اعتبر الروس فتوحات قازان، ولاحقاً خانية اصطراخان، انتصارات للحملة الصليبية المسيحية الأرثوذكسية ضد المسلمين الكفار. لكن هذه الفتوحات أدخلت موسكو في نزاعات مطولة مع التتر القرميين والإمبراطورية العثمانية على حدودها الجنوبية. لكن في الشرق، "كان غزو قازان بداية لعملية ضم سيبيريا"[١٠٩]. وكان ضم سيبيريا بدوره العامل الأهم المسؤول عن تحول موسكو القارية المحاصرة إبان القرون الوسطى إلى الإمبراطورية الكبرى لبيتر الأكبر وكاثرين الكبرى. وقد رخّص إيفان لسلالة من النبلاء تدعى استروغانوف Stroganovs ممارسة الاستعمار وجمع الفراء فيما وراء تخوم قازان، وألحقت فرقة من القوزاق[٦٦] هزيمة بخان سيبيرين[٦٧] في العام ١٥٨٢، ما فتح سيبيريا الفسيحة أمام التوسع والاستعمار الروسيين. فشقّت أعداد صغيرة من الصيادين، تلتها قوات ومستوطنون، طريقهم تدريجياً إلى الشرق على طول سلسلة من الحصون والمحطات التجارية، إلى أن وصلوا إلى المحيط الهادي في أوخوستك Okhotsk بحلول العقد الخامس من القرن السابع عشر. وكان فراء السمور والقاقم وأنواع الفراء الثمينة الأخرى تُجمَع في الغالب في شكل جزية من القبائل المحلية التي أمكن التغلب على مقاومتها للاستغلال الروسي بسهولة ووحشية.

ومع أن المبادرة للتوسع كانت خاصة، فإن الحكومة في موسكو كانت تشرف

---

(٦٤) اصطراخان Astrakhan حالياً مدينة ومنطقة بجنوب روسيا الأوروبي [المترجم].

(٦٥) ليفونيا Livonia إقليم قديم مستقل على الشواطئ الشرقية لبحر البلطيق، تتقاسمه حالياً إستونيا ولاتفيا [المترجم].

(٦٦) القوزاق Cossacks مجموعة عرقية من السلاف الشرقيين يقطنون السهول الجنوبية في شرق أوروبا وروسيا وكازاخستان وسيبيريا، شكّلت خطاً من القلاع والحصون كان يمتد من نهر الفولغا الأوسط باتجاه مدينتي ريازان وتولا ثم ينعطف نحو الجنوب ويصل إلى نهر الدنيبر في منطقة مدينتي بوتيفل وبيرياسلاف [المترجم].

(٦٧) سيبيرين Sibirin أو سيبير Sibir خانية تركية مغولية في سيبيريا الغربية [المترجم].

على العملية من خلال إدارة متخصصة لسيبيريا أنشئت في العام ١٦٣٧ لضمان أن تحصل الدولة على العُشر من أفضل الفراء. ولم يكن الهدف هو ضم إقليم بغرض الزراعة والاستيطان المكثف، وإنما انتزاع الثروة من خلال تجارة الفراء، وكان الجنود والإداريون والمستوطنون مجرد البنية التحتية المطلوبة للحصول على إمدادات الفراء. ولم تعر عملية جمع الفراء انتباها لاعتبارات الاستمرارية البيئية، فكانت العملية تتحرك شرقاً أكثر فأكثر كلما استنفدت الإمدادات. وبحلول القرن التاسع عشر، أصبحت إلدورادو El Dorado موطن الفراء مجرد بريّة متجمدة، ولم تعد تصلح إلا كمنفى للمدانين والمنشقين السياسيين. لكن في أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، كان الفراء السيبيري مصدراً رئيساً للثروة للإمبراطورية الروسية. وارتفع عدد السكان الروس في سيبيريا من مئة وتسعة وستين ألفاً من الذكور البالغين في العام ١٧١٩ إلى أربعمئة واثنى عشر ألفاً في العام ١٧٩٢[١١٠].

وإلى الغرب، كانت الموانئ الكبرى مثل ريفال (طالين Tallin) وريغا مدناً حرة أو جمهوريات تجارية، بينما تراجع فرسان الفرقة الليفونية كثيراً عن حالة القوة القتالية الهائلة التي تميّزوا بها في السابق. ولذلك حقق الهجوم الروسي في العام ١٥٥٨ نجاحاً أولياً كبيراً، إذ استولى الروس على دوربات Dorpat ونارفا Narva، لكنهم فشلوا أمام ريغا وريفال. وبمجرد استيلاء إيفان على نارفا، تقاطرت عليها السفن من مختلف أنحاء شمال أوروبا للتجارة معه وكانت هذه السفن محل ترحيب[١١١]. فقد استخدم إيفان نارفا كمنفذ لصادرات روسيا التقليدية مثل الفراء ولاستيراد الأسلحة والإمدادات العسكرية. وكانت المبيعات التجارية وفيرة ومتنوعة جداً لدرجة أن أسعار معظم المواد، بما في ذلك المعادن النفيسة، كانت أدنى هناك منها في موانئ البلطيق الأخرى. وقد انعكس حجم التجارة في نارفا في الزيادة الكبيرة في عدد السفن التي كانت تمر من هناك خلال مضيق إلزينور Elsinore، التي بلغت ستاً وسبعين سفينة على الأقل في العام ١٥٦٧، ويؤكد كيرشنر Kirchner أن التجارة في نارفا كانت تشمل بالتأكيد مئات السفن في العام، ما جعل منها منافساً لريغا التي كانت الميناء الأكبر في شرق البلطيق.

فقد حدث تدافع على المشاركة في الإمكانات التجارية التي فتحها التدخل الروسي. وأدى التنافس الناتج إلى اندلاع حرب السبعة أعوام الشمالية (١٥٦٣-١٥٧٠) التي قامت فيها السويد بعد الاستيلاء على ريفال في العام ١٥٦١، بشن الحرب على الدنمرك وبولندا وليتوانيا ولوبيك وهو الميناء الرئيس للرابطة الهانزية. وظلت روسيا محايدة، فازدهرت نارفا بانفتاحها أمام التجارة من كل الاتجاهات. لكن في النهاية لم يكن منافسو روسيا الأقوياء مستعدين للوقوف مكتوفي الأيدي أمام هذه المكاسب الكبيرة التي حققتها روسيا. فتدخلت الدنمرك والسويد، والأهم كثيراً منهما مملكة بولندا - ليتوانيا، فوجد إيفان نفسه متورطاً في أعمال عدائية مطولة على طول جبهة غربية ممتدة. واستغل التتر القرميون الموقف أيضاً لشن غارة مدمرة على موسكو في العام ١٥٧١. واندمجت بولندا وليتوانيا في مملكة ثنائية أو كومونويلث بمقتضى معاهدة لوبلين Lublin في العام ١٥٦٩، وانتخبتا الأمير الترانسلفاني ستيفن باتوري Stephen Batory (١٥٧٦-١٥٨٦) حاكماً لهما. واتضح أنه قائد عسكري عظيم، إذ هدد دفاعات روسيا الغربية في عدة نقاط. وسيطر السويديون على معظم الشريط الساحلي حول خليج فنلندا، واستولوا على نارفا في العام ١٥٨١.

كان لا بد من التوصل إلى سلام مع مملكة بولندا- ليتوانيا عبر هدنة يام زابولسكي Yam Zapolskii في العام ١٥٨٢ التي أعادت الحدود إلى وضعية ما قبل الحرب، واعترفت للسويديين بالوضع الراهن غير المواتِ تماماً للجانب الروسي. واستغرق الأمر قرناً ونصف قرن تقريباً لفتح النافذة البلطيقية من جديد على يد بيتر الأكبر. ويدفع كيرشنر بأن روسيا لو تمكنت من الحفاظ على نارفا وتثبيت أقدامها فيها، لتسارعت عملية تغريب Westernization روسيا خلال كل هذا الوقت الذي ضاع. لكن بدلاً من ذلك، كان القرن السابع عشر قرناً مهدراً تقريباً من التاريخ الروسي، تميّز بالتوسع الناجح في سيبيريا والشرق كما رأينا، لكن على حساب تعزيز "الطابع الآسيوي" Asiaticization لبنيتها الاجتماعية السياسية[١١٢]، بمعنى اشتداد مركزية السلطة الاستبدادية عنها في الغرب.

وتدهور عهد إيفان الرابع بعد بدايته الواعدة إلى انفجار متواصل للعنف والقمع. وقد حاول المؤرخون الروس، للحقبتين القيصرية والسوفيتية على حد سواء، أن يبرروا حتى أكثر أفعال بيتر شذوذاً وسادية بأنها كانت مدفوعة بالمصالح القومية، على اعتبار أنها كانت خطوات ضرورية لبناء دولة قومية فعالة قادرة على مواجهة التهديدات الخارجية الكثيرة التي كانت تتهددها. فيما يدفع ريتشارد هيللي Richard Hellie وإيزابيل دي مادارياجا Isabel de Madariaga بصعوبة الإقرار بوجود أية ضرورة وراء إعدام آلاف الأبرياء وتعذيبهم، وذبح مدينة كاملة بعد ثورة نوفغورود المزعومة، من أجل التقدم الاجتماعي[١١٣]. ويقدم الهلع الحاد الذي استولى على ملك مستبد تفسيراً أكثر معقولية بكثير لهذه الأفعال الوحشية الجنونية غير المبررة التي انتهت بموته في العام ١٥٨٤. كما يصعب أيضاً قبول منطق المصالح القومية في وقت دُمِرت فيه البلاد وهُدِّمت لجيل على الأقل في أثناء الفوضى الناتجة عن النزاع على السلطة والمطالبين المزيفين بها وثورات الفلاحين والغزو من الخارج، التي عُرِفت في التاريخ الروسي باسم "زمن القلاقل"، وهي جميعاً أحداث أطلقتها الأفعال الوحشية التي كان إيفان الرابع نفسه مسؤولاً شخصياً عنها. لكن روسيا بدأت تتعافى وئيداً في عهد سلالة رومانوف الجديدة التي وصلت إلى السلطة في العام ١٦١٣ بتأييد عامة الناس وتهليلهم، في نشوة الفرحة بطرد جيش بولندي محتل من موسكو.

وتميّزت بقية القرن السابع عشر بالصراع الثلاثي المطول نفسه بين روسيا ومملكة بولندا- ليتوانيا والسويد. كان النزاع بين روسيا ومملكة بولندا-ليتوانيا على السيطرة على أوروبا الشرقية، وتحديداً أراضي بيلاروسيا وأوكرانيا الحاليتين. وكان البولنديون قد استردوا سمولنيسك في العام ١٦١١، ثم استعادها الروس بشكل دائم في العام ١٦٥٤. وأدت الثورة القوزاقية الكبرى إبان العقد السادس من القرن السابع عشر بقيادة بوغدان خملنيتسكي Bogdan Khmelnitsky إلى تدمير بولندا، ما مكّن روسيا من الاستيلاء على كييف وكل أوكرانيا شرق نهر الدنيبر من خلال هدنة أندروسوفو

Andrusovo في العام ١٦٦٧، وأكدت ملكيتها بمعاهدة أخرى في العام ١٦٨٦. وبات جلياً في ذلك الوقت أن الرابطة الكاثوليكية الرومانية المركبة لا تستطيع أن تحشد الوحدة والموارد الكافية لمجاراة عدوها الأرثوذكسي الاستبدادي.

كانت السويد خصماً هائلاً آخر لروسيا. فعلى الرغم من أن عدد سكانها لم يزد عن المليون بكثير، فقد كانت هذه الدولة تمر "بعصر عظمتها" باعتبارها القوة المهيمنة في شمال أوروبا والبلطيق. ترسخت دعائم قوة السويد بفضل الإدارة الحصيفة لجوستاف الأول فاسا Gustav I Vasa (١٥٢٣-١٥٦٠)، ما مكّن خلفاءه من مقاومة الدنمركيين والشروع في بناء إمبراطورية في فنلندا وليفونيا واستونيا، وهي الإنجازات التي تُوِّجت بالانتصارات العسكرية والدبلوماسية الرائعة لحفيده جوستاف الثاني أدولف Gustav II Adolf (١٦١١-١٦٣٢). وفي مقابل ضعف السويد بسبب أرضها الجدباء نسبياً ومواردها الزراعية الضئيلة، فقد كانت تمتلك مخزوناً ضخماً من خام النحاس والحديد، وفر لقواتها المسلحة "أوتار الحرب"، وإستُخدِم هذا المخزون أيضاً لتمويل الواردات المدنية الضرورية مثل القمح والملح في أوقات الطوارئ. وتوفرت الموارد البشرية اللازمة للمهمة الإمبريالية من خلال المجتمع المنفتح نسبياً المكون من طبقة نبلاء ريفية ومواطنين حضريين، جنباً إلى جنب مع تدفق رجال الأعمال والجنود الأجانب الموهوبين، في معظمهم من ألمانيا وهولندا واسكتلندا.

أجرى مايكل روبرتس Michael Roberts مقارنة بين رؤى ما يسمى المدرسة القديمة من المؤرخين السويديين ورؤى ما يسمى المدرسة الجديدة[١١٤]. ترى المدرسة القديمة أن الأمن القومي لدولة ضعيفة في بيئة عدائية كان الهدف الرئيس للمغامرات الإمبريالية من جانب السويد. فيما شدّدت المدرسة الجديدة على هيمنة الدافع الاقتصادي، تحديداً الرغبة في إحكام احتكار تجارة البلطيق المربحة، من روسيا على الطرف الشرقي إلى الدنمرك والمضيق على الطرف الغربي، ما أوجب السيطرة على موانئ رئيسة مثل نارفا وريفال وميمل Memel وريغا ودانزيغ وامتداداتها الداخلية. ودفع روبرتس وآخرون على نحو مقنع بأن الأدلة لا تؤيد تفسيراً اقتصادياً صارماً وضيقاً للسياسة السويدية، مع أن التجارة والرسوم الجمركية لم تغب يوماً. والقضية

هنا هي نفسها جدل "القوة في مقابل الوفرة" حول المركنتيلية الذي حسمه جاكوب فينر، وهذا الجدل سيكون البؤرة الرئيسة للفصل التالي، ومؤداه ببساطة أن إنجاز أحد الهدفين يعزز إنجاز الهدف الآخر[١١٥]. ومن الأحوط القول بأن الهدف السويدي تمثل في تأكيد السيادة على بحر البلطيق، لأن ذلك كان ضرورياً لإنجاز كل من الأمن القومي والسيادة الاقتصادية على المدى البعيد، بغض النظر عن أيهما كانت له الأسبقية.

كانت صادرات البلطيق الرئيسة تتمثل في القار والقطران والقنب والخشب، وهي جميعاً كانت مدخلات ضرورية للأساطيل التوسعية والأساطيل التجارية للهولنديين والإنجليز، وكانت تُنتَج بوفرة في النرويج وفنلندا وروسيا، فيما كانت السلع المصنعة والمنتجات الشرقية هي الواردات الرئيسة، فضلاً عن الواردات التقليدية المتمثلة في الملح وأسماك القد والرنغة. ومن بين الموانئ البلطيقية، كانت دانزيغ الواقعة على فم نهر فيستولا Vistula المنفذ الرئيس لصادرات القمح البولندية والواردات من أوروبا الغربية التي كانت تباع أعلى النهر وفي داخل البلاد في مقابل القمح. وكان القمح هو السلعة التصديرية الرئيسة، حيث شكّل من ٧٠ إلى ٨٠٪ من القيمة الإجمالية، لكن دانزيغ كانت أيضاً منفذاً للنحاس والرصاص والحديد المجري والسلع القادمة من ليتوانيا وروسيا التي كانت تنقل عبر نهر نيمن Niemen أو خلال كونيغسبرغ Konigsberg[١١٦]. وكان المقصد الرئيس لصادرات دانزيغ إبان القرن الخامس عشر هو لوبيك، وتحوّل إبان القرن السادس عشر إلى هولندا بالدرجة الأولى، ثم إلى إنجلترا إبان القرن السابع عشر. فقد اتخذ الإنجليز من ميناء إلبنغ Elbing الصغير مركزاً تجارياً للشركة الإنجليزية للأراضي الشرقية English Eastland Company من العام ١٥٨٠ إلى العام ١٦٢٨، ثم نقلوه بعد ذلك إلى دانزيغ.

إلى من آلت الهيمنة على ذلك العالم المزدهر للتجارة البلطيقية من بين هؤلاء المتنافسين الكثيرين؟ ظلت مدن الرابطة الهانزية تمتلك أساطيلها وشبكاتها التجارية، لكنها لم تكن تسيطر على مناطقها الداخلية، وكانت تفتقر إلى الموارد المالية والعسكرية اللازمة لمنافسة الدول القومية الناشئة في المنطقة. فكما حدث مع الفرسان التيوتونيين والليفونيين، أصبحت مدن الرابطة من مخلفات القرون الوسطى في العصر الحديث

المبكر. فقد كان باستطاعتها منافسة نوفغورود وبسكو أو حتى السيطرة عليهما حين كانتا دولتين مدينيتين جمهوريتين، لكن ليس بعد أن استوعبهما توسع التنين المسكوفي. وكان باستطاعة الجمهورية الهولندية أن تنقل معظم الشحن في البلطيق، لكنها كانت مشغولة بطرد الغاصبين الهابسبرغيين في الداخل وإدارة إمبراطوريتها الاستعمارية في جزر الهند الشرقية والغربية، وكانت تكسب المزيد من التجارة مع جميع الأطراف.

ولذلك حُسِم الصراع على السيادة على البلطيق إبان القرن السابع عشر لصالح السويد في عهد جوستاف الثاني أدولف، التي تفوقت بشكل حاسم على الدنمرك في عهد كريستيان الرابع، باعتبارها القوة الاسكندينافية القيادية في أثناء حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) وبعدها. تجلى هذا التحول في القوة النسبية للمملكتين في استيلاء السويد على إسكانيا في العام ١٦٥٨، ما أعطاها سيطرة مشتركة مع الدنمرك على المضيق الضيق الذي يفصل بحر الشمال وبحر البلطيق. وكانت مملكة بولندا-ليتوانيا قد ضعفت كثيراً بسبب الحرب التي شنها عليها ملك السويد تشارلز العاشر (١٦٥٤-١٦٦٠) من العام ١٦٥٥ إلى العام ١٦٦٠ المعروفة في التاريخ البولندي باسم حقبة "الطوفان"، مع أنها شهدت تعافياً قبل التقسيم الكارثي الذي تعرضت له من جانب روسيا وبروسيا، ثم النمسا لاحقاً إبان القرن الثامن عشر. وتراجعت تجارة دانزيغ بعد "الطوفان" وأخذت تخسر أمام موانئ أخرى مثل ريفال وريغا التي كانت تخضع للسويديين المنتصرين.

وعلى الرغم من هذه النجاحات العسكرية، لم تحقق السويد السيطرة الاحتكارية التي كانت تبتغيها على تجارة البلطيق. يرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى فتح طريق بحري جديد وفصل جديد في تاريخ التجارة العالمية، حين رسْت سفينة إنجليزية بقيادة ريتشارد تشانسيلور Richard Chancellor على شاطئ روسيا القطبي على أحد خلجان البحر الأبيض في العام ١٥٥٣. كانت سفينة تشانسيلور هي الناجية الوحيدة من ثلاث سفن كانت تحاول البحث عن ممر شمالي شرقي إلى الصين وجزر الهند الشرقية. شق تشانسيلور وأفراد طاقمه طريقهم إلى موسكو والتقوا بالقيصر الذي انتبه سريعاً إلى الأرباح الممكنة من التجارة. وعلى الرغم من أن هذا الممر كان مجمداً أغلب

العام، فإن شركة موسكو المكونة حديثاً في ميناء أركانجل دخلت في تجارة مربحة. وأخذت روسيا تصدّر سلعاً مثل الحبال والشمع والشحم والجلود والفراء والخشب في مقابل ثمر البلوط. وكان الكتان والقنب من الصادرات الروسية المهمة جداً، وكانا يشحنان في الغالب من موانئ البلطيق، بينما كان القمح يشحن من أركانجل في حالة واحدة فقط، وهي ارتفاع الأسعار كثيراً، لأنه في هذه الحالة فقط كان يمكن تحمل تكاليف النقل العالية عبر الطريق القطبي. وكانت واردات روسيا هي الأقمشة والأنسجة القطنية والمنتجات المعدنية والأسلحة ومواد الحرب والنبيذ والملح والمعادن النفيسة.

وفي العام ١٥٨٧، عاد ما لا يقل عن عشر سفن من أركانجل إلى إنجلترا، ويقال إن أربع عشرة أو خمس عشرة "سفينة تجارية ضخمة" كانت تبحر سنوياً إلى الميناء الواقع على البحر الأبيض ومنه إبان العقد الأخير من القرن السادس عشر. لكن لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتفوق الهولنديون على الإنجليز في تجارة أركانجل كما رأينا[١١٧]. ففي العام ١٦٠٠، رسّت ثلاث عشرة سفينة هولندية في أركانجل إلى جانب اثنتي عشرة سفينة إنجليزية، لكن في العام ١٦٠٤ كان عدد السفن الهولندية والإنجليزية سبع عشرة وتسعاً على التوالي. وفيما بعد، استمر توافد الهولنديين. وتمثلت الأسباب وراء النجاح الهولندي في سيطرتهم الكبرى على الموارد المالية والوصول إلى توابل الهند الشرقية، ما جعلهم أقدر على خدمة السوق الروسي بسفن أكبر وأقوى للطريق القطبي عالي الطلب، وتأسيس محطات تجارية في موسكو وفولوغدا Vologda لتخزين السلع الضرورية. وتمكّنوا أيضاً من توفير أقمشة صوفية مصبوغة وتامة الصنع أعلى جودة وتوفير إمدادات أكبر من الفضة لتلبية العجز في قيمة التجارة الغربية مع روسيا. وقام القيصر أليكسيس الساخط Indignant Alexis (١٦٤٥-١٦٧٦)، أبو بيتر الأكبر، بطرد الإنجليز في العام ١٦٤٩

بسبب ارتكابهم جريمة قطع عنق ملكهم(٦٨). وكانت تلك مرحلة الصعود المبكر للسبق الاقتصادي الهولندي ، كما أشرنا في معرض الحديث عن المنافسة الإنجليزية -الهولندية في جزر الهند الشرقية، وهو السبق الذي كان واضحاً أيضاً في المياه القطبية. ولا بد أن نلاحظ أيضاً الأدلة القوية على مدى العولمة التي تحققت في أوائل القرن السابع عشر، حيث كانت توابل الهند الشرقية وفضة العالم الجديد عوامل مهمة في تجارة أوروبا الشمالية.

وإلى جانب هذا الطريق الشمالي، توسعت التجارة البرية عبر بولندا بين أوروبا الشرقية والغربية إبان القرن السادس عشر، وواصلت النمو على الرغم من بعض الانتكاسات إبان القرن السابع عشر. فكانت قطعان كبيرة من الماشية تساق من سهول أوكرانيا والمجر ومولدافيا ووالاشيا الشاسعة للذبح في مدن غربية مثل أوغسبرغ ونورمبرغ وريغنسبرغ وأولم Ulm، مروراً عبر لوبلين Lublin وكراكوف Krakow وبوزنان Poznan وبريسلاو Breslau على طول الطريق. وكان الفراء والجلود الروسية وكذلك الشمع الروسي والبولندي ترسل براً أيضاً من نوفغورود وبسكو إلى مراكز مثل لايبزيغ Leipzig التي كانت تضم سوقاً شهيراً تُصرّف فيه هذه السلع في مقابل المنتجات الغربية.

يؤكد آتمان Attman، على خلاف الرأي السائد المعاكس، أن "وحدة السوق الروسي" كانت قد تحققت، وذلك لأن معظم السلع المتضمنة كان من الممكن نقلها عبر الطرق الثلاثة جميعها، أي عبر البحر الأبيض والموانئ البلطيقية وبراً عبر بولندا- ليتوانيا، وهو ما حدث كثيراً"[١١٨]. ورأي آتمان الذي ظهر لأول مرة في ورقة بحثية في العام ١٩٤٤، لقي تأييداً شديداً من آرن أوبيرغ Arne Ohberg[١١٩]. يشير أوبيرغ إلى طريق أركانجل باعتباره العامل الحاسم الذي منع السويديين من فرض الاحتكار الذي حلموا به طويلاً على التجارة الروسية مع الغرب. ولذلك ففي أثناء حرب الثلاثين عاماً

---

(٦٨) شهدت إنجلترا سلسلة من الحروب الأهلية بين العامين ١٦٤٢ و١٦٥١ بين أنصار البرلمان وأنصار المَلكية، وأعدم البرلمانيون الملك تشارلز الأول في عام ١٦٤٦ وأسسوا حكومة جمهورية برجوازية لمدة عشر سنوات، قبل أن تعود المَلكية في شخص تشارلز الثاني ابن الملك القتيل في العام ١٦٦٠ [المترجم].

التي سعى جوستاف الثاني أدولف ومستشاره أكسيل أوكسينتيرنا Axel Oxenstierna من خلالها إلى فرض الاحتكار على إمداد القمح البلطيقي إلى سوق أمستردام من خلال السيطرة على فيستولا، أدى الارتفاع الناتج في أسعار القمح إلى جذب صادرات القمح من أركانجل، ما أحبط المحاولة. وحاولت السويد بانتظام أن تحوّل تجارة أركانجل إلى الموانئ البلطيقية التي كانت تسيطر عليها بتقليل الرسوم الجمركية إلى ٢٪، فردّ الروس برفع رسوم التصدير عندهم لموازنة هذا الإغراء لتجارهم بالتخلي عن الطريق الشمالي. وفشلت الجهود الدبلوماسية السويدية لإقناع الروس بنقل تجارة أركانجل إلى الموانئ البلطيقية، لأن الروس لم يكونوا مستعدين لقبول مخاطرة الخضوع لاستغلال السويد إذا فعلوا ذلك، على الرغم من التطمينات الجدية من السويديين بأنهم لن يفعلوا ذلك. ويذكر أوبيرغ أن "طريق البحر الأبيض كان دائماً سبباً لعدم الإحساس بالأمن، حيث كانت الحكومة السويدية تضعه في الحسبان في أي إجراء تتخذه يتعلق بالتجارة البلطيقية"[١٢٠].

جنوب شرق آسيا إبان عصر التجارة

نتناول فيما يلي بعض نتائج رحلات الاستكشاف على المنطقة التي كانت على امتداد ذلك الوقت الهدف غير المقصود للرغبة الأوروبية، وهي جنوب شرق آسيا. لكن الوصول إلى منظور صحيح يستلزم أن نفحص الفترة ١٥٠٠- ١٦٥٠ من وجهة نظر جنوب شرق آسيا نفسها، وليس من وجهة نظر دولة الهند البرتغالية أو شركة الهند الشرقية الهولندية أو شركة الهند الشرقية البريطانية كما كنا نفعل حتى هذه النقطة، أو كما لو "كنا على ظهر سفينة هولندية" بالتعبير الشهير لفان لور van Leur[١٢١]. ومن ثم فإننا هنا نبحث حظوظ الكيانات السياسية بجنوب شرق آسيا، سواء على اليابسة الآسيوية نفسها أو في الأرخبيل، آخذين في الحسبان تفاعلاتها مع الهند والصين والأوروبيين. على أن تأثير عصر التجارة على جنوب شرق آسيا يتجاوز التجارة بكثير، حيث طال توازن القوة بين الدول والمناطق، فضلاً عن مجال ثقافي مهم مثل انتشار الإسلام والمسيحية، وإلى حد معين البوذية الثهروادية، التي اقترنت

جميعها مع توسع التجارة[١٢٢]. وكما في الحالة اليابانية، كان من النتائج الرئيسة للوجود الأوروبي الانتشار السريع للتقنية العسكرية الأوروبية، ما أدى إلى الحسم السريع للمعارك العسكرية، وهو ما ساعد بدوره في ترسيخ السيطرة السياسية المركزية على مناطق أوسع.

تمكّنت مملكة التل البورمية الصغيرة المعروفة باسم تونغنغو Taungngu على حدود آفا وبيغو بقيادة ملكين محاربين عظيمين، هما تابنشويهتي Tabinshwehti (١٥٣١-١٥٥٠) وباينونغ Bayinnaung (١٥٥١-١٥٨١)، من غزو بيغو ثم آفا، وبذلك جمعت العائدات من كل من التجارة المنقولة بحراً والزراعة. أسس هذان الملكان إمبراطورية هائلة هزمت أيوثايا ودمرتها في العام ١٥٦٤ والعام ١٥٦٩ وحوّلتها إلى دولة تابعة لها، وفعلت الشيء نفسه مع دولة تشينغ ماي Chieng Mai الواقعة في شمال تايلند الحالية ومعظم لاوس الحالية. وبذلك أصبح باينونغ حاكم أكبر إمبراطورية في تاريخ جنوب شرق آسيا. وقد أعجب به المراقبون الأوروبيون الذين قال فيه أحدهم، وهو التاجر البندقي قيصر فريدريك Caesar Fredericke: "إنه لا يمتلك جيشاً أو قوة بحرية، لكنه على البر يمتلك من الناس والممتلكات والذهب والفضة ما يفوق الأتراك العظماء ثروة وقوة"[١٢٣](٦٩).

بيد أن هذه الإمبراطورية البورمية الثانية كما أسماها هتين أونغ Htin Aung أثبتت أنها عابرة وقصيرة العمر[١٢٤]. فالأجزاء السيامية واللاوسية كانت تفصلها عن بورما سلاسل جبلية يصعب عبورها، ولذلك كان من الصعب أن تحافظ على إدارة موحدة للإمبراطورية كلها. ولذلك عُهِد بالمراكز المكوّنة للإمبراطورية إلى أقارب غير موثوقين للملك، وفي العام ١٥٩٩ سقطت العاصمة الرائعة بيغو ونهبت وأحرقت عن بكرة أبيها على أيدي تحالف بين حاكم تونغنغو وملك أراكان الذي جاء على رأس قوة كبيرة من المرتزقة البرتغاليين. واستعاد اثنان من أحفاد باينونغ، هما أنوخبيتلون Anaukhpetlun (١٦٠٥-١٦٢٨) وثالون Thalun (١٦٢٩-١٦٤٨)، الجزء البورمي

(٦٩) لكن في المقابل، رأى هارفي أن التاجر البندقي بالغ كثيراً حين قارن باينونغ بالسلطان العثماني الذي كان حينذاك سليمان القانوني بكل عظمته.

من الإمبراطورية. وجاء قرار الأخير بنقل العاصمة من بيغو على الساحل إلى آفا الداخلية بدلتا إيراوادي في العام ١٦٣٤ ليعكس تحولاً حاسماً عن "الانفتاح" الرائع للعصر الذهبي لتابنشويهتي وباينونغ والعودة إلى دولة زراعية أكثر "انغلاقاً" وانعزالاً، وهي نفسها الدولة التي سقطت في النهاية فريسة سهلة أمام البريطانيين. لكن ليبرمان Lieberman دفع بقوة بأن هذا القرار كان عقلانياً لدعم القاعدة الزراعية والعائدات البرية، مع الحفاظ في الوقت عينه على العائدات من تجارة ما وراء البحار والتجارة البرية المربحة مع الصين[١٢٥].

كان من بين المرتزقة والمغامرين البرتغاليين الكثيرين الذي ظهروا في جنوب شرق آسيا في ذلك الوقت فيليب دي بريتو Felipe de Brito، تلك الشخصية الغنية متعددة الجوانب، الذي بدأ حياته المهنية في خدمة ملك أراكان، وأبحر ضمن أسطوله الصغير في الهجوم على بيغو في العام ١٥٩٩. وتولى بعد ذلك قيادة ميناء سيريام Syriam المهم في دلتا إيراوادي، مع نحو خمسين آخرين من البرتغاليين. ولما أدرك دي بريتو الإمكانات التجارية الكبيرة لهذا الميناء، تحول سريعاً للعمل باستقلالية عن سيده الأراكاني بفرض رسوم جمركية على السفن وبناء قوة من البرتغاليين والمهجنين والمسلمين الهنود. ومن أجل تعزيز موقفه، ذهب إلى غوا للحصول على الاعتراف من نائب الملك، وعاد بتعزيزات وست سفن وابنة أخي نائب الملك نصف الجاوية دونا لويزا دي سالدانها Dona Luisa de Saldanha عروسا له. كانت سيريام تضم كنيسة وكاهنين يسوعيين كانا منهمكين في هداية الوثنيين إلى المسيحية، وأخذ دي بريتو ينهب الأضرحة البوذية برعونة، لصهر الأجراس البرونزية المقدسة لكي يصنع منها مدافع. كما حوّل النقل البحري بالقوة إلى سيريام، ما جعله يحتكر فعلياً مرور واردات ما وراء البحار إلى الداخل، فضلاً عن قيامه بغارات نهب على المراكز الداخلية. وأخيراً تحرك أنوخبيتلون، فحاصر سيريام واستولى عليها في العام ١٦١٢، قبل أن تصل التعزيزات من غوا وأراكان. وأُعدِم دي بريتو على الخازوق عقاباً على تدنيسه للمقدسات وظل على الخازوق ثلاثة أيام قبل أن يفارق الحياة، وبيعت دونا لويزا التعيسة في أسواق العبيد. وتم توطين البرتغاليين الناجين وكثير من المرتزقة المسلمين في قرى الداخل

البورمي وظل أحفادهم يخدمون في سلاح المدفعية بالجيوش البورمية الملكية حتى القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من هذه الحوادث، لم يفقد أنوخبيتلون اهتمامه بالحفاظ على تدفق التجارة، وأرسل عدة عروض دبلوماسية إلى الهولنديين والبريطانيين وإلى آتشيه وحتى إلى غوا، لكن دون جدوى واضحة.

وفي سيام، أقام البرتغاليون علاقات دبلوماسية وتجارية مع أيوثايا بعد احتلالهم لمالاكا مباشرة، وسرعان ما انخرطوا في العمل كمرتزقة ومستشارين عسكريين في القوات المسلحة للمملكة، وبخاصة في مجال المدفعية. وكان قائد النهضة التايلندية بعد كارثة العام ١٥٦٩ هو ولي العهد الشاب نارسون Naresuan الذي أمضى شبابه في البلاط البورمي واكتسب سمعة كمحارب في القتال ضد الثوار نيابة عن هذا البلاط، قبل أن يعود إلى أيوثايا ويصبح ملكاً في العام ١٥٩٠. وظل نارسون حتى وفاته في العام ١٦٠٥ يقوم بحملات ناجحة على كل من البورميين والكمبوديين، واستعاد شينغماي Chiengmai واستولى على مينائي تافوي Tavoy وتيناسيريم Tenasserim من البورميين، وبذلك نال منفذاً على خليج البنغال. وتميّز عهده بتوسيع التجارة الدولية إلى الشرق مع تايوان والصين واليابان وجزر ريوكو وإلى الغرب مع سومطرة والهند والشرق الأوسط. وكانت جلود الأيل والأرز والمنتجات الغابية والقصدير هي الصادرات الرئيسة، فضلاً عن الفيلة إلى الممالك الهندية. وشيّد نارسون أسطولاً قوياً، بل إنه عرض الدفاع عن إمبراطورية مينغ ضد الاحتلال الكوري الذي هدد الصين في العام ١٥٩٢ بقيادة هيديوشي. كما قوّى الجيش باستيراد الأسلحة النارية من البرتغاليين والسيوف والمطارد الفولاذية من اليابان. وأصبحت سيام مقصداً مهماً لسفن "الختم الأحمر" اليابانية التي كانت شوغونية توكوغاوا تسمح لها بالتجارة قبل أن تتبنى سياسة العزلة إبان العقد الرابع من القرن السابع عشر. ويشير ريد إلى أن سيام استقبلت ستاً وثلاثين من هذه السفن إبان الفترة ١٦٠٤-١٦١٦، وهو عدد أكبر كثيراً من السفن اليابانية التي توجهت إلى أي ميناء آخر بجنوب شرق آسيا[١٢٦] (على الرغم من أن كمبوديا وكوشينشينا ولوزون بالفلبين كانت موانئ مهمة جداً هي الأخرى).

اعتمدت الممالك التايلندية والبورمية بشدة في صراعاتها البينية الطويلة على المرتزقة البرتغاليين وبنادق القربينة والمدافع، إلى جانب الفيلة الحربية التقليدية، كما استخدموا حيوانات الشتني(٧٠) كمنصة وحامل للقربينات و"الجنغال" Jingal وهي مدافع صغيرة(٧١). كان النظامان في بورما وسيام ندين مساويين أحدهما للآخر في العائدات من تجارة ما وراء البحار والوصول إلى التقنية العسكرية المتقدمة، وقد تمكّنا بسهولة من السيطرة على مناطقهما الداخلية الخلفية، وبذلك كان عصر التجارة مسؤولاً عن قيام الدول المركزية القوية في كل من بورما وسيام. ويمكن رؤية حلقة الربط بين الوفرة والقوة أيضاً مجسدة في حالة فيتنام. فكما رأينا في الفصل السابق، فقد استولى لي ثان تون Le Thanh Ton على الجنوب في العام ١٤٧١، فيما تأكد صعوبة الحفاظ على المملكة موحدة دون تقسيم. فحدث الانفصال بين مملكة تونغكينغ Tongking الشمالية وعاصمتها هانوي تحت حكم عشيرة ترينه Trinh، والجزء الجنوبي في كوشينشينا وعاصمته هيو Hue تحت حكم عشيرة نغيون Nguyen المنافِسة. ومع أن الصين ظلت تعترف بأن سلالة لي Le هم الحكام الشرعيون لكامل المملكة، فقد تحولوا إلى دولة دُمية في أيدي دولة ترينه.

كانت التأثيرات التجارية أكثر وضوحاً في كوشينشينا، حيث أصبح ميناء هوي آن Hoi An (فايفو Faifo) واحداً من أكثر مراكز التجارة الدولية ازدحاماً بين العامين ١٥٧٠ و١٦٣٠، وبخاصة إبان العقد الثالث من القرن السابع عشر. وكان هذا الميناء المركز الرئيس لتبادل المنتجات اليابانية والصينية معاً (بسبب منع إمبراطورية مينغ للتجارة المباشرة مع اليابان)، وتبادل السلع اليابانية والصينية مع سلع جنوب شرق آسيا من كل الأنواع. ووجد نغوين هوانغ Nguyen Hoang، وهو أحد أكثر قادة عشيرته بصيرة، أن هذا الميناء كان من شأنه أن يوفر القاعدة الاقتصادية لدولة كوشينشينا الجديدة من خلال الضرائب على السفن الزائرة. وبالفعل مكّنت هذه العائدات نغوين

(٧٠) الشتني حيوانات ثديية ذات حافر غير مجترة تتميز عادة بجلدها الصفيق مثل الفيلة والخيول [المترجم].
(٧١) يقدم ليبرمان (Lieberman, 1980) وصفاً ممتازاً لدور كل من الأسلحة النارية والمرتزقة البرتغاليين في الفتوحات البورمية.

من شراء المدافع والأسلحة النارية الأخرى من البرتغاليين، ما ساعده في التغلب على دولة تونغكينغ الأكثر سكاناً التي كانت تحكمها عشيرة ترينه المنافِسة التي كانت على الرغم من دعم الهولنديين لها أقل اعتماداً على تجارة ما وراء البحار[١٢٧].

وبالتحول الآن إلى الجزر، نجد أن الحكم البرتغالي لمالاكا لم يكن مقبولاً كحكم شرعي من جانب إمبراطورية مينغ الصينية أو التجار المسلمين الذين كانوا يترددون على الميناء، فتفرقت تجارة مالاكا- كما رأينا- إلى عدد من المراكز الجديدة التي ظهرت نتيجة ذلك. كان من هذه المراكز ميناء بانتام الذي أعطاه موقعه في شمال غرب جاوة وصولاً إلى إمدادات الفلفل الوفيرة من جنوب شرق سومطرة وكذلك السيطرة على النقل البحري عبر مضيق سوندا. ولذلك تمكّن هذا الميناء من لعب دور مزدوج كمركز تجاري بين الشرق الأوسط والهند في الغرب وجزر التوابل والصين في الشرق، فضلاً عن دوره كمصدر رئيس للفلفل. وتدفقت على سلاطين بانتام عائدات كبيرة من شراء الفلفل بأسعار رخيصة من المناطق الداخلية وبيعه غالياً في الميناء، فضلاً عن فرض ضرائب على التجارة في الميناء. وقد مكّنتهم هذه العائدات من الاحتفاظ بقوات بحرية وبرية قوية ومن العمل في تجارة المسافات الطويلة لحساب أنفسهم في كل من المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي. وأدى وصول الهولنديين والإنجليز بعد العام ١٦٠٠ إلى زيادة الطلب على الفلفل والسلع الأخرى، ما عاد بالنفع يقيناً على بانتام، لكن شركة الهند الشرقية الهولندية على الرغم من عويلها وشكواها المتكررة من الممارسات الاحتكارية للسلطان، استخدمت قوتها البحرية في الحصار وغيرها من الوسائل لإعادة التوازن. وذهب كوين(٧٢) الراغب في تحويل التجارة إلى باتافيا بعيداً إلى حد الاستيلاء على السفن الصينية المبحرة من بانتام وإجبارها على إعادة بيع الفلفل بأسعار منخفضة واختطاف أطقمها للعمل في مزارع شركة الهند الشرقية الهولندية، حتى أمره مقر الشركة في أمستردام بالتوقف عن تلك الأفعال[١٢٨]. وكانت الأعمال العدائية بين بانتام والهولنديين متكررة، وشكلت أحياناً تهديداً لأمن باتافيا. وكان

(٧٢) تذكر أن كوين هو رئيس مجلس إدارة شركة الهند الشرقية الهولندية الذي قابلناه في مواضع سابقة من هذا الفصل [المترجم].

السلطان أبوالفتاح أغونغ Abulfatah Agung (١٦٥١-١٦٨٣) خصماً قوياً للشركة، لكن الهولنديين تمكنوا من التدخل في حرب أهلية اندلعت بين السلطان وابنه، واستولوا على بانتام وحوّلوها إلى كيان تابع لهم في العام ١٦٨٣، حين نصبوا الابن حاكماً دُمية عليها[١٢٩]. ومُنِع الأوروبيون الآخرون جميعاً من التجارة في بانتام، واضطرت شركة الهند الشرقية البريطانية لأن تنقل عملياتها إلى بنكولن Bencoolen على الساحل الغربي لسومطرة.

كان نظير بانتام على الطرف الشرقي للأرخبيل الإندونيسي هو ماكاسار على الطرف الجنوبي الغربي لجزيرة سولاويزي (سيليبيز). وكانت هذه الدولة كياناً مركباً نتج عن اندماج كيانين متمايزين معاً، مملكة زراعية محاربة، هي جوا Gowa، وإمارة تجارية بحرية صغيرة، هي تالو Tallo. وكانت المنطقة الداخلية تنتج فائضاً من الأرز كان يُبادَل بجوز الطيب والميس والقرنفل في مالاكا أو جزر التوابل. وكانت هذه السلع بدورها تُبادَل بالأقمشة والخزف والسلع المصنعة الأخرى القادمة من الصين والهند وغيرها من الأماكن. وكانت هذه التجارة في معظمها في أيدي تجار الملايو المسلمين الذين فروا شرقاً لتجنب الضغط البرتغالي، ولاحقاً الضغط الهولندي. وقد رحب بهم الحكام المحليون، ويبدو أنهم تمتعوا بحقوق "فوق إقليمية" لأشخاصهم وممتلكاتهم. وكانت هناك أيضاً تجارة واسعة في العبيد، وكان معظم الطلب يأتي من مزارع الفلفل في جاوة وسومطرة. وقد ساعد ماكاسار وقوعها في منتصف الطريق بين مضيق مالاكا وجزر التوابل في أن تكون محطة تجارية لسلع ثمينة مثل خشب الصندل من تيمور والذّبْل(٧٣) وغيرها من المنتجات البحرية الأخرى التي كان يجمعها شعب الأورانج لوت، كما رأينا في الفصل الثالث.

جذبت الفرص التجارية كلاً من التجار الأوروبيين والآسيويين الذين كانوا جميعاً موضع ترحيب على أساس واضح ومحترم من "عدم التمييز" من جانب الأهالي المتسامحين إلى أبعد الحدود. كانت الموازين والمقاييس موحدة، وكانت العملة الذهبية مستقرة. وحدث انصهار العالمين المكونين للدولة واضحاً تماماً إبان العقد الأخير من

---

(٧٣) الذّبَل هو عظم ظهر السلحفاة [المترجم].

القرن السادس عشر، حين أصبح ماتوايا Matoaya ملك تالو أيضاً المستشار أو رئيس الوزراء لابن أخيه ملك جوا. كان هذا الرجل الرائع الذي صوّر أنتوني ريد حياته وإنجازاته، وكذلك حياة وإنجازات ابنه بقدر كبير من التعاطف والبصيرة، كان مهندس العصر الذهبي لماكاسار في النصف الأول من القرن السابع عشر[١٣٠]. وحين ألح عليه كل من المسلمين والمسيحيين بالتخلي عن الأرواحية(٧٤) التقليدية السائدة بين شعبه والتحول إلى أحد "الدينين السماويين" لهذا الفريق أو ذاك، اختار ماتوايا نسخة متسامحة وانتقائية من الإسلام في العام ١٦٠٣، وبعد موته، حكم ابن أخيه السلطنة باسم السلطان علاء الدين. وتبعهم الناس فيما ذهبوا إليه، وإن كان ببعض التردد، لكن دون أي إكراه من جانب الحكام.

وفي مقابل هذه الأحداث، كانت شركة الهند الشرقية الهولندية- كما رأينا- تنفذ سياستها القائمة على الإبادة الجماعية في جزر الباندا وجزر الملوك، وتسعى لفرض احتكارها على كل تجارة جوز الطيب والميس والقرنفل. وكان المخرج الوحيد للتوابل "المهربة" هو ماكاسار التي ازدادت أهميتها بذلك بالنسبة للبرتغاليين وشركة الهند الشرقية البريطانية، وأيضاً للتجار الآسيويين. واعتبر الإنجليز مصنعهم في ماكاسار "أحد أفضل الزهور في حديقتنا"[١٣١]. وحين طالب الهولنديون ماكاسار بوقف كل التجارة مع جزر التوابل، رد السلطان علاء الدين ببيان رنان حول مبدأ الحرية البحرية Mare Liberum، ما كان لهوغو غورتيوس نفسه أن يصوغه بطريقة أفضل من تلك:

> لقد خلق الله الأرض والبحر، وقسم الأرض بين الناس، وأعطاهم البحر مشاعا بينهم. ولم نسمع فيما مضى أن أحداً حُرِم من الإبحار. وإذا أردتم أن تفعلوا ذلك، فإنكم بذلك تنتزعون الخبز من أفواه الناس.

أدت سياسة الباب المفتوح والتجارة الحرة إلى توافد التجار من كل مكان إلى ماكاسار، كذلك توافد البرتغاليون بأعداد متزايدة مع تصاعد التهديد الهولندي لمالاكا. وقد سمح الحكام المحليون، على الرغم من تمسكهم بالإسلام، بإنشاء كنائس مسيحية في ماكاسار، أصبحت مقاراً لأخويات رهبانية مختلفة حتى بعد سقوط مالاكا في يد

---

(٧٤) الأرواحية animism هي الاعتقاد بأن الروح أو النفس هي المبدأ الحيوي المنظّم للكون وأن لكل ما في الكون روحاً أو نفساً، حتى الكون ذاته [المترجم].

الهولنديين في العام ١٦٤١. ومات ماتوايا في العام ١٦٣٧، وخلفه السلطان علاء الدين، لكن الشراكة جددها في الجيل التالي باتينغالونغ ابن ماتوايا مستشارا ومحمد سعيد بن علاء الدين سلطاناً. وكان باتينغالونغ شخصية فذة بكل معنى الكلمة، فكان طليقاً في اللغة البرتغالية وملماً باللغة الفرنسية والإسبانية، إضافة إلى اللغتين العربية والملايوية. وكان شغوفاً جداً بالرياضيات والعلم والتقنية الغربيين. وبالنظر إلى العداء الهولندي لسلطنته، لا يفاجئنا حرصه على الحصول على أحدث الأسلحة وتقنيات التحصين من الإنجليز والبرتغاليين. ومع إضافة هذا التحديث لتجهيزاتهم إلى الروح المحاربة الأسطورية للماكاساريين، أصبحت "الديكة المقاتلة الشرقية"، كما كان الهولنديون يطلقون عليهم، عدواً مرهوباً جداً، حتى بالنسبة للقوى الأوروبية. لكن عزيمة شركة الهند الشرقية الهولندية كانت من النوع الذي لا يلين، وقررت أن الطريقة الوحيدة لإنجاز الاحتكار الذي تسعى وراءه منذ فترة طويلة لتجارة التوابل لن يتحقق دون إزالة ماكاسار كقوة مستقلة. ولذلك عقد الهولنديون تحالفاً مع أمير حرب بوغيزي يدعى آرونغ بالاكا Arung Palakka جاء إلى باتافيا مع أتباعه بعد ثورة فاشلة في سولاويزي. خدم بالاكا في جيش شركة الهند الشرقية الهولندية في جاوة، واكتسب خبرة كبيرة في استخدام الأسلحة النارية وصناعتها. ونجحت شركة الهند الشرقية الهولندية بمساعدة هذا الأمير في غزو ماكاسار في حملتين شرستين في العام ١٦٦٧ والعام ١٦٦٩، وخلعت السلطان وطردت كل منافسيها الأوروبيين. وعُيّن آرونغ بالاكا ملكاً في جنوب سولاويزي، حيث حكم حكماً مطلقاً حتى وفاته في العام ١٦٩٦. وبذلك تحقق أخيراً لشركة الهند الشرقية الهولندية احتكار تجارة التوابل في الأرخبيل الشرقي.

ثمة دولة تجارية أخرى قوية عسكرياً ظهرت في جنوب شرق آسيا في عصر التجارة، هي آتشيه الواقعة إلى الشمال من سومطرة. برزت قوة هذه الدولة مع دخول البرتغاليين إلى المضايق وفتحهم مالاكا. أسس السلطان علاء الدين رعاية شاه القهار Alauddin Riayat Shah al-Kahar (١٥٣٩-١٥٧١) آتشيه لتكون منافساً رئيساً لمالاكا في تجارة الفلفل، وكان يرسل خمس سفن كبيرة سنوياً على الأقل إلى البحر الأحمر

تحمل الكمية عينها التي كان البرتغاليون يرسلونها عن طريق رأس الرجاء الصالح[١٣٢]. وأقام أيضاً علاقات دبلوماسية مع الإمبراطورية العثمانية في العام ١٥٦٧، وحصل منها على معونة فنية في صب المعادن واستخدام المدفعية الثقيلة، وشكلت آتشيه تهديداً مستمراً لمالاكا. وسوق بندر آتشيه Bandar Acheh الذي عرفه العالم بعد إعصار تسونامي المرعب في العام ٢٠٠٤، شُيِّد في الأصل حول قصر السلطان لسكنى التجار من جميع أنحاء العالم الإسلامي وعالم جنوب شرق آسيا. واقترب السلطان اسكندر مودا Iskander Muda (١٦٠٧–١٦٣٦) من إنجاز احتكار ملكي كامل لتجارة الفلفل، وطرد التجار البريطانيين والهولنديين. واستخدم عائداته التجارية لبناء ماكينة عسكرية هائلة جداً، تضمنت أسطولاً مكوناً من قوادس(٧٥) حربية ضخمة تحمل الواحدة منها ما بين ستمئة وثمانمئة رجل وعدة مدافع، وميدان مدفعية يضم مدافع عملاقة كثيرة وفرق فرسان وفيلة، وأعداداً كبيرة من المشاة المجندين.

شن اسكندر مودا حرباً ناجحة على جوهور وباهانغ Pahang وكيداه Kedah وبيراك Perak ودول ملايوية أخرى، وعزز سيطرته على الموانئ الأخرى في سومطرة. ونجح أيضاً في الحرب على البرتغاليين في عدد من الاشتباكات على البر والبحر. وكان هدفه الرئيس يتمثل في طرد البرتغاليين من مالاكا، وهاجمها في العام ١٦٢٩ بمئات السفن، بينهم سفينة قادس عملاقة اسمها "رعب الكون" كانت تحمل مئة مدفع قال ريد إنها أكبر سفينة خشبية بنيت على الإطلاق، وأكثر من عشرين ألف رجل[١٣٣]. حاصر السلطان المدينة لثلاثة أشهر من ناحية اليابسة، لكن أسطوله تعرض للأسر أو التدمير تماماً من جانب سرب إغاثة برتغالي مدعوم من حلفاء ملايويين من جوهور وباتاني Patani، وقُتِلت أغلب القوات المحاصِرة أو أُسِرت. وجاءت هزيمة البرتغاليين لآتشيه هدية للهولنديين الذين كان عليهم لولا هذه الهدية أن يقاتلوا هذا العدو الهائل بأنفسهم. ولذلك كان العام ١٦٢٩ نقطة التحول الحقيقية لهيمنة شركة الهند الشرقية الهولندية في جنوب شرق آسيا[١٣٤]، لأنه العام نفسه الذي هزموا فيه السلطان آغونغ سلطان ماتارام هزيمة

---

(٧٥) القوادس، ومفردها قادس، سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف [المترجم].

حاسمة. وبعد اثني عشر عاماً، انتزع الهولنديون مالاكا من البرتغاليين بمساعدة جوهور نفسها التي ساعدت من قبل في إنقاذها من اسكندر مودا، في درس صريح للسياسية الواقعية في جنوب شرق آسيا.

تميّز القرن الخامس عشر- كما رأينا في الفصل السابق- بالتوسع التجاري السريع في جنوب شرق آسيا. لكن ذلك كله تغير فجأة بفعل الاقتحام البرتغالي للمشهد وسقوط مالاكا في أيديهم في العام ١٥١١. يلاحظ ريد أن "الفترة التي تلت الاكتشاف الأوروبي للطريق البحري إلى آسيا في العام ١٤٩٨ ... كانت فترة سيئة جداً من الناحية الاقتصادية للأراضي الواقعة تحت الرياح" لأن البرتغاليين "شرعوا في إغراق أو نهب كل سفينة توابل تطالها أيديهم"[١٣٥]. فانخفض المتوسط المقدر السنوي لصادرات القرنفل وجوز الطيب والميس من أربعة وسبعين طناً وسبعة وثلاثين طناً وسبعة عشر طناً على التوالي في الأعوام الثلاثة ١٤٩٦-١٤٩٩ إلى ثمانية وثلاثين طناً وستة أطنان وطنين ونصف طن على التوالي في الأعوام الثلاثة ١٥٠٣-١٥٠٥، وهو الكساد الذي استمر، كما يذهب ريد، خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس عشر. وبعد ذلك حدث انتعاش لصادرات الفلفل والتوابل إلى البحر الأحمر على أيدي التجار الغوجاراتيين المبحرين من آتشيه. وبحلول العقد السابع من القرن السادس عشر كان النقل البحري عبر البحر الأحمر يتجاوز نظيره البرتغالي، على الرغم من أن الاثنين كانا يتوسعان من حيث الأرقام المطلقة، حيث تكشف عائدات الجمارك في مالاكا أن الصادرات البرتغالية الخاصة والحكومية تضاعفت من عشرة ملايين ريال(٧٦) سنوياً إبان العقد الخامس من القرن السادس عشر إلى عشرين مليون ريال إبان العقد التاسع من القرن السابع عشر[١٣٦]. يبيّن الجدول رقم (٤,٢) أنه بحلول نهاية القرن السادس عشر كان إجمالي واردات القرنفل الأوروبية نحو ثلاثة أضعاف ما كانت عليه إبان العقد الأخير من القرن الخامس عشر.

---

(٧٦) الريال real وحدة النقد الأساسية في إسبانيا والبرتغال في ذلك الوقت [المترجم].

الجدول رقم (٤,٢) .واردات القرنفل الأوروبية إبان الفترة ١٤٩٠–١٦٥٧ (متوسط الأطنان السنوية).

السنة	البرتغالية			الهولندية والإنجليزية	الطرق الإسلامية
	الرسمية	الخاصة	الإجمالي		
١٤٩٠- ١٤٩٩					٥٠
١٥٠٠- ١٥٠٩	١٢	٢	١٤		١٤
١٥١٠- ١٥١٩	١١	٤	١٥		٣
١٥٢٠- ١٥٢٩	٤٥	١٥	٦٠		٢
١٥٣٠- ١٥٣٩	٣٣	١١	٤٤		٦
١٥٤٠- ١٥٤٩	٤٥	١٥	٦٠		٥
١٥٥٠- ١٥٥٩	٤٠	١٥	٥٥		١٠
١٥٦٠- ١٥٦٩	٢٥	١٠	٣٥		٣٥
١٥٧٠- ١٥٧٩	٣٠	١٠	٤٠		٣٥
١٥٨٠- ١٥٨٩	١٠٠	٤٠	١٤٠		٣٠
١٥٩٠- ١٥٩٩	٨٠	٣٠	١١٠		٣٠
١٦٢٠- ١٦٢٢	٢	١	٣	٢٨٠	٢
١٦٣٨				٢٩٠	٠
١٦٥٣- ١٦٥٧	٠	٠	٠	١٧٤	٠

المصدر: Bulbeck et al. (1998, table 2.4, p. 32)

ونتيجة لاستيلاء إسبانيا على مانيلا في العام ١٥٧١ ودخول الشركتين الإنجليزية والهولندية إلى المشهد في أوائل العقد الأول من القرن السابع عشر، أصبحت الفترة ١٥٧٠–١٦٣٠ ذروة الازدهار في تجارة التوابل بجنوب شرق آسيا. وأدت المنافسة الحادة بين الدول التجارية الأوروبية الثلاث إلى خفض الأسعار نسبياً للمستهلكين الأوروبيين وبلوغ الذروة في مستويات الاستهلاك الأوروبية، إلى أكثر من مئتي طن من القرنفل ومئتي طن من جوز الطيب ومن سبعين إلى ثمانين طناً من الميس إبان العقد الثالث من القرن السابع عشر[١٣٧]. وأدى الاحتكار الناجح للعرض من جانب شركة الهند الشرقية الهولندية لجوز الطيب والميس فيما بعد إلى تقييد العرض، وبالتالي رفع الأسعار في أوروبا. ومع أن

شركة الهند الشرقية الهولندية كانت أقل نجاحاً في محاولتها لاحتكار عرض القرنفل، فقد تمكنت من تقييد العرض في المناطق التي كانت تسيطر عليها وتدمير أشجار القرنفل خارجها، ما أدى إلى مضاعفة السعر مرتين في أوروبا وثلاث مرات في الهند. وكما يبيّن الشكل رقم (٤,٢)، فقد ارتفعت واردات القرنفل الأوروبية بشدة بين العامين ١٥٨٠ و١٦٣٨، قبل أن تنخفض بشكل ملحوظ إبان العقد السادس من القرن السابع عشر. ومع أن الفلفل كان يجلب جزءاً صغيراً فحسب من سعر التوابل الفاخرة لجزر الملوك، فإن حجمه الأكبر كثيراً جعل منه السلعة التصديرية الرئيسة في عصر التجارة بجنوب شرق آسيا. وكما يبيّن الجدول رقم (٤,٣)، فإن إجمالي صادرات الفلفل السنوية من جنوب شرق آسيا تضاعف أربعة أضعاف تقريباً بين العقد الأول من القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن السابع عشر، إذ تضاعفت الصادرات إلى الصين و"مناطق أخرى" (الهند واليابان والأمريكتين) تقريباً، وحدث انفجار في الصادرات إلى أوروبا والشرق الأوسط.

على أن القوة الدافعة وراء الازدهار لم تأت من الغرب بفعل الطلب الأوروبي وتدفق فضة العالم الجديد وحسب، وإنما أيضاً من الطلب القوي من الصين واليابان. فبعد العام ١٥٦٧، سمحت إمبراطورية مينغ بالتجارة المرخصة مع جنوب شرق آسيا، وارتفع حجم هذه التجارة من خمسين ينكاً كبيراً في العام إلى أكثر من مئة ينك بحلول العقد الأخير من القرن السادس عشر. وأصبح بمقدور اليابانيين أن يبادلوا فضتهم مع الحرير الصيني وجلود الأيل المنتجة محلياً والمنتجات الغابية الأخرى في موانئ جنوب شرق آسيا مثل مانيلا وأيوثايا وهوي آن في كوشينشينا، حيث كانت ثلاثمئة وخمس وخمسون سفينة "تحمل ختماً قرمزياً" تبحر هناك بين العامين ١٦٠٤ و١٦٣٥، حين توقفت فجأة بسبب تطبيق سياسة العزلة. استقبلت كوشينشينا سبعاً وثمانين من هذه السفن، واستقبلت مانيلا وأيوثايا نحو خمس وخمسين سفينة لكل منهما[١٣٨]. ودفع تخفيف القيود مزيداً من التجارة والهجرة الصينية إلى المنطقة، إلى أن أعيقت العملية بسبب سقوط إمبراطورية مينغ في منتصف القرن السابع عشر. ويرى وانج غونغو أن

"العقدين الفاصلين بين العقد الثالث من القرن السادس عشر وسقوط إمبراطورية مينغ في العام ١٦٤٤ تميّزا بقمة النشاط التجاري الصيني الحر في جنوب شرق آسيا قبل الأزمنة الحديثة"[١٣٩]. يقدم غونغو ثلاثة أسباب للنجاح الاستثنائي للتجار الصينيين الخاصين الذين ينتمون بالدرجة الأولى إلى جماعة الهوكين Hokkiens بمقاطعة فوجيان، خلال تلك الفترة: أولاً غياب السيطرة القوية للمركز بسبب الأزمات التي كانت تواجهها إمبراطورية مينغ، ثانياً انسحاب المنافسة اليابانية بسبب سياسة العزلة التي تبنتها شوغونية توكوغاوا في العام ١٦٣٥، ثالثاً النزاع بين الهولنديين ومنافسيهم الأيبيريين وهو ما ترك منفذاً للصينيين.

الجدول رقم (٤,٣).صادرات الفلفل من جنوب شرق آسيا إبان الفترة ١٥٠٠–١٦٥٩ (بالأطنان).

السنة	أوروبا والشرق الأوسط	الصين	الهند واليابان وأمريكا	الإجمالي
١٥٠٠- ١٥٠٩	٥٠	٥٠٠	٤٠٠	٩٥٠
١٥١٠- ١٥١٩	١٠٠	٥٠٠	٤٠٠	١٠٠٠
١٥٢٠- ١٥٢٩	٢٠٠	٥٠٠	٤٠٠	١١٠٠
١٥٣٠- ١٥٣٩	٣٠٠	٥٠٠	٥٠٠	١٣٠٠
١٥٤٠- ١٥٤٩	٦٠٠	٥٠٠	٦٠٠	١٧٠٠
١٥٥٠- ١٥٥٩	٧٠٠	٥٠٠	٧٠٠	١٩٠٠
١٥٦٠- ١٥٦٩	١٣٠٠	٧٠٠	٧٠٠	٢٧٠٠
١٥٧٠- ١٥٧٩	١٣٠٠	٩٠٠	٨٠٠	٣٠٠٠
١٥٨٠- ١٥٨٩	١٤٠٠	٩٠٠	٩٠٠	٣٢٠٠
١٥٩٠- ١٥٩٩	١٤٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	٣٤٠٠
١٦٠٠- ١٦٠٩	٢٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	٤٠٠٠
١٦١٠- ١٦١٩	١٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	٣٥٠٠
١٦٢٠- ١٦٢٩	١٥٠٠	١٢٠٠	١١٠٠	٣٨٠٠
١٦٣٠- ١٦٣٩	١٤٠٠	١٢٠٠	١٢٠٠	٣٨٠٠
١٦٤٠- ١٦٤٩	٢١٠٠	٤٠٠	١٣٠٠	٣٨٠٠
١٦٥٠- ١٦٥٩	٢٢٠٠	٤٠٠	١٤٠٠	٤٠٠٠

المصدر: Bulbeck et al. (1998, table 3.7, p. 86)

طريق رأس الرجاء الصالح والبندقية والشرق الأوسط

نتحول الآن إلى بعض النتائج الاقتصادية "لرحلات الاستكشاف" الأوروبية. لقد كان من أهداف المستكشفين الأيبيريين- كما رأينا- الإفلات من الوسطاء البنادقة والمسلمين الذين كانوا يسيطرون على الواردات الأوروبية من آسيا، وسرعان ما أدرك هؤلاء الوسطاء التهديد المحتمل الذي فرضه نجاح دا غاما على مصالحهم. فاستقبل السفير البندقي في القاهرة الأخبار بالقول إن فتح طريق رأس الرجاء الصالح سيكون "سبباً لخراب محقق للبندقية"[١٤٠]، وكتب جيرولامو بريولي Girolamo Priuli أن خسارة تجارة التوابل كانت بالنسبة للبندقية "بمثابة حرمان الرضيع من لبن الأم"[١٤١]. والقرون التي تلت تحول مركز الجاذبية الاقتصادية في أوروبا تدريجياً بعيداً عن البحر الأبيض المتوسط تكشف أن هؤلاء المراقبين كانوا محقين، وأن طريق رأس الرجاء الصالح وجهّ فعلاً ضربة قاتلة للحياة الاقتصادية في جنوب شرق أوروبا والشرق الأوسط، مع أن المؤرخين يؤكدون أن التقصي المدقق للقصة يكشف عن صورة أكثر تعقيداً من ذلك بكثير.

بعد أن فتح العثمانيون مصر في العام ١٥١٧، وجدوا أنفسهم أمام المشكلة نفسها التي واجهها المماليك من قبلهم، وهي ضمان استمرار تدفق التوابل والحرير الطبيعي من خلال البحر الأحمر أو البصرة التي استولى عليها العثمانيون في العام ١٥٤٦ وعدم تحوله جنوباً حول رأس الرجاء الصالح أو شمالاً إلى روسيا عن طريق الفولغا. ومع استقرار البرتغاليين في هرمز والعثمانيين في البصرة، أصبح الخليج العربي كله محل نزاع بينهما. ووقعت معارك عنيفة كثيرة بينهما في البر والبحر، لكن نتائجها غير الحاسمة تركت العثمانيين آمنين في سيطرتهم على البحر الأحمر، لكن دون سيطرة كاملة على الخليج العربي[١٤٢]. وحشدَ العثمانيون أسطولاً حربياً في السويس، كان القاعدة البحرية العثمانية الرئيسة في البحر الأحمر، واحتلوا عدن واليمن لحراسة مدخل البحر الأحمر من البرتغاليين. ونظراً لأن الاختراق البرتغالي للبحر الأحمر كان يشكل تهديداً للأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة، فقد كان السلطان العثماني ملزماً دينياً، فضلاً عن الأسباب الاقتصادية والسياسية، بمنع أية محاولة من هذا النوع.

وبعد صراعهم المرير غير الحاسم في الخليج العربي، وجد البرتغاليون والعثمانيون في النهاية أن التعاون مفيد لمصالح الطرفين[١٤٣]. فسمح البرتغاليون بمرور التوابل والنيلة والمنسوجات القطنية الهندية إلى البصرة، كما سمح العثمانيون بنقل الخيول العربية إلى الهند عبر هرمز. ونتيجة لذلك أصبحت التوابل متوفرة بكثرة في حلب وبورصة(٧٧)، وكذلك طرابلس وبيروت. وبذلك استعادت البندقية دورها في تجارة التوابل بحلول منتصف القرن وعلمت بعد ذلك على تعظيمه، وهو التعافي الرائع الذي يرجع بالدرجة الأولى إلى القوة العسكرية لحليفها المسلم المهول. لكن ذلك لم يمنع البنادقة والعثمانيون من قتال أحدهما الآخر في مناسبات كثيرة إبان القرن نفسه حول قضايا مثل قبرص وكريت.

لا شك في أنه لولا التدخل العثماني لنجحت المحاولة البرتغالية لاحتكار التوابل. وكما أوضحنا في موضع سابق، فقد ساعد ظهور آتشيه كمصدر للتوابل الإندونيسية وكذلك النقل التجاري الغوجاراتي النشط في إنعاش طريق البحر الأحمر ومعه ثروات البندقية والإمبراطورية العثمانية. وقد رأينا أن العثمانيين أرسلوا معونة فنية وعسكرية لسلطان آتشيه لمساعدته في تهديد مالاكا البرتغالية. وتمكن البرتغاليون من صد هجوم بحري عثماني في ميناء ديو في غوجارات في العام ١٥٣٨، لكنه أدخل الرعب في قلوبهم، مثلما فعل استيلاء العثمانيين على البصرة. وكان من حسن حظ البرتغاليين أن نزاعات أخرى في البحر الأبيض المتوسط حوّلت الموارد العثمانية بعيداً عن المحيط الهندي في ذلك الوقت الحرج. وضعف التحالف العسكري مع آتشيه جدياً بعد الهزيمة البحرية العثمانية في ليبانتو في العام ١٥٧١ ووفاة سلطان آتشيه بعد سنوات قليلة، لكن التوابل استمر تدفقها على البحر الأحمر.

ولذلك لم تتأثر البندقية في البداية باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح[١٤٤]. لكن هل يعني رجوع طرق التجارة القديمة أن الاكتشاف البرتغالي لطريق رأس الرجاء

(٧٧) بورصة Bursa رابع أكبر مدن تركيا ومركز وعاصمة محافظة بورصة، تقع في شمال غرب البلاد بين مدينتي اسطنبول وأنقرة، كانت عاصمة لولاية عثمانية بين العامين ١٣٢٦ و ١٣٦٥، وظلت من المدن المهمة بالدولة العثمانية [المترجم].

الصالح لم يؤثر على أسواق التوابل الأوروبية إبان القرن السادس عشر؟ دفع لين Lane بأن طريق رأس الرجاء الصالح لم يزح البندقية، بل ولم يؤد حتى إلى انخفاض أسعار التوابل في أوروبا[١٤٥]. بل أدى إلى ارتفاع أسعار التوابل، ربما بسبب زيادة التكاليف التي فرضتها القرصنة البرتغالية في المحيط الهندي على التجار العاملين هناك (وهو ما قد يتفق مع الانخفاض في الواردات الأوروبية بعد العام ١٥٠٠ مباشرة). ويوضح أورورك ووليامسن أن هذه الحجة خاطئة لأنها تعتمد على الأسعار الاسمية للتوابل التي كانت ترتفع مع كل الأسعار الأوروبية الأخرى نتيجة- كما سنرى- لتدفق فضة العالم الجديد. فأسعار الفلفل الحقيقية (المعدلة ضد التضخم بأسعار الحبوب)- كما سنوضح- انخفضت بشدة عبر أوروبا إبان القرن السادس عشر (كما رأينا في الفصل السابق) بعد قرن كانت خلاله مرتفعة في أنحاء شمال أوروبا كافة[١٤٦]. كما انخفضت الأسعار الحقيقية للقرفة والقرنفل والزنجبيل والبخور والميس، فضلاً عن الفلفل. وعلى ذلك، فإن طريق رأس الرجاء الصالح ساعد فعلاً في دمج الأسواق الأوروبية والآسيوية، وربما أدى قتال البنادقة والعثمانيين من أجل العودة إلى تجارة التوابل في أواخر القرن السادس عشر إلى تقوية هذا الاندماج، لأنه عزز المنافسة وخفض هوامش الربح وقرّب الأسعار الأوروبية من المستوى الآسيوي[١٤٧].

كما يمكن الدفع بأن طريق رأس الرجاء الصالح ساعد أيضاً في زيادة اندماج الأسواق داخل أوروبا بإسقاط الاحتكارات القديمة وزيادة المنافسة. فإبان القرن الخامس عشر كان على التجار الألمان الراغبين في شراء السلع الآسيوية من البندقية أن يحصلوا عليها من البندقية نفسها وفيها كانوا يضطرون للإقامة في فندق الألمان Fondaco dei Tedescht ويمارسون البيع والشراء تحت إشراف الحكومة البندقية. أما بداية من العام ١٥٠١، فقد شرع البرتغاليون في تصريف فلفل "المحيط الأطلسي" في أنتويرب. فحوّل آل فوغر Fuggers وغيرهم من الأسر التجارية الألمانية البارزة طلباتهم من البندقية إلى أنتويرب، وأصبحت ليونز Lyons مركز توزيع ثانوي، ويذكر كريستوف غلمان Kristof Glamann أن أسعار الفلفل في أنتويرب انخفضت إلى أدنى مستوياتها إبان العقد الثاني من القرن السادس عشر[١٤٨]. فقد أدار البرتغاليون سوق الفلفل في البداية

كاحتكار ملكي، حيث كانت الإمدادات السنوية تباع "بالجملة أو بكميات ضخمة لحساب الملك"[١٤٩]، لكنهم في العام ١٥٧٧ أعادوا تنظيم سياستهم، وسُمِح للمقاولين الخاصين بالمشاركة في السوق. وحاول التاجر الأوغسبرغي كونراد روت Konrad Rot أن يشكل اتحاداً يضم حكام سكسونيا والدنمرك وغيرهم للمزايدة على هذه الحقوق، وبالتالي احتكار سوق الفلفل البرتغالي كاملاً، لكنه لم يستطع أن يجمع الأموال اللازمة لإنجاز هذا المخطط الطموح. وثمة مشروع آخر أكثر طموحاً للاحتكار المشترك للإمدادات البرتغالية والبندقية كان يثيره الطرفان في مناسبات منفصلة، لكنه لم يثمر أبداً، فكان "حلماً لم يتحقق مطلقاً، لكنه استمر خلال القرن السادس عشر"[١٥٠]. وتمثلت النتيجة النهائية في استمرار المنافسة أشد حتى مما كانت عليه قبل رحلات داغاما.

لم تأت كلمة النهاية للأهمية التقليدية للبندقية في تجارة التوابل على أيدي البرتغاليين، بل الهولنديين والإنجليز. فمع حلول العقد الثالث من القرن السادس عشر، حلت أمستردام، وبعدها لندن، محل أنتويرب باعتبارها المصدر الرئيس للفلفل إلى أوروبا الغربية. ويذكر ويك Wake أن "مستوى جديداً للأسعار أصبح يحكم الأسواق الأوروبية. فبالنظر إلى أسعار الفضة، كانت هذه الأسعار أدنى بنحو ٣٠ أو ٤٠٪ من أسعار الاستيراد التي حافظ عليها البرتغاليون إبان القرن السابق[١٥١]. وكان هذا الانخفاض في الأسعار كافياً للقضاء على التجارة المشرقية من جانب البنادقة وغيرهم من مستوْردي البحر الأبيض المتوسط". وكانت المنافسة بين شركة الهند الشرقية الهولندية وشركة الهند الشرقية الإنجليزية على الفلفل العامل الرئيس وراء خفض الأسعار ورفع الاستهلاك في الأسواق الأوروبية. فكانت الشركتان الهولندية والإنجليزية متورطتيّن في لعبة تنافسية غير صفرية(٧٨)، حيث كانت الواحدة منهما تحاول أن تزيد حصتها من السوق على حساب الأخرى بزيادة العرض. وكما أوضح

(٧٨) في نظرية اللعب والنظرية الاقتصادية، تشير اللعبة غير الصفرية non-zero-game أو المجموع غير الصفري non-zero-sum إلى الموقف الذي تُراكِم فيه الأطراف المتفاعلة مكاسبٍ أو خسائر أكبر من الصفر أو أصغر منه، بمعنى أن الزيادة التي يحققها طرف لا تعني بالضرورة نقصاً موازِناً عند الأطراف الأخرى، وهنا قد تكون العملية تنافسية أو غير تنافسية [المترجم].

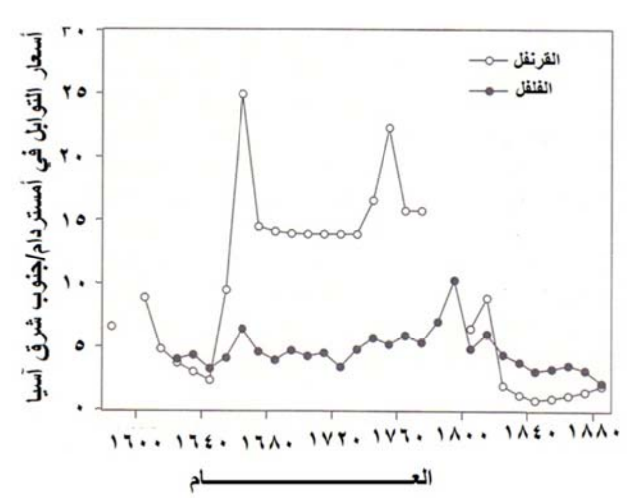
دوغلاس إروين Douglas Irwin ، فإن شركة الهند الشرقية الهولندية فعلت ذلك بسبب آلياتها التحفيزية التي قادت صناع القرار فيها إلى تعظيم العائد وليس الأرباح ، وهو ما يشير ضمناً إلى أنهم كانوا مستعدين لتوفير كميات أكبر من نظرائهم البريطانيين[١٥٢]. وفي أثناء ذلك، أسهم الجانبان كلاهما في خفض أسعار الفلفل إلى أقل من ستين فلوريناً لكل مئة رطل هولندي بحلول العقد السادس من القرن السابع عشر[١٥٣]، ولم ترتفع الأسعار كثيراً فوق هذا المستوى إلا نادراً على مدار بقية القرن وما بعده. وعلى الرغم من المنافسة الإنجليزية الهولندية ، يذهب ويك إلى أن البرتغاليين ، على خلاف البنادقة وموردي البحر الأبيض المتوسط الآخرين ، واصلوا العمل بنشاط في تجارة الفلفل ، وبدرجة أكبر في تجارة التوابل الفاخرة. وأسهم ذلك أيضاً بالطبع في زيادة الضغوط التنافسية في هذه الأسواق.

ثمة دعم غير مباشر لمقولة المنافسة يأتي من الأدلة المتعلقة بالتوابل الفاخرة ، وبالأخص القرنفل وجوز الطيب والميس التي كانت المنافسة فيها أقل حدة. فعلى خلاف حالة الفلفل ، التي كانت مصادر التوريد فيها متنوعة جداً لدرجة أن المشترين من المنبع كانوا مضطرين لدفع أسعار تنافسية- كما رأينا- كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تتمتع باحتكار الطلب(٧٩) في جزر الملوك التي كانت تنتج جوز الطيب والميس. والصورة المنبثقة عن تلخيص غالمان لهذه السياسة هي تباعد الأسعار بين الأسواق الآسيوية والأوروبية من خلال تعظيم الأرباح ، أو كما يقول "من خلال السيطرة على الجزر ، كانت الشركة تستطيع أن تثبّت تعسفياً سعراً منخفضاً للتسليم ، وتزيد بذلك الأرباح من التوابل إلى مستويات خيالية ، وصلت في أحيان كثيرة إلى أكثر من ١٠٠٠٪"[١٥٤].

يبيّن الشكل رقم (٤,٦) التأثيرات المتطرفة لسياسة احتكار الطلب. فإبان العقد التاسع من القرن السادس عشر ، حين كانت التوابل الآسيوية لا تزال تصل أمستردام عن طريق البرتغاليين (أو عبر الطرق البرية المشرقية التقليدية) ، كانت أسعار القرنفل في

(٧٩) احتكار الطلب monopsony هو حالة السوق التي يوجد فيه مشتري أو مستهلك واحد للمنتج ، يكون بالتالي قادراً على التأثير في سعره (Oxford English Dictionary)

أمستردام أعلى بستة أضعاف ونصف منها في جنوب شرق آسيا. وكان هامش الربح زهاء تسعة إبان العقد الأول من القرن السابع عشر، بعد إنشاء شركة الهند الشرقية الهولندية مباشرة، لكنه تراجع في عقود لاحقة إلى ما بين اثنين وخمسة. ثم جاءت السيطرة الكاملة على مصادر التوريد لترفع أرباح الشركة فوراً، فارتفع هامش السعر إلى تسعة ونصف إبان العقد السادس من القرن السابع عشر، وإلى خمسة وعشرين إبان العقد السابع من القرن نفسه وهو رقم استثنائي، قبل أن يتراجع إلى مستوى متوازن عند نحو أربعة عشر أو خمسة عشر الذي استمر دون تغيير تقريباً حتى العقد الثامن من القرن الثامن عشر. والمقارنة مع الفلفل مذهلة، فهوامش أسعار الفلفل ظلت بين ثلاثة وأربعة حتى القرن التاسع عشر، باستثناء ارتفاعات عرضية في أوقات الحروب. وكانت هذه الهوامش هي نفسها تقريباً هوامش القرنفل بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية كمنافس جدي على التجارة الآسيوية، لكن قبل أن تنجح في السيطرة على إمدادات القرنفل في منبعها (أي إبان الفترة الممتدة من العقد الثاني إلى العقد الخامس من القرن السابع عشر). وتظهر أهمية بنية السوق جلية في هذه البيانات.



الشكل رقم (٤،٦). أسعار التوابل: أمستردام في مقابل جنوب شرق آسيا إبان الفترة ١٥٨٠–١٨٩٠.

المصدر: Bulbeck et al. (1998)

ثمة حلقة وصل اقتصادية مهمة أخرى بين البندقية والإمبراطورية العثمانية تمثلت في بيع الأقمشة الصوفية البندقية عالية النوعية للإمبراطورية. وفي أثناء القرن السابع عشر، حل الهولنديون والإنجليز- هنا أيضاً- محل البنادقة وغيرهم من المنتجين الإيطاليين في الأسواق المشرقية لهذه السلع المصنعة الأساسية. يفسر تشارلز ويلسون Charles Wilson ذلك بإحكام بليغ بالقول إن "الأتراك كانوا يريدون أقمشة خفيفة رخيصة، فيما كان البنادقة يوردون أقمشة ثقيلة غالية"[١٥٥]. فقد كانت البندقية مقيّدة بتعليمات النقابات الحرفية التي أصرت على الحفاظ على نوعية عالية وسعر باهظ. فيما كان الشماليون يخفّضون النوعية والسعر ويلجؤون إلى وسائل مجردة من الأخلاق مثل التهريب والتزييف بوضع علامات بندقية على منتجاتهم الأرخص، وهي ممارسات لا تزال مألوفة إلى اليوم[١٥٦]. ولذلك يذهب راب Rapp إلى أن "غزو البحر الأبيض المتوسط، وليس استغلال المحيط الأطلسي، هو الذي أنتج العصور الذهبية لأمستردام ولندن"[١٥٧]، بينما يرجع نجاح الإنجليز إلى "نوع من الثورة في التسويق" وفرت للمستهلكين المشرقيين ما كان يبدو أقمشة صوفية فاخرة، لكنها كانت أرخص كثيراً نتيجة للنوعية الرديئة والمواد الخام الرديئة.

تتمثل الخلفية السياسية والدبلوماسية "لغزو" القوى الشمالية للتجارة والملاحة في شرق البحر الأبيض المتوسط في العداوة المشتركة التي جمعتهم مع العثمانيين ضد القوة الكاثوليكية الكبرى ممثلة في إسبانيا الهابسبورغية المتحالفة مع البابوية. وقد كان العثمانيون بعد هزيمتهم في ليبانتو في العام ١٥٧١ متلهفين لدعم الإنجليز والهولنديين البروتستانت، وهو ما تيسر بكون فيليب الثاني الإسباني عدواً مشتركاً لهاتين القوتين البحريتين العظميين. وقد مَنَحَ العثمانيون للإنجليز اتفاقية تجارية أو "امتيازات تجارية" في العام ١٥٨٠، أعطتهم الحق في حرية التجارة في الموانئ العثمانية في مقابل دفع ٣٪ فقط كرسوم جمركية بدلاً من نسبة الـ٥٪ المعتادة التي كان البنادقة والفرنسيون يدفعونها. وكوّن مجموعة من "التجار البربر" الإنجليز شركة المشرق(٨٠) التي وفرت الإطار الذي

---

(٨٠) التجار البربر Barbary Merchants هم تجار الشركة البربرية أو شركة المغرب الإنجليزية التي تأسست في العام ١٥٨٥ لاحتكار التجارة مع شمال أفريقيا، وسبقتها إلى الوجود شركة المشرق Levant Company

صدّرت إنجلترا من خلاله أقمشتها الصوفية إلى الأسواق العثمانية وإلى الشرق من الإمبراطورية العثمانية، في مقابل واردات الحرير الطبيعي والنبيذ والزبيب. وتضمنت الصادرات الإنجليزية الأساسية الأخرى مواد الحرب مثل القصدير والرصاص والفولاذ، فضلاً عن الأسلحة. وإضافة إلى حرمان البندقية من سوق الأقمشة الصوفية عالية النوعية، حل الإنجليز محلها أيضاً في تجارة الشحن بالبحر الأبيض المتوسط للإمبراطورية العثمانية. وحدث الدخول الهولندي إلى تجارة المشرق على المنوال الإنجليزي، وإن وصلوا متأخرين، حيث حصلوا على امتيازاتهم في العام ١٦١٢، وكان تركيب صادراتهم ووارداتهم مماثلاً أيضاً لنظيره الإنجليزي. ويذكر إزرائيل أن التجارة الهولندية في البحر الأبيض المتوسط شهدت تراجعاً شديداً بعد استئناف الأعمال العدائية مع إسبانيا في العام ١٦٢١، لكنها انتعشت في النهاية وازدهرت بعد نهاية الحرب في العام ١٦٤٨[١٥٨].

قدم بوب ألين Bob Allen مؤخراً أدلة من القياس الاقتصادي تقترح أن خسارة البندقية كانت في حقيقتها لصالح إنجلترا، وأن نمو الإنتاجية في "هذه الأقمشة الجديدة" كان عاملاً رئيساً في النجاح الاقتصادي الإنجليزي في تلك الفترة من العصر الحديث المبكر[١٥٩]، إذ "قدمت دفعة قوية للتحول الحضري ونمو الصناعة الريفية. ومن خلال هذه التأثيرات، كان نجاح الأقمشة الجديدة مسؤولاً عن نسبة كبيرة من النمو في إنتاجية العوامل الإجمالية في الزراعة، حيث تجاوب المزارعون بنجاح مع الطلب الأعلى على الغذاء والصوف والعمل. ولولا هذا النجاح إبان القرن السابع عشر، لكانت الأجور والإنتاجية الزراعية وحجم المدن والحضر أدنى مما وصلت إليه في العام ١٨٠٠"[١٦٠](٨١).

كان الحرير هو القطاع الصناعي الرئيس في الاقتصاد العثماني. وقد ظلت مدينة بورصة الواقعة إلى جنوب بحر مرمرة لفترة طويلة مركز تصنيع الأنسجة الحريرية

أو شركة تركيا التي تأسست في العام ١٥٨١ لاحتكار التجارة مع المشرق وما وراءه التي كان تجارها يعرفون باسم تجار تركيا Turkey Merchants [المترجم].

(٨١) تُعرِّف الموسوعة البريطانية القياس الاقتصادي econometrics بأنه "التحليل الإحصائي والرياضي للعلاقات الاقتصادية". وتشير إنتاجية العوامل الإجمالية Total Factor Productivity إلى مقياس لمستوى التقنية في قطاع معين أو بلد محدد.

والسوق الذي يحدث فيه تبادل السلع المصنعة الغربية من كل الأنواع، وبخاصة الأقمشة الصوفية، مع الحرير الطبيعي الفارسي، وكذلك التوابل وغيرها من السلع الهندية الأخرى. ويذكر إناجلك Inalcik أن بورصة كانت تضم زهاء ألف من أنوال الحرير نحو العام ١٥٠٠، كانت تنسج زهاء ستة وثلاثين طناً من الحرير الطبيعي سنوياً، فيما كانت ست قوافل سنوياً على الأقل تجلب مئة وعشرين طناً من الحرير الطبيعي من الشرق. معنى ذلك أن نحو ثلثي الحرير الطبيعي الذي يصل إلى بورصة كان يتجه إلى أوروبا[١٦١]. وكان الاعتماد "العمودي" بين الاقتصادين الصفوي والعثماني الناتج عن تجارة الحرير يشكل إغراءً للطرفين لشن حرب اقتصادية على الآخر بإعلان حظر الاستيراد أو التصدير. فتسبب السلطان سليم الأول العابس في الخراب في ممالكه وفي إيطاليا بحظر الاستيراد الذي رفعه ابنه سليمان في النهاية حين وصل إلى السلطة في العام ١٥٢٠. وعلى الطرف الآخر، فرض الشاه عباس الأكبر احتكاراً للتصدير، على أمل تحويل الإمدادات بعيداً عن الطرق البرية ونحو رأس الرجاء الصالح، لكنه فشل كما حدث مع سليم، وأعاد خليفته وحفيده الشاه صفي فتح التجارة في العام ١٦٢٩.

كانت بورصة تخدم الطرق التجارية الشمالية-الجنوبية المهمة وكذلك الطرق الشرقية - الغربية. فكانت السلع الشرقية تنقل براً من بورصة إلى براشوف Brasov على الحدود بين والاشيا وترانسلفانيا، ومن مينائي أكيرمان Akkerman وكيليا Kilia على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود إلى لفيف Lwow في شرق بولندا على أيدي تجار عثمانيين وبلقانيين، ومنها كانت تنقل إلى شمال أوروبا. ومن الواضح أن الأقمشة الحريرية المطرزة القادمة من بورصة كانت اللباس المفضل للنخب البولندية وحتى السويدية في تلك الأزمان. وفي المقابل كانت الأقمشة الصوفية والأدوات المعدنية والصناعات الأوروبية الأخرى تُنقَل في الاتجاه المعاكس. وعلى الرغم من هذه الروابط التجارية، كانت بولندا والعثمانيون يتنافسون بشدة على السيطرة على المنطقة بين نهر الدنيبر ونهر الدنيستر Dniester، وكان الحكام المسيحيون لمولدافيا واقعين فريسة بين القوتين العظميين.

ظل المركز التجاري الجنوي القديم بمدينة كافا على أهميته تحت الحكم العثماني، حيث كان حلقة الربط بين اسطنبول والقوة المتنامية لموسكو التي كانت المصدر الرئيس للفراء الذي كان عليه طلب قوي في البلاط العثماني. وكان البحر الأسود في تلك الفترة بحيرة عثمانية بكل معنى الكلمة، أكثر بكثير مما كان في عهد بيزنطة، وذلك لأن العثمانيين لم يسمحوا للجنويين أو القوى الأخرى بتحصين مستوطناتهم التجارية. وكان تموين اسطنبول يتطلب صادرات الحبوب والسمك والماشية بوفرة من القرم، فضلاً عن الأهمية الكبيرة لتجارة العبيد. وقد وجدت القبائل البدوية بسهول القرم في غارات صيد العبيد على السكان المستقرين في بولندا وروسيا والمنطقة الشركسية مكملاً مربحاً لتربية الماشية، حتى أن إنالجك يقول إنها أصبحت الركيزة الأساسية لاقتصادهم، فكانوا يصدّرون عشرة آلاف عبد سنوياً على الأقل إبان الفترة ١٥٠٠- ١٦٥٠[١٦٢]. وكانت الصادرات الأناضولية التي توازن هذه الواردات تتضمن المنتجات الأولية مثل النبيذ والبندق والفاكهة، وكانت المنسوجات القطنية الخشنة المنتجة محلياً مادة تصديرية رئيسة أخرى، ما يكشف عن تكامل الشاطئين الشمالي والجنوبي للبحر الأسود. وعلى الرغم من هذه النشاطات الكثيرة وغيرها، ظلت إعادة تصدير التوابل الهندية، وبخاصة الفلفل، الركيزة الأساسية للتجارة. فيلاحظ إنالجك أن "الظروف الجغرافية والإحوال الاقتصادية، وبخاصة تكاليف النقل، أنتجت منطقة منفصلة للتوابل على خط شرق فيينا وإيطاليا"[١٦٣]. وهكذا، ففي حين كان طريق رأس الرجاء الصالح يلبي احتياجات أوروبا الغربية، ظلت منطقة واسعة في أوروبا الشرقية والوسطى ودول البلقان والمقاطعات العثمانية تلبي احتياجاتها من خلال التجارة المشرقية.

أظهر العالم الإسلامي مرة أخرى في هذه الأزمان، كما في عصره الذهبي، درجة عالية من حركية العوامل الدولية ضمن الإطار الثقافي المشترك للقانون والدين الإسلاميين. فكان الشعراء الفارسيون يمتدحون السلاطين، ليس داخل الدولة الصفوية وحسب، بل أيضاً السلاطين المغول العظماء[١٦٤]. وكان التجار الأتراك يمتلكون مستعمرات في سومطرة البعيدة وفي موانئ غوجارات، فيما كان التجار والمصرفيون

الهنود متواجدين في إيران وتركيا وحتى في روسيا. وكان المرتزقة والخبراء العسكريون العثمانيون يتنقّلون في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ينشرون معرفتهم بالأسلحة النارية وطرق استخدامها. كما أُثْرِيْت العمارة والرسم والخزف والفنون الزخرفية جميعها بفضل الاتصال بين الثقافات، ليس ضمن العالم الإسلامي وحسب، بل أيضاً عبر خطوط الفصل الدينية الكبرى.

الفضة والحرير والتوابل

إذا كان سحر تجارة التوابل إحدى القوى الدافعة الأساسية التي أدت إلى الاندماج الدولي إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد كان طوفان الفضة الذي تدفق حول العالم بفضل مناجم العالم الجديد شريان الحياة "للجهاز الدوري" للاقتصاد العالمي كما أسماه فيرناند بروديل[١٦٥]، "حيث كان التدفق الثابت للعملات الذهبية والفضية، من كل شكل، ينتقل من الغرب إلى الشرق متبعاً دوران الأرض، حاملاً معه الكثير من السلع كنوع من العملة المكملة، ومطلقاً في الاتجاه المعاكس تدفقاً ثرياً ومتنوعاً من السلع المختلفة والسلع الثمينة من الشرق إلى الغرب". ضمت هذه السلسلة الفضية التي طوقت الكرة الأرضية حلقات فردية كثيرة، يستحق كل منها منفرداً وقفة تأمل.

ابتداءً من أوروبا الغربية وتجارة البلطيق، كان هناك عجز دائم في تبادل النبيذ والأقمشة والمصنوعات الغربية الأخرى في مقابل واردات المنتجات الأولية الشرقية مثل الحبوب والخشب والفراء، وهو العجز الذي تغلبت عليه الفضة الآتية من الأمريكتين. لكن هذه الفضة بدورها بدأت تُستنزَف لصالح الشرق في مقابل الحرير الفارسي وغيرها من المنتجات الفاخرة من الشرق الأوسط. وأدت تجارة المشرق الأوروبية عبر البحر الأبيض المتوسط أيضاً إلى تدفق الفضة لشراء التوابل الشرقية عبر البحر الأحمر والخليج العربي. وأخيراً، أدى طريق رأس الرجاء الصالح الذي دشنّه البرتغاليون، لكن استخدمته بعد ذلك كل الأمم التجارية الأوروبية، إلى تدفق آخر للفضة في مقابل التوابل والحرير والمنسوجات القطنية. وكانت الفضة الأمريكية تصل إلى آسيا أيضاً

بطريقة مباشرة عبر مانيلا التي كانت - كما رأينا - مسرحاً لتبادل الحرير والسلع الصينية الفاخرة الأخرى، فيما كانت اليابان مصدراً رئيساً آخَر للفضة التي جرى تبادلها أيضاً مع الحرير الصيني بالدرجة الأولى عبر وساطة التجار الأوروبيين.

ما مقادير الفضة المتضمنة في هذه التدفقات؟ ليس غريباً أن يثار جدل كبير حول الأحجام المطلقة أو حتى النسبية للتدفقات المختلفة، لكن الدراسات الأخيرة تساعدنا في توضيح عدة قضايا رئيسة. نركز- أولاً- على ما كان - بلا شك - التدفق الأكبر للفضة في العصر الحديث المبكر، أي التدفق بين الأمريكتين وأوروبا. يقدم باريت أرقاماً للإنتاج الأمريكي للفضة بين سبعة عشر ألف طن إبان القرن السادس عشر، وأربعة وثلاثين ألف طن إبان القرن السابع عشر، وواحد وخمسين ألف طن إبان القرن الثامن عشر[١٦٦]. ومن بين هذا الإجمالي، كان نحو ٨٥٪ يُنقَل إلى أوروبا في الثلاثة أرباع الأولى من القرن السادس عشر، لكن هذه الحصة انخفضت إلى ما بين ٧٠٪ و٧٥٪ بين العام ١٥٧٦ والعام ١٧٧٥. وعلى ذلك، فإن متوسط الاستيراد السنوي إلى أوروبا من الأمريكتين بلغ مئتين وخمسة أطنان من الفضة ومكافئها إبان الفترة ١٥٥١-١٦٠٠، ومئتين وخمسة وأربعين طناً إبان الفترة ١٦٠١-١٦٢٥، ومئتين وتسعين طناً إبان الفترة ١٦٢٦-١٦٥٠.

ومن بين هذه الكميات، تقدّر بيانات باريت أن مئة طن ومئة وخمسة وعشرين طناً كان يعاد تصديرها من أوروبا إبان الفترة ١٦٠١-١٦٢٥ والفترة ١٦٢٦-١٦٥٠ على التوالي، فيما كان مئة وخمسة وأربعون طناً ومئة وخمسة وستون طناً، أي ٥٩٪ و٥٧٪ يُحتفَظ بها داخل أوروبا إبان الفترتين. تعتمد بيانات باريت للصادرات الأوروبية بالدرجة الأولى على عمل أرتر أتمان Artur Attman، وهي الأرقام التي انتقدها بيرسون Pearson لكونها تقلل حجم إعادة التصدير الأوروبي وبالتالي تزيد ما كان يُحتفَظ به من الفضة الأمريكية داخل أوروبا[١٦٧]. ويشير بيرسون إلى أن أتمان نفسه وصف أرقامه للصادرات الأوروبية بأنها "محافظة جداً". وفي المقابل، فحتى مع قبول هذه التحيزات يظل من الصعب تقبل الادعاء بأن دور أوروبا اقتصر على دور الوسيط في تجارة الفضة العالمية، باستيرادها من أمريكا وإعادة تصديرها كلها. فالطلب

الأوروبي على الفضة ولو فقط لتوفير السيولة اللازمة لمواكبة نموها الاقتصادي الذي لم يكن تافها في تلك الفترة، يبدو أنه كان مهما في ذاته.

لكن أوروبا لم تكن "البالوعة" الوحيدة للفضة في تلك الفترة التي كثيراً ما يتم إغفالها. فالشكل رقم (٤،٤) يوضح فجوة متنامية بين إنتاج الفضة بالعالم الجديد وصادرات الفضة بعد منتصف القرن السادس عشر، ما يكشف أن كميات متزايدة من الفضة كانت تستخدم أيضاً لدعم الاقتصادات الأمريكية المتنامية. وبالتزامن مع ذلك، حدثت زيادة في انتقالات الفضة بين المناطق ضمن الإمبراطورية الإسبانية، تتناقض جميعها، كما يشير غريف وإيريغوين Grafe and Irigoin، مع صورة الدولة الإسبانية الاستبدادية اللصوصية التي تستنزف الموارد من مستعمراتها بلا رحمة[١٦٨].

فقد بلغ التدفق من أمريكا إلى الفلبين نحو سبعة عشر طناً سنوياً في النصف الأول من القرن السابع عشر، إذا صدقنا أرقام تيباسك TePaske، أو ثمانية وثلاثين طناً سنوياً وفقاً لأرقام فون جيلان von Jlahn، أو حتى خمسين طناً سنوياً وفقاً لأرقام فلين وجيرالديز[١٦٩]. وكانت اليابان – كما رأينا – مصدراً رئيساً آخر للفضة، حيث كانت منتجاً أساسياً لها في تلك الفترة، وبخاصة في السنوات من العام ١٥٦٠ إلى العام ١٦٤٠. وأدى التجديد التقني القادم من كوريا المسمى عملية "نفخ الرماد" لفصل الفضة عن الرصاص بعد الصهر إلى زيادة الإنتاج بشدة في المناجم الواقعة في مقاطعة إيوامي الغربية اليابانية، إذ جرى تبني هذا التجديد على نطاق واسع كما يذكر يامامورا وكاميكي Yamamura and Kamiki[١٧٠]. ومن اللافت للنظر أنهما يذكران أن عملية ملغم الزئبق المستخدمة في بوتوسي كانت معروفة لليابانيين نتيجة للاتصال مع المبشرين الإسبان، لكنهم لم يستخدموها لعدم توفر الزئبق محلياً.

تبيّن المجموعة (أ) بالجدول رقم (٤،٤) أرقام فون جيلان لواردات الفضة الصينية في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر (محوّلة إلى المتوسطات

السنوية)، وكذلك التقديرات السابقة لياماورا وكاميكي. يميّز الجدول بين ثلاثة مصادر للتوريد، هي اليابان والعالم الجديد (عن طريق الفلبين) وأوروبا (عن طريق الهند). وكما يتضح في الجدول، فإن الفرق الكبير بين مجموعتي التقديرات يكمن في الدور النسبي للتوريد الياباني إبان الفترة ١٦٠٠-١٦٤٥، حيث تشير تقديرات ياماورا وكاميكي إلى أن معظم الواردات الصينية كانت تأتي من اليابان في النصف الأول من القرن السابع عشر. ويقول بيرسون إننا لو قبلنا هذه الأرقام، فإن صادرات الفضة اليابانية إلى الصين على مدى السنوات الثمانين من العام ١٥٦٠ إلى العام ١٦٤٠ تشكل ٣٦٪ من إنتاج العالم الجديد، وهي نسبة عالية جداً[١٧١]. ونحن لذلك نميل إلى تأييد تقديرات فون جيلان، كما يفعل مؤرخون آخرون مثل دي فريز[١٧٢]. وذلك يوضح أن اليابان وفرت نحو نصف الواردات الصينية بين العامين ١٥٥٠ و١٦٤٥، وهي النسبة التي اقتربت من ٦٠٪ في أواخر القرن السادس عشر. وكان العالم الجديد يوفر ما بين ربع وثلث احتياجات الصين من الفضة، وكان السُدس تقريباً يأتي من أوروبا عبر الهند، على فرض أن نحو نصف الفضة التي كانت تصدّر من أوروبا إلى الهند كانت تنتقل في النهاية إلى الصين[١٧٣]. وإبان الفترة ١٦٠٠-١٦٤٥، وهي السنوات الأخيرة لإمبراطورية مينغ قبل أن يسقطها المانشو(٨٢)، يقدّر فون جيلان واردات الفضة الصينية السنوية بنحو مئة وأحد عشر طناً، أي أكثر من ضعفها إبان الفترة السابقة. وبأخذ الفترتين معاً، نجد أن الصين استوردت سبعة آلاف وثلاثمئة طن من الفضة من كل المصادر، وهو رقم هائل فعلاً.

(٨٢) المانشو Manchus شعب تانكوتي ترجع أصوله إلى منشوريا، يُعرَف أيضاً باسم المانشو ذوي الشُرّابات الحمراء، يتواجدون حالياً بالدرجة الأولى في الصين التي يشكلون فيها رابع أكبر جماعة عرقية وثالث أكبر أقلية [المترجم].

الجدول رقم (٤,٤) .واردات الفضة الصينية والهندية إبان الفترة ١٥٥٠-١٦٤٥ (المتوسطات السنوية بالأطنان).

(أ) الواردات الصينية		
المصدر والناقلون	١٥٥٠-١٦٠٠	١٦٠١-١٦٤٥
اليابان		
البرتغاليون	١٤.٨ -١٨.٤	١٤.٤
الصينيون	٩.٠	١٣.٣
"سفن الختم القرمزي"	٠.٠	١٨.٧
الهولنديون	٠.٠	٧.٦
المهربون	؟	؟
الإجمالي الفرعي	٢٣.٨-٢٧.٤+	٥٤.٠
(تقدير يامامورا وكاميكي)	٢٧.٠-٣٩.٠	١٣٣.٣-١٦٦.٧
العالم الجديد/الفلبين		
الصينيون	١١.٧	١٣.٨
البرتغاليون	٠.٠	١.٧
المهربون	؟	٢٢.٩
الإجمالي الفرعي	١١.٧	٣٨.٣
(تقدير يامامورا وكاميكي)	٨.٤	٢٠.٠
المحيط الهندي/أوروبا	١٨.٩	٧.٦
الإجمالي	٤٣.١ -٤٦.٧+	١١١.٣+
(تقدير يامامورا وكاميكي)	٣٥.٤ -٤٧.٤	١٥٣.٣ -١٨٦.٧

(ب) الواردات الهندية			
المصدر	١٥٨٨-١٦٠٢	١٦٣٠-١٦٤٥	١٦٧٩-١٦٨٥
الخليج العربي	٢٧.٨	٢٥	٣٠
أصفهان- أكرة	١٠	٥	١٠
البحر الأحمر	٧٥	٤٠	٥٦
البرتغاليون	١١.٢	٣	٠
الإنجليز	٠	٥.٢	٢٥.١
الهولنديون	٠	٦.٦	٩.٧
الإجمالي	١٢٤	٨٤.٨	١٣٠.٨

المصدر : von Glahn (1996b, table 13, p. 140) and Haider (1996, table 9, p. 323)

لكن لماذا كانت الصين تستورد هذا القدر الكبير من الفضة؟ تتمثل الإجابة المباشرة في القيمة العالية التي يضفيها الصينيون على الفضة مقارنة بالذهب، كما لاحظ كثير من المعلقين المعاصرين، وهذه الإجابة تؤكدها النسبة المنخفضة ٥ : ١ للسعر النسبي للوزن نفسه من المعدنين، في مقابل نحو ١٢ : ١ في أوروبا. ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى تدفق الفضة إلى الصين. لكن على المستوى الأعمق، كان السعر المرتفع للفضة في الصين ناتجاً عن محدودية الإنتاج المحلي والطلب القوي على سبائك الفضة كوسيط للتبادل ودفع الضرائب بسبب انهيار العملة الورقية والعملة البرونزية إبان عهد إمبراطورية مينغ[١٧٤]. وقد دفع ذلك القطاع الخاص والحكومة نفسها للاعتماد على نحو متزايد على سبائك الفضة في كل المعاملات، فيما استلزمت ندرة الإنتاج المحلي بدورها ضرورة استيراد معظم الفضة. وتزامن الطلب الصيني المتصاعد على الفضة مع العرض المتنامي في الأمريكتين واليابان، ولذلك كانت التجارة واسعة النطاق نتيجة حتمية.

دفع الاعتماد الصيني على المصادر الأجنبية للفضة بعض الدارسين البارزين إلى الذهاب إلى أن تراجعاً خارجياً مفاجئاً وحاداً في واردات الفضة كان المسؤول عن انهيار سلالة مينغ في العام ١٦٤٤ وحلول سلالة مانشو تشينغ التي دامت حتى العام ١٩١١ محلها[١٧٥]. ووفقاً لهذه الرؤية للأحداث، فقد نتج سقوط سلالة مينغ عن "أزمة القرن السابع عشر" العالمية التي قابلناها آنفاً. تذهب هذه الحجة- بإيجاز- إلى أن النظام أصبح يعتمد بشدة على واردات الفضة كأساس لنظامه النقدي والمالي لدرجة أن الانخفاض المفاجئ في الواردات بسبب طرد شوغونية توكوغاوا للبرتغاليين وحظر الصادرات اليابانية المرخصة إلى الصين وما رافق ذلك من انقطاع لتدفق فضة العالم الجديد إلى مانيلا أدى إلى أزمة مالية حادة. وأدى التراجع في الدخل وبالتالي الإنفاق العسكري، فضلاً عن السخط الريفي على الإجراءات المتخذة للتعويض عن نقص الدخل، إلى تمكين سلالة مانشو من إسقاط سلالة مينغ. تنطوي هذه الفرضية على المستوى النظري على المغالطة التي يقع فيها المؤرخون عادة حين يستخدمون النظرية الكمية للنقود، وهي تحديداً خلط دور المخزون النقدي باعتباره المحدد الأساسي لمستويات الأسعار

والدخل الاسمي مع تدفق واردات الفضة وهي مجرد زيادة على هذا المخزون. وقد تعرضت الفرضية القائلة بأن نقص الفضة هو الذي أدى إلى سقوط إمبراطورية مينغ للتفنيد على المستوى التجريبي الأساسي من جانب مالوغني وشيا Maloughney and Xia وفون جيلان[١٧٦]. فلم يحدث تراجع في إجمالي واردات الفضة قبل العام ١٦٤٤، لأن طرد البرتغاليين من ناجازاكي عوضت عنه تماماً الزيادات في الواردات من جانب التجار الهولنديين والصينيين المحليين، وفي حالة مانيلا عوضت الإمدادات غير الرسمية عن التراجع في الإمدادات المرخصة من الدولة.

وبعيداً عن الصين، كانت الهند المغولية البالوعة الآسيوية الكبرى الأخرى للفضة الأمريكية في هذه الفترة. يقدم نجف حيدر Najaf Haider تحليلاً كمياً قيّماً لمصادر واردات الفضة للإمبراطورية المغولية، وهو التحليل الذي استخدمناه في المجموعة (ب) بالجدول رقم(٤,٤)[١٧٧]. فنتيجة لندرة البيانات، يقدم حيدر تقديرات مفصلة لثلاث فترات فرعية فقط: ١٥٨٨-١٦٠٢ و١٦٣٠-١٦٤٥ و١٦٧٩-١٦٨٥. بالنسبة للفترة الأولى يقدّر حيدر تدفقاً سنوياً قدره مئة وأربعة وعشرون طناً، كان أكثر من نصفها يأتي من البحر الأحمر من المقاطعات العثمانية والصفوية، وكان الربع تقريباً يأتي من الخليج العربي (ثلثا الاثنين والأربعين طناً تقريباً التي كانت تصدّر من ميناء هرمز سنويا)، فيما كان الباقي يأتي عبر الطريق البري من إيران إلى أكرة عبر قندهار وعبر رأس الرجاء الصالح من خلال البرتغاليين. وانخفضت الواردات بنحو الثلث إبان الفترة التالية ١٦٣٠-١٦٤٥، مع انخفاض تدفقات البحر الأحمر إلى النصف تقريباً. وشهدت الفترة الثالثة ٦٧٩-١٦٨٥ تحسناً، إذ ارتفع متوسط التدفق السنوي إلى مئة وواحد وثلاثين طناً، مع زيادة الحصة التي تنقلها الشركتان الهولندية والإنجليزية وتراجع حصة البرتغاليين. وعلى ذلك يبدو أن الإمبراطورية المغولية كانت تستورد نحو مئة طن من الفضة سنوياً في تلك الفترة، مع أن هذه الكمية كانت تشهد تقلبات حادة. وبذلك كان إجمالي واردات الهند أكبر كثيراً من واردات الصين في أواخر القرن السادس عشر، ونفس حجم الواردات الصينية في أوائل القرن السابع عشر. لكن لا بد

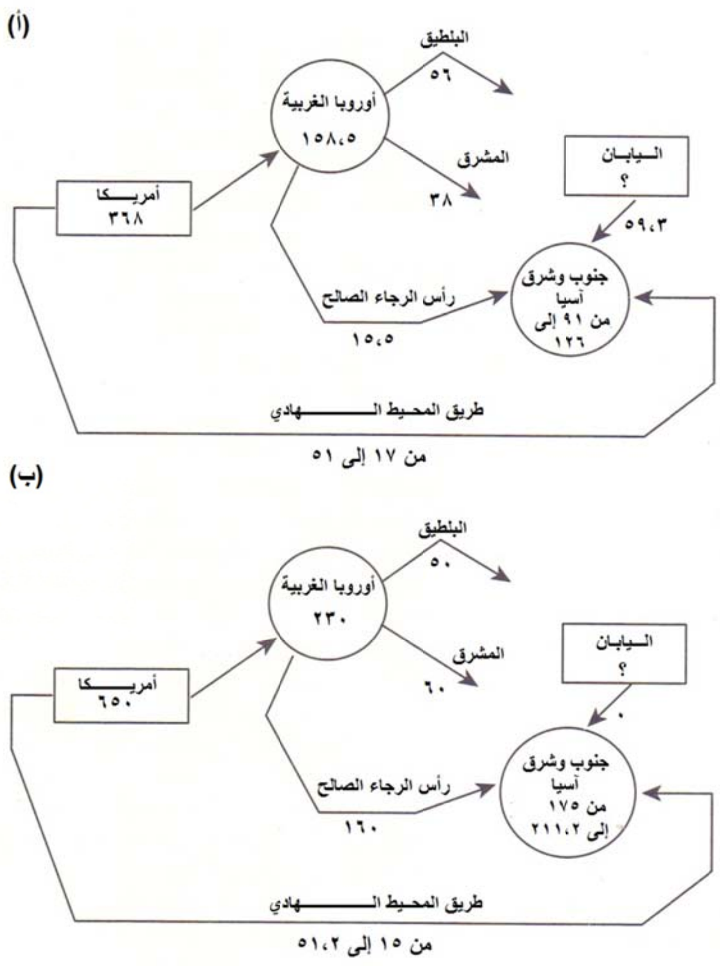
أن ننبّه إلى أن هذه الأرقام للاستيراد الهندي إجمالية وغير صافية، لأن الفضة الهندية كانت تُنقَل أيضاً إلى الشرق وينتهي بها المطاف إلى الصين.

يوجز الشكل رقم (٤,٧) الوضعية الحالية لمعرفتنا حول تدفق الفضة العابر للقارات، كما مسحها باحترافية جان دي فريز[١٧٨]. يعيد الشكل إنتاج مخططي التدفق اللذين قدمهما دي فريز لإنتاج المعادن النفيسة وتجارتها وامتصاصها إبان الفترتين ١٦٠٠-١٦٥٠ و١٧٢٥-١٧٥٠. يقبل دي فريز أرقام باريت للإنتاج والتصدير الأمريكيين إلى أوروبا، وبيانات أتمان للصادرات الأوروبية (التي ربما قللت التقديرات كما رأينا)، وتقديرات فون جيلان لصادرات الفضة اليابانية. لكنه في المقابل، يشكّ في القيم النسبية لتقديرات تيباسك وفلين وجيرالديز للتدفقات عبر الفلبين. وتُحسَب بيانات امتصاص الفضة في جنوب وشرق آسيا على أنها تساوي مجموع التدفق من اليابان ومن الفلبين ومن أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح، وهو يساوي ما بين واحد وتسعين ومئة وتسعة وعشرين طناً سنوياً إبان الفترة ١٦٠٠-١٦٥٠[٨٣].

يتضح من الشكل أنه في النصف الأول من القرن السابع عشر كان التدفق حول رأس الرجاء الصالح يشكل حصة صغيرة نسبياً من التدفق الكلي، حيث كان أقل من ٦٪ من الواردات الأوروبية من أمريكا، أو ٤٪ فقط من الإنتاج الأمريكي. وكان تدفق الفضة من أوروبا الغربية إلى المشرق أكثر من ضعف تلك النسبة، وكان التدفق إلى البلطيق أكثر من ثلاثة أضعاف تلك النسبة. وكان تدفق الفضة حول رأس الرجاء الصالح أدنى أيضاً من صادرات الفضة المباشرة إلى مانيلا، أي أقل من ثلث الحجم لو قبلنا تقدير فلين وجيرالديز. على أن ذلك يتفق مع الانتعاش الذي حدث في آخر القرن السادس عشر لطرق التجارة البرية القديمة الذي أشرنا إليه في موضع سابق. ويوضح الشكل أيضاً مدى إسهام الفضة اليابانية في تيسير التجارة الأوروبية مع الصين، حيث كان تدفق الفضة اليابانية إلى الصين نحو أربعة أضعاف الصادرات الأوروبية عن طريق

(٨٣) لاحظ مع ذلك أنه لو كانت البيانات الهندية في الجدول رقم (٤,٤) صحيحة، فلا بد أن امتصاص جنوب وشرق آسيا كان أكبر من ذلك بكثير.

رأس الرجاء الصالح. يعبر دي فريز عن ذلك بالقول بأن "التجارة الآسيوية البينية أنتجت اقتصادات كبرى 'بالتكلفة النقدية' الأوروبية للسلع الآسيوية"[١٧٩].



الشكل رقم (٤,٧) تدفق الفضة العابر للقارات في أوائل القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر (بالكيلوغرام سنويا): (أ) الفترة ١٦٠٠-١٦٥٠، (ب) الفترة ١٧٢٥-١٧٥٠

ملحوظة: تشير الأرقام الواردة في مستطيلات (المناطق المصدّرة) إلى الإنتاج، فيما تشير الأرقام الواردة في دوائر (المناطق المستوّردة) إلى الامتصاص المحلي.

المصدر: de Vries (2003, figure 2.3a,b)

يتضح من الشكل أنه في النصف الأول من القرن السابع عشر كان التدفق حول رأس الرجاء الصالح يشكل حصة صغيرة نسبياً من التدفق الكلي، حيث كان أقل من ٦٪ من الواردات الأوروبية من أمريكا، أو ٤٪ فقط من الإنتاج الأمريكي. وكان تدفق الفضة من أوروبا الغربية إلى المشرق أكثر من ضعف تلك النسبة، وكان التدفق إلى البلطيق أكثر من ثلاثة أضعاف تلك النسبة. وكان تدفق الفضة حول رأس الرجاء الصالح أدنى أيضاً من صادرات الفضة المباشرة إلى مانيلا، أي أقل من ثلث الحجم لو قبلنا تقدير فلين وجيرالديز. على أن ذلك يتفق مع الانتعاش الذي حدث في آخر القرن السادس عشر لطرق التجارة البرية القديمة الذي أشرنا إليه في موضع سابق. ويوضح الشكل أيضاً مدى إسهام الفضة اليابانية في تيسير التجارة الأوروبية مع الصين، حيث كان تدفق الفضة اليابانية إلى الصين نحو أربعة أضعاف الصادرات الأوروبية عن طريق رأس الرجاء الصالح. يعبر دي فريز عن ذلك بالقول بأن "التجارة الآسيوية البينية أنتجت اقتصادات كبرى 'بالتكلفة النقدية' الأوروبية للسلع الآسيوية"[١٧٩].

يبيّن الشكل أيضاً أنه في الربع الثاني من القرن الثامن عشر، حين كان طريق رأس الرجاء الصالح في ذروته، كانت الرؤية البسيطة لانتقال الفضة الأمريكية أولاً إلى أوروبا ثم إلى آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح أقرب إلى الحقيقة منها إبان القرن السابع عشر. ففي ذلك الوقت كانت ثلاثة أرباع الفضة الأمريكية تُنقَل إلى أوروبا. ومن ذلك المجموع، كان الثلث تقريباً ينقل إلى آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، أي أكثر بنحو ٥٠٪ مما كان يصدّر من أوروبا الغربية إلى البلطيق والمشرق معاً. وفي هذه الفترة عينها هيمنت الشركات التجارية الأوروبية الكبرى على التجارة الأوروبية-الآسيوية، لدرجة أنها أصبحت المصدر الرئيس للفضة لجنوب وشرق آسيا (ظل التدفق عبر مانيلا ثابتاً تقريباً منذ أوائل القرن السابع عشر، وتوقف التدفق من اليابان كليا).

ماذا كانت التأثيرات الاقتصادية لهذه التدفقات الهائلة للفضة؟ نود أن نميّز هنا بين التأثيرات على الطرفين الغربي والشرقي لليابسة الأوراسية. لقد أوضحت المناقشة السابقة وجود فرق حاسم بين طبيعة واردات الفضة في المنطقتين. فيمكن اعتبار واردات الفضة في أوروبا الغربية صدمة خارجية رفعت عرض الفضة المحلي، وبالتالي العرض

النقدي المحلي. بينما في شرق آسيا، كانت واردات الفضة استجابة داخلية لفروق الأسعار، ويمكن بالتالي أن نتوقع لها تأثيرات اقتصادية مختلفة تماماً. سنبحث فيما يلي النتائج الاقتصادية لفضة العالم الجديد أولاً على أوروبا، ثم على المناطق المستوْردة الرئيسة (الصين والهند)، وأخيراً على المنطقة الوسطى التي تتألف من الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية وروسيا.

في أوروبا، وتحديداً في أيبيريا التي تلقت الصدمة الأولى، تمثل التأثير المتوقع لواردات الفضة من العالم الجديد في خفض السعر النسبي للفضة، وهو ما يعني رفع المستوى العام للأسعار. ووفقاً للمقاربة النقدية لتوازن المدفوعات، فمن المؤكد أن العملية سارت على النحو التالي[١٨٠]. أولاً، زاد العرض النقدي الأيبيري من مصدر خارجي، ما رفع أسعار المواد الاستهلاكية الأيبيرية. وبعد ذلك، فمن المؤكد أن التجارة العابرة للحدود في السلع أدت إلى رفع الأسعار في الأماكن الأخرى بأوروبا الغربية، وبخاصة في الدول المجاورة. وأخيراً، من المؤكد أن هذه الزيادة في الأسعار قد رفعت الدخول الاسمية في الأماكن الأخرى، وفي أثناء ذلك رفعت الطلب على النقود الاسمية وحفزّت واردات الفضة من أيبيريا (لأن النقد في هذا النموذج يتدفق دائماً إلى الأماكن الذي يكون عليه طلب فيها). لو حدث ذلك في العالم الحديث المعولم الذي أنجز الاندماج الكامل لأسواق السلع، لحدثت عملية نقل التضخم من هذا النوع بسرعة كبيرة، ولبقيت مستويات الأسعار متساوية تقريباً عبر أوروبا. أما في سياق أوروبا إبان العصر الحديث المبكر التي كانت أسواق السلع فيها مرتبطة ببعضها، لكن التجارة كانت لا تزال مُكْلِفة جداً، فمن المؤكد أن هذه العملية استغرقت وقتاً أطول، ويمكن أن نتوقع حدوث فجوات كبيرة ودائمة في الأسعار بين أيبيريا والمناطق البعدة عنها. ويجد دوغلاس فيشر Douglas Fisher أدلة اقتصادية معقولة تربط زيادات الأسعار الأوروبية في هذه الفترة بتدفق فضة العالم الجديد من خلال المقاربة النقدية لآلية توازن المدفوعات التي أشرنا إليها قبل قليل[١٨١].

أما في شرق آسيا، فقد تدفقت الفضة في الاقتصاد من الداخل، لتلبية الطلب المتنامي على الفضة الذي يرتبط في الصين باستخدام سبائك الفضة باعتبارها وسيط

التبادل الرئيس. وقد اشتد هذا الطلب بفعل التأثير السكاني "للتبادل الماجلاني" الذي رأينا أنه أدى إلى نمو سكان الصين إبان القرن السادس عشر، وإلى توسع الاقتصاد وزيادة الطلب على النقود. وأخيراً، شهد القرن السادس عشر "تقدماً سريعاً في تتجير الاقتصاد الصيني الداخلي"[١٨٢] الذي تطلب هو الآخر زيادة العرض النقدي. ولذلك تمثل دور الفضة المستوْردة في توفير السيولة لتوسع اقتصادي حقيقي، ومن منظور نسخة كامبردج الشهيرة من نظرية الكم التي يكون العرض النقدي "ن" فيها مساوياً "ر س د"، يحدث الارتفاع في "ن" بفعل زيادة الدخل "د"، وليس بفعل ظاهرة خارجية، وطالما أن دور العرض النقدي المتنامي في الاقتصاد سلبي أو تيسيري، فمن المفترض أنه يرفع مؤشر درجة "التحول النقدي" لهذا الاقتصاد "ر"، وكذلك الدخل "د"، وليس الأسعار "س". واتفاقاً مع ذلك، لا نجد أدلة كثيرة على ارتفاع مستوى الأسعار في الصين في تلك الفترة، وفي حين ارتفعت أسعار الأرز ببطء شديد خلال القرن السادس عشر، يبدو أن أسعار الأرض الأرض انخفضت (على الرغم من أن أسعار الأرز ارتفعت كثيراً في أوائل القرن السابع عشر قبل أن تتراجع ثانية بعد العام ١٦٦٠ أو نحوه)[١٨٣].

وكما في حالة الصين، كانت الفضة تستخدم في الهند بالدرجة الأولى للأغراض النقدية. فيقول عرفان حبيب Irfan Habib إن "الإمبراطورية المغولية كانت تفخر بإحدى أجود العملات المسكوكة في العالم المعاصر، وهي عملة مكونة من ثلاثة معادن تميزت بوحدة ونقاء كبيرين، وكانت الروبية الفضية العملة الأساسية"[١٨٤]. وكانت العملات الذهبية نادرة، وتستخدم في الغالب للأغراض الطقوسية، فيما كانت العملات النحاسية تستخدم للمعاملات الصغيرة. وكانت الفضة تُسكّ بحرية تامة في دور ضرب العملة المغولية الكثيرة في مقابل رسوم قليلة، وكانت قيمة الروبية تحتوي فرقاً طفيفاً فوق محتوى الفضة فيها، ما عكس الثقة في نقائها. ونظراً لأن الهند لم تكن تمتلك موارد محلية للفضة في تلك الفترة، فمن المفترض أن الواردات كانت الأساس الوحيد للعملة. ومن المعتقد أيضاً أن كل الفضة المستوّردة تقريباً كانت تُسكّ في شكل عملة، فيما كان الذهب يكتنز في شكل سبائك. وفي عهد الإمبراطور أكبر Akbar (١٥٥٦-١٦٠٥) حلت العملات الفضية محل العملات النحاسية في المناطق الحضرية ولاحقاً في

المناطق الريفية، وكانت الدولة تستخدمها لدفع رواتب الموظفين والضباط العسكريين (بدلاً من منح الأراضي)، وفي الوقت نفسه كانت عائدات الأرض تُدفَع نقداً وليس سلعاً[١٨٥]. ولذلك كانت الفضة الأساس للطابع النقدي المتزايد للاقتصاد المغولي. وهذا الطابع النقدي يعكس- بلا شك - الاندماج الاقتصادي المتزايد للإمبراطورية، وبخاصة المنطقة الساحلية الغربية التجارية مع المنطقة الداخلية الزراعية في الوسط والشمال.

في دراسة رائدة، استخدمت عزيزة حسن Aziza Hasan العملات المغولية الباقية في مجموعات المتاحف الكبرى كأساس لتقدير مؤشر ناتج العملة[١٨٦]. تضاعف مؤشر حسن ثلاثة أضعاف من نحو العام ١٥٩٠ إلى العام ١٦٤٠، ثم هبط بعد ذلك حتى نحو العام ١٦٨٥، لكنه مع ذلك ظل ضعف مستواه في العام ١٥٩٠. كان الهدف الرئيس لدراسة عزيزة حسن هو البحث عن أدلة حول وجود ارتباطات بين ناتج العملة وتدفق الفضة الأمريكية إلى أوروبا. وحين قارنت عزيزة حسن حركات مؤشرها مع أرقام هاملتون لواردات الفضة إلى إسبانيا، وجدت تطابقاً، مع تأخر من عشرة إلى عشرين عاماً، و"لذلك كانت التقلبات في حجم واردات الفضة إلى إسبانيا تنعكس كلياً على الواردات الهندية من الفضة وناتج دور سك العملة المغولية". وفي إسهام لاحق مهم، أكدت شيرين موسوي Shireen Moosvi الارتفاع في ناتج العملة، وأوضحت حساباتها أنه بينما كان الناتج السنوي الفرنسي من الفضة المسكوكة زهاء خمسة وسبعين طناً إبان الفترة ١٦٣١-١٦٦٠، كان المتوسط السنوي المغولي من العام ١٥٥٦ إلى العام ١٧٠٥ ضعف ذلك المستوى، أي زهاء مئة واثنين وخمسين طناً، وهو مستوى ليس مرتفعاً على الإطلاق بالنظر إلى أن عدد سكان الهند كان نحو مئة وثلاثين مليوناً، مقارنة بنحو عشرين مليوناً في فرنسا[١٨٧].

مؤدى ما سبق أن الفضة كانت لها تأثيرات مختلفة تماماً في أوروبا والصين والهند. ففي أوروبا أدت إلى التضخم، بينما أدت في جنوب وشرق آسيا إلى دعم النمو وتحويل الاقتصادات إلى النقد وتتجيرها على نحو متزايد. لكن ماذا عن المناطق التي تقع بين هذين الطرفين التي كانت الفضة تنتقل خلالها عبر طرق التجارة التقليدية بين أوروبا

وآسيا؟ هل أدت الفضة إلى التضخم، أم يسّرت التتجير، أم كانت تمر فحسب عبر هذه الأراضي دون أن تترك أثراً محدداً على اقتصاداتها؟ نختتم هذا القسم بالنظر إلى تأثير الفضة على الوسطاء الثلاثة الأسايين: بلاد فارس والإمبراطورية العثمانية وروسيا.

يكتسب دور إيران في الاقتصاد العالمي في تلك الفترة أهمية خاصة. لقد تأسست الدولة الصفوية على يد الشاه الشاب والكاريزمي إسماعيل (١٥٠١-١٥٢٤) في بداية الفترة، وبلغت أوجها في عهد الشاه عباس الأول (١٥٨٨-١٦٢٩). والصفويون هم الذين أسسوا المذهب الشيعي في إيران ووضعوا الأساس للدولة والأمة الإيرانية الحديثتين بعد قرون من هيمنة الحكام العرب والمغول والأتراك. كان موقع إيران المتوسط على طرق التجارة الرئيسة بين الشرق والغرب والشمال الجنوب في غرب أوراسيا يعني أنها مفترق طرق لتدفق السلع والمعادن النفيسة في كل الاتجاهات. كان الحرير الطبيعي المنتج محلياً يغطي الاحتياجات الفارسية لنسج الأقمشة المطرزة وأقمشة التفتة، وأيضاً كما رأينا آنفاً احتياجات صناعات الحرير المزدهرة بتركيا وإيطاليا. وقد أعطى ذلك لإيران توازناً تجارياً مواتياً مع الغرب، استنزفه جزئياً عجزها مع الهند وجزر الهند الشرقية الناتج عن واردات المنسوجات القطنية والنيلة والسكر والتوابل، على الرغم من التصدير المربح لخيول سلاح الفرسان والأصباغ لصناعة المنسوجات القطنية الهندية والأنواع المختلفة من البندق والفاكهة وغيرها من الأطعمة المعالجة. ولعل هذه السمة الدائمة للتجارة الإيرانية، أي الفائض التجاري مع الغرب الذي يوازِنه جزئياً عجز مع الشرق، هي التي دفعت ساكناً أوروبياً بارزاً في أصفهان في العام ١٦٦٠، هو رجل الدين الفرنسي رافائيل دو مانز Raphael du Mans إلى تقديم الوصف الشهير التالي لإيران الذي نقلناه عن حيدر[١٨٨]:

> إن بلاد فارس تشبه فندقاً أو نزلاً كبيراً له بابان فقط، تدخل الفضة من الباب المقابل لتركيا... أما باب الخروج فهو بندر عباس أو غومبرون Gombroon على الخليج العربي إلى جزر الهند الشرقية، وسورات Surat تحديداً، التي تُفرَّغ فيها فضة العالم كلها ولا تخرج منها، كأنها سقطت في هاوية.

على أن تحقيق فارس لفائض تجاري في منتصف القرن السابع عشر[١٨٩] يكشف أنها كانت تحتفظ ببعض الفضة على الأقل داخل إمبراطوريتها.

كان اقتصاد إيران، وبخاصة في عهد الشاه عباس، مزيجاً مثيراً من قوى السوق، وهو ما عكس نشاطات طبقة تجارية متطورة من الفرس المحليين والهنود، والأبرز بين الجميع الأرمن، في إطار تدخل نشط وشامل من الدولة مدفوعاً بالتعطش إلى الدخل ورغبة مركنتيلية قوية في تحسين الثروة والقوة الوطنيتين[١٩٠]. أعيد توطين جماعة التجار الأرمن القادمين من جلفا Julfa في مكان خاص عُرِف باسم "جلفا الجديدة" بالعاصمة الجديدة الرائعة أصفهان، وأعطيت لهم امتيازات واسعة في مقابل خدماتهم للدولة في المجالات التجارية والمالية والدبلوماسية، وهو الدور الذي استمر حتى الأزمنة الحديثة. نفذ الشاه عباس ما نسميه الآن مشروعات "إحلال الواردات" لإنتاج النيلة والقطن والأرز، حتى أنه حاول إيقاف استنزاف النقد بسبب الحج إلى مكة الخاضعة للسيادة العثمانية بإنشاء موقع شيعي منافس لتبجيل الإمام الرضا في مشهد. وأنشا مصانع ملكية لإنتاج المنسوجات الحريرية وغيرها من المنسوجات في معظم البلدات الرئيسة، واتخذ إجراءات لتحسين البنية التحتية للنقل والاتصال. يشير ذلك كله إلى اقتصاد فارسي أخذ في التوسع والتحول إلى التتجير أكثر فأكثر، وهو ما يكشف بدوره أن بلاد فارس كانت تحتفظ فعلاً ببعض الفضة في تلك الفترة لتيسير تلك الأعمال.

ذكرنا في موضع سابق أن الخصومة المريرة بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السُنة كانت تؤدي كثيراً إلى صعوبات في تصدير السلع الحريرية وغيرها من إيران إلى الغرب خلال المحطة التجارية السورية الرئيسة بمدينة حلب. ولذلك بذل الصفويون جهوداً كبيرة لتطوير طرق بديلة إلى الأسواق الغربية، تمثل أحدها في طريق اصطراخان عبر نهر الفولغا إلى البلطيق، وتمثل طريق آخر في الطريق البحري من الخليج العربي وحول رأس الرجاء الصالح بناءً على تشجيع من شركتي الهند الشرقية الإنجليزية والهولندية. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، قدم أسطول إنجليزي المساعدة لعباس للاستيلاء على هرمز من البرتغاليين في العام ١٦٢٢، بينما غض الهولنديون الطرف عن ذلك. وفي النهاية تحسنت العلاقات مع العثمانيين إدراكاً من الطرفين لأهمية

استمرار تدفق الحرير إلى الغرب، وهكذا فشل الطريق البحري وطريق الفولغا في النهاية في أخذ مكان الطريق الغربي إلى المشرق.

كانت الإمبراطورية العثمانية هي الأخرى تقع على تقاطع الطرق بين الشرق والغرب في الدوران العالمي للفضة الذي أطلقته رحلات الاستكشاف. وكان ذلك نفسه، كما يرى عمر لطفي باركان Omer Lutfi Barkan[١٩١]، هو المسؤول عن التراجع والانهيار النهائي للنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي العثماني الذي كان مستقراً قبل ذلك. فالنظام الاقتصادي العثماني الممتد عبر الأناضول والبلقان ومصر وشمال أفريقيا كان في رأي باركان نظاماً "إمبراطورياً مكتفياً ذاتياً". لكن بعد رحلات الاستكشاف، تقوّض هذا النظام بفعل توسع الاقتصاد الأطلسي الأوروبي. واتفاقاً مع المقاربة النقدية لتوازن المدفوعات، كان الارتفاع في الأسعار الأوروبية يعني أن سلعاً مثل "القمح والنحاس والصوف وما شابهها تُمتَص من الأسواق العثمانية"، ما دمر الصناعات التقليدية وتسبب في الإزاحة الاجتماعية بين الطبقات الحرفية وفي الريف، فضلاً عن الاضطراب والاستياء في صفوف الوحدات العسكرية الرئيسة. ولذلك، فلو كانت الإمبراطورية العثمانية "رجل أوروبا المريض" إبان القرن التاسع عشر، فإن ذلك المرض لم ينتج عن الثورة الصناعية المعاصرة، كما يدفع باركان، بل عن ثورة الأسعار إبان القرن السادس عشر التي أحدثت التذمر طويل المدى.

حظي مقال باركان المهم مؤخراً بمراجعة محترمة، وإن كانت نقدية من جانب شوكت باموك Sevket Pamuk في كتابه المرجعي حول التاريخ النقدي العثماني[١٩٢]. وجد باموك ارتفاعات في الأسعار أصغر مما وجد باركان، فالأسعار بقيمة الفضة ارتفعت إلى أعلى مستوى لها، بنحو ٨٠-١٠٠٪ في الربع الأول من القرن السابع عشر أعلى منها في العام ١٤٩٠، في حين يذكر باركان أن ارتفاع الأسعار بلغ ١٦٥٪ في العام ١٦٠٥ أعلى منها في العام ١٤٩٠. ثم انخفضت الأسعار بقيمة الفضة وفقاً لباموك، حتى أصبحت في العام ١٧٠٠ أعلى بنحو ٢٠٪ فقط منها في العام ١٤٩٠. ويفند باموك أيضاً فرضية أن ثورة الأسعار كانت المسؤولة عن الصعوبات المالية والعسكرية والصناعية التي كبّلت الإمبراطورية، مشدّداً على دور عوامل أخرى مثل

الزيادة الواضحة في الحرب على جبهات كثيرة وما صاحب ذلك من أعباء عسكرية ومالية، فضلاً عن الطابع التقليدي للتنظيم الزراعي والصناعي الذي جعل هذين القطاعين غير قادرين على التكيف مع التغيير. ومع أن "الشرق الأوسط كان من عدة نواح مجرد منطقة عبور لتدفق السبائك العابرة للقارات"[١٩٣]، تكشف الأدلة أن الأسعار هناك ارتفعت إبان القرن السادس عشر، على الرغم من وجود أدلة قوية أيضاً على أن الاقتصاد العثماني تحول أكثر فأكثر إلى الحالة النقدية في تلك الفترة وأن "الطلب على النقود تنامى، لكن هذا الطلب كان يمكن تلبيته بالعرض المتزايد من الفضة".

وبناءً على ما تقدم، فإن الفضة أثرت على الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية برفع الأسعار في الأولى، وبالتزامن مع ذلك (وربما بتيسير منه) زيادة النشاط التجاري في الإمبراطوريتين. وحيث رأينا أنه كانت هناك تجارة نشطة في شمال شرق أوروبا في تلك الفترة، فلا يفاجئنا على الإطلاق أن يصل تدفق الفضة حتى بولندا وروسيا والمناطق البلطيقية، على الرغم من بعدها عن طرق التجارة المنتظمة بين الشرق والغرب. وفي ذلك تقول ماريان مالويست Marian Malowist إن "وجهة النظر القديمة بأن تجارة البلطيق فقدت أهميتها في عصر الاكتشافات الكبرى، تراجعت منذ فترة طويلة. فقد أصبحنا نعرف الآن، على العكس من ذلك، أن دول البلطيق أصبحت مصدراً للمواد الخام الغربية وسوقاً لصادرات الغرب، ما أسهم في تحولها الصناعي السريع نسبياً"[١٩٤]. وقد رأينا أيضاً أن تصديراً صافياً للفضة من الغرب إلى الشرق حدث في هذا العصر. ومع أن بعضه كان يُنقَل شرقاً إلى بلاد فارس والأراضي العثمانية، فقد بقي في هذه البلاد ما يكفي للتحول النقدي للاقتصادات المحلية كما وثق بلوم Blum[١٩٥].

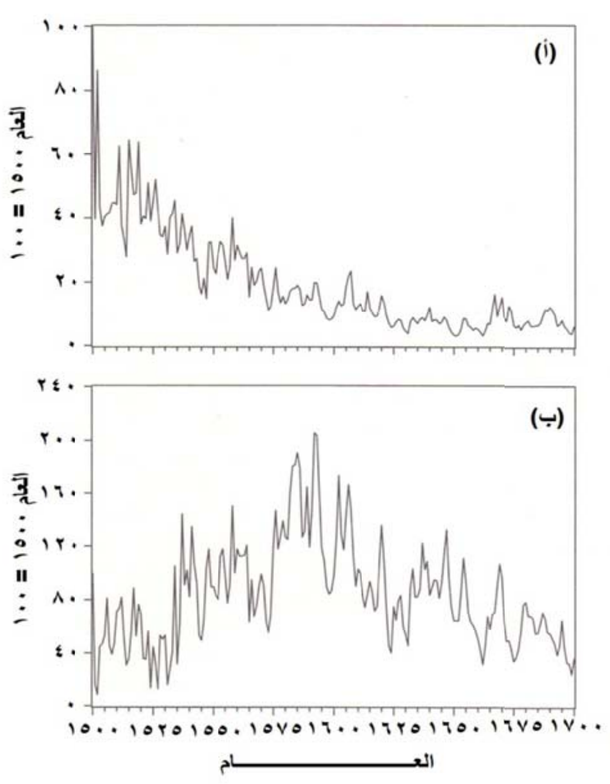
بإيجاز، كان لاكتشاف فضة العالم الجديد تأثير كبير على اقتصادات أوراسيا، حيث دفع زيادات في الأسعار، ويسّر التحول النقدي والتتجير. وتمثلت الوظيفة الأساسية للفضة في زيادة التجارة الأوراسية الداخلية، داخل الاقتصادات "الوطنية" وبينها، وهذا ليس أمراً مستغرباً بالنظر إلى وظيفة وسيط التبادل التي تؤديها الفضة. وتقدم الوفرة المتزايدة للفضة وميلها إلى التدفق شرقاً استجابة للأسعار التي هي أعلى

طريقة لفهم إحياء التجارة البرية بين آسيا وأوروبا في أواخر القرن السادس عشر، وهذه التجارة المتزايدة ذاتها أفادت روسيا وبلاد فارس والإمبراطورية العثمانية، حتى مع غياب التحول النقدي في تلك المناطق. والعالم الجديد - بهذه الطريقة - قرّب أوراسيا من بعضها. ولعبت الفضة أيضاً دوراً حاسماً في تسهيل نشاطات الشركات التجارية الأوروبية في آسيا، التي كانت لها نتائج سياسية بالغة الأهمية على جنوب شرق آسيا - كما رأينا- وكذلك على الهند أيضاً- كما سنرى- في الفصل الخامس.

وأخيراً، فقد كان للعالم الجديد تأثير اقتصادي أكبر من ذلك بكثير على العالم القديم، بإدخال أشكال جديدة نوعياً من التجارة العابرة للقارات، حَفَّزتَها قبل أي شيء الأراضي الشاسعة بالأمريكتين. لكن لكي تنطلق هذه التجارة، كان على المستعمرين الأمريكيين أن يحلوا المشكلة الأساسية التي واجهتهم، وهي نقص العمالة الرخيصة، ومع أنهم - كما رأينا - عثروا فوراً على الحل لهذه المشكلة، متمثلاً في العبودية، فقد استغرق الأمر وقتاً لبناء الإطار المؤسسي اللازم لإمداد السوق الأوروبي بكفاءة.

تتضح نتائج ذلك في الشكل رقم (٤,٨) الذي يعرض الأسعار الحقيقية (المعدلة ضد التضخم بأسعار الجاودار) للفلفل والسكر في هولندا إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر. إن الفارق بين السلسلتين مذهل فعلاً. فكما رأينا، بدأت أسعار الفلفل الحقيقية في الانخفاض بعد فترة قصيرة من رحلات الاستكشاف، واستقرت في النهاية عند مستوي منخفض تاريخياً في منتصف القرن السابع عشر. لكن أسعار السكر ارتفعت بشدة طوال القرن السادس عشر، ما يشير إلى أن صادرات السكر البرازيلية المتزايدة التي وثّقناها في موضع سابق لم تكن كافية لتلبية احتياجات السوق الأوروبي، ذلك لأن ندرة العمالة كانت لا تزال تقيّد مرونة العرض بالعالم الجديد. وتمثلت نتيجة ذلك في زيادة الحافز لدى المستوطنين لتزويد أوروبا بالسكر وغيره من "السلع الاستوائية"، وبالتالي زيادة الحافز لشحن مزيد من العبيد عبر المحيط الأطلسي. وإبان العقد الأخير من القرن السادس عشر أو

نحوه فقط، بدا التوازن يتحول بشكل حاسم لمصلحة المستهلكين الأوروبيين (ويمكن أن نضيف أيضاً ضد الأفارقة التعساء الذين بيعوا عبيدا). ولذلك فبالقرب من نهاية القرن السادس عشر، ومع تحرك الهولنديين والإنجليز لترك بصمتهم على المحيط الهندي، كان عصر الفضة قد بدأ يفسح المجال لعصر السكر والعبيد، وبدأ المحيط الأطلسي يحل محل المحيط الهندي في الأهمية الاقتصادية، وبدأت التجارة المثلثية التي ستكون النقطة المحورية للفصل التالي، تبرز باعتبارها القوة الدافعة الأساسية للاقتصاد العالمي.



الشكل رقم (٤,٨). الأسعار الهولندية الحقيقية (أ) للفلفل، (ب) للسكر إبان الفترة ١٥٠٠-١٧٠٠ (العام ١٥٠٠ = ١٠٠)

المصدر: van Zanden (2005)

تزامنت فترة الانتقال الاقتصادي التدريجي المذكورة مع انتقال سياسي أيضاً. فقد كان منتصف القرن السابع عشر حداً فاصلاً رئيساً في تاريخ العصر الحديث المبكر. ففي أوروبا، انتهت حرب الثلاثين عاماً المدمرة والمعرقلة في العام ١٦٤٨ بسلام ويستفاليا الذي كان فاتحة لعصر جديد في العلاقات الدولية. وكانت روسيا توسع حدودها شرقاً في حزام الغابة السيبيرية ووصلت المحيط الهادي في العام ١٦٤٨، فيما كانت إمبراطورية مانشو تشينغ الصينية منهمكة في توسيع حدودها غرباً في آسيا الوسطى بعد أن أطاحت بسلالة مينغ في العام ١٦٤٤. وكانت اليابان تبدأ عزلتها الطويلة المضرة بكل المعاني عن بقية العالم في عهد شوغونية توكوغاوا. وكانت "إمبراطوريات البارود" الإسلامية[٨٤] تُظهِر بعض علامات الإجهاد والتوتر، لكنها كانت لا تزال قوية على الأرض. وفي جنوب شرق آسيا، كان الهولنديون يوسعون سيطرتهم على الأرخبيل الإندونيسي وسيلان بعد استيلائهم على مالاكا في العام ١٦٤١، فيما كانت بورما وسيام تقيمان مملكتين قويتين بمساعدة مرتزقة برتغاليين وتقنية عسكرية برتغالية.

بإيجاز، كانت الشبكة المتنامية للتجارة العالمية الرحم الذي تمخض في النهاية عن الاختراق الجذري نحو الحداثة، إذ لم يكن يبقى على الثورة الصناعية غير قرن أو أكثر قليلاً

---

(٨٤) أُطلِق على الإمبراطوريات الإسلامية العثمانية والصفوية والمغولية اسم إمبراطوريات البارود لأنها حققت نجاحات عسكرية كبيرة باستخدام الأسلحة النارية الجديدة، خاصة المدافع [المترجم].

الفصل الخامس

التجارة العالمية إبان الفترة ١٦٥٠–١٧٨٠

عصر المركنتيلية

WORLD TRADE 1650-1780

THE AGE OF MERCANTILISM

شهدت الفترة من منتصف القرن السابع عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر صراعاً طويلاً بين القوى الأوروبية القيادية للسيطرة على الموارد والأراضي والتجارة في العالم الجديد. لم تقتصر القوة العاملة بكثير من مجتمعات العالم الجديد على العدد الهزيل نسبياً من المهاجرين الأوروبيين والأمريكيين الأصليين داخل ممتلكات كل دولة أوروبية، إذ سرعان ما تضمنت أعداداً متزايدة من العبيد المستوْردين من غرب أفريقيا، وبذلك حدثت زيادة كبرى في ارتباط هذه القارة بالاقتصاد العالمي. يبيّن الجدول رقم(٥,١) الزيادة المذهلة في هذه التجارة غير الإنسانية[١]. فقد شُحِن أكثر من ربع مليون عبد عبر المحيط الأطلسي إبان القرن السادس عشر، فيما شُحِن أكثر من خمسة أضعاف ذلك العدد إبان القرن السابع عشر، ومع انتهاء القرن التالي كان مليونا إنسان تقريباً يُنقَلون إلى الأمريكتين كل ربع قرن. وإجمالاً، فقد نقل أكثر من أحد عشر مليون أفريقي إلى العالم الجديد بالقوة بين القرن السادس عشر ومنتصف القرن التاسع عشر. والبرتغاليون الذين كانوا– كما رأينا– من أوائل منتجي السكر، احتفظوا لأنفسهم بقصب السبق في تجارة العبيد، إن لم يكن في الميادين الأخرى للنشاط

الاقتصادي كذلك، وكانوا مسؤولين عن نصف تجارة العبيد الإجمالية تقريباً، فيما كان البريطانيون مسؤولين عن أكثر من ربع هذه التجارة (وكانوا أنشط النخاسين في أثناء عنفوان هذه التجارة إبان القرن الثامن عشر).

الجدول رقم (٥,١).حجم تجارة العبيد عبر المحيط الأطلسي إبان الفترة ١٥١٩–١٨٦٧ (وفقاً لجنسية الناقل بالآلاف).

الفترة	البرتغال	بريطانيا	فرنسا	هولندا	إسبانيا	أمريكا	الآخرون	كل الدول
١٥١٩–١٦٠٠	٢٦٤.١	٢.٠	٠.٠	٠.٠	٠.٠	٠.٠	٠.٠	٠.٠
١٦٠١–١٦٥٠	٤٣٩.٥	٢٣.٠	٠.٠	٤١.٠	٠.٠	٠.٠	٠.٠	٥٠٣.٥
١٦٥١–١٦٧٥	٥٣.٧	١١٥.٢	٥.٩	٦٤.٨	٠.٠	٠.٠	٠.٢	٢٣٩.٨
١٦٧٦–١٧٠٠	١٦١.١	٢٤٣.٣	٣٤.١	٥٦.١	٠.٠	٠.٠	١٥.٤	٥١٠.٠
١٧٠١–١٧٢٥	٣٧٨.٣	٣٨٠.٩	١٠٦.٣	٦٥.٥	١١.٠	٠.٠	١٦.٧	٩٥٨.٦
١٧٢٦–١٧٥٠	٤٠٥.٦	٤٩٠.٥	٢٥٣.٩	١٠٩.٢	٤٤.٥	٠.٠	٧.٦	١٣١١.٣
١٧٥١–١٧٧٥	٤٧٢.٩	٨٥٩.١	٣٢١.٥	١٤٨.٠	١.٠	٨٩.١	١٣.٤	١٩٠٥.٢
١٧٧٦–١٨٠٠	٦٢٦.٢	٧٤١.٣	٤١٩.٥	٤٠.٨	٨.٦	٥٤.٣	٣٠.٤	١٩٢١.١
١٨٠١–١٨٢٥	٨٧١.٦	٢٥٧	٢١٧.٩	٢.٣	٢٠٤.٨	٨١.١	١٠.٥	١٦٤٥.١
١٨٢٦–١٨٥٠	١٢٤٧.٧	٠.٠	٩٤.١	٠.٠	٢٧٩.٢	٠.٠	٠.٠	١٦٢١.٠
١٨٥١–١٨٦٧	١٥٤.٢	٠.٠	٣.٢	٠.٠	٢٣.٤	٠.٠	٠.٠	١٨٠.٧
كل السنوات	٥٠٧٤.٩	٣١١٢.٣	١٤٥٦.٤	٥٢٧.٧	٥١٧.٠	٢٨٠.٠	٩٤.٢	١١٠٦٢.٤
النسبة المئوية من التجارة	٤٥.٩	٢٨.٣	١٣.٢	٤.٨	٤.٧	٢.٥	٠.٩	١٠٠.٠

المصدر: Eltis (2001, table VII, supplement materials). Available at http://oieahc.wm.edu/wmq/Jan01/Eltis.htm

ومن التفاعلات المعقدة لهذه المصادر المتنوعة، انبثق ما يمكن تسميته نظاماً أطلسياً يربط أربع قارات عبر محيط، ويضم قطاعاً هولندياً- فرنسياً- إنجليزياً شمالياً، ومنطقة إسبانية- مكسيكية وسطى، ومنطقة برتغالية- برازيلية جنوبية، يرتبط بعضها ببعض وبأفريقيا عبر شبكات متعددة من العلاقات الاقتصادية. كانت وفرة الموارد الطبيعية في هذه "التخوم الكبرى"، كما أسماها والتر بريسكوت ويب Walter Prescott Webb[٢]، تعني أن النشاطات التجارية للقوى الأوروبية أخذت على نحو متزايد تتضمن واردات من العالم الجديد وصادرات إليه. وكان المذهب التجاري

السائد في ذلك العصر يعتبر الصراع على الثروة لعبة صفرية[١] وكانت كل القوى تنظر إلى مستعمراتها باعتبارها مصادر للمواد الأولية وأسواقاً للصناعات "للبلد الأم" وحدها، وأنه يجب إبعاد المتطفلين الأجانب بالقوة، إذا تطلب الأمر. ولذلك كان النزاع متواتراً في تلك الفترة، وغالباً في العالم الجديد نفسه. وكان النجاح في تلك الحروب من نصيب الدول التي تفوقت على غيرها في حشد الموارد المالية اللازمة لتوفير قوات بحرية وعسكرية فعالة، فالقوة هي الوسيلة لضمان الوفرة التي- بدورها- توفر للقوة أوتارها وفقاً للصياغة الكلاسيكية للسياسة المركنتيلية من جانب جاكوب فينر[٣]. وهذه العلاقة بين القوة والوفرة فيما يسمى "عصر المركنتيلية" هي الموضوع الرئيس لهذا الفصل.

كانت غالبية الخصومات في عصر المركنتيلية تنشأ حول الشركة الوطنية التي يحق لها السيطرة على سوق أو منطقة تجارية معينة، مثل تجارة التوابل بجنوب شرق آسيا أو الدخول إلى البلطيق والخروج منه. وكان الهدف من ذلك هو فرض سيطرة احتكارية على هذه التجارة أو تلك، بما يعود على الدولة بأرباح احتكارية، تستطيع بدورها أن تزيد القدرة المالية للدولة على شن حروب ناجحة، ما يعزز أهدافها المركنتيلية التجارية. على أن هذا المنطق لم يكن جديداً بحال من الأحوال، فقد رأينا كثيراً من الدول السابقة، منها سريفيجايا ومصر المملوكية والعثمانية[٢] والبندقية ودولة الهند البرتغالية، حاولت بطريقة أو بأخرى اتباع سياسات مماثلة. وبالنظر إلى هذه الرؤية

---

(١) في نظرية اللعب والنظرية الاقتصادية، وعلى خلاف اللعبة غير الصفرية التي لا يؤدي فيها مكسب أو خسارته بالضرورة إلى خسارة أو مكسب موازِن عند الأطراف الأخرى، تشير اللعبة الصفرية zero-sum-game أو المجموع الصفري zero-sum-sum إلى الموقف الذي يشكل فيه مكسب أحد الأطرف أو خسارته بالضرورة خسارة أو مكسب موازِنيْن لدى الأطراف الأخرى، وعند جمع مكاسب جميع الأطراف وطرح كل خسائرها يكون الناتج صفراً [المترجم].

(٢) ينطبق ذلك على مصر المملوكية، لكنه لا ينطبق على مصر العثمانية التي فقدت سيادتها وفعلها المستقل، وكان ذلك من أهم أسباب تراجع الدول التي خلفت السلطنة العثمانية في السباق مع الدول الغربية. فمصر الولاية لم يكن مسموحاً لها باتباع سياسة مستقلة. كما ارتبطت قوة مصر والمنطقة معها بكون مصر مركز الدولة وليس إحدى ولاياتها، كما كانت في عهود ابن طولون والفاطميين والأيوبيين والمماليك [المترجم].

"الصفرية" للتقسيم الدولي للأرباح الاحتكارية، فإن الحجج الكلاسيكية حول المكاسب من التجارة لجميع الأطراف في الظروف السلمية للمنافسة التامة لم يكن لها مكان إطلاقاً. والتأكيد المقيت على ضرورة الحصول على مخزون من المعادن النفيسة، يمكن تبريره بالنظر إلى ضرورة تمويل العجز في التجارة البلطيقية للمتاجر البحرية(٣)، أو الحصول على رأس المال العملي للتجارة المربحة لشركات الهند الشرقية مع آسيا[٤].

وبالطبع في سياق أيديولوجيا قومية من نوع المركنتيلية في العصر الحديث المبكر، كانت الفرص وفيرة لما يُعرَف الآن بالسلوك "الريعي" من جانب جماعات المصالح الخاصة، مثل المخططين الاستعماريين وشركات الامتياز(٤)، وقد طبق إيكلوند وتوليسن Ekelund and Tollison هذا النموذج المفاهيمي بشكل مفيد على الخبرة التاريخية لإنجلترا وفرنسا[٥]. ورغم أن المؤلفين يناقشان الاتجاهات العامة إبان الفترة ١٦٠٠-١٧٥٠، بإيجاز شديد، فإنهما يتجاهلان تماماً السياق الدولي لعصر المركنتيلية الذي نتناوله هنا[٦]. ويمكن أن نسأل هنا: ما الشيء المجافي للحقائق الواقعية في سلوك الدولة الأوروبية الفردية التي كان يمكن أن تختار أن تتبنى التجارة الحرة السلمية من طرف واحد؟ في غياب آلية فعالة للأمن الجماعي أو قوة مهيمنة محددة بوضوح، كانت الهزيمة العسكرية والإبعاد من أسواق ما وراء البحار يشكلان إحدى الإجابات المعقولة لهذا السؤال. على أن مسألة كوْن الشيء مجافياً للحقائق من عدمه تتوقف بالتأكيد على التقييم الصارم للكلفة- العائد من السياسات المركنتيلية، تماماً مثل السؤال عما إذا كانت الدولة المشاركة قد انتهى بها الحال إلى الفوز في حروبها أم خسارتها. وبالاستثناء الواضح لحرب الاستقلال الأمريكية، ربحت بريطانيا حروبها جميعاً خلال تلك الفترة، وهو ما كانت له نتائج مهمة على مستقبل الاقتصاد الدولي، ولذلك سيكون صعود إنجلترا إلى الصدارة الدولية بالضرورة أحد الموضوعات المهمة في هذا الفصل.

---

(٣) تقوم صناعة المتاجر البحرية naval stores بجمع ومعالجة وتسويق المنتجات الغابية المنتجة من الراتينج الزيتي لأنواع معينة من أشجار الصنوبر، وترتبط هذه الصناعة بصيانة السفن الخشبية والأساطيل فيما قبل القرن العشرين [المترجم].

(٤) حول شركة الامتياز chartered company، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

جذور الإمبراطورية البريطانية: التجارة والنهب والاستيطان

لقد سمع الجميع بالتأكيد القول بأن الإمبراطورية البريطانية تكوّنت- على ما يبدو- في "نوبة من غياب العقل"، حتى وإن كانوا لا يعرفون مصدر هذا الاقتباس، وهو المؤرخ الإمبراطوري الفيكتوري سيلي Seeley. قيلت مزحة سيلي في سياق اعتراضه على ميل التأريخ الإنجليزي إلى التركيز على توسيع الحرية في الداخل، وليس على التوسع فيما وراء البحار الذي اعتبره سيلي القوة الدافعة الحقيقية للتطور القومي منذ العصر الإليزابيثي. وكتابه الصغير حول "توسع إنجلترا" الذي حظي باستحسان واسع حين نشر لأول مرة في العام ١٨٨٣، لا يزال بياناً حياً وقوياً حول هذا الموضوع[٧]. وما قاله سيلي بالتحديد هو: "يبدو أننا، إذا جاز التعبير، غزونا نصف العالم وزرعناه برجالنا في نوبة من غياب العقل"، بمعنى أن ذلك هو الانطباع الذي قد يستنتجه المرء من التواريخ التقليدية لبريطانيا إبان القرن الثامن عشر التي "تركز على الجدل البرلماني المجرد والتطلعات إلى الحرية" في حين كان التاريخ الحقيقي لهذه الأمة هو البناء الواعي والواضح لإمبراطورية مترامية الأطراف فيما وراء البحار، ولذلك فإبان القرن الثامن عشر "لم يكن تاريخ إنجلترا يكمن في إنجلترا وإنما في أمريكا وآسيا"[٨].

وكما في حالة القوى الأيبيرية وعملية الاسترداد[٥]، بدأت عملية التوسع الإنجليزي "باستعمار داخلي"، حيث ضمت ببطء "الحافة السلتية" للويلزيين والاسكتلنديين والأيرلنديين إلى ما عُرِف في النهاية باسم المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا. وأُدمِج التاجان الاسكتلندي والإنجليزي في شخص الملك جيمس السادس والأول[٦]، وأدمجت المملكتان بمقتضى قانون الاتحاد لعام ١٧٠٧. وانطوى

---

(٥) حول مفهوم "الاسترداد"، راجع حاشية سابقة للمترجم. لقد بدأ التوسع الخارجي الإسباني والبرتغالي بتوسع داخلي، والاستعمار الخارجي باستعمار داخلي، حين قضت هاتان الدولتان على الممالك الإسلامية الأندلسية، وبعد ذلك على بقايا تلك الممالك، ممثلة في المسلمين واليهود الأيبيريين، وبعد ذلك فقط، وربما بما اكتسبته من قوة وثقة وخبرة في أثناء ذلك، انطلقتا إلى التوسع والاستعمار الخارجيين [المترجم].

(٦) جيمس السادس والأول (١٩ يونيه ١٥٦٦ إلى ٢٧ مارس ١٦٢٥) ملك اسكتلندا باسم جيمس السادس من ٢٤ يوليو ١٥٦٧ وملك إنجلترا وأيرلندا باسم جيمس الأول من وقت الاتحاد في ٢٤ مارس ١٦٠٣ حتى وفاته [المترجم].

ضم الأيرلنديين على مزيد من الصعوبة وسفك الدماء، واشتدت الحوادث الوحشية في عهد إليزابيث التي رأت أنه يجب "إجبار تلك الأمة الجاهلة والهجمية على التمدن"، وكذلك في عهد أوليفر كرومويل(٧) والعهد المشترك لوليام وماري(٨). وبعض أبرز الإليزابيثيين الذين شاركوا في غارات النهب والمشروعات الاستعمارية المبكرة في العالم الجديد مثل السير همفري غلبرت Humphrey Gilbert والسير والتر راولي Walter Raleigh عُرِفوا أولاً وذاع صيتهم بارتكاب ما يعتبر الآن أعمالاً وحشية صارخة في أيرلندا. وكما يقول إليوت Elliott، فقد "كانت أيرلندا بالنسبة للإنجليز مثل الأندلس بالنسبة للإسبان: مختبراً مفيداً لتطوير الأفكار والتقنيات التي مكّنت لاحقاً من بناء إمبراطورية عالمية"[٩].

أوضح كينيث أندروز Kenneth Andrews أنه "في أثناء التوسع الإنجليزي فيما وراء البحار، كانت التجارة والنهب والاستيطان مجدولة معاً بشكل يصعب حله"، وكان النهب هو الأهم في البداية[١٠]. ويلاحظ أنه بين العامين ١٥٥٠ و١٦٣٠، زادت الحمولة الطنية للنقل البحري البريطاني أكثر من الضعف، وأن الميزة الخاصة في هذا الأسطول تمثلت في "كفاءته في الحرب والنهب"، كما تجلى في صورة عدوانية في غارات القرصنة التي نفذها دريك وهاوكينز(٩)، وفي صورة دفاعية ضد الأسطول الإسباني في العام ١٥٨٨. أما الاستيطان فقد استغرق وقتاً

---

(٧) أوليفر كرومويل Oliver Cromwell (من ٢٥ أبريل ١٥٩٩ إلى ٣ سبتمبر ١٦٥٨) قائد عسكري وسياسي إنجليزي، أطاح بالَملكية وحوّل إنجلترا مؤقتاً إلى كومونويلث جمهوري، وحكمها باسم اللورد الحامي Lord Protector من العام ١٦٥٣ حتى وفاته في العام ١٦٥٨ [المترجم].

(٨) في الثورة المجيدة البريطانية، تسبب التطرف الديني للملك جيمس الثاني الكاثوليكي في إثارة المنشقين والبرلمانيين، ودعا الأنجليكانيون والمنشقون الأمير الهولندي وليام الأورانجي زوج ماري البروتستانتية ابنة الملك جيمس إلى إنجلترا "ليتفاوض" مع جيمس، فاستغل وليام الموقف وغزا إنجلترا وخلع جيمس واعتلى العرش الإنجليزي باسم وليام الثالث شريكاً لماري باسم ماري الثانية [المترجم].

(٩) جون هاوكنز John Hawkins (١٥٣٢- ١٢ نوفمبر ١٥٩٥) بناء سفن وقائد بحري وتاجر وقرصان وتاجر عبيد إنجليزي، دبر الاستيلاء على أسطول المعادن الإسباني، كان أحد مهندسي الأسطول الإليزابيثي، شغل رتبة نائب أمير البحر في المعركة التي دمر فيها الإنجليز أسطول الأرمادا الإسباني في العام ١٥٨٨ [المترجم].

أطول لكي يتطور، بدءاً بفرجينيا ونيو إنجلند على البر الرئيس الأمريكي[(١٠)]، وسانت كيتس ونيفيس St Kitts and Nevis وأنتيغوا Antigua ومونتسرات Montserrat وباربادوس Barbados في جزر الهند الغربية بين العامين ١٦٠٠ و١٦٣٢، تلاها الاستيلاء الكبير على جامايكا من الإسبان على أيدي كرومويل في العام ١٦٥٥. وكانت الأرباح من زراعة السكر في جزر الكاريبي تعني أنها كانت أكثر جاذبية للاستثمار والاستغلال من مستوطنات البر الرئيس، وازداد عدد السكان هناك سريعاً، تحديداً بسبب استيراد العبيد الأفارقة. ولذلك قال بيكلز Beckles إنه "بحلول العام ١٦٤٠، كان الإنجليز قد اكتسبوا ميْزة سكانية في الكاريبي على الدول الأوروبية الأخرى"[١١].

كانت هجرة الأوروبيين إلى المناطق البريطانية على البر الرئيس الأمريكي وعلى الجزر الهندية الغربية بين العامين ١٦٠١ و١٧٠٠ متوازنة تقريباً، بنحو مئة وسبعة وسبعين ألف مهاجر في المنطقتين، لكن في حالة الأفارقة كان هناك تباين كبير، حيث نقل الإنجليز زهاء اثني عشر ألف أفريقي فقط إلى البر الرئيس الأمريكي ومئتين وسبعة وثلاثين ألفاً إلى الكاريبي[١٢]. وبحلول العام ١٨٠٠، بلغ إجمالي الهجرة زهاء سبعمئة واثنين وخمسين ألف أوروبي ومئتين وسبعة وثمانين ألف أفريقي إلى البر الرئيس الأمريكي، في مقابل مائتين وتسعين ألف أوروبي ونحو مليونين وخمسة وأربعين ألف أفريقي إلى الكاريبي. وكان كل المهاجرين الأفارقة عبيداً بالطبع، أما الأوروبيون فيقول غيمز Games إن ما لا يقل عن ٧٥٪ منهم كانوا من الخدم الملزمين أو المدانين[(١١)]. وهذا الاعتماد على العمل

(١٠) تشير عبارة البر الرئيس لأي قارة أو دولة إلى كتلة اليابسة الرئيسة للقارة أو الدولة دون الجزر الواقعة على سواحلها [المترجم].

(١١) الخدمة الإلزامية indentured service شكل من عبودية الدين، نشأ في المستعمرات الأمريكية، كان المراهقون والشباب الفقراء في بريطانيا والولايات الألمانية يحصلون بمقتضاه على النقل المجاني إلى المستعمرات الأمريكية في مقابل العمل سنوات محددة لدى صاحب الالتزام الذي كان يشتريه من أصحاب السفن التي نقلتهم، وبعدها يصيرون عمالاً أحراراً. كأن صاحب الالتزام يشتري العامل لبضع سنوات في مقابل دفع نفقات نقله لصاحب السفينة التي جاءت به [المترجم].

القسري كسمة للزراعة في العالم الجديد عكس جزئياً وفرة الأرض في هذه المجتمعات[١٣]، وهو ما يشير ضمناً إلى عوائد ثابتة تقريباً للعمال، وبالتالي مستوى منخفض أو حتى منعدم للإيجارات لملاك الأراضي المعتمدين على العمال الأحرار المُكْلِفين[١٤]. وقد عكس ذلك أيضاً- للمفارقة- "تطور الحرية في الوطن، مثل حقوق المِلكية الفردية" لأن "ذلك سمح للأوروبيين بتوسيع حقوقهم الشخصية إلى خارج أوروبا. وبذلك جاءت الحرية الأوروبية في الوطن كشرط أولي لاستعباد الأوروبيين للأفارقة في الخارج"[١٥](١٢).

يوضح الجدول رقم (٥,٢) أنه في حين كان إجمالي السكان في المنطقتين صغيراً ومتقارباً في العام ١٦٥٠، أصبح إجمالي السكان في أمريكا الشمالية أكثر من أربعة أضعاف ونصف سكان جزر الهند الغربية بحلول العام ١٧٧٠، أي نحو ٢.٣ مليون شخص. وفيما شكّل العبيد ٩٠٪ من سكان جزر الهند الغربية إبان القرن الثامن عشر، شكّلوا خُمس سكان أمريكا الشمالية فقط. على أن عدد العبيد بجزر الهند الغربية كان أصغر كثيراً من العدد الكلي للعبيد الذين شحنوا إلى هناك، وهو ما يشير إلى أن معدلات الوفيات العالية بين العبيد استلزمت التدفق المستمر للعبيد لتعويض النقص في العرض. وقد يبدو في المقابل أن العبيد في أمريكا الشمالية أصبحوا يعيدون إنتاج أنفسهم دون الحاجة إلى استيراد المزيد. وتوضح البيانات أيضاً المستويات العالية للزيادة الطبيعية بين البيض في أمريكا الشمالية، في مقابل المستويات المنخفضة للزيادة الطبيعية بين البيض الذين هاجروا إلى الكاريبي (وربما هجرتهم من الكاريبي أيضا). فمن المذهل حقاً أن السكان البيض في أمريكا الشمالية البريطانية تضاعف عددهم تقريباً في السنوات العشرين بين العامين ١٧٥٠ و١٧٧٠.

---

(١٢) إن الأدبيات حول أسباب العبودية الأفريقية في العالم الجديد أكبر من أن تُلخَّص على نحو كافٍ هنا. ومن الكتابات الأخيرة المهمة في الموضوع Eltis, 2000.

الجدول رقم (٥,٢).سكان مستعمرات العالم الجديد البريطانية إبان الفترة ١٦٥٠–١٧٧٠ (بالملايين).

	١٦٥٠	١٧٠٠	١٧٥٠	١٧٧٠
أمريكا الشمالية				
البيض	٥٣	٢٣٤	٩٦٤	١.٨١٦
السود	٢	٣١	٢٤٢	٤٦٧
الإجمالي	٥٥	٢٦٥	١.٢٠٦	٢.٢٨٣
النسبة المئوية للسود	٣.٦	١١.٧	٢٠.١	٢٠.٥
جزر الهند الغربية				
البيض	٤٤	٣٢	٣٥	٤٥
السود	١٥	١١٥	٢٩٥	٤٣٤
الإجمالي	٥٩	١٤٧	٣٣٠	٤٧٩
النسبة المئوية للسود	٢٥.٤	٧٨.٢	٨٩.٤	٩٠.٦

المصدر: McCusker and Menard (1991, table 3.1, p. 54)

تتضح العلاقة بين التجارة والاستيطان والنهب في السنوات الأولى للإمبراطورية البريطانية في مثال جامايكا، وهي موضوع دراسة كاشفة لنولا زاهيديه Nuala Zahedieh[١٦]. تقول نولا: "كانت الجزيرة مكافأة متواضعة لما كان مجرد غارة من القراصنة والمغامرين مدعومين من الدولة على جزر الهند الغربية الإسبانية"، أو ما أسماه كروमويل "المخطط الغربي" الذي كان هدفه الأولي يقتصر على احتلال إسبانيولا، لكنه تحوّل إلى جامايكا بعد أن خابت الحملة[١٧]. لم يكن نظام كرومويل ولا نظام تشارلز الثاني مستعدين لإنفاق مزيد من الموارد العسكرية أو المالية على الجزيرة التي تعرضت أيضاً للإهمال من جانب ملاكها الإسبان، لكن موقع بلدة وميناء بورت رويال Port Royal وإمكانية استخدامه كقاعدة للقرصنة وتجارة التهريب جعلت منه "خنجراً في قلب الإمبراطورية الإسبانية". وبحلول العام ١٦٧٠، كانت بورت رويال تأوي أكثر من عشرين سفينة وألفي رجل منهمكين في هذه النشاطات الشائنة والمربحة جداً. وكان أشهر

وأنجح هؤلاء القراصنة هو هنري مورغان[١٣] المعروف لكل هواة أفلام القرصنة الهوليودية في أيام النجمين السينمائيين إرول فلين Errol Flynn وتايرون باور Tyrone Power. وهجوم مورغان على بورتوبيلو Portobello في العام ١٦٦٨ وحده "نتج عنه نهب ما يساوي سبعمئة وخمسين ألف جنيه إسترليني، أي أكثر من سبعة أضعاف القيمة السنوية لصادرات السكر من الجزيرة"[١٨].

وجد المستوطنون الإسبان على البر الرئيس وفي الجزر أن من الأرخص والأنسب أن يحصلوا على وارداتهم من السلع الأوروبية عبر جامايكا، بدلاً من انتظار الأسطول السنوي القادم من إشبيلية أو قادس Cadiz بإسبانيا كما كانت التعليمات الرسمية تفرض عليهم. وتدفع زاهيديه بأن الأرباح من النهب وتجارة التهريب جعلت الجزيرة تفيض بالأموال السائلة التي اِستُثمرت في مزارع السكر والنشاطات الزراعية الأخرى، ما أغنى الإنجليز عن انتظار رأس المال من إنجلترا. وهي بذلك تدحض الزعم الشهير لآدم سميث بأن المستعمرات كانت بالوعة لرأس المال الإنتاجي من البلد الأم- إنجلترا - كما تقدم زاهيديه حسابات معقولة تؤكد أن معدل العائد من مزارع السكر في جامايكا كان نحو ١٠٪ أو أكثر، وهو أعلى من معدل الفائدة السائد في إنجلترا. ولذلك يبدو أن جامايكا كانت مشروعاً استعمارياً مركنتيلياً مثالياً، إذ لم يتطلب رأس مال أولي من البلد الأم، بل أدرّ عوائد عالية من النهب والتهريب على حساب العدو، وأرسل صادرات أولية ثمينة مثل السكر إلى البلد الأم، فضلاً عن فرص النهب التي وفرها للسفن الإنجليزية. ولذلك لا يمكن تخيل مثال أفضل من جامايكا لمفهوم "التراكم البدائي" الماركسي[١٤]، حيث تحوّلت جامايكا سريعاً إلى أكبر مصدّر للسكر في الإمبراطورية البريطانية على مدار معظم القرن الثامن عشر، بعد فترة طويلة من انتهاء أيام هنري مورغان.

---

(١٣) هنري مورغان Henry Morgan (حوالي ١٦٣٥ إلى ٢٥ أغسطس ١٦٨٨) أدميرال بالبحرية الملكية البريطانية وقرصان، اشتهر بعملياته في الكاريبي ضد المستوطنات الإسبانية التي جعلته من أنجح وأشرس القراصنة في التاريخ، ومنها غاراته على بورتوبيلو وقرطاجنة في الكاريبي وعلى ماركايبو وجبل طارق في الداخل الإسباني [المترجم].

(١٤) راجع حاشية سابقة للمترجم حول مفهوم "التراكم البدائي" عند كارل ماركس [المترجم].

كان غالبية "السادة وكبار المزارعين" الذين كوّنوا ثرواتهم في جامايكا، كما يذكر كاتب يوميات معاصر، "في السابق رجالاً أجلافاً من أصول وضيعة ممن يكسبون رزقهم بحيل غير شريفة، وكوّنوا ثرواتهم هنا"[١٩]. وكان من هؤلاء الرجال بيتر بيكفورد Peter Beckford البحار العادي الذي أصبح حفيده وليام بيكفورد من أبرز "أثرياء" جزر الهند الغربية وامتلك هو وإخوته الثلاثة مقاعد في مجلس العموم، ويقال إنه كان أحد أغنى الرجال في إنجلترا إبان القرن الثامن عشر. أدت مزارع السكر في باربادوس وجامايكا إلى ازدهار الممتلكات البريطانية بجزر الهند الغربية، ولذلك وصفها إيريك وليامز Eric Williams بأنها "صُرة الإمبراطورية البريطانية وأنها مهمة جداً لعظمة إنجلترا وازدهارها"[٢٠]. كان من فوائد الهوس المركنتيلي بالتجارة بالنسبة للمؤرخين أن الدول في تلك الفترة بدأت تجمع إحصاءات تجارية مفصلة، والجدول رقم (٥،٣) يقدم معلومات حول الصادرات من المستعمرات البريطانية بالعالم الجديد بين العامين ١٧٦٨ و١٧٧٢. توضح المجموعة الأولى أن القيمة الإجمالية لصادرات جزر الهند الغربية من السكر والمنتجات المرتبطة به مثل المولاس وشراب الرم بلغت ٣.٩ مليون جنيه سنوياً إبان الفترة ١٧٦٨-١٧٧٢، كان ٣.٤ مليون جنيه منها تذهب إلى بريطانيا العظمى، ويذهب نصف المليون الباقي إلى أمريكا الشمالية.

أما الذين استوطنوا مستعمرات نيو إنجلند بالبر الرئيس (ماساتشوستس وكونيكتيكت ونيوهامبشاير ورودأيلند) فكانوا في معظمهم من البروتستانت المنشقين من إنجلترا إبان العقد الثالث من القرن السادس عشر، وهم مختلفون تماماً عن المستوطنين في جزر الكاريبي. وقد أشار كرومويل نفسه إلى نيو إنجلند بأنها "مكان ميت وفقير وعديم الفائدة"، وهو ما أظهر جهلاً بما وصل إليه مواطنوه البيوريتانيون لاحقاً بمناطقهم غير الواعدة. وقد ساعد الاقتصاد المتنوع القائم على زراعة الذرة الصفراء وتجارة الفراء وتربية الماشية وصيد الأسماك وبناء السفن وخدمات النقل البحري وغيرها، كثيراً من أسر المستوطنين في التمتع بما سُمي حد "الكفاية"، أي درجة كافية من الرفاهية، وإن لم يبلغوا حد الثراء. وهذا النمط للنمو جعل اقتصاد نيو إنجلند مكملاً لاقتصاد جزر الهند الغربية.

الجدول رقم (٥,٣). صادرات المستعمرات البريطانية بالعالم الجديد إبان الفترة ١٧٦٨-١٧٧٢ (بالجنيه الإسترليني).

			الوِجهة				
المنتج	بريطانيا العظمى	أيرلندا	أمريكا الشمالية	دول أوروبية أخرى	جزر الهند الغربية	أفريقيا	الإجمالي
			جزر الهند الغربية				
السكر	٣.٠٠٢.٧٥٠		١٨٣.٧٠٠				٣.١٨٦.٤٥٠
الرم	٣٨٠.٩٤٣		٣٣٣.٣٣٧				٧١٤.٢٨٠
المولاس	٢٢٢		٩.٦٤٨				٩.٨٧٠
الإجمالي	٣.٣٨٣.٩١٥		٥٢٦.٦٨٥				٣.٩١٠.٦٠٠
			نيو إنجلند				
الأسماك	٤٠.٦٤٩			٥٧.٩٩٩	١١٥.١٧٠	٤٤٠	٢١٤.٢٥٨
الماشية/اللحوم	٣٧٤			٤٦١	٨٩.١١٨		٨٩.٩٥٣
الخشب	٥.٩٨٣	١٦٧		١.٣٥٢	٥٧.٧٦٩		٦٥.٢٧١
البوتاس	٢٢.٣٩٠	٩					٢٢.٣٩٩
الحبوب	١١٧	٢٣		٣.٩٩٨	١٥.٧٦٤		١٩.٩٠٢
الرم	٤٧١	٤٤		١.٤٩٧	١٦.٧٥٤		١٨.٧٦٦
أخرى	٦.٩٩١	١.٠١٨		٢٩٦	٢٤٧		٨.٥٥٢
الإجمالي	٧٦.٩٧٥	١.٢٦١		٦٥.٦٠٣	٢٧٨.٠٦٨	١٧.١٩٤	٤٣٩.١٠١
			المستعمرات الوسطى				
الحبوب	١٥.٤٥٣	٩.٦٨٦		١٧٥.٢٨٠	١٧٨.٩٦١		٣٧٩.٣٨٠
بزر الكتان	٧٧١	٣٥.١٨٥					٣٥.٩٥٦
الخشب	٢.٦٣٥	٤.٨١٥		٣.٠٥٣	١٨.٨٤٥		٢٩.٣٤٨
الحديد	٢٤.٠٥٣	٦٩٥			٢.٩٢١		٢٧.٦٦٩
الماشية/اللحوم	٢.١٤٢			١.١٩٩	١٦.٦٩٢		٢٠.٠٣٣
البوتاس	١٢.٢٣٣	٣٩					١٢.٢٧٢
أخرى	١١.٠٨٢	١.٣١٠		٢.٢٢٧	٦.١٩١	١.٠٧٧	٢١.٨٨٧
الإجمالي	٦٨.٣٦٩	٥١.٧٣٠		١٨١.٧٥٩	٢٢٣.٦١٠	١.٠٧٧	٥٢٦.٥٤٥
			الجنوب الأعلى				
التبغ	٧٥٦١٢٨						٧٥٦١٢٨
الحبوب	١٠٢٠٦	٢٢٩٦٢		٩٧٥٢٣		٦٨٧٩٤	١٩٩٤٨٥
الحديد	٢٨٣١٤	٤١٦				٤٦١	٢٩١٩١
الخشب	٩٠٦٠	٢١١٥		١١١٤	١٠١٩٥		٢٢٤٨٤
أخرى	٢٣٣٤٤	٣٣٥٧		٥٢٦	١٢٣٦٨		٣٩٥٩٥
الإجمالي	٨٢٧٠٥٢	٢٨٨٥٠		٩٩١٦٣	٩١٨١٨		١٠٤٦٨٨٣

تابع الجدول رقم (٥,٣).

المنتج	**بريطانيا العظمى**	**أيرلندا**	**أمريكا الشمالية**	**دول أوروبية أخرى**	**جزر الهند الغربية**	**أفريقيا**	**الإجمالي**
				الوِجهة			
				الجنوب الأدنى			
الأرز	١٩٨٥٩٠			٥٠٩٨٢	٥٩٦١		٣٠٥٥٣٣
النيلة	١١١٨٦٤						١١١٨٦٤
جلود الأيل	٣٧٠٩٣						٣٧٠٩٣
المتاجر البحرية	٣١٧٠٩						٣١٧٠٩
الخشب	٢٥٢٠	٢٢٨		١٣٩٦	٢١٦٢٠		٢٥٧٦٤
الحبوب	٣٠٢	١٦٩		١٣٢٣	١١٣٥٨		١٣١٥٢
الماشية/اللحوم	٧٥	٣٦٦		١٠٣	١٢٣٨٦		١٢٩٣٠
أخرى	١١٨٧٧	٥١٥		٣٦٥	٧٨٥	٣٦٢	١٣٩٠٤
الإجمالي	٣٩٤٠٣٠	١٢٧٨		٥٤١٦٩	١٠٢١١٠	٣٦٢	٥٥١٩٤٩

المصدر: McCusker and Menard (1991, pp. 108,130, 160, 174, 199)

حيث كانت تصدّر الذرة وسمك القد والإمدادات الأخرى لإطعام سكان الجزر من العبيد والأحرار، الفرنسيين والهولنديين فضلاً عن الإنجليز، وتستورد شراب الرم والمولاس والسكر. وكانت التجارة نشطة أيضاً مع جزر ماديرا والآزور الإسبانية والبرتغالية، وتضمنت تبادل الأسماك والمواد الغذائية في مقابل النبيذ والملح. وقد أنتج الزواج المبكر والأسر الكبيرة معدلات عالية للزيادة الطبيعية للسكان بين المهاجرين الأصليين، وفي المقابل تناقص عدد الأمريكيين الأصليين بسبب الأمراض والأعمال العدائية مع المستوطنين الأفضل تسليحاً الذين رأوا ذلك من تدبير العناية الإلهية. وأدى النمو السكاني السريع والاقتصاد المتنوع إلى تحول حضري واسع وظهور قطاع تجاري ومالي له نخبته التجارية المتمركزة في بوسطن التي كانت نقطة الدخول للواردات البريطانية التي كانت توزع منها على المستعمرات الأخرى على البر الرئيس وجزر الهند الغربية. وكانت المداخيل من خدمات الشحن البحري لا تقل بأي حال عن إجمالي الصادرات السلعية، أي ما لا يقل عن أربعمئة وسبعة وعشرين ألف جنيه[٢١]. وقد

دفعت هذه الأرقام ماكوسكر ومينارد McCusker and Menard إلى القول بأن "سكان نيو إنجلند أصبحوا الهولنديين في إمبراطورية إنجلترا"[٢٢](١٥).

كانت مستعمرات البر الرئيس المبكرة الأخرى التي تطورت بعد ذلك هي مستعمرات الجنوب الأعلى في فرجينيا وميريلند التي انبثقت سريعاً كاقتصاد تصديري زراعي كلاسيكي أحادي المحصول، إذ كانت تزرع "العشب الضار" المسمى بالتبغ كمحصول نقدي مربح جداً حول خليج تشيزبيك Chesapeake. وسرعان ما طور التبغ سوقاً ضخماً في أوروبا وارتفع إنتاجه من زهاء ستين ألف رطل في العام ١٦٢٩ إلى خمسة عشر مليون رطل في العام ١٦٧٠، ثم إلى ثمانية وعشرين مليون رطل في منتصف العقد التاسع من القرن السابع عشر[٢٣]، ثم شهد ركوداً بعدها، قبل أن يتعافى ثانية بعد العام ١٧١٥ ويرتفع إلى نحو خمسين مليون رطل في العام ١٧٦٠. يوضح الجدول رقم (٥,٣) أن الجنوب الأعلى كان يصدّر أكثر من أية منطقة أخرى بالبر الرئيس، حيث بلغت صادراته الإجمالية (المتوسط السنوي ١٧٦٨- ١٧٧٢) أكثر من مليون جنيه. وشكّل التبغ أكثر من ثلاثة أرباع هذا الإجمالي، وكانت صادرات التبغ تذهب جميعها إلى إنجلترا، وكان يصدّر نحو ٨٥٪ منها إلى قارة أوروبا[٢٤].

وبين نيو إنجلند والجنوب الأعلى كانت تقع المستعمرات الوسطى في نيويورك وبنسلفانيا وفروعها في نيو جيرسي وديلوار. تميزت نيويورك بروابط قوية مع الهولنديين بسبب نشأتها الأولى كمستعمرة هولندية باسم هولندا الجديدة New Netherlands، لكن الإنجليز استولوا عليها في العام ١٦٦٤، وتميزت بنسلفانيا بعلاقات قوية مع الصاحبيين(١٦) بسبب مؤسسها وليام بين William Penn. وقد أثبتت ظروف النشأة الأولى أهميتها وقيمتها في بناء شبكات تجارية مع أمستردام وجزر الهند الغربية

---

(١٥) بمعنى أنهم كانوا يسيطرون على تجارة الشحن البحري داخل الإمبراطورية، كما كان الهولنديون يسيطرون عليها خارج الإمبراطورية [المترجم].

(١٦) الصاحبيون Quakers أو جمعية الأصحاب الدينية the Religious Society of Friends جماعة تضم منظمات دينية متنوعة ترجع إلى حركة دينية ظهرت في إنجلترا وويلز إبان القرن السابع عشر شدّدت على أن يتقمص الفرد العادي شخصية المسيح الخالد في حياته اليومية [المترجم].

الهولندية وجماعة الصاحبيين التجارية واسعة الانتشار. واستفادت الزراعة في بنسلفانيا أيضاً من الممارسات الزراعية المتطورة للعدد الكبير من المهاجرين البروتستانت الألمان الذين ذهبوا إلى تلك الولاية. وتطورت فيلادلفيا ونيويورك سريعاً إلى مراكز تجارية ومالية، أزاحت بوسطن من قبل الثورة بوقت طويل. ونمت فيلادلفيا حتى أصبحت أكبر مدينة على البر الرئيس، حيث بلغ عدد سكانها خمسة وثلاثين ألفاً في العام ١٧٧٥، أي في حجم بريستول أو مانشستر في إنجلترا. وعلى خلاف نيو إنجلند التي اعتمدت بشدة على جزر الهند الغربية، وتشيزبيك التي اعتمدت حصرياً تقريباً على إنجلترا، كانت المستعمرات الوسطى متوازنة في وِجهاتها التصديرية، إذ كان أكثر من ٤٠٪ من صادراتها يذهب إلى جزر الهند الغربية، والخُمس فقط يذهب إلى بريطانيا وأيرلندا، وأكثر من الثلث يذهب إلى بقية أوروبا. ومن اللافت للنظر أيضاً أن مداخيل خدمات الشحن البحري وغيرها بلغت أكثر من ربع مليون جنيه[٢٥].

يختلف تاريخ الجنوب الأدنى لمستعمرات كارولينا الشمالية والجنوبية وجورجيا عن مستعمرات البر الرئيس الأخرى في أنها لم تؤسَس على أيدي المستوطنين القادمين مباشرة من إنجلترا أو أوروبا، بل المهاجرين من جزر الهند الغربية والجنوب الأعلى، أو بتعبير مراقب قاس "حثالة كل المستعمرات الإنجليزية الأخرى وسَقْطها". جاءت الدفعة الأولى من باربادوس التي أدى فيها النمو السريع لمزارع السكر على جزيرة صغيرة إلى الضغط على العمال الملزمين وغيرهم من المهاجرين الأوائل، ما دفع نحو عشرة آلاف شخص إلى مغادرة باربادوس إلى مستعمرات أخرى إبان القرن السابع عشر[٢٦]. في البداية كان هؤلاء المهاجرين للمرة الثانية يكسبون عيشهم من العمل بوصفهم "مستعمرة لمستعمرة"[٢٧]، إذ كانوا يصدّرون المواد الغذائية لإطعام باربادوس المتخصصة في زراعة السكر فقط. ولاحقاً ظهرت فرص للتجارة المربحة في جلود الأيل مع الهنود المحليين، فيما شكّل الأرز حالة كلاسيكية أخرى للاقتصاد التصديري في كارولينا الجنوبية. فقد ارتفعت صادرات الأرز من مليون ونصف مليون رطل في العام ١٧١٠ إلى أكثر من تسعين مليون رطل في وقت الثورة. وبحلول العقد الخامس من القرن الثامن عشر، أصبحت النيلة ما نسميه "السلعة الرفيقة الممتازة" للأرز، حيث

كانت مكملة لمتطلبات المدخلات. وبذلك أصبحت "مستعمرة المستعمرة" نسخة من باربادوس نفسها، كل ما هنالك أنها استعاضت بالأرز عن السكر، وكلاهما يعتمد على عمالة من العبيد. ومن اللافت للنظر أنه مع نهاية القرن الثامن عشر كانت نسبة السود قد ارتفعت إلى أكثر من ٤٠٪[٢٨]. وكان ثلثا صادرات الأرز يذهب إلى بريطانيا العظمى، والباقي يقسم بالتساوي بين جزر الهند الغربية وأوروبا. وكانت النيلة كلها تذهب إلى بريطانيا العظمى.

وعلى الرغم من الأهمية الواضحة للزراعة وصادرات المنتجات الأولية لمستعمرات البر الرئيس الثلاث عشرة، فإنها لم تهمل التصنيع. فيذكر بيركنز Perkins أن ناتج الحديد الاستعماري شكّل ألفاً وخمسمئة طن، أي ٢٪ من الناتج العالمي في العام ١٧٠٠، وارتفع إلى واحد وعشرين ألف طن سنوياً في العام ١٧٧٥، أي ما لا يقل عن ١٥٪ من الناتج العالمي، وعمل به ثمانية آلاف عامل في أكثر من ثمانين فرناً، وصدّر ما قيمته ثمانية وخمسون ألف جنيه من القضبان والحديد الصب سنوياً إلى إنجلترا[٢٩]. ومع وفرة الخشب في مستعمرات البر الرئيس، بدأت تصدّر سواري السفن والسفن نفسها، وشكّلت أكثر من ثلث السفن البريطانية المسجلة المؤمن عليها في شركة لويد[٣٠].

ترجع البيانات الجيدة التي بحوزتنا حول توازن المدفوعات في المستعمرات الثلاث عشرة في عشية الاستقلال (المتوسطات السنوية ١٧٦٨-١٧٧٢) إلى والتن وشيفرد Walton and Shepherd[٣١] التي اعتمد عليها الجدول رقم (٥,٣). بلغت الصادرات السلعية الإجمالية ٢.٨ مليون جنيه، فيما بلغت مداخيل الصادرات غير المرئية ستمئة ألف جنيه من الشحن ومئتين وعشرين ألف جنيه من التأمين والعمولات. وعلى جانب المدين، بلغت الواردات السلعية ٣.٩ مليون جنيه، ومدفوعات أثمان واردات العبيد مئتي ألف جنيه، ومدفوعات أثمان الخدم الملزمين ثمانين ألف جنيه. وبلغ إجمالي عجز الحساب الجاري نحو مائة وأربعين ألف جنيه، عند إدراج البنود المالية المختلفة في الحساب، وهو ما كان يُموَّل بالاقتراض أو تصدير النقد، وهو مقدار تافه جداً بالنسبة إلى الإمكانات المفتوحة لاقتصاد ما عُرِف لاحقاً باسم الولايات المتحدة الأمريكية[٣٢].

كانت التجارة بين مستعمرات البر الرئيس وجزر الهند الغربية وبريطانيا العظمى والدول الأجنبية تحدث في الإطار المركنتيلي لما عُرِف بالنظام الاستعماري القديم الذي أطره قانون الملاحة الصادر في العام ١٦٥١ من البرلمان الكرومويلي[١٧]، الذي تحسنت فعاليته الإجرائية بقانون العام ١٦٦٠ الذي تبناه برلمان الإعادة[١٨]، وتلاه قانون السلع للعام ١٦٦٣ وبعض التشريعات الأخرى اللاحقة. كان الهدف من هذا التشريع هو ضمان أن تُحمل كل السلع المستوْردة إلى إنجلترا على سفن إنجليزية أو سفن بلد المنشأ للسلع المستوْردة. وكان ذلك موجهاً بالتحديد ضد الهولنديين وهيمنتهم على تجارة الشحن، حيث قضى التشريع بأن تُنقَل كل التجارة بين إنجلترا ومستعمراتها أو بين هذه المستعمرات في سفن مملوكة للإنجليز أو للمستعمرات. كما حدد التشريع قائمة سلع "مسماة"، منها السكر والتبغ والقطن والزنجبيل والنيلة وبعض الأصباغ الأخرى، لا تصدّر من المستعمرات الإنجليزية إلا إلى إنجلترا نفسها، بمعنى أنها لا يمكن أن تصل إلى أية وِجهة أجنبية إلا إذا كان تصديرها معاد من إنجلترا، أي أن تمر عبر الأخيرة.

يشكل تأثير هذا التدخل الحكومي على نمو كل من إنجلترا والمستعمرات مجالاً مفعماً للبحث والجدل منذ فترة طويلة، ووجدت دراسات القياس الاقتصادي التاريخي[١٩] المبكرة أن العبء الذي فرضه التدخل على المستعمرات كان صغيراً[٣٣]. ومن الجدير بالذكر أن آدم سميث نفسه دافع عن قوانين الملاحة على أساس أن "الدفاع أهم من الثروة" وأن الأسطول التجاري هو "مدرسة البحارة"، وبالتالي مصدر لجنود البحرية الملكية في زمن الحرب. وبالنسبة للمستعمرين على البر الرئيس الأمريكي كان حصر نقل الواردات على السفن الإنجليزية يعني بعض الخسارة في كفاءة النقل، لكن ذلك عوّضت عنه المكاسب من إقصاء الهولنديين من التجارة الواسعة والمربحة مع جزر

---

(١٧) نسبة إلى أوليفر كروموبل، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم]

(١٨) برلمان الإعادة هو البرلمان الذي تشكل بعد إعادة الملكية في إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا في شخص تشارلز الثاني في العام ١٦٦٠، بعد الإطاحة بها عقب حرب الممالك الثلاث وتكوين الكومونويلث ثم الوصاية [المترجم].

(١٩) يقوم القياس الاقتصادي التاريخي Cliometrics على تطبيق النظرية الاقتصادية الحديثة والأساليب الإحصائية على دراسة التاريخ.

الهند الغربية. أما بالنسبة للصادرات الزراعية "المسماة"، فقد خسر منتجو التبغ بلا شك، لأن التجار الإنجليز والاسكتلنديين كانوا يعيدون تصدير أكثر من ٨٠٪ من مشترياتهم من المستعمرات إلى فرنسا والدول الأوروبية الأخرى. لكن منتجي السكر تمتعوا برسوم استيراد في إنجلترا أقل كثيراً من السكر المستوْرد من المستعمرات الفرنسية أو الهولندية.

المركنتيلية والتنافس التجاري والحروب الإنجليزية–الهولندية

رأينا في الفصل السابق أن الهولنديين هيمنوا بداية من العام ١٦٥٠ على التجارة العالمية في كل بحار العالم ومحيطاته. ولذلك وقعت الحروب الإنجليزية–الهولندية في أوج القوة الهولندية. يرى جوناثان إزرائيل أن الفترة ١٦٤٧–١٦٥٢ كانت "نقطة الذروة" في الهيمنة الهولندية على التجارة العالمية، وقد تزامنت مع توقف الأعمال العدائية مع إسبانيا في العام ١٦٤٨[٣٤]. أدى ذلك إلى انخفاض كبير، بنسبة ٥٠٪ في بعض الحالات، في تكاليف النقل والتأمين، وألهب نمواً كبيراً في التجارة، وبخاصة في البحر الأبيض المتوسط. فقد أصبح بمقدور التجار الهولنديين أن يتاجروا بحرية في إسبانيا والمستعمرات الإسبانية، كما اِعْتُرِف بممتلكاتهم في آسيا وأفريقيا والعالم الجديد. وأطلق السلام مع إسبانيا أيضاً توسعاً عسكرياً هولندياً في جنوب شرق آسيا، ومعه تأسيس احتكارات فعالة لتوابل جزر الملوك.

اجتمع انخفاض أسعار الفائدة وتحسن التقنية في المراحل المتأخرة من صناعة الأقمشة مع سهولة الوصول إلى الصوف الإسباني لتعطي ميْزة مهمة للهولنديين في هذا القطاع المهم. وساعد الانخفاض النسبي في أسعار الشحن الهولندية والميْزة النسبية في إنتاج الأقمشة الصوفية في دفع تجارتهم البلطيقية على حساب إنجلترا والمدن الهانزية، وكذلك تجارتهم مع إيطاليا والمشرق. كما أصبح الهولنديون أكثر نشاطاً في الكاريبي بعد وقف الأعمال العدائية مع إسبانيا. وكان التأثير الفوري لهذه التطورات على إنجلترا السبب وراء ازدياد الاستياء الإنجليزي الذي أطلق الحرب الإنجليزية – الهولندية الأولى في الأعوام ١٦٥٢–١٦٥٤.

ظل الإنجليز يراقبون تقدم حليفهم البروتستانتي الأصغر منذ أواخر الحقبة الإليزابيثية بمزيج من الإعجاب والحسد والاستياء أو بتعبير تشارلز ويلسون "حسد بدائي ساذج على الأرباح الكبيرة التي كان الهولنديون يكسبونها بسهولة على ما يبدو من نظامهم الأكثر تقدماً في تجارة ما وراء البحار"[٣٥]. والإنجليز بعدد سكانهم الأكثر من ضعف عدد سكان هولندا وامتلاكهم موارد زراعية وصناعية أكثر كثيراً من الهولنديين، كان من الصعب أن يتسامحوا مع النجاح الهولندي. فقد كان الإنجليز مكتفين ذاتياً في الغذاء، حتى كانوا يشهدون بعض الفائض في السنوات الجيدة، بينما كان الهولنديون مضطرين للاعتماد على واردات القمح من البلطيق لتلبية احتياجاتهم. وكانت صناعة الأقمشة الصوفية الإنجليزية تستخدم الصوف الوفير من الأغنام المحلية، فيما كان الهولنديون مضطرين لاستيراد الصوف من إسبانيا. وكانت إنجلترا تصدّر "الأقمشة البيضاء" غير المكتملة وغير المصبوغة إلى هولندا، وهناك كان الجزء الأكبر من القيمة المضافة يُولَّد. وكان الحسد الأكبر موجهاً إلى الربح الهائل الذي كان الهولنديون يحققونه من صيد الرنغة من بحر الشمال، وفي الغالب من مياه قريبة من سواحل إنجلترا واسكتلندا.

تكشفت هذه الشكاوى جميعها في البيان الأشهر للمركنتيلية الإنجليزية، وهو كتاب توماس مون Thomas Mun "ثروة إنجلترا من التجارة الخارجية" الذي كُتِب إبان العقدين الثالث والرابع من القرن السابع عشر، لكنه لم ينشر إلا في العام ١٦٦٤، في عشية الحرب الإنجليزية- الهولندية الثانية. ذهب مون إلى أن صرح الازدهار التجاري الهولندي يقوم في حقيقته على سماح الإنجليز لهم بالصيد كما يشاؤون في المياه الإقليمية الإنجليزية، واستخدام زهاء ألف حافلة رنغة ونصف مليون رجل في كل مراحل عملية الإنتاج، وأنهم كانوا يصطادون وفق تقدير محافظ ما يزيد في قيمته عن مليون جنيه سنوياً. وقال مون إن المقاطعات المتحدة "بمثابة طائر جميل يزهو بريش جميل مستعار، لكن إذا أخذ كل طائر ريشته، فإن هذا الطائر الجميل سيتعرى"[٣٦]. وتتمثل الطريقة الوحيدة لتحجيم الهولنديين في إعادة السيطرة على "مصايدهم العظيمة" وحرمانهم من "ريشهم المستعار" من

خلال التركيز على القوة البحرية، وهو ما يكشف اعتماد الوفرة على القوة في أوضح صوره.

جُرِبت في هذه السنوات، في عهدي جيمس الأول وتشارلز الأول، خطط مختلفة لزيادة المشاركة الوطنية في مصايد الرنغة، لكنها أُحبِطت جميعاً بسبب عدم قدرة الإنجليز على منافسة الهولنديين على مستوى التنظيم التجاري والدعم المالي. كما آل إلى الفشل أيضاً، وللأسباب عينها، مشروع للاحتفاظ بالأقمشة الإنجليزية في الوطن لتشطيبها وصباغتها، وبالتالي توليد قيمة مضافة أكبر بدلاً من تركها للهولنديين، وهو المشروع الذي ارتبط باسم رجل الأعمال اللندني البارز ألدرمان كوكاين Alderman Cockayne. فكما اكتشفت دول نامية كثيرة في العصر الحالي، فإن "استبعاد الوسيط" وأخذ أرباحه ليس أمراً سهلاً في غياب ما يلزم ذلك من مهارات ومؤسسات ورأس مال.

خرجت إنجلترا من الحرب الأهلية بأسطول قوي وطبقة وسطى عدوانية كانت مستعدة لتحدي الهيمنة التجارية الهولندية. وفي ذلك يقول ديفيد أورمرود David Ormrod إن "القوة الدافعة وراء السياسة التجارية الإنجليزية بعد العام ١٦٥٠ كانت- بلا شك - المنافسة الهولندية"، فيما كان هدف هذه السياسة التجارية "يمكن تحديده حصراً في الصيغة الأساسية: إزالة ميْزة احتكار الشركات حينما يكون ذلك ملائماً، مع توفير الحماية للمصالح التجارية في إطار احتكار وطني واحد شامل يمنحه البرلمان"[٣٧]. ودفع أورمورد بأن الجماعات التجارية الجديدة في إنجلترا والمستعمرات الأمريكية كانت تعارض المنح التقليدي للاحتكارات بالامتياز الملكي لكيانات معينة مثل "المغامرين التجاريين"(٢٠)، ويطالبون بدلاً من ذلك بإجراءات تُبقي تجارات أو قطاعات معينة للمشروع الوطني، لكن تترك الباب مفتوحاً للمنافسة التي يمكن أن تنجح وتزدهر فيها شركات وطنية معينة، مدعومة بالتعريفات الجمركية والإعانات

---

(٢٠) "المغامرون التجاريون" اسم لعدة شركات كان نطاق عملها فيما وراء البحار، من أشهرها شركة المغامرين التجاريين التي يشير اسمها الكامل إلى نطاق عملها واحتكارها: "نقابة وشركة وزمالة المغامرين التجاريين لاكتشاف المناطق والممتلكات والجزر والأماكن غير المعروفة"، التي تأسست في لندن في العام ١٥٥١، بهدف البحث عن طرق تجارية جديدة إلى الصين وجزر التوابل [المترجم].

المالية والهبات و"المال المردود" (رد كل أو بعض رسوم الاستيراد على السلع المعاد تصديرها). وبذلك وجه قانون الملاحة "ضربة قاتلة لتجارة الشحن الهولندية" دون منح أي امتياز خاص لأي مؤسسة بريطانية محددة. وأصبحت القوة الجديدة التي تمتع بها البرلمان الذي كان يعمل من أجل المصلحة الجماعية للطبقة التجارية الوطنية كلها، وليس "النعمة والإحسان" من الملك على كل متوسل للاحتكار، هي المسؤولة من ذلك الوقت فصاعداً عن تنفيذ السياسة "المركنتيلية" الاقتصادية في إنجلترا. ويدفع أورمرود على نحو مقنع بأن هذه المقاربة كانت أكثر "حداثة" وكفاءة من المقاربات التخصيصية التي كانت تتبناها الجمهورية الهولندية التي تسببت في النهاية في فقدانها لأسبقيتها الاقتصادية، أولاً في الاقتصاد الإقليمي لبحر الشمال، وأخيراً في اقتصاد المحيط الأطلسي ككل مع منعطف القرن الثامن عشر[٣٨].

كان كرومويل نفسه حريصاً على إقامة علاقات جيدة مع الجمهورية البروتستانتية الأخرى الوحيدة في أوروبا، حتى إنه اقترح شكلاً من التحالف أو الاتحاد البروتستانتي لدفع المصالح الاقتصادية والأمنية المشتركة ضد إسبانيا والقوى الكاثوليكية الأخرى، وهي الفكرة التي رفضها الهولنديون الذين اتسموا بقدر فظ من الواقعية. ومع طواف أسطول الدولتين في البحار الضيقة بينهما، لم يكن مستبعداً أن تقع حادثة عرضية يقوم فيها الأسطول الإنجليزي بفتح النار على سفن هولندية قبالة دوفر وإغراق سفينتين حربيتين، بزعم أن هذه السفن لم تظهر الاحترام الملائم في مياهه الإقليمية. والتهبت المشاعر على الجانبين، واندلعت الحرب في العام ١٦٥٢، على الرغم من تردد كرومويل ورجال الدولة الهولنديين البارزين.

أدى اتساع الشبكة التجارية العالمية الهولندية وترابطها وتأسيس رخائهم في زمن السلم إلى جعل هذه الشبكة وذلك الرخاء ضعيفين وهشين جداً في زمن الحرب. طلبت الحكومة الهولندية من أمراء البحر توفير الحماية لأسطول القمح القادم من البلطيق وأسطول الفضة القادم من إسبانيا وسفن الهند الشرقية العائدة من باتافيا وسفن الهند الغربية العائدة من الكاريبي وأسطول الرنغة ببحر الشمال وكذلك السفن الأخرى المختلفة. ولا عجب أن يشمئز أميرا البحر ترومب Tromp ودي رويتر de Ruyter

القائدان البحريان الرفيعان من مهمة مرافقة السفن التجارية وحمايتها وأن يسعيا بدلاً من ذلك إلى البحث عن الأسطول الإنجليزي وتحطيمه في معركة حاسمة. وقعت عدة معارك كبرى في القنال الإنجليزي، كانت تنتهي عادة لصالح الإنجليز بسبب قوتهم النارية الأغزر. وكانت الأساطيل التجارية الهولندية العائدة تضطر كثيراً إلى الدوران حول شمال اسكتلندا لتجنب استيلاء الإنجليز عليها في القنال، وهو ما أدى إلى زيادة التكلفة كثيراً. وتمكّن الإنجليز من حصار الموانئ الهولندية بنجاح لفترات طويلة، ما ألحق أضراراً بالغة بتجارتهم ورفع أسعار الخبز والرنغة، وهما السلعتان الغذائيتان الأساسيتان في هولندا.

وفي النهاية تعب الجانبان من التكلفة والعرقلة التي فرضتهما الحرب، ووقعا معاهدة ويستمنستر التي أنهت الحرب دون أن تفرض أية شروط ثقيلة على أي من الجانبين. صحيح أن الإنجليز كانت لهم اليد العليا في الاشتباكات البحرية، لكن النتيجة النهائية كانت أقرب إلى التعادل. وصحيح أن التجارة الهولندية عانت أكثر على المدى القصير، لكنها لم تتضرر على المدى الطويل وتعافت سريعاً، ومع أن ضعفها أمام قوة بحرية منافسة انكشف بوضوح، فإن القادة الهولنديين المستقبليين لم ينسوا ذلك الدرس. وعلى الجانب الآخر، "كان بمقدور التجار الإنجليز أن ينظروا للوراء إلى الحرب الهولندية بشيء من الرضا"[٣٩]، وكان للثقة التي اكتسبوها تأثيرات بالغة الأهمية على الفكر والسياسة المستقبليين. واستمرت قوة الأسطول الإنجليزي في النمو طوال السنوات الباقية من النظام الكرومويلي، بإضافة أكثر من مئتي سفينة، ولذلك فحين أعيد تشارلز الثاني إلى العرش كان أسطوله أكبر بعشرة أضعاف من أسطول أبيه(٢١)[٤٠].

لم يتوقف نظام الإعادة عند حد اتباع السياسات البحرية والتجارية لحكومة الوصاية، بل أخذ يقويها أكثر فأكثر. فعُيِّن أخو الملك الأصغر جيمس دوق يورك أميراً أعلى للبحار، ولذلك كان مدافعاً متحمساً عن تأكيد القوة البحرية الإنجليزية. وأعطيت لكثير من أنصار كرومويل ومستشاريه مناصب عليا وترقيات بعد أن أظهروا ولاءهم. وكان أهم هؤلاء المتحولين السير جورج داونينغ George Downing المغبون

(٢١) أبوه هو الملك تشارلز الأول الذي أعدمه أنصار البرلمان في العام ١٦٤٦ [المترجم].

بشهرته بالشارع اللندني الذي سُمي على اسمه، وليس بإنجازاته الرائعة كمدير اقتصادي وصانع سياسات. كان داونينغ من سلالة بيوريتانية هاجرت إلى نيو إنجلند ومن أوائل خريجي هارفارد، وعاد إلى إنجلترا للقتال في الجانب البرلماني. لم يكن داونينغ مفكراً يتسم بالأصالة، بل مؤمناً متحمساً بأفكار توماس مون حول ضرورة توازن فائض المدفوعات، وجمع إلى جانب ذلك معرفة منقطعة النظير بالممارسات التجارية والمالية الهولندية، حصّلها حين عمل سفيراً إنجليزياً في لاهاي، وهي التوليفة التي جعلته، كما يقول ويلسون، أبو الممارسة المركنتيلية في إنجلترا[٤١]. وجاء قانون الملاحة المعدل للعام ١٦٦٠ يحوي القصد المعادي لهولندا الموجود في قانون العام ١٦٥١، لكنه كان أكثر تطوراً وإلزاماً، حيث أصبح من الممكن التحقق من فرض النقل في السفن الإنجليزية في ضوء سجل السفن المصنوعة في الخارج التي كان يملكها مواطنون إنجليز، وهو ما لم يكن متاحاً في السابق. ووضع داونينغ أيضاً قانون السلع الذي فرض على السلع الأوروبية المصدّرة إلى المستعمرات أن تنقل في سفن إنجليزية. وإدراكاً من داونينغ لأن حظر بيع الأسماك الهولندية في إنجلترا ظل غير فعال طالما بقيت الصناعة الوطنية متخلفة، فقد ضاعف رسوم الاستيراد. وبالطريقة عينها، سمح للمواطنين الإنجليز بتسجيل السفن هولندية الصنع إلى أن تتمكن الصناعة الوطنية من إنجاز الاكتفاء الذاتي. ومع أن النظام التجاري الجديد الذي وضعه داونينغ كان يسترشد بروح قوية من النزعة القومية الاقتصادية المعادية لهولندا، فقد تميّز أيضاً بروح عملية حادة أفادت الأمة كثيراً في هذه الفترة التكوينية من نموها الاقتصادي، حين كانت تحاول أن "تلحق" بمنافسها الكبير و"تتفوق عليه" في السيادة على محيطات العالم وتجارته. وتقييم ويلسون لهذه المرحلة من التاريخ الاقتصادي البريطاني إبان العقد السابع من القرن السابع عشر يستحق أن يقتبس كاملاً[٤٢]:

> لا نبالغ إن اعتبرنا هذه السنوات نقطة تحول في مصير إنجلترا الاقتصادي، حين أفسح المفهوم الأحادي القديم لتجارة الصادرات في الأقمشة نصف المصنعة المجال لمفهوم جديد، هو التجارة الخارجية المتنامية في نطاقها وتنوعها التي أضافت إليها المناطق الاستعمارية الجديدة سلعها الجديدة. وهذه السلع بدورها أصبحت الأساس لتحسين الصناعات في لندن وموانئ

الساحل الغربي والأساس لتجارة واسعة في إعادة التصدير. وكان النظام كاملاً يعتمد على أسطول تجاري متنام، وتطورت الآليات التجارية والمالية الضرورية تدريجياً لتسهيل عمليات هذا النظام.

يلقى قول ويلسون بحدوث انقطاعٍ حاسمٍ في طبيعة التجارة الخارجية لإنجلترا إبان العقد الأول من حقبة الإعادة دعماً مستقلاً من البحوث الكمية الدقيقة الذي أجراها رالف ديفيس Ralph Davis[٤٣]. فقبل اندلاع الحرب الأهلية، تمثل ٨٠٪ من صادرات إنجلترا في الأقمشة الصوفية إلى أوروبا، وكانت التجارة غير الأوروبية تشكل نصيباً ضئيلاً من تجارتها. لكن بحلول العام ١٧٠٠، أصبح تصدير الأقمشة الصوفية يشكل أقل من نصف التجارة، على الرغم من النمو السريع في الأرقام المطلقة بسبب الزيادة الضخمة في إعادة تصدير منتجات المستعمرات التي حدثت في نهاية القرن. وكان من أبرز منتجات المستعمرات التي يعاد تصديرها التبغ والسكر. ولا بد أن ننتبه إلى أن قانون الملاحة كان المسؤول بالدرجة الأولى عن إرسال هذه المنتجات الاستعمارية عبر إنجلترا إلى قارة أوروبا، فلولاه لسيطر الهولنديون على معظم تجارة الشحن عبر المحيط الأطلسي بصناعة الشحن والتنظيم المالي الأكفا لديهم. وقد كان هذا التحول في تركيب التجارة الخارجية الإنجليزية- في رأي ديفيس- بالغ الأهمية لدرجة أننا "يمكن أن نطلق على الفترة الممتدة من الإعادة الإنجليزية إلى الاستقلال الأمريكي اسم الثورة التجارية"[٤٤].

ظهرت في بلاط تشارلز الثاني عصبة قوية مؤيدة لتجديد الأعمال العدائية ضد الهولنديين ومتابعة التجارة مع المستعمرات بمزيد من القوة. كانت هذه العصبة تتكون من تحالف بين دائرة داخلية من محاسيب الملك وزمرة تجار لندن. ووجد هؤلاء مؤيداً قوياً في دوق يورك المتلهف للمجد البحري. وتشكلت الشركة الأفريقية الملكية للتنقيب عن الذهب والتجارة في العبيد والعاج على الساحل الغربي لأفريقيا. واندلعت أعمال عدائية ممتدة مع الهولنديين، مع أن أحداً من الطرفين لم يعلن الحرب على الآخر. وفي آسيا، ظلت جزيرة جوز الطيب بولاو رون Pulau Run مثاراً للنزاع بين شركتي الهند الشرقية الهولندية والبريطانية، وارتفعت حدة التوترات أيضاً بسبب زواج تشارلز من الأميرة البرتغالية كاثرين من سلالة براغانزا Braganza الملكية الجديدة، حيث جلبت

العروس مهراً ضخماً تمثل في بومباي وطنجة، لكن البرتغاليين طلبوا في مقابل ذلك دعم مواقعهم الباقية في الهند ضد الاعتداءات الهولندية. وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية قد طردت البرتغاليين من حصونهم على ساحل مالابار، وزادت على ذلك أن حرمت السفن الإنجليزية من الحق في الإبرار. وقد اشتكى داونينغ من الميل الهولندي إلى التوسل الكاذب بغروتيوس(٢٢) ومبادئه حول حرية البحار، "ففي وجود هؤلاء الناس تتحقق الحرية البحرية في البحار البريطانية، في مقابل غلق البحار على ساحل أفريقيا وفي جزر الهند الشرقية"[٤٥].

وعلى البر الرئيس لأمريكا الشمالية، قامت فرقة مُغيرة بالاستيلاء على المستعمرة الهولندية التي كانت تعرف باسم نيو أمستردام وأعادوا تسميتها على اسم الأمير الأعلى للبحار، مع أنهم في ذلك الوقت شعروا أنها لا تساوي جزءاً صغيراً من بولاو رون. وقد تنامى الشعور الشعبي المعادي للهولنديين بفعل ما يسمى الآن الإعلام المطبوع. وحين كانت عصبة البلاط تبحث عن مبررات معقولة للحرب، يقال إن قائداً مزعوماً أبدى هذه الملاحظة: "لا يهم هذا السبب أو ذاك؟ إن ما نريده هو المزيد من التجارة التي يستحوذون عليها حالياً". وأخيراً، وجدوا مبرراً كافياً للحرب الإنجليزية- الهولندية الثانية التي أعلنت رسمياً في العام ١٦٦٥، على الرغم من تردد العقول الأكثر حكمة في الجانبين. ومرة أخرى تعادلت القوات البحرية، فعلى الرغم من دموية المعارك وشراستها، لم تتحقق نتيجة حاسمة. وتضاءل الحماس للحرب في إنجلترا، ووضعت معاهدة بريدا Breda حداً لها في العام ١٦٦٧ وأعطت الهولنديين تنازلات مهمة في تفسير قانون الملاحة، منها الاتفاق على عدم صعود السفن المحايدة وتفتيشها بحثاً عن الحمولات الحربية، كما كان الأسطول البريطاني يفعل قبل المعاهدة. وسُمِح للسفن الهولندية باستيراد النبيذ الرايني والأقمشة الكتانية الصقلية إلى إنجلترا باعتبارها منتجات من المنطقة الداخلية الطبيعية للجمهورية الهولندية. وأكدت المعاهدة السيطرة الهولندية على سورينام التي أصبحت قاعدة العمليات الرئيسة لهم في العالم الجديد، فضلاً عن ملكيتهم لبولاو رون. وحصل الإنجليز على الاعتراف بملكيتهم

---

(٢٢) راجع حاشية سابقة للمترجم حول هوغو غروتيوس [المترجم].

لنيويورك ونيوجيرسي وديلوار، فضلاً عن احتفاظهم ببعض الحصون والمحطات التجارية في غرب أفريقيا.

واندلعت حرب إنجليزية-هولندية ثالثة في العام ١٦٧٢ بتحريض من الفرنسيين المتحالفين مع إنجلترا. وغزا جيش فرنسي مكون من مئة وعشرين ألف رجل وبعض الحلفاء الألمان الجمهورية الهولندية، فيما كان أسطول إنجليزي- فرنسي هائل مكون من مئة وست وأربعين سفينة وأربعة وثلاثين ألف رجل يتأهب لإنزال القوات على الساحل الهولندي[٤٦]. وهكذا بدأ أن كل شيء يهدده الضياع في لحظة، لأن فرنسا كانت بالتأكيد أكبر قوة أوروبية على البر، وفي البحر كان الإنجليز مساوين للهولنديين على أقل تقدير. وحدث انهيار لأسواق أمستردام المالية، وخسرت أسهم شركة الهند الشرقية الهولندية نصف قيمتها، وانتشر في أوروبا توقع عام بأن أيام الجمهورية باتت معدودة. لكن حدثت المعجزة، حين تمكن الهولنديون بقيادة الشاب وليام الأورانجي(٢٣) القائم مقام وقائد القوات المسلحة من صد الإنجليز والفرنسيين في البحر ومنع الاحتلال الفرنسي لبلادهم بوسيلة تعبّر عن الاستماتة، حين فتحوا حواجز القنوات لإغراق الجيوش الفرنسية، في الوقت الذي تدخلت فيه إسبانيا والنمسا ضد فرنسا. وفرضت السفن المسلحة الهولندية ثأراً مدمراً على السفن الإنجليزية، حيث أغرقت سبعمئة سفينة على الأقل أو استولت عليها، وفقاً لإزرائيل، كان كثير منها يحمل حمولات ثمينة جداً[٤٧]. وبعد أن توصلت بريطانيا إلى سلام منفصل مع الهولنديين في العام ١٦٧٤، تحولت السياسة الإنجليزية اللاحقة إلى احتواء فرنسا بدلاً من مواصلة التنافس مع المقاطعات المتحدة.

بريطانيا وفرنسا والجمهورية الهولندية

ومن السخرية الرائعة لقانون الغاب الذي ساد عصر المركنتيلية أنه في اللحظة عينها التي كانت السمكة الكبيرة شركة الهند الشرقية الهولندية تلتهم فيها السمكتين

---

(٢٣) هو وليام الأورانجي الذي سيغزو إنجلترا ويخلع جيمس ويعتلي العرش الإنجليزي باسم وليام الثالث شريكاً لزوجته ماري ابنة جيمس باسم ماري الثانية [المترجم].

الصغيرتين كاندي وماكاسار في جنوب شرق آسيا، وجدت الجمهورية الهولندية نفسها عرضة للافتراس من سمكة أكبر، هي فرنسا لويس الرابع عشر الشاب ووزيره العظيم جين بابتيست كولبرت Jean-Baptiste Colbert. فالصعود الهولندي إلى صدارة التجارة العالمية لم يتسبب في استياء منافسها البحري الطبيعي الإنجليزي وحسب، بل أيضاً فرنسا، وهي السوق الرئيس لصادراتها والسلع التي كانت تعيد تصديرها والمصدر المهم لكثير من وارداتها. فقد ساد في دوائر التجارة والبلاط إحساساً بأن "الاعتماد المذل" للأمة الكبيرة على المتجر الهولندي زاد عن حده ويجب وضع حد له[٤٨]. لم يكن بمقدور فرنسا أن تحاكي الإجراءات الإنجليزية، من قبيل قوانين الملاحة، لأنها لم تكن تمتلك شيئاً في قوة الأسطول الحربي أو التجاري البريطاني، مع أن كولبرت بذل جهوداً جبارة لتحسين الأسطول الفرنسي. كان أقوى سلاح يمكن لفرنسا أن تستخدمه في أي حرب تجارية هو فرض التعريفات الجمركية على الواردات الضخمة التي كانت تأتيها من الجمهورية، مثل الأقمشة الصوفية الفاخرة والتوابل والجبن والرنغة ومنتجات زيت الحوت والسكر المكرر. ويشير إزرائيل إلى أن فرنسا كانت تستطيع أيضاً أن تؤذي الهولنديين في الأسواق الثالثة، وبخاصة إسبانيا وأمريكا الإسبانية والمشرق، بزيادة صادراتها من سلع مثل الأقمشة الكتانية والحريرية الفاخرة إلى هذه المناطق لمنافسة الصادرات الهولندية.

كان كولبرت أيضاً من المتحمسين لتشجيع الاستثمار في صناعات معينة، من بينها تكرير السكر الذي كان قطاعاً رئيساً في الصناعة الهولندية. وفي العام ١٦٦٤، رفع كولبرت التعريفات الجمركية على الصادرات الهولندية إلى فرنسا بدرجة معتدلة في أغلب الحالات، لكن بدرجة أكبر على السكر المكرر والتوابل لتشجيع شركتي الهند الشرقية والغربية الفرنسيتين اللتين أنشئتا حديثاً. وفي العام ١٦٦٧، وبعد انتهاء الحرب الإنجليزية- الهولندية الثانية، رفع كولبرت التعريفات الجمركية على الأقمشة الصوفية والكتانية الفاخرة إلى الضعف، وعلى السكر المكرر بنسبة ٥٠٪، وعلى زيت الحوت أربعة أضعاف، وعلى التبغ سبعة أضعاف[٤٩]. فردّ الهولنديون بمنع استيراد البراندي الفرنسي ورفع التعريفات الجمركية على الأقمشة الحريرية والكتانية، ما دفع

الفرنسيين بدورهم إلى رفع التعريفات الجمركية على واردات التوابل والرنغة. وبدا واضحاً أن حرباً تجارية واسعة النطاق قد اندلعت، وأن حرباً حقيقية كان مقدراً أن تليها قريباً في العام ١٦٧٢. وقد رأينا فيما سبق أن إنجلترا انسحبت من الحرب وعقدت سلاماً منفصلاً مع هولندا في العام ١٦٧٤، لكن ظلت الجمهورية تقاتل فرنسا حتى العام ١٦٧٨، في حرب كانت فرنسا تتمتع فيها بمزايا كثيرة، لكن هولندا جذبت حلفاءً أقوياءً إلى جانبها خوفاً من هيمنة ملك الشمس(٢٤) على أوروبا. وأعطت معاهدة نيجيمين Nijmegen التي أنهت الحرب الفرنسية- الهولندية شروطاً ممتازة للجمهورية، منها إبطال التعريفات الجمركية التي فرضها كولبرت في العام ١٦٦٧. وعلى ذلك، فإن الحرب لم تحقق الهدف الاقتصادي الفوري لفرنسا، لكن لا يمكن اعتبارها هزيمة على أية حال. ويدفع ستوي Stoye بأن لويس قدم تنازلات للهولنديين بغرض تفكيك التحالف الذي التأم معهم ضد فرنسا[٥٠]. وقد مكّنه ذلك من إجبارهم على قبول توسع القوة الفرنسية في أوروبا الغربية والشمالية والوسطى في المعاهدات اللاحقة التي أنهت كل الأعمال العدائية في العام ١٦٧٩.

أثار دخول فرنسا باعتبارها اللاعب الرئيس الثالث في المنافسة على السبق التجاري العالمي المشكلة الإستراتيجية المألوفة التي يقوم فيها لاعبان من الثلاثة بتشكيل تحالف ضد اللاعب الثالث. وفي الحرب الإنجليزية- الهولندية الثانية، تحالف الفرنسيون مع الهولنديين لمنع إنجلترا التي كانوا يعتبرونها حينذاك المنافس الأقوى لهم، من تحقيق الهيمنة. لكن بعد الأداء الإنجليزي السيئ، أخذ الفرنسيون يعتبرون الهولنديين خصمهم الرئيس، ولذلك وجدوا حليفاً طيعاً في تشارلز الثاني بدفع إعانات مالية سخية له وتحريضه على شن الحرب الإنجليزية- الهولندية الثالثة. وبعد فشل ذلك العمل في توجيه الضربة القاضية المتوقعة لهولندا، أثير مجدداً السؤال حول الطرف الذي يجب التحالف معه. وفي العام ١٦٧٧، طلب وليام الأورانجي، الاستيوارتي من ناحية أمه التي كانت أخت تشارلز الثاني، لنفسه هو الآخر زوجة استيوارتية، هي ماري ابنة دوق يورك، الملك جيمس الثاني لاحقاً. وبعد الثورة المجيدة

---

(٢٤) ملك الشمس أحد ألقاب لويس الرابع عشر [المترجم].

للعام ١٦٨٨ والحكم المشترك لوليام الثالث وماري الثانية، تأكد أن الإنجليز- المتحالفين مع الهولنديين - كانوا المنافسين على السبق في التجارة والإمبريالية العالمية لفرنسا لويس الرابع عشر. صحيح أن الجمهورية الهولندية لا يزال أمامها جولات لتخوضها في المستقبل، لكنها احتجبت أخيراً بجانب القوتين العظميين اللتين يفصل بينهما القنال الإنجليزي. وعاد التحالف البروتستانتي، أو "الاتحاد الرأسمالي البروتستانتي الدولي" الذي سبق أن اقترحه كرومويل على قادة المقاطعات المتحدة في العام ١٦٥١ ورفضوه بازدراء، إلى الوجود للتصدي لقوة الدولة الكاثوليكية الأكبر في ذلك العصر وتعزيز ازدهار المقاطعات المتحدة وما سُمي بعد قانون الاتحاد للعام ١٧٠٧ بريطانيا العظمى.

بريطانيا وفرنسا: التوسع التجاري وحرب المائة عام الثانية

على مدار القرن الثامن عشر "الطويل" الذي نُعرِّفه وفقاً لأغراضنا الحالية بأنه الفترة الممتدة من العام ١٦٨٩ إلى العام ١٨١٥، غطت الحرب بين بريطانيا وفرنسا ما لا يقل عن أربعة وستين عاماً من الأعوام المئة والستة والعشرين[٥١]. ولذلك تميزت فترات السلام الفاصلة عادة بتعزيز المواقع والتحضير للحرب التالية. ومع أن معظم القتال وقع على البر الرئيس الأوروبي، فإن الحروب كانت عالمية في نطاقها ومداها، مع تركز قوي للحرب في أمريكا الشمالية وجزر الهند الغربية من جانب، والهند من جانب آخر. ومع أنه يمكن القول بأن الدافع الرئيس لفرنسا كان التوسع والهيمنة في قارة أوروبا نفسها، وأن دافع إنجلترا كان التوسع في مناطق موارد تجارتها الثمينة مع مستعمرات ما وراء البحار وحمايتها، فإن منطق المصالح المتعارضة فرض على بريطانيا ألا تترك فرنسا تسيطر على القارة الأوروبية، وعلى فرنسا ألا تترك بريطانيا توسع مستوطناتها ومراكزها التجارية فيما وراء البحار دون ردع. ولذلك كان على بريطانيا أن تحتفظ بجيش دائم جاهز للانتشار على القارة أو دعم الحلفاء لمقاومة الفرنسيين على الأرض، فيما كان على فرنسا أيضاً أن تحتفظ بأسطول قوي تكمله عند الضرورة أساطيل من سفن القرصنة. وقد فرض ذلك على الدولتين أن تجمعا دخلاً كافياً لتوفير

الموارد العسكرية المطلوبة، وهنا أيضاً كانت الوفرة ضرورية للحفاظ على القوة التي كانت بدورها ضرورية لضمان الوفرة. والنجاح النسبي للدولتين في توفير هذا الدخل كان المحدد الأساسي لنتيجة ما أسماه سيلي "حرب المئة العام الثانية"[٥٢].

أدى دخول فرنسا المتأخر إلى العالم الجديد بعد القوتين الأيبيريتين إلى إجبارها، كما حدث مع إنجلترا، على تركيز جهودها الاستعمارية على أمريكا الشمالية. وإلى جانب البحث عن المعادن النفيسة والأحجار الكريمة والتوابل، كان المستكشفون الفرنسيون الأوائل من أمثال جاك كارتير Jacques Cartier مدفوعين أيضاً بالبحث العقيم عن "ممر شمالي غربي" إلى المحيط الهادي وآسيا، وهم غافلون عن الامتداد الشاسع للقبعة الجليدية الشمالية. كان أول موارد القارة الشمالية التي استغلت على نطاق واسع هو صيد أسماك القد على الضفاف الكبيرة لنيوفاوندلاند. وهنا أيضاً كان البرتغاليون هم الرواد، لكن في النهاية أخذ الصيادون من نورمندي وبريطانيا الصدارة في هذه الصناعة الأوروبية الرئيسة التي كان ناتجها يتوجه إلى السوق المحلي الكبير في فرنسا ويعتمد على إمدادات الملح الوفيرة من خليج بسكاي لتمليح السمك "الأخضر" الذي كانوا يصطادونه من البحر. وثمة فرع "ساحلي" أو "جاف" لصناعة صيد القد كان يقوم بتمليح الأسماك على اليابسة، وهذا النشاط كانت تقوم به مستعمرات صغيرة من المستوطنين تأسست فيما يعرف الآن بمقاطعتي نوفا اسكوتشيا ونيوفاوندلاند البحريتين في كندا. وكان سمك القد المجفف منخفض النوعية سلعة تصديرية مهمة إلى جزر الهند الغربية الفرنسية لإطعام السكان العبيد.

جذبت مستوطنات صيد الأسماك القبائل الأمريكية الأصلية لمبادلة فراء القندس مع المنتجات الأوروبية، وبخاصة الأسلحة النارية والبراندي. وكانت المنطقة الرئيسة للاستيطان الفرنسي تقع على طول ضفاف نهر سانت لورانس Saint Lawrence بين كيبك التي أسسها صامويل دي تشامبلين Samuel de Champlain في العام ١٦٠٨ ومونتريال التي أصبحت نقطة جمع فراء القندس وغيره من أنواع الفراء من المناطق الغربية. ومع أن قليلاً من المستعمرين الفرنسيين دخلوا الغابات بأنفسهم وركبوا الأنهار في الزوارق المصنوعة من لحاء شجر البتولا التي تعلموا صنعها من السكان الأصليين،

فإن السكان الأصليين ظلوا يقومون بمعظم الصيد على امتداد مناطق أخذت تتسع بسبب استنزاف الحيوانات من منطقة بعد أخرى. وغدت المنافسة بين القبائل على السيطرة على توريد الفراء أكثر فتكاً بسبب توفر الأسلحة النارية. تحالف اتحاد ألغونكوين Algonquin القبَلي مع الفرنسيين، بينما طلب منافسوهم الإروكويس Iroquois الدعم من الهولنديين في نيوأمستردام ولاحقاً من الإنجليز الذي حلوا محلهم.

مُنِح احتكار ملكي لتجارة الفراء في العام ١٦٠٠، وآل بعد العام ١٦٢٧ إلى شركة فرنسا الجديدة التي أسسها كاردينال ريتشلو Cardinal Richelieu لتنمية المستوطنات الفرنسية في أمريكا الشمالية. وأخضع كولبرت شركة فرنسا الجديدة للتاج مباشرة في العام ١٦٦٤، وأسس شركة جديدة هي شركة جزر الهند لكي تشرف على التجارة. وكانت شركة فرنسا الجديدة تدار من كيبك وفقاً لتراتبية مدنية وعسكرية وإكليروسية صارمة، على خلاف البنية الحرة غير المركزية للمستعمرات الأمريكية البريطانية. وكان استكشاف المناطق الداخلية بأمريكا الشمالية وبناء المراكز والمستوطنات المحصنة في ريف إلينويز والوصول إلى الميسيسيبي وتأسيس نيو أورلينز على مصبه في العام ١٧١٨ وتأسيس مقاطعة لويزيانا في العام ١٧٢٢، تعني جميعها أن فرنسا أوشكت على السيطرة على قوس شاسع من الأرض شمال مستعمرات البر الرئيس الإنجليزية وغربها وجنوبها، ما يمنع هذه المستوطنات من التوسع، لكنها مع ذلك كانت تفتقر إلى القاعدة السكانية في العالم الجديد لاستغلال هذه الميّزة بفعالية. وكان من أسباب ضعف الهجرة الفرنسية إلى كندا أن أصحاب المصالح في صيد الأسماك والفراء كانوا يخافون من أن تؤدي كثرة المستوطنين إلى كثرة الناتج وارتفاع التكلفة، وبالتالي خفض أسعار صادراتهم. ثمة سبب آخر، هو أن فرنسا على خلاف إنجلترا التي سمحت للمنشقين الدينيين بالهجرة إلى المستعمرات، حرمت الهوغونوت[(٢٥)] من

(٢٥) الهوغونوت Huguenots هم البروتستانت الفرنسيون خلال فترة الصراع الديني إبان القرن السادس عشر والسابع عشر، شكّلوا أقلية دينية في فرنسا، ودخلوا في نزاع مع الأغلبية الكاثوليكية، عُرِف بالحروب الدينية (١٥٦٢-١٥٩٨)، حكموا لفترة قصيرة حين اعتلى هنري الرابع البروتستانتي العرش في العام ١٥٨٩ الذي منحهم الحرية المدنية وقدراً كبيراً من الحرية الدينية بموجب مرسوم نانت للعام

هذه الفرصة. وكان الافتقار إلى قاعدة قوية من المستوطنين يعني أن التكاليف الإجمالية للدفاع والإدارة كانت أعلى، ما سبب ضغوطاً مالية إضافية على الدولة الأم.

أما في جزر الهند الغربية، فقد بدأ الفرنسيون بتقاسم جزيرة سانت كرستوف Saint-Christophe (سانت كيتس St. Kitts) مع البريطانيين، وانطلقوا منها لاحتلال مارتينيك Martinique وغوادلوب Guadeloupe وأخيراً سانت دومينغو Saint-Domingue. وبعد تجريب التبغ وغيره من المحاصيل، تخصصت هذه الجزر أخيراً في السكر الذي كان يزرع في مزارع كبيرة بعمالة من العبيد الأفارقة، تماماً كما كانت الحال في مستعمرتي باربادوس وجامايكا البريطانيتين. ونما الإنتاج الاستعماري الفرنسي من السكر بسرعة كبيرة، وبخاصة في التربة البكر الشاسعة في سانت دومينغو. ويذكر ديفيس أن إنتاج السكر في جزر الهند الغربية الفرنسية وفي المستعمرات البريطانية في باربادوس وجامايكا وبعض الجزر الأخرى الصغرى كان متساوياً في العام ١٧٢٠ عند زهاء أربعة وعشرين ألف طن، لكن بحلول العام ١٧٦٧ أصبحت المستعمرات الفرنسية تنتج سبعة وسبعين ألف طن، في مقابل سبعة وستين ألف طن للمستعمرات البريطانية[٥٣]. وكانت سانت دومينغو تنتج ثلاثة وستين ألف طن في العام ١٧٦٧، في مقابل ستة وثلاثين ألف طن في جامايكا، وهي المنتِج البريطاني الأكبر. ومن اللافت للنظر أن الأسماك والفراء المصدّرة من فرنسا الجديدة في العام ١٧٣٠ شكلت ٧٪ فقط من قيمة السكر المصدّر من مستعمرات جزر الهند الغربية[٥٤]، على الرغم من التباين الكبير بين مساحة هذين الجزأين من الإمبراطورية الفرنسية.

وفي ربع القرن الذي تلا الثورة المجيدة، خاضت إنجلترا حربين طويلتين مع فرنسا، هما حرب التحالف الكبير أو حرب التسعة أعوام من العام ١٦٨٩ إلى العام ١٦٩٧ وحرب الخلافة الإسبانية من العام ١٧٠١ إلى العام ١٧١٣. نتجت الحرب الأولى عن جهود وليام الثالث البريطاني وحلفائه النمساويين والألمان لكبح التوسع الفرنسي على البر الرئيس الأمريكي ومنع أية محاولة من لويس لإعادة جيمس الثاني

١٥٩٨ الذي أُلغي في العام ١٦٨٥، وحينها اضطر كثيرون منهم إلى الفرار إلى سويسرا وإنجلترا وأمريكا [المترجم].

إلى العرش الإنجليزي. وشهدت الحرب قتالاً شرساً، لكن دون نتائج حاسمة، ما أرهق الميزانية على الجانبين، وأدى إلى زيادة كبيرة في مستوى الرسوم الجمركية في إنجلترا. ففي العادة كانت التجارة الخارجية الإنجليزية تدفع رسوماً قدرها ٥٪ فقط على كل من الصادرات والواردات، وكانت بذلك "غير تمييزية" ومجرد إجراء لتحصيل الدخل. بينما اضطرت الاحتياجات المالية لحرب "التسعة أعوام " وليام وماري إلى أن يرفعا هذه الرسوم إلى ١٥٪ أو أعلى وأن يفرضا "قيما رسمية" أو أسعاراً تعسفية، كانت أعلى كثيراً من أسعار الاستيراد الفعلية، وهو ما أعطاها تأثيراً حمائياً في بعض الحالات. كما فرضا أيضاً رسوماً باهظة جداً على الواردات الفرنسية، وبخاصة منتجات صناعات الحرير والكتان الفرنسية الرائدة، وفعلا ذلك أيضاً مع واردات القطن والحرير من الهند والصين. ومع أن الرسوم الأعلى طُبقت في البداية على الصادرات أيضاً، فقد تمكنت صناعات معنية، مثل صناعة الصوف القوية سياسياً، من خفضها أو إبطالها كلياً من خلال إصلاحات التعريفة للعام ١٧٢٢ التي أجراها السير روبرت والبول Robert Walpole. ثم رُفِعت رسوم الاستيراد أكثر من مرة خلال الحروب اللاحقة، ما جعل النظام حمائياً على نحو متزايد على مدار القرن الثامن عشر. ومع أن إنجلترا لم تحصل على أية مكاسب إقليمية أو تجارية من الحرب، فإن وليام حصل على الاعتراف الفرنسي به ملكاً لإنجلترا.

وفي أثناء الحرب، كان نشاط الأسطول الفرنسي في الكاريبي مكرساً في معظمه لما سُمي "القرصنة المَلكية" ضد أمريكا الإسبانية، حيث كانت سفن الملك تؤجر لمستثمرين من القطاع الخاص للإغارة على سفن العدو وحصونه ونهبها. وكانت العملية الكبرى في هذه الجهود هي غارة العام ١٦٩٧ على قرطاجنة التي نفذها أسطول كبير من فرنسا متحداً مع ميليشيا استعمارية وقراصنة من سانت دومينغو، التي غنموا منها عشرة ملايين من الجنيهات، اِستُثمِر معظمها في إنتاج السكر في الجزيرة. وكان من أهداف الهجوم الأخرى إلهاء الأسطول البريطاني الذي كان يُفترَض أن يكون في البحر الأبيض المتوسط لحماية الساحل الإسباني، وبذلك ساعد الهجوم في الاستيلاء الفرنسي على برشلونة وإجبار إسبانيا على الخروج من التحالف الكبير ضد فرنسا.

وأدى ذلك إلى إنهاء الحرب وتوقيع معاهدة ريزويك Ryswick التي اعترفت إسبانيا بمقتضاها بالادعاءات الفرنسية في سانت دومينغو وتوباغو Tobago[٥٥].

وبدأت أعمال عدائية على البر الرئيس من جانب كومت دي فرونتناك Comte de Frontenac الحاكم العام لفرنسا الجديدة باستخدام قوات نظامية وميليشيا كندية وحلفاء من الهنود ضد المستوطنات الواقعة في نيو إنجلند ونيويورك لتخفيف الضغط عن فرنسا في المسرح الأوروبي[٥٦]. وتضمن الرد البريطاني هجمات من جانب حلفائهم الإروكويس على المستوطنات الفرنسية، ما أدى إلى اشتباكات مع القبائل المتحالفة مع الفرنسيين، علماً بأن كل طرف من القبائل الأمريكية الأصلية كان يسعى إلى مصلحته الخاصة المتمثلة في السيطرة على الأرض وتجارة الفراء على حساب الطرف الآخر. وكان النجاح في النزاعات الاقتصادية والعسكرية بين المتنافسين الأوروبيين يعتمد كثيراً على قدرتهم على تزويد أتباعهم الأهليين بسلع أرخص سعراً أو أعلى جودة. وللأسف تمثل جانب مأساوي من هذا الصراع في المنافسة بين البراندي الفرنسي والرم الإنجليزي اللذين كانا مدمرين بنفس القدر لصحة السكان المحليين، على الرغم من أهميتهما في حث توريد الفراء أو التعاون العسكري. ومن المقبول بوجه عام أن الفرنسيين كانوا أكثر نجاحاً من الإنجليز بكثير في علاقاتهم مع القبائل. وكان من الانتصارات الدبلوماسية الفرنسية المهمة في معاهدة السلام في مونتريال للعام ١٧٠١ التي أنهت الحرب في أمريكا الشمالية أنها ضمنت حياد اتحاد الإروكويس في أي حرب مستقبلية بين الفرنسيين والبريطانيين[٥٧].

اندلعت حرب الخلافة الإسبانية لمنع سلالة البوربون من توحيد التاجين الفرنسي والإسباني بعد وفاة آخر ملوك هابسبرغ الإسبان وهو شارل الثاني دون أن يكون له خلف. فلو اتحدت ثروة الإمبراطورية الإسبانية الشاسعة فيما وراء البحار مع عدد سكان فرنسا وامتدادها الإقليمي في أوروبا تحت سلالة حاكمة واحدة، فإن مستقبل القوى البحرية الشمالية كان سيتأثر سلباً بالتأكيد. وكانت المصالح التجارية والمالية الفرنسية قد اخترقت الاقتصاد الإسباني في قادس وحصلت على رخصة احتكارية لاستيراد ثمانية وثلاثين ألف عبد إلى أمريكا الإسبانية بسعر مئة جنيه للرأس،

وهو حق كان يُمنَح اسمياً في السابق لمؤسسة برتغالية، لكن كان يشترك فيه على أرض الواقع كثير من الموردين الأوروبيين، وبخاصة الهولنديين والبريطانيين.

لم يشهد الكاريبي اشتباكات بحرية كبرى في أثناء الحرب، لكنه شهد اتساعاً في نطاق القرصنة الفرنسية، كان منها هجوم كبير على ريو دي جانيرو في العام ١٧١١ وإلحاق أضرار أخرى كبيرة بالمصالح الإنجليزية والهولندية والبرتغالية. ومع ذلك استمرت التجارة بين مستعمرات كل المتحاربين الأوروبيين، بل وازدهرت أيضاً، لأن ظروف زمن الحرب صعّبت على العواصم الاستعمارية في أوروبا فرض قيودها المركنتيلية. واستمر توسع زراعة السكر في سانت دومينغو ومارتينيك وغوادلوب بلا توقف، ووجدت مستعمرات البر الرئيس الإنجليزية أسواقاً متقبلة لمنتجاتها في جزر الكاريبي الفرنسية. ويذهب بريتشارد Pritchard بعيداً إلى القول بأن "حرب الخلافة الإسبانية من خلال كسر قوى التدخل والسيطرة وإعطاء المزيد من الحرية للتجارة أكثر من أي وقت مضى، ربما كانت المحفز الأهم للنمو الاقتصادي في التاريخ الاستعماري لفرنسا"[٥٨]. وأغمض الهولنديون المتلهفون دوماً للتجارة حتى مع أعدائهم في زمن الحرب، أعينهم عن جمع قروض في أمستردام لتمويل المجهود الحربي الفرنسي، ما كدر حلفاءهم الإنجليز كثيراً.

اضطرت فرنسا بفعل هزائمها في أوروبا على أيدي قائدي التحالف الرائعين الدوق مارلبورو Marlbobough ويوجين Eugene أمير سافوي، إلى التضحية بمصالحها التجارية الاستعمارية في الأمريكتين في نهاية الحرب للحيلولة دون تقديم مزيد من التنازلات الإقليمية في أوروبا. فسقطت المنطقة الشرقية من كندا الفرنسية المعروفة باسم أكاديا Acadia أمام قوة بريطانية إقليمية وتحول اسمها إلى نوفا اسكوتشيا. وتنازلت فرنسا عن هذه المنطقة لبريطانيا في معاهدة أوترخت للعام ١٧١٣ ومعها نيوفاوندلاند والجزء الفرنسي من سانت كيتس. ويرى بريتشارد أن "معاهدة أوترخت وجهت ضربة شديدة للحلم الفرنسي ببناء إمبراطورية، لم يتعاف منها أبداً"[٥٩].

كانت هذه المعاهدة معلماً بارزاً على صعود بريطانيا كقوة عظمى وعلى صعود إمبراطوريتها فيما وراء البحار. وذهب التاج الإسباني إلى عضو من سلالة البوربون

ممثلاً في شخص فيليب الخامس، لكن المعاهدة ضمنت عدم اندماج الفرعين الفرنسي والإسباني لسلالة البوربون لحكم المملكتين معاً. وتنازل الفرنسيون للبريطانيين عن جبل طارق الذي استولوا عليه في العام ١٧٠٤، ما أعطى الإنجليز قاعدة بحرية رئيسة لم يتخلوا عنها إلى يومنا هذا. وكان من المكافآت الاقتصادية المهمة الحصول على الإذن بتوريد العبيد للمتلكات الإسبانية لثلاثين عاماً. وثمة نتيجة عرضية أخرى مهمة للحرب هي معاهدة ميثون Methuen مع البرتغال التي وقعت في العام ١٧٠٣، ومُنِحت صادرات الأقمشة البريطانية بموجبها وصولاً تفضيلياً إلى البرتغال في مقابل إعطاء تفضيل لصادرات النبيذ البرتغالية إلى إنجلترا، وهي التجارة التي خلدها استخدام ديفيد ريكاردو لها كمثال لنظريته عن الميّزة النسبية. وفي العام ١٧١٥، توفي لويس الرابع عشر وخلفه على عرش فرنسا ابن حفيده، وخلف آخر ملوك آل ستيوارت في إنجلترا، وهي الملكة آن، أولُ ملوك آل هانوفر، وهو جورج الأول. وتلا معاهدة أوترخت التي أنهت ربع قرن من الحرب المتواصلة بين بريطانيا وفرنسا ربع قرن من السلام.

أصبحت التجارة البريطانية مع أمريكا الإسبانية تخضع لشروط إذن توريد العبيد للممتلكات الإسبانية، لكن التجارة غير الشرعية استمرت. وحاولت السلطات الإسبانية أن تمنع ما اعتبرته تهريباً صارخاً وتجارة ممنوعة باستخدام سفن تديرها أطقم متنوعة في تشكيلها، ضمت قراصنة سابقين، لمنع السفن الأجنبية التي يشتبهون في عملها في أي شكل من التجارة غير الشرعية. وفي إحدى هذه العمليات، قُطِعت أُذن ربان إنجليزي يدعى روبرت جينكنز في شجار على متن سفينة مع مجموعة فرنسية. وبعد سبعة أعوام عرض جينكنز أذنه المقطوعة التي احتفظ بها في قنينة من الخل على مجلس العموم الغاضب، ما أدى إلى إعلان الحرب الوحيدة في التاريخ التي سميت على اسم عضو مقطوع من الجسم: حرب الأُذن. فقامت قوة بحرية بريطانية كبيرة بالاستيلاء على بورتوبيلو، لكنها فشلت في تحقيق ذلك في قرطاجنة وهافانا. وسرعان ما تحول النزاع الإنجليزي-الإسباني إلى نزاع إنجليزي-فرنسي بعد اندلاع حرب الخلافة النمساوية (١٧٤٠-١٧٤٨) في

أوروبا، التي شهدت احتلال اليعاقبة(٢٦) لاسكتلندا بدعم فرنسي وثورة عشائر هايلند Highland في العام ١٧٤٥ التي سحقها النظام الهانوفري في معركة كولودين Culloden.

بعد معاهدة أوترخت، ساد نوع من التوازن الجيوسياسي والاقتصادي بين المستعمرات الفرنسية والبريطانية على البر الرئيس بأمريكا الشمالية، لكنه تبدد أخيراً. كان من القوى الدافعة لاختلال التوازن نمو عدد المستوطنين في فرجينيا الذي دفع التحرك غرب جبال ألغينيز Alleghenies إلى وادي أوهايو بحثاً عن أراضي زراعية إضافية بتمويل وتنظيم من مضاربي الأراضي. أثار ذلك اتحاد الإروكويس الذي ادعى ملكيته لهذه الأراضي، وأغضب السلطات الفرنسية التي خشيت من تقدم الإنجليز إلى الميسيسيبي وقطع الطريق بين لويزيانا وفرنسا الجديدة. ولذلك تدخل الفرنسيون بقوة في وادي أوهايو وشيّدوا سلسلة من الحصون وصعّدوا النزاع مع سكان فيرجينيا، ما اضطر الحكومة البريطانية لإرسال قوات نظامية لدعم المستعمرين. تعرضت قوة نظامية بريطانية بقيادة الجنرال برادوك Braddock وفرقة من ميليشيات فرجينيا بقيادة الشاب جورج واشنطن لكمين من الهنود المتحالفين مع الفرنسيين، قُتِل فيه برادوك. وأدت سلسلة من النتائج غير المتعمدة إلى إطلاق حرب السبعة أعوام ١٧٥٦–١٧٦٣ العالمية[٦٠] المعروفة في التاريخ الأمريكي بالحرب الفرنسية والهندية.

شهدت المراحل الأولى من الحرب في أمريكا الشمالية بعض الانتصارات الأولية للفرنسيين وحلفائهم الأمريكيين الأصليين، لكن قيادة المحيط الأطلسي ممثلة في القيادة القوية والشرسة والبارعة لوليام بت الأكبر William Pitt the Elder من العام ١٧٥٦ إلى العام ١٧٦١ ضمنت لبريطانيا نشر قوة عسكرية أكثر فعالية عبر المحيط والغلبة في النهاية. وطُرِد الفرنسيون من حصونهم في وادي أوهايو، وأخيراً سقطت لويسبرغ Louisbourg وكيبك ومونتريال أمام "العمليات المشتركة" المخططة جيداً من جانب القوات البحرية والبرية التي تمثل أروعها في استيلاء جيمس ولف James Wolfe على كيبك في العام ١٧٥٩ الذي قُتِل فيه جيمس ولف والقائد الفرنسي مونتكالم

(٢٦) اليعاقبة هم أنصار عودة الملك جيمس الثاني ونسله إلى السلطة في إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا، وهو الملك جيمس الذي خلعه وليام الأورانجي وابنة جيمس ماري في العام ١٦٨٨ [المترجم].

Montcalm. وسقطت مونتريال في العام التالي. وألحقت البحرية الملكية أيضاً هزيمة ساحقة بالأساطيل الفرنسية في معارك خليج كيبرون Quiberon Bay على ساحل فرنسا ولاغوس على ساحل البرتغال في العام ١٧٥٩. واستولى الإنجليز على غوادلوب ومارتينيك في العام ١٧٥٩ والعام ١٧٦٢، إلى جانب عدة جزر أصغر، منها دومينيكا Dominica وسانت لوسيا Saint Lucia وغرينادا Grenada. وتحول النزاع الممتد بين شركتي الهند الشرقية الفرنسية والإنجليزية منذ العقد الخامس من القرن الثامن عشر لصالح الإنجليز. فاستولى الإنجليز على مقر الشركة الفرنسية في بونديشيري pondicherry في العام ١٧٦١، ما أدى إلى استيلائهم على المحطات التجارية الأخرى على الساحل الشرقي للهند، أيضاً بفضل التفوق البحري البريطاني. وفي العام ١٧٥٨، سقطت الحصون والمحطات التجارية الفرنسية على نهري السنغال وغامبيا وجزيرة غوريه Goree في غرب أفريقيا أمام حملات بحرية بريطانية صغيرة. فأسرع فرع البوربون الإسباني إلى تكوين "ميثاق أسري" مع أبناء عمومتهم الفرنسيين ودخلوا الحرب في العام ١٧٦٢، وسرعان ما فقدوا كوبا والفلبين بعد أن استولت أساطيل بحرية وقوات برية بريطانية على هافانا ومانيلا، كما تمكّنت حملة عسكرية بريطانية من إنهاء الاحتلال الإسباني للبرتغال وطردهم منها.

وفي أوروبا نفسها، أثار القتال العبقرية العسكرية لفردريك الأكبر ملك بروسيا مدعوماً بإعانات بريطانية كبيرة ضد الجيوش الضخمة التي نشرها أعداؤه الفرنسيون والنمساويون والروس. كان فريدريك في ضائقة شديدة لم ينقذه منها إلا موت الإمبراطورة إليزابيث في العام ١٧٦٢ والانسحاب اللاحق لروسيا من الحرب. وتوقفت الأعمال العدائية في كل المسارح أخيراً بمعاهدة باريس للعام ١٧٦٣. وعلى خلاف كل الحروب منذ عام ١٦٨٩ التي انتهت بتغييرات هامشية نسبياً للوضع السابق على الحرب، كانت حرب السبعة أعوام انتصاراً حاسماً لبريطانيا العظمى على فرنسا. فتنازلت فرنسا عن كل فرنسا الجديدة للبريطانيين الذين حصلوا أيضاً على فلوريدا من الإسبان، ما أعطاهم السيطرة على قارة أمريكا الشمالية شرق الميسيسيبي، من خليج هدسون إلى خليج المكسيك. وانتقلت لويزيانا من فرنسا إلى إسبانيا، وعادت لإسبانيا

أيضاً كوبا والفلبين. وأعيدت جزر السكر الكاريبية الثمينة إلى فرنسا، وذلك بالدرجة الأولى بسبب تأثير جماعات الضغط من أصحاب المزارع في الهند الغربية داخل بريطانيا الذين أرادوا أن تظل باربادوس وجامايكا تتمتع بالحماية المتوفرة لها بفعل رسوم الاستيراد الأعلى على السكر الأجنبي. وعلى الرغم من كل هذه المكاسب، شجب بت شروط السلام بمرارة بعد تنحيته من القيادة وتولية اللورد بوت Bute وهو أحد محاسيب الملك الجديد جورج الثالث، حيث اعتبرها بت في صالح فرنسا وأنها أعطتهم الإمكانية لشن هجوم مضاد[٦١]. وتنبا الوزير الأول الفرنسي الدوق شوازول Choiseul، وهو ما شاركه فيه بعض القادة البريطانيين، بأنه مع انقطاع الوجود الفرنسي عن القارة، ستطالب المستعمرات الأمريكية سريعاً بالاستقلال عن بريطانيا العظمى بسبب غياب التهديد الفرنسي[٦٢]. وقد كشف هذا التنبؤ عن بصيرة رجال الدولة في الجانبين الفرنسي والإنجليزي.

يتضح من الفقرة السابقة أن السيطرة على محيطات العالم هي التي مكّنت بريطانيا العظمى من إنجاز هذه المآثر المذهلة في إظهار القوة العالمية خلال بضعة أعوام، في حين أنه لم يكن يفصلها دائماً غير ممر مائي ضيق عن الغزو من أعتى قوة برية في أوروبا الغربية: فرنسا. وكما رأينا، فرغم هزيمة الإنجليز للأسطول الإسباني في العام ١٥٨٨، فلم يظهر التفوق البحري الإنجليزي إلا في حروبهم مع الهولنديين، وحتى في ذلك الوقت لم تستطع بريطانيا أن تتغلب تماماً على الأساطيل الهولندية. وفي حرب الخلافة الإسبانية، تطلب الأمر جمع قوة الأساطيل الإنجليزية والهولندية لمواجهة الأسطول الفرنسي الذي كان كولبرت قد وسّعه كثيراً، وهزم الفرنسيون الأسطول الإنجليزي- الهولندي في بيتشي هيد Beachy Head في العام ١٦٩٠ قبل أن يُهزَموا في لاهوغ La Hogue. بل وشهدت حرب السبعة أعوام هزيمة بحرية بريطانية مذلة في منورقة Minorca في العام ١٧٥٦، وهي الحادثة التي أدت إلى إعدام أمير البحر بينغ Byng "لتشجيع الآخرين" كما قال فولتير في عبارته الشهير[٢٧].

(٢٧) تنسب عبارة pour encourager les autres [لتشجيع الآخرين] إلى الكاتب الفرنسي الشهير فولتير، وتقال عن أي فعل أو إجراء (مثل الإعدام) يتخذ لإجبار الآخرين على الإذعان أو الاستسلام [المترجم].

وإذا كان ذلك هو الهدف من الإعدام، فقد نجح تماماً، لأن أمراء البحر البريطانيين تقدموا- كما رأينا - لتحقيق سلسلة من الانتصارات في المحيط الأطلسي والمحيط الهادي والمحيط الهندي دون أية هزائم أخرى. والانتصار المذكور آنفاً في خليج كيبرون في نوفمبر ١٧٥٩ الذي كان بمثابة طرف الغار(٢٨) لحرب السبعة أعوام، أنهى في ضربة واحدة كل أمل للفرنسيين في خطة جريئة لغزو بريطانيا أو لتحديها مرة أخرى في البحر، فضلاً عن أنه قرر مصير الإمبراطورية الفرنسية في كندا في العام التالي[٦٣]. ومن المذهل واللافت للنظر أن استيلاء الإنجليز على مانيلا نُفِذ بخسارة ست وعشرين نفساً فقط من خلال حملة صغيرة موّلتها وجهزتها شركة الهند الشرقية من مدراس بخمسمئة جندي نظامي بريطاني وخمسمئة وخمسين جندي هندي نُقِلوا في عشر من سفن أسطول المحيط الهندي الملكي. وكانت الإصابات أعلى كثيراً عند الاستيلاء على هافانا، حيث زادت عن ستة آلاف قتيل، لكن ذلك لم يكن بسبب المقاومة الإسبانية التي كانت ضعيفة فعلاً، وإنما بسبب تفشي الحمى الصفراء التي يقال إنها جعلت الدكتور جونسون يصيح "اللهم احمِ بلادي من أي غزو آخر بهذه اللعنة"[٦٤].

شدّد المؤرخون البحريون في الكتابات الأخيرة على أن ركيزة الإستراتيجية البحرية البريطانية في حرب المئة عام الثانية تمثلت في النشر المنتظم للأسطول الغربي، وهو سرب من السفن الحربية، لحراسة المداخل الغربية للقنال الإنجليزي حتى المحيط الأطلسي، لكن مع القرب الذي يسمح لها بتلقي الأوامر والمعلومات من المقر ومراقبة أو اعتراض أو حصار أية تحركات مفاجئة من السفن الفرنسية التي كانت قواعدها الرئيسة توجد في بريست Brest وتولون. وإلى جانب هذه الوظيفة الدفاعية الأولية عن الجزر البريطانية، كان هذا السرب في موقع ممتاز لحماية حركة السفن التجارية بين بريطانيا وجزر الهند الشرقية والغربية ومنع سفن أعدائها الأوروبيين في زمن الحرب.

(٢٨) بمعنى أنه كان انتصاراً حاسماً على غرار الانتصار البريطاني في معركة طرف الغار Trafalgar البحرية التي وقعت في الحادي عشر من أكتوبر ١٨٠٥ بين الأسطول الإنجليزي والأسطولين الفرنسي والإسباني بالقرب من رأس طرف الغار في قادس بجنوب غرب إسبانيا، وكان الانتصار الحاسم الذي أنهى حرب التحالف الثالث (أغسطس إلى سبتمبر ١٨٠٥) ضمن سلسلة الحروب النابليونية (١٨٠٣- ١٨١٥) [المترجم].

وكانت البعثات اللصوصية أو الدفاعية المحدودة إلى البحار الأخرى تُنفَذ "بإرسال" قطع من الأسطول الرئيس إلى المياه المقصودة بحسب الحاجة. علاوة على أن أي عدو أوروبي غربي، مثل فرنسا أو إسبانيا، يريد أن يعترض القوة المرسلة في الطريق أو في وِجهتها النهائية كان عليه أن يغادر موانئ بلاده تحت العيون اليقظة للأسطول الغربي وخطر الإبادة إذا لم تكن هذه القوات المعادية كبيرة جداً.

كان ذلك هو الحل الرائع والاقتصادي للبحرية الملكية لمشكلة التوفيق بين أهدافها الدفاعية والهجومية بالموارد المحدودة المتاحة. فيذكر روجر Rodger أن ٦٤٪ من موارد بريطانيا البحرية من السفن والرجال كانت منتشرة في أوج حرب السبعة أعوام إما في الوطن أو بشكل دفاعي في البحر الأبيض المتوسط، ويقول إنه "في هذه الحرب التي تعد الأنجح بين الفتوحات التجارية التي خاضتها بريطانيا على الإطلاق، بقي معظم الأسطول في البلاد، وهو ما جعل تلك الفتوحات ممكنة"[٦٥]. وكان تطبيق هذه الإستراتيجية يتطلب عدداً كافياً من السفن الحربية، فضلاً عن القدرة على الاحتفاظ بجزء كاف منها في البحر، وذلك بدوره كان دالة لنطاق وكفاءة نظم الصيانة والإصلاح والإمداد بالرجال والتموين. ويؤكد باو Baugh أن البحرية الملكية إبان القرن الثامن عشر أدت كل هذه الوظائف المعاونة بنجاح منقطع النظير، لدرجة أنه في العام ١٧٦٢ كان ٨٠٪ من السفن والرجال في البحر، وهي نسبة عالية جداً لم يقترب منها الفرنسيون والإسبان[٦٦]. وكان طول الوقت في البحر يعني أيضاً تراكم الخبرة لدى الضباط الصغار وفرصة أكبر لتقييم أدائهم للترقية والتقدم. علاوة على أن قواعد البحرية الملكية كانت تقضي بأن يشتبك الربابنة مع العدو في أقرب فرصة، وهو ما جعل الأطقم متمرسة وجيدة التدريب[٦٧]. ولذلك، فحتى لو كانت القوات البحرية المنافِسة تمتلك عدداً مساوياً أو أكبر من سفن المواجهة والإسناد، فإن البحرية الملكية كانت دائماً تتفوق عليها في الأداء.

كانت الأساطيل مُكْلِفة جداً، فالسفينة ذات الأربعة والسبعين مدفعاً كانت تكلف خمسين ألف جنيه في تشييدها في العام ١٧٨٠، في حين كان أكبر مصنع في إنجلترا يكلفها عُشر ذلك المبلغ فقط[٦٨]. وكان الطاقم الكامل لأسطول المعركة يمكن أن

يصل إلى أربعة وعشرين ألف رجل، وهو عدد أكبر من معظم المدن آنذاك، وهو ما كان يعني ضغطاً كبيراً على المؤن حين يكون الأسطول كاملاً في الميناء[٦٩]. وكانت صيانة هذه الآلة العسكرية القوية تتطلب إنفاقاً ودخلاً حكوميين غير مسبوقين، وهو ما وثقه جون بروير John Brewer في كتابه الرائد "أوتار القوة" حول الدولة المالية- العسكرية البريطانية[٧٠]. يذكر بروير أنه بين العامين ١٦٨٠ و١٧٨٠ تضاعف حجم الجيش والأسطول البريطانيين ثلاث مرات[٧١]. وارتفع متوسط الدخل الضريبي السنوي من ٣.٦ مليون جنيه في أثناء حرب التسعة أعوام إلى ٨.٦ مليون جنيه في أثناء حرب السبعة أعوام[٧٢]. وعلى الرغم من هذا النمو السريع في الدخل الضريبي، لم تستطع بريطانيا أن تجاري نمو الإنفاق، ووجدت الحل في توسيع الدين الوطني من ١٦.٧ مليون جنيه في العام ١٦٩٧ إلى ١٣٢.٦ مليون جنيه في العام ١٧٦٣[٧٣]. وبلغ متوسط الإنفاق العسكري كنسبة من الإنفاق الإجمالي نحو ٧٠٪ في هذه الحروب(٢٩)، لكنها ارتفعت كنسبة من الدخل القومي من ٩٪ في العام ١٧١٠ إلى ١٤٪ في العام ١٧٦٠[٧٤]، وهي نسبة عالية حتى بمعايير اليوم، وهو ما يشير إلى القدرات القتالية الاستثنائية للدولة المالية- العسكرية البريطانية إبان القرن الثامن عشر. ويرجع بروير الكفاءة المالية للدولة إلى مركزية كلٍ من جمع الدخل وإنفاقه في سلطة واحدة، هي الخزانة، وتعيين ممارسين ماهرين جداً في إدارات الضرائب والجمارك.

تفيدنا النتائج المدهشة التي توصل إليها ماثياس وأوبرين Mathias and O'Brien في مقارنة الجهود المالية لبريطانيا وفرنسا. فبناء على الأفكار النمطية المستقرة، يمكن للمرء أن يتوقع أن فرنسا بحكمها الملكي المطلق كانت تستطيع أن تجمع دخلاً أكبر مما تستطيع بريطانيا بمَلكيتها الدستورية ومؤسساتها السياسية النيابية أن تجمعه[٧٥]. لكنهما وجدا - على خلاف ذلك - أن بريطانيا كانت تجمع ضعف الدخل الضريبي الذي كانت فرنسا تجمعه لكل فرد على مدار معظم القرن الثامن عشر، وثلاثة أضعافه في أثناء الحروب النابليونية. ويرجع الفرق إلى الاعتماد الأكبر على مدى واسع من الضرائب غير المباشرة على السلع الاستهلاكية في بريطانيا، والطريقة الفعالة لجمع

---

(٢٩) كانت هذه النسبة أعلى عند أوبرين (O'Brien, 1993).

تلك الضرائب باستخدام موظفين مكرسين لهذا الغرض. وفي "نحو العام ١٨٠٠، كان زهاء ثلث الدخل الضريبي يأتي من الرسوم الجمركية المفروضة بالدرجة الأولى على واردات المواد الغذائية الاستوائية والمشروبات الكحولية. فهل كان بمقدور الحكومة المركزية أن تموّل مؤسسة عسكرية ذات قدرة كافية على الدفاع عن سلامة حدود المملكة بدون قاعدة ضريبية اشتملت على كثير من السلع المستوْردة ذات الطلب غير المرن؟"[٧٦].

كما أن هذه القاعدة الضريبية الأقوى مكّنت بريطانيا أيضاً من الاقتراض على نطاق أوسع وبأسعار فائدة أدنى من فرنسا، ولذلك كانت بريطانيا قادرة على التعامل بسلاسة مع العبء المالي للحروب الكثيرة بطرح الدين الوطني في أسواق رأس المال التي كانت تخضع لرقابة البنك المركزي الذي أُنشئ في العام ١٦٩٤. وعادة ما يُنظَر إلى المستويات العالية للإنفاق العسكري وما تتطلبه من ضرائب واقتراض ثقيلين على أنها "طاردة" للاستثمار الخاص، وبالتالي مضرة لأداء الاقتصاد على المدى البعيد[٧٧]. لكن هذه المقاربة تتجاهل ضرورة توليد تجارة ما وراء البحار وحمايتها في عالم مركنتيلي لم تكن التجارة الحرة أحادية الجانب والموقف المسالم خيارات واردة فيه. ولذلك نجد أن الجمهورية الهولندية التي كان يمكن أن تستفيد أكثر من الجميع من نظام التجارة الحرة متعددة الأطراف كانت مضطرة لتكبيل نفسها بضرائب أثقل من بريطانيا للدفاع عن تجارتها الواسعة.

وعلى نحو ما تنبأ بت وشوازول، وإن كان لأسباب مختلفة، فإن بريطانيا لم تتمتع طويلاً بالمكاسب الواضحة لمعاهدة باريس للعام ١٧٦٣. فسرعان ما تعرضت المستعمرات الأمريكية لكساد طويل بعد الحرب نتج عن انهيار أسعار التبغ، ما أثار المعارضة للسيطرة الإمبراطورية. علاوة على أن الحرب كانت قد خلّفت "أزمة مالية عسكرية أوروبية" في أثرها[٧٨]، حيث وجد المتحاربون الرئيسون أنفسهم مضطرين لخدمة ديون هائلة. وفي بريطانيا، رفض مجلس العموم التصويت على رفع ضرائب الأطيان في العام ١٧٦٧، في الوقت الذي أصر قطاع الأعمال القوي في بريطانيا على أن تفي الحكومة بديونها وألا تتخلف عنها كما حدث في العام ١٦٧٢ في عهد تشارلز

الثاني. وسياسياً بدا أنه من الأسهل تحويل عبء الضرائب إلى المستعمرات، ومنها مثلاً جمع رسوم الطابع منها[٧٩]، وبخاصة لأن الحكومة شعرت بضرورة الحفاظ على تواجد عسكري قوي في أمريكا الشمالية. أثار ذلك الصيحة الشهيرة "لا ضرائب بلا تمثيل"، ما أدى إلى إبطال قانون الطابع والاستعاضة عنه بفرض رسوم جمركية أعلى، فضلاً عن التشدد في فرض قواعد المركنتيلية التجارية وغيرها من الإجراءات المقيتة الأخرى مثل الالتزام بإيواء القوات المسلحة في حالات الطوارئ. وكان مصدر الخلاف الرئيس هو محاولة الحكومة البريطانية منع الاستيطان في الأقاليم الغربية لتجنب الاشتباكات مع القبائل الأمريكية الأصلية. وأدت التوترات أخيراً، وفقاً لسلسلة من الخطوات المعروفة، إلى إعلان الاستقلال الأمريكي في العام ١٧٧٦ واندلاع الحرب الثورية.

كانت فرنسا التي أوجعتها الهزائم المذلة في حرب السبعة أعوام قد أجرت إصلاحات عسكرية واسعة، كان من بينها برنامجٍ طموح لبناء الأسطول شهد ارتفاع الإنفاق البحري من زهاء ثلاثين مليون جنيه سنوياً إبان العقد السابع من القرن الثامن عشر إلى أكثر من مئة وخمسين مليون جنيه في نهاية العقد التالي[٨٠]. ودخلت النزاع في جانب المستعمرين في العام ١٧٧٨ وسرعان ما تبعتها إسبانيا وحتى الجمهورية الهولندية المتحالفة مع إنجلترا منذ مدة طويلة، بينما أعلنت القوى الأوروبية الأخرى حيادها، ما عرّض إنجلترا لعزلة كاملة. لكن فرنسا هذه المرة لم تكن متورطة في اشتباك على القارة الأوروبية وكان بمقدورها أن تركز على الحرب البحرية والحرب في المستعمرات، في حين كانت بريطانيا مضطرة للحرب على القارة الأمريكية لقمع المستعمرين الثائرين في نزاع كان أقرب في خصائصه إلى العصيان أو الثورة منه إلى الحرب التقليدية بين جيشين متقاتلين. وكان الأسطول الفرنسي الموسع جنباً إلى جنب مع الأسطول الإسباني يتفوقان عدداً على الأسطول البريطاني، وكانا قادرين على تحقيق سيطرة كافية مؤقتة على المحيط الأطلسي لمنع اللورد كورنواليس Cornwallis وجيش بريطاني كبير كان جورج واشنطن وخمسة آلاف وثمانمائة جندي نظامي فرنسي يحاصرونه في يوركتاون على خليج تشيزبيك في العام ١٧٨١ من إجلاء القوات أو الحصول على إمدادات من البحر، ما أجبر كورنواليس على الاستسلام. وكانت تلك

هي المعركة الحاسمة في الحرب التي انتهت بسلام باريس في العام ١٧٨٣. واعترف واشنطن نفسه بأهمية المساعدة الفرنسية بلغة رائعة في رسالة إلى أمير البحر دغراس De Grasse قال فيها: "أنت تعلم أنه مهما كانت جهود الجيوش البرية، فإن الأسطول هو الصوت المرجِّح في النزاع الحالي"[٨١]. ربما كان المؤرخ الكندي إيكلز Eccles أوضح كثيراً من ذلك، حين قال إن "المبادرة الفرنسية والتكتيكات الفرنسية والسفن الفرنسية والأسلحة والمدافع والجنود الفرنسيين هم الذين أنجزوا ذلك الانتصار الحاسم وغير المتوقع. فالأمريكيون لم يكن بوسعهم أن يحققوه وحدهم"[٨٢]. وسلام باريس الذي منح الاستقلال للولايات المتحدة الأمريكية الجديدة احتفظ لبريطانيا بكندا ونوفا اسكوتشيا وأعاد فلوريدا إلى إسبانيا. وظلت لويزيانا في أيدي الإسبان حتى العام ١٨٠٠ حين أعيدت لفترة قصيرة إلى فرنسا قبل أن تبيعها إلى الولايات المتحدة في عملية "شراء لويزيانا" في العام ١٨٠٣.

كان حجم القوات المسلحة البريطانية المنتشرة ونطاق الإنفاق العسكري في أثناء الحرب الثورية الأمريكية أعلى حتى منهما في حرب السبعة أعوام، فارتفع الدين الوطني مئة مليون جنيه أخرى ليبلغ مئتين وثلاثة وأربعين مليون جنيه[٨٣]. وتركت الحرب أيضاً نتائج سلبية تماماً على النظام المالي الفرنسي الأكثر اضطراباً، حيث اقترض وزير المالية كالون Calonne وسلفه نيكر Necker أكثر من تسعمائة مليون جنيه إبان العقد الممتد بين العامين ١٧٧٧ و١٧٨٧[٨٤]. وساء الموقف لدرجة أن كالون أخبر لويس السادس عشر بأنه لا يمكن إيجاد علاج مالي دون الإصلاح الكامل للمجتمع والجهاز الإداري للنظام القديم، وهو ما أدى إلى استدعاء مجلس الطبقات في العام ١٧٨٩ واندلاع الثورة الفرنسية. وبذلك بدا الفصل الأخير في مسرحية حرب المئة عام الثانية يتكشف، وهو ما سنبحث نتائجه في الفصل السابع.

لكن ما النتائج التي تركتها هذه الأحداث المهمة على التجارة البريطانية والفرنسية؟ لقد رأينا في القسم الأخير أن التجارة الخارجية لإنجلترا تغيرت كثيراً على مدى العقود الأربعة الأخيرة من القرن السابع عشر بسبب النمو الانفجاري

لصادرات المستعمرات التي كانت إنجلترا تعيد تصديرها، على رأسها التبغ والسكر، التي حلت في الأهمية النسبية محل الصادرات التقليدية للأقمشة الصوفية. كانت هذه السلع من سلع الترف الغالية في الأسواق الأوروبية، لكن التوسع السريع للزراعة في منطقة تشيزبيك وجزر الهند الغربية أدى إلى انخفاض كبير في الأسعار واستجابات عالية المرونة في طلب المستهلكين، ما أوجد أسواقاً ضخمة للمنتَجين. فيذكر ديفيس أن التبغ كان يباع بعشرين أو أربعة وعشرين شلناً للرطل في عهد جيمس الأول، فيما انخفض سعره إلى شلن واحد في عهد حفيده تشارلز الثاني[٨٥]. واتبع السكر نمطاً مماثلاً، وكذلك "سلع البقالة الاستوائية" الآسيوية، مثل الشاي الذي انخفض سعره من ما بين اثني عشر وستة وثلاثين شلناً للرطل إبان العقد الثالث من القرن الثامن عشر إلى ما بين شلنين وعشرة شلنات للرطل في العام ١٧٨٥، وأصبح مشروب الطبقة العاملة في منتصف القرن. وفي بريطانيا، ارتفع استهلاك السكر لكل فرد من أربعة أرطال تقريباً في العامين ١٦٩٨-١٦٩٩ إلى ضعف ذلك المستوى إبان العقد الأول من القرن الثامن عشر، ثم تضاعف ثانية إبان العقد السادس من القرن الثامن عشر، ثم إلى نحو أربعة وعشرين رطلاً إبان العقد الأخير من القرن الثامن عشر، بينما تضاعف استهلاك الشاي لكل فرد أربعة أضعاف بين العقد الرابع والعقد الأخير من القرن الثامن عشر[٨٦]. وحفَّزت وفرة هذه السلع العمال على الانتقال من الراحة إلى العمل ومن الإنتاج التَعَيُّشي إلى النشاطات التجارية، وتحدث دارسون من أمثال جان دي فريز وجوكيم فوث Joachim Voth عن حدوث "ثورة دؤوب"[٨٧](٣٠) أسهمت بقوة في النمو الاقتصادي في أوروبا القرن الثامن عشر[٨٨].

---

(٣٠) الثورة الدؤوب industrious revolution هو الاسم الذي أطلق على الفترة من العام ١٦٠٠ إلى العام ١٨٠٠ التي أدت إلى الثورة الصناعية industrial revolution، ومفهوم الثورة الدؤوب يتعامل مع السلوك الإنفاقي للأسر وإنتاج السلع واستهلاكها، وغالباً ما توصف الثورة الدؤوب بارتفاع الطلب على السلع التجارية التي يوفرها السوق، ما يقلل قيمة السلع المحلية، وتحدث عادة في فترة تشهد فيها أجور العمال ركوداً أو تراجعاً. وخلاصة الفكرة أن الرغبة الشديدة في السلع والدأب على تحصيلها بالكدح كانا المقدمة للثورة الصناعية [المترجم].

شهد القرن الثامن عشر استمرار توسع الصادرات الصوفية إلى السوق الرئيس ممثلاً في القارة الأوروبية، وإن كان بشكل بطيئاً نسبياً، كما يوضح الجدول رقم (٥,٤)[٨٩]. وفي المقابل، نمت أسواق ما وراء البحار بسرعة أكبر. وكانت السلع الأولى بين الصادرات الإنجليزية إبان القرن الثامن عشر تضم تشكيلة متنوعة من المصنوعات مثل "المسامير والفؤوس والأسلحة النارية والأسطُل والمركبات والساعات والسروج والمناديل والأزرار والحبال" وغيرها من المصنوعات الكثيرة التي كان موظفو الجمارك يدرجونها تحت بند "سلع متنوعة"، كانت جميعها تتجه إلى المستعمرات عبر المحيط الأطلسي. وهذه الفئة من السلع الإنجليزية المدرجة تحت اسم "المصنوعات الأخرى" في الجدول رقم (٥,٤) تضاعفت صادراتها تقريباً إلى القارة الأوروبية على مدار القرن الثامن عشر، فيما ظلت أهم الأسواق لها هي أسواق ما وراء البحار. ولذلك ارتفعت الصادرات إلى أفريقيا وأمريكا من أقل من ثلاثمئة ألف جنيه في بداية القرن إلى أكثر من مليونين ونصف مليون جنيه بحلول أوائل العقد الثامن من القرن الثامن عشر، ما يعكس تقدم هذا القطاع في بريطانيا نفسها، وكذلك اتساع الإمبراطورية نتيجة للأداء الجيد في حرب السبعة أعوام. ومن اللافت للنظر أن الهند والشرق الأقصى أخذا ما قيمته أربعائة وثمانية آلاف جنيه من هذه السلع في الأعوام ١٧٥٢-١٧٥٤ وما قيمته خمسمئة وواحد ألف جنيه في الأعوام ١٧٧٢-١٧٧٤، مقارنة بكميات تافهة في الأعوام ١٧٢٢-١٧٢٤. وكانت القارة الأوروبية السوق الكبرى لهذه السلع في بداية القرن، فيما كانت صادرات ما وراء البحار أكبر منها بثلاثة أضعاف في عشية الثورة الأمريكية.

نتج التراجع الحاد الأولي في إعادة تصدير التبغ والسكر الموثق في الجدول عن تأثيرات المنافسة الفرنسية، فيما نتجت الزيادة اللاحقة عن تأثيرات الانتصار في حرب السبعة أعوام. وارتفعت صادرات الشاي القادمة من الصين والقهوة القادمة من جزر الهند الغربية من كميات تافهة إلى ما قيمته مئتين وخمسة وتسعون ألف جنيه وثمانمئة وثلاثة وسبعون ألف جنيه على التوالي إبان الفترة ١٧٧٢-١٧٧٢. وارتفعت قيمة إعادة تصدير أقمشة الكاليكو الهندية من جانب شركة الهند الشرقية إلى أوروبا

وأفريقيا سريعاً إلى أكثر من الضعف إلى ما قيمته سبعمئة وواحد ألف جنيه إبان الفترة نفسها. وهذه كلها أدلة واضحة على أن التجارة البريطانية في الثلاثة أرباع الأولى من القرن الثامن عشر اكتسبت طابعاً عابراً للقارات، مقارنة بتوجهها الأوروبي التقليدي في نهاية القرن السابع عشر. وقد حدث ذلك على وجه خاص في العناصر الأكثر دينامية بالصادرات المصنعة المتنوعة وتجارة إعادة التصدير، وهو ما يوضح الأهمية المتزايدة للإمبراطورية للاقتصاد البريطاني في ذلك الوقت ودور القوة في ضمان الوفرة.

الجدول رقم (٥,٤). الصادرات الإنجليزية إبان الفترة ١٦٩٩- ١٧٧٤ (بآلاف الجنيهات الإسترلينية).

	١٦٩٩- ١٧٠١	١٧٢٢- ١٧٢٤	١٧٥٢- ١٧٥٤	١٧٧٢- ١٧٧٤
السلع الصوفية				
القارة الأوروبية	٢٧٤٥	٢٥٩٢	٣٢٧٩	٢٦٣٠
أيرلندا وجزر القنال	٢٦	١٩	٤٧	٢١٩
أمريكا وأفريقيا	١٨٥	٣٠٣	٣٧٤	١١٤٨
الهند والشرق الأقصى	٨٩	٧٢	٢٣٠	١٨٩
المصنوعات الأخرى				
القارة الأوروبية	٤٥٦	٣٦٧	٦٤٧	٩٨٧
أيرلندا وجزر القنال	٦٠	٤٠	١٦٨	٢٨٠
أمريكا وأفريقيا	٢٩٠	٣٧٦	١١٩٧	٢٥٣٣
الهند والشرق الأقصى	٢٢	١٥	٤٠٨	٥٠١
إعادة التصدير (إلى كل الأسواق)				
الإجمالي	١٩٨٦	٢.٧١٤	٣٤٩٢	٥٨١٨
ومنه:				
الكاليكو	٣٤٠	٤٨٤	٤٩٩	٧٠١
المصنوعات الإجمالية	٧٤٦	١١١٦	١١٤٥	١٥٦٢
التبغ	٤٢١	٣٨٧	٩٥٣	٩٠٤
الشاي	٢٨٧	٢١١	١١٠	٤٢٩
الفلفل	٩٣	٤٤	١٠٤	١١٠
السكر	٢	٢٦٧	٢١٧	٢٩٥
القهوة	٢	١٥١	٨٤	٨٧٣
الأرز	٤	٦٣	٢٠٦	٣٦٣

المصدر: Davis (1962, pp. 291, 302)

يفاجئنا كروزيت Crouzet بالقول بأن التجارة الخارجية الفرنسية نمت أسرع من التجارة الإنجليزية بين العامين ١٧١٥ و١٧٨٤[٩٠]. يُعرِّف كروزيت "التجارة الخارجية" الكلية بأنها إجمالي قيّم الصادرات والواردات والسلع المعاد تصديرها، وقد وجد أنه في حين ارتفعت التجارة الخارجية الإنجليزية الحقيقية بعامل قدره ٢.٤ إبان الفترة ١٧١٦-١٧٢٠ والفترة ١٧٨٤-١٧٨٨، نمت التجارة الخارجية الفرنسية إبان الفترة نفسها بعامل قدره ٣ على الأقل.

وهذا النمو الأسرع للتجارة الخارجية الفرنسية مكّنها من اللحاق بنظيرتها البريطانية بحلول منتصف العقد التاسع من القرن الثامن عشر، بعد أن كانت أكثر قليلاً من نصف نظيرتها البريطانية خلال الأعوام ١٧١٦-١٧٢٠. لكنها مع ذلك وصلت بالكاد إلى ثُلث المستوى البريطاني بالأسعار الحقيقية لكل فرد. أما بالنسبة إلى اتجاه التجارة، فقد كانت فرنسا تستحوذ على حصة كبيرة من التجارة مع إسبانيا وأمريكا الإسبانية، وذلك بالطبع بفضل الارتباط الأسري بين فرعي سلالة البوربون الحاكمة في البلدين، فيما سيطرت بريطانيا على السوق البرازيلية - البرتغالية الصغرى بفضل معاهدة ميثون. ويكمن الفارق الرئيس في تصدير المصنوعات في أن فرنسا لم تكن تتمتع بالسوق المتنامية للمستعمرات البريطانية على البر الرئيس الأمريكي، علماً بأن عدد سكان فرنسا الجديدة كان صغيراً جداً مقارنة بالمستعمرات البريطانية. يوضح الجدول رقم (٥،٥) المأخوذ عن عمل كوينكا استيبان Cuenca Esteban أنه حتى إبان الفترة ١٧٨٧-١٧٨٩ بعد الاستقلال الأمريكي، ظلت بريطانيا تصدّر كميات كبيرة من السلع المنتجة داخلياً إلى الولايات المتحدة، وهو السوق الذي ظلت فرنسا على ما يبدو غير قادرة على اختراقه[٩١]. لكن فرنسا حققت نمواً سريعاً في إعادة تصدير السكر من ممتلكاتها بجزر الهند الغربية في مارتينيك وغوادلوب، وبخاصة من سانت دومينغو. وكانت منافسة السكر منخفض التكلفة من هذا المصدر هي السبب وراء خفض أسعار السكر البريطاني المعاد تصديره من باربادوس وجامايكا، حيث نمت التجارة مع المستعمرات الفرنسية عشرة أضعاف من الأعوام ١٧١٦-١٧٢٠ إلى الأعوام ١٧٨٤-١٧٨٨، ما جعلها تشكّل ٤٠٪ تقريباً من مجموع هذه التجارة في ذلك الوقت. لكن

الجدول رقم (٥,٥) يوضح أيضاً نقطة الضعف الفرنسية المتمثلة في أن معظم وارداتها الاستعمارية كانت تأتي من سانت دومينغو.

الجدول رقم (٥,٥). التجارة البريطانية والفرنسية في العامين ١٧٨٧- ١٧٨٩ (بآلاف الجنيهات الإسترلينية)

	الصادرات المحلية		إعادة التصدير		الواردات	
	بريطانيا	فرنسا	بريطانيا	فرنسا	بريطانيا	فرنسا
إلى/من مستعمراتها وأفريقيا وآسيا	٦٩١٩	٣٦١٠	١٧١٩	٣٣	١٤٨٣٠	٩١٧٣
ومنه:						
أيرلندا	١٥٦٩		٩٦١		٣٣٥٨	
جزر الهند الغربية	١٧٦١		٢٠٨		٥٥٨٢	٨٠٠٠
كندا	٧٨١		٢٤٠		٢٦٨	
آسيا	٢١٧٠		٥٤		٥٤٦٥	٩٠٠
أفريقيا	٦٣٦		٢٥٧		١٥٧	٢٧٣
إلى/من المستعمرات الأمريكية الأجنبية	٦١٧	٢٠٠	٢		١٠٩٦	
إلى/من الولايات المتحدة	٢٥٦٧	٥٦	٣٣٤	٥	١٢٤٦	٤٠١
إلى/من أوروبا والمشرق	٧٧٤١	٦٧٥٠	٢٧٩٧	٦٩٢١	٩٩٥٨	١١٩٦٤
الإجمالي	١٧٨٤٦	١٠٦١٧	٤٨٥٢	٦٩٦٠	٢٧١٣٢	٢١٥٣٩

المصدر: Cuenca Esteban (2004, tables 2.1, 2.2, and 2.3, pp. 38-42)

الهند: تفكك الإمبراطورية المغولية والانتقال إلى الحكم الاستعماري

جاء في الفصل السابق أن الإمبراطورية المغولية كانت كياناً سياسياً ضخماً وقوياً جداً، وكان عدد سكانها أضعاف عدد سكان الإمبراطوريات المعاصرة، ولم يكن يفوقها في ذلك غير إمبراطورية مانشو تشينغ الصينية. وفي عهد شاه جهان Shah Jahan

(١٦٢٨–١٦٥٨) وابنه أورانكزيب Aurangzeb (١٦٥٨–١٧٠٧)، توغل المغول شمالاً حتى أفغانستان وشرقاً حتى آسام Assam وجنوباً حتى طرف شبه الجزيرة. وفتح أورانكزيب السلطنتين الدكنيتين بيجابور Bijapur وكلكندا Golconda اللتين قاومتا كل المحاولات السابقة لضمهما من جانب أسرته. وامتدت تخوم الزراعة والإسلام بعيداً حتى البنغال، وكانت المنسوجات القطنية الهندية تبيعها الشركات التجارية الأوروبية في جميع أنحاء العالم. وعلى حدودهم الشمالية الغربية، حقق المغول توازناً مستقراً مع الصفويين، بوجود كابول في أيدي المغول وهرات في أيدي الصفويين وقندهار محل نزاع تنتقل بين هذا الجانب وذاك. وعلى الرغم من هذه النزاعات، استفادت الدولتان والأفغان من تجارة القوافل التي تبادلوها معاً ومع آسيا الوسطى.

كان عهد أورانكزيب الطويل هو الفترة التي شهدت فيها الدولة أقصى اتساع إقليمي لها وكذلك بداية سقوطها. ويمكن القول بأن اتساع الدولة وسقوطها كان مرتبطين سببياً وفقاً لظاهرة "التوسع الإمبراطوري المفرط" المعروفة، بمعنى توسع الإمبراطورية أبعد من النقطة المثالية التي تتوازن عندها فوائد وتكاليف ضم أقاليم أخرى وبعدها يكون التأثير الصافي للتوسع سلبياً[٩٢]. ولا شك في أن غزو السلطنتين الدكنيتين ومحاولة إخضاعهما للإدارة المباشرة قد أرهق موارد الإمبراطورية وتركها عرضة للثورات والغزو في أوقات أخرى في المستقبل. وكان ظهور اتحاد مراثا[٣١]، تلك الدولة اللصوصية المتجولة التي أنشأها القائد المحارب الجريء والكاريزمي شيفاجي بهوصله Shivaji Bhonsle (١٦٧٤–١٦٨٠) في المنطقة الغربية لمهاراشترا Maharashtra، أحد التهديدات الكبرى التي واجهها المغول في تلك الفترة. وبعد أن أمنّت دولة مراثا قاعدتها الداخلية في الأراضي الواقعة بين جبال غات الغربية Western Ghats والساحل، اندفعت بقيادة شيفاجي وخلفاؤه إلى الشمال والشرق، وكانوا يغيرون على المغول والدول الإسلامية والهندوسية

---

(٣١) مراثا Maratha أو مراثية أو مهراتا طائفة هندية محاربة، كانت لهم إمبراطورية من العام ١٦٧٤ إلى العام ١٨١٨ ضمت في أوجها كثيراً من مناطق الهند، وكانت العامل الأول في القضاء على الإمبراطورية المغولية في الهند [المترجم].

الأخرى ما لم تشتِرِ سلامهم بدفع ربع العائدات المنتظمة المقدرّة للأراضي على الأقل.

وبدلاً من أن يترك أورانكزيب سلطنتي الدكن لتكونا دولتين حاجزتين ضد تهديد دولة مراثا الأشد فتكاً، آثر ضم هاتين السلطنتين ومواجهة دولة مراثا بنفسه. ربما يرجع هذا الخطأ الجيوسياسي إلى تعصبه للإسلام السني الذي جعله لا يتسامح مع المذهب الشيعي لحكام الدكن. وكان من الممكن الحفاظ على تقليد التسامح الديني المغولي الذي أرساه الملك أكبر لو كُتِب لأخي أورانكزيب الأكبر المثقف وغير الأصولي دينياً دارا شوكوه Dara Shukoh النصر في معركة الخلافة بين الأخوين التي انتهت بأسر الأخير وإعدامه. وأدى اضطهاد أورانكزيب لغير المسلمين بإجراءات مثل إعادة فرض ضريبة الرأس المعروفة بالجزية على الكفار إلى إضعاف الولاء التقليدي للنظام من جانب أمراء راجبوت Rajput ودفع السيخ المسالمين عادة والفلاحين الأشداء من جماعة الجات Jats بشمال الهند إلى مقاومة عنيفة ومطولة.

وأخيراً، وربما الأهم بين كل العوامل، كانت الأزمة العسكرية- المالية من النوع الذي واجهته الدول الأوروبية الكبرى، المسؤولة عن أفول الإمبراطورية[٩٣]. فعلى نحو ما حدث في أوروبا، أدت التقنيات العسكرية الجديدة إلى زيادة تكلفة الحرب المتواصلة التي وجدت الإمبراطورية نفسها متورطة فيها. وفي هذه الأثناء، أدى الاستقلال المتزايد لحكام الأقاليم والمسؤولين الآخرين إلى احتفاظهم على نحو متزايد بالعائدات والمستحقات التي كانوا يجمعونها لاستخدامهم الخاص، بدلاً من إرسالها كاملة إلى المركز. وأدى تراجع الدخل إلى استنزاف أعداد الجيوش الإمبراطورية وفعاليتها، ما أعاق منع عائدات الدولة من التراجع أكثر فأكثر. وقد تجلى هذا التراجع المغولي في الظهور المفاجئ والمتعاقب لاثنين من أمراء الحرب الأفغان البارزين، وهما نادر شاه Nadir Shah وأحمد شاه الدراني Ahmad Shah Durrani. أنهى الأول حكم الدولة الصفوية في العام ١٧٣٦، وشن في العام ١٧٣٩ هجوماً مدمراً على شمال الهند ودلهي، وذبح الآلاف وأعمل النهب في كل شيء،

حتى عرش الطاووس الأسطوري لشاه جهان. وبعد أعوام قليلة، وقعت غزوات أكثر تدميراً من قبائل الدراني الأفغانية بقيادة أحمد شاه الدراني.

وعززت الزيادة في العائدات المتراكمة لدى الرؤساء الإقليميين الرغبة لدى منافسيهم الذين طلبوا الدعم من دولة مراثا أو الشركات الأوروبية في مقابل منحهم امتيازات تجارية. وبهذه الطريقة تمكّنت شركة الهند الشرقية الإنجليزية من السيطرة على مقاطعة البنغال الغنية إبان العقدين السادس والسابع من القرن الثامن عشر. تأسست هذه الشركة في العام ١٦٠٠ ومُنِحت حق احتكار التجارة الإنجليزية شرق رأس الرجاء الصالح وغرب مضيق ماجلان، في البداية لخمسة عشر عاماً. وكما رأينا في الفصل السابق، فإن جهود الشركة الأولية تركزت على تجارة التوابل في الأرخبيل الإندونيسي في منافسة غير ناجحة كثيراً مع الهولنديين. وحين اختارت الشركة مدينة سورات Surat في غوجارات في العام ١٦٠٧ لكي تكون محطتها الأولى في الهند، كانت تنوي العمل كقاعدة لتوريد التجارة الإندونيسية، وليس تجارة الهند نفسها. وقد مضى وقت طويل قبل أن تتحقق فوائد سورات باعتبارها "المنبع الرئيس الذي نأخذ منه كل تجارتنا بجزر الهند الشرقية، فقد وجدنا هنا سلعاً يمكن أن نأخذها ونبيعها في كل أجزاء جزر الهند الشرقية وفي إنجلترا أيضاً"[٩٤]. وكانت المنطقة الداخلية لمدينة سورات تورّد المنسوجات القطنية والنيلة والملح الصخري، كما كانت ميناءً ملائماً للإبحار منه إلى جزر التوابل في الشرق وكذلك إلى الخليج العربي والبحر الأحمر، علاوة على قربها من العاصمة المغولية أكرة بطلبها الهائل على سلع الترف من كل نوع، والتي أسست الشركة مصنعاً فيها.

استخدمت الشركة قواتها البحرية لحماية نفسها من البرتغاليين، فضلاً عن مرافقة السفن الهندية التي كانت تحمل حمولات ثمينة إلى البحر الأحمر والخليج العربي، وكذلك آلاف الحجاج إلى مكة. رفعت كل هذه الخدمات والدبلوماسية الماهرة للسفير السير توماس رو Thomas Roe مكانة الشركة لدى الإمبراطور جهانكير Jehangir، ما جعله يمنح الشركة عدة امتيازات تجارية. فأنشأت الشركة في العام ١٦١١ مصنعاً آخر في ميناء ماسوليباتام المهم على الساحل الشرقي. ويذكر أندروز Andrews

أن الاختراق التجاري الإنجليزي لشبه القارة الهندية كان يجري على قدم وساق بحلول العام ١٦٣٠[٩٥]. وفي العام ١٦٣٩، حصلت الشركة على موقع مدراس من حاكم محلي وشيّدت عليه قلعة فورت سانت جورج، تلاها في العام ١٦٩٠ إنشاء ميناء كلكتا وقلعة فورت وليام. وفي العام ١٦٦٨، حصلت الشركة من تشارلز الثاني على ميناء بومباي المستقبلي الذي حل في النهاية محل سورات باعتباره المركز الرئيس للشركة على الساحل الغربي. ولاحقاً، أصبحت هذه المراكز التجارية الثلاثة للشركة: بومباي ومدراس وكلكتا، الموانئ الرئيسة لدولة الهند الحديثة. نمت مدراس سريعاً وغدا عدد سكانها أكثر من ثلاثمئة ألف نسمة بحلول العام ١٧٠٠، فيما كانت كلكتا وبومباي تضمان مئة ألف وسبعين ألفاً على التوالي في منتصف القرن الثامن عشر[٩٦]. وكانت كل واحدة من هذه المدن مقراً "لرئاسة" مستقلة مسؤولة فقط أمام المديرين في لندن، ما ضمن درجة ضرورية من اللامركزية على حساب فقدان التنسيق والاتساق في السياسة العامة لشبه القارة كله.

وإبان العقد التاسع من القرن السابع عشر، اندفع رئيس الشركة في لندن السير جوزياه تشايلد Josiah Child - المعروف أكثر للأجيال التالية بتأليف الكتاب المركنتيلي الكلاسيكي "مقالة جديدة في التجارة" - على نحو متهور لتخويف المغول بالتلويح باستخدام القوة البحرية في البنغال وغرب الهند، لكنه سرعان ما تراجع حين استولى أورانكزيب على مصنع سورات وهدد بطرد الإنجليز من الهند. ولم تجرب الشركة أية تدخلات أخرى بالقوة السافرة حتى العقد السادس من القرن الثامن عشر، أي بعد فترة طويلة من وفاة أورانكزيب القوي. وتوسعت التجارة بثبات بعد إعادة تنظيم الشركة في العام ١٧٠٨، حين تكتل المطالبان المتنافسان على الوثيقة الأصلية للاحتكار الملكي في "الشركة المتحدة لتجار إنجلترا بجزر الهند الشرقية" برأس مال قدره واحد وربع مليون جنيه، وهو مبلغ ضخم جداً في ذلك الوقت، كان يمتلكه زهاء ثلاثة آلاف من حاملي الأسهم. وكانت نسب ربح الشركة محترمة دائماً، إذ حرصت على الحفاظ على معدل ربح قدره ٨٪، وهو ضعف سعر الفائدة على دين السندات[٩٧].

ترجع جذور التجارة الفرنسية المنظمة في الهند، كما هي الحال مع أشياء كثيرة أخرى في فرنسا إبان النظام القديم، إلى كولبرت الذي دشن "الشركة العامة" في العام ١٦٦٤ "لكي تجلب للمملكة النشاط التجاري وتمنع الإنجليز والهولنديين من الاستئثار به، كما كانوا يفعلون حتى ذلك الوقت"[٩٨]. وأرسل الفرنسيون أسطولاً إلى المياه الهندية في العام ١٦٧١، لكنه لم يحقق شيئاً عدا تأسيس محطة تجارية في قرية بونديشيري في العام ١٦٧٤. وتطورت هذة المحطة إلى المقر المحصن للتجارة الفرنسية على شبه القارة، وبلغ عدد سكانها مئة وعشرين ألف نسمة بحلول العام ١٧٤٠. وأنشأ الفرنسيون في العام ١٦٨٨ مركزاً مهماً آخر في شاندرناغور Chandernagore في البنغال، كانوا يحصلون منه على إمدادات المنسوجات الحريرية والقطنية الثمينة. وأرسل الفرنسيون ثلاثين سفينة إلى الهند بين العامين ١٧١١ و١٧١٦، لكنه نصف العدد الإنجليزي وخُمس العدد الهولندي فقط (راجع الشكل رقم ٤.٥). وبعد إعادة تنظيم الشركة الفرنسية إبان العقد الثالث من القرن الثامن عشر، تطورت بونديشيري ونمت التجارة مع الهند إلى حالة مزدهرة. فبين العامين ١٧٢٨ و١٧٤٠، ارتفع حجم تجارتها عشرة أضعاف من تسعة وثمانين ألف جنيه إلى ثمانمائة وثمانين ألف جنيه، لكنه ظل مع ذلك نصف نظيره البريطاني[٩٩]. على أن معدل ربح الشركة الفرنسية إبان العقد الرابع من القرن الثامن عشر كان ٢٥٪، وهو أعلى كثيراً من الحد الأقصى لمنافِستها الإنجليزية، وهو ١٠٪[١٠٠].

هيمن الصراع الإنجليزي- الفرنسي العالمي على العقدين الخامس والسادس من القرن الثامن عشر في الهند، وتَعقَّد كما رأينا بفعل الغزوات الإيرانية والأفغانية في الشمال والنزاعات السياسية الهندية المحلية التي أخذت القوتان الأوروبيتان فيها صف الأطراف المتنازعة، ما أدى إلى سلسلة مركبة جداً من الأفعال والأفعال المضادة من جانب كل الأطراف. وانتهى ذلك كله بالانتصار النهائي للإنجليز والهزيمة الكاملة للفرنسيين، حتى وإن لم يدركوها بالطبع في ذلك الوقت، والإخضاع المستقبلي لكل القوى الهندية للإنجليز. كان الرأي الإستراتيجي الموّجه للقائد الفرنسي في الهند جوزيف فرانسوا دوبلكس Joseph Francois Dupleix هو أن الهند في منتصف القرن

الثامن عشر كانت عرضة للاستيلاء عليها دون تكلفة تذكر من جانب أية قوة أوروبية قيادية بجيش صغير جيد التدريب من القوات المحلية بقيادة ضباط أوروبيين وقليل من الجنود النظاميين يستخدمون المدفعية والأسلحة الحديثة، إلى جانب دبلوماسية ماهرة تثير الملوك المحليين ضد أحدهم الآخر. وبذلك كان من الممكن حكم الدول المحلية أو المقاطعات المغولية الغنية كدُمى تابعة للشركات الأوروبية التي كان يمكّنها بذلك أن تحقق السيطرة على موارد الدخل المحلية المربحة لتمويل النشاطات التجارية أو توسيع نفوذها السياسي. لكن من سوء حظ دوبلكس وفرنسا أن روبرت كلايف Robert Clive الضابط الشاب بشركة الهند الشرقية وبريطانيا مدعومة بقوتها المالية والبحرية المتفوقة هم الذين كتب لهم النجاح في النهاية باستخدم المقاربة نفسها التي ابتكرها دوبلكس.

لاحت فرصة بريطانيا حين مات نوّاب البنغال[٣٢] الذي استطاعت الشركة في ظل حكمه المستقل أن تدفع مصالحها التجارية قدماً في تلك المقاطعة، وخلفه حفيده المتهور الشاب سراج الدولة الذي استفز البريطانيين بالاستيلاء على كلكتا. انطلق روبرت كلايف من مدراس على رأس قوة من الجنود النظاميين البريطانيين والجنود الهنود وواجه سراج والجيش البنغالي في بلاسي Plassey في العام ١٧٥٧. قُتِل سراج سريعاً في المعركة وحل محله مير جعفر نواباً للبنغال، ثم أطاح البريطانيون بالأخير حين ثبت أنه غير متجاوب بما يكفي مع الرغبات البريطانية. ومرة أخرى أساء النواب البنغالي الجديد تقدير قوة البريطانيين حين بذل جهوداً قوية لتأكيد استقلاله، فاستدعى جيشاً بقيادة نواب أوده[٣٣] وولي العهد المغولي شاه علم نفسه. لكن قوات الشركة

(٣٢) نوّاب Nawab لقب تشريفي كان يمنحه الإمبراطور المغولي للحكام المسلمين للدول أو الإمارات التابعة التي تتمتع بشبه حكم ذاتي. والنواب الذي مات هو علي وردي خان الذي حكم البنغال من العام ١٧٤٠ إلى العام ١٧٥٦، بعد أن أطاح بالأسرة الناصرية، وحفيده الذي خلفه هو ميرزا محمد سراج الدولة المعروف بسراج الدولة أو منصور الملك الذي كان آخر النواب المستقلين للبنغال، إذ أُعدِم في الثاني من يوليو ١٧٥٧ بعد هزيمته في معركة بلاسي بأوامر من مير محمد جعفر علي خان بهادور الذي تآمر عليه مع الإنجليز [المترجم].

(٣٣) أوده Oudh أو Awadh منطقة في وسط مقاطعة أوتار براديش الهندية الحالية، كانت قبل الاستقلال تعرف باسم المقاطعتين المتحدتين لأكرة وأوده، أسسها سادات علي خان في العام ١٧٢٢ في العاصمة فايز أباد التي انتقلت بعد ذلك إلى أوتار براديش [المترجم].

هزمت هذا الجيش في معركة بوكسار Buxar الشرسة في العام ١٧٦٤، وبذلك خضعت البنغال تماماً للسيطرة البريطانية. وحصلت الشركة بمقتضى معاهدة العام ١٧٦٥ مع شاه علم على "الديواني" وهو الحق في جمع عوائد البنغال، ووضعت أوده أيضاً تحت شكل من الإشراف فرضه مقيم بريطاني وحامية عسكرية. وبذلك أصبحت البنغال بعائدات أراضيها الوفيرة وصناعاتها الواسعة في مجال المنسوجات الحريرية والقطنية "رأس الجسر البريطاني" للسيطرة على الهند[١٠١].

وفي البنغال، انغمس موظفو الشركة، بمن فيهم كلايف نفسه، في حالة شديدة من الفساد، تسببت في فضيحة في إنجلترا، أدت إلى تشديد التدخل الحكومي في الشركة بموجب قانون التدخل للعام ١٧٧٣. وانتحر كلايف في العام ١٧٧٤ بسبب حزنه من التهم الموجهة له، التي لم يخففها حتى منحه وسام النبالة. وتولى وارين هاستينغز Warren Hastings منصب الحاكم العام الجديد الذي أصبح يضم السلطة على رئاسات مدراس وبومباي والبنغال. وضع هاستينغز أساساً صلباً لإدارة البنغال، فضلاً عن أنه احتوى التهديدات الخطيرة للموقف البريطاني في الهند من جانب الحاكم المسلم حيدر علي حاكم ولاية مايسور Mysore التي كانت هندوسية في السابق، الذي كان مدعوماً من الفرنسيين ومن دولة مراثا. غادر هاستينغز الهند في العام ١٧٨٥ ليواجه تهماً ومحاكمة في إنجلترا ويتعرض للسلخ في خطابات إدموند بورك التي شوّهت سمعته لدرجة لا تُمحى، على الرغم من براءته النهائية. وقد تمثل إنجازه كما أوجزه بيرسيفال سبير Percival Spear بذكاء في أنه "تسلم إدارة عوائد وترك دولة"[١٠٢].

خلَف هاستينغز في منصب الحاكم العام اللورد كرونواليس بعد أن تعافى من استسلامه لجورج واشنطن في يوركتاون، فقضى على بقايا الفساد في البنغال وأصلح شروط العمل بالشركة برفع الرواتب، وفي مقابل ذلك حظر على الموظفين التجارة لحسابهم الشخصي. وقام الحاكم العام التالي الإنجليزي الأيرلندي ريتشارد ويلسلي- المركيز ويلسلي لاحقاً- باحتواء وهزيمة دولة مراثا ودولة مايسور التي آلت إلى تيبو سلطان Tipu Sultan ابن حيدر، ألد عدو واجهه البريطانيون في الهند. واكتسب أخو ويلسلي الأصغر آرثر الذي عمل هو الآخر في الشركة، خبرة عسكرية ثمينة من قتال

دولة مراثا أهّلته للحصول مستقبلاً على لقبي دوق ولينغتون Duke of Wellington ومُظَفّر وترلو Victor of Waterloo[(٣٤)]. ومد البريطانيون نفوذهم أعلى وادي نهر الغانج في أوده ونحو دلهي. وفي العام ١٨٠٣، وضع الإمبراطور المغولي شاه علم نفسه تحت الحماية البريطانية، بعد أن سمل الأفغان عينيه في العام ١٧٨٨[(٣٥)]، وكان الرجل قد وَهنَ قبل ذلك بوقت طويل، وقد أكدت الحماية رمزياً ما كان واضحاً للكافة في ذلك الوقت من أن بريطانيا أصبحت الحاكم الحقيقي لما كان يعرف بالإمبراطورية المغولية.

وبعد هذا الوصف المطول للخلفية السياسية المعقدة، يمكننا أن نتحوّل أخيراً إلى بنية النظام الاقتصادي للإمبراطورية المغولية وتطورها. لقد قامت هذه الدولة والمدن التي قطنتها معظم النخبة على انتزاع ضرائب الأرض من الفلاحين. فـ"المغولي العظيم يلتهم كل شيء" كما قال مسافر فلورنسي، كان يشير على ما يبدو إلى انتزاع عائدات واسعة من الريف إلى المركز لإعادة توزيعها على مجموعة من المسؤولين العسكريين والمدنيين في النظام، الذين كان لكل واحد منهم حاشية من الأتباع يعولها[١٠٣]. ويقول تابان رايشوظوري إن "الإمبراطورية المغولية كانت حوتاً نهماً، وكان تأثيرها على الاقتصاد يقتصر قبل كل شيء على شهيتها التي لا تشبع إلى الموارد"[١٠٤]. ويذكر ماديسون Maddison أن ضرائب الأرض كانت تشكل نحو ١٥٪ من الدخل القومي[١٠٥]. ومما تجدر ملاحظته أن هذا الرقم كان مماثلاً لنظيره في إنجلترا القرن الثامن عشر، وهي قضية سنعود لها في الفصل التالي. وكان من السمات المهمة للنظام الضريبي المغولي أنه كان يفرض معدلات أدنى على الأراضي المخصصة للمحاصيل النقدية مثل القطن وقصب السكر عن الأراضي المخصصة للحبوب الغذائية، بغرض تشجيع تتجير

---

(٣٤) وقعت معركة وترلو Waterloo في موقع بهذا الاسم في بلجيكا الحالية في الثامن عشر من يونيو ١٨١٥، بعد فرار نابليون من منفاه على جزيرة ألبا، لقي فيها هزيمته الحاسمة أمام جيش إنجليزي بقيادة دوق ولينغتون وجيش ألماني بقيادة بلوخر [المترجم].

(٣٥) بعد أن ضعفت الدولة المغولية، فرض عدوها اللدود غلام قادر حفيد نجيب خان نفسه على شاه علم كبيراً للوزراء، بمعاونة حلفائه السيخ، وبعد أن نهب غلام كل القصور الإمبراطورية بحثاً عن كنوز المغول وخاب أمله في العثور عليها، استخدم العنف مع الأسرة الحاكمة وسمل عيني شاه في العاشر من أغسطس ١٧٨٨ [المترجم].

الاقتصاد. وكانت الدولة أيضاً تقدم حوافز لاستصلاح الأراضي الجديدة وتشييد البنية التحتية مثل الآبار. وأسهم نمو التجارة الخارجية في عائدات الإمبراطورية، فرفع عوائد الأراضي والرسوم الجمركية، وهو ما أدى كما رأينا إلى تدفق السبائك وزيادة عرض العملة المسكوكة.

وعلى الرغم من صراعات الخلافة والحروب مع دولة مراثا، استفادت شبه القارة بصفة عامة من السلام المغولي. وكانت شبة القارة تتميّز بتباينات إقليمية شديدة في وفرة الحبوب الغذائية، فكانت بعض المناطق مثل البنغال تتمتع بفائض كبير فيها، بينما كانت مناطق أخرى مثل غوجارات تعاني نقصاً، ما استلزم تجارة واسعة بين المناطق براً وبحراً لموازنة الطلب والعرض. وكانت البنغال وغوجارات تعتمدان أيضاً على إحداهما الأخرى في توفير المواد الأولية لسلعهم المصنعة الرئيسة. فكانت صناعة المنسوجات القطنية بالبنغال تستورد القطن من غوجارات، وصناعة المنسوجات الحريرية في غوجارات تستورد الحرير الطبيعي من البنغال[١٠٦]. ولم تكن المنسوجات القطنية تقتصر على الموصلين الفاخر المنتج بالدرجة الأولى لتجارة الصادرات، بل ضمت أيضاً قدراً أكبر من الأقمشة الخشنة الموجهة للمستهلكين العاديين.

وكما ذكرنا في الفصل السابق، فإن جمع الإمبراطورية المغولية لعوائد الأراضي نقداً استوجب هو نفسه التجارة والتبادل بين المدن والريف، لكي يحصل المزارعون على النقد المطلوب ولكي ينفقه أثرياء المدن. وكما وثق غروفر Grover بغزارة، فإن تلك الاحتياجات أدت إلى ربط المدن والمناطق في شمال الهند معاً بنظام من الطرق واسعة الانتشار، فضلاً عن الأنهار[١٠٧]. وكانت معدلات التأمين منخفضة جداً، عند مستوى ٢٪ تقريباً، وهو ما يشير إلى درجة عالية من الأمان في نقل السلع بين الأسواق. وثمة جماعة كاملة عُرِفت باسم البانجارا Banjaras كانت متخصصة في نقل السلع من مكان لآخر بواسطة ثيران الحمل التي كانت تستخدم غالباً في قطعان بالآلاف، وهو ما أسهم بدوره في خفض فجوات الأسعار. وحتى الغزوات والحروب المتكررة التي وقعت في العقود الوسطى من القرن الثامن عشر لم تعرقل أداء النظام الاقتصادي بشكل دائم. وساعدت العملة الفضية الموّحدة عالية النقاء والنظام المصرفي

والائتماني المتطور الذي تضمن استخدام أدوات مالية متقدمة مثل الحوالة أو الهوندي hundi، في تيسير اندماج أسواق السلع ورأس المال، التي كانت مع ذلك أبعد ما تكون عن الكمال بسبب الكثير من نقائص السوق في الاقتصاد ما قبل الصناعي القائم حينذاك.

وفيما يتعلق بالتجارة الدولية، فقد واصل التجار الهنود في تلك الفترة الاتصال بموانئ البحر الأحمر والخليج العربي في الغرب، وبورما وسيام والجزر الإندونيسية في الشرق. كان من أبرز هؤلاء التجار إبان القرن السابع عشر الأمير التاجر الياني(٣٦) فيرجي فورا Virji Vora السوراتي الذي اشتهر بأنه أغنى رجل في عصره وقيل إن ثروته بلغت زهاء خمسين مليون روبية أو عشرة ملايين جنيه[١٠٨]. وامتدت مصالحه التجارية باتساع شركة الهند الشرقية نفسها، واعتمدت عليه الشركة في القروض في عدة مواقف حرجة. لكن مع حلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت الجماعة التجارية الهندية تتراجع أكثر فأكثر أمام الشركة، وبقوا فقط كمساعدين للشركة في نشاطاتها في التجارة الدولية، فيما بقي لهم الدور الرئيس في التجارة الداخلية.

وقد أعجب معظم التجار الأوروبيين كثيراً بالفطنة التجارية للتجار الغوجاراتيين والتاميليين الذين تعاملوا معهم في كل من الهند وجنوب شرق آسيا. كانت الهند المصدّر الأول للسلع المصنعة إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكانت منسوجاتها القطنية مطلوبة بشدة في كل قارات العالم المعروفة. وعلى الرغم من ذلك، ذكر حبيب Habib أنه "من الحماقة إنكار أن الهند إبان القرن السابع عشر كانت قد تخلفت بالتأكيد عن أوروبا الغربية، ما لم تظهر أدلة مناقضة لذلك"[١٠٩]. وهذا التأكيد القاطع من هذه المرجعية الرائدة حول التاريخ الاقتصادي للإمبراطورية المغولية الذي يحمل إلى جانب ذلك أوراق اعتماد راديكالية وقومية تعصمه من التحيز ضدها، يعد ترياقاً جيداً للرؤية غير التاريخية التي ترى أنه لم

---

(٣٦) الياني هو أحد أتباع اليانية، وهي دين هندي نشأ إبان القرن السادس قبل الميلاد، قوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك [المترجم].

تكن هناك، حتى وقت الثورة الصناعية نفسها، أية فجوة تقنية ملحوظة بين أوروبا الغربية وبقية العالم[٣٧].

يقدم حبيب أدلة على أنه في حين كان التكيف مع التقنية رائعاً في بعض المناطق، كما حدث في إدخال محاصيل العالم الجديد النقدية مثل التبغ والذرة الصفراء وفي بناء السفن، فقد فشلت الهند المغولية، كما فشل بقية العالم الإسلامي، في إدخال تجديدات رئيسة مثل طباعة الكتب وآلية الساعة الميكانيكية والتحسينات البصرية مثل النظارات والمناظير، وتخلفت الهند أيضاً في تقنية الحديد والصلب على الرغم من ريادتها المبكرة في هذا المجال. ويلاحظ أيضاً أن وفرة العمالة الماهرة الرخيصة في الهند أغنتهم في كثير من المجالات عن نقص الأدوات والأجهزة الميكانيكية مختلفة الأنواع، ما أعاق الدافع إلى إدخال الماكينات. وبالفعل كان لانخفاض الأجور الفضية الفضل في بقاء الهند تنافسية في سوق المنسوجات الدولية خلال القرن الثامن عشر[١١٠]. وفي مجال التقنية العسكرية، كان المغول ماهرين في تصنيع البنادق والمدافع النحاسية الثقيلة، لكنهم تخلفوا في صناعة المدافع الحديدية الأخف التي كانت أكفأ كثيراً في ساحات المعارك من العملاق البرونزي الذي ظل حكامهم ميالين إلى استخدامه.

على أن التراجع السريع للإمبراطورية الذي تلا موت أورانكزيب لا يجب تفسيره على أنه انطوى بالضرورة على تراجع مقابل في الاقتصاد. فمن الوارد جداً أن نمو الاستقلالية المحلية الذي أدى إلى تناقص انتقال الدخل إلى المركز، قد صاحبته زيادات في الدخول الحقيقية احتفظ بها الفلاحون أنفسهم أو ملاك الأراضي المحليون أو "طبقات النبلاء الإقليميين" الذين أصبحوا نقاطاً محورية في نمط غير مركزي أكثر تحفيزاً للنمو من النمط السابق الذي خضع للقوة الكاملة للوياثان المغولي[٣٨]. ولذلك دفع

---

(٣٧) يذهب حبيب أبعد من ذلك في مقالة كلاسيكية أسبق (١٩٦٩) إلى إنكار أن الاقتصاد المغولي كان يمتلك القدرة على شق طريق مستقل إلى الرأسمالية والنمو الاقتصادي الحديث.

(٣٨) اللوياثان Levathian، أو التنين كما يترجمه البعض، اسم كائن بحري ضخم ورد اسمه في الكتاب المقدس، يستخدم للدلالة على قوة الدولة وسطوتها وشموليتها، وقد نال هذه الدلالة من اسم الكتاب الأساسي الذي وضع فيه توماس هوبز فلسفته السياسية التي أرساها على فكرة القانون الطبيعي والعقد الاجتماعي، لكنها جاءت- رغم ذلك- دعوة للحكم المطلق وتبريراً له، تأسيساً على إيمان هوبز

عدد من المؤلفين مثل بايلي Bayly بأن النمو الملحوظ، وإن كان بطيئاً، في الناتج والسكان إبان القرن السابع عشر لم يتوقف، بل استمر حتى منتصف القرن الثامن عشر، على الرغم من أنه لم ينتج عن فقدان المركز لسلطته[١١١]. فقد استطاعت هذه "الطبقة الوسطى الجديدة" الميّالة إلى التجارة والسوق التي وصفها بايلي بأنها "الطبقات المتوسطة بالمجتمع من قاطني المدن والتجار وأرستقراطية الدولة المتمكنة من مهارات السوق والتعليم"، أن تشكل شراكة ملائمة، وإن كانت قلقلة ومشاكسة، لتعظيم مصالحها ونشاطاتها التجارية مع شركة الهند الشرقية، وأن تنظم تدبير وتوريد صادرات الشركة من الهند، وأن تجمع عائداتها، وحتى أن تقدم قروضاً للشركة متى احتاجت[١١٢]. وعلى ذلك، فإن "المجتمع الاستعماري" الذي انبثق في الهند بعد معركة بلاسي لم يكن ناتجاً فقط عن "المدد الغيبي"(٣٩) الذي قدمه "الاستعمار" وحده، وإنما بالأحرى كان تطوراً حميداً للمجتمع الهندي نفسه، بعد أن خفّت وطأة الدولة المغولية في "الدول الكثيرة التي خلفتها".

تتمتع هذه الفرضية، إضافة إلى المزايا الأخرى التي قد تمتلكها أو لا تمتلكها، بميّزة تروق للكثيرين، وهي تحديداً أن الفاعلين الهنود لم يكونوا مجرد ضحايا عاجزين، بل كانوا مشاركين نشطين في حسم نتيجة المواجهة الثقافية التاريخية التي تقررت بفعل الطرفين. لكن فرضية الاستمرارية بين النظامين ما قبل الاستعماري والاستعماري رُفِضت تماماً من جانب عرفان حبيب وآثار علي Athar Ali اللذين يشدّدان على عداء الشركة لظهور أي منافسين محليين محتملين لدورها المهيمن في

بالطبيعة البشرية الشريرة وقوله إن حالة الطبيعة تميزت بحرب الكل ضد الكل. ولذلك ذهب هوبز إلى أن الناس تنازلوا للسلطة، بمقتضى العقد الاجتماعي، عن كل حقوقهم في مقابل حفظها للأمن والحياة، ويعتبر هوبز بذلك من دعاة الحكم المطلق، وإن كان على أرضية سلطة الشعب والعقد الاجتماعي، وليس الحق الإلهي المقدس للملوك [المترجم].

(٣٩) إن المصطلح المستخدم هنا- كما ورد في حاشية سابقة- هو المصطلح اللاتيني deus ex machine [بمعنى "الرب في التدبير"] الذي يشير في الأدب إلى "المدد الغيبي" الذي يحوّل أحداث الرواية من الضراء إلى السراء بفعل قوى خارقة. والمقصود هنا هو أن التحول الإيجابي الذي شهده الاقتصاد الهندي- أي المدد الغيبي- لم ينتج فقط عن السياسات الاستعمارية، وإنما نتج أيضاً عن التطور الداخلي للمجتمع الهندي [المترجم].

الاقتصاد[١١٣]. ربما كان الفرق بين الموقفين أصغر مما يبدو، إذ يؤكد أحدهما على الجانب التعاوني ويؤكد الآخر على الجانب العدائي في علاقة كانت بطبيعتها معقدة ومتناقضة جداً. ويسجل راجات كانتا راي Rajat Kanta Ray كلاً من يأس الخاسرين، وهم ملاك الأراضي المغول وأتباعهم والمفكرين المسلمين الذين حزنوا لما اعتبروه "انقلاباً" لعالمهم المألوف، والاستجابة المتحمسة للفرص الجديدة التي أتاحتها السيطرة البريطانية من جانب الطبقة المتوسطة الهندوسية البنغالية الصاعدة المسماة البدرالوك bhadralok التي انخرطت منذ البداية في بذور المعارضة القومية للحكم الاستعماري، لكنها تعاونت معه بقوة لاحقاً[١١٤].

لعلها من قبيل المصادفة فقط أن التاريخ الدقيق لشركة الهند الشرقية الإنجليزية حتى تأسيس مركزها الأول في البنغال كتبه أحد أبرز الأعضاء المعاصرين لهذه الجماعة الاجتماعية الرائعة، هو شوظوري Chaudhuri[١١٥]. يقدم شوظوري مجموعة من الجداول الإحصائية المفصلة للنشاطات التجارية للشركة إبان الفترة ١٦٦٠-١٧٦٠ تعطي قيمة الواردات الإجمالية من آسيا (الهند غالبا) التي كانت الشركة تشتريها لتبيعها في إنجلترا أو لإعادة تصديرها إلى أوروبا وبقية العالم، والصادرات السلعية (المعادن النفيسة بالدرجة الأولى) التي كانت الشركة تصدّرها إلى آسيا (غالباً الهند أيضا) لدفع ثمن هذه الواردات. ومن العام ١٦٦٠ إلى العام ١٧٦٠، كان معدل النمو المُركّب للواردات والصادرات نحو ٢.٢٪ سنوياً، وهو معدل أسرع من نمو السكان أو الناتج الإجمالي في أوروبا أو آسيا في تلك الفترة، على الرغم من حدوث بعض التقلبات الواضحة في السلسلة، كان من أبرزها التراجع الحاد إبان العقد الأخير من القرن السابع عشر.

كان الفلفل القادم من مالابار وجنوب شرق آسيا مهماً في أوائل القرن السابع عشر، حتى إنه زاد عن ٢٥٪ من الواردات الإجمالية لشركة الهند الشرقية البريطانية في بعض الأعوام، لكن المنسوجات القطنية أخذت منه مكان الصدارة وهيمنت على الشحنات من الهند إبان القرن الثامن عشر. كانت هذه المنسوجات القطنية الهندية التي كانت الشركة توزعها على مستوى العالم - دون شك - إحدى قصص النجاح

الكبرى بالاقتصاد العالمي. فهذه المنسوجات، بفضل التنوع الكبير في نوعيتها وأسعارها، كانت تلبي احياجات كامل الطيف بالأسواق، من الموصلين البنغالي الفاخر الذي كانت ترتديه السيدات الأرستقراطيات في إنجلترا إلى أقمشة كوروماندل الزرقاء الخشنة التي كان يلبسها العبيد الأفارقة في الكاريبي. وتعد تلبية الشركة للطلبات العالمية على هذه المنتجات المتنوعة بعرض مكافئ، معجزة لوجستية في ذلك العصر ما قبل الصناعي. فطلبات التوريد كانت تُرسَل من لندن إلى كلكتا ومدراس وبومباي، وتُوقَع العقود مع اتحادات من التجار المحليين على تسليم الأقمشة من جانب النساجين الريفيين في المناطق الداخلية، أو غيرها من الشروط المتفق عليها مع التجار. وكانت المنافسة من الأقطان الهندية تفزع كلاً من صناعة الصوف ونساجي الحرير في سبيتالفيلدز Spitalfields بإنجلترا، ما حث إجراءات حمائية قوية أبطأت توسع الصادرات من الهند، لكنها لم توقفها. وتراوحت المنسوجات بين ٦٠٪ و٨٠٪ من الواردات الكلية لشركة الهند الشرقية البريطانية حتى العقد السادس من القرن الثامن عشر، حين أدت واردات الشاي المتزايدة (التي رفعت نصيب الصين إلى الثلث بنهاية الفترة) إلى خفض حصة المنسوجات إلى أقل من ٥٥٪ فقط. وكان الحرير الطبيعي المشترى من البنغال والصين أحد الواردات المهمة الأخرى التي تجاوزت في أغلب الأحيان ١٠٪، وأحياناً ٢٠٪، من قيمة الواردات الإجمالية. وبلغت واردات القهوة من المخا[٤٠] ما بين ١٥٪ و٢٠ من الواردات الإجمالية إبان العقد الثالث من القرن الثامن عشر، لكنها انخفضت لاحقاً إلى نحو ٥٪، فيما كان الملح الصخري والنيلة من الواردات الصغيرة نسبياً.

إن التاريخ النهائي لسلسلة شوظوري هو العام ١٧٦٠، لكننا نعرف من مصادر أخرى أنه نتيجة لضمان الديواني[٤١]، كانت العائدات البنغالية والقروض من المقيمين

---

(٤٠) المخا أو المخاء Mokha إحدى مدن ومديريات محافظة تعز اليمنية، على ساحل البحر الأحمر، اشتهرت بكونها السوق الرئيس لتصدير القهوة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر. وقد أخذت قهوة الموكا والموكاتشينو اسمها من هذا الميناء [المترجم].

(٤١) "الديواني" هو الحق في جمع عوائد البنغال، الذي منحته معاهدة العام ١٧٦٥ مع شاه علم لشركة الهند الشرقية البريطانية [المترجم].

البريطانيين الخاصين في الهند، مثل موظفي الشركة الذين يستثمرون مدخراتهم، يمكن أن تموّل المشتريات الأساسية من المنسوجات والسلع الأخرى، ما قلّل إخراج "المعادن النفيسة" من أوروبا عن ذي قبل. وبالفعل انخفضت حصة "المعادن النفيسة" في الصادرات الإجمالية لشركة الهند الشرقية البريطانية من أكثر من ٧٥٪ على مدار معظم الفترة ١٦٦٠-١٧٦٠ إلى ٣٠٪ أو نحوها في نهايتها، وهو ما تزامن مع الانتصار في بلاسي وغزو البنغال[١١٦]. وساعدت عوائد البنغال البالغة ثلاثة ملايين جنيه سنوياً[١١٧] في تمويل حمولات السلع الهندية العائدة إلى أوروبا، فضلاً عن تمويل شراء الشاي الصيني من كانتون والقطن الخام من غوجارات. وكانت بيهار والبنغال - علاوة على ذلك - مصدر الأفيون الذي ثبت أنه أفضل وسيلة لدى الشركة لتمويل تجارة الشاي الصينية المربحة، الذي حصلت الشركة على حق احتكار شرائه في العام ١٧٧٣[١١٨]. وكان الأفيون يباع في كلكتا في مزاد عام للتجار الخاصين الذين كانوا يصدّرونه بعد ذلك إلى كانتون، وقد كان ذلك خطوة على الطريق إلى حروب الأفيون الشائنة في منتصف القرن التاسع عشر التي حوّلت الصين نفسها إلى دولة تابعة عاجزة.

وإلى جانب تجارة الشركة نفسها، كان التجار الإنجليز أيضاً يمارسون التجارة الخاصة، وكانوا في معظمهم من موظفي الشركة لكن يعملون برأسمالهم الخاص لمصلحتهم الخاصة. وشكّل تعارض المصالح الواضح الذي فرضته هذه الحالة موضوعاً متواتراً في تاريخ الشركة. فالحظر التام للتجارة الخاصة على الموظفين كان من شأنه أن ينشر الاستياء بينهم ويحبطهم عن العمل، لكن عدم وضع أية قيود كان- بالطبع - يقلل أرباح حملة الأسهم بشدة، وهو ما أدى إلى تبني نوع من التسوية على أرض الواقع. فكان كثير من موظفي الشركة وغيرهم من الأوروبيين الآخرين يدخلون في شراكة مع التجار الهنود المحليين أو الأرمن أو يأخذون منهم قروضاً للعمل في التجارة الآسيوية البينية. كما استغل البحارة الأوروبيون تقنياتهم الملاحية المتفوقة لدخول تجارة الشحن مع السفن المصنوعة محلياً، وفرضوا فرق قيمة لعملهم الأكثر كفاءة وأمانة.

كان من أبرز هؤلاء البحارة والتجار الخاصين توماس بت Thomas Pitt (١٦٥٣-١٧٢٦)، جد بت الأكبر، المعروف باسم دايموند [الماسة] بسبب حجر أتى به من الهند وباعه لدوق أورليانز في مقابل مئة وخمسة وعشرين ألف جنيه، وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت. بدا دايموند بت حياته المهنية رباناً لسفينة متطفلة، ثم ترقى إلى حاكم فورت سانت جورج في مدراس من العام ١٦٩٧ إلى العام ١٧٠٩، وكوّن ثروته عن طريق تنظيم عدة رحلات مربحة جداً لحسابه الخاص. وموّلت أرباحه من الهند شراء "القصبة المتعفنة" الشهيرة أولد ساروم(٤٢) التي دخل منها حفيده الأكثر شهرة وليام مجلس العموم في العام ١٧٣٥. ثمة تاجر خاص بارز آخر تولى في النهاية منصب حاكم مدراس، هو إلياهو يل Elihu Yale (١٦٤٩-١٧٢١) الذي استخدم جزءاً من الثروة التي جمعها في العام ١٧٠١ كوقف لمؤسسة تعليمية شهيرة في كونيكتيكت لا تزال تحمل اسمه إلى الآن(٤٣). على أن ازدهار مدراس لم يكن يعتمد فقط على تصدير المنسوجات القطنية من ساحل كوروماندل، بل أيضاً على نقل السلع من البنغال وبورما وسيام والصين إلى الساحل الغربي للهند، وإلى البحر الأحمر والخليج العربي. وقد أدى تأسيس كلكتا وفورت وليام إلى تحويل تجارة البنغال المربحة إليهما، ولذلك بدأت حظوظ مدراس تتراجع. وشهدت كلكتا ازدهاراً مدهشاً بعد انتصار كلايف، فأخذ التجار الخاصون الإنجليز يسافرون بأعداد متزايدة، ليس إلى كانتون مباشرة وحسب، بل أيضاً لجمع حمولات ثمينة من القصدير والتوابل من مستوطنة بينانغ(٤٤) البريطانية الجديدة التي تأسست في العام ١٧٨٦ ومركز بينكولين Bencoolen الأقدم في سومطرة أيضاً[١١٩].

---

(٤٢) أولد ساروم أو ساروم القديمة Old Sarum بلدة تقع على تل على بعد نحو ميلين من سالسبيري الحديثة. والقصبة المتعفنة بلدة أو دائرة برلمانية في المملكة المتحدة عدد ناخبيها صغير جداً ويمكن أن يستخدمها صاحبها للحصول على معقد برلماني غير مستحق في مجلس العموم قبل إصلاحه في العام ١٨٣٢، عن طريق رشوة سكانها القليلين [المترجم].

(٤٣) جامعة يل Yale بالتأكيد [المترجم].

(٤٤) بينانغ Penang ولاية وجزيرة في شبه جزيرة ماليزيا تقع على مضيق مالاكا [المترجم].

نختتم هذا القسم بلفت الانتباه مرة أخرى إلى القطيعة الأساسية التي حدثت في العلاقة بين الهنود والشركات الأوروبية بعد بلاسي وضم البريطانيين للبنغال. فحتى ذلك الوقت كانت الشركات مضطرة لأن تتنافس فيما بينها ومع الطلب المحلي الكبير في الأسواق على المنسوجات القطنية والحرير الطبيعي والنيلة والملح الصخري وكل الأشياء الأخرى التي تسعى لشرائها. وأياً كانت تخفيضات الأسعار التي تتلقاها، فإنها كانت ناتجة عن حجم طلباتها ورغبة الموردين في الاحتفاظ بعلاقات طويلة المدى مع العملاء المهمين. وفي عهد شاه جهان وأورانكزيب وحتى خلفائهم الأضعف حتى العقد السادس من القرن الثامن عشر لم تكن هناك إمكانية حقيقية لاستخدام القوة لإجبار الوكلاء المحليين في أية صفقة. قدمت أم براكاش Om Prakash حجة استنتاجية معقولة مؤداها أنه نظراً لأن نمو الطلب على المنسوجات القطنية في أوروبا كان أسرع من قدرة الهند على التوريد، فإن شروط التبادل التجاري كانت تتحول بذلك في غير صالح الشركات الأوروبية ولصالح التجار والنساجين الهنود[١٢٠]. تلقى هذه الفرضية بعض الدعم من مؤشر أسعار الواردات لشركة الهند الشرقية البريطانية عند شوظوري الذي ارتفع بشدة من ١٠٠ في العام ١٦٦٤ إلى ١٥٥ في العام ١٧٠٥ وظل فوق حاجز المئة بدرجة كبيرة حتى نحو العام ١٧٢٥[١٢١]. وذلك يشير إلى أن نمطاً من النمو السريع للطلب في أوروبا، دفع الأسعار لأعلى في البداية، إلى أن أدت الاستجابة بالعرض الزائد إلى تراجع الأسعار مقتربة من مستوياتها الأولية. ومع العرض الوفير للعمالة الماهرة وعدم وجود أدلة على ندرة الأرض في ذلك الوقت، فمن المفترض أن منحنيات العرض للمنسوجات القطنية كانت مرنة جداً، إن لم تكن مرنة بالكامل، على المدى البعيد، ولذلك عادت في النهاية إلى الأسعار الأولية.

في تلك الفترة ما قبل الاستعمارية من العام ١٦٠٠ إلى العام ١٧٥٠، كانت الهند ناجحة في تجارتها مع أوروبا من خلال وساطة الشركات الأوروبية، واستغلت ميّزتها النسبية القوية في المنسوجات القطنية للحصول على تدفقات الفضة التي كانت تحتاجها لدعم وتوسيع قاعدتها النقدية على أساس علاقات السوق التنافسية. لكن بعد معركة بلاسي، أصبحت الشركة الإنجليزية تسيطر على البنغال وتمتلك جيشاً لا يقل

عن مئة وخمسة عشر ألف جندي (معظمهم من الجنود الهنود بقيادة ضباط إنجليز) قادراً على فرض الاحتكار واحتكار الطلب(٤٥) على كل من التجار المحليين والشركات الأوروبية المنافسة على ساحل كوروماندل وجنوب الهند أيضاً[١٢٢]. ربما كان الاحتكار الأبشع بينها جميعاً هو احتكار الأفيون في البنغال[١٢٣]. علاوة على أن عائدات البنغال لم توقف التدفق السنوي السابق للفضة من الشركة إلى الهند وحسب، بل عكست هذا الاتجاه، فيما أسماه الكُتاب القوميون الهنود "استنزاف" المعادن النفيسة خارج البلاد لشراء الشاي من الصين أو كأرباح لإنجلترا. ويمكن التعرف على أهمية ذلك لبريطانيا من النتيجة الأخيرة التي توصل إليها كوينكا استيبان بناء على فحص إحصاءات ميزان المدفوعات البريطاني، وهي أنه "لولا الاعتمادات المتراكمة من تحويلات الهند منذ العام ١٧٥٧ لتضرر تمويل بريطانيا للحرب البرية في أثناء الحروب الفرنسية كثيراً"، وهو تأكيد آخر على دور الوفرة في الحفاظ على القوة في تلك الفترة[١٢٤].

جنوب شرق آسيا ونهاية عصر التجارة

شهد النصف الثاني من القرن السابع عشر- كما جاء في الفصل السابق- توكيد الهولنديين لاحتكارهم لتجارة القرنفل وجوز الطيب. ولذلك فمن المؤكد أن شركة الهند الشرقية الهولندية كانت من الناحية العسكرية والسياسية في وضع مواتٍ لتحسين أرباحها. لكن من منظور الحساب الاقتصادي للتكلفة والعائد كانت الصورة مختلفة تماماً. فقد ارتفعت التكاليف العسكرية والإدارية دون حدوث ارتفاع مقابل في العائدات والأرباح نتيجة لغياب الحوافز لدى الفلاحين المحليين والتجار والحكام لتوليد مزيد من الإنتاج والتجارة بسبب السيطرة الاحتكارية للشركة واتباعها سياسة التسليم الإجباري. وكان سوق التوابل في أوروبا قد بدأ أيضاً في التشبع بحلول النصف الثاني من القرن السابع عشر. وفيما كانت الشركات في البداية تطلب المنسوجات القطنية الهندية كمجرد وسيلة

---

(٤٥) راجع حاشية سابقة حول احتكار الطلب [المترجم].

للحصول على التوابل، غدت هذه المنسوجات المطلب الأول في الأسواق الأوروبية، ووجدت شركة الهند الشرقية الهولندية صعوبة متزايدة في منافسة خصمها الإنجليزي في هذا المجال الدينامي من مجالات التجارة العابرة للقارات.

يعتبر أنتوني ريد Anthony Reid منتصف القرن السابع عشر "حداً فاصلاً" في تاريخ المنطقة، حيث توقفت الاتجاهات الإيجابية التي أطلقها التوسع التجاري في وقت سابق، أو انقلبت تماماً، بفعل الركود الناتج عن "أزمة القرن السابع عشر" العالمية التي تعمقت في هذه المنطقة بسبب السياسات القمعية للشركة الشرقية الهولندية. يحظى رأي ريد بالقبول فيما يتعلق بالعالم الملايوي – الإندونيسي، في حين يرفضها فيكتور ليبرمان Victor Lieberman فيما يتعلق بدولة بورما ويرفضها ظيرافات نا بومبيجرا Dhiravat na Pombejra فيما يتعلق بدولة سيام، اللتين تقعان على البر الرئيس[١٢٥]. فيذهب ليبرمان- كما رأينا- إلى أن المملكة البورمية لما يسمى "سلالة تونغنغو المعادة إلى السلطة"، على الرغم من أنها نقلت عاصمتها من بيغو في دلتا إيراوادي إلى آفا الأبعد إلى داخل البلاد، ظلت قادرة على جمع عائدات من الضرائب واحتكار التجارة في الساحل لإكمال قاعدتها الضريبية الزراعية من المنطقة الداخلية، إلى جانب مشاركتها النشطة في التجارة البرية مع الصين. ولذلك واصلت هذه المملكة التوسع من حيث الناتج والسكان وحشد الموارد العسكرية، ما مكّنها من فرض نفوذها وتوسيعه إلى مناطق بعيدة دون إعاقة جدية، إلى أن أطيح بها في العام ١٧٥٢. وفي خط فكري مماثل، يدفع بومبيجرا بأن مملكة أيوثايا، مع أنها تحررت من الارتباطات التجارية مع الفرنسيين والهولنديين والبريطانيين، فقد واصلت التجارة بقوة مع اليابان والصين والهند والعالم الإسلامي، ما يدحض مجدداً فرضية الحد الفاصل إبان القرن السابع عشر. ومن أجل ذلك كله سنلقي فيما يلي نظرة عن قرب على هاتين الدولتين الآسيويتين القويتين، ونعود بعد ذلك إلى جزر جنوب شرق آسيا لنرسم صورة لتراجعها النسبي في تلك الفترة.

ركز الحكام البورميون في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بالدرجة الأولى على تعزيز إدارتهم الداخلية وطرد جيرانهم على حدود سيام

ويونان ومانيبور. وإبان العقد الخامس من القرن الثامن عشر، نجحت ثورة من جانب المونيين في بورما الدنيا في طرد حكامهم البورميين والاندفاع شمالاً والاستيلاء على العاصمة آفا نفسها في العام ١٧٥٢، وبذلك انتهت دولة تونغنغو. تصدى زعيم قروي لمقاومة الاحتلال الموني، وأظهر قدرات استثنائية في القيادة السياسية والعسكرية، ووحد السكان المحبطين وبقايا قوات آفا لمقاومة الغزاة. فاسترد آفا في العام ١٧٥٣، ونجح أخيراً في طرد المونيين إلى بورما الدنيا، وحمل اسم ألونغبايا Alaungpaya (بمعنى "بوذا المستقبلي")، وحكم حتى وفاته في العام ١٧٦٠، باعتباره مؤسس سلالة كونبونغ Konbaung التي كانت آخر من حكم بورما قبل استيلاء البريطانيين عليها في العام ١٨٨٥.

تزامن صعود ألونغبايا للسلطة مع التحضير لحرب السبعة أعوام، وبسبب الطبيعة العالمية لذلك النزاع تورطت بورما فيه بشكل غير مباشر. فدوبلكس الذي كان يبحث عن أية فرصة للاصطياد في الماء العكر، إذا كانت تفيده ضد الإنجليز، تبادل بعثات دبلوماسية مع المونيين على أمل أن يجد حليفاً طيعاً يمتلك ميناءً طبيعياً ممتازاً وتسهيلات بناء السفن في سيريام، وهو الميناء الذي اتخذه فيليب دي بريتو البرتغالي قاعدة له في العام ١٥٩٩، ما يمكّنه من تطويق البريطانيين في البنغال. وعمل ممثله سير دي برونو Sieur de Bruno مستشاراً عسكرياً للمونيين وكانت السفن الحربية الفرنسية تطلق النار على الزوارق الحربية البورمية في المعارك حول سيريام وداغون Dagon. واستولى ألونغبايا على المدينة الأخيرة في العام ١٧٥٥، وأطلق عليها اسم رانغون Rangoon (بمعنى "نهاية النزاع")، ونزل إلى دلتا إيراوادي لنقل الحرب إلى وطن الأجداد المونيين. وعندما حوصر الفرنسيون مع المونيين في سيريام، أُرسِلت حملة مكونة من ثلاث سفن حربية من بونديشيري لنجدتهم. لكن لسوء حظ الفرنسيين، استولى ألونغبايا على السفن الحربية وأخذ أسلحتها وبنادقها لجيشه وأجبر أطقمها وضباطها الصغار على العمل على المدافع وقطع رقاب الضباط الاثني عشر الكبار، ومن بينهم سير دي برونو. وأحدثت الأسلحة والأطقم الفرنسية تحسناً كبيراً في نوعية المدفعية البورمية ضد المونيين، وأيضاً في النزاعات اللاحقة مع السياميين والمانشو، التي استخدمت فيها

كقوات خاصة. ويذكر هارفي Harvey أن أحد هؤلاء الفرنسيين، وهو شافليار ميلارد Chevalier Milard، أصبح قائد الحرس وقائد المدفعية لدولة كونبونغ، بينما قضى كثيرون منهم بقية حياتهم في القرى الداخلية البورمية "بعيداً عن منحدرات بريتون والنساء اللاتي كن ينتظرن عودتهم دون جدوى"، لكن ربما قدمت لهم زوجاتهم البورميات بعض العزاء[١٢٦].

استولى ألونغبايا على سيريام وبيغو وأنزل الموت والخراب بالمونيين، قبل أن يحوّل انتباه البورميين مرة أخرى إلى أيوثايا، ذلك الهدف السيامي الثمين. لكنه مات صغيراً في عمر السادسة والأربعين في العام ١٧٦٠ قبل أن يتمكن من الاستيلاء عليها، لكنها سقطت في العام ١٧٦٧ أمام ابنه هسينبيوشين Hsinbyushin (بمعنى "سيد الفيل الأبيض" ١٧٦٣-١٧٧٦) الذي دمر المدينة تماماً، وعاد بآلاف الأسرى إلى بورما. وكان من الإنجازات البارزة والبنّاءة للأسلحة البورمية هزيمة الغزوات المتكررة لبورما من جانب المانشو في أواخر العقد السابع من القرن الثامن عشر التي نتجت عن الخلافات الحدودية في دول الشان(٤٦). وتلا ذلك استئناف العلاقات الدبلوماسية الودية والتجارة البرية المكثفة بين الدولتين التي دامت حتى الغزو البريطاني[١٢٧]. ونجح حاكم آخر من أبناء ألونغبايا هو بوداوبايا Bodawpaya (١٧٨٢-١٨١٩) في توسيع إمبراطوريته البورمية الثالثة إلى أوسع مدى في تاريخ البلاد[١٢٨]، بضم أراكان ومانيبور إلى فتوحات أبيه وأخيه، لكنه بذلك وقع في خطر مواجهة دولة غازية كبرى أخرى، هي شركة الهند الشرقية البريطانية المسيطرة على مقاطعتي البنغال وآسام المجاورتين.

بدأت شركة الهند الشرقية الهولندية عملياتها في سيام بعد فترة قصيرة من دخولها في المياه الشرقية في أوائل القرن السابع عشر، لكن قدرتها توقفت عند حد الاستيلاء على موطئ قدم لها قبل عهد الملك براسات ثونغ Prasat Thong (١٦٢٩-١٦٥٦) الذي حصل منه الهولنديون على تنازلات ثمينة للتجارة في جلود الأيل والقصدير، في مقابل مساعدته بحرياً ضد الدول البورمية والملايوية. كان التجار الآسيويون من غير

(٤٦) دول الشان shan states إمارات حكمت مناطق واسعة من دولة بورما الحالية ومقاطعة يونان الصينية ولاوس وتايلند من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين [المترجم].

السكان المحليين أكثر نفوذاً في سيام من الأوروبيين في تلك الفترة. وكان اضطهاد شوغونية توكوغاوا للمسيحيين اليابانيين قد دفع كثيرين منهم إلى اللجوء إلى جنوب شرق آسيا، وكان من هؤلاء الساموراي المسيحيين شخص يدعى يامادا ناغاماسا Yamada Nagamasa، أصبح رئيس الحرس الملكي في سيام، ولعب دوراً مهماً في صراع الخلافة في وقت لاحق من القرن السابع عشر. وكان النفوذ الفارسي قوياً أيضاً في بلاط أيوثايا، ويعتقد أنه لعب دوراً فعالاً في وصول الملك ناراي Narai (١٦٥٦-١٦٨٨) إلى السلطة، وهو أكثر الملوك السياميين تأثيراً في "حركة التغريب" قبل القرن التاسع عشر.

حصل مستشارو ناراي الفرس في العام ١٦٦٢ على احتكار ملكي لكل تجارة ما وراء البحار، ما فرض صعوبات على الهولنديين الذين وجدوا أنفسهم أيضاً في مواجهة منافسة متزايدة من التجار الأوروبيين والآسيويين الخاصين، فضلاً عن شركة الهند الشرقية الإنجليزية. كانت الشركة البريطانية تضم موظفاً يونانياً شاباً في غاية الموهبة والطموح اسمه قسطنطين فولكون Constantine Phaulkon جاء إلى سيام في العام ١٦٧٨ وساعدته إجادته السريعة للغة التايلندية على الاتصال بالملك ناراي حين عمل مترجماً له. ثم دخل الخدمة الملكية وسرعان ما أعطاه الملك السيطرة على كل العلاقات التجارية الخارجية والسياسة الخارجية للمملكة، وصعد في النهاية إلى قمة الإدارة المدنية حين تولى منصباً مكافئاً لرئيس الوزراء. قضى فولكون على نفوذ الزمرة الإسلامية في البلاط، وبنى صلات وثيقة مع شركة الهند الشرقية الفرنسية، حين دخلت في علاقات دبلوماسية وتجارية مع البلاط السيامي، وحين أرسلت بعثة تبشيرية يسوعية فرنسية. وتبادلت أيوثايا السفارات مع باريس التي أرسلت فرقة كبيرة من القوات الفرنسية في العام ١٦٨٧ بحجة حراسة مركزها التجاري، لكنها بدلاً من ذلك استولت على مواقع في بانكوك، كانت قريبة من العاصمة نفسها لدرجة تبعث على القلق. فأثار ذلك قلق الزمرة المحلية بالبلاط التي ارتابت، وربما كانت محقة، في أن فولكون كان يخطط للسيطرة على الدولة وناراي المنحوس نفسه بالتآمر مع الفرنسيين. فضربوا ضربتهم سريعاً بأسر فولكون وإعدامه قبل أن يموت ناراي بالمرض بعدها بقليل. ثم اغتصب قائد الانقلاب العرش، وسحب الفرنسيون فرقتهم دون الدخول في أية أعمال عدائية.

وبعدها تجنب البلاط السيامي أية اشتباكات مع القوى الأوروبية، إلى أن أصبحت حتمية إبان القرن التاسع عشر. ومع ذلك، واصلت التجارة الخارجية العمل بنشاط، وبخاصة مع الصين واليابان. وكانت معظم هذه التجارة من نوع سلع المحطات التجارية، وكانت أيوثايا القناة لصادرات جنوب شرق آسيا في مقابل الواردات الصينية واليابانية إلى المنطقة. واكتسب تصدير الأرز من سيام إلى جنوب الصين أهمية خاصة على مدار القرن الثامن عشر، وبرز المهاجرون الصينيون والأسر ذات الأصول الصينية في كل من التجارة والبيروقراطية المدنية، حيث تنافسوا على النفوذ مع عشائر كبيرة أخرى من أصول أجنبية، منهم "البرهمن" Brahmins والفرس"[١٢٩]. وكان انتباه البلاط في ذلك الوقت منصباً على العلاقات مع لاوس وكمبوديا، ولذلك لم يكن مستعداً تماماً للهجوم البورمي بقيادة ألونغبايا وخلفائه إبان العقد السابع من القرن الثامن عشر.

وكما حدث في حالة نارسون بعد باينونغ(٤٧)، تعافى السياميون سريعاً مرة أخرى بزعامة قائد كاريزمي، لم يكن في هذه المرة ولي العهد السيامي، وإنما حاكم إقليمي نصف صيني يدعى فراي تاكسين Phray Taksin. أنشا تاكسين عاصمته في ثونبوري Thonburi على الجانب الآخر للنهر من بانكوك واستخدم اتصالاته مع جماعة توشيو Teochiu الصينية التجارية فيما وراء البحار التي ينتمي إليها أبوه لتمويل مقاومته للبورميين. وفي غضون ثلاثة أعوام كان قد استرد كل أراضي أيوثايا المفقودة وتُوِّج ملكاً[١٣٠]. ثم فقد عقله وأخذ يمارس أفعالاً تدنيسية وقاسية، ما أزعج البلاط ورجال الدين البوذيين الأقوياء، فخُلِع وأُعدِم في العام ١٧٨٢ في نهاية مؤسفة لبطل قومي. ثم وصلت إلى السلطة سلالة جديدة نصف صينية كانت تتمتع بارتباطات أسرية قوية مع كل الفئات المختلفة بالبيروقراطية، وهي سلالة تشاركي Chakri التي لا تزال تحكم حتى اليوم. كان الملك راما الأول Rama I مؤسس هذه الدولة صهر تاكسين. ونقل العاصمة بشكل دائم أسفل النهر إلى بانكوك الأقرب إلى البحر والعالم الخارجي، في تناقض صريح مع التحرك البورمي السابق من بيغو الساحلية إلى آفا

(٤٧) تذكر أن باينونغ هو مؤسس أقوى إمبراطورية بورمية، وأنه بعد أن تهاوت هذه الدولة، أعادها ولي العهد السيامي الشاب نارسون إلى سابق قوتها [المترجم].

الداخلية. وعلى ذلك، فإن البورميين حين دمروا أيوثايا صنعوا في الحقيقة جميلاً غير مقصود في السياميين، كانت له نتائج تاريخية كبرى.

نتحول أخيراً وسريعاً إلى حرب فيتنام بين النغيون Nguyen الجنوبيين والترنه Trinh الشماليين، لنجد أن الحرب استنزفت الدولتين، واندلعت إبان العقد الثامن من القرن الثامن عشر ثورة عارمة بين الفلاحين تُعرَف بثورة تاي سون Tay Son أوشكت أن تقضي على الدولتين. فقد هزم نغوين أنه Nguyen Anh الثوار وهم على حافة النصر بمساعدة رجل دين فرنسي يدعى بيغنيو دي بيهين Pigneau de Behaine. وأعاد نغوين أنه وحدة الدولة الفيتنامية، وحكم باسم الإمبراطور غيا لونغ Gia Long بداية من العام ١٨٠٢. وكما هي الحال مع الأسر الحاكمة الجديدة في سيام وبورما، كانت إمبراطورية تشينغ تحصل على الجزية والولاء في مقابل منح الاعتراف. واستمرت سلالة نغوين حتى العام ١٩٥٥، حين خُلِعَ الملك باو داي Bao Dai وأُعلِنت جمهورية فيتنام التي كان نغو دينه ديم التعس أول رئيس لها[٤٨].

وبعد أن استعرضنا التطورات الأساسية على البر الرئيس، نعرض فيما يلي سير الأحداث في الأرخبيل. بحلول العقد الثالث من القرن الثامن عشر، كانت دولة جوهور كحليف لشركة الهند الشرقية الهولندية قد أصبحت الدولة المحلية المهيمنة في منطقة المضايق وكانت عاصمتها في ميناء رياو Riau تشبه المراكز التجارية الإسلامية في مالاكا القديمة. وظهر عنصر جديد على المشهد السياسي الملايوي في ذلك الوقت، هو دور اللاجئين البوغيزيين والماكاساريين من سولاويزي الذين طردهم الحكم الدكتاتوري لأرونغ بالاكا الذي قابلناه في الفصل السابق. اعتمدت هذه الجماعات على مهارتها التقليدية في كل من الحرب والتجارة لشق طريقها على شبه الجزيرة كمغيرين ومرتزقة وتجار ومستوطنين،

(٤٨) نغو دينه ديم Ngo Dinh Diem أول رئيس لفيتنام الجنوبية، أيدته الولايات المتحدة في حربها ضد شمال فيتنام الشيوعية، ولما تأكد لهم فشله في حرب الشيوعيين وقمع المعارضين، رعت انقلاباً عليه من جنرالات الجيش الذين أعدموه في الأول من نوفمبر ١٩٦٣ [المترجم].

على نحو يشبه كثيراً حالة الفايكنغ في أوروبا بالقرب من نهاية الألفية الأولى. لم تتمكن هذه الجماعات نظراً لأنها غريبة عن البلاد أن تحظى بالشرعية كحكام مستقلين للدول الملايوية، لكنهم في جوهور أصبحوا ملوكاً ثانويين يعرفون باسم يانتوان مودا Yantuan Mudas، جمعوا في أيديهم السلطة الفعلية. وحدث سقوط البوغيزيين حين تجاوزوا قدراتهم بمحاولة الاستيلاء على مالاكا من شركة الهند الشرقية الهولندية في العام ١٧٨٤، حين هزمهم أسطول من هولندا وقتل قائدهم. وأُجبر جميع البوغيزيين على مغادرة رياو وجوهور ودولة سيلانغور Selangor المجاورة التي كانت لفترة قصيرة تحت السيطرة الهولندية. لكن شركة الهند الشرقية الهولندية كانت حينذاك في أيامها الأخيرة بسبب الأحداث الحاسمة في أوروبا (راجع الفصل السابع)، وسرعان ما طردهم من رياو هجوم من القراصنة من بحر سولو Sulu Sea، فترك الهولنديون الميناء والضواحي في حالة فوضوية، كانت المقدمة لما أسماه أندايا وأندايا Andaya and Andaya "زوال دولة المحطة التجارية الملايوية"[١٣١].

لم يتمتع وسط جاوة وشرقها بالسلم أو الازدهار إبان القرن الثامن عشر. فشركة الهند الشرقية الهولندية كانت تحتاج إلى دولة دُمية طيعة في داخل الجزيرة، بما يسمح لها بالتركيز على التجارة في باتافيا وعلى طول الساحل. لكنهم لسوء الحظ وجدوا أن دعمهم للأمراء التابعين لهم ضد ادعاءات المنافسين والثوار المتنوعين أمر مكلف لهم ويستنزفهم من حرب دموية إلى أخرى في عمليات الخلافة المتتابعة. وتوصلوا أخيراً إلى تسوية بتقسيم ماتارام إلى بلاطين منفصلين في غونجاكارتا Jongjakata وسوراكارتا Surakarta مع تعيين حكام محليين مستقلين تحت رقابة مقيمين هولنديين، وتركوا لأنفسهم الإدارة المباشرة لباتافيا والسواحل. وأرادوا أن يمارسوا السيطرة على إنتاج القهوة والسكر والنيلة والمحاصيل النقدية الأخرى في أجزاء معينة بداخل الجزيرة، ولذلك اعتمدوا على الإكراه والرقابة الإدارية على طبقة الفلاحين، بدلاً من حوافز الأسعار. وفي هذه الأثناء وقعت اضطرابات في باتافيا في العام ١٧٤٠، ربما تآمر فيها الهولنديون

أنفسهم، أدت إلى ذبح عشرات الآلاف من الصينيين، وتلتها ثورة تسببت هي الأخرى في أضرار كبيرة وخسائر جديدة في الأرواح، قبل أن تُقمَع. فيما جاء النصف الثاني من القرن الثامن عشر عموماً أكثر سلاماً وأمناً، لكن كل من شركة الهند الشرقية الهولندية وجاوة كانتا في حالة ركود واضحة. يقول ريكليفز Ricklefs عن هذه الحقبة إنه "في وسط الفساد وعدم الكفاءة والأزمة المالية كانت هذه الإمبراطورية الهولندية الأولى في إندونيسيا تدخل في حالة من السبات"[١٣٢].

كان البريطانيون بالطبع المستفيدين الحقيقيين من كل هذه التطورات التي لم يلعبوا فيها مطلقاً أي دور مباشر. وقد أدى احتلال شركة الهند الشرقية البريطانية للبنغال - كما رأينا - إلى توسع سريع في التجارة الخاصة[٤٩] البريطانية مع الصين، لأن الشركة كانت تلتقط أية فرصة تلوح في المضايق على طول الطريق. وكانت جزيرة بينانغ التي أجرها لشركة الهند الشرقية البريطانية في العام ١٧٨٦ سلطان كيداه على أمل نيل الحماية البريطانية ضد ادعاءات سادته السياميين التقليديين التي أصبحت سلالة تشاركي الجديدة تعلنها صريحة، كانت مكاناً مفيداً لتبادل القطن والأفيون البنغاليّين مع القصدير والمنتجات الأخرى الملايوية التي كانت تحظى بمكانة كبيرة في كانتون في مقابل الشاي، وكانت تصلح أيضاً كقاعدة بحرية. وأجَّر البريطانيون أيضاً المنطقة المقابلة للجزيرة على البر الرئيس في العام ١٨٠٠ وأطلقوا عليها اسم مقاطعة ويلسلي[٥٠]، وهي ريشة أخرى في قبعة تلك الأسرة الشهيرة. وأدى الطلب على القصدير إلى الازدهار في شبه الجزيرة الملايوية التي كان يتوفر فيها بكثرة، وبخاصة في دولة بيراك Perak، ما قدم حافزاً

(٤٩) التجار الدوليون الخاصون private country traders أو التجار الخاصون هم التجار الإنجليز الذين مارسوا التجارة حول سواحل الهند وداخل آسيا نفسها، في مقابل شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي احتكرت التجارة بين آسيا وأوروبا، وكان تمويل تجارتهم يأتي في الغالب من موظفي الشركة أنفسهم [المترجم].

(٥٠) تذكر أن الحاكم العام الإنجليزي- الأيرلندي ريتشارد ويلسلي- المركيز ويلسلي لاحقاً- لعب دوراً كبيراً في ترسيخ أقدام شركة الهند الشرقية البريطانية في الهند، وأن أخاه الأصغر آرثر عمل بالشركة وأبلى بلاء حسناً فيما بعد في معركة وترلو، وحصل على لقبي دوق ولينغتون ومُظَفّر وترلو [المترجم].

إضافياً للهجرة من المقاطعات الصينية الجنوبية التي كانت المصدر لمعظم الخبرة التجارية والتقنية في هذه الصناعة. وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية في وضع لا يسمح لها بالاستفادة من هذه التجارة، لأن الاحتلال الفرنسي لهولندا أجبر وليام الخامس على الفرار إلى إنجلترا ووضع الممتلكات الهولندية في الشرق الأقصى في أيدي الإنجليز إلى أن يتمكن من العودة إلى بلاده.

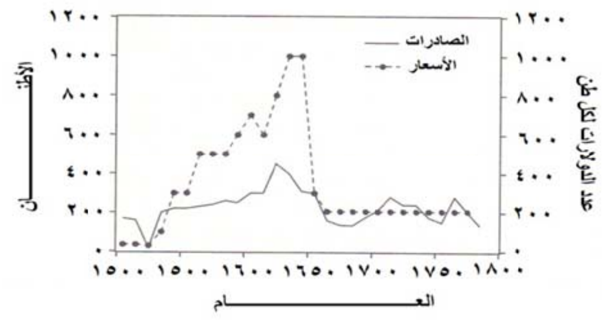
الجدول رقم (٥,٦). صادرات الفلفل من جنوب شرق آسيا إبان الفترة ١٦٥٠–١٧٨٩ (بالأطنان).

السنة	أوروبا والشرق الأوسط	الصين	الهند واليابان وأمريكا	الإجمالي
١٦٥٠- ١٦٥٩	٢٢٠٠	٤٠٠	١٤٠٠	٤٠٠٠
١٦٦٠- ١٦٦٩	٢٩٠٠	٥٠٠	١٥٠٠	٤٩٠٠
١٦٧٠- ١٦٧٩	٤٥٠٠	٥٠٠	١٥٠٠	٦٥٠٠
١٦٨٠- ١٦٨٩	٢٦٠٠	٦٠٠	١٥٠٠	٤٧٠٠
١٦٩٠- ١٦٩٩	٢٦٠٠	١٣٠٠	١٤٠٠	٥٣٠٠
١٧٠٠- ١٧٠٩	١٨٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠	٤٨٠٠
١٧١٠- ١٧١٩	١٩٠٠	١٢٠٠	١٥٠٠	٤٦٠٠
١٧٢٠- ١٧٢٩	٣٦٠٠	٩٠٠	١٥٠٠	٦٠٠٠
١٧٣٠- ١٧٣٩	٣٠٠٠	١١٠٠	١٦٠٠	٥٧٠٠
١٧٤٠- ١٧٤٩	٣٦٠٠	٨٠٠	١٦٠٠	٦٠٠٠
١٧٥٠- ١٧٥٩	٢٣٠٠	١٠٠٠	١٦٠٠	٤٩٠٠
١٧٦٠- ١٧٦٩	٢٧٠٠	١٢٠٠	١٧٠٠	٥٦٠٠
١٧٧٠- ١٧٧٩	٢٤٠٠	١٩٠٠	١٨٠٠	٦١٠٠
١٧٨٠- ١٧٨٩	٢١٠٠	٢١٠٠	١٩٠٠	٦١٠٠

المصدر: Bulbeck et al. (1998, table 3.7, p. 86)

لكن ماذا عن التجارة في تلك الفترة وزعم ريد بأن منتصف القرن السابع عشر شكل حداً فاصلاً في أرخبيل جنوب شرق آسيا، إذ كان نقطة النهاية لعصر التجارة الذي بدأ قبل ربع ألفية؟ يبيّن الجدول رقم (٥,٦) أن صادرات الفلفل واصلت النمو حتى العقد الثامن من القرن السابع عشر، لكنها تراجعت بعد ذلك ولم تستعد هذا المستوى المرتفع حتى العقد التاسع من القرن الثامن عشر. واستقرت الصادرات إلى

الهند واليابان وأمريكا عند مستواها السابق، بينما ارتفعت الصادرات إلى الصين بعد العقد الثامن من القرن السابع عشر، وانخفضت الصادرات إلى أوروبا، ربما نتيجة للممارسات الاحتكارية الهولندية. ويقدم الشكل رقم (٥,١) أدلة أقوى على تأثير الاحتكار الهولندي على اقتصاد جنوب شرق آسيا، حيث ارتفعت صادرات القرنفل الإندونيسية من العقد الأول من القرن السادس عشر (حين كانت مئة وسبعين طنا) إلى العقد الثالث من القرن السابع عشر (حيث بلغت أربعمئة وخمسين طنا). وبالتزامن مع ذلك انفجرت أسعار بيع القرنفل في جنوب شرق آسيا من خمسة وثلاثين دولاراً للطن إلى ألف دولار للطن، وهو ارتفاع مذهل حتى في سياق ثورة الأسعار التي ناقشناها في الفصل الرابع. لكن الأسعار الإندونيسية انهارت إبان العقد السادس من القرن السابع عشر مع توسيع الهولنديين لسيطرتهم، فوصلت إلى مئتين وستة دولارات للطن إبان العقد السابع من القرن السابع عشر، ولم يتغير هذا الرقم حتى العقد التاسع من القرن الثامن عشر. على أن هذا الانهيار في الأسعار لم ينتج عن زيادة العرض، لأن الصادرات تراجعت بشدة، وإنما نتج عن سيطرة الهولنديين على احتكار الطلب الذي عَرَّفناه في موضعٍ سابق. ربما كان الضغط الاحتكاري لأسعار الشراء المنخفضة للمحاصيل النقدية مقترناً بارتفاع أسعار بيع المواد الغذائية والمنسوجات، أحد العوامل التي دفعت الفلاحين الملايويين - الإندونيسيين المنتجين إلى العودة إلى الإنتاج التَعَيُّشي خلال تلك الفترة، وهو عكس ما حدث في الثورة الدؤوب في أوروبا.



الشكل رقم (٥,١). صادرات القرنفل الإندونيسية وأسعارها إبان الفترة ١٥٠٠–١٧٨٩.

المصدر: Bulbeck et al. (1998, table 2.15, pp. 58-59)

قد يعترض البعض بأن هذه البيانات لاثنتين فقط من السلع، ربما تكونان غير ممثلتين لاتجاه التجارة، لكن توجد أدلة أوسع على حدوث تراجع في ازدهار الأرخبيل في تلك الفترة. يوجد مؤشر مفيد جداً في البيانات حول واردات جنوب شرق آسيا من المنسوجات القطنية الهندية من ساحل كوروماندل وغوجارات والبنغال. والواردات من هذه الأقمشة الهندية "ذات الألوان الزاهية والنَسْج الرفيع" تشكل "أفضل مؤشر على الازدهار التجاري في المنطقة" وفقاً لريد[١٣٣]، لأن عائدات الصادرات من جنوب شرق آسيا كانت تنفق عليها بالدرجة الأولى. وقد ارتفعت واردات الأقمشة إلى ذروتها بين العامين ١٦٢٠ و١٦٥٠، وبلغت قيمتها خلال هذه الفترة ما يعادل زهاء ستين طناً من الفضة سنوياً، أي أربعة أضعاف حجمها في العام ١٥١٠[١٣٤]. ثم انخفضت إلى نصف هذا الحجم تقريباً إبان العقد التاسع من القرن السابع عشر بسبب السياسة الاحتكارية التقييدية لشركة الهند الشرقية الهولندية وتشبع السوق الأوروبي من الفلفل والتوابل الرفيعة. ومع أن دول البر الرئيس مثل بورما وسيام وكوشينشينا في عهد السلالات الجديدة النشطة تمكنت من الحفاظ على مستوى النمو السابق أو توسيعه بتغيير وجهة التجارة البرية وتجارة ما وراء البحار مع إمبراطورية تشينغ الصينية، فمن الواضح أن الفترة ١٦٥٠-١٨٠٠ كانت فترة ركود، إن لم يكن تراجعاً في المستويات المعيشية لسكان الجزر الإندونيسية الرئيسة ومعظم شبه جزيرة الملايو. ويرجع ريد إلى هذه الفترة "جذور الفقر في جنوب شرق آسيا"[١٣٥].

ثمة تحذيران حيال هذا التقييم السلبي يتعلقان بالصين. أولاً، وكما رأينا، كانت دول البر الرئيس هي التي تتاجر كثيراً مع الصين براً، وازدهرت نتيجة لتلك التجارة. وهنا كان الآسيويون يملكون زمام أمرهم بحزم. ويتعلق التحذير الثاني بالمشاركة الصينية في التجارة البحرية في تلك الفترة. فقد قمعت سلالة تشينغ- كما سنرى- المناطق الساحلية الصينية في البداية بلا رحمة، في صراعها ضد أنصار سلالة مينغ، ما أدى إلى تراجع حاد في التجارة والشحن. لكن بعد نحو العام ١٦٨٥، ازداد نشاط السفن والتجار والمستوطنين الصينيين كثيراً في جنوب شرق آسيا، وبخاصة في فيتنام والفلبين وسيام وكذلك في جاوة وسومطرة والدول الملايوية. وانتشرت الجماعات

المنفية الموالية لسلالة مينغ في كمبوديا وفيتنام. وأسست إحدى هذه الجماعات بقيادة سلالة ماك Mac دولة شبه مستقلة في ميناء هاتين Hatien على الساحل الشرقي لخليج سيام في أوائل العقد الأول من القرن الثامن عشر، لعبت دوراً بارزاً في التاريخ الفيتنامي. وكان الحضور الصيني - كما رأينا - واضحاً في كل من مانيلا وباتافيا، وكان الدور الضروري الذي لعبه الصينيون في اقتصاد المدينتين محل استياء المستعمرين الأوروبيين والشعوب المحلية على حد سواء. وطرد الإسبان كل التجار الصينيين من الفلبين في العام ١٧٥٥، وتركوا المجال مفتوحاً للصينيين- الفلبينيين المهجنين من الكاثوليك الرومان الذين كانوا يحملون أسماء إسبانية، ليصبحوا النخبة التجارية وفيما بعد النخبة المهنية والسياسية التي لا تزال موجودة إلى اليوم[١٣٦]. وفي إندونيسيا، أصبحت الزراعة الربحية لشركة الهند الشرقية الهولندية وللحكام المحليين نشاطاً آخر لرجال الأعمال الصينيين. وفي سيام، برز دور التجار الصينيين جلياً مع تغيير اتجاه التجارة بعيداً عن الغرب ونحو الصين مع نهاية القرن السابع عشر[٥١].

إمبراطورية مانشو

نعود الآن إلى الوسط الأوراسي الشاسع، من روسيا عبر آسيا الوسطى إلى الصين والشرق الأقصى. إن أحداً من شعوب ودول هذه الأقاليم لم يشارك مباشرة في "رحلات الاستكشاف"، لكنهم جميعاً واجهوا نتائجها عاجلاً أم آجلاً، سواء في شكل الضغط المتنامي من جانب القوى البحرية الأوروبية الغربية أو الإمكانات التجارية التي أطلقتها، كما في حالة تدفق الفضة من العالم الجديد الذي نوقش في الفصل السابق. والموضوع الرئيس الخاص بتفاعل الشرق والغرب عبر وسط أوراسيا الذي نتناوله هنا هو الاندفاع نحو المركز من الاتجاهين من جانب الدولتين الجديدتين القويتين اللتين ظهرتا على الطرفين: إمبراطورية مانشو تشينغ في الصين وموسكو في روسيا. لقد رأينا فيما سبق أن الصين وروسيا وقعتا فريسة للإمبراطورية المغولية، حيث خضعت الصين للحكم المباشر لسلالة يوان وأصبحت

---

(٥١) انظر وانغ (Wang, 1981, 2000) وسكنر (Skinner, 1996) للحصول على روايات متبصرة حول تكوين الجماعات "الكريولية" الصينية فيما وراء البحار في تلك الفترة.

روسيا دولة تابعة خاضعة للقبيلة الذهبية. طردت سلالة مينغ المحلية المغول في العام ١٣٦٨، لكنها لم تلاحقهم بعيداً داخل السهل بعد المحاولات المبكرة الفاشلة، واعتمدت بدلاً من ذلك على إستراتيجية دفاعية خلف سور الصين العظيم الذي شُيّد لمنع الغزوات المستقبلية من جانب بدو السهل. وقد غدا بمقدور إمبراطورية مانشو بعد سقوط إمبراطورية مينغ في العام ١٦٤٤ أن تبدأ "المشروع العظيم" للغزو والاستعمار في عمق آسيا الوسطى على حساب القبائل المغولية والتركية. وعلى الطرف المقابل، بدأت القوة المتصاعدة لدولة موسكو مهمتها الإمبريالية بغزو خانية قازان - كما رأينا - بقيادة إيفان الرهيب في العام ١٥٥٤، ما أدى إلى فتح الطريق إلى سيبيريا وثروات تجارة الفراء والمحيط الهادي. وكانت التجارة والحرب بين الإمبراطوريتين، وبينهما وبين القبائل المحلية، خيارات متاحة لإمبراطوريتين على خط الصدام. نتناول فيما يلي صعود إمبراطورية مانشو ثم نتحول إلى علاقاتها التجارية مع بقية العالم بحراً وبراً.

على خلاف الانطباع الشائع، لم يكن المانشو أنفسهم بدواً رعاة من السهول. فقد كان نظامهم الاقتصادي الأصلي يعتمد على مزيج من تربية الماشية والصيد والزراعة على الحدود الشمالية الشرقية للصين، وتعرضوا على مدى فترة طويلة للتأثيرات الثقافية للدولة الكبرى المجاورة التي كانوا تابعين لها. وهم ينتسبون إلى الجورجين الذين كانت منهم سلالة تشين التي حكمت شمال الصين- كما رأينا- من العام ١١٢٥ إلى العام ١٢٣٤، قبل أن يسقطها المغول. ويرجع الفضل إلى زعيمين بارزين، هما الزعيم القبَلي نورهاشي Nurhachi (١٦٠٧-١٦٢٦) وابنه أباهاي Abahai (١٦٣٥-١٦٤٣) (الذي عُرِف فيما بعد باسم هونغ تايجي Hong Taiji) في بناء آلة عسكرية قوية، كانت تُموَّل جزئياً من التجارة المربحة في الفراء وجذور الجنسة الطبية التي توفرت لهم بفضل موقعهم على الحدود الشمالية الشرقية للصين[٥٢]. وقد استخدما هذه القوة لغزو كوريا وإخضاع معظم منغوليا الداخلية. وفي النهاية، استعانوا بقوات مساعِدة مغولية وجنرالات منشقين عن

(٥٢) تاريخ البداية لعهد هذين الزعيمين هو التاريخ الذي أصبح كل منهما فيه خاناً.

إمبراطورية مينغ لاستغلال الحرب الأهلية في الصين للاستيلاء على بكين في العام ١٦٤٤ ثم الصين كلها بحلول العقد التاسع من القرن السابع عشر بعد إخماد مقاومة أنصار سلالة مينغ في يونان وجنوب الصين وتايوان.

حافظت سلالة تشينغ على هويتها الثقافية المنفصلة كنخبة حاكمة بمنع التزاوج بين المانشو والصينيين، لكنهم تبنوا المؤسسات الصينية التقليدية في إدارة إمبراطوريتهم التي كانت تقوم بالدرجة الأولى على الطبقة المتعلمة الصينية. فكل وزارة أو إدارة كانت تديرها قيادة "ثنائية" تضم موظفاً من المانشو وموظفاً صينياً، بغرض تحقيق التوازن بين الخبرة الفنية للصينيين والولاء الأكبر المفترض للمانشو. وفي كثير من النواحي، كان المانشو باعتبارهم دخلاء على الحضارة الراقية المهيمنة في شرق آسيا مضطرين لأن يكونوا "صينيين أكثر من الصينيين أنفسهم"، ويبدو أن الصينيين أنفسهم تقبلوا تشينغ كسلالة "أقرب" عرقياً وثقافياً من سلالة يوان المغولية قبل ثلاثة قرون. وحتى التبني الإلزامي لتصفيفة الشعر المنشورية للذكور التي تتميّز "بالضفيرة" والتي كان الصينيون يحتقرونها في البداية كرمز للقهر الأجنبي، قبلوها لاحقاً، قبل أن يرفضوها ثانية بعد نمو النزعة القومية في أواخر القرن التاسع عشر. ويعد تاريخ إمبراطورية تشينغ مثالاً رائعاً لنجاح جماعة عرقية لا تزيد عن مليون شخص في حكم أكبر أمة في العالم دون أن تفقد هويتها الاجتماعية والثقافية والسياسية المميّزة من العام ١٦٤٤ إلى العام ١٩١١.

تجارة ما وراء البحار الصينية

لقد رأينا أن التجارة الدولية في بحر الصين الجنوبي، وحتى عبر المحيط الهادي مع مانيلا، كانت مزدهرة في عهد سلالة مينغ السابقة على الرغم من موقفها السلبي منها. وكان البرتغاليون في مكاو والهولنديون بارتباطاتهم باليابان يضيفون إلى النشاطات الحيوية للتجار الصينيين من مقاطعتي فوجيان وغواندونغ الساحليتين الجنوبيتين في التجارة مع جنوب شرق آسيا في ذروة عصر التجارة في تلك المنطقة. لا عجب – إذن – في أن نجد الجماعات التجارية في هاتين المقاطعتين غير متقبلة للإذعان لحكم المانشو. كانت المنطقة في ذلك الوقت تخضع لسيطرة سلالة زينغ

Zheng البارزة التي امتلكت أساطيل قوية، اِستُخدِمت إما في القرصنة أو في قمع القرصنة لخدمة إمبراطورية مينغ، بعد أن عيّنت الأخيرة زعيم السلالة المدعو زينغ زيلونغ Zheng Zhilong (١٦٠٤-١٦٦١) أميراً أعلى للبحار لحراسة السواحل الجنوبية. ذهب هذا الرجل إلى مكاو في شبابه، وتعلم اللغة البرتغالية، وعُمِّد في المسيحية باسم نيقولاس جاسبارد إكوان Nicholas Gaspard Iquan. وعمل مترجماً للبرتغاليين والهولنديين، وكوّن ثروته من العمل وكيلاً للي تان Li Tan (أو لي دان Li Dan) مؤسس الإمبراطورية التجارية المرتبطة بجزر ريوكيو Ryukyu واليابان، والمعروف للأوروبيين باسم "الكابتن صين" Captain China[١٣٧]. آلت أصول لي تان في اليابان وتايوان بعد موته في العام ١٦٢٥ إلى زينغ الذي استخدمها لتقوية مكانته في ميناء أموي (هسيا مين) وجنوب الصين. ويبدو أن لي تان كان أحد عبيد القوادس(٥٣) الإسبانية في مانيلا قبل أن يصبح زعيماً للجماعة التجارية الصينية في مدينة هيرادو Hirado على جزيرة كيوشو الجنوبية. كان لي يتقاضى مقابلاً مجزياً أيضاً عن تمثيل شركة الهند الشرقية الهولندية لدى السلطات الصينية. ولذلك كانت تربطه اتصالات وصلات شخصية بكل الفاعلين الرئيسين في عالم تجارة شرق آسيا في عصره، ويجسد تجارة "الحرير في مقابل الفضة" الصينية- اليابانية التي نوقشت في الفصل السابق[١٣٨]. أعطى المانشو الفرصة لزينغ زيلونغ للاحتفاظ بموقعه إذا تخلى عن سلالة مينغ، وهو ما فعله على الفور، مما أغضب ابنه نصف الياباني زينغ شينغونغ Zheng Chenggong (١٦٢٣-١٦٦٢) المعروف أكثر للتاريخ باسم كوشينغا Coxinga وهو تحريف هولندي

---

(٥٣) كانت السفن الحربية (القوادس) تعمل في معظمها بمجدفين من العبيد، كانوا يؤدون عملهم وهم مكبلين في أماكنهم، غالبيتهم أسرتهم الجيوش أو اختطفهم القراصنة لهذا الغرض من الأمم المعادية. وكانت بعض الدول تقضي على المدانين بقضاء بعض السنوات على القوادس كعقوبة، وهي عقوبة كانت أقرب إلى حكم الإعدام، وكانت تدخر في إسبانيا القرن السادس عشر للمسلمين الأندلسيين الذين أطلق عليهم اسم الموركسيين. ويقال إن أسطول التحالف الأوروبي بقيادة إسبانيا حين هزم الأسطول العثماني في معركة ليبانتو البحرية في العام ١٥٧١، حرر ثلاثين ألف مجدف نصراني كانوا عبيداً على السفن العثمانية [المترجم].

لأحد ألقابه الصينية. ولد كوشينغا في مدينة هيرادو وعاش مع أمه اليابانية قبل أن يلحق بأبيه في الصين في عمر السابعة. وتلقى تعليماً كلاسيكياً وتدريباً على فنون الحرب كانا عوناً له في حياته العاصفة اللاحقة.

يقدم دينغ Deng بعض المعلومات المتفرقة اللافتة للنظر حول نطاق العمليات التجارية التي قام بها زينغ[١٣٩]. فيقول إن الربح السنوي الذي حققه من التجارة مع اليابان وحدها بلغ عشرين طناً من الفضة، وبلغت أرباحه الإجمالية من خمسة وثمانين طناً إلى مئة طن. ومن حيث الحمولة الطنية، كانت تجارة زينغ مع اليابان ما بين سبعة أضعاف وأحد عشر ضعف التجارة الهولندية. ويقول دينغ أيضاً إن سفن زينغ المبحرة إلى اليابان كانت تحمل أكثر من سبعين طناً من الحرير الطبيعي، وهو ما يشير ضمناً إلى الحجم الضخم لهذه السفن نظراً لخفة وزن الحرير. مكّنت هذه الأرباح الضخمة ثلاثة من أجيال الأسرة من الاحتفاظ بثمانية آلاف سفينة ومئة وسبعين ألف جندي من العقد الخامس إلى العقد التاسع من القرن السابع عشر.

وحين اعتقلت إمبراطورية مانشو أباه شكاً في أن إذعانه كان مجرد حيلة، تولى كوشينغا السيطرة على موارد الأسرة الضخمة واستخدمها بكفاءة في المقاومة المسلحة للغزاة، وهزم قواتهم على البر والبحر، حتى إنه أبحر في نهر اليانغستي في العام ١٦٥٩ بأسطول يضم مئات السفن وعشرات الآلاف من الجنود لتهديد مقاطعة نانجينغ Nanjing، قبل أن يصدوه ويجبروه على الانسحاب. ووجد قاعدة أكثر أماناً في تايوان، فأنزل قواته عليها وطرد شركة الهند الشرقية الهولندية من مركزها في فورت زيلانديا بعد حصار طويل. ولما تيقنت إمبراطورية مانشو من أن قوته الاقتصادية والعسكرية في تايوان تعتمد على الاتصال بالبر الرئيس، أمرت بإخلاء مسافة طويلة على الساحل الشرقي بعمق عشرين ميلاً تماماً من السكان، ما شكّل محنة كبرى للسكان وضربة معيقة للتجارة على مدى عقود. لكن هذا الإجراء كان فعالاً على الرغم من ذلك في إنجاز هدفه الإستراتيجي. ومات كوشينغا في العام ١٦٦٢ بعد فترة قصيرة من إعدام إمبراطورية مانشو لأبيه عقاباً على ثورته، لكن ابنه زينغ جينغ Zheng Jing (مات في العام ١٦٨١) والأفراد الناجون الآخرون من الأسرة صمدوا على تايوان إلى أن

استولت عليها قوات المانشو في العام ١٦٨٣ بقيادة رفيق سابق لزينغ، حكمها كولاية تابعة لمقاطعة فوجيان. كان قمع إمبراطورية زينغ التجارية وضرب اقتصاد الساحل الصيني الجنوبي في صالح الأوروبيين، حيث أراحهم - بلا شك - من منافس قوي في التجارة الآسيوية. وفتحت إمبراطورية تشينغ من حيث المبدأ كل الموانئ للتجارة في العام ١٦٨٥، في مقابل الحصول على ٢٠٪ رسوم استيراد، لكن في الحقيقة بقيت قيود إدارية واحتكارية أعاقت توسع التجارة.

ومع ذلك، تؤكد مازومدار Mazumdar أنه "حدثت زيادة غير مسبوقة في تجارة ما وراء البحار من الصين"[١٤٠]. ربما أدى القضاء على هيمنة أسرة زينغ في ذاته إلى حث كثير من القادمين الجدد على الدخول في تجارة جنوب الصين من ميناء أموي. وتذكر مازومدار أن عدد الينكات الصينية التي زارت باتافيا ارتفع من واحد وخمسين ينكاً إبان الفترة ١٦٨٤- ١٦٨٨ إلى اثنين وثمانين ينكاً إبان الفترة ١٦٩٩-١٧٠٣، وهو ما يفوق عدد الينكات القادمة إلى باتافيا من مكاو إبان الفترتين نفسيهما[١٤١]. وتشير أيضاً إلى حدوث نشاط صيني أكبر كثيراً، من حيث الأرقام المطلقة ومقارنة بالهولنديين، على الطريق إلى ناجازاكي بين رفع إمبراطورية تشينغ للحظر على الطرف الصيني في العام ١٦٨٥ وفرض القيود اليابانية على التجارة في العام ١٧١٥. فقد أبحر ما لا يقل عن خمسمئة وأربعين سفينة صينية إلى ناجازاكي إبان الفترة ١٦٨٤-١٦٨٨، مع أن السلطات اليابانية سمحت لمئة وثمانٍ وعشرين منها فقط بالدخول، مقارنة بتسع عشرة سفينة هولندية فقط سُمِح لها بالدخول، وظلت السفن الصينية تتفوق عدداً على نظيراتها الهولندية بهامش مماثل طوال هذه الفترة. وكانت الحاجة إلى النحاس الياباني لأغراض سك العملة هو السبب الرئيس لحرص نظام تشينغ على توسيع التجارة مع اليابان. وأخيراً، توضح مازومدار أيضاً أن السفن الصينية المتجهة إلى مانيلا كانت أكثر عدداً بكثير من السفن البرتغالية في تلك الفترة.

ويمكن اعتبار الصراع بين أسرة زينغ وإمبراطورية تشينغ مثالاً آخر للموضوعات الرئيسة لهذا الفصل، وهو النزاع بين الكيانات التجارية البحرية والكيانات الزراعية الداخلية الذي ينتهي عادة، كما في هذه الحالة، بانتصار الأخيرة. ومن الفرضيات

الكبرى المناقضة للحقائق من نوع "ماذا لو؟" في التاريخ الصيني السؤال التالي: ماذا لو نجح كوشينغا في الاستيلاء على نانجينغ؟ وماذا لو راهن الموظفون-المتعلمون الصينيون الذين آثروا السلامة بخدمة تشينغ في أدوارهم المعتادة، على ثائر شاب وزعيم قرصان مثل كوشينغا دفاعاً عن السلالة الحاكمة الصينية المحلية؟ هل كان يمكن طرد المانشو من الصين، أو على الأقل ترك الجنوب يتمتع بالاستقلالية الكافية للعمل بالتجارة الدولية سريعة النمو إبان القرن الثامن عشر قائداً للقوى الأوروبية وليس تابعاً لها؟ لقد كانت أسرة زينغ بارتباطاتها باليابانيين والبرتغاليين والهولنديين والشبكة التجارية التي ورثوها عن لي تان منفتحة تماماً على كل التيارات الدولية التي كانت تموج في حركة العولمة إبان العصر الحديث المبكر. وحتى جيش كوشينغا كان متعدد الجنسيات، فكانت نخبة الحرس من العبيد الأفارقة السابقين المشترين من البرتغاليين، ومن المفترض أن وحدة المحاربين الأشرس من ذوي الدروع المعدنية المعروفة باسم "الرجال الحديديين" حلت محل الساموراي اليابانيين. وقد أثبتت قوات الصين "الداخلية"، أي تحالف أمراء الحرب والبيروقراطيين الشماليين، مرة أخرى أنها أقوى كثيراً من القوات الناشئة للصين "البحرية" الساحلية الجنوبية في أواخر عهد إمبراطورية مينغ، تماماً كما هزمت زينغاً آخر، هو أمير البحر المخصي المسلم العظيم زينغ هي Zheng He في بداية عهدها. تعاطفت الأجيال التالية مع كوشينغا، كما فعلت مع زينغ هي، لتعطيه بعض التعويض عن حياته المأساوية. وحتى إمبراطورية تشينغ كرمت كوشينغا بعد موته باعتباره تجسيداً للفضيلة الكونفوشية العليا التي تجلت في الولاء الثابت الذي أظهره نحو إمبراطورية مينغ. وقد جعله انتصاره على الهولنديين ومقاومته للمانشو بطلاً للنظم الصينية الحديثة، كما أنهم يبجلونه في تايوان باعتباره مهندس اندماجها في العالم الثقافي الصيني، وفي تايوان يصلي له الأهالي طلباً للمطر[١٤٢]. علاوة على أن أمه اليابانية ومولده في كيوشو جعلاه محبباً أيضاً إلى اليابانيين، وتعد "معارك كوشينغا" إحدى أكثر مسرحيات العرائس شهرة للفنان العظيم شيكاماستو Chikamatsu.

يتحسر الدارسون الصينيون على أن أسرة زينغ لم تتمكن من استخدام رأس المال التجاري الهائل الذي جمعته للإفلات من القبضة العقيمة للدولة الصينية التقليدية

التي كانت تخضع لطبقات ملاك الأراضي والمتعلمين بالبر الداخلي، وإطلاق البلاد على طريق تجديدي أكثر انفتاحاً على الخارج يقوم على العمل التجاري والربح. ولذلك لم يجد زينغ زيلونغ استخداماً أفضل لإمبراطوريته التجارية الواسعة وقواته البحرية القوية اللازمة لحمايتها من وضعها في خدمة إمبراطورية مينغ الآفلة في مقابل الأراضي والرتب الرسمية والمكافآت. وكان طموحه لابنه الموهوب هو أن يوفر له أفضل تعليم كلاسيكي إعداداً له لحياة المتعلم- الموظف. وحين حلت سلالة تشينغ محل سلالة مينغ، كان همه الوحيد هو استرضاء السادة الجدد، مما أدى حتى إلى اشمئزاز ابنه. وقد أدى ولاء كوشينغا الجدير بالإعجاب لسلالة مينغ به إلى الهزيمة والمأساة، حين اختار الاعتراف بسيادتهم الاسمية وحسب، مع الاحتفاظ بنظامه التجاري كاملاً في جنوب شرق الصين وتايوان وتوسيعه أكثر بالمشاركة في الاقتصاد العالمي المزدهر الذي كان ملماً به تمام الإلمام. ولم يأتِ نظام صيني يطلق طريقاً للنمو قائماً على التجارة إلا حين ظهرت- ولعلها من علامات السخرية- دولة لاجئة أخرى في تايوان في العام ١٩٤٠، ثم أخذ حكام البر الرئيس يقلدونها إبان العقد التاسع من القرن العشرين[١٤٣].

استتب حكم المانشو في الصين وتوسع كثيراً في العهد الطويل للإمبراطور كانغشي Kangxi (١٦٦١-١٧٢٢). وبحلول العقد التاسع من القرن السابع عشر كانت الصين نفسها قد هدأت واستقرت ووسعت حدودها كثيراً إلى مقاطعة شينجيانغ ("الأراضي الجديدة") الحالية عبر سلسلة من الحملات ضد القبائل المغولية، قاد الإمبراطور بعضها بنفسه. على أن الهدف من هذه الحملات لم يكن الأراضي في ذاتها وإنما الاستباق إلى إجهاض تهديد الغزو المغولي، لكن هذه المرة باتباع سياسة استباقية عدوانية، بدلاً من الاعتماد السلبي على السور العظيم في عهد إمبراطورية مينغ. وباستخدام الطريقة الصينية التقليدية المتمثلة في "جعل البرابرة يحاربون البرابرة"، تحالف كانغشي مع قبائل خالكا Khalkha المغولية الشرقية لهزيمة غالدان Galdan (١٦٧٦-١٦٩٧) القائد العظيم لقبائل زونغهار Zunghar المغولية الغربية وقتله. كانت التجارة التقليدية للشاي في مقابل الخيول، الضرورية لسلاح الفرسان في إمبراطورية

تشينغ، عنصراً مهماً في سياستهم نحو المغول، سواء كحلفاء أو كأعداء. وكان الإنتاج الزراعي اللازم لتوفير المؤن في عمق السهل توفره مستعمرات عسكرية حول نقاط محصنة. واستمرت سياسات كانغشي في عهد ابنه الإمبراطور يونغزينغ Yongzheng وحفيده الإمبراطور كيانلونغ Qianlong اللذين طال عهدهما عن عهده. وغزا كلاهما التبت وأدمجاها في إمبراطورية تشينغ في العام ١٧٥١، وبذلك أمنَّا للسيطرة الصينية على الدالاي لاما والمواقع الدينية للبوذية التبتية التي يعتنقها كل من المانشو والمغول.

وبعد وفاة غالدان، قاد ابن أخيه قبائل زونغهار بطريقة فعالة، وتحت قيادته أقاموا إمبراطورية واسعة في غرب منغوليا تمتد من سيبيريا إلى حدود التبت وهددوا قبائل خالكا المغولية الشرقية الذين كانوا أتباعاً مخلصين لإمبراطورية تشينغ. فشن كيانغلونغ في العام ١٧٥٧ حرب إبادة ضد الزونغهار أزالت دولتهم ومحّت كل أثر تقريباً للشعب نفسه. وبلغت الصين أقصى اتساع لها في العام ١٧٥٩، إذ بلغت مساحتها ١١.٥ مليون كيلومتر مربع[١٤٤]. وإذا أخذنا في الحسبان أن دول كوريا وبورما وسيام وفيتنام المجاورة، وكذلك كثيراً من دول وشعوب آسيا الوسطى، كانت- كما رأينا- تعترف أيضاً بالتبعية لإمبراطورية تشينغ في ذلك الوقت، لتأكد اتساع نفوذ الدولة أكثر كثيراً من حدودها.

شهدت فترة السلام المنشوري[٥٤] زيادة كبيرة في عدد سكان الصين من أواخر القرن السابع عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر. فيذكر ماديسون أن عدد سكان الصين انخفض من نحو مئة وخمسة وأربعين مليوناً في العام ١٦٢٠ إلى مئة وستة وعشرين مليوناً في العام ١٦٨٠، ثم تعافى إلى مئة وسبعة وخمسين مليوناً في العام ١٧١٠، قبل أن يقفز إلى أكثر من الضعف بحلول العام ١٨٠٠، ثم إلى نحو ثلاثة أضعاف إلى أربعمئة واثني عشر مليوناً بحلول العام ١٨٥٠[١٤٥]. ومع أن المساحة المزروعة زادت إلى الضعف فقط[١٤٦]، فقد ازدادت الغلة لكل هكتار بفضل تنوع

---

(٥٤) على غرار مصطلحات السلام الروماني والمغولي وغيرها، يشير مصطلح السلام المنشوري Pax Manchurica إلى تأثيرات اتساع إمبراطورية مانشو تشينغ الداعمة للاستقرار والسلام على الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للمنطقة والعالم [المترجم].

المحاصيل، ومنها نباتات العالم الجديد مثل البطاطس الحلوة والذرة الصفراء والفلفل الحار والفول والمحاصيل النقدية مثل الشاي وقصب السكر والتبغ. وقد أسهمت البطاطس الحلوة على وجه الخصوص في إحداث فرق كبير في مدى الوفرة الغذائية في مناطق النقص مثل فوجيان، لأنها يمكن أن تزرع في التربة غير المناسبة للمحاصيل الأخرى وأقدر على النجاة من الجفاف. وكان التبغ الذي جاء من الفلبين يزرع أيضاً على نطاق واسع، وسرعان ما أدمن الصينيون ما أسموه "الكحول الجاف" الذي كانوا يدخنونه في البيبة، وفيما بعد أخذوا يخلطونه بالأفيون[٥٥].

أخذت تجارة ما وراء البحار لإمبراطورية تشينغ الصينية تتركز أكثر فأكثر في ميناء كانتون بمقاطعة غواندونغ بجنوب الصين، وبخاصة بعد العام ١٧٥٧ حين اختاره نظام تشينغ كجزء من إطاره التنظيمي للتجارة. ترجع الاتحادات التجارية أو "النقابات الاحتكارية" في كانتون إلى العقد السادس من القرن السادس عشر حين خوّلت الحكومة جماعات معينة الحق في التعامل مع التجار الأجانب وجمع العوائد منهم نيابة عن الدولة. كانت هذه الجماعات أو الشركات المعروفة باسم "هونغ" hong تتحمل المسؤولية القانونية عن سلوك التجار الأجانب، وكانت في مقابل ذلك المخولة وحدها التعامل معهم. وأخذت أهمية هذه الشركات تزداد تدريجياً بعد العام ١٦٨٥ وإبطال المنع الحكومي للتجارة الخارجية. وفي العام ١٧٢٠، تكتلت مجموعة من ثلاث عشرة شركة من هذه الشركات في المؤسسة التي اشتهرت لاحقا باسم كوهونغ Cohong التي بقيت على الرغم من التقلبات الكثيرة حتى حروب الأفيون إبان القرن التالي. وازداد عدد الشركات المتكتلة وتناقص، لكن احتفظت كوهونغ بهويتها كنوع من الاحتكار المجاز حكومياً للتعامل مع كل التجار الأجانب وكذلك مع الشركات والتجار المحليين الكثيرين الذين يربطون تجار التصدير والاستيراد بالوسطاء الإقليميين والمنتجين الريفيين الفرديين لمنتجات التصدير مثل الحرير والسكر والشاي. وكانت الدولة ممثلة بطريقة مباشرة في شخص الموظفين الصينيين المنشوريين المختلفين الذين كان يترأسهم جميعاً

(٥٥) يدفع ناكوين وراوسكي (Naquin and Rawski, 1987, p. 23) بأن توسيع الأراضي المزروعة بالمحاصيل التقليدية وتغيير أنماط المحاصيل كانا أهم كثيراً من نباتات العالم الجديد.

الموظف المعروف باسم هوبو Hoppo الذي كان يمثل السلالة الإمبراطورية نفسها. تمثلت الحالة الناتجة عن ذلك، كما يمكن لأي شخص مُلّم بفكرة السلوك الريعي أن يدرك، في وفرة فرص الفساد، مع تنافس كل الأطراف على نصيبها من المكاسب من التجارة المقيدة احتكارياً. وقد استفادت السلالة الإمبراطورية كثيراً من الإيرادات، ولم يقتصر دخلها على الرسوم التي كانت تُجمَع رسمياً، بل شملت أيضاً الهدايا والتبرعات من كل المستفيدين لضمان بقائهم في المواقع المميّزة. وتمثل القيد الوحيد في الحاجة إلى تقديم الحوافز الكافية للمنتجين المحليين والتجار الأجانب لعرض السلع وطلبها[١٤٧]. وكان التجار الخاصون، من كل من التجار "الدوليين" الإنجليز القادمين من الهند والتجار الصينيين المحليين من خارج نظام كوهونغ، ينافسون بقوة أيضاً على الغنائم، وبخاصة من تجارة الأفيون الممنوعة رسمياً.

يذكر الدارس الفرنسي لويس ديرمني Louis Dermigny أن حمولة السفن الأجنبية المتاجرة في كانتون ازدادت بعامل تسعة تقريباً بين الأعوام ١٧١٩-١٧٢٦ والأعوام ١٧٨٣-١٧٩١، وهي زيادة ضخمة بأي معيار[١٤٨]. وتضمنت السلع المتبادلة الصادرات الصينية التقليدية كالحرير والخزف، لكن الشاي كان أهمها على الإطلاق حينذاك، فمع أنه كان يزرع ويستهلك في الصين منذ فترة طويلة، إلا أن استهلاكه انتشر على مستوى العالم، وبخاصة في إنجلترا وأوروبا بداية من القرن الثامن عشر، كما أوردنا آنفاً. ويذكر هولدين فوربر Holden Furber أن مديري شركة الهند الشرقية البريطانية قدموا رطلين من الشاي إلى الملك تشارلز الثاني في العام ١٦٦٤، ثم استوردوا كميات متقطعة إبان العقدين التاليين[١٤٩]. ويذكر شوظوري أن الشركة استوردت زهاء ثمانية وثلاثين ألف رطل في العام ١٦٩٠، وكان الفرق بين متوسط سعر التكلفة (واحد شلن) وسعر البيع (ستة شلنات) تمتصه الرسوم الجمركية البالغة خمسة شلنات لكل رطل[١٥٠]. وبدأ الانفجار في الطلب في أوائل القرن الثامن عشر وفي الأعوام السبعة من العام ١٧١٣ إلى العام ١٧٢٠ التي استوردت شركة الهند الشرقية البريطانية فيها أكثر من مليوني رطل من الشاي. واستمر النمو المدهش على مدى العقود التالية، باستيراد ٨.٩ مليون رطل إبان العقد الثالث من القرن الثامن عشر، ثم

١١.٧ مليون رطل إبان العقد الرابع، ثم ٢٠.٢ مليون رطل إبان العقد الخامس، ثم ٣٧.٤ مليون رطل إبان العقد السادس من القرن نفسه، وارتفعت قيم المبيعات المقابلة من ستمئة وأحد عشر ألفاً وأربعمائة وواحد وأربعين جنيهاً إبان العقد الثالث من القرن الثامن عشر إلى مليون وستمائة واثنين وتسعين ألفاً وستمائة وثمانية وتسعين جنيهاً إبان العقد السادس من القرن نفسه[١٥١]. وفي العام ١٧٦٠، بلغت واردات شركة الهند الشرقية البريطانية من الشاي نحو ٣٩٪ من إجمالي واردات الشركة، وقد اقتربت بذلك من نسبة الـ٤٣٪ للمنسوجات القطنية والحريرية من آسيا كلها[١٥٢]. كان الشاي يُنقَل في "سفن صينية" متخصصة كانت تتوقف مرة واحدة فقط في الهند في رحلة الذهاب ولا تتوقف تماماً في رحلة العودة من كانتون لتأتي بالشاي معبئاً في صناديق مبطنة بالخارصين على الطريقة الصينية، ليقدم للمستهلك طازجاً قدر الإمكان. وعلى النقيض من ذلك، ضيعت شركة الهند الشرقية الهولندية الفرصة لكي تكون تنافسية في تجارة الشاي الذي كانت تشتريه من باتافيا وليس من كانتون مباشرة، ولم تكن تأتي به طازجاً إلى الأسواق الأوروبية.

رأينا فيما سبق أن "استثمارات" شركة الهند الشرقية البريطانية، بمعنى مشترياتها للشاي من كانتون كانت تُموّل من بيع السلع الهندية، ومنها بيع الأفيون، على أيدي التجار الخاصين الإنجليز في مقابل الفضة، التي كانوا يعطونها للشركة بعد ذلك من أجل مشتريات الشاي من نقابة كوهونغ، وكان التجار يحصلون في مقابل فضتهم على كمبيالات على لندن بالجنيه الإسترليني. وهذا المثلث التجاري "بريطانيا - الصين - الهند" هو موضوع البحث القيّم الذي أجراه تان شونغ Tan Chung الذي يبيّن في الجدول رقم (٢) أن الفضة شكلت ٥٢٪ من الصادرات البريطانية إلى الصين لدفع ثمن مشتريات الشاي إبان الفترة ١٧٦١-١٧٧٠، وهي النسبة التي واصلت الهبوط بشدة حتى العام ١٨٠٠، وأصبحت نسبة لا تذكر فيما بعد[١٥٣]. وارتفع نصيب السلع الهندية، في المقابل، من ٢٤٪ إبان الفترة ١٧٦١-١٧٧٠ إلى أكثر من ٥٠٪ في العقود الثلاثة التالية، ثم ارتفع جداً إلى ٨٣٪ إبان الفترة ١٨٢١-١٨٣٠. ويبيّن الجدول رقم (٤) في بحث شونغ ارتفاع متوسط الشحن السنوي للأفيون الهندي إلى الصين من ألفي

صندوق (بكل صندوق مئة وأربعة وتسعين رطلا) إبان العقد الأخير من القرن الثامن عشر، إلى ثلاثة آلاف وثمانمئة صندوق ثم أربعة آلاف وأربعمئة صندوق إبان العقدين الأولين من القرن التاسع عشر على التوالي، ثم قفز إلى أحد عشر ألفاً وأربعمئة صندوق وأربعة وعشرين ألفاً وثلاثمئة صندوق إبان العقدين الثالث والرابع من القرن التاسع عشر على التوالي[١٥٤]. وفي العام ١٨٢١، كانت واردات الأفيون إلى الصين تساوي تسعة ملايين دولار إسباني، مقارنة بصادرات الشاي الصينية إلى بريطانيا التي كانت تساوي ٨.٤ مليون دولار إسباني[١٥٥].

والنتيجة المذهلة حقاً هي أن صادرات الأفيون من الهند – على خلاف الاعتقاد الشائع– لم تكن ضرورية لكي توازن شركة الهند الشرقية البريطانية تجارتها مع الصين من خلالها. يوضح الجدول (٥) في بحث تان شونغ أنه من العام ١٧٩٢ إلى العام ١٧٩٥ كانت الصادرات البريطانية- الهندية إلى الصين باستبعاد الأفيون تتجاوز "الاستثمار"(٥٦) السنوي للشركة في الشاي والسلع الصينية الأخرى بمتوسط أكثر من مئتي ألف جنيه سنوياً[١٥٦]. وكانت صادرات القطن الهندية من بومباي صاحبة الإسهام الأكبر في هذا الخصوص. ويقول شونغ إنه "لو كان دور الأفيون محدوداً لهذه الدرجة في توازن التجارة البريطانية مع الصين، فقد كان من المرجح ألا تُصدّر صناديق كثيرة منه إبان القرن الثامن عشر وأن تتوقف تجارته كلياً إبان القرن التاسع عشر"[١٥٧]. وتؤكد مازومدار أيضاً أنه "حتى العام ١٨٢٣، كان القطن الخام هو السلعة التصديرية الهندية الأثمن إلى الصين، أثمن حتى من الأفيون"[١٥٨]. فقد كانت صادرات القطن الهندية، وهي مُدخلات أساسية للمنسوجات الصينية "المعروفة باسم النّنكين(٥٧)، كافية وزيادة - كما يذكر تان شونغ – لتمويل شراء الشاي الصيني، دون اللجوء إلى الأفيون بنتائجه المدمرة للنسيج الأخلاقي والاجتماعي للمجتمع الصيني.

أدى الازدهار في صادرات الشاي التي كان ٥٠-٧٠٪ منها يأتي من مقاطعة فوجيان[١٥٩] إلى توافد العمالة والمشروعات التجارية الموسمية المهاجرة إلى تلك المقاطعة

---

(٥٦) بمعنى قيمة مشتريات الشاي، كما ورد في فقرات سابقة [المترجم].

(٥٧) النّنكين nankeen قماش قطني متين كان ينسج يدوياً في الصين [المترجم].

من المناطق الأخرى، وكان الإنتاج يُموَّل بقروض من الجماعة التجارية عبر نوع من النظام الصناعي المبكر[١٦٠]. أدى ملاك الأراضي المحليون، بما في ذلك الأديرة البوذية والطاوية في المنطقة الجبلية الداخلية، دوراً سلبياً عموماً، حيث كانوا يؤجرون الأرض وحسب، بعيداً عن صنع القرار أو المخاطرة في عملية الإنتاج. انطوى تنظيم تجارة الشاي على نكهة متطورة جداً أو "حديثة"، فكانت العقود المكتوبة تنص على النوعية والكمية اللتين يجب تُسليمهما وشروط الدفع وعقوبات عدم الوفاء. ومع أن العمالة المطلوبة لزراعة الشاي وجمعه كانت غير ماهرة نسبياً، فإن المراحل التالية لمعالجة المحصول من أجل السوق كانت تتطلب كثيراً من المهارات المتخصصة. ويلاحظ غارديلا Gardella أن العرض كان من الممكن أن يزداد بسرعة أكبر لو أن الطلب لم تقيّده سياسات التسعير الاحتكارية لشركة الهند الشرقية البريطانية على الطرف الاستهلاكي في الأسواق الأوروبية[١٦١].

أدى نمو ناتج الشاي طبيعياً إلى تحويل الأرض عن إنتاج الأرز، وهو ما أدى بدوره إلى ضرورة الاستيراد من أجزاء أخرى من الصين، وأيضاً من جنوب شرق آسيا، وبخاصة سيام وكوشينشينا. وتمثل هذه الظاهرة التي أدت صادرات الشاي إلى أوروبا فيها إلى تحفيز تجارة الأرز الآسيوية البينية، مثالاً جيداً للتجارة المثلثية، إلى جانب التجارة المثلثية المعتادة في المحيط الأطلسي، التي ستناقش بالتفصيل في الفصل التالي. ترجع العلاقات التجارية بين أيوثايا وجنوب الصين- كما رأينا- إلى جذور دولة أيوثايا، ونشطت كثيراً في أثناء فترة نظام أسرة زينغ. فكان كوشينغا يستورد منها القصدير والملح الصخري للاستخدام العسكري في مقابل الفضة والرصاص اليابانيين، وفي العام ١٦٦٥ أرسل ابنه زينغ جينغ عشرين ينكاً إلى جنوب شرق آسيا، ذهبت عشرة منها إلى سيام[١٦٢]. كما أحدث إبطال إمبراطورية تشينغ لمنع التجارة الخارجية زيادة كبيرة في تجارة الينكات بين موانئ أموي وكانتون ونينغبو Ningpo الصينية وموانئ جنوب شرق آسيا. وفي سيام، كان التجار الصينيون من مقاطعة فوجيان منخرطين بقوة كتجار خاصين وموظفين بالبلاط، وزادت أعدادهم بصورة ملحوظة، كما لاحظ مراقبون أوروبيون كثيرون. وكانت التجارة الكبيرة بين الصين وسيام واليابان في هذه

الأعوام تخضع لسيطرة تجار وبحارة وأطقم صينيين، عمل كثيرون منهم في خدمة بلاط أيوثايا، وصدّروا جلود الأيل ومنتجات جنوب شرق آسيا الأخرى فضلاً عن السلع الصينية إلى ناجازاكي، بالدرجة الأولى في مقابل واردات النحاس.

وعلى الرغم من أن نظام تشينغ كان يحصل على دخل كبير من كل هذه التجارة الخارجية، فقد أعاد المنع الرسمي في العام ١٧١٧. ربما كان من الأسباب الرئيسة وراء المنع الارتياب في أن الأعداد المتزايدة من الجاليات الصينية المزدهرة في جنوب شرق آسيا كانوا يشكلون "طابوراً خامساً"، فضلاً عن فقدان الحبوب الغذائية والمواد الأولية الاستراتيجية مثل خشب السفن لأن نصف الينكات التي كانت تبحر إلى الخارج سنوياً لم تكن تعود إلى الصين. واستمرت التجارة على الرغم من المنع، لكنها انتكست. ويبدو أن الضرر الناتج كان شديداً لدرجة أن الحكومة قبلت التماساً من نائب الإمبراطور لاستثناء المناطق الساحلية من المنع في العام ١٧٢٧، واستمر هذا الاستثناء لأربعين عاماً. ويبدو أن نقص الأرز في جنوب الصين ورخصه ووفرته النسبية في سيام كان العامل الأهم المسؤول عن رفع المنع. فيذكر فيرافول Viraphol أن مئة وعشر سفن على الأقل كانت تبحر سنوياً من أموي وكانتون، معظمها إلى سيام وشبه جزيرة الملايو، ويلاحظ أيضاً أنه "في التحليل الأخير، يرجع استئناف التجارة الصينية-السيامية إبان الفترة الممتدة من العقد الثالث إلى العقد السابع من القرن الثامن عشر في معظمه إلى استيراد الأرز من سيام إلى جنوب شرق الصين، وهو العامل الوحيد الملموس لإبطال المنع الثاني للتجارة والسفر إلى الخارج"[١٦٣]. وقد شجع أباطرة تشينغ تجارة الأرز بمنح امتيازات جمركية خاصة وكذلك مكافآت ورتب للتجار والموظفين المنخرطين في هذه التجارة [١٦٤]. وكان نمط التجارة بين جنوب الصين وسيام يتوافق مع إطار "نسب العوامل" المعياري، حيث كانت مقاطعتا فوجيان وغواندونغ وفيرتا العمالة نسبياً تصدّران المصنوعات كثيفة العمالة مثل الخزف والأدوات المعدنية والمنسوجات، في مقابل منتجات الموارد الطبيعية كثيفة الأرض مثل الأرز والشجر الأحمر من سيام، فضلاً عن القصدير من شبه جزيرة الملايو.

التجارة البرية الصينية والروسية

نتحول فيما يلي إلى السؤال المهم حول تجارة الصين البرية. لقد رأينا في الفصل الثالث أن تجارة القوافل البرية حافظت على نفسها نسبياً إبان القرن ونصف القرن اللذين تليا انهيار السلام المغولي، لكنها شهدت تراجعاً وتمزقاً كبيرين إبان القرن السادس عشر. يُعزى هذا التراجع عادة، من المنظور المتمركز حول أوروبا، إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، على افتراض أن التجارة البرية لم تستطع أن تنافس التكلفة الدنيا لشحن السلع حول رأس الرجاء الصالح. لكن روسابي Rossabi يدفع على نحو مقنع بأن المنافسة من جانب طريق رأس الرجاء الصالح لم تكن السبب الوحيد، ولا حتى الرئيس للتراجع في تجارة القوافل للمسافات الطويلة عبر آسيا الوسطى[١٦٥]. ويرى أن التمزق وعدم الاستقرار السياسيين اللذين عمّا على طول الطريق البري بداية من أوائل العقد الأول من القرن السادس عشر فصاعداً كانا العامل الأهم. وتحديداً، كان تفكك الإمبراطورية التيمورية على أيدي الأوزبكيين والكازاخيين البدو يعني أن سمرقند وهيرات وغيرها من مدن القوافل الكبرى في بلاد ما وراء النهر وخراسان لم تعد تتمتع بجاذبيتها السابقة للتجارة البرية، وكانت القوى البدوية الجديدة أكثر اهتماماً بالسلب والغنيمة منها بالتجارة. وفي بلاد فارس، استغرقت الدولة الصفوية الجديدة للشاه إسماعيل وقتاً لكي ترسخ سلطتها، وسرعان ما تورطت في صراعات عنيفة مع كل من الأوزبكيين والعثمانيين، وتسبب تبنيها للمذهب الشيعي من الإسلام في تنفير التجار السُنة وإثارة رفض أعنف لها من جانب العثمانيين المتبعين للمذهب السُني. وكانت مدن الواحات مثل كاشغر وياركند وحامي وتورفان(٥٨) تتعرض لغارات منتظمة من الكازاخيين والقبائل البدوية الأخرى، وانقسمت داخلياً في الوقت نفسه في نزاعات دينية وطائفية مريرة بين أتباع رجال الدين الأصوليين من ناحية، ومن ناحية أخرى أتباع الطرق الصوفية الذين كانوا أنفسهم منقسمين إلى معسكرات متحاربة. ليس غريباً والحال كذلك أن تُرسَل قافلتان فقط إلى الصين من آسيا الوسطى بين العامين ١٦٠٠ و١٦٣٠[١٦٦]، وحتى القوافل المنطلقة من

---

(٥٨) راجع حواشي سابقة للمترجم حول هذه المدن والواحات [المترجم].

تورفان التي كانت متواترة إبان القرن الخامس عشر تراجعت كثيراً هي الأخرى[٥٩].

ومع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر، دخلت إمبراطورية مينغ فترة من عدم الاستقرار المزمن تميّزت بانتشار الفساد وثورات الفلاحين العنيفة التي أدت في النهاية إلى إسقاطها - كما رأينا - إبان العقد الخامس من القرن السابع عشر. وتعرض ممر قانسو في المنطقة الشمالية الغربية الذي كانت القوافل تمر منه خلال رحلتها إلى الغرب، إلى موجات جفاف شديدة صاحبتها اضطرابات من جانب الفلاحين. وتفاقمت هذه الصعوبات أكثر، نظراً لأن كثيراً من شعوب هذه المنطقة كانوا من المسلمين الذين كان يتلقون الدعم في معارضتهم لسلالة مينغ من إخوانهم في الدين من الواحات والسهول. وكان العداء المغولي والمنشوري لسلالة مينغ مكوناً آخر ضمن التحديات التي ثبت أنه يستحيل على إمبراطورية مينغ أن تتغلب عليها. ولم يكن

(٥٩) ثمة جدل ذو صلة يتعلق بالكفاءة النسبية للشركات الأوروبية والتجارة الآسيوية التقليدية. فيتبنى نيلز ستينزغارد (Niels Steensgaard, 1974) رأي فان لور (van Leur, 1955) القائل بأن التجارة الآسيوية التقليدية كانت من النوع "المتجول"، أي مجرد نقل للفوائض بين المناطق المختلفة يقوم به تجار محدودو النطاق برأس مال محدود جداً. ودولة الهند البرتغالية مع أنها كانت تعمل على نطاق أوسع كثيراً وعلى مسافات أطول كثيراً وبتقنية ملاحية أكثر تقدماً، كانت هي الأخرى- في رأيه- عملاً ما قبل حداثي "يتعلق بإعادة التوزيع"، من حيث إن دافعيتها تمثلت في قيام سيد إقطاعي بجمع المكوس والجزية والغنائم، وليس منظمة تجارية تتميز بالربح والإدارة العقلانية للعمل. وعلى خلاف ذلك، كانت شركات الهند الشرقية الهولندية والبريطانية تمثل ظهور قوى السوق غير المقيّدة. وقد تعرض عمل ستينزغارد لنقد شديد من ميلينك رولوفز (Meilink-Roelofsz, 1980) التي دفعت بأن "التجوال" سمة لا تنطبق على التنظيم المتطور لمالاكا وللتجار الغوجاراتيين والتاميليين وغيرهم من التجار الآسيويين الذين كانوا يتاجرون هناك، ناهيك عن الصينيين الفطنين الذين عملوا بالتجارة في جميع أنحاء جنوب شرق آسيا. وتشكّك ميلينك أيضاً في أطروحة شركة الهند الشرقية الهولندية "الحديثة" و"العقلانية"، مشيرة إلى طرقها المحاسبية الخاطئة، وإلى لجوئها الدائم إلى الاستخدام المفرط وغير الفعال للقوة من جانب مؤسسة عسكرية مغرورة، وإلى فشلها في إنجاز هدفها الرئيس المتمثل في تحقيق احتكار مُحْكَم للتجارة الآسيوية، باستثناء الجهود المحدودة والمُكْلِفة ذاتها المتعلقة بالميس وجوز الطيب في جزر الملوك. ومن الإنصاف أن نقول إن ستينزغارد كان مدركاً لهذه النقاط، واستشهد بمثال التاجر الأرمني هوفهانيس Hovhaness الذي عمل بين البصرة وأصفهان وسورات من العام ١٦٨٢ إلى العام ١٦٩٣، الذي كان دقيقاً جداً في متابعة الصفقات المعقدة التي تضمنت عملات ومقاييس مختلفة، كان يتعامل معها "بمنتهى السهولة" (ص ٢٥- ٢٦).

حكام تشينغ الجدد أنفسهم أكثر تقبلاً من السلالة المخلوعة من جانب العناصر الثائرة جميعها، ولذلك لم تتراجع الفوضى وعدم الاستقرار لعدة عقود بعد سقوط إمبراطورية مينغ. وقد رأينا أن أباطرة تشينغ من كانغشي إلى كيانلونغ تورطوا في صراع عنيف مع قبائل الزونغهار المغولية في آسيا الداخلية والوسطى، انتهى بإبادة الزونغهار فعلياً إبان العقد السادس من القرن الثامن عشر. والحرب المتواصلة في السهول على مدى قرن تقريباً لم تكن مواتية لتجارة القوافل للمسافات الطويلة على طول طريق الحرير الجنوبي التقليدي أو محفزة لها. وكانت التجارة البحرية هي التي تجلب الفضة إلى إمبراطورية تشينغ الصينية في مقابل الشاي والحرير والخزف، في الوقت الذي كانت فيه التجارة التقليدية في الشاي في مقابل الخيول والجمال من السهول تواجه قيوداً وعراقيل شديدة.

ثمة شريك تجاري بري كبير جديد لإمبراطورية تشينغ الصينية، وكذلك منافس سياسي خطر لها، بدا في الظهور مع اختراق الروس شرقاً إلى التيغة والغابات السيبيرية بحثاً عن الفراء الوفير الذي كانوا ينتزعونه من القبائل المحلية. وكما رأينا، فقد وصل الروس إلى المحيط الهادي في الوقت نفسه تقريباً الذي سيطرت فيه سلالة تشينغ على الصين. وقد سعى الزونغهار باستماتة للتحالف مع هذه الدولة القوية، لكن الروس لم تكن لديهم الرغبة لاستعداء المانشو الذين كان الروس حريصين على التجارة معهم، بتقديم فرائهم الثمين في مقابل الشاي والحرير والسلع الصينية الأخرى. وفُتِحت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، وأدى ذلك إلى معاهدتي نيرشينسك Nerchinsk في العام ١٦٨٩ وكياختا Kiakhta في العام ١٧٢٨ المهمتين بين القوتين الرئيستين على طرفي اليابسة الأوراسية.

كان الصدام بينهما حتمياً، وهو ما حدث في وادي نهر أمور Amur على حافات جنوب سيبيريا وشمال منشوريا إبان العقد الخامس من القرن السابع عشر، حين بلغ الاختراق الروسي شرقاً الحدود الغربية لإمبراطورية تشينغ. فقد أراد الروس أن يستخدموا هذا الوادي الخصب كمصدر لإمدادات الغذاء لتجار الفراء، لكن القبائل المحلية كانت تدفع جزية لإمبراطورية تشينغ، وقد خوّلها ذلك الوقوف بوجه الروس.

وبعد وقوع بعض الاشتباكات، وقّع الجانبان معاهدة نيرشينسك التي وافق الروس بمقتضاها على الانسحاب من منطقة نهر أمور مع تثبيت الحدود إلى الشمال منها. وفي مقابل هذه التنازلات الإقليمية، حصل الروس على الحق في مبادلة فرائهم بالمنتجات الحريرية والسلع الصينية الأخرى. واتفق الجانبان أيضاً على تحديد تبعية القبائل المحلية المختلفة، بما في ذلك المغول، "لدائرة النفوذ" الصينية أو الروسية. ووافق الروس تحديداً على عدم التحالف مع الزونغهار الخطرين. ومن اللافت للنظر أن المفاوضات الدبلوماسية أجريت رسمياً باللغة اللاتينية، حيث ناب يسوعيان أوروبيان عن إمبراطورية تشينغ وناب ضابط بولندي في خدمة الروس عن الجانب الروسي[١٦٧]. سمحت المعاهدة بإرسال قافلة رسمية واحدة كل ثلاثة أعوام إلى بكين تجلب الفراء لكي يُبادَل مع المنتجات الحريرية والسلع الصينية الأخرى. ويذكر فوست Foust أن الأعوام الأربعين من ١٦٨٩ إلى ١٧٢٨ شهدت إرسال خمسين قافلة روسية إلى بكين، بما في ذلك القوافل الرسمية العشر، وكانت القوافل الباقية قوافل خاصة غير رسمية، وهو ما يشير إلى أن التجارة كانت مربحة بالتأكيد[١٦٨]. ويبدو أن الزيادة الكبيرة في صادرات الفراء أدت إلى التخمة وتدهور الأسعار. ولذلك طلب بيتر الأكبر إنشاء شركة احتكارية جيدة التنظيم من نوع رأس المال المشترك أو المحاصة لمعالجة الموقف، لكن الفكرة لم تجد طريقها إلى أرض الواقع.

وضعت اتفاقية صينية- روسية جديدة، هي معاهدة كياختا التي وُقّعت في العام ١٧٢٧، الأساس لإطار متين لتبادل التجارة البرية بين القوتين، دام حتى العام ١٨٦٠[١٦٩]. أبقت الاتفاقية الجديدة على قاعدة إرسال قافلة رسمية واحدة إلى بكين كل ثلاثة أعوام، لكنها أكملتها بتأسيس مدينة كياختا Kiakhta على الحدود بين الأراضي الروسية في سيبيريا والأراضي الصينية في منغوليا لتكون مركزاً للتجارة الخاصة المنتظمة من جانب التجار من الجانبين. كان التجار والمسؤولون الروس يستقرون في كياختا، فيما كان نظراؤهم الصينيون يستقرون في مكان قريب على الجانب الآخر من الحدود في موقع يسمى ماي ماي تشينغ Mai-mai-cheng (التي تعني حرفياً "بلدة الشراء والبيع"). وسرعان ما غطت هذه التجارة الخاصة على النظام

البطيء للقوافل الرسمية إلى بكين التي وصل آخرها في العام ١٧٥٥، قبل أن تنهيها كاثرين الكبرى (١٧٦٢-١٧٩٦) رسمياً في العام الأول من عهدها، ربما نتيجة لإيمانها بأن التجارة الحرة هي التي تناسب المُلْك في عصر التنوير. على أن "التجارة الحرة" لم تكن بالطبع تعني للطاغية المستنيرة إلغاء الضرائب على التجارة، إلا لأغراض الدخل بالطبع. فقد صدر عنها التصريح المروّع الذي ينقله فوست: "حيث تكون التجارة، تكون الجمارك. فالغرض من التجارة هو تصدير واستيراد السلع بما فيه منفعة الدولة"[١٧٠]. وعلى أية حال، فقد استفاد كل من التجار الخاصين وخزينة الدولة كثيراً من معاهدة كياختا. فارتفعت قيمة الفراء المصدّر من كياختا إلى الصين من نحو أربعمئة ألف روبل فضي في العام ١٧٣٥ إلى نحو ١.٢ مليون روبل في العام ١٧٥٩[١٧١]. وفي العام ١٨٠٢، بلغ إجمالي المبيعات التجارية في كياختا نحو تسعة ملايين روبل، أعطت دخلاً للدولة قيمته تسعمئة ألف روبل[١٧٢]. وأدركت الدولة- على ما يبدو- أنه بدلاً من إرسال القوافل المَلكية إلى بكين بتكلفتها العامة العالية، كانت أشد السياسات "استنارة" أو عقلانية تتمثل في ترك التجارة في الأيدي الخاصة، مع جمع عائدات كبيرة من الرسوم المحددة بمعدل ١٠٪ تقريباً من المبيعات.

كانت "تجارة كياختا" تشكل جانباً مهماً من التجارة العالمية إبان القرن الثامن عشر، وإن لم نكن نعرف حوله الكثير. وهنا تكمن أهمية الورقة البحثية التي أعدها مارك مانكول Mark Mancall بعنوان "تجارة كياختا"[١٧٣] التي يعتمد عليها طرحنا هنا، إلى جانب الوصف التفصيلي الممتاز الذي يقدمه فوست للخلفية الدبلوماسية والسياسية[١٧٤]. يلاحظ مانكول أن التجارة توسعت كثيراً بداية من العقد السابع من القرن الثامن عشر حتى نهاية ذلك القرن، وأن الفراء كان السلعة التصديرية الرئيسة من الجانب الروسي، حيث شكّل في البداية ٨٥٪ من القيمة الإجمالية للصادرات، قبل أن ينخفض إلى نحو ٧٥٪ في نهاية القرن. وفي ذروة التجارة، كان فراء القندس وفراء القندس البحري الأعلى طلباً، وهو ما أدى إلى امتداد البحث عن الفراء بعيداً إلى شبه جزيرة كامشاتكا Kamchatka وجزر كوريل Kurile، وأخيراً إلى جزر ألوتيان Aleutians وألاسكا. فقد كان الطلب الصيني كبيراً لدرجة أن التجار الروس عَّولوا

على استيراد الفراء الأمريكي الشمالي لإعادة تصديره إلى الصين من خلال كياختا. وكانت الأقمشة الصوفية تأتي في المرتبة الثانية بعد الفراء بين الصادرات الروسية إلى الصين، وهنا أيضاً لجأ الروس إلى إعادة التصدير لزيادة العرض الروسي غير الكافي. فقد أدخل بيتر الأكبر صناعة الصوف الروسية، لكنها على الرغم من نموها الكبير إبان القرن الثامن عشر لم تتمكن حتى من تلبية الطلب الداخلي كاملاً. لكن بحلول العام ١٨٥٠، ارتفعت الإمدادات الروسية بما يكفي لإشباع الطلب الصيني بمليون ونصف المليون ياردة، شكّلت ٦٥٪ من الصادرات الروسية إلى الصين، مقارنة بنحو ٢٣٪ للفراء. ويلاحظ مانكول أن شركة الهند الشرقية البريطانية لم تستطع أن تبيع الأقمشة الصوفية بنجاح في كانتون، وأرجع ذلك إلى قرب كياختا من سوق شمال الصين الذي أوجدت برودته الشديدة طلباً أعلى على الأقمشة الصوفية[١٧٥].

وعلى الجانب الصيني، كانت السلعة التصديرية الرئيسة في بادئ الأمر هي الأقمشة القطنية المعروفة بالننكين التي كانت تستخدم باعتبارها وحدة قياس الأسعار النسبية فيما كان تجارة مقايضة متوازنة ثنائياً. وكانت الأنسجة الحريرية في البداية سلعة تصديرية صينية مهمة، لكن برنامج إحلال الواردات القوي في روسيا أضعف أهميتها سريعاً، فانخفضت من نحو ٢٤٪ من الصادرات الإجمالية في العام ١٧٥١ إلى نصف ذلك المستوى في نهاية القرن. وكان مسحوق الرواند(٦٠) من المواد التصديرية الصينية غير العادية، لكنه كان مهماً بسبب الطلب الكبير عليه في روسيا لخصائصه الطبية، لدرجة أن توزيعه الداخلي ظل احتكاراً للدولة حتى العام ١٧٨٢. ثم أصبح الشاي أخيراً السلعة التصديرية الصينية الأولى إلى روسيا. تَعَرَف الروس على شرب الشاي من خلال الاحتكاك بالمغول، وأدى فتح المحطة التجارية في كياختا إلى تشجيع الاستهلاك الروسي أكثر وأكثر. ومن العقد السابع من القرن الثامن عشر حتى العام ١٧٨٥، شكّل الشاي ١٥٪ فقط من الواردات الإجمالية، لكن كما في حالة تجارة ما وراء البحار من خلال كانتون، انفجرت واردات الشاي الروسية بالقرب من نهاية القرن،

(٦٠) الرواند Rhubarb نبات معمر ينمو في الصين والهند وغيرها يستخدم للطعام وللأغراض الطبية [المترجم].

وفي العام ١٨٢٥ شكّلت ٨٧٪ من الواردات الروسية الإجمالية من الصين، ثم ارتفعت إلى ٩٥٪ بحلول العام ١٨٥٠. ويقدم مانكول بعض الأرقام المفيدة حول الأهمية النسبية للصين في التجارة الروسية الإجمالية. ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، نمت التجارة الخارجية الروسية كثيراً، من نحو تسعة عشر مليون روبل سنوياً إبان الفترة ١٧٥٨-١٧٦٠ إلى نحو ستين مليون روبل في العام ١٧٩٢. وظل نصيب الصين منها مستقراً عند نحو ٧- ٨٪ من إجمالي التجارة الخارجية الروسية، فيما شكّل نحو ثلثي إجمالي تجارة روسيا الآسيوية. بينما كان نصيب الصين من عائدات الجمارك الروسية أعلى كثيراً، إذ بلغ نحو ٣٨٪ من إجمالي العائدات في العام ١٧٧٥ (أربعمائة وثلاثة وخمسين ألف روبل فضي).

من المفيد في هذا الخصوص أن نقارن التجارة البرية في كياختا بالتجارة البحرية في كانتون خلال تلك الأعوام. كان الشاي- كما رأينا- السلعة التصديرية الرئيسة من الصين في الموقعين. لكن نطاق التجارة في كانتون كان أكبر كثيراً منه في كياختا، إذ بلغ تصدير الشاي ثلاثة وعشرين مليون رطل في مقابل مليوني ونصف مليون رطل في العام ١٨٠٠ في الموقعين على التوالي[١٧٦]. كما كانت نوعية الشاي المبيع في هذه الأسواق مختلفة أيضاً، حيث كان الشاي عالي النوعية المبيع للسوق الروسية يقابله شاي منخفض النوعية للسوق السيبيرية في كياختا، ومع أن كانتون كانت تصدّر شاياً متوسط النوعية بالدرجة الأولى للسوق البريطانية والأوروبية، فقد كان سعر الرطل واحداً تقريباً في الموقعين. وكانت كياختا أعلى من كانتون في استيراد الفراء، مع وجود أدلة على الارتباط بين السوقين، حيث كانت الواردات في كانتون ترتفع حين تعاق تجارة كياختا لسبب أو لآخر. وفيما يتعلق بالواردات الصينية من الأقمشة الصوفية، فإن المتوسط السنوي لكياختا بلغ ثمانمئة وستة وخمسين ألف تايل فضي(٦١) إبان الفترة ١٨٠٢-١٨٠٤، وهو أكثر من ضعف المتوسط السنوي في كانتون في الأعوام الأخيرة من القرن الثامن عشر[١٧٧]. ويذكر مانكول أيضاً أن التجارة الصينية- الروسية في

---

(٦١) التايل tael وحدة وزن صينية تُعادل ثُلث أوقية، ووحدة نقد صينية تبلغ مثل هذا الوزن من الفضة الخالصة [المترجم].

كياختا يبدو أنها كانت تجرى بطريقة ودية ومحترمة، في تناقض صارخ مع العداء وعدم التفاهم المتبادل بين البريطانيين والصينيين في كانتون. وقد لاحظ المراقبون البريطانيون ذلك، وأرجعوه بما يريح أنفسهم إلى أنه ناتج عن أن نظراءهم الروس "نصف آسيويين". من المؤكد أن تاريخ التجارة في كياختا يعطي صورة مختلفة تماماً عن مواقف إمبراطورية تشينغ نحو الغربيين والعلاقات الدبلوماسية والتجارية معهم، تختلف عن الأفكار النمطية المعتادة عن الغطرسة والجهل اللذين نقلهما من تعامل معهم من الأنجلوسكسونيين (انظر الفصل السادس).

لقد ذكرنا فيما سبق أن نفاد إمدادات الفراء في سيبيريا دفع الروس بعيداً إلى جزر ألوتيان وألاسكا بحثاً عن إمدادات جديدة. ومن أجل التعامل مع هذا الامتداد للتجارة السيبيرية، تكوّنت شركة روسية- أمريكية كان مقرها في ايركوتسك Irkutsk، يعتبرها فوست أول "شركة محاصة ذات مسؤولية محدودة مجازة إمبراطورياً في التاريخ الروسي"[١٧٨]. كان إرسال الصيادين إلى المستعمرات في جزر ألوتيان وألاسكا وإرسال الفراء إلى الأسواق الصينية يفرضان مشكلات هائلة في البحار الشمالية المتجمدة. كما كان يجب مواجهة المنافسة البريطانية والأمريكية في كانتون. وتمثل الحل لتلك المشكلات جميعها في وصول روسيا إلى الموانئ الصينية لإمداد مراكز ألاسكا باحتياجاتها وبيع الفراء في الأسواق الصينية. وقد جربوا ذلك بإرسال سفينة إلى كانتون لبيع الفراء، لكن إمبراطورية تشينغ رفضت بحزم أن تسمح للسفينة بإفراغ شحنتها. واضطر الروس لأن يقتصروا في العمل ضمن نظام كياختا الذي كان مقدراً له، كما تنبأ الروس أنفسهم بوضوح، أن يكون ضحية للتجارة البحرية المتزايدة. وباءت محاولة مماثلة "لفتح" اليابان أمام السفن الروسية في العام ١٨٠٤ بالرفض أيضاً لمدة قصيرة من جانب شوغونية توكوغاوا. وأخيراً أرسلت ايركوتسك سفارة طموحاً للتفاوض إما على فتح الموانئ الصينية أمام السفن الروسية أو السماح للقوافل البرية بالدخول في عمق الصين، لكنها لم تنجح حتى في الوصول إلى بكين. وهكذا، فقد شهد القرن التاسع عشر حرصاً من الروس على التجارة مع الشرق الأقصى.

وبالتزامن مع ذلك كانت روسيا تقوي موقفها كقوة أوروبية كبرى. قاد بيتر

الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥) حركة حاسمة نحو "تغريب" روسيا في الربع الأول من القرن الثامن عشر. وكتب بيتر كلمة النهاية "لعصر عظمة" السويد القصير بهزيمته للملك المحارب تشارلز الثاني عشر (١٦٩٧-١٧١٨) في الحرب الشمالية الكبرى، ولم يسترد بيتر نارفا "كنافذة على الغرب" فقط، لكن استولى أيضاً على ريغا وريفال. كما بنى سانت بطرسبرغ على الضفاف السبخة لنهر نيفا بتكلفة بشرية ضخمة لترسيخ الوجود الروسي على شواطئ البلطيق. ثم عزّزت كاثرين الكبرى مكانة روسيا كقوة عظمى بالتوسع في الجنوب على حساب الخانيات التترية والإمبراطورية العثمانية، وفي الغرب على حساب بولندا وليتوانيا، حيث ابتلعت الإمبراطورية الروسية الدوقية الكبرى السابقة فضلاً عن أجزاء كبيرة من بولندا. وبموجب شروط معاهدة كوتشوك كاينارجي Kutchuk-Kainardji للعام ١٧٧٤، منح العثمانيون روسيا حقوق الملاحة في كل من البحر الأسود والمضايق، وهو ما سمح للسفن الروسية بالوصول المباشر إلى البحر الأبيض المتوسط.

يفسر أليكسندر غيرشينكرون Alexander Gerschenkron الدافع البيتري(٦٢) بأنه حالة متطرفة للتدخل الحكومي المركنتيلي[١٧٩]، فوفقاً لمخطط غيرشينكرون المألوف نجد أنه كلما ازداد مدى "التخلف النسبي"، تكثفت الجهود المؤسسية للتغلب عليه[١٨٠]. وينظر غيرشينكرون عبر هذا الإطار إلى الإجراءات التي اتخذها بيتر لبناء الطرق والجسور والقنوات ومحاولة ربط البلطيق بالفولغا وبحر قزوين وغيرها من المشروعات الطموحة التي استهدفت خلق نظام اقتصادي وطني موحد. كما سخّر بيتر التصنيع من أجل احتياجات الحرب مع تشارلز الثاني عشر ملك السويد الذي مثّل النموذج الغربي الذي "سيتجاوزه ويتفوق عليه" بلغة خلفائه البلاشفة(٦٣)، تماماً كما فعل مع العثمانيين والصفويين، ومن هنا يأتي تأكيد بيتر

---

(٦٢) نسبة إلى القيصر الروسي بيتر الأكبر [المترجم].

(٦٣) كان شعار البلاشفة في السنوات الأولى من الحرب الباردة "سنتجاوزه ونتفوق عليه"- أي الغرب- ومن أمثلة ذلك أن نيكيتا خروشوف تباهى على الولايات المتحدة في نشوة معدلات النمو العالية في الاتحاد السوفيتي بقولته الشهيرة "سندفنكم"، بالمعنى الاقتصادي للكلمة، وليس المعنى الحرفي [المترجم].

على الحديد والصلب والبارود وبناء السفن وما إليها في برنامجه التصنيعي. وتمثل دور التجارة الخارجية في تصدير الفائض عن الاستهلاك المحلي لدفع ثمن الواردات العسكرية- الصناعية الأساسية من الغرب، فضلاً عن الخبراء والتقنيين الأجانب الكثيرين الذين استعان بيتر بهم.

يشير أركاديوس كاهان Arcadius Kahan إلى أن الوصول إلى الموانئ البلطيقية قلل تكلفة النقل لكل من الصادرات والواردات الروسية مقارنة بالاعتماد السابق على أركانجل، وهذا العامل وحده كان مسؤولاً بالتأكيد عن تحفيز التجارة الخارجية بدرجة ملحوظة في الحقبة البيترية"[١٨١]. ويَخْلُص كاهان إلى أن "إدراك أن توسيع التجارة الخارجية وسيلة للتغلب على التخلف الاقتصادي لروسيا وعزلتها الثقافية كان الميراث الأساسي لسياسات التجارة الخارجية البيترية"[١٨٢]. وفي عمل آخر، يقول كاهان إن "التجارة الخارجية لروسيا إبان القرن الثامن عشر كانت أحد المحركات المهمة للنمو الاقتصادي. فكان تأثيرها كبيراً على تتجير الزراعة ونمو الصناعة واتساع العرض النقدي وتراكم رأس المال"[١٨٣]. وقد شهدت التجارة الخارجية توسعاً كبيراً، قدره خمسة عشر ضعفاً بالأرقام الحقيقية، من بداية القرن الثامن عشر إلى نهايته. وكان نمو الصادرات الروسية سريعاً جداً بين العامين ١٧٤٢ و١٧٩٣، حيث بلغ أكثر من عشرة أضعاف من حيث القيمة، وستة أضعاف ونصف بالأرقام الحقيقية. ونمت أحجام الصادرات الروسية لكل فرد ثلاثة أضعاف، على الرغم من تضاعف السكان من ثماني عشرة مليون نسمة إلى سبعة وثلاثين مليون نسمة في هذه الفترة[١٨٤].

يبيّن الجدول رقم (٥,٧) التركيب السلعي للصادرات الروسية إبان القرن الثامن عشر. كانت الصادرات الروسية في معظمها سلعاً كبيرة الحجم من النوع ذي القيمة المنخفضة نسبة إلى وزنه، مثل القنب والكتان والشمع والشحم والجلود والقار والقطران والخشب، ومع الوقت زادت كميات الحبوب والقضبان الحديدية. ولذلك، فباستثناء الحبوب، كانت صادراتها بالدرجة الأولى مدخلات وسيطة للقطاعات الصناعية، كانت تُشحَن إلى الاقتصادات الأكثر تقدماً بأوروبا الغربية. وظهرت أدلة على حدوث بعض التصنيع في هذه الأرقام، إذ لم يكن الحديد يصدّر في العام

١٧١٠ ، لكنه شكّل ١٢٪ من إجمالي الصادرات إبان الفترة ١٧٩٣- ١٧٩٥ ، بينما ارتفع نصيب المنسوجات الكتانية التي كان بعضها يستخدم لكسوة العبيد في العالم الجديد من ٣٪ إلى ١٠٪ على مدار الفترة نفسها. وكان الحديد ينتج في مصانع حكومية أو مصانع خاصة في منطقة الأورال، وهناك أدت التكاليف المنخفضة للعمالة والوقود إلى موازنة تكاليف النقل العالية إلى الأسواق الغربية. وهنا كان توفير الائتمان من المشترين البريطانيين للحديد الروسي عاملاً مهماً في نمو الصادرات.

الجدول رقم ٥,٧). تركيب الصادرات الروسية إبان الفترة ١٧١٠–١٧٩٥ (بالنسبة المئوية).

	١٧١٠	١٧٦٩	١٧٩٣- ١٧٩٥
المحاصيل	٣٧.٨	٥٠.٥	٤٣.١
القنب	٣٤.٤	١٨.٨	٢٠.٢
الكتان	٣.٣	١١.٣	١٢.٦
بزر الكتان وبزر القنب	٠.٠٤	٣.٥	٣.٤
الحبوب	٢.٩	١٦.٩	٦.٩
المنتجات الحيوانية	٥٠.٥	١٢.٥	١٨.١
الشحم الحيواني	١١.٤	٥.٠	١١.٣
الجلود	٣٩.٠	٧.٥	٦.٨
المنتجات الغابية	٥.١	٤.٥	٤.٢
السلع الصناعية	٣.٣	٢٢.٨	٢٢.٢
الحديد		٩.٨	١٢.٠
المنسوجات الكتانية	٣.٣	١٣.٠	١٠.٢
الإجمالي	٩٦.٧	٩٠.٣	٨٧.٦

المصدر : Kahan (1985, table 4.2, p. 168)

كانت المنافسة من الحديد السويدي على الأسواق البريطانية والغربية الأخرى شديدة، وفي هذه المنافسة تمتعت السويد بالنوعية العليا وروسيا بالسعر الأدنى. وتفوقت روسيا على السويد وأصبحت المصدر الرئيس للحديد المستوْرد لبريطانيا بحلول العقد السابع من القرن الثامن عشر. ومع ذلك، يقول كاهان إن "دور روسيا

القيادي في سوق الحديد الأوروبي إبان القرن الثامن عشر لا يزال سراً لا يعرفه إلا المؤرخون المتخصصون"[١٨٥].

كان الهولنديون الشريك التجاري الأهم لروسيا نحو العام ١٧٠٠، ثم تقدم البريطانيون عليهم إبان العقد الرابع والخامس من القرن الثامن عشر، وهو ما عكس التحول في الأسبقية الاقتصادية الذي أصبح جلياً تماماً. فقد كان المنفذ الرئيس في العام ١٧٠٠- كما رأينا- هو أركانجل الواقعة على البحر الأبيض، ثم أخذت ريغا وسانت بطرسبرغ تحلان محلها على نحو متزايد، وفي وقت لاحق من القرن اكتسبت موانئ البحر الأسود أهمية كبيرة لصادرات الحبوب إلى البحر الأبيض المتوسط. وفي الشرق لاحظنا التجارة المتزايدة مع الصين من خلال كياختا. وكانت التجارة البحرية كلها تشحن في سفن أجنبية لعدم امتلاك روسيا لأسطول تجاري.

عكست الواردات الروسية إبان القرن الثامن عشر توزيع الدخل المنحرف تماماً الناتج عن التكوين الاجتماعي للبلاد. فكانت طبقة النبلاء والنخبة التجارية المتمركزة بالدرجة الأولى في سانت بطرسبرغ ينفقون ببذخ على المنسوجات الفاخرة والمنتجات "الاستعمارية" مثل التوابل والسكر والمشروبات التي شكّلت معاً زهاء ٤٠٪ من الواردات. وكانت المدخلات الصناعية، مثل الأصباغ والمواد الأولية الأخرى التي كانت موجهة بالدرجة الأولى إلى صناعة المنسوجات المتنامية، تشكّل ٤٠٪ أخرى. وكانت سانت بطرسبرغ ميناء الدخول الأساسي لهذه الواردات، لكنها كانت أيضاً المنفذ للصادرات من المنطقة الداخلية الشاسعة لأن نهر نيفا الذي تقع سانت بطرسبرغ على مصبه كانت تربطه قنوات بالنظم النهرية الروسية الرئيسة على طول الطريق إلى بحر قزوين. وسانت بطرسبرغ التي كانت تضم البلاط والعاصمة الإدارية فضلاً عن تحولها إلى الميناء الرئيس لروسيا بعد تأسيسها مباشرة في العام ١٧٠٣، كانت تعكس إرادة بيتر الأكبر ورؤيته التي تتجلى بوضوح في كل من التمثال الشهير الذي كُتِب عليه الإهداء المقتضب: "إلى بيتر الأول .. من كاثرين الثانية" وقصيدة بوشكين Pushkin "الفارس البرونزي". كانت ريغا الميناء الثاني من حيث الأهمية، لكنها فقدت بعض تجارتها لمنافسيها البروسيين كونيغسبرغ وميمل، بسبب ارتفاع رسوم الاستيراد

الروسية. واستمرت أركانجل تشكل منفذاً للسلع السيبيرية، لكن أهميتها تراجعت مقارنة بالموانئ البلطيقية.

وإذا كانت أركانجل "نافذة روسيا على الغرب"، فإن اصطراخان على مصب الفولغا على بحر قزوين كانت "نافذة روسيا على الشرق". وقد أدى الاستيلاء على هذه المدينة في العام ١٥٥٦ إلى تحفيز نمو التجارة الروسية مع إيران. وكانت السلعة الرئيسة هي الحرير، سواء الخام أو المصنع، الذي كان يصدّر من إيران للاستهلاك داخل روسيا، وكذلك لإعادة التصدير إلى أوروبا الغربية. وكانت هذه التجارة تقع بالدرجة الأولى في أيدي التجار الأرمن الذين منحهم الشاه عباس- كما رأينا في الفصل السابق- نوعاً من الاحتكار الحكومي اعترفت به روسيا أيضاً. وكان الأرمن مهيئين لإجراء هذه التجارة لأن أفراداً من جماعتهم كانوا يستقرون في روسيا وبولندا، فضلاً عن إيران. وقد رأينا أن النزاع المتواصل مع الإمبراطورية العثمانية دفع الصفويين للبحث عن مخارج بديلة لصادراتهم من الحرير. وبلغت تجارة العبور في الحرير ذروتها إبان العقد الخامس من القرن الثامن عشر، لكن روسيا كانت تستورد كميات كبيرة من الحرير الطبيعي من إيران لصناعة المنسوجات الحريرية فيها. وكذلك كان القطن، كمادة خام ومنسوجات، فضلاً عن السجاد صادرات إيرانية أخرى إلى روسيا. وفي المقابل، كانت روسيا تصدّر لإيران الفراء وسلعاً أوروبية معاداً تصديرها مثل الأقمشة الصوفية. وكان التوازن التجاري مع إيران سلبياً بالنسبة لروسيا، ما كان يستنزف إلى الشرق الفضة التي اكتسبتها روسيا من فائضها في التجارة البلطيقية مع أوروبا الغربية.

كانت اصطراخان أيضاً من نحو العام ١٦٢٠ فصاعداً قاعدة لجماعة صغيرة ونشطة من التجار الهنود شكّلت جزءاً من شبكة واسعة تمتد من لاهور وملتان إلى قندهار وأصفهان وبخارى، وتربط شمال الهند بأفغانستان وإيران وآسيا الوسطى وروسيا[١٨٦]. كان هؤلاء التجار الهنود يجلبون المنتجات الروسية، ومنها السلع الفاخرة مثل فراء السمور وكلاب البرزي والسناقر، إلى النخبة المغولية، وكانت تعمل أيضاً في إقراض المال. اخترق هؤلاء التجار حوض الفولغا والداخل الروسي حتى موسكو، وهو ما أثار غضب التجار الروس المحليين الذين لم يستطيعوا أن ينافسوهم في تمكنهم

من الموارد المالية والممارسات التجارية المتطورة. لكن الدولة الروسية لم تستجب لهذه الشكاوى، لأن الجماعة التجارية الهندية كانت تولّد دخلاً كبيراً من الرسوم الجمركية. وكانت شركتا الهند الشرقية الهولندية والبريطانية تصدّران الأنسجة القطنية الهندية إلى روسيا عبر أركانجل والموانئ البلطيقية، وليس هؤلاء التجار الهنود، ربما بسبب غياب الأمان عن طرق التجارة البرية. وثمة تجارة روسية مربحة كانت تجرى مع الشعوب البدوية بسهول آسيا الوسطى من خلال أورينبرغ Orenberg ذلك الحصن والمحطة التجارية الذي أنشئ إبان العقد الخامس من القرن الثامن عشر على نهر الأورال، وهي قطعان الأغنام الكبيرة التي كانت تستورد من السهول وكانت المصدر للكمية الضخمة من الشحم التي كانت روسيا تصدّرها إلى إنجلترا واسكتلندا لصناعة الصابون والشموع، وهو ما يعكس امتداد العولمة في العصر الحديث المبكر من غلاسكو إلى السهول القرغيزية، ودور روسيا فيها.

خاتمة

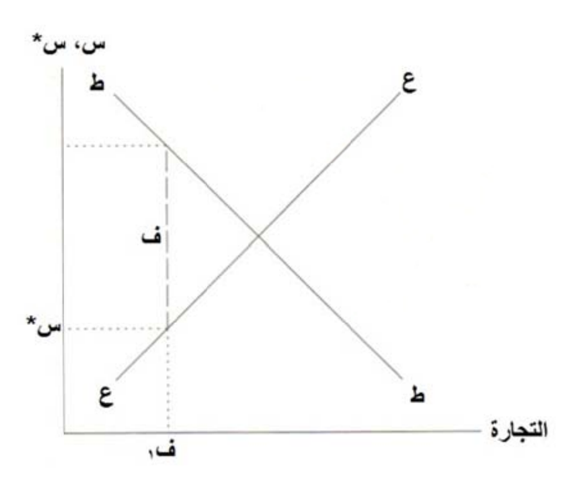
بحلول منتصف القرن الثامن عشر، كان الاقتصاد الدولي قد تحوّل لدرجة لا يمكن تخيلها بعيداً عن النظام الذي كان قائماً في بداية الألفية. ربما كان التحوّل الأهم هو أن أمريكا لم تعد كتلة منعزلة، بل مكوّناً مندمجاً في الاقتصاد الدولي ينخرط في تجارة مباشرة مع آسيا وأفريقيا وأوروبا. وكانت أستراليا القارة الوحيدة (المأهولة) التي ظلت معزولة عن القارات الأخرى، لكن هذه العزلة سرعان من طالتها يد التغيير. تأسست المستوطنة البريطانية الأولى في أستراليا في العام ١٧٨٨، وفي هذا العام كان يوجد زهاء ألف مستعمر وتسع وعشرين شاة وخروفاً مسجلين في نيو ساوث ويلز. وبحلول العام ١٨٢١، ارتفع عدد الأغنام إلى مئتين وخمسين ألفاً، وبحلول العام ١٨٣٨ نما هذا العدد إلى ثلاثة ملايين ومئة ألف[١٨٧]. ولم تعد أوروبا الغربية لاعباً خارجياً على هوامش أوراسيا، بل أصبحت مركز النظام الاقتصادي العالمي الجديد، مع سيطرتها السياسية على أجزاء كبيرة من أمريكا وجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا ومراكز تجارية في شرق آسيا وأفريقيا جنوب الصحراء. ومُلئت خلايا كثيرة من الخلايا

الفارغة بالجدول رقم (٢,١). ومن الواضح تماماً أن أوروبا الغربية أصبحت مرتبطة مباشرة بكل المناطق الأخرى، فيما كانت أوروبا الشرقية مرتبطة مباشرة بشرق آسيا وأمريكا الشمالية من خلال الممتلكات السيبيرية لروسيا.

يدفع أورورك ووليامسن بأن تجارة أوروبا مع بقية العالم نمت طوال العصر الحديث المبكر، بما في ذلك القرن السابع عشر الذي يعتبر أحياناً قرناً مثقلاً بالأزمات[١٨٨]. وجد المؤلفان أن متوسط معدلات النمو كان ١.٢٦٪ سنوياً إبان القرن السادس عشر، و٠.٦٦٪ سنوياً إبان القرن السابع عشر، و١.٢٦٪ إبان القرن الثامن عشر، و١.٠٦٪ سنوياً على امتداد العصر الحديث المبكر. تتفق نتائجهما مع حساب جان دي فريز الأحدث للحمولات الطنية العائدة من آسيا إلى أوروبا، إذ يذكر أنها نمت بمعدل ١.٠١٪ سنوياً إبان القرن السادس عشر، و١.٢٤٪ إبان القرن السابع عشر، و١.١٦٪ إبان القرن الثامن عشر، و١.١٪ على امتداد العصر الحديث المبكر[١٨٩]. على أن متوسط معدل النمو البالغ ١٪ سنوياً أو نحوه على مدى ثلاثة قرون قد لا يبدو رائعاً جداً إذا ما قورن بما حدث سريعاً بعد ذلك، لكنه كان رائعاً جداً مقارنة بما ساد قبل ذلك. فيذكر أنغس ماديسون Angus Maddison أن الناتج المحلي الإجمالي الصيني والأوروبي الغربي نما بمعدل ٠.٤٪ سنوياً تقريباً بين العامين ١٥٠٠ و١٨٢٠، فيما كان نمو الناتج المحلي الإجمالي الهندي أقل قليلاً من نصف ذلك المعدل. وعلى ذلك، فإن نسب التجارة العابرة للقارات إلى الناتج المحلي الإجمالي كانت في ازدياد في أوراسيا إبان القرون الثلاثة التي تلت دا غاما.

يقدم الشكل رقم (٥,٢) إطاراً بسيطاً للنظر إلى مصادر النمو التجاري في هذه الفترة أو أية فترة أخرى. تشير (ط و) إلى دالة الطلب على الواردات في المنطقة (أي الطلب المحلي مطروحاً منه العرض المحلي). وهذه الدالة تنحدر من أعلى لأسفل، ما يعني أن استيراد الدول يقل مع زيادة سعر السوق الداخلي (س) الذي تواجهه الدول. وتشير (ع ص) إلى دالة عرض التصدير (أي العرض الأجنبي مطروحاً منه الطلب الأجنبي) في المنطقة الأخرى، ويزداد عرض التصدير مع زيادة السعر في الخارج (س❖). وفي حال غياب العوائق التجارية الناتجة عن تكاليف النقل أو الاحتكار أو

الحروب أو غياب الأمان، تندمج أسواق السلع الدولية تماماً، فتتوحد الأسعار بين الداخل والخارج، كما يتحدد من خلال تقاطع الدالتين. وتدق الحواجز التجارية، أياً كان نوعها، إسفيناً (ف) بين أسعار التصدير والاستيراد. وفي هذا الإطار يمكن أن تنمو التجارة إما بسبب تراجع الحواجز التجارية أو بسبب تحوّل إلى الخارج في دالة الطلب على الاستيراد أو بسبب تحوّل إلى الخارج في دالة العرض التصديري.



الشكل رقم (٥,٢) مصادر النمو التجاري.

إذا كان النمو التجاري مدفوعاً بتراجع الحواجز التجارية، فإن الإسفين (ف) في الشكل رقم (٥,٢) ينخفض، ويرتفع السعر في المنطقة المصدّرة (س❖) مع سعر الاستيراد (س)، بمعنى حدوث تقارب لسعر السلعة. وقد رأينا بعض الأدلة في الفصل الرابع على أن التأثير الأولي لطريق رأس الرجاء الصالح تمثل في تقريب الأسواق الأوروبية والآسيوية معاً، لكن يبدو أن هذه العملية لم تدم طويلاً. فكما يوضح الشكل رقم (٤,٦) فلا توجد أدلة مطلقاً على حدوث تقارب في أسعار السلع بين هولندا وجنوب شرق آسيا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهذا انعكاس للممارسات الاحتكارية لشركة الهند الشرقية الهولندية. ويوضح أوروك وويليامسن أن هذه النتيجة يمكن تعميمها على السلع الأخرى التي تتوفر لدينا حالياً الأدلة الضرورية

المتعلقة بأسعارها، ومن ذلك مثلاً أن الفجوة بين السعر الذي كانت تدفعه شركة الهند الشرقية البريطانية للأقمشة في الهند والسعر الذي كانت تحصل عليه لهذه الأقمشة في لندن، ظلت ثابتة تماماً عند زهاء ١٠٠٪ بين العامين ١٦٦٠ و١٧٦٠[١٩٠]. والشيء نفسه ينطبق على فجوة الأسعار الإنجليزية- الهندية للحرير والقهوة والشاي والنيلة، وهو ما يعني أن التغيرات الخارجية في العرض والطلب كانت المسؤولة في المقام الأول عن النمو التجاري بين العامين ١٦٠٠ و١٨٠٠. ويذهب أوروك ووليامسن إلى أن التغيرات في الطلب كانت أهم من التغيرات في العرض، وكانت تشكل ما بين نصف وثلثي النمو في الواردات الأوروبية في العصر الحديث المبكر[١٩١].

لكن لماذا ظلت فجوة الأسعار مستقرة؟ من التفسيرات الممكنة لذلك أن هذه الفترة لم تشهد مدى التحسن التقني في بناء السفن الذي ميّز القرن الخامس عشر سابقاً والذي ميّز القرن التاسع عشر لاحقاً.

أوضح مينارد Menard أنه لا توجد أدلة على حدوث انخفاض منتظم في أسعار الشحن على طرق المحيط الأطلسي في تلك الفترة، وهي نتيجة تتفق مع فرضية عدم حدوث تحسن في التقنية الملاحية[١٩٢]. وثمة تفسير آخر يلقي باللائمة على المركنتيلية التي أدت بممارساتها الاحتكارية إلى الإبقاء على فجوات الأسعار عبر القارات عالية على نحو مصطنع، وأدت أيضاً إلى الحرب التي رأينا أنها كانت سمة دائمة الوجود في هذه الفترة. وهناك أدلة أسعار تدعم هذا التفسير الثاني أيضاً، حيث ارتفعت فجوات الأسعار في السلع الآسيوية- الأوروبية في أثناء الحرب الإنجليزية- الهولندية الأولى والثانية وحرب السبعة أعوام (راجع الشكل رقم ٦.٤)، كما ارتفعت أسعار السلع المستوْردة في بيرو في أثناء حرب الخلافة الإسبانية وحرب أُذن جينكنز بين إسبانيا وبريطانيا[١٩٣].

ثمة أدلة أخرى على أن التكاليف التجارية من كل الأنواع ظلت تشكل عائقاً كبيراً للتجارة، وهي الأدلة حول أنواع السلع التي كانت تشحن عبر المحيطات في ذلك الوقت. وكما يبيّن الجدول رقم (٨.٥)، فإن الغالبية الساحقة من الواردات الأوروبية من مناطق ما وراء البحار كانت سلعاً عالية القيمة نسبة إلى وزنها، وهي السلع التي

كانت تتحمل تكلفة النقل لأنها لم تكن تُنتَج في أوروبا. صحيح أنه حدث تطور على مر الزمن في مدى السلع المنقولة. لكن كما رأينا، كانت أهم عمليات النقل الأولى عبر المحيط الأطلسي والمحيط الهادي تتضمن التجارة في الحامض النووي، وكانت سفينة واحدة صغيرة تكفي لنقل الأنواع بين القارات التي كانت معزولة عن بعضها في السابق،

الجدول رقم (٥,٨). تركيب واردات ما وراء البحار إلى أوروبا إبان الفترة ١٥١٣–١٧٨٠.

(أ) الواردات من آسيا إلى لشبونة إبان الفترة ١٥١٣–١٦١٠ (بالنسبة المئوية للوزن)

	١٥١٣–١٥١٩	١٥٢٣–١٥٣١	١٥٤٧–١٥٤٨	١٥٨٧–١٥٨٨	١٦٠٠–١٦٠٣	١٦٠٨–١٩٦١٠
الفلفل	٨٠.٠	٨٤.٠	٨٩.٠	٦٨.٠	٦٥	٦٩.٠
التوابل الأخرى	١٨.٤	١٥.٦	٩.٦	١١.٦	١٦.٢	١٠.٩
النيلة	٠.٠	٠.٠	٠.٠	٨.٤	٤.٤	٧.٧
المنسوجات	٠.٢	٠.٠	٠.٠	١٠.٥	١٢.٢	٧.٨
أخرى متنوعة	١.٤	٠.٤	١.٤	١.٥	٢.٢	٤.٦
الإجمالي	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠

(ب) واردات شركة الهند الشرقية الهولندية إلى أوروبا إبان الفترة ١٦١٩–١٧٨٠
(النسبة المئوية لقيمة الفاتورة)

	١٦١٩–١٦٢١	١٦٤٨–١٦٥٠	١٦٦٨–١٦٧٠	١٦٩٨–١٧٠٠	١٧٣٨–١٧٤٠	١٧٧٨–١٧٨٠
الفلفل	٥٦.٥	٥٠.٤	٣٠.٥	١١.٢	٨.١	٩
التوابل الأخرى	١٧.٦	١٧.٩	١٢.١	١١.٧	٦.١	٣.١
المنسوجات	١٦.١	١٤.٢	٣٦.٥	٥٤.٧	٤١.١	٤٩.٥
الشاي والقهوة				٤.٢	٣٢.٢	٢٧.٢
العقاقير والعطور والأصباغ	٩.٨	٨.٥	٥.٨	٨.٣	٢.٨	١.٨
السكر		٦.٤	٤.٢	٠.٢	٣.٧	٠.٦
الملح الصخري		٢.١	٥.١	٣.٩	٢.٦	٤.٤
المعادن	٠.١	٠.٥	٥.٧	٥.٣	١.١	٢.٧
أخرى متنوعة		٠.٢	٠.١	٠.٤	٢.٣	١.٧
الإجمالي	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠

(ج) واردات شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى أوروبا إبان الفترة ١٦٦٨–١٧٦٠
(النسبة المئوية لقيمة الفاتورة)

	١٦٦٨- ١٦٧٠	١٦٩٨- ١٧٠٠	١٧٣٨- ١٧٤٠	١٧٥٨- ١٧٦٠
الفلفل	٢٥.٢٥	٧.٠٢	٣.٣٧	٤.٣٧

تابع الجدول رقم (٥,٨).

	١٦٦٨- ١٦٧٠	١٦٩٨- ١٧٠٠	١٧٣٨- ١٧٤٠	١٧٥٨- ١٧٦٠
المنسوجات	٥٦.٦١	٧٣.٩٨	٦٩.٥٨	٥٣.٥١
الحرير الطبيعي	٠.٦	٧.٠٩	١٠.٨٩	١٢.٢٧
الشاي	٠.٠٣	١.١٣	١٠.٢٢	٢٥.٢٣
القهوة	٠.٤٤	١.٩٣	٢.٦٥	
النيلة	٤.٢٥	٢.٨٢		
الملح الصخري	٧.٦٧	١.٥١	١.٨٥	٢.٩٧
أخرى متنوعة	٥.١٥	٤.٥٢	١.٤٤	١.٦٥
الإجمالي	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠

(د) المبيعات السنوية المقدرة للواردات الاستعمارية في إنجلترا وهولندا إبان الفترة ١٧٥١–١٧٥٤

	المبيعات الإجمالية (بالألف بيزو)	النسبة المئوية للمبيعات من آسيا	من الإجمالي
المنسوجات	٦٧٥٠	٤١.٧	٢١.١
الفلفل	١١٠٠	٦.٨	٣.٤
الشاي	٢٨٠٠	١٧.٣	٨.٧
القهوة	١٠٠٠	٦.٢	٣.١
التوابل	١٨٥٠	١١.٤	٥.٨
أخرى متنوعة	٢٧٠٠	١٦.٧	٨.٤
الإجمالي من آسيا	١٦٢٠٠	١٠٠.٠	٥٠.٥
		من أمريكا	من الإجمالي
السكر	٨٠٥٠	٥٠.٨	٢٥.١
التبغ	٣٧٠٠	٢٣.٣	١١.٥
أخرى متنوعة	٤١٠٠	٢٥.٩	١٢.٨
الإجمالي من أمريكا	١٥٨٥٠	١٠٠.٠	٤٩.٥
إجمالي واردات ما وراء البحار	٣٢.٠٥٠		١٠٠.٠

المصدر : Prakash (1998, pp. 36, 115,120) and Steensgaard (1990, p. 12)

وهو النقل محدود السعة الذي ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية. وكانت الفضة السلعة التصديرية التالية في الأهمية من العالم الجديد، وهي أيضاً سلعة ثمينة جداً، فيما احتفظت التوابل بأهميتها التقليدية في التجارة الآسيوية- الأوروبية. وفي وقت ما حول منتصف القرن السابع عشر، بدأت المنسوجات الهندية تهيمن على واردات الشركات من آسيا، وهذه أيضاً كانت سلعاً فاخرة في أغلب الأحيان، وكانت صناعة المنسوجات الأوروبية لا تستطيع أن تنافس نظيرتها الهندية حتى ذلك الحين. وفي هذه الأثناء، كانت الفضة قد بدأت تترك أهميتها النسبية لصالح "السلع الاستعمارية" من نوع السكر والتبغ في صادرات العالم الجديد، وهذه أيضاً كانت سلعاً لا تُزرَع بسهولة في المناخ المعتدل لأوروبا الغربية. وبدأت التجارة العابرة للقارات تدريجياً تتضمن سلعاً أضخم شيئاً فشيئاً، لكنها مع ذلك لم تتضمن في الغالب الأعم التجارة واسعة النطاق في مواد ضخمة مثل الحبوب أو الحديد التي كان يمكن إنتاجها بسهولة على جانبي المحيط.

وعلى ذلك، فإن الدعائم التقنية والجيوسياسية للعولمة كانت أضعف كثيراً قبل العام ١٨٠٠ منها بعد ذلك. ومع ذلك تبقى حقيقة أن تجارة أوروبا مع بقية العالم نمت كثيراً إبان القرون الثلاثة التالية للعام ١٥٠٠. ويبدو أيضاً أن هناك ارتباطاً إحصائياً واضحاً بين التجارة عبر المناطق والازدهار في تلك الفترة. ويرى أجيموغلو Acemoglu وآخرون أن معدل التحول الحضري في الاقتصادات الأوروبية "الأطلسية" (إنجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال وإسبانيا) كان ١٠,١٪ فقط في العام ١٥٠٠، وهو معدل أقل منه في بقية أوروبا الغربية (١١.٤٪) أو آسيا (١١.٥٪)[١٩٤]. لكن بحلول العام ١٧٠٠، كان التحول الحضري أعلى في أوروبا الأطلسية (١٤.٥٪) منه أي من المنطقتين الأخريين (١٣.١٪ في بقية أوروبا الغربية و١١.٦٪ في آسيا)، واتسع هذا الهامش أكثر بحلول العام ١٨٠٠ (١٩.٨٪ في مقابل ١٦.٩٪ و٨.٩٪ فقط على التوالي). وتوضح إحصاءات الناتج المحلي الإجمالي نمط النمو غير المتكافئ نفسه في القوى الاستعمارية البحرية الخمس التي وقفنا على ثرواتها في هذا الفصل والفصول السابقة. وبالمثل وجد

ألين Allen علاقة إحصائية قوية بين التجارة والنمو في أوروبا إبان العصر الحديث المبكر، وخَلُصَ إلى أن "الازدهار التجاري العابر للقارات كان عاملاً أساسياً دفع أوروبا الشمالية- الغربية إلى الأمام"[١٩٥]. وتكشف نتائج ألين أن أكثر من نصف التحول الحضري في إنجلترا خلال تلك الفترة يمكن إرجاعه إلى التجارة المتنامية، وبالتالي إلى الامبريالية البريطانية[١٩٦].

يتعامل ألين مع تجارة كل أمة باعتبارها متغيراً خارجياً يعكس أهمية القوة العسكرية في انتزاع التجارة لصالح هذه الدولة أو تلك. ويقول إن "بعض الدول كانت ناجحة في السباق نحو بناء الإمبراطورية، فيما فشلت دول أخرى"[١٩٧]. ونحن نتفق كلياً مع استنتاجه بأنه في السياق الجيوسياسي لذلك العصر، كان من الأفضل أن تبذل الدول قصارى جهدها في هذا السباق. على أننا لا نقول بأن الحرب كانت مفيدة للنمو في ذاتها. فكما يشير موكير Mokyr، فإن "إيطاليا بعد العام ١٤٩٠، وهولندا الإسبانية بعد العام ١٥٨٠، وألمانيا وأوروبا الوسطى بعد العام ١٦٢٠، وأيرلندا بعد العام ١٦٥٠، والسويد بعد العام ١٧٠٠، كلها أمثلة لمجتمعات تقوض ازدهارها بسبب التأثير المباشر للنزاع المسلح"[١٩٨]. ويعد سكان جنوب شرق آسيا والأفارقة المستعبدين من سكان الأمريكتين التعساء أمثلة أخرى لشعوب خسرت نتيجة للامبريالية الأوروبية خلال تلك الفترة. كما أننا لا ننكر أيضاً أن التجارة الحرة كانت أفضل مقارنة بالقيود الثنائية للمركنتيلية، وكما سنرى في الفصل السابع، فإن إزالة هذه القيود والبيئة السلمية عموماً إبان القرن التاسع عشر كانت العامل الرئيس وراء الازدهار التجاري الاستثنائي في هذا القرن. وما نود أن نقوله هو أنه في العالم المركنتيلي الصفري (أو السالب حتى)[٦٤] كان يجب على الدولة أن تفوز في حروبها، لأن القوة كانت مهمة فعلاً في بلوغ الوفرة، وأن الأساطيل الملكية جلبت منافع عسكرية لبريطانيا العظمى فضلاً عن المنافع الاقتصادية. وبتعبير ديفيد أورمرود، فإن "حدود النمو في العصر ما قبل الحديث كانت تقررها الجغرافية

---

(٦٤) راجع حاشية سابقة حول المجموع الصفري zero-sum [المترجم].

السياسية، أي قوة الدولة ومدى الحماية البحرية المتوفرة للشحن التجاري في المياه البعيدة"[١٩٩].

لكن ماذا كانت العلاقة- إن وجدت- بين التجارة والإمبراطورية كما ناقشناها في الفصل الحالي من جانب، والحدث الذي وسم الانتقال إلى الحداثة الاقتصادية، وهو الثورة الصناعية، من جانب آخر؟ هذا هو الموضوع الذي سنتحول إليه في الفصل التالي.